البدايات والنهايات

قراءة أخرى للقصص القرآني

الجزء الثاني

محمد القلاوي

البديل للنشر و التوزيع
Al-Badeel Publishing and Distribution
الطبعة الأولى
2024

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية 2023/12/6531
البدايات والنهايات - قراءة أخرى للقصص القرآني والنبوءات الكتابية عن آخر الزمان
محمد، محمد القلاوي – البديل للنشر والتوزيع
رقم التصنيف: 228.2
الواصفات: قصص القرآن/ النبوءات / أمثال القرآن / القرآن الكريم
* يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى

ISBN 9789923551523 ردمك

جميع الحقوق محفوظة

البديل للنشر و التوزيع
Al-Badeel Publishing and Distribution

عمان – الجبيهة – شارع أحمد الطراونة
مقابل البوابة الشمالية للجامعة الأردنية – بناية رقم 25
هاتف: 00962790088632
Publishing@albadeelpublishing.com

❖ **لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله أو إستنساخه بأي شكل من الأشكال دون إذن خطي مسبق من الناشر.**

Copyright ©

❖ *All rights reserved. No Part of this book may be reproduced, or transmitted in any form or by any means, electronic or mechanical, including photocopying, recording or by any information storage retrieval system, without the prior permission in writing of the publisher*

محتويات الجزء الثاني

الفصل الأول 631
البمحث الأول: قصة يوسف في القرآن........ 631
يوسف من الأسر إلى الغواية........ 634
يوسف وحيداً في البئر........ 635
يعقوب يتلقى الخبر........ 637
يوسف يُباع في مصر 637
يوسف وامرأة العزيز 638
قميص يوسف يتمزق........ 640
القصة تشيع وتنتشر 641
من السجن إلى القصر!! 644
يوسف في السجن 646
يوسف يدعو إلى الله 647
حلم الملك........ 649
يوسف يَلقى إخوته. 652
يوسف يكشف عن نفسه لإخوته ويحتال لاستبقاء أخيه 654
النبوءة تتحقق........ 657
نهاية القصة 657
أم يوسف في القرآن 659
ختام السورة........ 659
ثانيا: مفردات العقيدة الإسلامية في سورة يوسف 665
مصر والغيث........ 667
الشيطان في قصة يوسف 668

الشيطان في القصة القرآنية..670

إن شاء الله وعقيدة القدر 672

الأيمان والقسم 672

أكثر الناس 674

المصريون والملائكة..675

لماذا كره إخوة يوسف أخاهم؟ 682

هل أرسل يعقوب يوسف إلى إخوته؟ 685

كيف تلقى يعقوب الخبر؟ 685

لماذا يذهب الجميع؟..686

قوافل الجمال؟ 687

الجمل - أيضا - عند أيوب..688

هل عرف المصريون حقا الجمَل في تلك الفترة؟..690

الجمَل في القرآن 690

يهوذا وثامار 693

يوسف في بيت فوطيفار 694

يوسف في السجن 694

يوسف يفسر الحلمين 695

حلم فرعون 696

هذه الطريقة وعلميتها 697

المصريون وتفسير الأحلام..698

إذن لماذا عجز المصريون ؟..699

كيف أصبح فرعون مصر ملكا دستوريا؟ 701

صواع الملك أم كاس التفاؤل ؟ 702

هل كان يوسف يتفاءل؟!... 704
من كنعان إلى مصر على الحمير؟.. 707
فرعون أم ملك؟ 708
ما فعل يوسف للمصريين؟ 710
هل عرف المصريون الحصان في ذلك العهد؟ 711
يوسف بن يعقوب يسترق المصريين لفرعون..................................... 711
فرعوني أم هكسوسي ؟ 712
هل كان المصريون حقاً بحاجة إلى يوسف؟! 713
هل بشَّر يوسف بإلهه بين المصريين؟.. 714
لماذا ضن يعقوب ببنيامين؟.. 716
هل كان يعقوب نبيا ؟.. 718
هل كان يعقوب موحداً؟... 718
هل إسحاق ويعقوب أخوان؟.. 720
يعقوب وفرعون.. 723
يعقوب يبارك فرعون مصر 725
وصية يعقوب... 726
هذا عن اللغة فماذا عن المضمون؟ 728
جنازة يعقوب 729
خاتمة.. 730
تبنى يوسف 735
يوسف ونسوة المدينة... 736
المصريون والملائكة.. 739
يوسف يدعو المصريين إلى الله الواحد 740

طلب الاستغفار من يعقوب وشفاعته.. 742
لا تدخلوا من باب واحد 744
وصية يعقوب لبنيه.. 748
هل نسى يعقوب ابنه الحبيب ؟ 750
ثانيا: القصص المحتملة.. 752
لولا أن رأى برهان ربه 752
(وكانوا فيه من الزاهدين) 756
وشهد شاهد من أهلها 760
نسيان الساقي 763
يوسف والكأس السحرية 767
يعقوب التلمودي بين النبوة وبين التنجيم 771
من الهاوية إلى الجنة أو النار 774
قصتان خرافيتان 780
ما وراء تلك القصة 787
خاتمة... 790
هل حدثت تلك القصة حقا؟!.. 790
دانيال يفسر الأحلام.. 791
الفرق بين الروايتين 793

الفصل الثاني

الجن في القرآن الكريم 799
المبحث الأول: الجن بين الجاهلية وبين الإسلام 801
ما الجن ؟.. 802

الجن والشيطان في القرآن الكريم 820
إبليس أصل الجن 821
الجن قبل البشر 832
لم خلق الله الجن ؟! 832
العلاقة بين العالمين 836
حظ الجن من الآخرة ونعيمها 837
الجن في الأحاديث النبوية 839
النبي يتعوذ من الجن 841
اعتقاد النبي في قدم تلك التعاويذ 842
أصناف الجن 842
أحد مؤمني الجن يدفع عن مؤمن الإنس شيطانيين من الجن ! 843
الجن يقتلون صحابياً 843
الجن والقنفذ 845
الجن يخلصون النصح أحياناً 845
الجن تتشكل في صور شتى! 846
من الجن الذكور والإناث 847
حيات البيوت 848
النهي عن الخوف من ثأر الجن 849
المبحث الثاني: قصة النبي والجن في القرآن الكريم 851
أولا: حول القصة 851
المخيال المحمدي 853
متى وقعت تلك القصة ؟ 858
أين وقعت هذه القصة ؟ 863

كيف فهمت تلك القصة العجيبة ؟... 864
مثال آخر للتخبط والتحير.. 869
كيف فهم التقليديون تلك القصة ؟... 871
كم كان عدد الجن المؤمنين؟!.. 872
متى نزلت تلك السورة ؟.. 874
ما الذي كان يتلوه النبي عندما سمعته الجن؟.. 875
الجن يسلمون!.. 880
(ولن نشرك بربنا أحدا).. 881
الجن في سورة الأحقاف.. 909
خاتمة.. 922
ثالثا: تعقيب وقصة !.. 925
قصة سحرة فرعون المؤمنين.. 928
السحرة في سورة الأعراف.. 928
السحرة في سورة الشعراء.. 930
السحرة في سورة طه... 932
المبحث الثالث... 939
هل يفلح التأويل ؟!... 939
اولا: التأويل.. 940
ما التأويل؟... 942
حدود التأويل بين السعة والضيق... 942
صعوبة التأويل الديني.. 945
أغراض التأويل الديني:.. 946
هل أفلحت تلك التأويلات؟!... 953

ثانيا: التأويل الصوفي في الإسلام بين رفع دلالات المنطوق وبين التأويل الخالص....... 954
الجن عند الإسماعيلية 956
الشيخ ابن عربي والجن.. 957
الفارابي والجن. 960
المؤولون المحدثون.. 961
خاتمة.. 967
معجزة لغوية... 967
الغول.. 971
الشيطان والإجارة 976
الشعر والشياطين.. 977

الفصل الثالث

القصص في الأحاديث النبوية 981
أولا: تمهيد عن القصص في الحديث النبوي 983
ثانيا: قوانين التفكير النبوي الأساسية 985
لماذا اعتقد النبي في هذا؟.. 987
الشيطان والأنبياء 988
مصائر من يخرجون أنبياءهم.. 993
الأنبياء والمنافقون ! 994
الأنبياء والنساء 998
التآمر على حياة الأنبياء... 1001
شياطين الإنس والجن 1002
قوانين عامة أخرى من القرآن الكريم.. 1003

ثالثا: السنن والقوانين العامة من الأحاديث النبوية:... 1005
الأنبياء والمعجزات.. 1006
الأنبياء لا يورثون 1009
خصائص الأنبياء 1012
الأنبياء ورعي الغنم 1013
الأنبياء يُخيرون عند موتهم.. 1014
وضوء الأنبياء وهيئات صلاتهم وسننهم في الصوم 1016
رابعا: قوة التصور النبوي:.. 1018
التجسيم والتجسيد.. 1020
تسليم الأحجار على النبي.. 1021
معاينة الجنة والنار ! 1021
الشيطان وكيده! 1023
أنياب الكلاب.. 1024
النبي يرى حوضه في الآخرة.. 1026
الأنبياء يحجون إلى مكة ! 1027
الإسراء والمعراج ولقاء الأنبياء ووصفهم.. 1029
النبي يرى من خلف ظهره 1031
النبي وعذاب القبر 1032
خاتمة وتمهيد 1043
سادسا: نماذج من القصص في الأحاديث النبوية : 1046
الحديث الأول آدم وداود 1046
الحديث الثاني موت آدم 1055
الحديث الثالث عقيدة القدر بين آدم وبين موسى.. 1061

الحديث الرابع الملك الهارب إلى الله..1067
الحديث الخامس النبي سليمان يطوف على نسائه ! 1073
الحديث السادس يوشع والشمس 1081
عقوبة الغلول 1089
النبي محمد والغلول..1091
هل حقاً حرمت الشريعة اليهودية الغنائم ؟..1092
الحديث السابع رجل المقبرة 1093
الحديث الثامن سارة الفاتنة والجبار 1096
شيعة إبراهيم...1099
الحديث التاسع الملك الذي أعجب بأمته 1108
الحديث العاشر موسى وملَك الموت 1117
الحديث الحادي عشر قصة جريج العابد 1121
الحديث الثاني عشر هاجر وسارة...1126
هاجر وإسماعيل في التوراة..1133
أصل هذه القصة الحديثية...1137
أصل شعيرة السعي بين الصفا والمروة 1139
تأصيل الحج في الإسلام 1140
المتألي على الله...1150
النبي الذي قرصته نملة ! 1152
النبي الذي شجه قومه ! 1155
ثامنا: الشريعة الأزلية:...1156
عقيدة يهود عصر النبي...1156
معالم الشريعة الأزلية 1163

صلاة الأنبياء في الأحاديث النبوية..1169
استقبال القبلة..1171
الاعتكاف في المساجد..1173
تاريخ الصوم في الإسلام 1175
صوم النبي في مكة 1175
صوم عاشوراء...1178
أياماً معدودات 1181
صوم رمضان 1183
كيف كانت صورة صوم رمضان؟..1184
شهر عربي وصوم يهودي!...1186
آيات الملاعنة..1190
متابعات وتشريعات مهجورة...1193
دفن الموتى والنساء 1195
استرقاق المدين..1197
المصادر والمراجع 1219

الجزء الثاني

1- قصة يوسف
2- قصص الجن
3- القصص في الأحاديث النبوية

الفصل الأول

المبحث الأول: قصة يوسف في القرآن
المبحث الثاني: قصة يوسف في التوراة
المبحث الثالث: يوسف ويعقوب في الأساطير التلمودية

المبحث الأول: يوسف في القرآن الكريم

أولا: تسلسل القصة في القرآن.

لعل أيسر سرد لقصة نبي من بين جميع الأنبياء الذين ذكرهم القرآن الكريم هي قصة يوسف ؛ لورود قصته كاملة في تلك السورة التي تحمل اسمه، ولأن هذه السورة ـ كما تذكر كتب علوم القرآن من السور القليلة التي نزلت كاملة، ولا تنجيم فيها على خلاف كثير غيرها من سور القرآن ـ ولذلك فلا نجد ذكراً ليوسف خارج تلك السورة سوى ذكر اسمه مرة واحدة في سورة غافر، ولكن ذلك جاء في معرض قصة أخرى، وهي قصة ذلك المؤمن الباسل من آل فرعون، والذي صدع بإيمانه، وذكر مخاطبيه من المصريين بأن يوسف قد أدى رسالته وبلغ دعوته إلى أهل مصر منذ زمن بعيد، وهو ما سنتناوله لاحقاً في مبحث خاص عن مصر في القرآن الكريم.
هذه السورة ـ أيضاً ـ تأتي على جميع ما أورده القرآن عن النبي يعقوب في ذات القصة، فلا ذكر ليعقوب خارج تلك السورة سوى إشارات مقتضبة؛ لذا سيكون هذا الفصل عن يوسف وعن يعقوب ـ معاً ـ ، مع إدراج تلك الإشارات التي جاءت عنهما بعد الفراغ من تلك السورة.
ولمَّا كانت قصة يوسف ومعها قصة موسى وإن جاءت تلك الأخيرة موزعة عبر سور القرآن، يمكن وصفها بأنها سيرة حياة شخصية ودعوية معاً، وفيها تعرض قصة هذا النبي من البدء إلى الختام على خلاف بقية القصص القرآني عن الأنبياء، فهي قصة لدعوتهم فقط عبر إيراد ما قالوه لأقوامهم ومضمون رسالاتهم، وليس فيها سوى أقل القليل عن حيواتهم الشخصية؛ لذا سنعرض قصة يوسف بقدر أكبر من التفصيل قياساً بغيرها من القصص القرآنية الأخرى، والتي سنكتفي بإيراد عقائدهم الدينية كما تتجلى في القرآن، وسنبدأ هنا بقصة يوسف عبر عرض السورة القرآنية كاملة، وتقديم ملخص تفسيري سريع لها، فالقصة واضحة إلى حد كبير، ونسوق من خلال هذا الملخص ملاحظاتنا الأولية عن صورتي يوسف ويعقوب وعقيدتهما في الله كما جلاهما القرآن ، ثم نتبعها بقصة يوسف كما رواها الكتاب المقدس مدققين على ذات النقاط التي تعنينا دون سواها، تاركين بعض النقاط التي تحتاج إلى تفسير وبيان إلى موضعها عند عرضنا للمقارنة بين ما جاء فيها مع الرواية التوراتية والقصص التلمودية.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ١ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ٢ نَحۡنُ نَقُصُّ
عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ٣
إِذۡ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي
سَٰجِدِينَ ٤ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ
لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٥ وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ
عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ
حَكِيمٞ ٦ ۞ لَّقَدۡ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخۡوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٞ لِّلسَّآئِلِينَ ٧ إِذۡ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ
إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٨ ٱقۡتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطۡرَحُوهُ أَرۡضٗا يَخۡلُ
لَكُمۡ وَجۡهُ أَبِيكُمۡ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ ٩ قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ لَا تَقۡتُلُواْ يُوسُفَ
وَأَلۡقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّ يَلۡتَقِطۡهُ بَعۡضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ١٠ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا
تَأۡمَ۬نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ١١ أَرۡسِلۡهُ مَعَنَا غَدٗا يَرۡتَعۡ وَيَلۡعَبۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ١٢
قَالَ إِنِّي لَيَحۡزُنُنِيٓ أَن تَذۡهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَأَنتُمۡ عَنۡهُ غَٰفِلُونَ ١٣ قَالُواْ لَئِنۡ
أَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّآ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ١٤ فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجۡمَعُوٓاْ أَن يَجۡعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ
ٱلۡجُبِّۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمۡرِهِمۡ هَٰذَا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ١٥ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ عِشَآءٗ
يَبۡكُونَ ١٦ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ وَمَآ أَنتَ
بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ ١٧ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖۚ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ
أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ١٨ وَجَآءَتۡ سَيَّارَةٞ فَأَرۡسَلُواْ

وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ
بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ
أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ
مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ
أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾

يُوسُف [1-22]

يوسف من الأسر إلى الغواية

تستهل السورة في الآيتين الأوليين، وقبل الدخول إلى القصة نفسها ببيان قرآني واضح يقرر بأن معرفة النبي بتلك القصة من دلائل نبوته، فهي من وحي الله إليه، وأن النبي كان غافلا عنها؛ أي غائبة عنه وبأشباهها،

ولم يكن من سبيل لكي يعرفها ويعرف أمثالها إلا عن طريق الوحي الإلهي وتعليم الله إياه. وسوف نحاول أن نفسر - فيما بعد - كيف يستقيم هذا التقرير القرآني في هذه القصة - وفي غيرها من القصص -، مع معرفة أهل عصر النبي بها، خاصةً من أهل الكتاب - إذ كانت حاضرة ومعها معظم قصص القرآن في كتابهم المقدس الرسمي أو في الكتابات الدينية الأخرى خارجه، ومن المعلوم أن تلك القصة وأشباهها كانت ذائعة شائعة ليس فقط بين يهود ونصارى العرب، بل كانت معروفة، مشتهرة بين طلاب المعرفة الدينية من العرب الذين ألموا بها وبغيرها من القصص الكتابي، سواء عن طريق مخالطة أهل الكتاب أو قد عرفوها عبر قراءتها في الكتاب المقدس مباشرة، ولكن لا يعنينا الآن سوى أن النبي قد قدمها إلى مستمعيه كبرهان على تعليم الله له، وأنها وحي مباشر من الله إليه.

يسوق القرآن - من الآية الرابعة - القصة مباشرة، فيوسف يعلن حلمه المذهل لأبيه، حيث رأى أحدَ عشر كوكباً والشمس والقمر رآهم له ساجدين، وهنا نجد الأب

المشفق يوصي يوسف بكتمانها عن إخوته؛ خشية كيدهم بوسوسة وتحريض من الشيطان، ثم يعلمُه بأن تلك الرؤيا الجليلة، ليست سوى إشارة إلى اصطفاء الله له في المستقبل بالنبوة، وأن آيته ستكون قدرته على تعبير الرؤيا وتفسيرها بوحي من الله، وفي الحقيقة أنه قد خفي علينا إدراك وجه التلازم والارتباط بين أن يرى يعقوب في رؤيا ابنه إشارة إلى ما ينتظره في المستقبل من الفضل الإلهي، وبين أن يستنبط منها تلك المزية ؛ أي بأن يوسف سيوهب القدرة على تفسير الأحلام! ، وهي على كل حال خصوصية لا شبيه لها من بين معجزات الأنبياء، خاصةً أن القرآن لم يجعل من يوسف مجرد نبي، بل جعل منه رسولا من الله إلى الناس.!

ثم يحكى لنا القرآن ما كان من تآمر إخوة يوسف عليه؛ لتفضيل أبيه عليهم، واصفين أباهم بالضلال المُبين لهذا التفضيل الظالم، ثم يتشاورون في التخلص منه، كي تخلُص وتصفوا لهم محبة هذا الأب المولع بهذا الابن المحبوب، وبعد تلك الفعلة يغسلون أياديهم من تلك الجريمة النكراء، ويلزمون طريق الصلاح، وبعد مداولة سريعة، نراهم يستقرون على الاكتفاء ببيعه دون قتله بتدخل من أحد إخوته، الذي راعُه سفك دم أخيه الصغير.

يوسف وحيداً في البئر

بعدها- وقد تم لهم ما أرادوا - ، نجد يوسف في قاع بئر عميقة وحيداً،

إلا أن الله يوحى إليه بأنه سيتجاوز تلك المحنة، وسوف يُنبئ إخوته بتلك الفعلة الشنعاء بعد حين، ولكن إذا تذكرنا أن يوسف كما تروي التوراة كان في السابعة عشرة من عمره،(تك 37: 2)، وأن السياق القرآني يدل دلالة واضحة على أنه كان دون هذه السن بكثير كما سنرى، فلنا أن نتساءل عن نوع هذا الوحي الذي تلقاه يوسف في تلك السن الصغيرة، خاصة وأن ما تلقاه يوسف لم يكن مجرد نفث في الروع ليمنحه شعورا بالطمأنينة النفسية في ذلك الجُب المخيف، بل تلقى رسالة كانت تحمل خبراً ومعرفة بأنه سيتجاوز تلك المحنة، وأنه سيلقي إخوته في مقبل الزمان، وسينبئهم بما فعلوا دون أن يعرفوه، ومن الملفت للنظر، وربما كان ذلك بسبب من الإيقاع اللاهث للسورة أنها تخلو تماماً من أي أثر يُفهم منه بأن يوسف كان على علم بما سيؤول إليه حاله، أو أنه كان يترقب رؤية إخوته ولقائهم، بل بدا كما في الرواية التوراتية كما لو أنه نسيّ تماماً أمر تلك الفترة الباكرة من حياته، وعاش في بيئته الجديدة، مُسدلا الستار على ما مضى

وانقضى، فلم يفكر مثلاً أن يسأل عن أبيه أو إخوته، على الأقل طوال تلك السنين السبع المزدهرة - ولا ننسى أن الرجل كان هو الآمر الناهي في مصر كلها، فلم يكن عليه سوى أن يبعث بمن يأتيه بأخبارهم.

يعقوب يتلقى الخبر

ثم يعود السياق بعدها إلى إخوة يوسف، وقد عادوا إلى أبيهم عشية ليسوقوا إليه النبأ الفاجع، وهنا يجلي لنا القرآن يعقوبا كما ينبغي أن نتوقع من نبي مُعَلم، عظيم الثقة في وعد ربه، فلم يصدق الرجل - ولو لبرهة واحدة - بأن ابنه الموعود بالمجد الروحي والدنيوي قد قضى، بل وجه اتهامه إلى بنيه مباشرة بأنهم - ولا بد - قد أوقعوا به شراً، ولكنه لا يعلم يقيناً ما فعلوا، ولكنه سيعتصم بالصبر الجميل، مستعيناً بالله على مكرهم، وماذا كان في إمكانه أن يفعل سوى ذلك؟ ، فقد بذل ما في وسعه من الجهد لحفظه وصيانته لكن أما وقد خرج الأمر من يده فلم يعد أمامه سوى الاستسلام العميق أمام أقدار الله التي لا غالب لها.

يوسف يُباع في مصر

بعدها ينتقل السياق إلى يوسف فإذا به يُلتقط من البئر، ويساق ليباع كبضاعة رخيصة بدراهم معدودة، ومثلما يبيع أي بائع أحمق غافل درّة نفيسة؛ لأنه لا يرى فيها سوى صدفة فارغة، فقد باعه النخاسون الذين كانوا من الزاهدين فيه، ولكن الدرّة - على كل حال - كان من يستحقها في انتظارها، فلم يُشتر يوسف من بين أهل مصر كلها سوى رجل مصري نبيل، حيث نراه ينزل يوسف - ومنذ اللحظة الأولى لرؤيته - منزلة حسنة في نفسه ؛ فها هو يوصي امرأته بأن تكرمه، ولا تعامله كعبد مُشترى، فمن يدري لعلهما ينتفعان به، أو يتبنيانه كابن لهما، وهذا ما يذكرنا بموسى، وقد حرضت امرأة فرعون زوجها على تبنيه عندما رق قلبها للرضيع المنتشل من الماء.
تمضي السنون على يوسف مكرماً في بيت هذا المصري النبيل، وسيعتبر القرآن أن ما أحرزه يوسف من مكانة في بيت هذا الرجل المصري أول خطوة لبلوغ ما ينتظره من رتبة سامية؛ لأن الأحداث التي هي في ظاهرها مؤسفة محزنة، ستكون هي بذاتها سبيله إلى المجد والرفعة .

إذاً، فقد نما يوسف في هذا البيت، وصار نبيا بدلالة: (حُكماً وعلماً)، وأوضح منها دلالة كلمة (المخلَصين)، وقد أتت هذه الآية برُكني الصراع كله، فيوسف قد نضج واكتمل بهاءُه، وهو سيجلب له عواصف الغواية من ناحية، ومن ناحية أخرى فقد منح الشاب القسيم النبوة والحكمة التي ستعصمه من الانجراف مع تلك المرأة المنفلتة، وسيكون هذا الصراع هو السبب الحاسم في الصعود، ولكن سيسبق تلك الرفعة ما سنراه

من السقوط العابر في وهدة السجن، ولكنها - في النهاية - ليست سوى عدة سنين وستنقضي.

يوسف وامرأة العزيز

﴿ وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٣ وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ٢٤ وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ قَالَتۡ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٢٥ قَالَ هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ فَصَدَقَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٢٦ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ فَكَذَبَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٢٧ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ ٢٨ يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَاۚ وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَاطِـِٔينَ ٢٩ * وَقَالَ نِسۡوَةٞ فِي ٱلۡمَدِينَةِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفۡسِهِۦۖ قَدۡ شَغَفَهَا حُبًّاۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٣٠ فَلَمَّا سَمِعَتۡ بِمَكۡرِهِنَّ أَرۡسَلَتۡ إِلَيۡهِنَّ وَأَعۡتَدَتۡ لَهُنَّ مُتَّكَـٔٗا وَءَاتَتۡ كُلَّ وَٰحِدَةٖ مِّنۡهُنَّ سِكِّينٗا وَقَالَتِ ٱخۡرُجۡ عَلَيۡهِنَّۖ فَلَمَّا رَأَيۡنَهُۥٓ أَكۡبَرۡنَهُۥ وَقَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّ وَقُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٞ كَرِيمٞ ٣١ قَالَتۡ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمۡتُنَّنِي فِيهِۖ وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ فَٱسۡتَعۡصَمَۖ وَلَئِن لَّمۡ يَفۡعَلۡ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسۡجَنَنَّ وَلَيَكُونٗا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ٣٢ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ٣٣ فَٱسۡتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنۡهُ كَيۡدَهُنَّۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٣٤﴾ [يُوسُف : 23 – 34]

قبل الدخول في قصة يوسف وامرأة العزيز، ربما من المفيد أن ننقل طرفاً من أقوال المفسرين حول سن يوسف وسن صاحبته، فقد رأى - صاحب الظلال - بأن يوسف وقت أن جيء به إلى بيت العزيز : (كان حوالي الرابعة عشر تنقص ولا تزيد) معللاً ذلك: (بأن خاطر التبني لا يرد على النفس عادة إلا حين لا يكون هناك ولد، ويكون هناك يأس أو شبه يأس من الولد ؛ فلا بد وأن تكون قد مضت على زواجهما فترة يعلمان فيها أن لا ولد لهما، وعلى كل حال فالمتوقع أن تكون (سنها) حينئذ حوالي الثلاثين، ونتوقع كذلك أن تكون سنها أربعين سنة عندما يكون يوسف في الخامسة والعشرين أو حواليها وهي السن التي نرجح أن الحادثة قد وقعت فيها [1]) .

إذاً، ووفق هذا التقدير المقبول المعقول، حدث أن راودت امرأة العزيز يوسف عن نفسه، وبذلت له نفسها دون مواربة أو تعريض، بل هكذا: (هيت لك!)، ولكن يوسف، وكما ينتظر من نبي كريم، فقد رفض هذا العرض الصفيق، مستعيذا بالله من فعل السوء، ومقارفة القبيح في حق الرجل الذي أكرم مثواه.

أفاض المفسرون في شرح دلالة تلك الكلمة المحيرة (وهمّ بها) على أقوال لا تخرج عن نظرتين أولاهما : نظرة مغرقة في تنزيه الأنبياء حتى من الخواطر النفسية فمالوا إلى تأويلها، من قبيل: همّ بدفعها أو حتى همّ بضربها، والنظرة الأخرى - وعليها أغلب المفسرين - تقول بأن يوسف لم يتجاوز همه الميل النفسي في لحظة من اللحظات، فلما أن رأى برهان ربه في ضميره وقلبه بعد لحظة الضعف الطارئة تلك حتى عاد إلى الاعتصام والتآبي، وهذا التفسير الأخير هو المتوافق حقا مع النظرة القرآنية التي قدمها القرآن للرسل، وسنرى في خاتمة السورة ما يدل على هذا، من خلال التأكيد الواضح على بشرية الرسل الكاملة، فهو يقرره هنا على مستوى السلوك، وفي خاتمة السورة على مستوى الاعتقاد -أي من الاعتراف بإمكانية السقوط في هاوية الارتياب العابر، وبعبارة مختصرة : فهناك اعتراف قرآني كامل بحضور تلك الجوانب المظلمة في النفس الإنسانية، والإقرار بالصراع بينها وبين جانبها الأسمى، وهو أقصى ما يمكن أن تبلغه

---

[1] في ظلال القرآن ص 1979 نقلا عن كتاب د زاهية راغب الدجاني- يوسف في القرآن الكريم والتوراة - دار التقريب الطبعة الأولى 1994م ص 43

النفس الإنسانية من كمالات، فعلى الرغم من وجود نوازع الانحطاط والسقوط في أنفس جميع البشر، إلا أن الغلبة - في النهاية - تكون لجانب الرفعة والسمو، ولصالح الإيمان واليقين عند المصطفين الأخيار.

قميص يوسف يتمزق

ثم تُصور الآيات محاولة يوسف للهرب من تلك المرأة، ومحاولتها اللحاق به، مما أدى إلى تمزيق قميصه، وعند الباب كانت المفاجأة في انتظارهما ؛ فها هو العزيز يقف أمامهما مباشرة، ولم يكن من الغريب ألا يُرتَج على تلك المرأة، أو ترتبك أمام تلك المفاجأة ؛ لذا فقد بادرت بالهجوم، واتهمت يوسف بأنه أراد بها السوء، محرضة زوجها على سجنه، أو إنزال أليم العذاب به، ثم نرى يوسف يدفع تلك التهمة المشينة عن نفسه، مُعلناً لسيدُه بأنها هي مَن حاولت إغواءه، وهنا تنفرد القصة القرآنية بإضافة خاصة بها؛ فمن المعلوم أن الرواية التوراتية لا تذكر شيئاً عن هذا الجزء من القصة القرآنية ؛ أي قصة الشهادة بين الاثنين، فلم يكن من ضرورة لها ؛ إذ اكتفت التوراة بالتقرير على أن الرجل، وقد صدق ادعاء زوجته فزج بيوسف في السجن وكفى: (فكان لما سمع سيده كلام امرأته الذي كلمته به قائلة بحسب هذا الكلام صنع بي عبدك أن غضبه حمى فأخذ يوسف سيده ووضعه في بيت السجن)
(تكوين 39 -19-20).

يمكننا ألا نلتفت كثيراً إلى تزيُد المفسرين القدماء في الإفاضة في تفاصيل تلك الشهادة رغم أن القرآن قد أوردها على هذا النحو من الإبهام والغموض؛ إذ قال بعضهم بأن ذلك الشاهد كان طفلاً رضيعاً أنطقُه الله لإبراء يوسف من تلك الفِرية، والحقيقة أنه لو كان الأمر كذلك، لكانت معجزة في حد ذاتها، ولننوه القرآن بها، ولكانت أيضاً دلالة _من أهلها_ غير ذات معنى؛

إذاً، ما ضرورة أن يكون هذا الرضيع - أو لا يكون من أهلها - أمام تلك الخارقة الإلهية المعجزة؟! والمعنى المعقول أن الرجل المصري، وأمام هذا الالتباس وتلك الحيرة بين اتهام زوجته وإنكار عبده الوفي قد استشار رجلا حصيفا من أهل زوجته فقضى بهذا الحكم، ولما جاءت تلك القرينة لصالح يوسف - مع ما يغلب على ظن الرجل من براءة خادمه، وسوء ظنه في النساء ذوات الكيد العظيم، فقد اعتبر تلك القرينة - الضعيفة نوعاً

ما - كافية تماما لإبراء ساحته، وتوجه إلى امرأته بطلب التوبة والإنابة إلى الله من تلك الخطيئة المؤسفة.

وكما نرى فقد أبدى الرجل تسامحاً وتساهلاً عجيباً مع زوجه، فقد اكتفى حيث قد استبانت له براءة يوسف، وبأن الواقعة على كل حال لم تقع - و بأن أوصى يوسف بأن يضرب صفحاً عن تلك الواقعة، بل ويُحسن به أن ينساها تماماً، وكأن شيئاً لم يكن، ولكنه رغم ذلك، قد استبقى يوسف في بيته، ومن الطبيعي أن نتوقع من أي رجل آخر أن يصرفه بعيداً عن عين زوجته، ولكن هذا هو ما حدث.!

القصة تشيع وتنتشر

ولكن وكما يحدث في بلاط الأمراء ودهاليز القصور فلا شيء يُخفى، فقد تسربت القصة وشاعت في المدينة بأسرها، ولاكت القصة نساء العِلية، فلم تكن بطبيعة الحال امرأة العزيز لتتكلف دعوة نساء غير نساء طبقتها لتلتمس عُذرهن - فهن في النهاية مثلها نساء- إذا رأين بأم أعينهن أي جمال غلاب وقعت تحت سطوته، ولقد تحقق ظنها فعندما استضافتهن وأعدت لهن متكئاً، وقدمت لهن من الفاكهة ما تقطعه السكين، ودعت يوسف للتجلي فجأة أمامهن فهالهن جماله، ودهشن من بهاءُه، وجرحن أيديهن دون شعور بالألم، والأهم من هذا كله أنهن نطقن بتلك العبارتين المدهشتين:

حاشا لله - ملك كريم.

حاشا لله

والمعنى تنزيه الله سبحانه عن صفات العجز والتعجب من قدرته على خلق عفيف مثله[2]

---

[2] الكشاف للزمخشري(466- نقلا عن : جماليات النظم القرآني في قصة المراودة في قصة يوسف د عويض بن حمود العطوى الرياض 2010

ملك كريم

(وَالْوَجْهُ الثَّانِي: وَهُوَ الْأَقْرَبُ عِنْدِي أَنَّ الْمَشْهُورَ عِنْدَ الْجُمْهُورِ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ مُطَهَّرُونَ عَنْ بَوَاعِثِ الشَّهْوَةِ، وَجَوَاذِبِ الْغَضَبِ، وَنَوَازِعِ الْوَهْمِ وَالْخَيَالِ فَطَعَامُهُمْ تَوْحِيدُ اللَّهِ تَعَالَى وَشَرَابُهُمُ الثَّنَاءُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى، ثُمَّ إِنَّ النِّسْوَةَ لَمَّا رَأَيْنَ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهِنَّ الْبَتَّةَ وَرَأَيْنَ عَلَيْهِ هَيْبَةَ النُّبُوَّةِ وَهَيْبَةَ الرِّسَالَةِ، وَسِيمَا الطَّهَارَةِ قُلْنَ إِنَّا مَا رَأَيْنَا فِيهِ أَثَرًا مِنْ أَثَرِ الشَّهْوَةِ، وَلَا شَيْئًا مِنَ الْبَشَرِيَّةِ، وَلَا صِفَةً مِنَ الْإِنْسَانِيَّةِ، فَهَذَا قَدْ تَطَهَّرَ عَنْ جَمِيعِ الصِّفَاتِ الْمَغْرُوزَةِ فِي الْبَشَرِ، وَقَدْ تَرَقَّى عَنْ حَدِّ الْإِنْسَانِيَّةِ وَدَخَلَ فِي الْمَلَكِيَّةِ.[3]

ونرجو ألا نتجاوز حدود الاستنباط المعقول عندما نقول إننا نرى في قول النسوة المصريات - واصفين يوسف بأنه ملك كريم - بأن هذا القول كما أنه يشير إلى جمال يوسف الذي يفوق جمال البشر في الدرجة، فهو كذلك من حيث النوع - إن صح هذا التعبير - فهو على هذا جمال قدسي طهور، يتنزه صاحبه عن عوارض البشرية وشهواتها، تماما كالملائكة.

ولو صح هذا الفهم لكان هذا القول ليس بمستغرب صدوره فقط من نسوة ينتمين ثقافياً إلى بيئة وثنية لا تعرف الملائكة أصلاً، بل يستغرب صدوره - كذلك - لو جاء على لسان امرأة عبرية من أهل تلك الفترة وهي تصف رجلاً جميلاً؛ لأنه ورغم حضور تلك المخلوقات في عقيدتها الدينية التي تحفَّل بالإشارة إلى الملائكة، ولكن عبراني ذلك الزمان لم يكونوا يعرفون الملائكة على تلك الصورة التي تنزههم عن صفات البشر، فقد كانوا يأكلون ويشربون، والأهم من ذلك كله يتزاوجون ببنات الناس -شريطة أن يكن حسناوات- كما يذكر سفر التكوين لتفسير وجود الجبابرة، والذين هم نتاج التزاوج بين أبناء الله وبنات الناس - ودع عنك التفسير المسيحي الذي يفسر بأن أبناء الله هم أبناء {قايين}، وبنات الناس المراد بهن بنات {هابيل} فهو تأويل لا معنى له إن كان المقصود هو تفسير مصدر القوة الخارقة لهؤلاء الجبابرة، فضلا على أن إنجيل لوقا قد استخدم تعبير أبناء الله بأنهم الملائكة :

(لا يستطيعون - أيضا - لأنهم مثل الملائكة وهم أبناء الله إذ هم أبناء القيامة) (لوقا 20- 36)، وقد سبق وفصلنا القول في تلك القضية في قصة نوح.

---

[3] راجع تفسير الفخر الرازي ج18 ص دار إحياء التراث العربي - بيروت الطبعة: الثالثة - 1420 هـ 449

كما لم تحكِ التوراة شيئاً عن قصة الشهادة، فلم تأت - أيضا - على ذكر قصة النسوة اللاتي ثرثرن بقصة امرأة العزيز وهيامها بفتاها، ولكننا نعتقد أنه قد استلزم حضور القصتين في القرآن لسببين :

أولهما التأكيد الجازم على براءة يوسف، والسبب الآخر - وربما كان الأهم -، وهو بيان ما كان يتمتع به يوسف من جمال أسطوري، وهو جمال فاق بكثير تقدير التوراة التي اكتفت في وصفه: (وكان يوسف حسن الصورة وحسن المنظر) (تكوين 39 -6) وهو جمال يبدو من الواضح أنه قد ورثه من أمه الراحلة:

(وأما راحيل فكانت حسنة الصورة وحسنة المنظر) (تكوين 29 -18).

أما القرآن فقد منح يوسف هذا القدر الكبير من البهاء، وأكدته الأحاديث الصحيحة التي ذهبت إلى أبعد من ذلك فقد: (أعطي يوسف وأمه شطر الحسن[4])، سواء أكان المقصود نصف جمال البشر أجمعين، أو جمال المخلوق الأول - آدم - والذي هو أبهى ما خلق الله؛ لأن الله خلقه بيديه، وسواء أكان هذا أو ذاك فلا نشك في أن المرويات التلمودية المتأخرة قد ساهمت في صنعها حتى تضخمت وجاءت على هذا النحو العجيب كما سنرى.

أما كيف فسر المفسرون القدامى تلك العبارات المستغرب صدورها وأمثالها من شخصيات تلك البيئة الوثنية، ففي الحقيقة لم ير المفسرون القدامى غرابة كبيرة في ذلك فابن كثير يقول: (وأهل مصر وإن كانوا يعبدون الأصنام إلا أنهم يعلمون أن الذي يغفر الذنوب ويؤاخذ بها هو الله وحده لا شريك له في ذلك، ولهذا قال لها بعلها وعذرها من بعض الوجوه لأنها رأت ما لا صبر لها على مثله إلا أنه عفيف برئ العرض سليم الناحية فقال: (واستغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين [5]

ولكن إذا كان هذا المفسر القديم، وقد ساغ له قبول تلك المفاهيم وأمثالها عند المصريين، لأنه كان ينطلق من أساس قريب من التصور الإسلامي عن تلك الأزمنة القديمة وعقائد أهلها فإننا نجد مفسراً حديثاً كالأستاذ سيد قطب (1905- 1965) يرجع وجود أمثال تلك العبارات العجيبة على ألسنة المصريين إلى ما أسماه:

---

[4] صحيح الجامع الصغير وزيادته - محمد ناصر الدين الألباني - المكتب الإسلامي - بيروت الطبعة الثالثة -1408 :هـ (1063)

[5] قصص الأنبياء - ابن كثير الدمشقي - مطبعة الأنوار المحمدية - القاهرة الطبعة الأولى 2001م ص 224

(وهذه التعبيرات دليل- كما قلنا في تقديم السورة- على تسرب شيء من ديانات التوحيد في ذلك الزمان[6].)، وهو تأويل نرى أنه فضلاً عن خطأه واستحالته، فهو فائض عن الحاجة ، ولا لزوم له كما سنرى.

بعدها تنتقل الآيات إلى امرأة العزيز، فنراها وقد استخفها الظفر وعذرتها النسوة في صبابتها بهذا المخلوق الذي يتجاوز بهاءُه أفُق البشر، بل - كما يقول المفسرون - فقد دعونه إلى الاستجابة لرغبة سيدته، أو حتى لأنفسهن، فنراها وقد بلغت أكثر مما تريد، تنطق بتلك العبارة العجيبة الناطقة بإصرارها على أن يواصلها خادمها ولو رغم أنفُه، تحت سطوة الوعيد بالسجن أو التعرض للصَغار والإذلال؟، وتلك لعمري جرأة غير متصورة من سيدة بقي لديها أي مقدار من الرشد؛ أي بأن تطلب وصال عبدها علانية وهي المتزوجة من رجل له مكانته في المجتمع.

أما عن يوسف، وقد ضاقت عليه الحلقة، وبعد أن أضيف إلى تلك الطامعة في جماله نسوة أخريات، فقد التجأ إلى الله لحمايته من الغواية التي أصبح غير قادر -إن تُرك وشأنه ودون عون من الله - على أن يقاومها، ولكن الله استجاب لدعاءه فصرف عنه كيدهن جميعا وغيبهن عن ناظريه .

وهنا تحدث نقلة مفاجأة في الأحداث حيث لا يخبرنا القرآن عن علة إلقاء يوسف في السجن بعد ظهور تلك البراهين الساطعة على براءته سواء- من شهادة الشاهد، أو باعترافها علانية أمام صويحباتها - سوى ما يمكن أن نستنتجه من أنهم رأوا أن خير حل لهذا الإشكال، وإسكاتاً للأفواه التي لاكت هذه القصة في المدينة كلها أن تغيّب تلك الفتنة وصاحبها في السجن.

من السجن إلى القصر!!

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٣٦ قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي

[6] الظلال ج4 ص1984

تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ
وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ
وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ
ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ
بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ
ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ
فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ۚ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ
مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾ وَقَالَ
ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ
يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا
نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ
فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ
سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ
سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ
سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ
يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [يوسف : 36 - 49].

يوسف في السجن

بريئا طاهر الذيل دخل يوسف السجن، ويبدو أن نعمة القبول كانت على أتمها في يوسف، فكما أحبه العزيز من النظرة الأولى، فقد حاز ثقة وتقدير مرافقيه في السجن؛ إذ نراهما يصفانه بأنه من المحسنين، وفي السجن - أيضاً- بدأ يتجلى نفع الأحلام وتأويلها، وصرنا على علم بمغزى اختصاص الله ليوسف بتلك الهبة الفريدة،

فمن خلالها ستتجلى رحمة الله به وبخلقه جميعا في تضافر عجيب بين ما سيتحقق ليوسف من مجد ورفعة، وبين ما سيعود على الناس جميعا من نفع وخير.

قبل الدخول في الأحلام وتفسيرها، فمن الضروري أن نلحظ دلالة التباين في الروايتين والتوراتية والقرآنية، فالتوراتية التي تجعل من يوسف هو من يطلب منهما أن يقصا عليه حلميهما: (وحلما كلاهما حلما في ليلة واحدة، كل واحد حلمه، كل واحد بحسب تعبير حلمه، ساقي ملك مصر وخبازه، المحبوسان في بيت السجن فدخل يوسف إليهما في الصباح ونظرهما، وإذا هما مغتمان فسأل خصيي فرعون اللذين معه في حبس بيت سيده قائلا: لماذا وجهاكما مكمدان اليوم فقالا له: حلمنا حلما وليس من يعبره. فقال لهما يوسف: أليست لله التعابير؟ قُصا علي) (تك 40-6-8)،

لكن الرواية القرآنية تجعلهما من يبادران ويطلبان من يوسف أن يفسره لهما ؛

لأنهما وجداه من المحسنين، مما يشير إلى الترابط الواضح عندهما بين التقوى ومظاهرها ؛ أي القرب من الله، وبين القدرة على تأويل الرؤى وحسن تفسيرها، وهو مفهوم إسلامي ظاهر حيث يوصى حديث نبوي:

(لا تُقَص الرؤيا إلا على عالم، أو ناصح [7])،وعلى كل حال فقد قص الرجلان على يوسف حلميهما، والذي أورده القرآن على نحو قريب من الرواية التوراتية، وكلتا الروايتين على كل حال تشيران إلى أن أهل مصر كانوا على اهتمام شديد بالأحلام ومعناها .

قبل أن يفسر يوسف حلمي السائلين، فقد أنبئهما بأنه سيقدم لهما برهاناً على صدق تأويله ؛ فلن يصل إليهما طعام إلا وقد أخبرهم مسبقاً به، وهذا ما يذكرنا بإحدى معجزات المسيح التي خصه القرآن بها من دون الأناجيل - وهي إشارة تدل - كذلك - على رفاه

[7] صحيح الجامع الصغير برقم (7396)

هذا السجن وتنوع أطعمته، ولا غرابة في ذلك، فالسجينين في النهاية من خواص الفرعون وحاشيته - وهي تفصيلة تستقل بها الرواية القرآنية، ولعلها أثر من آثار مروية تلمودية كانت شائعة زمن النبي، لكن لم نجدها فيما قرأناه من القصص التلمودية .

يوسف يدعو إلى الله

ثم نرى يوسف يرجع تلك المقدرة الفذة التي يتمتع بها إلى صاحبها الأول، ويعلن صاحبيه بأنها ليست بقدرة ذاتية له، بل نعمة سابغة وهبها الله إياه، بسبب من عقيدته الصحيحة وقويم إيمانه، ثم شرع لهم في تفصيلها - وإذا تغاضينا عن غرابة كلمة (تركتُ) ؛ فالرجل نبي ولد مؤمنا، والنبوة ميراث لأسرته منذ أجيال - وحتى لو كان المقصود بهؤلاء القوم هم أهل البيت الذي ربى فيه يوسف فقد رأيناهم وهم يؤمنون بالله ويستغفرونه ، بل سنجد مع الظهور الأخير لامرأة العزيز وأقوالها ما يشعر أنها تؤمن بالآخرة كذلك - وعلى كل حال ، فقد أخبرهما يوسف بأنه كآبائه إبراهيم وإسحق ويعقوب - يؤمن بالله وبالآخرة، وأنه بريء من الشرك وأهله، ثم نراه يشن حملة شعواء على تلك العقيدة المنحرفة عن الطريق الإلهي القويم، مؤكدا أن عبادة الله الواحد القهار خير من تلك المعبودات الزائفة التي لا حقيقة لها، والتي لا تضر عابديها ولا تنفعهم .

إذاً، في هذا المكان الغريب صدع النبي يوسف بدعوته، وأتى على أهم أركانها، وهو التوحيد والاعتقاد بالآخرة، وليس أغرب من هذا المكان للجهر برسالة إلهية سوى جمهور يوسف، فهما رجلان اثنان لا أكثر، وسيلقى أحدهما حتفه بعد ثلاثة أيام، وبعدها لن نرى أثرا للتبشير بالدعوة الإلهية على لسان يوسف في هذه السورة أو خارجها، ولو أن القرآن قد جعل من يوسف نبيا هدايته لنفسه أو لخاصته المقربين، لبدا لنا الأمر مفهوما مقبولا، ولكنه جعل منه رسولا من الله إلى الناس، ومنحه في مصر مكانة عظيمة كانت تصلح لبث دعوته لمَن يريد أن يسمعها، ولكننا نرى يوسف يكتفي بأن يهمس بها هنا في هذا السجن، كمَن يبرئ ذمته، وليس - أيضا - من طلب مباشر للإيمان بها من جمهوره - قل أم كثر -، ولكن من يدرى فلعله كان يخاطب آخرين إلى جانبهما، بل اكتفى بعرضها على هذا النحو الجذاب وتسفيه نقيضها من عقيدة الشرك، وهو ما يفترض بأن الرجلين كانا مشركين، وإلا فلا معنى لهذا البيان،ولكن مَن يدري - أيضا - فلعل ذلك قد حدث - ودون أن يتوقف القرآن ليخبرنا عنه، ولكنه يثير إشكالا حول تصور

النبي لمفهوم النبوة في تلك المرحلة ؛ فالنبي محمد من ناحية قد وافق التصور الكتابي الذي حصر النبوة في إبراهيم وذريته، ومن ناحية أخرى، فإن فهم النبي المتقدم لمقتضيات الرعاية والعناية الإلهية قد جعلته يفسح مجالات الهداية لتشمل جميع الأمم (وإن من أمة إلا خلا فيها نذير) وقد فصلنا ذلك في الجزء الأول، فليرجع إليه من يشاء.

لكن كما هو واضح - إن اقتصرنا على ما أورده القرآن - فقد غابت عن هذه الرسالة اليوسفية جميع مقومات الرسالة فليس من إبلاغ جهير، بل كانت مجرد فرصة لعرض عقيدته وعقيدة آبائه أو كما يقول صاحب الظلال : (وينتهز يوسف هذه الفرصة ليبث بين السجناء عقيدته الصحيحة؛ فكونه سجيناً لا يعفيه من تصحيح العقيدة الفاسدة والأوضاع الفاسدة، القائمة على إعطاء حق الربوبية للحكام الأرضيين، وجعلهم بالخضوع لهم أرباباً يزاولون خصائص الربوبية، ويصبحون فراعين![8])، وليس - كذلك - من معجزة تصلح لتحدي الخصوم وإفحامهم، سوى القدرة على تأويل الأحلام والتنبؤ بما سيقدم للمسجونين من طعام، وهي كما هو ظاهر، ليست بمعجزة يمكن أن يعتمد عليها رسول لبيان أنه مرسل من قبل الله، إلا لو جلس النبي يفسر أحلام أتباعه واحداً، واحداً، وهو كما لا يُخفى أمر غير معقول!، ومن ناحية أخرى فليس ثمة وعيد أو عقوبة للمكذبين الجاحدين، ولم يحدث أن قص علينا القرآن عن رسول دعا قومه إلى الله فكذبوه ثم أفلتوا بفعلتهم دون عقاب .

ثم بعد هذا البيان لعقيدته قدم يوسف التأويل الواضح للحلمين، فالرجل الأول سيخرج بعد ثلاثة أيام وستعود إليه حظوته عند الملك، وأما الآخر، فسيقضى الملك بقتله مصلوبا، ثم طلب يوسف من الرجل الذي بشره بنجاته أن يعرض قصته الأليمة بين يدي سيد البلاد . ولن يصعب علينا أن نتخيل وقع تواتر تلك الشواهد الدالة على صحة تأويل يوسف للحلمين مما كان يقدم إليهما من طعام خلال تلك الأيام الثلاث وفق ما يخبرهما يوسف به، وأثرها من الاستبشار والرجاء للرجل الموعود بالنجاة، وقسوة تحقق تلك الإشارات على البائس المسكين الذي سيعلق على الخشبة بعد أيام قلائل . ولكن ما أن خرج الساقي من السجن حتى نسي تماما ما وعد به يوسف، والحقيقة أنه يصعب علينا أن نتخيل أن ينسى هذا الناجي المجدود تجربته في السجن، أو نسيان مصير رفيقه التعس الذي كان يمكن أن يعلق بجانبه مصلوبا، ويترك في العراء حتى

---

[8] في ظلال القرآن ج4 ص1988

تنهش الجوارح رأسه، أو ألا يتذكر ذلك المفسر القدير الذي تحققت نبوءاته جميعا ، والذي بشره بنجاته وهلاك صاحبه دون أن تطفو تلك الذكرى - ولو مرة واحدة طوال سنين على عقله - ولكنه النسيان الثقيل الذي لا يتأتى حصوله إلا من الشيطان اللعين، وكان من جراء ذلك أن ظل يوسف في السجن بضع سنين!.

حلم الملك

ثم حدث بعد انقضاء تلك السنين أن رأى الملك رؤيا أفزعته، وبدت له عصية على التأويل، كما نلمح في تشككه في قدرة ملئه وخاصته على تعبيرها، ولكنه استشار بشأنها حكماء وكهنة بلاده، وكما هو متوقع،

فلم يعرفوا تأويلها، إذ لو عرفوا تأويلها لما كانت هناك هذه القصة، بل قالوا للملك في لغة جافة خشنة: بأنها أضغاث أحلام، وأنهم لا يعلمون لها تأويلاً أو تفسيراً، وهنا تذكر الساقي الغافل ما كان من يوسف وقدرته الفذة على التفسير والتأويل، فطلب الإذن بعرضها عليه في محبسه، ولم يتوان يوسف بالطبع في تأويل رؤيا الملك، بل قدم في ثناياها الحل الناجع لما تعنيه تلك الرسالة الإلهية التي أرسلها الله إلى الملك الوثني من قدوم سبع سنين من الرخاء والوفرة، تتبعها سبع سنين من القحط والبلاء، وتنتهي بعام تهطل فيه الأمطار بسخاء إيذاناً بانتهاء تلك المحنة المروعة، وهو أمر من المستغرب بأن يكون المصريون وهي أقدم حضارة زراعية في العالم يحتاجون إلى معرفته من رجل ينتمي إلى بيئة بدوية لا علم له بالزراعة، وتخزين الغلال، ولكنها النبوة.!

بعد أن قدم يوسف للملك هذا التأويل الشافي، طلب الملك أن يأتوه به، ولكن يوسف آثر ألا يتعجل الخروج من السجن، وهناك أي ظل من شُبهة يمكن أن تلاحق سيرته في المستقبل، فأعلن أنه لن يغادر محبسه قبل أن يفتح الملك بنفسه تحقيقاً شاملاً في تلك القضية القديمة، وتعلَن براءته الكاملة، فاستدعى الملك امرأة العزيز، ونسوة المدينة الثرثارات أمامه للشهادة،وقد أعجب النبي محمد بتلك التؤدة العجيبة التي تمتع بها يوسف، بل لقد صرح لنا بأنه ما كان ليستطيع الصبر كما صبر يوسف، ولبادر
بالخروج من السجن فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:
لو لبثت في السجن ما لبث يوسف ثم أتاني الداعي لأجبته[9]

[9] صحيح البخاري برقم 6992 وصحيح مسلم برقم 151

أما النسوة فقد بادرن بنفي أي قبيح عن يوسف وأعلنّ - ودون مواربة - أنه لم يستجب لهن : (وما لَمّحن به وأشرن إليه، من الإغراء الذي يبلغ درجة المراودة[10])، ولم تجد امرأة العزيز مفراً من الاعتراف الكامل بالحقيقة، خاصة إذا قبلنا ما استنبطه الأستاذ سيد قطب من تحولات شعورية ودينية استولت على هذه المرأة جراء تلك التجربة_وليس في الآيات ما يمنعها حقاً_، فقد أحبت يوسف حباً عميقاً بدل اشتهائه، وأنها قد قبلت عقيدته الدينية، فأعلنت في البداية أنها هي مَن قامت بمراودته وإغوائُه، وأنه صادق صدقاً تاماً في كل ما نطق به، ثم تكشف عن توقها لتقديره وإعجابه،
فهي وإن فاتها حب يوسف فلن تطيق أن تخسر احترامه أيضاً، فهتفت أمام الملأ بهاتين العبارتين الساطعتين وتلخص أولى تلك العبارات تحول شعورها:
(ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب، وأن الله لا يهدي كيد الخائنين)، وتلخص الثانية ما طرأ على عقيدتها الدينية من تغير حاسم:
(وما أبرئ نفسي، إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي، إن ربي غفور رحيم).
بعد أن استبان للملك الوثني وجه الحق في تلك القضية، وأُعلنت براءة يوسف من تلك الشبهة المُشينة، وأنه أهل للثقة تماماً فيما يوكل إليه من مهام فقد استدعاه الملك وقربه إليه، فطلب منه يوسف أن يوليه تلك المهمة الثقيلة التي تترتب على نبوءته، فأعطاه الملك سؤله على الفور، وهذا يعطينا برهاناً ساطعاً على عظيم الثقة التي أولاها الملك ليوسف، وتصديقه التام بوقوع الرؤيا التي رآها على النحو الذي تنبأ به يوسف، حتى دونما انتظار ولو لتحقق أي قدر يسير من تلك النبوءة التي سيستغرق تحققها الكامل خمس عشرة سنة، ولكن هذا هو ما حدث.!

في مقابل الرواية القرآنية - ومعها التوراتية - التي تجعل من ملك مصر رجلا سريع التصديق _حدَ الغفلة_ خاصةً إذا تذكرنا أن يوسف نفسه قد أدرك أن صحة تأويله لحلم رفيقيه في السجن يحتاج إلى برهان عاجل ليبرهن لهما على صحة تأويله، رغم أنها نبوءة ستتحقق بعد ثلاثة أيام فحسب لذا؛ أفما كان افضل للملك أن يطالب يوسف ببرهان على صحة هذا التأويل الذي يحتاج إلى سنين طويلة لكي يتحقق؟!، وعلى كل حال فما فات الروايتين القرآنية والتوراتية، لم يفت مؤلفي القصص التلمودية التي جعلت الفرعون المصري أكثر فطنة، وجعلته يرتاب في صحة هذه التأويلات التي

---

[10] في ظلال القرآن - سيد قطب - ج4 ص 1995

تحتاج إلى سنوات وسنوات لتتحقق، وجعلته يحتاج برهاناً عاجلا على صدق تلك النبوأت، فقدم له يوسف ما بدد له ارتيابه وجعله واثقا من أنه أمام رجل يغترف من الغيوب كما شاء: (لتكن هذه أمارة لك بأن كلامي صحيح، وأخبره أن زوجته التي تصادف أنها كانت تلد في تلك اللحظة أنها ستلد طفلا ذكراً، وأبلغه -أيضاً- أن غداً سوف يموت، وقد تحققت تلك النبوأت جميعا بالطبع مما جعل الملك يعطى جميع سلطاته ليوسف[11]).

ولنا أن نعتقد بأن تلك المرويات كانت أمام النبي خاصةً وقد رأينا كيف قدم يوسف لرفيقيه في السجن ما يجعلهما يطمئنان إلى صحة تأويله،

فمن الأفضل أن يقدم يوسف للملك شيئاً من ذلك.

[11] الأساطير ج2 ص 68

يوسف يَلقى إخوته.

﴿ وَجَآءَ إِخۡوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَعَرَفَهُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ قَالَ
ٱئۡتُونِي بِأَخٖ لَّكُم مِّنۡ أَبِيكُمۡۚ أَلَا تَرَوۡنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلۡكَيۡلَ وَأَنَا۠ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمۡ تَأۡتُونِي
بِهِۦ فَلَا كَيۡلَ لَكُمۡ عِندِي وَلَا تَقۡرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنۡهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ
لِفِتۡيَٰنِهِ ٱجۡعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ فِي رِحَالِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَعۡرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٦٢﴾
فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمۡ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَآ أَخَانَا نَكۡتَلۡ وَإِنَّا لَهُۥ
لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمۡ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبۡلُ فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ
وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمۡ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ رُدَّتۡ إِلَيۡهِمۡۖ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبۡغِيۖ
هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتۡ إِلَيۡنَاۖ وَنَمِيرُ أَهۡلَنَا وَنَحۡفَظُ أَخَانَا وَنَزۡدَادُ كَيۡلَ بَعِيرٖۖ ذَٰلِكَ كَيۡلٞ يَسِيرٞ ﴿٦٥﴾
قَالَ لَنۡ أُرۡسِلَهُۥ مَعَكُمۡ حَتَّىٰ تُؤۡتُونِ مَوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأۡتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمۡۖ فَلَمَّآ ءَاتَوۡهُ
مَوۡثِقَهُمۡ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ
أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ
فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَهُمۡ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغۡنِي عَنۡهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن
شَيۡءٍ إِلَّا حَاجَةٗ فِي نَفۡسِ يَعۡقُوبَ قَضَىٰهَاۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلۡمٖ لِّمَا عَلَّمۡنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ
لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [يُوسُف : 58 - 68].

تبدو القصة القرآنية في هذا الجزء شديدة التعجل لبلوغ النهاية، وتتميز بإيقاع لاهث وسريع للأحداث، حتى أنها تخلو من بعض المفاتيح الضرورية لفهم بعض أحداثها، فلم يشر القرآن صراحة كما أشارت التوراة إلى أن تلك الشدة والمجاعة كانت عامة شاملة،

وقد طالت الأرض كلها، مما يجعل من حضور من يسكن خارجها كإخوة يوسف وغيرهم أمراً مفهوماً، لكن ـ وكما هو واضح ـ فقد مرت سنون الرخاء، وجاءت سنون الشدة، وتوافد الناس إلى مصر من جميع البلاد المجاورة؛ كي يميروا أهلهم، ومن بينهم إخوة يوسف، والذين ما أن حضروا أمامه حتى عرفهم دون أن يعرفوه.

ثم نرى بعدها يوسف يسأل إخوته عن أخيهم من أبيهم، دون أن يسوق لنا القرآن كيف لم يعجب إخوة يوسف من علمه بأن لهم أخاً غير شقيق قد تخلف عنهم ولم يحضر معهم؟ وما ضرورة أن يطلب رؤيته أصلا؟ ولا ندري في الحقيقة مراد الآية على تلك الصورة التي صيغت بها؟ فهل قال لهم يوسف ذلك بعد أن اتهمهم بأنهم جواسيس، وقد جاءوا ليروا عورة الأرض، ثم أخبروه بحالهم شارحين له بأنهم إخوة لأب واحد وقد جاؤوا لشراء القمح، وأن لهم أخ مفقود منذ زمن بعيد، وآخر موجود، ولكن ضنّ أبوه به على أن يرسله معهم لتعلقه به فطلب يوسف منهم إحضاره إليه للتثبت من صدقهم كما تقول الرواية التوراتية، مُستبقياً أحدهم رهينة لديه لكي يعودوا إليه بهذا الأخ المزعوم؟ أم أن القرآن يقصد بأن يوسف قالها لهم بعلم من الله، وأنهم وافقوه على وجود هذا الأخ الذي عرف بوجوده دون أن يخبروه بشيء عنه؟
في الحقيقة هذا فرض بعيد؛ فلم نر أثراً لدهشتهم بعد أن أخبرهم يوسف بذلك، وسواء أكان هذا أو ذاك، فإن هذا الجزء من الرواية القرآنية قد جعل حتى أكثر المفسرين الراغبين عن النقل من الروايات الكتابية يعتمدون عليها إلى حد بعيد لإضاءة جوانب القصة القرآنية وشرحها مما يجعل من المعقول أن نفترض بأن تفاصيل بعض المرويات التلمودية كانت حاضرة في ذهن النبي ـ وقت تنزل السورة ـ فنراه يبني عليها دون أن يذكرها، وهذا الجزء من القصة يصح أن نعدّه من البراهين الداخلية القليلة على حضور أصل القصص القرآني في ثقافة النبي ومعارفه، وسنعود لاحقاً إلى تلك النقطة.

لكن يوسف قد رفق بإخوته وباعهم الطعام الذي أرادوا وأوفى لهم الكيل، مشجعاً لهم على العودة إليه بأخيه الصغير، ومذكراً لهم في الوقت نفسه بأنهم إن لم يأتوا إليه بهذا الأخ الصغير فلا ضرورة لعودتهم ثانية إليه، فلن يبيعهم شيئا بعدها، لكنهم وعدوه بإحضاره إليه، رغم إدراكهم صعوبة ذلك بدلالة قولهم:

(سنراود عنه أباه) ثم انصرفوا عائدين إلى بلادهم.

ثم تنتقل الآيات لتنقل لنا حديثهم مع أبيهم وحضه على أن يرسل أخاهم الأصغر معهم لكي يمكنهم العودة إلى مصر وشراء قمحها، وهنا يأبى يعقوب أن يأتمنهم ثانيةً على ابنه، مذكراً لهم بما سبق وأن فعلوه بيوسف، ولكنهم عندما فتحوا متاعهم وعثروا على بضاعتهم التي دسّها رجال يوسف دون علمهم في رحالهم فهموا مغزى هذه الرسالة الودية المشجعة، وعلى إثرها لان صعب يعقوب قليلا، واكتفي بأن يتعهدوا له بميثاق غليظ على ألا يفرطوا في أصغر أبنائه، أو أن يكيدوا له كما كادوا لشقيقه من قبل، ولما عاهدوه على ذلك أرسله معهم، موصياً إياهم بألا يدخلوا من باب واحد خشية أن تصيبهم عين حاسدة، معلناً لهم بأن تلك الاحترازات لن تغني عنهم شيئا مما قدره الله.

يوسف يكشف عن نفسه لإخوته ويحتال لاستبقاء أخيه

﴿ وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝٦٩
فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحۡلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلۡعِيرُ إِنَّكُمۡ
لَسَٰرِقُونَ ۝٧٠ قَالُواْ وَأَقۡبَلُواْ عَلَيۡهِم مَّاذَا تَفۡقِدُونَ ۝٧١ قَالُواْ نَفۡقِدُ صُوَاعَ ٱلۡمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ
حِمۡلُ بَعِيرٖ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٞ ۝٧٢ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ عَلِمۡتُم مَّا جِئۡنَا لِنُفۡسِدَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كُنَّا
سَٰرِقِينَ ۝٧٣ قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمۡ كَٰذِبِينَ ۝٧٤ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ
جَزَٰٓؤُهُۥۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٧٥ فَبَدَأَ بِأَوۡعِيَتِهِمۡ قَبۡلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسۡتَخۡرَجَهَا مِن وِعَآءِ
أَخِيهِۚ كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ
مَّن نَّشَآءُۗ وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ ۝٧٦ ۞ قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا
يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ۝٧٧ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٧٨ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ

أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَـٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَـٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَـٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَـٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَـٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَـٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَـٰبَنِىَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [يُوسُف : 69 - 87].

ما أن عاد إخوة يوسف إليه بأخيه حتى اختلى به، وكشف له عن نفسه وأطلعه على ما أنعم الله به عليه، ودعاه ليكتم عنهم هذا الأمر حتى يأتي وقته المناسب، ولكيلا يروعه بما سيكيد لهم به من اتهامه بالسرقة حتى يستبقيه معه. وما أن جهزهم ثانيةً حتى دسّ صواع الملك في رحل أخيه الأصغر ثم أوقفهم متهماً إياهم بالسرقة، ومجازاة الإحسان بالإساءة، مستدرجاً لهم إلى ما أراد، لكي يعلنوا بأنفسهم ما يعلمه مسبقا من عقوبة السارق عندهم من استرقاق السارق للمسروق منه، وهذا ما لم يكن من صلاحيات يوسف أن يفعله إلا نزولاً على حكمهم في أنفسهم؛ فالقوانين المصرية لا تجيز له ذلك ، وهو في النهاية موظف مصري يلتزم بقوانين المملكة وشرائعها، ونرجو ألا نكون مخطئين كثيراً بالقول إننا إذ نعتمد على تواتر التشريعات في الحضارات القديمة من

استرقاق المدين للدائن؛ فإنه يغلب على ظننا بأن عقوبة استرقاق السارق للمسروق منه قد تحضر من الأفضل، ويصعب علينا ألا تكون حاضرة في التشريع المصري[12].

أمام تلك الصدمة غير المتوقعة يورد القرآن على لسان إخوة يوسف؛ لكي يبرؤوا أنفسهم ويتنصلوا من جريمة هذا الأخ غير الشقيق عبارة عدائية غاضبة، لم نجد لها مقابلا في الروايات التلمودية، فقد قالوا بأن هذا الأخ إنما كان يتابع شقيقاً له في السرقة، وهي عبارة كما أوجعت قلب يوسف وجعلته يغمغم في داخله، مُستعيذاً بالله من شرهم، فقد أثارت كذلك حيرة المفسرين الذين لم يجدوا لها أثراً في المصادر الكتابية، فراحوا يتفننون في تقديم ضروب من السرقة، تشرف السارق ولا تنتقص منه، من قبيل أنه كان يسرق الطعام من بيت أسرته ويسربه خفية إلى الفقراء الساغبين، أو أنه سرق صنماً من بيت جده لأمه لكي يطوح به بعيداً وما إلى هنالك، والحقيقة أنها جملة لا مكان لها إلا في القصص الدرامية حيث تلزم للتأكيد على بيان شرهم في مقابل كرم يوسف ونبله، ومن يدري فلعلها صدى لمروية تلمودية كانت تعرض بابني راحيل التي سرقت أصنام أبيها ؟!.

أمام تلك البلية فقد قدموا عرضاً رفضه يوسف على الفور مُستعيذاً بالله من شناعته، بأن يحل أحدهم محل أخيه السارق، بعدها نراهم يتشاورون فيما بينهم، فأما أكبرهم فقد هاله أن يعود ليرى بعينيه ما سيحل بأبيه عندما يبلغه أن صغيره الذي كان يتعزى به عن يوسف قد بات سجينا ومسترقا هناك بعيدا في أرض مصر، موصيا إخوته بالعودة إلى الأب المسكين لكي يقصوا عليه ما حدث، وفي نقلة خاطفة، نراهم فجأة وقد أدوا تلك الرسالة إلى أبيهم والذي أجابهم بعبارة بالغة الغموض ، هي ذاتها العبارة التي قالها لهم عندما عادوا إليه وأخبروه كاذبين بمهلك يوسف، ولكنه يقولها لهم هذه المرة وهم _ويا للعجب_ صادقين، مما جعل المفسرين يتلمسون لفهمها المعقول وغير المعقول من التأويل، ومن ذلك قول ابن إسحاق : (لما كان التفريط منهم في بنيامين مترتبا على صنيعهم في يوسف قال لهم ما قال[13])!.

---

[12] نرجو يوفق باحث واسع الاطلاع على القوانين المصرية القديمة في العثور على ما يعضد هذا الحدس الذى لا برهان بين أيدينا عليه، وإنما نظنه ظنا ولو حدث ذلك فله - أو لغيره - أن يستخلص ما ينطوي عليه هذا الجانب من القصة القرآنية .

[13] ابن كثير قصص الأنبياء ص 323

أما عن استجابة يعقوب فما كان له _وهو النبي_ أن يفقد رجاءه في كرم الله بأن يرد عليه أولاده جميعاً: المفقود منهم، والأسير، والهارب من وجهه حتى لا يلقاه، ولكن هذا الفقد الجديد أثار لواعج حزنه القديم على يوسف الحبيب، والذي ما أن ذكر اسمه أمام بنيه حتى أثار حفيظتهم؛ فأغلظوا له القول على هذا النحو المقذع القبيح، لكنه لم يأبه للومهم له، وأعلن أن شكاته إلى الله وحده لا إليهم وأنه يعلم من الله ما لا يعلمون،
ثم دعاهم للعودة إلى مصر لكي يبحثوا عن يوسف وأخيه وألا يقنطوا، فليس القنوط واليأس من شيم المؤمنين الصالحين.

النبوءة تتحقق

على حالتهم تلك، عاد إخوة يوسف إليه مستعطفينه أن يبيعهم القمح، وأن يتصدق عليهم فيزيدهم شيئا من عنده، لفاقتهم وبؤسهم ودونما أي إشارة إلى طلب العفو عن أخيهم المسترق لديه، ولكن يوسف يفاجئهم بأن ذكَرهم بفعلتهم القديمة به وبأخيه مما جعلهم يتعرفون عليه،فبادروا بالاعتذار له، ولم يتوان يوسف عن إعلان صَفحُه الجميل عنهم، ودعاهم إلى العودة حاملين قميصه بالذات، ولكن لا كالمرة الأولى التي أكمدت قلب أبيهم، بل لكي يستعيد أباه ما فقده من جراء حزنه عليه، ربما وهو يمسك بيده قميصه القديم، وطلب منهم أن يرجعوا ومعهم هذه المرة جميع أهليهم، وما أن عادوا واقتربوا من بيت يعقوب حتى أنبأه قلبه، أو ربه - لا ندري - بحضور أثر يوسف وعبقه الزكي، وما أن نظروا أباهم بصيراً حتى طلبوا منه أن يستغفر لهم الله من خطيئتهم، وما أدخلوه عليه من الكرب، بعدها استغفر لهم أبوهم، وحضروا جميعا إلى يوسف الذي رفع أبويه على العرش لتتحقق النبوءة القديمة التي وعدها الله ليوسف وكان من أجل أن تتحقق فقد جرت أحداث تلك القصة جميعا، وشارك فيها جميع هؤلاء البشر دون أن يعلموا شيئا من خطط الله البعيدة التي لا تطالها قدرة الفهم البشري .

نهاية القصة

ثم تنتهي الرواية القرآنية عن يوسف وإخوته مباشرةً بعد تحقق النبوءة الإلهية، وبلوغ يوسف تلك المنزلة العظيمة في تلك البلاد البعيدة رغم جميع ما تعرض له من محن وابتلاءات عاصفة، فنراه هنا يناجي ربه بهذه الآية البديعة:

﴿ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾ [يُوسُف : 101]

.

ولقد أفاض المفسرون في شرح دلالة هذا الدعاء من يوسف والذي ينتظر مثله سوى من رجل على فراش الموت، أو من رجل يتمنى الموت ويتعجله، وأكثروا في شرعية أن يدعوا الإنسان ربه لكي يقصر مدته على الأرض، ويرحل عنها سريعا، ومدى توافق ذلك أو تعارضه مع ما جاء به النبي محمد من النهي عن تمني المرء الموت لضر يصيبه.

والحقيقة أنه لا موضع لهذا الكلام كله، فالقرآن وقد أنهى إلينا قصة يوسف بعد أن بلغت ذروتها ولم يتبق بعدُ مدارج أو عتبات للصعود، فليس أمام الرجل _بداهةً_ سوى أن يقضي ما قدره الله له من أيام على هذه الأرض، وعلى هذا فالقرآن يُحدِث نقلة _أمثالها كثيرة في القرآن_، ويجعل يوسف ينطق بتلك العبارة كما لو أنه استوفى عمره وأصبح يحس بقرب أجله على سبيل التخيل لا أكثر ، فنراه يدعو الله بهذا الدعاء الجليل متمنياً على أن يلحقه بأسلافه الصالحين.

هنا تنتهي القصة فقد حققت القصة القرآنية كل ما جاءت من أجله، وليس من ضرورة - على خلاف الرواية التوراتية التي أتت لبيان تأصيل وتفسير وجود العبرانيين في مصر- لذكر وفاة يعقوب ومن بعده يوسف، وعلى كل حال فما كان النبي محمد ليقبل أن يحنط يوسف ويعقوب وهما نبيان من أنبياء الله كما يفعل الوثنيون الكفار بموتاهم، بل لا نجد من الغريب أن يفترض النبي أنهما عندما ماتا قد غسلا وكفنا وصُلى عليهما صلاة الجنازة، ودفنا في التراب إلى غير ذلك مما تقتضيه آداب الشريعة الأزلية كما آمن بوجودها النبي - عليه السلام -، وسنعود إلى تلك النقطة لاحقاً.

لا يُخفى أنه لا ذكر لأم يوسف في جميع السورة القرآنية رغم أن الحوادث تتعلق بابنها - بل بابنيها -، فلم نسمع بوجودها، فضلا أن نسمع لها تعليقا عما جرى لهما مما يشير إلى غيابها - أيضا - من الخلفية النبوية كما غابت عن الرواية التوراتية - تماما - إلا في إشارة عابرة هذا نصها : (فقلنا لسيدي لنا أب شيخ وابن شيخوخة صغير مات أخوه وبقي هو وحده لأمه وأبيه يحبه)، ولكن لمَّا كانت تلك الرواية الأخيرة قد أخبرتنا

بموت راحيل بعد ولادة بنيامين في السفر السابق على قصة يوسف، فقد تباينت التفسيرات الكتابية بين أن المقصود كانت خالته وزوج أبيه (ليئة)، أو حتى الاعتراف البسيط بأن هذا الجزء من الرؤيا لم يتحقق، فليس من شأن الرؤى أن تأت مطابقة تماما كما رآها صاحبها مهما كان باراً صالحاً ، وسنرى مصداق ذلك عن الحديث عن الأحلام وتفسيرها في التلمود، ولكن الحقيقة أنه لو كان المقصود بأمه هنا خالته ليئة أو أي من نساء يعقوب لما كان هناك موضع في الرواية التوراتية لكلمة (وحده) ؛ إذ أن النسوة الثلاث جميعهن كانت لهن أولاد، مما يوحي بأن كاتب التوراة قد أصابه النسيان - كما يحدث له كثيرا - فقد كان يقصد راحيل دون سواها، وهو يضع تلك العبارة على لسان يهوذا مستعطفا يوسف، ومستدرا شفقته على تلك المسكينة البائسة التي فقدت ابنها الأول، وها هي تفقد الآخر - أيضا - إن لم يطلقه لها .

أم يوسف في القرآن

اختلف المفسرون المسلمون في هذه القضية، وسنسوق نقلا واحدا لابن كثير يبين لنا طرفا منها : (قيل كانت أمه قد ماتت كما هو عند علماء التوراة، وقال بعض المفسرين أحياها الله تعالى، وقال آخرون، بل كانت خالته (ليّا) والخالة بمنزلة الأم، وقال ابن جرير وآخرون، بل ظاهر القرآن يقتضي بقاء أمه حية إلى يومئذ فلا يعول على نقل أهل الكتاب فيما خالفه، وهذا أقوى والله أعلم[14]) وهذا الذي قاله الطبري - واستحسنه ابن كثير - هو أكثر الفهوم اتساقاً مع الرؤية القرآنية، فعلى هذا فقد اكتملت النبوءة، وجاءت كما ينبغي لها أن تجيء، وعليه، فقد اعتقد النبي إذن في بقاء أم يوسف حية حتى رأت ابنها وقد بلغ ما بلغ من مجد النبوة وأبهة الملك، ولا حرج عليه في مخالفة التوراة ، فلن يخصم هذا من انسجام روايته واتساقها، وهو ما نعني به دون سواه، ولكنه على حال يترك لنا هذا السؤال المشروع فإذا كان النبي قد اعتقد بقاء أمه إلى تلك الفترة فلماذا تجاهل القرآن تلك الأم المسكينة، وخص أباه بكل المشاعر التي يثيرها الفقد وأحزانه ؟ لذا فلا يستبعد أن تكون خلف تلك التفصيلة حكاية تلمودية تقول بإحياء الله أم يوسف لتشهد مجد ولدها، ثم عادت بعدها من حيث أتت.

ختام السورة

---

(14) ابن كثير قصص الأنبياء- ص 330

بعد الفراغ من قصة يوسف تأتي هذه الخاتمة التي تشع بالأسى وتزدحم بالتأملات الحزينة عن الاستجابة البشرية المؤسفة لنداءات الله للبشر عبر التاريخ، ومن ناحية أخرى، فقد نزلت تلك السورة كما يقول المفسرون في (عام الحزن) وهي كلمة كان نصيب النبي منها في البيان الإلهي أكثر من مجموع الأنبياء، ولن يخفى على أحد يقرأ هذه السورة حضوره وأثره فيها ﴿ ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۖ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ أَجۡمَعُوٓاْ أَمۡرَهُمۡ وَهُمۡ يَمۡكُرُونَ ١٠٢﴾ [يُوسُف : 102].

ففي البداية يلتفت الخطاب الإلهي إلى النبي مؤكدا ما قرره من قبل في مفتتح السورة بأن تلك القصة ليست سوى فيض من الإلهام وغيب من الغيوب التي كشف الله طرفاً منه لنبيه محمد : ﴿ وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ١٠٣﴾ [يُوسُف: 103].

في هذه الآية يمكننا أن نستبين حدود توقع النبي لمدى نجاحه أو إخفاقه في دعوته، وقدرا لا يخفى من روح التشاؤم في تلك المرحلة الباكرة من مراحل الدعوة - إذ كانت النذُر كافة تجعله يغلب على ظنه أنه لن يصيب في دعوته أكثر مما أصابه من قبله جُل الأنبياء - وعلى كل حال فهذه حال الأنبياء جميعا، إذ لا يستجيب لدعوتهم إلا القليل من البشر بسبب من الغفلة وغياب روح التدبر في آيات الله المبثوثة في العالم، والتي تقع تحت أنظارهم صباح مساء، ولكنهم لا يلتفتون إليها سواء بسبب من الغفلة أو الجحود والإعراض .

﴿ وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ ١٠٦﴾ يُوسُف : 106].

ثم تجلى الآية التي بعدها تصور النبي عن علاقة الناس بالله في جميع العصور، فإذا هي ثلة قليلة من المؤمنين صحيحي العقيدة، وهم الأنبياء وأتباعهم القليلون، ثم هناك الكثرة الكاثرة من البشر منذ آدم إلى مشركي العرب، والذين كانت لهم تلك العقيدة المنحرفة ذاتها ؛ فهم لا يؤمنون بالله إلا على نحو لا يخرجهم من الكفر، فهم يشركون مع الله آلهة أخرى، ويتخذون منهم شفعاء يبتغون إليهم الوسيلة، وسواء أكان الشرك المقصود هنا هو الشرك الحقيقي -أي من إشراك آلهة أخرى في العبادة يتخذونها كشفعاء ووسطاء بينهم وبين الله- وهذا ما يدل عليه سياق الآية أو اتسع ليشمل مظاهر الشرك الأخرى، والتي اعتبر النبي حضورها خصما ومنافاة للتوحيد الواجب لله، مثلما كان

شائعا في عصره من التمائم أو الحلف بغير الله أو الرقية أو الرياء الخ، فعلى كل حال فلم يصفُ التوحيد الخالص والواجب لله على مدى الدهور، بل كانت تشوبه دائما تلك الشوائب والانحرافات، وعلى هذا ليس بمستغرب أن يذكر المصريون أو غيرهم من الأمم الغابرة لفظ الله أو يستغفرونه أو ينزهونه، أو يعرفون الملائكة كما رأينا فقد كان النبي يتوقع أن يصدر عنهم جميع ما يمكن أن يتفوه به العرب المشركون في زمانه.

﴿ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ يُوسُف: 104].

ثم تقرر هذه الآية مدار عمل النبي وبواعثه، فليس من غرض له سوى أن يهدي الناس إلى الله ويدلهم على طريق الخير دونما غرض ذاتي، سواء أكان ماديا كأن يمنحوه أجرا على رسالته أو كان غرضا نفسيا، كأن يتسلط ويتملك عليهم.

﴿ أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ [يُوسُف : 107] .

ثم تأتي هذه الآية التي تصور حال النبي وشعوره الذي كان يراوح بين الرجاء بالنصرة في هذه الدنيا، أو يمضي فيه وفي قومه قدر الله، إن أصروا على كفرهم، فهو لا يدري مراد الله فيه، فهل يُعجل لهم العذاب في الدنيا كما حدث مع الأمم الغابرة الذين هلكوا جراء تكذيبهم، أو يقضي الله ويأذن بختام تلك التجربة الإلهية بقيام الساعة؟ ! وسنناقش في مبحث خاص تصور النبي في المصائر العامة والخاصة فيما بعد.

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ يُوسُف : 110.

ثم نلحظ في هذه الآية يقين النبي الذي لا يتزعزع في نصرة الله لأنبيائه، مهما اشتد الكرب وخفتت مظاهر التأييد، ففي اللحظة الأخيرة بعد أن يستفرغ النبي جهده كله،

ويلامس حدود طاقته الإنسانية المحدودة، بل وقد قاربوا -الأنبياء ومعهم المؤمنون- على اليأس من نصرة الله، وهنا تتجلى، وفي تلك اللحظة تلك الغاشية، ويأتي الله بنصره وينجي المؤمنين.

ولما كانت هذه النقطة تمثل جانبا من الرؤية الإسلامية للنبي، وما ينبغي له والتي هي في جوهرها توسط واعتدال طيب بين المبالغة في التقديس والتنزيه حتى عن الخطرات الشعورية التي لا حيلة لبشر فيها، وبين التساهل غير المقبول بالضعف البشري حتى نجد آباء بطاركة وأنبياء يرتكبون آثاما مروعة، ويقارفون خطايا غليظة يتورع عنها آحاد الناس، فبين هذا وذاك نجد القرآن يقدم هذه الصورة المعتدلة، وسنضطر هنا للوقوف وقفة قصيرة أمام هذه الآية من جانب ما جاء فيها من قراءات قرآنية صحيحة، فقد قرأت هذه الآية بروايتين مختلفتين أولاها ﴿ قَدۡ كُذِبُواْ﴾ أي أن الله قد أخلف وعده لهم، والأخرى ﴿ كُذِبُواْ ﴾ أي كذبتهم أقوامهم وكلا المعنيين لم يُرح راوي هذا الحديث: (أخبرني عروة بن الزبير، عن عائشة قالت له وهو يسألها عن قول الله: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾ قال: قلت: أكُذِبوا أم كُذِّبوا؟ فقالت عائشة: كُذِّبوا. فقلت: فقد استيقنوا أن قومهم قد كَذَّبوهم فما هو بالظن؟ قالت: أجل، لعمري لقد استيقنوا بذلك. فقلت لها: وظنوا أنهم قد كذبوا؟ قالت معاذ الله، لم تكن الرسل تظن ذلك بربها. قلت: فما هذه الآية؟ قالت: هم أتباع الرسل الذين آمنوا بربهم وصدقوهم، فطال عليهم البلاء، واستأخر عنهم النصر،

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾ ممّن كذبهم من قومهم، وظنت الرسل أن أتباعهم قد كذَّبوهم، جاءهم نصر الله عند ذلك [15]

والحقيقة أن الأمر أيسر من ذلك، وأن تحرُج السيدة عائشة لا ضرورة له ولا موضع؛ فالقراءة الأولى - كما نعتقد - هي الأكثر معقولية دون تلك الأخرى التي تقرر معنى هو في الحقيقة لا معنى له؛ أي بأن الأنبياء قد اعتقدوا بتكذيب أقوامهم لهم ؟ في مقابل

[15] أخرجه البخاري من حديث عروة بن الزبير برقم (4695)

القراءة الأولى التي تعبر لا عن اعتقاد المؤمنين، ناهيك عن الأنبياء بإمكانية أن يخلف الله وعده لهم بالنصرة والتأييد، بل هي تصف لحظة من لحظات الضعف الإنساني العابر التي تطال جميع المؤمنين - أنبياء وغير أنبياء -، والتي سرعان ما يثوب المؤمن بعدها إلى يقينه الكامل في تحقق وعد الله، فالقرآن وقد قرر البشرية الكاملة للرسل فمن غير المعقول أن ينزههم في لحظات الكرب الأليم والشدة الموجعة من أن تعبر ببواطنهم في تلك اللحظات تلك الخواطر، ونظير ذلك ما حكاه القرآن من موقف المسلمين، وقد أحيط بهم في الخندق إذ نراه يقول: ﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾ [الأَحْزَاب: 10 - 11]، وأوضح منه: ﴿ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾ [البَقَرَةِ: 214].

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ ﴿١٠٩﴾﴾ [يُوسُف: 109].

ثم تمنح هذه الآية مزيدا من التقرير التفصيلي عن طبيعة الرسل، فالأنبياء بشر من البشر فليسوا بملائكة، بل هم رجال من أهل الحواضر، فليسوا بداة أجلافاً، بل رجال استوفوا نصيبهم من الرقي العقلي والشعوري.

﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾ [يُوسُف: 111].

في هذه الآية الأخيرة يمكننا أن نستخلص بوضوح المعالم الأساسية لجميع القصص القرآني كما آمن بذلك النبي ومعه جميع المسلمين في كل العصور، فمن ناحية المصدر فهي وحي من الله، ومن ناحية الصحة التاريخية - فهي وإن حفلت بالمغزى والعبر- فهي مع ذلك قصص حقيقية، لا مجرد أمثال تضرب، وكذلك فإن هذه القصص، إنما تأتي تصديقا لما بين يديها، وفي هذه الآية ما يدل على الاعتراف الواضح بوجود نظير قريب لها مما أتى به النبي، ولكن القرآن يأتي بالرواية على الوجه الصحيح

دون ما علق بها من شوائب نالت من صحة نقلها أو من دلاتها ومغزاها، فالرواية القرآنية تأتي شارحة لما غمُض، ومفسرة لما أبهم، فهي على هذا الرواية الأصدق، وأنها - لا سواها - القول الفصل في مقابل تلك المرويات الأخرى، والتي يرى النبي أنها لالتباسها بالأغلاط والمخالفات كأنها ليست موجودة أصلاً وسوف نخصص ملحقا نناقش فيه تلك التفسيرات المتأخرة والتي تخالف بصورة صارخة هذا التقرير القرآني الواضح عن هذه القصص وتاريخيتها ومغزاها.

ثانيا: مفردات العقيدة الإسلامية في سورة يوسف

من يقرأ إذن هذه السورة القرآنية الجميلة، والتي تحكي لنا عن قصة من المفترض بأن أحداثها قد وقعت قبل عهد النبي بزمن سحيق، فلن يجد فيها القارئ أثراً واحدا لأي تصور أو مفهوم ديني أو ثقافي لأهل تلك الفترة، سواء أكانوا من المصريين الذين جرت وقائع تلك القصة في بلادهم، أو كانوا من العبرانيين القدماء أبطال تلك القصة الأساسيين، ولكنه يجد بجلاء كامل مفردات العقيدة الإسلامية كما جاء بها النبي محمد، ويجد تصورات بيئته الدينية ومفرداتها الثقافية.

فهناك وقبل كل شيء التوحيد الخالص كما جاء به الإسلام، بل ووحدة الدين بل واختصاص الله وحده دون سواه بالحاكمية في التشريع لعباده من دون الخلق، وهناك - أيضا - تسفيه وذم الشرك وآلهته التي لا تضر ولا تنفع، والمحاجة المنطقية لبيان فضل التوحيد على العقائد الشركية كما جاءت بألفاظها على لسان النبي محمد كما تعبر عنه هذه الآية على لسان يوسف : ﴿ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٤٠﴾ يُوسُف، وهي ذات ما جاء على لسان النبي محمد في سورة النجم : ﴿ إِنۡ هِيَ إِلَّآ أَسۡمَآءٞ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهۡوَى ٱلۡأَنفُسُۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلۡهُدَىٰٓ ٢٣﴾ النَّجم وهي ذات ما جاء قبلهما على لسان النبي العربي هود في سورة الأعراف: ﴿قَالَ قَدۡ وَقَعَ عَلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ رِجۡسٞ وَغَضَبٌۖ أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسۡمَآءٖ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ٧١﴾ الأَعۡرَاف :

ونخرج من ذلك بأن آلهة المصريين كانت في اعتقاد النبي كمثل ما سبقها من آلهة قوم عاد العربية البائدة، وهي بذاتها ما كانت يعبدها عرب الجزيرة وقت بعثة النبي، وغني عن القول بأن يوسف التوراتي ما كان له أن يقول شيئاً من هذا.

وهناك - كذلك - صفات الله كما جاء بها القرآن فالله كما جاء في هذه السورة على لسان أبطال تلك القصة: عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٦ يُوسُف :

﴿ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ۝١٨ يُوسُف

﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝٣٣ يوسُف ﴿ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ۝٣٩ يُوسُف ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ 40 ﴿*إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥٣﴾ [يُوسُف : 53]، ﴿ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ يُوسُف :64، ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ۝٦٧ يُوسُف ، ﴿ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝٨٧﴾ [يُوسُف : 87]، ولها شبيه على لسان إبراهيم ﴿ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ۝٨٨﴾ [يُوسُف : 88]، ﴿ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٩٠﴾ [يُوسُف : 90]، ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ۝٩٩﴾ [يُوسُف : 99]، ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ۝١٠٠﴾ [يُوسُف : 100]، ﴿ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۝١٠١﴾ [يُوسُف : 101]، الله ولى يوسف في الدنيا والآخرة (101) وهو مفهوم قرآني له شبيه كما في الأعراف : (أنت ولىّ في الدنيا والآخرة، والله هو ولى المؤمنين.

وإلى جانب صفات الله فهناك - أيضا - الاعتقاد في الحسد والعين وتأثيرها كما في نهى يعقوب بنيه من أن يدخلوا من باب واحد وهو من مشترك الثقافة بين النبي وبين يعقوب .

وهناك الملائكة وفق الصورة التي أتى بها الإسلام كما رأينا، ونجد كذلك الاستغفار والإنابة إلى الله بعد مقارفة الذنوب، سواء من المصريين أو من أبناء يعقوب.

وكذا، نجد عقيدة استغفار النبي للمؤمنين وهو ما يحسم الخلاف بين المفسرين على نبوة إخوة يوسف أو عدم نبوتهم، فلا معنى لأن يستغفر نبي لنبي، إلا إذا افترضنا أنهم لم ينالوا النبوة إلا بعد ذلك وهذا من شأنه أن يأخر زمن نبوتهم كثيراً .

ونجد ـ أيضا ـ مفهوم الشيطان الذي يغري بالعداوة بين الناس، ويزين لهم الشرور والآثام كما أتى به القرآن، ونجد عقيدة البعث والآخرة، والرجاء في قيامة الأموات، وهي عقيدة لا وجود لها عند عبراني تلك الفترة كما سنرى.

والى جانب تلك الملامح الدينية نجد إشارات إلى مفردات البيئة العربية، فالناس يتعاملون بالدراهم المضروبة، وهو ما نشك في وجوده في تلك الفترة الباكرة؛ إذ كانت المقايضة هي أساس المعاملات، ونجد البعير هو دابة الحمل والسفر، وسنتوقف لاحقا عند تلك النقاط.

مصر والغيث

رغم أن القرآن يذكر ما هو معلوم من وجود الأنهار في مصر ـ أي نهر النيل وفروعه الكثيرة ـ كما جاء في حديث فرعون عندما تباهى متفاخراً أمام موسى بأن الأنهار تجري من تحته على ما جاء في سورة الزخرف: ﴿ وَنَادَىٰ فِرۡعَوۡنُ فِي قَوۡمِهِۦ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَيۡسَ لِي مُلۡكُ مِصۡرَ وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ تَجۡرِي مِن تَحۡتِيٓۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴿٥١﴾ الزُّخْرُف:51.

إلا أننا نجد في هذه السورة ما يشير إلى الاعتقاد القرآني بأن مصدر الري والسقيا كان يأتي من المطر كما يتضح من ظاهر هذه الآية : ﴿ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ ﴿٤٩﴾ يُوسُف : أي، يأتيهم الغيث، وهو المَطرُ، مما يجعل من الممكن أن نتصور أن القرآن كان يرجع سبب القحط والشدة التي ألمت بالمصريين بأنه كان نتيجة انحباس المطر عنهم تلك السنين، ثم انفرجت الأزمة وأخذت تتوالى الأمطار بعد ذلك كعادتها، وهذا ما فهمه المفسرون جميعا وهم يشرحون هذه الآية : ﴿ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ49 أَيْ: يَأْتِيهِمُ الْغَيْثُ، وَهُوَ المَطرُ، وتُغل الْبِلَادُ، ويَعصرُ النَّاسُ مَا كَانُوا يَعْصِرُونَ عَلَى عَادَتِهِمْ، مِنْ زَيْتٍ وَنَحْوِهُ، وَسُكَّرٍ وَنَحْوِهُ حَتَّى قَالَ بَعْضُهُمْ: يَدْخُلُ (4) فِيهِ حَلْبُ اللَّبَنِ ـ أيضا [16].)

ولكن ـ كما هو معلوم ـ فإن ري أرض مصر كان ولازال يعتمد اعتمادا كاملا على الفيضان السنوي للنيل، وليس على سقوط الأمطار المباشرة، والتي قلما تنزل على مصر صيفاً أو شتاءً، حتى أننا نجد هذه العبارة التي تبين خصوصية مصر ربما من بين

(16) ابن كثير ج4 ص393

جميع الحضارات الزراعية القديمة (كان المصريون من بين مزارعي العالم الذين لم يتذمروا قط من أجل عدم نزول المطر إذ حباهم الله بنعمة النيل [17]).

ولا ندري ما السبب في ذلك إلا إذا اقترحنا أنه كان بسبب من ضغط الاعتقاد الدائم في التشابه البيئي، والذي كان من الشدة حتى إنه كان يزيح بعض المعارف التي تناقضه، ويجعل النبي ينساها وهو في حالته الإلهامية، رغم حضورها بين معارفه، وسنرجع إلى تلك النقطة عندما نتعرض لبعض الوقائع المماثلة التي جاءت من هذا المنظور التي تشترك جميعا في أنها تجمع بين معلومة تشكل استثناءً لقاعدة أخرى راسخة ثم يتم تجاهلها - في هذا الموضع - لصالح القاعدة المطردة، لأننا نرى بأن القول بالنسيان أو حتى الجهل وكفى لا يشكل تفسيرا كافيا خاصة مع تكرارها في أكثر من موضع.

الشيطان في قصة يوسف

يتفق الباحثون في تاريخ العقائد الدينية على أن حضور الشيطان - باعتباره تجسيدا للشر - لا يستلزمه شيء أكثر من وجود عقيدة توحيدية راقية، وشريطة أن تكون تلك العقيدة قد قطعت أشواطا بعيدة في تنزيه الإله، بحيث تستنكر أن يصدر منه الشر الذي لا يصدر إلا عن الأرواح الخبيثة أو الشيطان. وبينما يعزو الباحثون الغربيون غياب شخصية الشيطان الكوني عن المعتقد التوراتي إلى حرص محرري التوراة على وحدانية يهوه وتنقية مفهوم الإله الأعلى من أية ظلال قد تجنح به إلى ثنوية أو تعددية كان الدين الشعبي اليهودي ميالاً لها على الدوام فهناك رأي أكثر وجاهة وأكثر اتساقاً مع أجواء نصوص العهد القديم :(ولكن الأمر كما نراه هو أن غياب الشيطان الكوني واقتصار ممثل الشر في التوراة على دور ثانوي جدا، يرجع بالدرجة الأولى إلى قيام إشكاليتين رئيسيتين لم يتوصل الفكر التوراتي إلى حلهما حتى نهاية تدوين الأسفار القانونية، وهما إشكالية التوحيد وإشكالية الأخلاق .

فمن جهة أولى، لم تتوصل الأيديولوجيا التوراتية إلى مفهوم صاف للوحدانية بخصوص الإله يهوه، كما لم تتوصل إلى ربط الأخلاق بالدين وإلى رسم صورة إله أخلاقي يجمع إليه كل الكمالات، ويؤسس لصلة بينه وبين العالم والإنسان قائمة على الأخلاق. الأمر

[17] معجم الحضارة المصرية القديمة - ص 320

الذي حرم الأيديولوجيا التوراتية من أه عنصرين لازمين لبناء شخصية متكاملة للشيطان في أي معتقد ديني.[18])

ووفاق هذا التصور السابق، فلم يشعر العبرانيون بحاجة إلى عزل الشيطان أو نسبة الشرور إليه :(لأنهم كانوا يتوقعون من الإله أعمالا كأعمال الشيطان وكان العمل الواحد عندهم ينسب تارة إلى الشيطان وتارة إلى الإله كما حدث في قضية إحصاء الشعب على عهد داود فإنه في المرة التي ورد فيها اسم الشيطان بصيغة العلم قيل إنه هو الذي أغرى داود بإحصاء الشعب كما جاء في الإصحاح الحادي والعشرين من سفر الأيام الأول ولكن الرواة يروون هذه القصة بعينها في سفر صمويل الثاني فيقولون : وحمى غضب الرب على إسرائيل فأهاج عليهم داوود قائلاً امض واحص إسرائيل ويهوذا[19]

ولكن مَن يطالع الأدبيات المسيحية- قانونية وغير قانونية - فسيجدها تتمركز على ثنائية واضحة ويتضح فيها حضور الشيطان كسيد لعالم التراب فكيف تمت تلك النقلة البعيدة بين شيطان العهد القديم وشيطان العهد الجديد؟

تضخمت مأثورات العبرانيين بعد اختلاطهم بأهل بابل ومصر وبلاد العرب واليونان واحتوت كتب التلمود والمشنا أهم عقائد القوم في مسألة الخير والشر ومسألة الثواب والعقاب، ولا بد أن يذكر على الدوام أن هذه الكتب جُمعت بعد المسيحية وظلت تُجمَع ويضاف إليها حتى القرن العاشر للميلاد، وفي هذه الكتب خلاصة ما استفاده العبرانيون من مجاورة الأمم التي تقدمتهم في إدراك الصفات الإلهية والصفات الشيطانية ويقول الباحثون أن الديانة العبرية تحملت أعباء التوسط بين الديانات الوثنية وديانات التوحيد الكتابية وصورة الشيطان في قائدهم هي أوفق مقياس لسلم التطور الذي ارتقت عليه منذ أقدم عهودها في التاريخ إلى العهد الذي ظهرت فيه المسيحية ففي أقدم العهود لم يكن عند العبرانيين فارق بين خلائق الكائنات العلوية وخلائق الكائنات الأرضية من إنسانية وحيوانية ولم يكن عندهم كذلك فارق بين هذه الخلائق وخلائق الشيطان . فكان الشيطان يحضر بين يدي الله مع الملائكة، وكان الملائكة يهبطون إلى الأرض فيعاشرون بنات الناس، وكان الإله نفسه يمشي في ظل الحديقة مبتردا ويأكل

---

(18) الشيطان والرحمن – فراس السواح - ص 103

(19) إبليس – عباس محمود العقاد - ص 91

اللحم والخبز ويحب ريح الشواء ويغار ويحقد وينتقم، كما يفعل كل مخلوق من مخلوقاته في الأرض أو في السماء وتطورت عقائدهم في الملائكة فأصبح منهم نظراء لقوى الطبيعة في أساطير الوثنيين الأقدمين فمنهم ملائكة للآبار وملائكة للأنهار وملائكة للتلال وآخرون للمغاور، والوهاد، وآخرون للأسماك، والحيتان.. ومن هؤلاء الملائكة من يعمل في طاعة الشيطان وينتقل بين الأعمال السماوية وأعمال الأرض والهاوية كأنها نمط واحد من الأعمال يختلف باختلاف الرؤساء والدعاة وتروي الزوهار أن الملائكة هم الذين استعظموا خلقة آدم يوم صنعه الله لأول مرة ملء السماوات والأرض فتساءلوا مستنكرين: أفي الكون إلهان؟ فصغره الله وجبل له جسماً من التراب.

وفي ميثاق أخنوخ أن الملك شمهازي قاد رهطاً من الملائكة إلى الأرض ففسق وعصا وخاف أن ينفرد بالعقاب فدعاهم أن يقسموا معه ليفعلن مثل فعله، فأقسموا معه على جبل حرمون وسمي الجبل بهذا الاسم لأنهم أقسموا عليه بحرمة الحرمان وعقدوا النية على المحرمات ثم فجروا مع النساء وعلموهن الزرع والحصاد وهموا بإهلاك رجالهن فتعلم الرجال منهم الفتك والعدوان. ويروى عن أخنوخ أنه هو الذي عزز الملائكة المتمرسين بشهوات الأرض وقال لهم حين تشفعون به: أولى لكم أن تهجروا الأرض وأن تعيشوا سماويين لا تأكلون ولا تشربون[20])

الشيطان في القصة القرآنية

ذكر الشيطان ثلاث مرات في هذه السورة، جاء أولها على لسان يعقوب في سياق تخوفه على ابنه الحبيب من أن يغري الشيطان إخوته بالكيد له وإيذاءه،

والثانية: لتعليل النسيان الذي ألمّ بالساقي الناجي من السجن - تماماً مثلما كان هو السبب في نسيان آدم، وكذلك فتى موسى والثالثة: على لسان يوسف مفسراً ما شجر بينه وبين إخوته من عداء ومن خصومة.

ومن المعقول أن نقول هنا بأن نسبة حوادث النسيان تلك إلى الشيطان كانت تفسيراً قرآنياً معقولاً عند صاحبه ؛ لأنها لم تفسر له فقط ما لا ينبغي نسيانه، بل ما يصعب نسيانه - أيضا - ؛ فآدم - مثلاً - لم تكن هناك وصايا كثيرة تبهظ ذاكرته سوى تلك الوصية الوحيدة، بألا يأكل وزوجه من الشجرة، وفتى موسى كان قد رأى خارقة

[20] السابق وأشار العقاد بعد تلك النقول إلى ضرورة مراجعة مجلدات أساطير اليهود جمع جينزيرج ص 96

عجيبة، فكان من الطبيعي معها أن يذهل ويدهش فتحفر في ذهنه، لا أن ينساها ويسهو عنها، وهذا الساقي الذي نجا من سجن فرعون، كانت تجربته يصعب نسيانها ونسيان أصحابها ؛ لذا ربما كان من نسبة النسيان إلى تدخل الشيطان حلاً ضروريا عند النبي ولكن إذا تذكرنا أن الشيطان لا وجود له في الكتاب المقدس في تلك الفترة الباكرة - إذا تغاضينا عن التفسير اليهودي - المسيحي المتأخر كثيراً عن تلك الفترة، والذي يرى الحية لم تكن سوى وسيلة اندس بها روح الشر، ودخل الجنة لكي يغوي حواء وهي بدورها أغوت زوجها بالأكل من الشجرة المحرمة ، وهذا تفسير يمكننا أن نتجاهله تماما؛ لأن التوراة كانت صريحة جدا في نسبة هذا الفعل إلى الحية، وليس إلى الشيطان فهي من ناحية أحيَل المخلوقات - أي أذكاها - وثانياً : ما نفهمه من تلك العقوبة التي أنزلها الله بالحية ، وتلك الخصومة الأبدية التي قررها الرب على الحية وبين بني البشر .

وكذلك - وهو الأهم، أن العبرانيين القدماء - كما يقول الباحثون - لم يخصوا الشيطان بأنه قوة الشر التي تغري البشر بالفساد والعصيان وتزين لهم اقتراف الآثام على النحو الذي جاء به الإسلام، فقد كانوا يتوقعون من الرب أعمالا كأعمال الشيطان، وكان الفعل الواحد ينسب تارة إلى الله، وتارة إلى الشيطان كما حدث في قضية إحصاء الشعب على عهد داود أي بعد زمن يوسف بمئات السنين .

فمن المعقول إذن بأن نقول إنه لم يكن من الممكن أصلاً أن يأتي هذا المفهوم القرآني على لسان يوسف أو يعقوب، فقد كان من الضروري لبلوغ هذا التصور أن تقطع الرؤية الدينية اليهودية أشواطا بعيدة في التنزيه الإلهي، وأن تتطور صورة الله ليكون هناك موضع لوجود الشيطان كحل ضروري لوجود مشكلة الشر، ولتفسير نوازع الفساد وهو ما لم يبلغه الاعتقاد اليهودي إلا في أزمان متأخرة جدا عن زمن تلك المرويات والقصص الكتابية الباكرة - هذا إن كانت قد بلغته أصلاً- وسنعود لبيان تلك النقطة على نحو أوسع فيما بعد [21].

[21] إبليس - عباس العقاد - منشورات المكتبة العصرية - بيروت ص 91

إن شاء الله وعقيدة القدر

ولا ينبغي أن تفوتنا هنا الإشارة إلى حضور عقيدة القدر كما جاء بها الإسلام على لسان يوسف مخاطباً أهله ﴿ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ٩٩ ﴾.

لمَّا كانت عقيدة القدر من أهم جوانب العقيدة الإسلامية، وسنرى كيف أنها تأتي كذلك على ألسنة الأنبياء جميعا فقد آثرنا أن نخصص لهذا المفهوم مساحة أكبر عند عرضنا لما جاء به النبي، ولكننا سنكتفي هنا بأن نشير هنا إلى أن تعريف القدر بأنه إلى جانب الاعتقاد الجازم في أن علم الله الأزلي القديم محيط بالحوادث جميعا فإن المشيئة الإلهية لا بد وأن تأذن لوقوع فعل ما لكي يحدث في العالم - جل هذا الفعل أو، دقّ، كبر أم صغر - وهو مفهوم لا نجد له أثراً وفق هذا الفهم في الأسفار الأولى من العهد القديم، لذا فمن المستغرب أن يأتي على لسان يوسف وقد استقدم أهله إليه بأن يقول لهم: ادخلوا مصر إن شاءت إرادة الله لكم بذلك، فهو مفهوم لم نجد له شبيهاً في تلك الأسفار، فضلاً عن أنه يستلزم تصوراً عن الله لا يتوافق مع صورة الله كما تتجلى في تلك الأسفار.

الأيمان والقسم

ومما يلفت النظر في هذه السورة هو الحضور الواضح للقسم والأيمان والذي نراه يتكرر كثيراً ﴿ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ عَلِمۡتُم مَّا جِئۡنَا لِنُفۡسِدَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ٧٣ ﴾يوسف ، ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُاْ تَذۡكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوۡ تَكُونَ مِنَ ٱلۡهَٰلِكِينَ ٨٥ ﴾يوسف ﴿ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ٩١ ﴾يوسف ﴿ قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلۡقَدِيمِ ٩٥ ﴾.

ورغم حضور القسم والإيمان في العهد القديم إلا أننا نلحظ بأنه كان يأتي في المواقف الخطيرة والمهمة، فنجد إبراهيم يحلف لأبيمالك وفيكول رئيس جيشه كما في (تكوين 21- 23)، وكما حدث مع إسحاق- ويا للغرابة - مع ذات الرجلين كما في (تكوين 26-28)، وقد أقسم يوسف بحياة فرعون (تك 42: 15). كما أن هناك في الوصايا العشر نهيا عن القسم باطلًا كما في (خر 20: 7)

ولكن إذا نظرنا إلى عدد من الأيمان التي جاءت في سورة يوسف على لسان إخوته فسنراها تختلف عن ذلك اختلافا بعيدا، فهي تجري تماما كما اعتاد العرب في الجاهلية أن يستخدموها، وحيث تأتي لا لتأكيد حدث يُراد تقريره وتأكيده ، بل لمجرد التعبير عن الدهشة أو الاستنكار أو للتحبب والتودد، وهذا النوع من الأيمان قد أقره الإسلام، وجعله قسما من بين أقسام الأيمان الثلاثة ؛ فهناك اليمين (الغموس)، وهناك اليمين (المنعقد) وهناك - أيضا - يمين (اللغو) وهو مما لا يؤاخذ الله به، لأنه ليس يمينا جادا بل يأتي على اللسان عفوا دون عزم أو إرادة حقيقية [22].

أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾

جاءت كلمة الجهل والجاهلين كثيراً في القرآن الكريم، تأتي هذه الكلمة أحياناً في القرآن في مقابل العلم، هي تأتي - أكثر الأحيان - في مقابل التقوى والحلم وحسن تقدير الأمور، وأهم من ذلك أنها تأتى - كما هنا على معنى عدم إدراك ما ينبغي لله من وجوب الطاعة ومجانبة الآثام ، ومثال ذلك ما جاء في خطاب الله لنوح لإعادته من غياب روح التأدب الواجب في مخاطبة الله وعدم تجاوز حدود العبودية : قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾، وكذلك موسى :وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ البَقَرَةِ ، وهو ما خاطب به القرآن النبي عليه السلام :وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾ الأَنْعَام.

[22] راجع المزيد عن هذه النقطة كتاب : أيمان العرب في الجاهلية لأبي إسحاق النجيرمى - نشرة محب الدين الخطيب

أكثر الناس

وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢١﴾ يُوسُف، وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يُوسُف .

من الغريب أن يأتي مثل هذا القول على لسان يعقوب أو يوسف، فما كان لهذا التعبير ليأتي إلا عبر استخلاص وتأمُل طويلين في الرسالات الإلهية على مدى الدهور واستجابة الناس لها ، فهذا الذي قاله يعقوب ويوسف هو في الحقيقة يعبر عن التصور المحمدي لمدى لحضور الهداية في التاريخ، ونصيب الطبيعة الإنسانية المحزن من ضعف الإصغاء والمبادرة إلى النور الإلهي ، سواء أكان ذلك بسبب من طبيعته الذاتية، فالإنسان وفق القرآن :عجول ـ كفور ـ قتور ـ أكثر شيء جدلاً ، أو بسبب من الشيطان الذي يزين له الباطل، ويحرضه على العصيان، ومن أجل ذلك نرى أغلب البشر يظهرون على الشكل المؤسف وأمثال هذا كثير جداً في القرآن الكريم : إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ البَقَرَة، ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ الأَعۡرَاف، وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٧﴾ هُود ، وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا ﴿٨٩﴾ الإِسۡرَاء ،

إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٩﴾ غَافِر ، وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَٰهُ بَيۡنَهُمۡ لِيَذَّكَّرُواْ فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا ﴿٥٠﴾ الفُرۡقَان ، وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٦﴾ الرُّوم .

وفي مقابل هذه الكثرة الضالة المنحرفة عن الطريق القويم تأتي القلة المؤمنة: يَعۡمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٖ كَٱلۡجَوَابِ وَقُدُورٖ رَّاسِيَٰتٍۚ ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ سَبَإ،

قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّـٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ ص، ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿١٤﴾ الوَاقِعَة.

المصريون والملائكة

رأينا كيف أجرى القرآن الكريم على ألسنة نسوة المدينة ذكر الملائكة حين وصفن جمال يوسف وشبهنه في جماله بـــ (المَلك الكريم) رغم غياب وجود تلك المخلوقات العلوية من تصوراتهم الدينية كما أشرنا، ورغم ذلك نقول إنه ربما كان بوسع قارئ مسلم مستنير إن أراد الخروج من تلك المشكلة بأن يقدم هذا التأويل بالقول: بأنه ربما كانت هذه الآية مجرد تعبير مستعار من ثقافة أخرى دون أن يستتبع ذلك الاعتقاد في وجود تلك المخلوقات الغريبة عن تصوراتهم الدينية، وإنما هو مجرد مثل يُضرَب وكفى!، ونقول أن هذا يحدث أشباهه كثيراً في الحقيقة، فمثلاً يمكن لرجل مصري أو ياباني أو سنغالي أن يستخدم تعبير (امسك الخشب)، مكتفيا بدلالته العامة على ضرورة اتقاء الحسد، ودون أن يعرف أساس هذا المثل، وأنه منقول من ثقافة أخرى، فهو لا يعرف ولا يعتقد إذا عرف - في الارتباط المفترض بين مس الخشب وضرورته لمن أراد أن يتقي الحسد والحاسدين، ولكن الحقيقة أن هذا التأويل على ضعفه - ناهيك عن مخالفته الكاملة لسياق الآيات وتعارضه مع ما أجمع عليه المفسرون قدماء ومحدثين : نقول أننا إذا تجاوزنا عن هذا كله، فسيظل في النهاية تأويلاً غير سائغ وغير صحيح؛ وذلك لأن القرآن الكريم قد ذكر الملائكة في سياق آخر - وعلى نحو جلي ولا لبس فيه - وهو مقام مجادلة فرعون للنبي موسى، وجاء ذكر الملائكة على لسانه على نحو يتأسس على معرفته بالدور الوظيفي للملائكة ناهيك عن إقراره البدهي بوجودها، فلنقرأ معاً هذه الآيات من سورة الزخرف: وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَـٰذِهِ ٱلْأَنْهَـٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَـٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ

وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ الزُّخْرُف.

فهنا نجد فرعون مصر يأتي لقومه بذكر البراهين الدالة على فساد ادعاء موسى للنبوة، ويكشف لمخاطبيه بأن دعوى موسى العريضة تلك لا برهان عليها، ولا أساس لها، فهو عنده على هذا مجرد نبي زائف أو مدع كاذب للنبوة ما دام الله لم يؤيده بما يؤيد به أنبياءه الصادقين. وهنا لا نجد من فرعون إنكاراً لفكرة النبوة ذاتها، بل نجد رفضا لها من رجل يدعيها ولا برهان لديه على صدق دعواه، وهذا الذي فعله فرعون هو نظير ما فعله جميع المكذبين الجاحدين من أقوام الأنبياء السابقين على موسى أو اللاحقين عليه، لا فرق بين من كان يعيش منهم في مصر أو في أي مكان آخر، بل كان جميعهم يسوق تلك المطالب لتبرير رفضهم لرسالات الرسل وتكذيب المرسلين، وكما ترى فلم يطلب فرعون من موسى إلا ما طلبه قوم النبي محمد منه كما في أمثال تلك الآية وأشباهها : وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَّوْمَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧﴾ الحِجْر،

ومثلها في سورة الفرقان: ۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ الفُرْقَان .

لذا لن نكون مخطئين إن استنتجنا بأن النبي محمد لم يكن يعرف أن هذا المفهوم ليس فقط غائباً عند المصريين - بل ما كان له أن يوجد أصلاً؛ لأن مفهوم الملائكة والنبوة يستلزمهما الاعتقاد في وجود إله شخصي يُعنى بعباده ويصطفي لهم من أنفسهم رجلا يخبرهم بما يريد منهم من عبادته، ويرشدهم إلى ما يصلحهم من شرائع- وهذا ليس له وجود عن المصريين القدماء .

فإذا لم نجد هذا التصور عن الله وغاب مفهوم الوحي - بالمعنى الكتابي وإلا فقد عرف المصريون معنى مغايراً للوحي - والنبوة والرسالة - من باب أولى - ، فلنا أن نستنتج

بأن هذا المفهوم قد اقحمه عليهم إقحاماً رجل - على جليل قدره - لم يكن يعرف شيئاً قط عن عقائدهم الدينية، بل ظنهم مثل جموع المشركين من الأمم الأخرى، والذين كانوا هم بدورهم صورة من مشركي العرب في زمانه أو قبل زمانه بقليل، وهذا الاستنتاج وإن بدا جريئاً وغريباً فهو بعد أي قدر من التأمل سيبدو ثانية منطقياً مقبولاً، مثله في ذلك كمثل رجل ينكر بأنه وُجد بين الصينيين نبي بشر قومه بالجنة وأنذرهم النار، ودعاهم إلى اتباع شريعة الله التي تلقاها عن الله بوحي أوحاه إليه مثلما فعل أي نبي عبراني أو عربي، فمن الواضح أنه من حق من يسمع مثل هذا الادعاء أن ينكره، ولا يلقى إليه بالاً شريطة أن يعلم فقط بأن الصينيين لا يؤمنون بإله شخصي، ولا موضع في عقيدتهم الكونية لشيء اسمه الجنة أو النار أو الوحي والنبوة - نعم هكذا، وبكل بساطة!

أما عن لماذا اعتقد النبي في معرفة المصريين وغير المصريين للملائكة؟ فلا نشك في أن النبي وقد انطلق من المرويات التلمودية التي أشاعت في قصصها المتأخرة تلك الأوهام عن معرفة المصريين الملائكة وكانت خلف هذا الاعتقاد النبوي الخاطئ إذن فالمسألة بالغة البساطة أي أن القصص التلمودي قد انطلق مؤلفوه من معرفة تاريخية زائفة، وأن النبي عليه السلام، والذي اعتقد في قداسة تلك القصص، وظنها من وحي الله قد تابع مؤلفي تلك القصص في اعتقادهم الخاطئ ذاك وأسس رؤيته عن تاريخ الأمم السابقة على أساس منه، وسنعود إلى تلك النقطة بعد قليل.

وعلى ذلك فهذا التعبير إنما يعبر في الحقيقة عن تصور النبي للملائكة وصورتها، والذي سحبه على كل العصور السالفة، حتى صار ملمحا أساسيا في تعريف الملائكة في كتب العقيدة الإسلامية والتي تقول: بأن الملائكة مخلوقات لطيفة نورانية قادرة على التشكل بأشكال حسنة فقط في مقابل الجن، الذي يمكنها التشكل في أية صورة شاءت حسنة كانت أم قبيحة [23])، ولا ننسى أن نشير هنا إلى أن النبي كان يرى الملاك جبريل عندما يأتيه في صورة بشرية حيث كان يتجسد له جبريل في صورة دحية بن خليفة الكلبي وهو رجل وسيم قسيم تذكر كتب السيرة النبوية أنه (يُذْكَرُ مِنْ جَمَالِهِ أَنّهُ كَانَ إذَا قَدِمَ الْمَدِينَةَ لَمْ تَبْقَ مُعْصِرٌ، وَهِيَ الْمُرَاهِقَةُ لِلْحَيْضِ إلّا خَرَجَتْ تَنْظُرُ إلَيْهِ([24]. بل الأهم من ذلك أن

---

[23] الدرر اللوامع في شرح جمع الجوامع- شهاب الدين أحمد بن إسماعيل الكوراني - تحقيق: سعيد بن غالب كامل المجيدي - الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة - المملكة العربية السعودية - ٢٠٠٨ م - ج4 - ص 74 وما بعدها

[24] من كتاب الروض الأنف في شرح السيرة النبوية للسهيلي- دار إحياء التراث العربي، بيروت الطبعة: الأولى، 1412 هـ- ج6 - ص 325 -

أننا نرى النبي يصف رجلاً وسيماً من أصحابه، وهو جرير بن عبد الله البُجلي بأن له وجهاً ملائكياً :{ يَدخُلُ مِن هذا البابِ رجلٌ مِن خيرِ ذي يَمَنٍ، على وجهِهِ مَسحَةُ مَلَكٍ. فدخلَ جريرٌ[25].

وبالآخرة هم كافرون

قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ ٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ فُصِّلَت :6 -7، قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ٣٧ يُوسُف، (يا أوناس الملك لم ترتحل أبداً ميتا، لقد ارتحلت حياً لأنك تجلس على عرش أوزوريس مع صولجانك في يدك حتى تستطيع إعطاء الأوامر إلى الأحياء([26]

إذا كان الإيمان بالآخرة - في أشيع مظاهره - هو اعتقاد الإنسان في قيامته بعد الموت لكي يسأل عن أعماله التي فعلها في حياته، واعتقاده جازما في وجود ثواب لأعماله الصالحة التي فعلها، وتوقعه عقوبة عما اجترحُه من الخطايا والذنوب - والتي هي مخالفة قصدية ومتعمدة لوصايا الإله أو الآلهة؛ فالمصريون القدماء - دون شك - كانوا من المؤمنين بالآخرة، ولم يكونوا - أبداً- بها كافرين.

والحقيقة التي يعرفها كل أحد هي أن المصريين ربما كانوا أول شعوب الأرض التي اعتقد أهلها ببقاء الروح، وقيامها من الموت للحساب، ولم يعتن شعب من شعوب العالم القديم بمصيره الروحي بعد الموت كما اهتم المصري القديم بذلك، بل لقد ذهب كثير من الباحثين بعيداً - حد المبالغة - في حضور ذلك الجانب الاعتقادي في حياة المصريين القدماء، والذي يرون أنه قد سيطر، بل طغى على حياة المصري القديم، كما لم يحدث عند أي شعب من شعوب العالم القديم أو الحديث، وقد حفلت النصوص المبكرة والتي ترجع إلى عهد الدولة القديمة والتي أطلق عليها الأثريون اسم نصوص الأهرام،

---

[25] انظر الحديث في السلسلة الصحيحة للألباني برقم (3193)

[26] (نص منحوت داخل هرم أوناس من الأسرة الخامسة القرن الرابع والعشرين قبل الميلاد) انظر ص 119 من كتاب : نصوص الشرق الأدنى القديمة المتعلقة بالعهد القديم الجزء الأول - جيمس بريتشارد ترجمة : د عبد الحميد زايد - وزارة الثقافة - هيئة الآثار المصرية

والتي نقشت على جدار دهاليز أهرام الأسرتين الخامسة والسادسة، بل ويُرجع بعض الباحثين بتلك النصوص إلى ما قبل العصر التاريخي، وسنكتفي بذكر شاهد واحد لبيان هذا الأمر الذي لا خلاف عليه :(ولما اعتقد المصريون أنهم سيتمتعون بعد وفاتهم كالمعبود أوز وريس أو أنهم سيصيرون أزوريس نفسه لم يعودوا ينظرون إلى الموت بخوف ووجل فقالوا عن موتاهم (إنهم لا يتركون هذه الدنيا أمواتا بل أحياء)، ومنه يتضح أن القوم وقتئذ أخذوا يعتقدون بوجود محاكمة في الآخرة أمام أوزوريس، وأن هذه المحاكمة ستتناول كل ما آتاه المتوفي في دنياه من صالح وطالح[27]).

وعلى ذلك فلنا أن نتساءل لماذا اعتقد النبي في ذلك؟ والأمر- لمن شاء أن يراه - واضح للغاية، فلم يكن النبي عليه السلام يعرف كثيرا ولا قليلا عن أهل تلك العصور الموغلة في القدم، بل اعتقد النبي جازما في أن المصريين كانوا في عقائدهم الدينية - ومعهم جميع الأمم الأخرى في ذلك - نسخة مطابقة من عقائد أهل عصره من مشركي العرب، وعلى هذا فليس من الغريب أبدا أن يصف يوسف القرآني عقائد المصريين على هذا النحو ، فما كان يوسف القرآني - ومعه كذلك جميع الأنبياء - بدوره سوى نسخة محمدية متقدمة في الزمان تعكس جميع مفاهيم النبي محمد واعتقاده، وما كان نطقه بمثل تلك الأقوال وسواها سوى ترجمة لمعارف النبي محمد، ولا علاقة لها بيوسف بن يعقوب التوراتي الذي عاش في تلك الأزمنة البعيدة من قريب أو بعيد، بل هي تعبر عن يوسف القرآني الذي اعتقد النبي محمد بأنه كان حتماً يشاركه جميع مفاهيمه عن الله، ولما كان يوسف الافتراضي هذا كان يعيش كذلك في بيئة دينية لا تختلف مطلقاً عن عقائد أهل مكة - كما اعتقد النبي محمد -، ولذا فليس من الغريب أبداً أن يقول يوسف ما قال، فضلاً أن يكون مطابقاً لما قاله النبي محمد حرفياً للمشركين في زمانه فهما في النهاية، وبغض النظر عن الزمان والمكان مثل رجلين وقفا في زمنين مختلفين في ذات الشرفة، ويصف كلاهما مشهد واحد لم يتغير، فلا غرابة إذن في أن تتشابه أوصافهما ، بل وأن تتطابق أقوالهما، ولا ضرورة للقول إن هذا مخالف للحقيقة على نحو صارخ

(27) تاريخ مصر منذ اقدم العصور إلى العصر الفارسي جيمس هنرى برستيد ترجمة حسن كمال الهيئة المصرية العامة للكتاب 1999 م – ص 77

فما كان الرجلان يتشاركان ذات المفاهيم، ولا كانا يعيشان ذات الأجواء الثقافية ، ولكن ماذا نفعل فلقد اعتقد النبي في صحة ذلك ؟.!

إذاً فمَن يقرأ هاتين الآيتان اللتان صدرنا بها هذه الملاحظة، سواء تلك التي أوردها القرآن على لسان يوسف، وتلك الأخرى التي جاءت على لسان النبي محمد - وقد أمر بالجهر بها من قبل الله - فلن يرى فارقاً؛ لا لأن النبي قد انطق يوسف بلسانه، كلا وحاشاه !!، بل لأن النبي محمد قد اعتقد جازماً بأن يوسف كان مثله تماما، ويعيش في مثل زمانه في هذه الناحية؛ لذا فمن الغريب ألا يقول لمن حوله من المشركين من أهل مصر إلا ما قاله هو لأمثالهم من أهل مكة .

ولا ينبغي لأحد أن يقلل أبدا من وجاهة هذا الاعتقاد الذي آمن به النبي محمد إيماناً كاملا، فهو ينطوي على وجاهة شكلية قوية تغرى به، بل تراه ، ولا نقول أمراً معقولاً فحسب، بل أمراً بدهياً كذلك، فقد كان من بين نتائج اعتقاد النبي في تشابه العقائد الشركية عند أهل الأمم القديمة مع عقيدة العرب قبيل الإسلام أن جعلته يستنتج بأن أهل مصر الأقدمين لم يكونوا يؤمنون بالآخرة، وأنهم كانوا بها كافرين؛ إذ لم يستطع النبي أبداً أن يتصور أن اتباع عقيدة شركية أو متعددة الآلهة يمكنهم أن يؤمنوا في الوقت ذاته بالبعث والثواب والعقاب تماماً كما لم يكن أهل مكة من المشركين يؤمنون بذلك، وهو استنتاج وإن بدا له منطقياً إلا أنه استنتاج للأسف غير صحيح .

ولقد حاولنا قبل تقييد هذه الملاحظة افتراض أن يوسف القرآني لم يكن يعنى المصريين في قوله : لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ٣٧يُوسُف، بل كان يشير إلى من جاء من بينهم من الكنعانيين حيث كان يعيش هناك قبل بيعه واسترقاقه، ولكننا في الحقيقة لم نجد لهذا الافتراض موضعاً، بسبب صغر سنه عندما بيع وحُمل إلى مصر، بل كان يقصد على نحو واضح أولئك الذين عاش فيهم صبياً وشب بينهم، ولكنه لم يسغ عقائدهم ، بل أرشده الله إلى عقيدة آبائه القويمة ، ودع عنك ما تنطوي عليه تلك الآية من التباس، فقد كان يوسف كما ينص القرآن سليل أسرة تتوارث الحكمة والنبوة من أربعة أجيال، وقد تلقى يوسف كما رأينا في مطلع السورة وحي الله طفلاً وهو لم يزل في البئر التي ألقي فيها، فلا ندري دلالة ما تعنيه كلمة (تركت) إلا أن تكون بمعنى : تجنبت وفارقت ما كان يحيط بي من عقائد المصريين الوثنيين الذين عشت بينهم وحافظت على إيماني الذي ورثته عن آبائي وأجدادي، وهذا الفهم أي نسبة هذا الوصف

للمصريين على كل حال هو ما قررته الكثرة الكاثرة من جمهور المفسرين قدماء ومحدثين مما يرجح صحته إلى حد بعيد، ومن بين هؤلاء المفسرين ما قاله صاحب الظلال في تقرير أن المراد بهم أهل مصر الذين رُبي يوسف فيهم، ثم نراه يخلص إلى تلك النتيجة المحزنة : (مشيرا بهذا إلى القوم الذين ربي فيهم، وهم بيت العزيز وحاشية الملك والملأ من القوم والشعب الذي يتبعهم. والفتيان على دين القوم، ولكنه لا يواجههما بشخصيتهما، إنما يواجه القوم عامة كي لا يحرجهما ولا ينفرهما- وهي كياسة وحكمة ولطافة حس وحسن مدخل وذكر الآخرة هنا في قول يوسف يقرر- كما قلنا من قبل- أن الإيمان بالآخرة كان عنصراً من عناصر العقيدة على لسان الرسل جميعاً منذ فجر البشرية الأول ولم يكن الأمر كما يزعم علماء الأديان المقارنة أن تصور الآخرة جاء إلى العقيدة- بجملتها- متأخراً.. لقد جاء إلى العقائد الوثنية الجاهلية متأخراً فعلاً، ولكنه كان دائماً عنصراً أصيلاً في الرسالات السماوية الصحيحة..[28])

---

[28] الظلال ج4ص1988 دار الشروق - بيروت- القاهرة الطبعة: السابعة عشر - 1412 هـ

المبحث الثاني: قصة يوسف كما جاءت في التوراة.

(قالت (ننسون) العارفة بكل شيء أن رؤيتك كواكب السماء
وقد سقط أحدها عليك وكأنه شهاب السماء (آنو)
والذي أردت أن ترفعه فثقل عليك
والذي أردت أن تزحزحه فلم تستطع
وانحنيت عليه كما تنحني على امرأة وجئت به ووضعته عند قدمي فجعلته أنا نظيرا لك
إنه صاحب لك قوي يعين الصديق عند الضيق[29]

إذا كان القرآن الكريم قد قدم روايته الخاصة عن يوسف وعن يعقوب، والتي بدت - كما رأينا - سيرة مناقبية زاهية، لبيان ما كان عليه هذين النبيين القديمين من كمالات تليق بهما، وكما ينبغي أن يكون عليه الأنبياء والمرسلون جميعاً، سواء أكان ذلك من جانب العقيدة الإلهية، أو الفضائل والكمالات الأخلاقية؛ فإن الرواية التوراتية، ولأنها لم تكن تستهدف شيئا من ذلك؛ فقد جاءتنا بصورة مختلفة سنعرض لها هنا بقدر كبير من الإيجاز والاختصار مكتفين بما يهمنا منها دون سواه.

لماذا كره إخوة يوسف أخاهم؟

في مقابل الرواية القرآنية، والتي لم تقدم إيضاحاً كافياً لبغض إخوة يوسف له ولأخيه سوى غضبهم من أبيهم على هذا التفضيل الأبوي غير المبرر لهذين الولدين دون بقية أبنائه، فنجد سفر التكوين يقدم لنا أسباباً أكثر تفصيلاً وواقعية لهذا الكره، خاصة عندما يأتي من أولاد ليئة الزوجة المبغوضة من زوجها، فقد كان ورائهم إرثاً مريراً من التفضيل ورثوه من أمهم (ضعيفة العينين)- والتي زُفّت لأبيهم بالحيلة ودون رغبة منه - ناهيك أنها كانت الأقل جمالاً من أختها؛ فلم يحبها يعقوب أبداً رغم مرور السنين، وما منحته له عبرها من أطفال كما يعبر عن ذلك هذا المقطع الموجع للقلب: (ورأى الرب أن ليئة مكروهة ففتح رحمها، وأما راحيل فكانت عاقراً فحبلت ليئة، وولدت ابناً ودعت اسمه رؤوبين لأنها قالت إن الرب قد نظر إلى مذلتي، إنه الآن يحبني

(29) ملحمة جلجامش أوديسة العراق الخالدة - ترجمة طه باقر- ص45

رجلي وحبلت - أيضا - ، وولدت ابناً، وقالت إن الرب قد سمع إني مكروهة فأعطاني هذا - أيضاً - فدعت اسمه شمعون، وحبلت - أيضا - ، وولدت ابناً وقالت: {الآن هذه المرة يقترن بي رجلي لأني ولدت له ثلاثة بنين لذلك دعي اسمه لاوي وحبلت - أيضا - ، وولدت ابنا وقالت هذه المرة أحمد الرب لذلك دعت اسمه يهوذا ثم توقفت عن الولادة}(تكوين 29 -32-35)

أما عن تمييز يعقوب بين أولاده فقد جاء على النحو الصارخ:(ورفع يعقوب عينيه ونظر وإذا عيسو مقبل ومعه أربع مئة رجل فقسم الأولاد على ليئة وعلى راحيل وعلى الجاريتين، ووضع الجاريتين وأولادهما أولا وليئة وأولادها وراءهم، وراحيل ويوسف أخيرا وأما هو فاجتاز قدامهم وسجد إلى الأرض سبع مرات حتى اقترب إلى أخيه) (تكوين 33-1-3)

فكما نرى فقد كان يعقوب مرتعباً مما يمكن أن يفعله به وبأولاده أخيه عيسو المتوحش فقام برصفهم وفق هذا الترتيب الغريب!،

لماذا؟ :(فمن أجل حبه لراحيل وضعها في نهاية الموكب حتى إذا هجم عيسو يكون لها فرصة للهرب، وليئة أمامها لتكون لها فرصة متوسطة للهرب أما الجاريتان ففي المقدمة [30])، وإذا كنت -عزيزي القارئ -غير معجب بهذا التفسير فإليك ما هو أشنع منه وأقبح من المرويات التلمودية: (ومع ذلك فقد كان يعقوب أبا حنونا لدرجة لا تجعله يعرض أسرته لأول جذوة من الخطر فتقدم الجميع قائلا : من الأفضل أن يهاجموني أنا لا أطفالي، وجاءت بعده الجاريتان وأطفالهما وكان دافعه في جعلهم وراءه هو أنه إن كان عيسو ستغلبه شهوته تجاه النساء وسيفكر في اغتصابهن فليفعلها مع الجاريتين أولا، وحين فعله يقوم هو بتقوية دفاعاته من جديد دفاعا عن شرف زوجاته وأتت راحيل ويوسف في المؤخرة، ومشى يوسف أمام أمه رغم أن يعقوب كان قد أمرهما أن يفعلا بعكس ذلك، لكن الصبي كان يعلم مدى جمال أمه وفجور عمه ؛ ولذا فقد أراد إخفاء راحيل[31]

(30) انظر: الموسوعة الكنسية لتفسير العهد القديم - الجزء الاول سفر التكوين - إعداد كهنة وخدام كنيسة مارمرقص بمصر الجديدة 2006م – ص 245

(31) أساطير اليهود ص348 ج2

وإذا علمنا بأن يوسف الصغير كان عمره لا يتجاوز الثلاثة أو الأربع سنوات عندما حدثت هذه الواقعة، فليس لنا غير أن نحني رؤوسنا لشجاعة هذا الطفل الباسل.

وليس ذلك فحسب فقد كسى يعقوب يوسف قميصا ملونا وأعفاه من أعباء العمل: (ولكن عندما أعطى يعقوب مثل ذلك القميص ليوسف فقد أعلن بالتبعية أن ابنه المدلل يجب أن يعفى من الكفاح والنضال[32]) ، ولم تكن مهنة الرعي مهنة سهلة، بل كانت مضنية شاقة عرف يعقوب مشاقها بنفسه ووصفها لنا بأنه كان: (في النهار يأكله الحر وفي الليل الجليد) (تكوين 31-4)، فهل تبقى شيء مما يوغر الصدور لم يفعله هذا الأب اللطيف؟! وإضافة إلى ذلك الإرث من البغضاء والتفضيل، والذي لا علاقة ليوسف وأخيه به فقد زادهم يوسف سببا إضافيا، ولكن من عنده هذه المرة إذ كان: (يأتي بنميمتهم الرديئة إلى أبيهم) (تك 37-2)، ثم طفح بإخوته الكيل عندما قص يوسف عليهم حلميه واحداً بعد آخر - يكتفي القرآن بذكر الأخير منهما - وهو الأكثر جمالاً، ودون أن ينص على أنه قد قصه عليهم - والذي لم ير فيه إخوته سوى رغبته في التسلط عليهم وإخضاعهم له، مما يعني - بوضوح - أنهم لم يروا فيهما أي نبوءة، بل كرهاً داخلياً لهم، لا يعدو أن يكون انعكاساً لبغضهم إياه، والذي لم يكونوا يبالون بإخفائه على كل حال (فأبغضوه ولم يستطيعوا أن يكلموه بسلام)

(لا تقصص رؤياك على إخوتك)

(وقصه على أبيه وعلى إخوته فانتهره أبوه وقال له: ما هذا الحلم الذي حلمت هل نأتي أنا وأمك وإخوتك لنسجد لك إلى الأرض؟ فحسده إخوته، وأما أبوه فحفظ الأمر) تك 37- 10-11)

بينما نجد القرآن يذكر لنا بأن يعقوب قد أوصى يوسف بألا يقص شيئا على إخوته، ونراه يفسر رؤياه على النحو الذي رأيناه، نجد يوسف التوراة لا يتأخر عن قص الحلمين على إخوته، ويبدو أن يعقوب لم يكن ليسوءه أبداً أن يتحقق الحلم الأول، وأن يسود ابنه المحبوب على إخوته جميعا، فهذا ليس بالشيء الغريب، فدائما ما نجد في العهد القديم أخا يسود على إخوته !، ولكننا نراه يضيق بالحلم الثاني أشد الضيق، والذي يشير تحققه إلى خضوعه هو وأولاده جميعا وزوجته إلى ابنه الصغير فهذا كثير حقا ! ؛ لذا فقد انتهره، ووبخه على هذا الحلم الذي يكشف عن تطلعات نفسية مبالغ فيها، ولكن ؛ ولأنه

(32) حياة يوسف ف-ب- ماير ترجمة : القمص مرقص داود- مكتبة المحبة - الطبعة الأولى -1937م - ص12

كان في النهاية نبيا ـ على نحو ما ـ فقد اكتفى بعد توبيخه بالصمت :(وحفظ الأمر) فمن يسبر غور إرادة الله البعيدة المنال عن عقل البشر، ومن يعلم طرائق تنفيذ مشيئته التي لا راد لها ؟!

هل أرسل يعقوب يوسف إلى إخوته؟

(فقال إسرائيل ليوسف أليس إخوتك يرعون عند شكيم؟ تعال فأرسلك إليهم فقال له : ها أنذا فقال له: اذهب انظر سلامة إخوتك، وسلامة الغنم ورد لي خبرا فأرسله من وطاء حبرون فأتى إلى شكيم)(تك 37-13-14).

في مقابل الرواية القرآنية التي تحكى بأن إخوة يوسف قد استدرجوا أباهم، وأغروه بإرسال يوسف معهم لكي يرفّه عن نفسه قليلا، ويلعب أمام أنظارهم، فإن الرواية التوراتية تجعل من يعقوب هو من أرسل يوسف إلى إخوته لكي يأتيه بخبرهم، وهو ما أثار تعجب الشراح المسلمين ـ مثل ابن كثير ـ، والذي لم يستطع قبول أن يرسله يعقوب إلى إخوته، وهو يعلم بأنهم لا يحبونه وقد يؤذونه، وهذا كلام معقول ـ ؛ أي أنه متسق مع روح الرواية القرآنية، ولكن إذا لاحظنا إلى أين أرسله يعقوب ليأتيه بخبر أبنائه وغنمه لزاد عجبنا ؛ فقد أرسله يعقوب إلى (شكيم)!، فكيف يرسل يعقوب ابنه المحبوب وحده إلى تلك المنطقة الخطرة ـ أو حتى قريبا منها ـ والتي كان رجالها يتربصون بأبنائه، والذين سبق أن توعدوهم أشد الوعيد على فتكهم الذريع بهم ؟.!

كيف تلقى يعقوب الخبر؟

في مقابل الرواية القرآنية عن تلقى يعقوب النبأ الأليم على النحو الجميل الذي رأيناه، واتهامه لأولاده بالكيد ليوسف، فالرواية التوراتية تحكي الأمر على نحو مغاير، فقد كان موقف الأخوة هنا أفضل بكثير من موقفهم في رواية القرآن؛ فهم أولا لم يأخذوه من يد أبيه، بل هو الذي أرسله إليهم، وهذا خطأه هو، وعلى كل حال، فيوسف لم يصل إليهم أصلا، وليس من أثر لوجوده إلا هذا القميص الذي لا يعرفون يقينا هل يخص يوسف أم لا وهاهم يأتونه به.

(وأرسلوا القميص الملون وأحضروه إلى أبيهم وقالوا: وجدنا هذا حقق أ قميص ابنك هو أم لا؟ فتحققه وقال: قميص ابني وحش رديء أكله، أفترس يوسف افتراسا فمزق يعقوب ثيابه ووضع مسحا على حقويه، وناح على ابنه أياما كثيرة فقام جميع بنيه

وجميع بناته ليعزوه فأبى أن يتعزى وقال: إني أنزل إلى ابني نائحا إلى الهاوية وبكى عليه أبوه) (تكوين 37- 33-35(

إذاً فقد صدق يعقوب المسكين بأن يوسف قد مات، وأظهر هذا القدر كله من اللوعة والحزن -وهو ما يحرك المشاعر حقا-، لكن في هذا المقطع - أيضا - ما يعطينا الدليل الواضح على تصور تلك القبيلة العبرانية عن مصير الأرواح جميعاً، ألا وهو(الهاوية)، والتي يذهب إليها الجميع، سواء أكانوا أطفالا أبرياء كانوا قبل ساعات قليلة يرتدون القميص الملون ويلعبون غافلين، أم كانوا رجالا يحملون على ظهورهم إرثا ثقيلا من الخداع، والكذب، والسرقة، والمكر.

لماذا يذهب الجميع؟

)وكان الجحيم أو الهاوية مكان التقاء كل المنتقلين لأن المسيح لم يكن قد تمم الفداء[33])،وهذه الإجابة المسيحية لا تعني في الحقيقة أحداً ؛ لأنها نتاج رؤية دينية أخرى، وأما الإجابة السهلة فهو أن هذا الاعتقاد البدائي عن المصير الإنساني كان سائداً عن كثير من الأمم والشعوب في ذلك الزمان، ومن بينهم هذه القبيلة البدوية كما سنرى، ولا تفوتنا هنا الإشارة إلى أن جميع أبناء يعقوب وجميع بناته قد حاولوا وسعهم لكي يساعدوا أباهم على تجاوز تلك المحنة الأليمة - وهذا أمر طيب - ولكننا لا نعلم ما المقصود (بجميع بناته) فلم تكن له سوى ابنه واحدة وهي (دينه)، والتي بسبب من تسكعها الطائش، وتجولها بين مضارب القبائل الغريبة أنها أُغتصبت، وتسبب هذا في انتقام أخويها بقتل سكان مدينة كاملة وحدهما، ونهب جميع ما فيها.!

(33) السابق ص 272 الموسوعة الكنسية

قوافل الجمال؟

(ثم جلسوا ليأكلوا طعاما فرفعوا عيونهم ونظروا وإذا قافلة إسماعيليين مقبلة من جلعاد وجمالهم حاملة كثيراء وبلسانا ولاذنا ذاهبين لينزلوا بها إلى مصر) (تكوين 37-25) في معرض برهنتهما على تأخر تدوين العهد القديم إلى منتصف القرن السابع قبل الميلاد، يقدم مؤلفا هذا الكتاب ملاحظات وشواهد كثيرة للغاية، وتهمنا من بينها جميعاً هذه الملاحظة البديعة لارتباطها بالقرآن والتوراة على حد سواء: (ولكن متى حدث ذلك التجميع والتدوين؟ يكشف النص التوراتي عن بعض المؤشرات الواضحة التي يمكن أن تضيق الفترة الزمنية لوقت تأليفها النهائي، خذ مثلا الذكر المتكرر للجمال. إن قصص الآباء مكتظة بذكر الجمال، وعادة تذكر قطعان الجمال كما في قصة بيع إخوة يوسف إياه عبداً (تكوين 37- 25) ووصفت الجمال - أيضا - كدواب لحمل الأثقال في تجارة القوافل، ونحن نعرف الآن من خلال الأبحاث الأثرية أن الجمال لم يبدأ استخدامها كدواب لحمل الأثقال قبل أواخر الألفية الثانية، ولم ينتشر استعمالها إلى ذلك الحد الكبير في الشرق الأدنى إلا بعد فترة لا بأس بها من سنة 1000 ق.م، والتفصيل الأكثر دلالة في قصة يوسف وهو ما ذكر فيها من أن قافلة الجمال كانت تحمل كثيراء وبلسانا ولادنا الأمر الذي يكشف ألفة واضحة بالمنتجات الرئيسية للتجارة العربية المربحة التي ازدهرت تحت إشراف الإمبراطورية الأشورية في القرنين الثامن والسابع ق م [34]).

وإليك - أيضا - هذا الشاهد: (ويقول علماء الجيولوجيا أن موطن الجمل الأصلي إنما هو البلاد الأمريكية، ومنها تسرب في العصور السابقة للتاريخ إلى آسيا الشرقية، فالوسطى، فبلاد العرب، وأول ذكر للجمل في التاريخ يرقى إلى القرن الحادي عشر قبل المسيح، عندما غزا المديانيون فلسطين وأدخلوه إليها على ما ورد في سفر القضاة (6-5[35])، (ويؤكد فريق من العلماء استئناس الصينيين للجمل منذ أزمان بعيدة . بينما المؤكد أنه شاع استخدامه كحيوان مستأنس منذ حوالي عام ألف قبل الميلاد، وذلك في الأقاليم الجافة وشبه الجافة في وسط وجنوب غربي آسيا وشمالي أفريقيا[36]...

---

[34] التوراة اليهودية مكشوفة على حقيقتها د إسرائيل فنكلشتاين - نيل اشر سيبلمان ت سعد رستم صفحات للدراسات والنشر- ص 66

[35] العرب تاريخ موجز - فيليب حتى - دار العلم للملايين - بيروت -الطبعة السادسة 1991م – ص 21

[36]) الجغرافيا الزراعية د محمد خميس الزوكة - دار المعرفة الجامعية - الإسكندرية - 2000م ص 34- 35

ولكن الأغرب من ذلك كله هو أننا نجد الجمال من بين العطايا التي قدمها فرعون لإبراهيم : (ورآها رؤساء فرعون ومدحوها لدى فرعون، فأخذت المرأة إلى بيت فرعون فصنع إلى أبرام خيراً بسببها، وصار له غنم وبقر وحمير وعبيد وإماء وأتن وجمال)(تكوين 12 - 15-16)، فينبغي إذن أن يكون المصريون قد عرفوا الجمل بعدما استأنسُه سكان الجزيرة العربية، ومعها بادية الشام ؛ إذ أن هذا الحيوان قد أدخل إلى تلك المنطقة أولا، وبعدها انتشر في البلاد المحيطة بها ومنها مصر ؛ لذا فمن غير المعقول تصور أن يكون فرعون مصر قد وهب إبراهيم أول قطيع إبل امتلكه المصريون، وعلى هذا فينبغي أن يكون الجمل قد استؤنس وشاع استخدامه قبل القرن العشرين قبل الميلاد - وهو الزمن المرجح بأن إبراهيم قد نزل فيه مصر- بقرون عديدة، ولكن دعونا نتساءل أولا قبل أن نعرف زمن معرفة المصريين بهذا المخلوق وهو ما يمكن اعتباره أقدم الاحتمالات لتوهم كتبة التوراة بتاريخ الجمل في حياة البشر.

الجمل - أيضا - عند أيوب

وربما يُضاف - أيضا - إلى اعتقاد كتبة، ومدوني العهد القديم عن حضور الجمل في التاريخ منذ أقدم العصور ما جاء في فاتحة سفر أيوب عن هذا الحيوان، فقد عد كاتب هذا السفر الجمل من بين ممتلكات أيوب وبتلك الأعداد الهائلة، لكي يبرهن على عظيم غنى أيوب وثرائه الفاحش قبل التجربة الرهيبة التي ستطيح بهذا كله ، وسيستردها مضاعفة بعد خروجه الظافر من أهوالها :(كانت مواشيه سبعة آلاف من الغنم، وثلاثة آلاف جمل، وخمس مائة فدان بقر وخمس مائة أتان وكان خدمه كثيرين جدا)"سفر أيوب 1-3" ، أما إذا أردنا أن نتعرف على زمن أيوب فسوف نجد اختلافاً بعيداً بين الباحثين في تلك المسألة، فهناك من يجعله يعيش بعد زمن إبراهيم بوقت طويل كما يقول هذا المؤلف :(نحن لا نعرف من كتب سفر أيوب ولا متى عاش ولا مكان إقامته، ولو أن السفر قد كتب بواسطة عدة أفراد فنحن لا نعرف شيئاً عنهم ---- وقد افترضت عدة تواريخ لكتابة السفر تمتد من وقت موسى حتى العصر الهيليني[37]).

(37) التفسير الحديث للكتاب المقدس - العهد القديم - سفر أيوب - دار الثقافة - فرانسيس اندرسن - ترجمة إدوارد وديع عبد المسيح - الطبعة الأولى - 1990م – ص 60

وهناك من الباحثين من يدقق فيما جاء في هذا السفر فيرجع به إلى زمن أبعد بكثير في الزمان : (ويحقق بعض المؤرخين زمن أيوب عليه السلام بمراصد الفلك بما ذكره في أسماء النجوم والمنازل كالنعش والجبار والثريا ومخادع النجوم وعين الثور وقلب العقرب، فيرجحون على رأي أشهرهم (هالس) أنه وجد قبل الميلاد بثلاثمئة وألفي سنة، وقد أدخله جامعوا التوراة في العهد القديم لأنهم حسبوه تارة من كلام موسى، وتارة من كلام سليمان، وكان جامعوا النسخة السريانية من التوراة يضعون كتابه بعد كتب موسى وقبل كتاب يشوع، ولكنه أقدم من ذلك، ولو لم نأخذ بتقدير الفلكيين --- لأنه لم يذكر شيئا عن قصة الخروج من مصر وهي أهم القصص في تاريخ العبريين فلا يسكت عنها من سمع بها في برية بلاد العرب، ولا بد أن يسمع بها من أقام هناك بعد خروج العبريين من مصر إن كان زمان أيوب بعد زمان موسى عليهما السلام [38]).
وعلى مثل تلك الإشارات وغيرها وافق الشراح المسيحيون المحدثين، فقد اعتمدوا مثلا على ما استنتجوه من عمر أيوب والذي عاش عندهم حوالي 210 سنة، لكي يجعلوه قبل زمن إبراهيم ؛ لأن أعمار الآباء نقصت عن مثل هذه المدة بعد الطوفان ، وأيضا لأن اسم أيوب لم يرد في كل قوائم الآباء بعد موسى، وما إلى ذلك من الأسباب التي جعلت أحدهم يخلص إلى أن أيوب قد عاش قبل زمن إبراهيم [39]، وعلى كل حال فسواء أعاش أيوب قبل إبراهيم أم بعده، فالذي لا شك فيه هو أن مدوني التوراة ما كانوا ليشكون في وجود هذا المخلوق من بين ما حشده نوح في سفينته.

---

[38] - الثقافة العربية أسبق من ثقافة اليونان والعبريين - عباس محمود العقاد -دار القلم - مكتبة النهضة المصرية- ص 83

[39] - أيوب الصديق ولماذا كانت تجربته ؟ - الأنبا : شنودة الثالث- الطبعة الثانية - أكتوبر 200م - القاهرة ص 9 وما بعدها

هل عرف المصريون حقا الجمَل في تلك الفترة؟

(تدل الأحوال على أن المصري لم يستعمل الجمل في العهد التاريخي على الأقل، ولكن عثر على تمثال صغير له من الفخار من عصر (نقادة)، وكذلك عُثرَ على تمثال صغير آخر من عهد الأسرة الثامنة عشرة يمثل الجمل حاملاً إناءين متدليين على جانبه، وقد ذكر الجمل أحيانا في متون الدولة الحديثة، مما يدل على أنه كان مستأنساً : (الجمل يسمع الكلام) كما جاء في ورقة (بولونى) وقد قال عنه (فيدمان) أنه الحيوان الذي يمثل الإله ست، ويظهر أن الجمل كان مكروهاً عند قدماء المصريين لصلته بالعرب، ولذلك لم يستعمل عندهم أما في العصر الإغريقي الروماني فقد استخدم الجمل بكثرة [40]).

الجمَل في القرآن

هذا عن التوراة، وأما في القرآن فلم ينص القرآن في الحقيقة بشكل قاطع على وجود الجمال في قصة يوسف رغم حضور كلمة (بعير) في تلك القصة مرتين (الآية 65 والآية 72)، لكنها جاءت في كلتيهما، لا للإشارة إليه كوسيلة للنجعة والارتحال، ولا كدابة للحمل، بل لبيان مقدار ما كان يبيعه يوسف من القمح للمشترين من خارج مصر؛ حيث كان يبيعهم مقدار ما يحمله بعير.

أما عن معنى الكلمة ذاتها (بعير) فليس معناها بهذا الجلاء الذي تبدو عليه ؛ لأنه إذا كانت كلمة بعير تستخدم غالبا بمعنى الجمل ، إلا أننا نجد كثيرا من التفاسير تفسر كلمة بعير في البداية بالمعنى المتبادر إلى ذهن كل سامع لتلك الكلمة وهو ذكر الجمل على الأغلب، لكنك تراهم يردفون إلى جانب هذا التفسير أقوالا أخرى يرى أصحابها بأن المقصود من كلمة بعير في هذه القصة هو الحمار لا الجمل وإليك ما جاء عند ابن كثير والطبري على سبيل المثال : وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ﴿٦٥﴾ يُوسُف ◉ وَذَلِكَ أَنَّ يُوسُفَ، كَانَ يُعْطِي كُلَّ رَجُلٍ حِمْلَ بَعِيرٍ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: حِمْلَ حِمَارٍ. وَقَدْ يُسَمَّى فِي بَعْضِ اللُّغَاتِ بَعِيرًا، كَذَا قَالَ[41].) وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ قال: كان لكل رجل منهم حمل بعير، فقالوا:

---

(40) موسوعة مصر القديمة - سليم حسن - المجلد الثاني -الهيئة المصرية العامة للكتاب 2000 م – ص 118

(41) ابن كثير ج4 ص399

أرسل معنا أخانا نزداد حمل بعير وقال ابن جريج: قال مجاهد: كَيْلَ بَعِيرٍ حمل حمار.

قال: وهي لغة قال القاسم: يعني مجاهد: أن" الحمار" يقال له في بعض اللغات:" بعير "[42].)

ولا ندري في الحقيقة ما السبب الذي يدعو مفسراً أو لغوياً لكي ينقل معنى هذه الكلمة من الاستخدام الشائع المعروف إلى استخدام آخر للكلمة أقل شيوعا، حتى وإن جاء في لغة من لغات العرب دون تقديم تفسير معقول يبرر تلك النقلة من المألوف الشائع إلى المهجور النادر؟

ويغلب على ظننا بأن هؤلاء المفسرين واللغويين ما عدلوا عن معنى البعير بمعنى الجمل إلى معنى الحمار إلا بتأثير مما سمعوه من بعض المرويات اليهودية التي جعلت بني يعقوب يترددون بين مصر بين وكنعان على ظهور الحمير كما سنرى، ومما يسر عليهم تلك النقلة هو اتساع دلالة كلمة (بعير) لتشمل إلى جانب الجمل أساسا الحمير وعامة دواب الحمل.

وحتى إذا أردنا أن نعرف دواب الحمل كما جاءت في القرآن عبر التعرف على ما تدل عليه كلمة (العير) في موضعيها في (الآية 70 والآية 90) فسنجد المعاجم اللغوية تتردد كذلك بين المعنيين ذاتهما، فهذا صاحب لسان العرب يقول (والعِيرُ الإِبل،---- وَقَالَ أَبو الْهَيْثَمِ فِي قَوْلِهِ: وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ كَانَتْ حُمُراً، قَالَ: وَقَوْلُ مَنْ قَالَ العِيرُ الإِبلُ خَاصَّةً باطلٌ. العِيرُ: كلُّ مَا امْتِيرَ عَلَيْهِ مِنَ الإِبل والحَمِير وَالْبِغَالِ، فَهُوَ عِيرٌ؛[43] وكذا فعل الزبيدي في تاج العروس (العِيرُ: الإِبِلُ الَّتِي تَحْمِلُ المِيرَةَ، بِلَا واحِدٍ لَهَا مِن لَفْظِهَا. وقيلَ: العِيرُ: قافِلَةُ الحَمِيرِ، ثمَّ كَثُرَتْ حَتَّى سُمِّيَتْ بهَا كُلُّ قافِلَةٍ، فكُلُّ قافِلَةٍ عِيرٌ، كأَنَّهَا جَمْعُ [44].

أما الذي نعتقده في هذه القضية - بل ولا نشك فيه - فهو أن النبي ما كان ليدور في خلده ما يعرفه كل أحد من أهل زماننا عن تاريخ هذا الحيوان، وزمن استئناسه وتطور أحجام تلك الحيوانات من كائنات صغيرة الحجم مثل اللاما، والألبكا، والجوناك،

(42) تفسير الطبري ج16 ص 162

(43) لسان العرب ج4 ص 624 دار صادر - بيروت الطبعة: الثالثة - 1414 هـ

(44) تاج العروس من جواهر القاموس الزبيدي الناشر: دار الهداية- ج13 ص175

والفيكونيا في العالم الجديد ليصير إلى الجمل ذي السنامين في آسيا الوسطى، والجمل العربي ذي السنام الواحد في المنطقة العربية، وهو الحيوان الذي صلح لحياة الصحراء أيما صلاح، حتى صار هو عماد الحياة نفسها في تلك الصحاري الممحلة.

وأما عن اعتقاد النبي في قدم وجود هذا الحيوان فلا شك أنه كان يظن بوجوده منذ أقدم الأزمان، بل ربما منذ بدء الخليقة نفسها، فقد رأينا كيف أن الله قد جعل من الناقة هي معجزة النبي العربي صالح، ولم يقل القرآن أبدا بأنها كانت مخلوقاً لا مثيل له من جنسه، بل كان ما جعل منها (ناقة الله) هو أنها كانت ناقة على هيئة خاصة بعظيم ما تشربه، وعظيم ما تدره من غزير ألبانها، وما كان النبي كذلك ليرى بأن إبراهيم قد ارتحل من فلسطين إلى مكة إلا مرتحلاً بعيراً، وما عاد ليزور ولده إسماعيل ليعلم ما صنع الله به إلا راكبا بعيرا، فليس من المعقول أن يخطر ببال النبي بأن إبراهيم قد قطع تلك المسافة البعيدة ماشياً، أو ممتطياً ظهر حمار. ورغم أنه

-لا يعنينا في قليل ولا كثير - ما قاله بعض المستشرقين من إرجاع كلمة (بعير) القرآنية نفسها إلى العبرية ؛ لأنها ربما كانت من المشترك اللغوي الجامع بين ألفاظ تلك اللغات الشقيقة جميعاً ، لكن ربما تشتمل هذه القطعة من النقل على بعض الفائدة لما نحن فيه إذ يعطينا مثالا واضحا على التكلف وسوء التأويل يقول (هورفيتز): (بناء على هذا الرأي فإن الكلمة الموجودة (يقصد كلمة بعير) في النص العبري أو الترجوم أو المشنا، طرقت أذن محمد ثم ظلت محفورة في ذاكرته، ولكنه خلال هذه العملية أعطاها المعنى العربي (بعير) بمعنى جمل بدلا من أن يستخدم الكلمة جمل أو ناقة في القرآن) ثم يفسر لنا باعث النبي من ذلك فيقول: (إن استخدام بعير بمعنى جمل على عكس حمار مثلا لأنه سهل التفسير حسب الاعتبار التالي : وهو أن الحمار في نظر العرب لم يكن يحظى بمكانة المطايا مثل تلك الجمال أو الإبل) ثم يقول : (في سفر التكوين (17- 45) قال يوسف لفرعون قل لأخوتك أن يضعوا الأحمال على دوابهم، ويذهبوا بها إلى أرض كنعان وبالنسبة لكلمة (دوابهم) فالأصل العبري بعيرهم ، ويسوق في هذا الموضوع مجادلة بين الفيلسوف الكبير ابن خالويه، وبين الشاعر الكبير المتنبي في حضرة سيف الدولة فقد سأل ابن خالويه المتنبي ما هو معنى كلمة بعير في القرآن الكريم ؟ فتحير المتنبي وهنا شرح له ابن خالويه معنى كلمة بعير فقال: إن كلمة بعير تعنى الحمار لأن

يعقوب وابنه يوسف كانوا يعيشون في أرض كنعان، ولم تكن في أرض كنعان إبل، وكانوا يحملون أثقالهم على حمير[45] .(

والحقيقة أن سياق القصة القرآنية لا يرشح شيئا من هذا التعليل البعيد؛ فما ضرورة أن يرفع النبي من دواب حمل العبريين أو يضعها؟ وما يضيرهم إن هموا ركبوا الحمير أو امتطوا الجمال؟ بل الأقرب هو أن النبي منح بني يعقوب هذه الدابة ، إما لأنه سمعها من قصصهم أو صحح خطئهم إذا كان قد بلغه أنهم كانوا يرتحلون على الحمير ؛ لأنه لم يرها وسيلة نقل صالحة لقطع تلك الرحلة البعيدة في الصحراء من فلسطين إلى مصر أما مصدر هذه القصة التي أوردها عن المتنبي وابن خالويه فقد جاءت في أكثر من مصدر كان من بينهم لسان العرب، لكن ابن منظور يورد بعد تلك القصة جملة تعضد ما قلناه حيث يقول : (وَفِي زَبُورِ دَاوُدَ: أَن الْبَعِيرَ كُلُّ مَا يُحْمَلُ، وَيُقَالُ لِكُلِّ مَا يُحْمَلُ بِالْعِبْرَانِيَّةِ بِعِيرٌ،[46]) .

وسواء أعرفت بيئة يوسف ويعقوب تلك المخلوقات كما تخبرنا التوراة والقرآن، أو لم تعرفها كما يبدو من النصوص التاريخية الفرعونية، فهذا مثال طيب على أن تلك الطريقة في التفكير كانت تبدو منطقية جداً لأصحابها؛ فقد افترض كاتب العهد القديم ومستلهم القرآن بأن ما كان موجود في بيئته فقد كان ولا بد موجودا في عصر يوسف ويعقوب وإبراهيم وربما قبل ذلك.

فهذه إذن طريقة إنسانية في التفكير، وإذا تذكرنا أن العهد القديم - وكذلك القرآن - كانا يعطيان زمنا قصيرا للغاية لعمر الخليقة؛ لذا فمن غير الغريب أن يعتقدوا بأن تلك الحيوانات النافعة كانت مدجنة مستأنسة منذ البدء، وقل مثل ذلك عن النقود، وما إلى ذلك من المفردات التي لا تتصور الحياة الإنسانية بدونها.

يهوذا وثامار

بينما نحن محزونون لبيع الصبي الوسيم عبداً، ونراه يحمل إلى مصر غريبا ضائعا، يتركنا كاتب التوراة فجأة - وهذا ليس من اللطف في شيء- لكي يقص علينا

(45) دفاع عن القرآن ضد منتقديه - د عبد الرحمن بدوى- ترجمة كمال جاد الله - الدار العالمية للكتب والنشر – ص 42-41

(46) لسان العرب ج4 ص 71

قصة أخرى فاحشة مخزية، ويستغرق تحققها أكثر من عشرين عاما - ليس عرضها من مقصودنا- ليسبب انقطاعا مؤقتا في أحداث الرواية، ولكنه يثير تساؤلا مشروعا عن ضرورة إقحامها على هذا النحو غير المفهوم داخل قصة يوسف؟ ، فليرجع إليها من يشاء (تك - الإصحاح 38).

وبعد أن عجزنا تماما عن إيجاد سبب منطقي واحد معقول لهذا الإقحام، فليس أمامنا سوى أن نقبل بالتفسيرات المسيحية لهذا الأمر، وعلى هذا، فعلينا أن نتفهم بأن ذلك كان ضروريا للغاية؛ فيهوذا سيصبح جد المسيح بالجسد، وكان لابد لنا أن نعرف شيئا عن مآثره وجليل خصاله، وثامار ستكون جدته كذلك، وهي على كل حال لم تفعل أي شيء من كل ما فعلت سوى لتنال شرف أن يكون من نسلها بعد قرون كثيرة - أكثر من عدد أصابعها المباركة - السيد المسيح فدعونا نمضي.

يوسف في بيت فوطيفار

(وكان الرب مع يوسف فكان رجلا ناجحاً، وكان في بيت سيده المصري ورأى سيده أن الرب معه وأن كل ما يصنع كان الرب ينجحه بيده فوجد يوسف نعمة في عينيه وخدمه فوكله على بيته ودفع إلى يده كل ما كان له وكان من حين وكله على بيته وعلى كل ما كان له أن الرب بارك بيت المصري بسبب يوسف، وكانت بركة الرب على كل ما كان له في البيت وفي الحقل فترك كل ما كان له في يد يوسف ولم يكن معه يعرف شيئا إلا الخبز الذي يأكل)(تك 39 2-6).

في بيت فوطيفار السيد المصري سنسمع لحنا - سيتكرر كثيرا فيما بعد وعلى نحو أوضح- إذ سنرى كيف تحل بركة يوسف على البيت الذي يحل فيه، وكلما ترك السيد له شيئا تزداد البركة الإلهية، لذا فليس من الغريب في شيء أن ينفض ذاك المصري الأريب يده من جميع الأمور، تاركا إياها بين يدي يوسف مكتفيا بالخبز الذي يأكله، وإذا صعب على - سيدي القارئ - أن يصدق ذلك، فعليه أن ينتظر - قليلا - لكي يدي من هو أعظم بكثير من فوطي فار يفعل مثل ذلك، بل وأكثر منه.

يوسف في السجن

(ولكن الرب كان مع يوسف وبسط إليه لطفا وجعل نعمة له في عيني رئيس بيت السجن فدفع رئيس بيت السجن إلى يد يوسف جميع الأسرى الذين في بيت السجن وكل

ما كانوا يعملون هناك كان هو العامل، ولم يكن رئيس بيت السجن ينظر شيئا البتة مما في يده؛ لأن الرب كان معه ومهما صنع كان الرب ينجحه))تك39-21-23(.

لن يكون من الغريب أن نتوقع أن تصحب يوسف البركة الإلهية لتكون معه في السجن - أيضا - فالمهمة هنا أسهل وأخف وطأة، فليس ثمة بيت ولا حقل ولا أي شيء، بل أربعة جدر يثوى بين جوانبها بعض المحبوسين، ظالمهم ومظلموهم، فهذا رئيس بيت السجن تحل عليه البركة الإلهية ويحظى يوسف بالنعمة في عينيه، ويدفع إلى يد يوسف جميع الأسرى والمحبوسين ويقضي وقته في بطالة كاملة لا نعرف كيف كان يعالجها؟

أما كيف فعل رئيس بيت السجن ذلك، وهو مرؤوس لفوطيفار وكيف أغدق على يوسف هذا الإكرام رغم أن رئيسه المباشر هو من زج بيوسف في السجن؟ فهذا أمر واضح حقا!: (وهذا التغير في المعاملة كان قطعًا بمعرفة فوطيفار المشرف على السجن القريب من بيته وهذا يعني أنه راجع نفسه، وبدأ يستعيد ثقته في يوسف ويوجه الاتهام في قلبه إلى امرأته، ولكنه لم يستطع أن يخرج يوسف من السجن، وإلا تعرضت كرامته للإهانة بسبب شهوة امرأته الشريرة.[47]).

ومما يدعو للإعجاب - لا للعجب - أن تلك المهارات كلها قد ظهرت على يد فتى يافع ومدلل لم تتسخ يديه بأي عمل قط طيلة حياته، فكما نعلم فقد قضى يوسف سبع عشرة سنة من عمره لا يفعل فيها شيئا، بل ظل فيها قريبا من حضن أبيه، وأما في حياته الجديدة، فقد بدأ يوسف قادرا على حل كل عقدة، وتذليل كل عقبة، وإنجاح كل مسعى، ولا ندري من أين أتى يوسف بتلك المهارات المتنوعة كلها - عدا موهبة تأويل الأحلام فهي موهبة إلهية لا نشك فيها !- ولكن من أين اكتسب يوسف تلك المعارف في طرق الإدارة وطرق تخزين الغلال الخ فهذا أمر يدعو للإعجاب حقا أليس كذلك ؟

يوسف يفسر الحلمين

(فقال له يوسف: هذا تعبيره الثلاثة القضبان هي ثلاثة أيام في ثلاثة أيام - أيضا - يرفع فرعون رأسك، ويردك إلى مقامك فتعطي كأس فرعون في يده كالعادة الأولى حين كنت ساقيه وإنما إذا ذكرتني عندك حينما يصير لك خير تصنع الي إحسانا وتذكرني لفرعون

---

(47) السابق ص 285

وتخرجني من هذا البيت لآني قد سرقت من أرض العبرانيين، وهنا - أيضا - لم أفعل شيئا حتى وضعوني في السجن) (تك 40 12-15(
وبعد مدة - لا نعرف أطالت أم قصرت - حلّ على السجن رجلان بارزان ؛ وهما رئيس سقاة فرعون ورئيس خبازيه، ومن الطبيعي أن نتوقع بأن رئيس الشرط، وقد وجد أخيرا شيئا يفعله ، فقد شمر عن ساعديه، واهتم بهما فمن يعلم فقد يستعيدان نفوذهما السابق إن سامحهما الفرعون - ولا تعجب أيها القارئ العزيز فهذا يحدث في جميع الأماكن والعصور- ، وعلى هذا فقد خصص رئيس بيت السجن يوسف لخدمتهما - فأقاما أياما حلما فيها كلاهما حلما في ذات الليلة، فدخل يوسف إليهما في الصباح، ونظرهما وإذا هما مغتمان كاسفي البال لأنهما لم يجدا أحدا يفسر لهما ما رأياه في منامهما ، وفي الحقيقة ما كانا لهما أن يغتما أو يحزنا أبدا ؛ فعلى الخبير سقطا ، وقص عليه الرجلان ما رأياه، وفسره لهما يوسف على الفور، وعلى نحو قريب جدا من الرواية القرآنية ، ثم عرض يوسف بعدها قصته متمنيا على الساقي الذي بشره بالنجاة أن يتكرم برفعها لفرعون بعد أن يمثل بين يديه بعد ثلاثة أيام.

حلم فرعون

)جهل الله حكمة هذا العالم) (1 كو 1 -20).
(وحدث من بعد سنتين من الزمان أن فرعون رأى حلماً، وإذا هو واقف عند النهر، وهو ذا سبع بقرات طالعة من النهر حسنة المنظر و سمينة اللحم فارتعت في روضة ثم هو ذا سبع بقرات أخرى طالعة وراءها من النهر قبيحة المنظر ورقيقة اللحم فوقفت بجانب البقرات الأولى على شاطئ النهر فأكلت البقرات القبيحة المنظر والرقيقة اللحم البقرات السبع الحسنة المنظر و السمينة، واستيقظ فرعون ثم نام فحلم ثانية وهو ذا سبع سنابل طالعة في ساق واحدة سمينة و حسنة، ثم هوذا سبع سنابل رقيقة وملفوحة بالريح الشرقية نابتة وراءها فابتلعت السنابل الرقيقة السنابل السبع السمينة الممتلئة واستيقظ فرعون وإذا هو حلم)(تك 41-1-7).

ظل يوسف رهين محبسه بسبب ذلك الساقي النسَّاء، فقضى سنتين كاملتين وفق الرواية التوراتية، وأكثر من ذلك وفق الرواية القرآنية ، ولكن ما من مشكلة في ذلك ، فكل الناس في النهاية يحلمون، العامة والخاصة، السوقة والملوك، فحدث أن رأى

فرعون حلمين أفزعاه (جمعهما القرآن في رؤيا واحدة)، فدعا حاكم مصر جميع سحرة مصر وجميع حكمائها وقص عليهم فرعون حلمه فلم يكن من يعبره لفرعون، وهنا استفاق ذلك الساقي من سباته الطويل، وقص على سيده ما حدث له ولرفيقه من غرائب في السجن، وما كان من أمر يوسف ومواهبه الخارقة في تعبير الرؤى وتفسيرها، ولم يكن بين معرفة فرعون - المكدر والمنزعج - لمعنى هذين الحلمين العويصين سوى الوقت الذي يستغرقه أن يبدل يوسف ثيابه، ويحلق لحيته، والذي ما أن حضر بين يدي الفرعون حتى فسره له الفور، ولكن ما يعنينا هنا هو كيف فهم يوسف الرسالة ونقلها إلى الملك: (فقال يوسف لفرعون حلم فرعون واحد قد أخبر الله فرعون بما هو صانع)، (هو الأمر الذي كلمت به فرعون قد أظهر الله لفرعون ما هو صانع)، (أما عن تكرار الحلم على فرعون مرتين فلأن الأمر مقرر من قبل الله، والله مسرع ليصنعه).

إذاً، فقد قرر الله أمراً، وهو أن تضرب المجاعة هذا الجزء من الأرض، وأرسل الرب الرحيم في طيات ذات الرسالة طريقة علاج تلك الأزمة، ولم يكن التكرار عبثاً؛ فقد أفاد التكرار بأن الأمر قد بات مقررا في المشيئة الإلهية، وسيدخل حيز التنفيذ سريعا، وعلى هذا فلم يكن من دور ليوسف سوى أن يترجم للملك هذه اللغة الإلهية الملغزة، ولم يندهش الملك مطلقا من هذا التفسير، وإن أعجب بالترجمة الدقيقة، هذا هو كل شيء.!

هذه الطريقة وعلميتها .

لسنا بحاجة إلى الإشارة إلى الضعف الشديد لأساس تلك القصة الدينية برمتها، فمن المعلوم أن تلك الطريقة في تفسير الأحلام لا علاقة لها بالتفسير العلمي الحديث للأحلام - من قريب أو من بعيد - فهي تعتمد على كون الأحلام رسائل من الرب أو كما يقول أحد كتب الحكمة الفرعونية: (يخلق الرب الأحلام ليوضح الطريق أمام البشر عندما لا يستطيعون رؤية المستقبل[48]) .

من ناحية أخرى فهذه القصة التي جعلت من يوسف قادراً وحده دون جميع حكماء مصر وكهنتها على تفسير الأحلام وتأويلها، بل وجعلها القرآن منها آيته العظمى، لا تستقيم مع وقائع القصة التوراتية ذاتها، فكما رأينا فلم يجد إخوة يوسف صعوبة في إدراك مغزى حلمي يوسف فضلاً عن يعقوب بالطبع؛ لذا فإذا قبلنا أن ينجح يوسف في

(48) المعجم ص 16

تفسير حلمي الساقي والخباز؛ إذ ليس من السهل العثور على مفسري أحلام بارعين في ذلك المكان الضيق، فمن غير المعقول أن تعجز حكمة المصريين كلها في تفسير حلمي الملك، واللذان كانا أكثر وضوحاً من حلمي يوسف، خاصةً إذا جاءا في حلم رجل يقف على رأس دولة نهرية عتيدة، وتتعاقبها موجات الرخاء والبلاء إذ تعتمد حياتها كلية على فيضان النيل ومستوى تدفقه عاما بعد عام .

ومن الطريف أن نلاحظ أن تلك الطريقة الرثة والخاطئة لتفسير الأحلام قد أشاعها في العالم القديم نبي عبراني عاش قبل الميلاد بقرون كثيرة، وتمت إزاحتها كذلك - وإلى غير رجعة - على يد يهودي آخر كتب كتابه عن الأحلام وتفسيرها في فاتحة القرن العشرين.

المصريون وتفسير الأحلام

إذا تذكرنا أن المصريين قد عرفوا الأحلام وطريقة تفسيرها على النحو ذاته لازداد عجبنا من تلك القصة الغريبة، بل ربما يمكننا الذهاب إلى أبعد من ذلك لنقول إنه ليس من البعيد أبدا أن يكون العبرانيون قد أخذوا - فيما أخذوا - من المصريين تلك الطريقة في تفسير الأحلام وتأويلها .

فمثلاً نقرأ :(اعتاد الناس في مصر القديمة إذا أرادوا معرفة المستقبل الذهاب إلى معبد إله معين والنوم فيه، ثم إخبار الكاهن المختص بتفسير الأحلام بمجريات هذا الحلم، وعند ذلك يقوم الكاهن بتفسير الحلم وفقا لمعرفته السرية بأصول هذا العلم [49])، بل ونجد أن النظام الكهنوتي المصري المعقد كان يضم بين طبقاته السبع طائفة من الكهنة يسمون مفسرو الأحلام (العالمون بالغيب وهم الضالعون في عالم الظواهر الليلية وتعليم هذا العلم العرافي[50])، بل الأكثر من ذلك أننا نجد بأن (هناك بردية فرعونية يمكن أن تسمى بكتاب الأحلام، ويتكون هذا الكتاب من مجموعة من القواعد الثابتة لتفسير الأحلام فكل حلم يتكون من ثلاثة حقول هي:

1. متن الحلم - حيث يقول النص - إذا رأى إنسان نفسه في الحلم كذا.
2. الحكم على الحلم حيث يقول النص - فإن ذلك جيد أو سيئ.

---

(49) (السابق ص 274

(50) الدين المصري خزعل الماجدي - دار الشروع للنشر والتوزيع- م 144الطبعة العربية الأولى 1999م

3. فسير الحلم حيث يقول النص - فإن ذلك يعني ...
وفيما يلي بعض الأمثلة لبيان ذلك فمثلاً : إذا رأى رجل نفسه في الحلم (وهو يفتح الخمر - جيد - فإن هذا يعني أنه سيفتح فمه ليتكلم - وهو يجلس على شجرة - جيد معناه تدمير كافة مآسيه- وهو يقتل أوزة - جيد - يعني قتل جميع أعداءه-
يزور بوزوريس - جيد - يعني أن عمره سيكون طويلا - ينظر في بئر عميقة - سيئ- يعني أنه سيوضع في السجن - يأخذ النار – سيئ يعني أنه سيقتل أو يذبح-
ينظر إلى قزم - سيئ- يعني أنه سوف يؤخذ منه نصف حياته الخ ... وفي بردية أخرى: إذا رأى إنسان نفسه في المنام ناظرا إلى أفعى - حسن - فهذا يعني ثروة - الفم مملوء بالتراب - حسن، فهذا يعنى أكل ممتلكات جيرانه - ملتهماً لحم حمار - حسن، فهذا يعني ترقية- في ثياب الحداد حسن فهذا يعني الإثراء- وهو يتناول خبزا أبيض - حسن - سيحدث شيء ما يسعد له - ممارسة الحب مع أخته - حسن - هذا يعنى ميراثا- ناظرا إلى ثور نافق - حسن - هذا يعني موت أعداءه - عابرا الماء بواسطة معديه - حسن - القضاء على مصائبه[51].

إذاً وفي تطابق تام مع التفسير اليوسفي لمعنى الأحلام كان المصريون: (يعتبرون الأحلام رسائل إلهية رمزية وكان على الكهنة المختصين تفسيرها لأنها تقع ضمن خطط الآلهة المستقبلية [52].)

إذن لماذا عجز المصريون ؟

من يقرأ حلمي الفرعون فلا بد وأن يدهش من فرط وضوحهما، خاصة أنه - وكما رأينا - قد صيغا في قالب رمزي مصري خالص، فقد كانا متصلين بالنيل والأبقار والسنابل وجميع مفردات الحلم يجعل من تأويله أمرا ميسورا، لقد، بل لقد رأى أحد المتأملين المحدثين في هذه القصة أن: (تكرر حلم فرعون على نمط واحد لكي يبين لأبلد العقول أن حادثا جوهريا قصد به أن يتم) فإذا كان الأمر كذلك فلماذا إذن عجز الكهنة والسحرة جميعا عن تفسيره؟ إليك هذا التفسير اللاهوتي المذهل: (والآن وأمامنا التفسير فإننا لاندهش لأن يوسف قدمه، بل لأن جميع حكماء فرعون عجزوا عن الوصول إليه،

---

(51) السابق - ص 275
(52) ذات المرجع ص 276

ولكن لعل الله سمح بطمس بصائرهم لكي تكون الفرصة مهيأة لرفعة يوسف التي قصدت له منذ طفولته [53]).وهذا التفسير يذكرنا على الفور بتفسير فرقة (المعتزلة) إعجاز القرآن بالقول بـ (الصُرفة [54]) أي أن الله قد صرف بلغاء العرب وفصحائهم، وحال بينهم وبين أن يأتوا بمثل القرآن - وإن كانوا قادرين على ذلك، ولكن، وكما لم يوافق جمهور المسلمين على هذا الرأي فنحن نعتقد ألا يوافق جمهور المؤمنين من الأديان الثلاثة جميعا على هذا التفسير اللاهوتي الطريف .

أما عن رأينا نحن؟ فنحن إذ نرى بأن وجود تفسير ما، مهما كان ضعيفا، بائسا، مضحكا، خير من عدم وجوده، والبقاء فاغري الأفواه أمام السؤال الفادح، وعلى هذا فليس أمامنا سوى الاعتراف التام بصحته، والقبول الكامل بوجاهته، فدعونا نمضي.

---

(53) ص70 حياة يوسف

(54) وجد المعتزلة فيما يبدو في القول بالصرفة مخرجا لجميع المشكلات التي تثيرها القراءة العقلانية للقران الكريم ! فاذا لم يقنعهم مثلا أن يعجز العرب في أن يأتوا بمثل القرآن وهم أهل اللسن والفصاحة فالحل انهم صُرفوا عن ذلك وان كانوا عليه قادرين وكذلك إذا لم يستقم عندهم أن تكون الشياطين التي تسترق السمع للكهان بمثل هذه البلاهة حتى يعرضوا انفسهم لخطر القذف بالشهب والصواعق ومع ذلك نراهم يصعدون فيرمون بالشهب ثم يصعدون ويقذفون ! فالصرفة هي الحل أي أن الله ينسي الشياطين ما حدث لهم ولإخوانهم فيعيدون الكرة الي ما نهاية فيهلكون وينسي الله ما بعدهم !

وأيضا تأتي الصرفة عندهم كحل لتيه بني إسرائيل في البرية أربعين عاما ومن يعلم صغر ارض سيناء وحجم شبه الجزيرة تلك وعدد بني إسرائيل الخارجين مع موسى ومعرفة الألوف منهم بطرقها المعهودة لهاله أن يصدق احد أن يتيه فيها إنسان لأربعين يوما وليس جماعة ضخمة لأربعين عاما كاملة دون أن ننسى أن موسى نفسه قطع تلك الطريق ذهابا وإيابا فكيف يضل عنها ؟ لكن كان القول (بان الله صرف أوهامهم عن الصواب ابتلاءً وامتحانا حلا معقولا وقل مثل ذلك عن جهل سليمان بوجود مملكة سبا على شديد قربها من فلسطين ومع تسخير الله لسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر وناهيك عن جنوده من الجن الذين يطوون المسافات في سرعة عظيمة يعجز عن معشارها البشر مع ذلك لم يعرف سليمان بوجود تلك المملكة وآهلها إلا عن طريق طائر مغامر ابعد النجعة فعلم من إخبار تلك المملكة مالم يعلمه سليمان أو احد من أهل مملكته فكان القول بان الله صرف تلك الأمة التي كان سليمان نبيها عن معرفتها - حلا مقبولا لديهم - ولكن إذا تذكرنا ان الملكة واهل تلك المملكة لم يكونوا يعرفون شيئا عن سليمان فكيف خفي عنهم ملك بكل تلك العظمة ؟ وفي جملة واحدة فقد كان القول بالصرفة حلا غير عقلاني عند فرسان العقل في الإسلام

انظر -- الحيوان - الجاحظ - ج6 لاص 455 - دار الكتب العلمية - بيروت الطبعة: الثانية، 1424 هـ

كيف أصبح فرعون مصر ملكا دستوريا؟

(فَالآنَ لَيْسَ أَنْتُمْ أَرْسَلْتُمُونِي إِلَى هُنَا، بَلِ اللهُ. وَهُوَ قَدْ جَعَلَنِي أَبًا لِفِرْعَوْنَ وَسَيِّدًا لِكُلِّ بَيْتِهِ وَمُتَسَلِّطًا عَلَى كُلِّ أَرْضِ مِصْرَ.)

رأينا كيف أعجب فرعون أيما إعجاب بتفسير يوسف لحلميه العويصين، وكيف شرع دون تأخير للبحث عن رجل ينهض بتلك المهمة، ولكن لماذا يذهب فرعون بعيداً، ورجل الساعة أمامه؟ فبعد دقائق من التأمل الصامت فوجئ يوسف بفرعون مصر وهو يبتسم له قائلا - بالهيروغليفية طبعا-: لن نجد - يا عزيزي يوسف - أفضل منك ليتولى تلك المهمة الثقيلة!

وفي الحقيقة أن من يعرف - ولو أقل القليل - عن تعقد النظام الإداري المصري، وتراتبيته المربكة فسوف يصيبه الدهش والذهول -الذي سيلطفه بالطبع حضور حس الفكاهة- عندما يقرأ ما منحه كاتب التوراة السخي ليوسف من صلاحيات واسعة تتجاوز بكثير تلك المهمة المحددة والتي سيظل يوسف متمتعا بها لثمانين عاما كاملة، لكي تسجل أعلى أجر- في التاريخ البشري بأسره- لتفسير حلم من الأحلام!

دعونا نقرأ: (فَحَسُنَ الْكَلاَمُ فِي عَيْنَيْ فِرْعَوْنَ وَفِي عُيُونِ جَمِيعِ عَبِيدِهِ. فَقَالَ فِرْعَوْنُ لِعَبِيدِهِ: «هَلْ نَجِدُ مِثْلَ هذَا رَجُلاً فِيهِ رُوحُ اللهِ؟» ثُمَّ قَالَ فِرْعَوْنُ لِيُوسُفَ: «بَعْدَ مَا أَعْلَمَكَ اللهُ كُلَّ هذَا، لَيْسَ بَصِيرٌ وَحَكِيمٌ مِثْلَكَ. أَنْتَ تَكُونُ عَلَى بَيْتِي، وَعَلَى فَمِكَ يُقَبِّلُ جَمِيعُ شَعْبِي إِلاَّ إِنَّ الْكُرْسِيَّ أَكُونُ فِيهِ أَعْظَمَ مِنْكَ». ثُمَّ قَالَ فِرْعَوْنُ لِيُوسُفَ: «انْظُرْ، قَدْ جَعَلْتُكَ عَلَى كُلِّ أَرْضِ مِصْرَ». وَخَلَعَ فِرْعَوْنُ خَاتِمَهُ مِنْ يَدِهِ وَجَعَلَهُ فِي يَدِ يُوسُفَ، وَأَلْبَسَهُ ثِيَابَ بُوصٍ، وَوَضَعَ طَوْقَ ذَهَبٍ فِي عُنُقِهِ، 43 وَأَرْكَبَهُ فِي مَرْكَبَتِهِ الْثَّانِيَةِ، وَنَادَوْا أَمَامَهُ «ارْكَعُوا». وَجَعَلَهُ عَلَى كُلِّ أَرْضِ مِصْرَ. 44وَقَالَ فِرْعَوْنُ لِيُوسُفَ: «أَنَا فِرْعَوْنُ. فَبِدُونِكَ لاَ يَرْفَعُ إِنْسَانٌ يَدَهُ وَلاَ رِجْلَهُ فِي كُلِّ أَرْضِ مِصْرَ». وَدَعَا فِرْعَوْنُ اسْمَ يُوسُفَ «صَفْنَاتَ فَعْنِيحَ»، وَأَعْطَاهُ أَسْنَاتَ بِنْتَ فُوطِي فَارَعَ كَاهِنِ أُونَ زَوْجَةً. فَخَرَجَ يُوسُفُ عَلَى أَرْضِ مِصْرَ. وَكَانَ يُوسُفُ ابْنَ ثَلاَثِينَ سَنَةً لَمَّا وَقَفَ قُدَّامَ فِرْعَوْنَ مَلِكِ مِصْرَ. فَخَرَجَ يُوسُفُ مِنْ لَدُنْ فِرْعَوْنَ وَاجْتَازَ فِي كُلِّ أَرْضِ مِصْرَ.) (41 -37-45).

كانت تلك إذاً آخر قرارات فرعون مصر فبعد أن منح يوسف اسما مصريا – ولا ندري هل أعتقه قبل ذلك أم لا - وأمره بأن يتزوج سريعا ، فليس من المقبول أن يظل من سينهض بهذه الأعباء كلها دون امرأة، خاصة وأنه قد تعرض من قبل لإغراءات شديدة

بسبب من جماله رغم أنه كان عبدا فقيرا فما بالنا الآن؟!، ولا يعنينا هنا من كانت تلك الزوجة، وهل كانت ابنه فوطيفار أو ابنه رجل آخر فالتقارب الشديد في اسميهما يثير الريبة، وإن جعلت المرويات التلمودية منهما اسمين لرجل واحد - ولكن على كل حال ما كان فرعون ليختار له إلا زوجة من أشرف البيوتات المصرية وأعرقها .

ومن تلك اللحظة سيغيب فرعون مصر معتكفا في قصره، ولن نعثر على أي أثر يشير لحكمه لبلاده اللهم إلا مرة واحدة عندما قطع عليه خلوته الطويلة تلك أحد رعاياه المزعجين مطالبا له التدخل لكن يبدو أنه استمرأ تلك العطالة الملكية فصاح مزمجراً: (اذهبوا إلى يوسف).

صواع الملك أم كاس التفاؤل ؟

من الجوانب المشتركة بين القصتين - أيضا - ما أورده القرآن عن (السقاية)، و(صواع) الملك التي أوعز يوسف لرجاله بدسها في رحل شقيقه لكي يضمه إليه، ويكيد لإخوته قبل أن يعلن لهم عن نفسه في النهاية : ﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ..يُوسُف: 70 - 72

وبسبب من مزاوجة الرواية القرآنية للمسروق بأن جعلت من هذا الإناء المسروق مرة سقاية أي إناء يشرب فيه، ومرة صواعا - أي مكيالا يُكال به القمح - فقد أزعج هذا المفسرين الذي حاروا في الجمع بين الوظيفتين المختلفتين لهذا الإناء الواحد، ثم استقروا مضطرين على جعله بكيفية يصلح معها لأداء المهمتين جميعا! فهو على هذا كان إناءً من المعدن النفيس ذهبا كان أو فضة لكي يليق ككأس شراب بهذا الملك المترف، وهو - أيضا - كان مكيالا يكال به القمح للناس لندرته وعزته في تلك المجاعة الشديدة: (أمر بعض فتيانه أن يضع "السقاية"، وهي: إناء من فضة في قول الأكثرين. وقيل: من ذهب -قاله ابن زيد - كان يشرب فيه، ويكيل للناس به من عزَّة الطعام إذ ذاك، قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والضحاك، وعبد الرحمن بن زيد. قال شعبة، عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: { صُوَاعَ الْمَلِكِ } قال: كان من فضة يشربون فيه، وكان مثل

المكوك، وكان للعباس مثْله في الجاهلية،[55]) (فمن وراء الستار يدس يوسف كأس الملك وهي عادة من الذهب وقيل : إنها كانت تستخدم للشراب، ويستخدم قعرها الداخل المجوف من الناحية الأخرى في كيل القمح، لندرته وعزته في تلك المجاعة [56].)

والحقيقة أن جميع تلك التفسيرات غير مقنعة بالمرة؛ إذ كيف يستخدم إناء صغير لكي يُكال به القمح للناس؟ خاصة إذا علمنا أن ما كان يعطيه يوسف للناس ليس شيئا قليلا يصلح معه هذا الوعاء الصغير ، بل كان يعطى كل رجل قدر ما يحمله بعير؟!! إلا أنه يخطر لنا أن نجعلهما شيئين مختلفين - كما هو ظاهر في نص القرآن -، فيوسف قد دسّ في رحل أخيه إناء ثمينا كان يستخدم لتقديم الشراب إلى الملك أو إليه، ثم أعلن رجاله بأن صواع الملك؛ أي مكياله الرسمي الذي يكال به للمشترين قد سرق؛ لأنه هو الشيء المعقول لاتهامهم بسرقته، وخاصة إذا تذكرنا بأن القرآن لا يشير إلى أن يوسف قد أولم لإخوته وليمة حافلة كما فعلت التوراة، وجلس يأكل ويشرب من كأسه تلك على مائدة خاصة بالقرب منهم، وإلا فمن أين لهم أن يروا بأعينهم كأس الملك وهي لا تكون إلا في مجلس شرابه؟! وعندما فتشوا متاع إخوته عثروا على هذه الكأس النفيسة بين متاع أخيه، وسواء أاستخرج هذا أم ذاك، فقد ثبتت السرقة على من وجد معه هذا أم ذاك!

فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ ﴿٧٦﴾

ومما زاد الأمور تعقيدا تلك الصيغة القرآنية المبهمة في الإشارة إلى المستخرج من رحل بنيامين، والتي لا نعرف منها أي الإناءين قد استخرج، إلا لو اعتبرنا أن عود الضمير إلى هذا المستخرج قد جاء مؤنثا، وهو ما يوافق السقاية دون الصواع، ولكن المعاجم العربية تطبق علينا الدائرة، حيث نراها تجيز التذكير والتأنيث لكلتا الكلمتين، وعلى كل حال فهذا الذي نقترحه هنا ليس في الرواية القرآنية ما يمنعه أو يثبته، فدعونا ننتقل إلى الرواية الأخرى مكتفين هنا بالإشارة إلى وجوب أن ندرك أن حضور كلمة (سقاية) من أساسها ما هي إلا مجرد أثر من آثار حضور قصة كأس التفاؤل اليوسفية في العقل النبوي.

---

[55] تفسير القرآن العظيم لابن كثير - دار ابن حزم - الطبعة الأولى 2000م - ص 989

[56] الظلال : ج4 ص 2019

هل كان يوسف يتفاءل؟!

(فَقَالَ لَهُمْ يُوسُفُ: «مَا هذَا الْفِعْلُ الَّذِي فَعَلْتُمْ؟ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ رَجُلاً مِثْلِي يَتَفَاءَلُ؟) (تك 44: 5).

أما في الرواية التوراتية، فهي وإن غاب عنها هذا الالتباس في بيان الإناء المسروق، إلا أن وظيفته جاءت محيرة مدهشة، فقد كانت كأسا يتفاءل بها يوسف ؛ أي يستعملها كوسيلة للعرافة أو، الاطلاع من خلالها على الغيوب، وهذا ما لم يتحرج من نسبته إلى يوسف هذا الناقد الفكه والقاسي للتوراة : (هذه القصة الساذجة التافهة نجدها في الإصحاح الثالث والأربعين من سفر التكوين، فيوسف لم يكن بعيدا عن المكر والخداع على الرغم من طيبته وحسن طويته إذ بينما كان إخوته يأكلون ويشربون ويمرحون أمر خادمه أن يضع كأسه الفضية الرائعة بين أشياء بنيامين .ولما انتهت الوليمة أذن للرجال بالرحيل إلى عجوزهم، وما أن ابتعدت القافلة حتى أرسل خادمه ليلحق بهم في كوكبة من الفرسان فأدركوهم ووجه إليهم الخادم تهمة سرقة الكأس قائلا: لقد سرقتم كأس الحاكم الثمينة التي يرجم بها، إذن كان ابن يعقوب المدلل أول من بصر في فنجان القهوة؟[57])

أما السير جميس فريزر فجاء تفسيره لوظيفة القدح المسروق على نحو أكثر تخصصا؛ إذ يقول بعد أن أورد عبارة يوسف التأنيبية لإخوته: (ما هذا الفعل الذي فعلتم؟ ألم تعلموا أن رجلا مثلي يتفاءل؟) بقوله: (ويمكننا أن نخلص من هذه العبارة أن يوسف كان يتباهى بصفة خاصة بمقدرته على اكتشاف اللص عن طريق قدح التكهن [58]) ثم ساق هذا المؤلف - شاسع الثقافة - كعادته - عشرات الأمثلة الدالة على حضور أمثال تلك الممارسات الخرافية عبر التاريخ، وفي أماكن شتى من العالم، ولكن هذا لا يعنينا في شيء، بل ما يعنينا هنا هو التدليل على هذا الاستخدام الوظيفي للقدح اليوسفي في تلك القصة القديمة وتناقضه مع التصور المسيحي عن (رجل الله)، وتعارضه مع التصور الإسلامي عن طبيعة النبي وما يليق به !

---

(57) (يو تاكسيل التوراة كتاب مقدس ص 155

(58) الفلكلور في العهد القديم - الجزء الثاني - الهيئة العامة لقصور الثقافة - ص 249

لذا فمن الطبيعي ألا يوافق الشراح المسيحيون على نسبة تلك الممارسة الوثنية إلى رجل من رجال الله كيوسف فجاء تأويلهم لما حدث على هذا النحو : (أما طاس التفاؤل فيعرفه كل من درس التاريخ القديم ، وكان يصنع أحيانا من البلور والأحجار الكريمة، وكان من المفروض أن كل من يشرب منه تعلن له كل الأسرار وتغنى هومر بكأس نسطور ويخبرنا سبنسر الإنجليزي أن بريتو مارت ابنة الملك وجدت كأس مرلين في مخدع أبيها واستخدمته لكشف سر يتعلق بها مباشرة، ونحن بطبيعة الحال لا نعتقد أن يوسف قد استخدم كأسا كهذه لغرض كهذا، ولكنه أراد أن يحتفظ بطابع المصري رفيع الشأن فقد كان كل الأشراف المصريين يستخدمون مثل هذه الكأس، وكان هذا الالتجاء إليها أمرا طبيعيا[59])، وهذا شارح آخر يقول :(طاس الفضة هو كأس يستخدم في الشرب وكانت بعض الأمم يتفاءلون بهذا الكأس فكانوا يلقون عملة أو خاتم فيه ويتأملون عدد الفقاقيع التي تظهر واتجاهاتها، وعلى حسب هذا يحددون المستقبل ...... وهذه العادة مازالت موجودة في مصر مع من يدعي معرفة المستقبل من فنجان القهوة ..... وكان البعض يستخدم الكأس لاستجلاب النوم خلال التأمل المستمر والعميق في الفقاقيع التي تظهر فيه، حيث يعطي ذلك للإنسان شيئًا من النوم. وهذه العادات الوثنية هي التي يعنيها القول هنا في آية (5: يتفاءل به) ومن المؤكد فإن يوسف الطاهر النقي، خائف الله لا يمكن أن يعني هذا حرفيًا. بل كما قلنا هي خطة لإرجاعهم ثانية.[60]).

ولا حاجة بنا للقول بأن النبي محمدا ما كان ليوافق على نسبة تلك الممارسة لنبي من الأنبياء، والذين كانوا في غنى عن التعرف على غيوب الله عبر تلك الطرائق الملتوية، وهم يتواصلون مع الله عبر الوحي المباشر، لذا فقد كان من الميسور على النبي أن يتجاهل تلك التفصيلة الكتابية، خاصة أنها جاءت على هذا القدر غير القليل من الإبهام والغموض، وفي حالة أن اضطر النبي إلى تقبل شيء كهذا، فقد كان في وسعه الخروج من تلك المشكلة عبر إيجاد حل لا يبعد كثيرا عما افترضه من وقوع حالات الوحي متزامنة مع النظر في خطوط الرمل كما سنرى في حديث : (كان نبي من الأنبياء يخط).

---

(59) حياة يوسف ص 106

(60)القس أنطونيوس فكرى - شرح سفر التكوين - ص 374

الحقيقة أننا لا ندري - كذلك - ما السبب الذي دعا كاتب التوراة لنسبة شيء كهذا ليوسف؟ إلا لو افترضنا أنها كانت انتقاءً لذلك المحرر من بين مرويات أخرى كثيرة كانت تحت يديه، وكانت تتحدث عن رجل لا غضاضة في نسبة أمثال تلك الممارسات إليه، ولكن ورغم أن الصورة قد نقحت مرة بعد أخرى، فقد أفلتت من بين تلك التنقيحات نتفاً قليلة، تنبأنا بما كان عليه أصل القصة القديم وصاحبها، ومن جانبنا فلا نجد بأسا في ممارسة يوسف لشيء من هذا القبيل، خاصة وأن الرجل لم يكن نبيا، بل كان وفق التصور الكتابي مجرد رجل صالح ، وقد عاش طويلا بين المصريين، وتعلم لغتهم، وأخذ ما أخذ من عاداتهم، فلماذا يستنكف الشراح المسيحيون أن يحاول رجل كيوسف أن يستطلع الغيوب بتلك الطريقة التي لم ير كاتب التوراة حرجا في نسبتها إليه ؟ وإذا تذكرنا بأن يوسف قد عاش ومات قبل عصر الشريعة، التي ستحرم التفاؤل والتشاؤم: (لا يوجد فيك.. لا عائف ولا متفائل" (تث 18: 11)، وليس من المعقول أن ننتظر تطبيقا لقانون قبل حدوثه، لذا فليس من الإنصاف أن نحاكم يوسف بمقتضى ما جاء بعده من قوانين وتشريعات دينية، وأضف لذلك - أيضا - أن هذا السفر يحوي - أيضا - ممارسة مصرية خالصة تابع يوسف المصريين عليها، وليس من خلاف على تحريمها في الشريعة اليهودية، وهو طقس التحنيط، ولم يستدل أحد على صحة هذا الفعل وشرعيته اعتمادا على فعل يوسف له حيث : (يعلق التلمود على قصة تحنيط يعقوب ويوسف المذكورة في سفر التكوين بقولهم إنها عادة مصرية قديمة مورست أثناء وجود الآباء في مصر، لكنها ليست عادة يهودية والتحنيط يحرم عند كل الرابيين في التلمود[61]).

على كل حال فهذا الذي تحرج منه الشراح المسيحيون قبلته الروايات الأجادية، والتي أعلمتنا بوضوح عن وظيفة تلك الكأس حتى قبل أن يتهم يوسف إخوته بسرقتها حيث: (تظاهر يوسف بأنه غريب عن إخوته وأخذ كأسه ونقر فيها قائلا: (لقد علمت من هذه الكأس السحرية أنكم جواسيس) فأجابوه: لقد جاء عبيدك من كنعان ليشتروا القمح[62])، ولم تكن تلك الكأس أداة يوسف الوحيدة لاستطلاع الغيوب، بل كانت لديه

---

(61) الحياة اليهودية بحسب التلمود - القمص روفائيل البراموسي - ط الأولى - دار نوبار للطباعة - ص 135

(62) الأساطير ج2 ص 79

أداة أخرى لذات الغرض (أمر يوسف بإحضار إسطرلابُه السحري، والذي كان يعرف منه كل ما يحدث[63]).

من كنعان إلى مصر على الحمير؟

(ثم أمر يوسف أن تملأ أوعيتهم قمحا، وترد فضة كل واحد إلى عدله، وأن يعطوا زادا للطريق ففعل لهم هكذا فحملوا قمحهم على حميرهم ومضوا من هناك، فلما فتح أحدهم عدله ليعطي عليقا لحماره في المنزل رأى فضته وإذا هي في فم عدله) (تك 42-25-27).

كما نرى فقد كان إخوة يوسف يذهبون إلى مصر ومنها إلى بلادهم على الحمير ولكن أين تلك الجمال التي كان يملكها يعقوب، والتي لم يكن أنفع منها هنا لقطع تلك الرحلة البعيدة وسط الصحاري المجدبة؟ فلقد كانت الجمال من بين الهدايا التي قدمها يعقوب أمامه وساقها عبيده لاسترضاء أخيه عيسو الغاضب والعنيف، عله ينسى ويصفح عن سرقة البركة الإلهية منه - فضلا عن شعوره بالغبن القديم لشراء يعقوب الحاذق منه البكورية في مقابل طبق من العدس : (وبات هناك تلك الليلة وأخذ مما أتى بيده هدية لعيسو أخيه- مئتي عنز وعشرين تيسا، مئتي نعجة وعشرين كبشا - ثلاثين ناقة مرضعة وأولادها، أربعين بقرة وعشرة ثيران، عشرين أتانا وعشرة حمير((تكوين 32 - 13 - 16)، وليس هذا فقط، بل لقد غابت الجمال - أيضا - عن مصر فلم نجدها من بين قائمة الحيوانات التي قايض بها المصريون يوسف مقابل طعامهم، ولا وجود لها كذلك بين ممتلكات فرعون نفسه لأننا سنرى في نهاية القصة أن يوسف لم يرسل لأبيه - أيضا - سوى الحمير حاملة إليه خيرات مصر : (وَأَرْسَلَ لأَبِيهِ هكَذَا: عَشَرَةَ حَمِيرٍ حَامِلَةً مِنْ خَيْرَاتِ مِصْرَ، وَعَشَرَ أُتُنٍ حَامِلَةً حِنْطَةً، وَخُبْزًا وَطَعَامًا لأَبِيهِ لأَجْلِ الطَّرِيقِ.)(تك **45-23**).

يستدل من كل هذا أن الجمال لم يكن لها وجود في مصر زمن يوسف، ومما يدل بوضوح على كاتب سيرة إبراهيم قد دسها بين الحيوانات التي أعطيت لإبراهيم من باب: والجمال - أيضا - ولم لا؟، وإذا ما تذكرنا أن تلك الرواية عن لقاء إبراهيم بفرعون، إنما رواية غير معقولة أصلاً؛ لأنها قد تأسست على اختطاف رجال الفرعون لنساء

[63] السابق ص92

عابري السبيل، وسوف نناقش تلك النقطة عند تعرضنا لشرح حديث نبوي مؤسس على تلك الأكذوبة السخيفة، التي لا يتورط فيها من له أقل معرفة بمقام فرعون، وجليل قدره عند رعاياه.

فرعون أم ملك؟

يلاحظ أن القرآن لا يسمي حاكم مصر فرعوناً، ولكن دعاه بالملك فما السر في ذلك؟

هناك من الباحثين من أرجع ذلك إلى أن من كان يحكم مصر في تلك الفترة كانوا من الرعاة الآسيويين، ولم يحمل هؤلاء الغزاة هذا اللقب وهناك من قدم تفسيرا من واقع مجريات القصة القرآنية مثل الأستاذ عابد الجابري حيث يقول : (يستعمل القرآن في هذه القصة لفظ (الملك) ولا يستعمل لفظ (فرعون) كما في التوراة، ويمكن تبرير ذلك بكون (فرعون) في القرآن رمز للطغيان كما هو الحال بالنسبة إلى فرعون في قصة موسى أما هنا في قصة يوسف فالملك لم يكن طاغية بل بالعكس لقد تعاطف مع يوسف وولاه خزائنه ومنحه كامل ثقته وأكرم أهله عندما دعاهم إليه كما في آخر القصة [64])، وهناك من أرجعه إلى رغبة القرآن للتفرقة بين حاكم مصر الأجنبي، وبين ملوكها الوطنيين (ومن ثم فإن القرآن الكريم - فيما يبدو لي - أراد أن يفرق بين حاكم مصر الأجنبي على أيام يوسف الصديق في عهد الهكسوس فأطلق عليه لقب ملك، وبين حاكم مصر الوطني على أيام موسى مثلا الذي أطلق عليه لقب فرعون وهو اللقب الذي كان يطلق على ملوك مصر منذ عهد إخناتون هذا فضلا أن ذلك من إعجاز القرآن الذي لا إعجاز بعده [65]).

والحقيقة أنه يغلب على ظننا بأن القرآن الكريم كان يستعمل كلمة فرعون كاسم لذلك الحاكم بعينه الذي اضطهد اليهود في مصر وسامهم سوء العذاب، ولم يورده القرآن كلقب يحمله جميع من يحكم تلك البلاد؛ لذا نراه هنا يستخدم كلمة ملك على خلاف ما نجده مع فرعون موسى وسنرى في قصة سارة مع فرعون أن الحديث النبوي يسمى حاكم مصر ب (جباراً من الجبابرة) فلو قبلنا أن النبي لم يكن يعرف اسمه؛ لأن التوراة

---

[64] مدخل إلى القرآن الكريم الجزء الأول د محمد عابد الجابري - مركز دراسات الوحدة العربية الطبعة الأولى -2006 م- 374

[65] دراسات تاريخية من القرآن الكريم - ج2 - محمد بيومي مهران - دار النهضة العربية بيروت - الطبعة الثانية - 1988م- ص 122

لم تذكر اسما لأي من ملوك مصر الذين وردت أخبارهم في العهد القديم، لذا فلم يكن أيسر للنبي من أن يسميه فرعونا وكفى.

وعلى كل حال - وهذا هو المهم - فهذا اللقب لم يكن من الألقاب الرسمية، ولم يستخدم هذا اللقب تحديداً إلا في فترة متأخرة كثيرا جدا عن تلك الفترة أصلاً:

(لم يستعمل هذا اللقب الذي يوحى إلينا بشخصية ذات عظمة ومجد من غابر الأزمنة إلا في الألف سنة الأولى قبل الميلاد كلقب للملك عندما أنجزت مصر ما أراده لها القدر، ولم يعد ملوكها يبهرون الدنيا بأعمالهم كأسلافهم الذين حكموا أيام عظمتها [66])

(66) معجم الحضارة المصرية القديمة - مجموعة مؤلفين - ترجمة : أمين سلامة الهيئة المصرية العامة للكتاب 2001م

ما فعل يوسف للمصريين؟

(ولما جاعت جميع أرض مصر، وصرخ الشعب إلى فرعون لأجل الخبز قال فرعون لكل المصريين: اذهبوا إلى يوسف والذي يقول لكم افعلوا) (تك41 -55).

عرفنا كيف ألقى فرعون بمقاليد الأمور كلها بين يدي يوسف، وتقاعد، فليس صغار موظفيه بأوفر فطنة منه، وتلك حقا استجابة إنسانية جدا، فلم يتكبد المرء عناء القيام بشيء إن كان واثقا من أن مخدومه يستطيع أن يفعله من أجله على نحو أفضل؟! حتى لقد وجدنا فرعون يزفر في ضيق إذا طلب منه أحد التدخل في هذه المسألة - ونكاد نسمعها من هنا رغم مسافة القرون تلك: إن قلت لكم اذهبوا إلى يوسف ودعوني وشأني!

ولكن القرآن لم يحدثنا عن شيء من هذا كله، واكتفى ملك القرآن بأن منح يوسف السلطة اللازمة للنهوض بتلك المهمة الثقيلة، لذا فقد افترض المفسرون المسلمون -ومعهم حق- أن يسلك يوسف مع الجياع المساكين بما يليق به كرجل عطوف الحس، رقيق الشعور: (أنه كان لا يشبع في تلك السنين حتى لا ينسى الجيعان، وأنه إنما كان يأكل أكلة واحدة نصف النهار[67])، ولكن التوراة ترينا يوسف مختلفا جدا فلننظر ماذا فعل يوسف التوراتي بالمصريين؟

في العام الأول أفرغ يوسف جميع ما في جيوب المصريين من الفضة وكدسها في الخزانة الملكية، وأعطاهم طعاما يكفيهم لعام واحد، وفي العام التالي أخذ منهم جميع مواشيهم مقابل الطعام، ولا شك أنهم كانوا سعداء بالتخلص من تلك السوائم التي ليس لديهم ما يطعمونها، وإن اعتبرها أحد الباحثين مقايضة غير ذكية؛ فماذا يفعل بها فرعون في تلك الأزمنة المجدبة، ومن أين يطعمها؟ ولكننا لا نراه - رغم عظيم فطنته - محقا في ذلك، فلعل يوسف قد ادخر في سني الشبع السبع قدراً هائلاً من الهشيم الجاف، كان يكفي لإطعام البهائم في سنوات الجدب، ولكن بدلا من ذلك فنحن إذ نقرأ قائمة الحيوانات التي قدمها المصريون ليوسف لا نستطيع أن نخفي دهشتنا من تلك الغلطة المؤسفة التي سقط فيها كاتب التوراة إذ نجد على رأسها الخيول (فَجَاءُوا بِمَوَاشِيهِمْ إِلَى يُوسُفَ، فَأَعْطَاهُمْ يُوسُفُ خُبْزًا بِالْخَيْلِ، وَبِمَوَاشِي الْغَنَمِ، وَالْبَقَرِ وَبِالْحَمِيرِ. فَقَاتَهُمْ بِالْخُبْزِ تِلْكَ السَّنَةَ بَدَلَ جَمِيعِ مَوَاشِيهِمْ) (**تك17:47**).

(67) ابن كثير ص 245

هل عرف المصريون الحصان في ذلك العهد؟

الحقيقة التي لا مراء فيها أن المصريين لم يعرفوا الخيول في تلك الفترة من تاريخهم، بل بعد ذلك بزمن طويل: (لم يظهر الحصان إلا في عهد الدولة الحديثة [68])، (حقق المصريون عدة انتصارات على عالم الحيوان، ولكنهم عاشوا ألوف السنين دون أن يعرفوا الدابة التي توصف بأنها (أنبل المخلوقات) ..... جاء الحصان متأخرا جدا فلم يصبح حيوانا مقدسا لأي من الأرباب[69].(

يوسف بن يعقوب يسترق المصريين لفرعون

بعد أن استولى يوسف لسيده على جميع ممتلكات المصريين ـ كما رأينا ـ عاد المصريون إلى يوسف في العام التالي - وما كان لهم إلا أن يعودوا-، ولكنهم لم يكونوا يملكون سوى أرضهم وأجسادهم : (وقالوا له لماذا نموت أمام عينيك نحن وأرضنا جميعا اشترنا وأرضنا بالخبز فنصير نحن وأرضنا عبيدا لفرعون وأعط بذارا لنحيا و لا نموت و لا تصير أرضنا قفرا، لا نخفي عن سيدي أنه إذ قد فرغت الفضة ومواشي البهائم عند سيدي لم يبق قدام سيدي إلا أجسادنا وأرضنا، فاشترى يوسف كل أرض مصر لفرعون ؛ اذ باع المصريون كل واحد حقله لأن الجوع اشتد عليهم فصارت الأرض لفرعون وأما الشعب فنقلهم إلى المدن من أقصى حد مصر إلى أقصاه، إلا أن أرض الكهنة لم يشترها ؛ إذ كانت للكهنة فريضة من قبل فرعون فأكلوا فريضتهم التي أعطاهم فرعون لذلك لم يبيعوا أرضهم فقال يوسف للشعب : أني قد اشتريتكم اليوم وأرضكم لفرعون هو ذا لكم بذار فتزرعون الأرض ويكون عند الغلة أنكم تعطون خمسا لفرعون و الأربعة الأجزاء تكون لكم بذارا للحقل و طعاما لكم ولمن في بيوتكم وطعاما لأولادكم، فقالوا أحييتنا ليتنا نجد نعمة في عيني سيدي فنكون عبيدا لفرعون فجعلها يوسف فرضا على أرض مصر إلى هذا اليوم لفرعون الخمس إلا أن أرض الكهنة وحدهم لم تصر لفرعون)(تك 47-18-27).

لا يفوق قسوة يوسف في معاملته للمصريين سوى رضاهم التام عن تلك التدابير بالغة الرحمة والإنسانية بحقهم؛ فهاهم يعلنون امتنانهم ليوسف قائلين له: (أحييتنا)

[68] سليم حسن المجلد الثاني - ص 118

[69] (المعجم ص 136

(تكوين 47-25)، بل نراهم يستعطفونه أن يأخذهم عبيدا لسيده الفرعون: (ليتنا نجد نعمة في عيني سيدي فنكون عبيدا لفرعون)

وفي الحقيقة أننا لا ندري ما ضرورة أن يظهر كاتب التوراة يوسف على هذا النحو البشع البغيض، حتى ليحق لمن شاء أن يسمي يوسف (شايلوك العبراني)، ويلاحظ - أيضا - أننا لا نسمع منه شيئا عن مصير سكان المدن المصرية ممن كانوا لا يملكون أرضا ليبيعوها، ولم نسمع كذلك عن أغنياء بين المصريين ممن كانت لهم من ثرواتهم ما يستنقذهم من العبودية ببيع أجسادهم لفرعون، ولكن كاتب السفر كان متعجلا للغاية إلى الوصول إلى تلك النتيجة التي أرادها من وقوع المصريين جميعا في الرق وانتقال أرضهم إلى ملكية فرعون بفضل تدابير وكيله الإجرامية بحق شعبه، إلا لو افترضنا أن كاتب هذا السفر كان يفسر لماذا كان المصريون يدفعون لفرعون تلك الضريبة التي كانت موجودة في عصر كاتبها، وساق تلك التدابير لتفسير ذلك : (فَجَعَلَهَا يُوسُفُ فَرْضًا عَلَى أَرْضِ مِصْرَ إِلَى هذَا الْيَوْمِ: لِفِرْعَوْنَ الْخُمْسُ. إِلاَّ إِنَّ أَرْضَ الْكَهَنَةِ وَحْدَهُمْ لَمْ تَصِرْ لِفِرْعَوْنَ).

فرعوني أم هكسوسي ؟

لا ينبغي أن يفوتنا أبدا ما أورده كاتب التوراة عن احتفاظ الكهنة بأراضيهم من دون بقية المصريين، والجزم بأن تلك الملاحظة وحدها تكفي وزيادة لإسقاط فرضية أن قصة يوسف قد جرت خلال حكم الغزاة الهكسوس لمصر؛ إذ لو كان الأمر كذلك، فلماذا يمنح الغزاة الكهنة المصريين تلك الامتيازات؟ ولماذا يراع الملك الأجنبي - كما سنرى - مشاعر المصريين بأن يعزل قوم يوسف بعيدا عن المصريين؛ لأنهم كانوا يتقذرون الرعاة، ويرونهم نجسا؟ فهل مثل تلك المراعاة يعقل أن تأتي من ملك هكسوسي وقد جاء من خلفية رعوية عتيدة؟!

وإذا تذكرنا - أيضا - تلك التفصيلة الصغيرة التي أوردتها الرواية التوراتية عن حلق يوسف للحيته قبل أن يمثل بين يدي فرعون، لدلنا ذلك بوضوح على أن كاتب التوراة المتأخر كان على اطلاع ما بما شاع من العادات المصرية، وتقاليد القصر حيث يكن يُسمح لأحد في مصر بإطالة لحيته، فقد كانت هذه الميزة تخص فرعون فقط، والذي كان يلتحي بلحية مستعارة. أما يوسف ولكونه عبرانيًا، فقد كان في الأغلب ملتحيًا،

ولذلك حُلِق له بناء على العادة المتبعة في القصر وهذا يدل على أن كاتب التوراة كان يقصد ملكاً مصرياً خالصاً وليس ملكاً هكسوسياً سامياً يطيل لحيته كعادة الساميين .

وعلى كل حال فلا ينبغي أن يأخذ القارئ العزيز تلك الترهات وضروب القساوات على محمل الجد، وتذهب نفسه حسرات على المصريين المساكين، وما نالهم على يد هذا الوكيل القاسي، متحجر القلب ؛ فلم يحدث شيئا من ذلك بتاتا، فقد كان الفراعنة أرحم برعاياهم من ذلك بكثير، ولم يحدث قط أن استرق الفراعنة رعاياهم أبدا، بل لدينا ما يشير إلى أن الفراعنة كانوا يدخرون دائما ما يكفي من الطعام تحسبا لسنوات القحط التي كانت تضرب البلاد مرارا وتكرارا، بل ولدينا ما يشير إلى أنهم كانوا في مثل تلك السنوات يتعاملون مع الفلاحين على هذا النحو الكريم : (وكانت زراعة الحبوب هي الزراعة السائدة، وكانت الدولة تقوم بدور (الأب) وفي أيام القحط كانت الخزانة تفتح أبواب مخازن الحبوب لهؤلاء الناس[70]).

هل كان المصريون حقاً بحاجة إلى يوسف؟!

من يقرأ نصائح يوسف للمصريين، ووصاياه النافعة لهم بطرائق تخزين الطعام وحفظه فله أن يضحك ملء شدقيه من افتراض كاتب هذه القصة المسكين من جهل المصريين بتلك الطرق البدائية، والتي لا نشك في أن المصريين قد عرفوها، وعرفوا ما هو أنجع منها قبل ألفي سنة على الأقل من مولد إبراهيم. فهل كان المصريون حقا بحاجة إلى شاب عبراني يعيش أهله - بداة الصحراء- يوما بيوم، لكي يرشد أهل أقدم حضارة زراعية في العالم إلى أمور لو جهلوها لما قامت حضارتهم من أساسها، ولو نسوها وغفلوا عنها ما استمرت حضارتهم بعد نسيانها أكثر من عدة عقود؛ بسبب موجات الجفاف التي لم تكن تختفي إلا لتظهر، ولتعرض بحضورها المميت حياة المصريين جميعا للخطر الماحق لو لم يتحسبوا لمخاطرها؟ ولقد كانت موجة جفاف سبعية واحدة - مثل التي معنا - كافية لإفناء تلك الحضارة وإهلاك أهلها جوعا وعطشا، ولكن كان المصريون دائما - كما يقول المؤرخون - في حالة استنفار دائم لتوقي هذا الخطر الداهم، وإليك هذا الشاهد الذي تغني البداهة عنه ولكن لا بأس من إيراده : (لقد كان المصريون القدماء أول حضارة مارست حفظ الأطعمة على نطاق واسع، لقد كانت

---

[70] المعجم الفرعوني : ص 299

الحقول الضيقة على ضفتي النيل المصدر الرئيسي للطعام، وفي السنة التي لا يفيض فيها النيل تحل الكارثة، ولكي يكونوا على أهبة الاستعداد حفظ المصريون الأطعمة بكل وسيلة ممكنة بما فيها تكديس القمح في أهراء ضخمة فأدى الإصرار على حفظ الأطعمة إلى معرفة واسعة بمعرفة معالجتها وتخميرها[71]).

هل بشَّر يوسف بإلهه بين المصريين؟

لم ينتظر أحد أن يبشر يوسف بعقيدته وعقائد آبائه بين المصريين، ولماذا يفعلها يوسف الغريب بين الغرباء، ولم يفعلها أي من الآباء البطاركة من قبل؟ ولكن بعد أن تطوع أحد الكهنة ومنح يوسف هذه المهمة التي لم يطلبها منه حتى الله ذاته حيث يقول: (وبطريقة لبقة ولطيفة بشر فرعون بالله الواحد الذي أعطاه هذه الأحلام وأرسل إليه تفسيرها لينذره فيدبر أموره لأن فرعون كان يؤمن بتعدد الآلهة الوثنية ولم يعرف الإله الواحد[72]).

وفي الحقيقة فإن من يقلب هذا السفر ليرى أي أثر للعقيدة المصرية، أو إشارة واحدة إلى تعدد الآلهة، دع عنك تلك المفاهيم اللاهوتية بالغة التعقيد التي تحفل بها العقيدة المصرية القديمة كما أبانت عنها الدراسات التاريخية الحديثة، فلن يجد أثرا لذلك، بل لم نجد مطلقا في هذا السفر ما يشير إلى اختلاف عقيدة المصريين عن معتقد عبرانيي تلك الفترة.

فالله واحد دائماً، سواء أجاء ذلك على لسان يوسف مع المصريين، مثل كلامه مع امرأة فوطيفار (سفر التكوين 39: 9)، أو كلام يوسف مع فرعون كما في (سفر التكوين 41: 16- 32) (تكوين 41-16)، ولم نسمع أن أحدا قد دهش من هذا التوحيد الذي ابتدعه يوسف أو احتج عليه. وحتى كلام فرعون نفسه: (فَقَالَ فِرْعَوْنُ لِعَبِيدِهِ: «هَلْ نَجِدُ مِثْلَ هذَا رَجُلاً فِيهِ رُوحُ اللهِ؟» (سفر التكوين 41: 38)
(ثُمَّ قَالَ فِرْعَوْنُ لِيُوسُفَ: «بَعْدَ مَا أَعْلَمَكَ اللهُ كُلَّ هذَا، لَيْسَ بَصِيرٌ وَحَكِيمٌ مِثْلَكَ.)(سفر التكوين 41: 39)، ولن نتكلم عن تقبل فرعون البركة من يعقوب (وَبَارَكَ يَعْقُوبُ فِرْعَوْنَ

(71) تاريخ الملح في العالم - مارك كيرلانسكى ترجمة احمد حسن مغربي - عالم المعرفة الكويت 2005م- ص33
(72) الموسوعة الكنسية ص 295

وَخَرَجَ مِنْ لَدُنْ فِرْعَوْنَ.)(سفر التكوين 47: 10)، بل هناك عبارة تدل على التقبل المصري السمح لعقائد الآخرين رغم غرابة مجيئها على هذا النحو على لسان مساعد يوسف مخاطبا إخوته : (فقال سلام لكم لا تخافوا إلهكم وإله أبيكم أعطاكم كنزا في عدالكم، فضتكم وصلت إليّ ثم أخرج إليهم شمعون)(تكوين 43 :23).

وإذا افترضنا جدلا بأن الرجل قد قال تلك الكلمة بإيعاز من يوسف فماذا عن هذه الكلمة العجيبة التي وصف بها فرعون يوسف بأنه فيه روح الله؟، خاصة أنها – ويا للعجب - قد جاءت في السورة القرآنية بتلك الصيغة ودون أن تتكرر ثانية أبدا في القرآن كله، ولكنها على كل حال لا تعني في السورة سوى (رحمة الله) والحقيقة أن هذا التعبير الذي سيصادفنا كثيرا جدا في الكتاب المقدس قلق وغريب جدا في هذا الموضع بالذات فلنقف عنده وقفة قصيرة.

هذه الكلمة (روح الله) تتدرج معانيها في الكتاب المقدس على معان لا تخرج عن معنى الإلهام، أو الوحي، أو التأييد الإلهي، وسنسوق أمثلة قليلة لذلك، فلقد جاءت مثلا على لسان الرب مخاطبا موسى بأنه ألهم (بَصَلْئيل ابن أوري) بموهبة الإبداع والمهارة الفائقة في الصناعات الدقيقة، لكي يصنع الأدوات اللازمة للهيكل، ولم يكن من سبيل آخر غير التدخل الإلهي المباشر ؛ فلم يكن من بين الستمائة ألف الخارجين مع موسى من مصر رجل واحد يجيد تلك الصناعة !(سفر الخروج 31: 1-5)، وعندما نطق بلعام بن باعوراء ليبارك بني إسرائيل، كانت الكلمة هنا بمعنى الوحي والإلهام الإلهي (سفر العدد 24: - 1-4)، وكذلك على لسان زكريا النبي : (وَلَبِسَ رُوحُ اللهِ زَكَرِيَّا بْنَ يَهُويَادَاعَ الْكَاهِنَ فَوَقَفَ فَوْقَ الشَّعْبِ وَقَالَ لَهُمْ: «هكَذَا يَقُولُ اللهُ: لِمَاذَا تَتَعَدَّوْنَ وَصَايَا الرَّبِّ فَلاَ تُفْلِحُونَ؟ لأَنَّكُمْ تَرَكْتُمُ الرَّبَّ قَدْ تَرَكَكُمْ». (سفر أخبار الأيام الثاني 24: 20)، بل جاءت على لسان السيد المسيح على معنى شديد الوضوح : (وَلكِنْ إِنْ كُنْتُ أَنَا بِرُوحِ اللهِ أُخْرِجُ الشَّيَاطِينَ، فَقَدْ أَقْبَلَ عَلَيْكُمْ مَلَكُوتُ اللهِ!) (إنجيل متى 12: 28)، فهل هذه الكلمة التي قالها فرعون تشير إلى رجل يؤمن بتعدد الآلهة؟ وهي نجد أي فرق بين معتقد يوسف، وبين عقائد المصريين ؟!

لماذا ضن يعقوب ببنيامين؟

من الملامح المشتركة بين الروايتين القرآنية والتوراتية يطالعنا موقف يعقوب المتشبث بأصغر أبنائه (بنيامين)، وحرصه على أن لا يفارقه مع إخوته لجلب القمح من مصر، فعلى حين نجد أن القرآن يستعيد ألفاظ التجربة الأولى مع يوسف، وظلا من الدلالة على صغر آخر أبنائه كما يتبين من هذه الآيات :فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمۡ قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَآ أَخَانَا نَكۡتَلۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾يُوسُف، وَنَمِيرُ أَهۡلَنَا وَنَحۡفَظُ أَخَانَا ﴿٦٥﴾يُوسُف.

لذا فمن المعقول أن نفترض أنها كما تشير إلى تعلق يعقوب الشديد ببنيامين خاصة وقد غاب عنه يوسف، فإنها يمكن أن تشير كذلك إلى صغر سنه، فهو على هذا لا يستطيع أن يدفع الأذى عن نفسه دون بقية إخوته الكبار، وإذا تذكرنا أن الموقف هنا يختلف كثيرا عن موقف يوسف فهي ليست دعوة له للتريض أو الخروج للتنزه، بل كانت مجاعة شديدة يعاني منها الجميع، ومن المعلوم أن بائع القمح في مصر لم يكن يعط إلا بقدر محدود، ولكل رجل طعام عائلته لا أكثر من ذلك، لذا فليس من اليسير أن نتفهم أن يرسل يعقوب بنيه إلى ذلك المكان البعيد لكي يأتوا لابنه الأصغر بالطعام - ربما هو وأسرته - فكما يعلم الجميع فقد كان الرجال يتزوجون في تلك البيئات في سن باكرة جدا، وربما بمجرد بلوغهم الحلم أو بعدها بقليل - ولكن تلك على كل حال مجرد قرينة غير حاسمة. أما التوراة فهي تمضي إلى أبعد من ذلك بكثير فهي تكاد تمنح بنيامين ذات سن يوسف الصغير وقت إلقائه في البئر - دونما اعتبار لانقضاء تلك السنين، فنحن نعلم أن يوسف قد بيع عبدا إلى مصر وهو ابن سبعة عشرة سنه، وقضى ما قضى في بيت فوطيفار، ثم دخل السجن ليقضي فيه سنتين، ويخرج منه في الثلاثين، ثم يقربه الفرعون ويزوجه، وتأتي سني الرخاء السبع، وفيها يولد له ولديه ، بعدها تدخل سني الشدة، وفي مرحلة منها يأتي إخوة يوسف ؛ فإذا كان يوسف قد قارب الأربعين وهو لا يكبر أخاه سوى ببضع سنين - يقدرها أحد الباحثين بأنها أربع أو خمس فقط ، وتقدرها القصص التلمودية باثنتي عشرة عاما - فعلى هذا فلم يكن بنيامين ذاك الطفل الصغير الذي يخشى عليه ، بل كان رجلا في الثلاثين أو قريبا منها، ولكن دعونا لننظر أولا كيف بدا بنيامين في هذا الجزء المتقدم من القصة التوراتية : ففي البداية نجد يعقوب يرسل أبنائه إلى مصر

ويستبقي بنيامين معه (لأنه قال لعله تصيبه أذية)، بعدها نجدهم في قبضة يوسف الذي اتهمهم بالتجسس فقدموا له تقريرا عن أحوالهم وفيه يذكر اسم بنيامين لا باعتباره أصغر الأبناء، بل طفلا كما نرى هنا : (وهوذا الصغير عند أبينا اليوم و الواحد مفقود)، ونجد يوسف يطالب برؤية هذا الصغير المزعوم : (بهذا تمتحنون وحياة فرعون لا تخرجون من هنا إلا بمجيء أخيكم الصغير إلى هنا)، ولما رجعوا إلى يعقوب رفض أن يتركه يغادر معهم إلى مصر رغم العرض الوحشي الذي قدمه إليه رؤوبين ؛ بأن يقتل يعقوب ابنيه الصغيرين إن لم يرجعه إليه سالما، ولكن بعد أن نفد الطعام، وحرضهم يعقوب أن يفعلوا شيئا أكثر من التطلع في وجوه بعضهم البعض، تدخل يهودا حاسما المسألة : (أرسل الغلام معي لنقوم و نذهب و نحيا ولا نموت نحن وأنت وأولادنا جميعا)، متعهدا له انه كما يأخذه من يده سيسلمه إليه سالما، بعدها نرى يوسف وقد حضر الصغير بين يديه يتأمله قائلا: (فرفع عينيه و نظر بنيامين أخاه ابن أمه وقال: أهذا أخوكم الصغير الذي قلتم لي عنه ثم قال: الله ينعم عليك يا ابني).

وهي كلمة ليس من اليسير أن يقولها رجل لرجل يقاربه في السن ولحيته تملأ وجهه! ، ثم نرى يهوذا يخاطب يوسف مستعطفا إياه - بعد أن ورطهم يوسف في سرقة كأسه التي يتفاءل بها - (فقلنا لسيدي لنا أب شيخ وابن شيخوخة صغير مات أخوه و بقي هو وحده لأمه و أبوه يحبه) ثم تتوالى على لسان يهوذا كلمة غلام لوصف سن بنيامين فهي إذن ليست كلمة عابرة : (فقلنا لسيدي لا يقدر الغلام أن يترك أباه و إن ترك أباه يموت)، (والغلام ليس معنا)، (يكون متى رأي أن الغلام مفقود أنه يموت)، (لأن عبدك ضمن الغلام لأبي)، (فالآن ليمكث عبدك عوضا عن الغلام)، (لأني كيف أصعد إلى أبي والغلام ليس معي).

فما السبب إذن؟ الحقيقة أننا لا ندرى الغرض من محاولة كاتب التوراة محاولة إعادة إنتاج قصة يوسف جديدة على هذا النحو إلا لو افترضنا أنها كانت تعبيراً عن نزوع قصصي وفني خالص، ولكنها أتت على هذا النحو غير المحكم خاصة، وقد أفلتت منه مرة واحدة ما يدل على سن بنيامين الحقيقي: (فقال حاشا لي أن أفعل هذا، الرجل الذي وجد الطاس في يده هو يكون لي عبدا)، بل إننا نجد المرويات التلمودية تفعل مثل ذلك فدعونا نمضي.

هل كان يعقوب نبيا ؟

إن كان المقصود بتلك الكلمة: (نبي) أن يتعرض الشخص لتجارب روحية تجعله يتلقى رسائل من الله، فتنبأه بما ينبغي عليه أن يفعل أو أن يترك، سواء أجاءه ذلك عبر رؤية منامية، أو أن تتكشف أمام ناظريه مباشرة مملكة الله السماوية فيرى أبواب السماء مفتوحة على مصراعيها، ويشاهد الملائكة صاعدين إليها وهابطين منها، أو أن يرى الظهورات الإلهية في صورة من صورها المختلفة؛ فيعقوب بهذا المعنى نبي بلا ريب فكل ذلك قد حدث له كما حدث لغيره من الآباء أو حتى لغيرهم.

هل كان يعقوب موحداً؟

في الحقيقة أن من يقرأ سفر التكوين فلن يجد فرقا جوهريا بين عقيدة يعقوب، وعقيدة من عاش حياته الأولى بينهم، فقد كانوا دائما يراوحون بين عبادة الله وحده تارة، وبين عبادة الأصنام تارة أخرى، ربما باعتبارها تجسيدا لهذا الإله غير المرئي، أو لسواه من الآلهة التي لم ينكروا أبدا وجودها وحقيقتها، ولكنها كانت آلهة تخص سواهم من الناس ، وخذ إليك مثلا عقيدة لابان خال يعقوب- والذي عاش يعقوب عشرين عاما في بيته - حيث يظهر لنا بوضوح هذا التجاور غير المستغرب أبدا في ذلك العصر فعندما يطلب (اليعازر) عبد إبراهيم (رفقة) زوجا لابن سيده - إسحاق- نرى لابان وأبيه بتوئيل يرجعان موافقتهما إلى رغبتهما في التوافق مع إرادة الرب الذي قدر تلك الزيجة الميمونة: (فَأَجَابَ لاَبَانُ وَبَتُوئِيلُ وَقَالاَ: «مِنْ عِنْدِ الرَّبِّ خَرَجَ الأَمْرُ. لاَ نَقْدِرُ أَنْ نُكَلِّمَكَ بِشَرّ أَوْ خَيْرٍ. هُوَذَا رِفْقَةُ قُدَّامَكَ. خُذْهَا وَاذْهَبْ. فَلْتَكُنْ زَوْجَةً لاِبْنِ سَيِّدِكَ، كَمَا تَكَلَّمَ الرَّبُّ» (تك 24: 50-51)، وعندما يرى لابان بأن الخيرات قد أخذت تهطل عليه، وتتعاظم في بيته بسبب من بركة زوج ابنتيه، فنراه يخاطب يعقوب على هذا النحو: (فَقَالَ لَهُ لاَبَانُ: «لَيْتَنِي أَجِدُ نِعْمَةً فِي عَيْنَيْكَ. قَدْ تَفَاءَلْتُ فَبَارَكَنِي الرَّبُّ بِسَبَبِكَ») (تكوين 30: 27)، وعندما انسل يعقوب خفية وغادر حمية حاملا معه نسائه وأولاده ومواشيه مما أغضب لابان الذي هم بالبطش به ، لولا أن الله تجلى له وأمره بألا يصيب يعقوب بأذى، وأن يتركه يمضي بسلام فقال لابان ليعقوب: (فِي قُدْرَةِ يَدِي أَنْ أَصْنَعَ بِكُمْ شَرًّا، وَلكِنْ إِلهُ أَبِيكُمْ كَلَّمَنِيَ الْبَارِحَةَ قَائِلاً: احْتَرِزْ مِنْ أَنْ تُكَلِّمَ يَعْقُوبَ بِخَيْرٍ أَوْ شَرّ.) (تكوين 31: 35).

وفي تلك المطاردة - أيضا - تأتي أهم الإشارات الواضحة لبيان عقيدة يعقوب - على الأقل في تلك الفترة - فمثلا نرى لابان يخاطب يعقوب قائلا: (وَالآنَ أَنْتَ ذَهَبْتَ لأَنَّكَ قَدِ اشْتَقْتَ إِلَى بَيْتِ أَبِيكَ، وَلكِنْ لِمَاذَا سَرَقْتَ آلِهَتِي؟) (تك 31-30).

فهل من المعقول أن يتهم لابان ابن أخته بسرقة أصنامه إن كان على علم بأن ابن أخته يعتقد عقيدة دينية مغايرة لعقيدته، ولا موضع فيها لعبادة الأصنام،
بل تستنكرها وتؤمن ببطلانها ؟، ومن الصحيح أن النص يقول بأن يعقوب لم يكن على علم بذلك، فالتي سرقتها هي راحيل، ولكن هل من المعقول أن تسرق راحيل أصنام أبيها لترحل بها إلى بيت زوجها، إن كانت تعلم منه أي نفور من تلك الأصنام أو كراهة لوجودها في بيته؟

ومن يقرأ هذه القصة فلن نجد يعقوبا يشير إلى حمية بأنه في غنى عن أصنامه وأوثانه كلا !، بل إننا نجد لابان يقدم صورة عن إله غير مرئي مثل إله يعقوب تماما كما في هذه الآية: (إنك لا تذل بناتي ولا تأخذ نساء على بناتي ليس إنسان معنا انظر الله شاهد بيني وبينك) (تك 31-50)، والأكثر من ذلك أننا نجده يحتكم مع يعقوب كل إلى آلهته الخاصة كما في هذه الآية) إله إبراهيم، وآلهة ناحور آلهة أبيهما يقضون بيننا وحلف يعقوب بهيبة أبيه إسحق) (تك 31- 53)، ودون أن يقول له يعقوب بأنه لا يعترف بآلهة ناحور ! والأهم من ذلك كله أن نعرف أين ذهبت تلك الأصنام بعد ذلك؟ الإجابة الواضحة أنها عاشت أمام ناظري يعقوب سنين طويلة حتى أعلنه الرب الغيور - من طرف خفي- بغضبه من تلك المزاحمة الكريهة، طالبا منه الوفاء بما تعاهدا عليه من قبل عندما ظهر له، وهو هارب من عيسو الناقم عليه: (قُمِ اصْعَدْ إِلَى بَيْتَ إِيلَ وَأَقِمْ هُنَاكَ، وَاصْنَعْ هُنَاكَ مَذْبَحًا للهِ الَّذِي ظَهَرَ لَكَ حِينَ هَرَبْتَ مِنْ وَجْهِ عِيسُو أَخِيكَ). فعندئذ (فَقَالَ يَعْقُوبُ لِبَيْتِهِ وَلِكُلِّ مَنْ كَانَ مَعَهُ: (اعْزِلُوا الآلِهَةَ الْغَرِيبَةَ الَّتِي بَيْنَكُمْ وَتَطَهَّرُوا وَأَبْدِلُوا ثِيَابَكُمْ.) (سفر التكوين 35: 21).

فهنا، - وهنا فقط - طلب يعقوب من أهل بيته أن يتخلصوا منها، ولكن على هذا النحو المشعر ببقية من التعظيم والتبجيل، فلم تحرق تلك الآلهة أو تدمر، بل دفنت باحترام تحت شجرة بطمة!، (فَأَعْطَوْا يَعْقُوبَ كُلَّ الآلِهَةِ الْغَرِيبَةِ الَّتِي فِي أَيْدِيهِمْ وَالأَقْرَاطِ الَّتِي فِي آذَانِهِمْ، فَطَمَرَهَا يَعْقُوبُ تَحْتَ الْبُطْمَةِ الَّتِي عِنْدَ شَكِيمَ.) (سفر التكوين 35: 4).

ولا ننسى أن نشير إلى أن شجرة البطم أو البلوط كانت أشجارا مقدسة، إذ يحدثنا الكتاب المقدس أن الوثنيين كانوا يعبدون أصنامهم تحت تلك الأشجار بشكل خاص كما جاء في (حز 6: 13) (هو 4: 13) وغير ذلك كثير جدا، وكانت تلك الأشجار - أيضا - هي المكان المفضل لدفن الموتى كما)تك 35: 8، 1)(أخ 10: 12)، بل إن هذه الشجرة ذاتها التي دفن تحتها يعقوب أصنامه الصغيرة من الترافيم يقول عنها الباحثون أنها كانت شجرة مقدسة : (ومهما يكن من أمر فإننا نصادف مرارا في معرض تاريخها ذكر أشجار البلوط أو التربنتين التي يبدو من سياق الكلام أنها كانت مقدسة، فقد أخذ يعقوب الأصنام فيما يبدو بوصفها تعاويذ ودفن كل ذلك تحت شجرة البلوط أو التربنتين التي كانت تنمو في شكيم ويذكر(أويستاسيوس) أن هذه الشجرة كانت شجرة تربنتين وأن سكان المناطق المجاورة لها كانوا يقدسونها حتى عصره[73]).

هل كان ذلك أمراً غريباً؟ ، كلا! فالحقيقة أنه لا غرابة في ذلك، فلقد ظلت تلك الآلهة الغريبة حاضرة أبدا بين شعب الرب، وستظل تطل برؤوسها من بيوت الأنبياء أنفسهم وفي المعابد المقدسة حتى زمن داود أو بعد زمنه بكثير.

هل إسحاق ويعقوب أخوان؟

س - لماذا قال في سورة هود: (وبشرناه بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب)؟ والبشارة تكون بالابن وليس بابن الابن. أم هل المقصود هنا أن إسحاق ويعقوب هما ولدا إبراهيم رزق بهما على التوالي؟ بينما تقول المعلومة التوراتية أن يعقوب هو ابن إسحق.

ج- هذه نقطة غامضة في النص والآيات الأخرى التي يرد فيها ذكر إسحق ويعقوب لا تزيل الغموض ومنها: فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۖ وَكُلًّا جَعَلۡنَا نَبِيّٗا ﴿٤٩﴾مَرْيَم ، وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ ﴿٢٧﴾ العَنكَبُوت ، وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ نَافِلَةٗۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ الأَنبِيَاء ، وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ كُلًّا هَدَيۡنَاۚ ﴿٨٤﴾ الأَنۡعَام.

(73) الفلكلور في العهد القديم ج2 ص 422

إن الصيغة التي ورد فيها ذكر الاثنين يمكن أن يفهم منها بقوة أن إسحق ويعقوب هما ابنان لإبراهيم رزق بهما على التوالي، بحيث يكون إسحق هو الابن الأكبر ومن ورائه يعقوب الأصغر، وقد قال بذلك بعض المفسرين فمثلا نقرأ في تفسير الجلالين للآية (84) من سورة الأنعام: وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ الأَنْعَام◉

وهنا لابد من القول بأن سلسلة نسب الأنبياء في القرآن لا تتطابق تماما مع سلسلة نسب الأنبياء في التوراة [74].)

الحقيقة أننا نعجب من أن يتورط باحث مدقق، ومفكر لامع العقل مثل الأستاذ السواح في خطأ واضح كهذا! ولم يكن الأستاذ السواح يحتاج لكي ينجو من هذا الاستنتاج الخاطئ سوى أن يستكمل ما بدأه من استخراج بقية الآيات القرآنية التي ذكرت ما جاء عن إسحاق ويعقوب معا، ليعلم أن القرآن كان يقول بأن إسحق هو أب ليعقوب وليس أخاً له، ونعني بذلك هذه الآية من سورة البقرة : أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى ۖ قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ البَقَرَةِ ، وكما ترى فقد جعل الأسباط إسحق من بين آباء يعقوب وليس من المعقول أن يكون إسحق أخا ليعقوب ثم تأتي الآية بتلك الصيغة ! وأوضح منها ما جاء على لسان يعقوب يخاطب ابنه يوسف ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾ يُوسُف، فهل يعقل بعد هذه الآية أن يظن ظان في أن إسحق أخ ليعقوب؟

---

[74] الله والكون والإنسان - فراس السواح - دار التكوين - الطبعة الأولى - 2016م - دمشق - سوريا - ص 169

والأهم من ذلك أننا لا ندري كيف ساغ عند الأستاذ السواح أن يعرف النبي محمد كل تلك المعارف المفصلة عن يوسف ويعقوب، ثم يجهل النبي بعد ذلك كله أن يعقوب هو ابن لإسحاق فيتوهم أنه أخ له ؟، وأضف إلى ذلك أننا نجد النبي يصرح في حديث صحيح بأن يعقوب هو ابن إسحاق! (عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم من أكرم الناس؟ قال: أتقاهم لله قالوا: ليس عن هذا نسألك قال: فأكرم الناس: يوسف نبي الله ابن نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله..... [75]).

وكما ترى فقد جعل النبي بين يوسف وبين إبراهيم ثلاثة آباء مما يقطع بأن إسحاق كان أبا ليعقوب ولم يكن أخا له !، أما ما استشهد به الأستاذ السواح من تفسير الجلالين فهو أمر عجيب وغريب؛ فالنص لا يقول بشيء مما فهمه الأستاذ السواح، بل يصرح بأن إسحق هو أب ليعقوب وليس أخاه حيث نجد أن كلمة (ابنه) تعود بداهة إلى إسحاق وليس إلى إبراهيم! وإليك نص ما جاء في هذا التفسير المختصر: (وَوَهَبْنَا لَهُ إسْحَاق وَيَعْقُوب ابْنه (كُلًّا) مِنْهُمَا (هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْل) أَيْ قَبْل إبْرَاهِيم (وَمِنْ ذُرِّيَّته) أَيْ نُوح (دَاوُد وَسُلَيْمَان) ابنه (وأيوب ويوسف) بن يعقوب (وموسى وهارون وكذلك) كما جازيناهم (نجزي المحسنين[76]).

وقل مثل ذلك عن تلك الآية التي يوهم ظاهرها بخلط النبي بين مريم أم المسيح ومريم بنت عمران أخت موسى وهارون! فهل يعقل أن يقع النبي في مثل هذا الخطأ مع ما ساقه القرآن من معارف مفصلة عن تاريخ أنبياء العهد القديم، ثم بعد ذلك تغيب عنه تلك المسافة الزمنية السحيقة التي تفصل بين المرأتين؟! لذا، فيمكن القول بأنه إذا كان الاعتقاد في قداسة كتاب ديني يحجب المعتقد بعصمته عن رؤية الأخطاء مهما كانت واضحة جلية أمام ناظريه، فعلى المقابل يمكن لغير المعتقد في تلك العصمة، بل والأقرب إلى تجهيل النبي محمد والاعتقاد في نقص معارفه بأن تجعله يرى في كتابه أخطاء لا وجود لها إلا في وهمه وخياله، ولعل هذا المثال يصلح كبرهان على ذلك!

---

[75] (انظر الحديث في السلسلة الصحيحة برقم (3996)

[76] انظر : تفسير الجلالين - المحلي والسيوطي - دار الحديث القاهرة - الطبعة الأولى - ص (176)

يعقوب وفرعون

لم يفق أحد يوسف في مكانته لدى الفرعون إلا ما بلغه أبيه يعقوب من مكانة سامية لدى العاهل المصري المتضع أمام رجال الله، فكما أبهر يوسف فرعون بحذقه ومهارته العملية، فقد أحنى فرعون مصر الهامة الملكية أمام الهيبة الروحية التي كانت – ولا بد - تسطع من البطرك الجليل .

فما أن أعلن يوسف عن نفسه لإخوته حتى عم الخبر مصر بأسرها، وكان الخبر مدوّيا ، حتى إنه بلغ مسامع فرعون في برج صمته الشاهق، والذي أمر يوسف أن يسرع بعد أن عثر على أسرته الضائعة، وأن يستقدمهم سريعا إلى مصر، ولكي تبرهن اللهفة الملكية على أنها تعني ما تقول فقد أمر أن تشارك المركبات الملكية في تلك النقلة المباركة: (وَسُمِعَ الْخَبَرُ فِي بَيْتِ فِرْعَوْنَ، وَقِيلَ: «جَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ». فَحَسُنَ فِي عَيْنَيْ فِرْعَوْنَ وَفِي عُيُونِ عَبِيدِهِ. فَقَالَ فِرْعَوْنُ لِيُوسُفَ: «قُلْ لإِخْوَتِكَ: افْعَلُوا هذَا: حَمِّلُوا دَوَابَّكُمْ وَانْطَلِقُوا، اذْهَبُوا إِلَى أَرْضِ كَنْعَانَ. وَخُذُوا أَبَاكُمْ وَبُيُوتَكُمْ وَتَعَالَوْا إِلَيَّ، فَأُعْطِيَكُمْ خَيْرَاتِ أَرْضِ مِصْرَ وَتَأْكُلُوا دَسَمَ الأَرْضِ. فَأَنْتَ قَدْ أُمِرْتَ، افْعَلُوا هذَا: خُذُوا لَكُمْ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ عَجَلاَتٍ لأَوْلاَدِكُمْ وَنِسَائِكُمْ، وَاحْمِلُوا أَبَاكُمْ وَتَعَالَوْا. وَلاَ تَحْزَنْ عُيُونُكُمْ عَلَى أَثَاثِكُمْ، لأَنَّ خَيْرَاتِ جَمِيعِ أَرْضِ مِصْرَ لَكُمْ») (تك45).

وبعد أن نجا يعقوب من تلك المفاجأة التي كادت تودى بحياته - بعد أن كذبهم في البداية - (فَجَمَدَ قَلْبُهُ لأَنَّهُ لَمْ يُصَدِّقْهُمْ) بعدها صاح في بنيه الثرثارين «كَفي! يُوسُفُ ابْنِي حَيٌّ بَعْدُ. أَذْهَبُ وَأَرَاهُ قَبْلَ أَنْ أَمُوتَ.«

وفي الطريق إلى مصر نرى يعقوب يقدم قربانه وذبائحه إلى الله احتفالاً بتلك المناسبة الخاصة، عندما ظهر الله ليعقوب في ليلته تلك - وللمرة الأخيرة وخاطبه قائلا: («يَعْقُوبُ، يَعْقُوبُ! فَقَالَ: «هأَنَذَا». فَقَالَ: «أَنَا اللهُ، إِلهُ أَبِيكَ. لاَ تَخَفْ مِنَ النُّزُولِ إِلَى مِصْرَ، لأَنِّي أَجْعَلُكَ أُمَّةً عَظِيمَةً هُنَاكَ. أَنَا أَنْزِلُ مَعَكَ إِلَى مِصْرَ، وَأَنَا أُصْعِدُكَ - أيضا - . وَيَضَعُ يُوسُفُ يَدَهُ عَلَى عَيْنَيْكَ)

لم يظهر الله إذاً ليعقوب طوال تلك السنين، وتركه الرب يكابد تلك الأهوال وحيداً، ولكنه يتدخل الآن لكي يحول بين يعقوب وبين الخوف من الذهاب إلى مصر فلماذا يخاف يعقوب؟ في الحقيقة أن هذا الصمت الإلهي الطويل، والذي كان غريباً وغير مفهوم، ولكن لا يفوقه سوى غرابة هذا التدخل الإلهي المتأخر لتبديد هذا الخوف مما لا

يخيف أحدا؛ فالابن المفقود قد صار بنعمة من الله وفضل حاكما ومتصرفا في مملكة عظيمة، والشواهد بين يدي يعقوب كثيرة من شهادة الأبناء، ومن المركبات الملكية الواقفة أمام باب خيمته، وهي براهين ساطعة على ما بلغه الابن الحبيب من مكانة عظيمة فلمَ الخوف إذاً؟!

يعقوب يبارك فرعون مصر

)ثم أدخل يوسف يعقوب أباه وأوقفه أمام فرعون وبارك يعقوب فرعون فقال فرعون ليعقوب: كم هي أيام سني حياتك؟ فقال يعقوب لفرعون أيام سني غربتي مئة وثلاثون سنة قليلة ورديّة كانت أيام سني حياتي ولم تبلغ إلى أيام سني حياة آبائي في أيام غربتهم وبارك يعقوب فرعون وخرج من لدن فرعون) (تك 47- 7-10(

التقى فرعون مصر أخيرا بيعقوب، وتلقى بركته عند دخوله وعند خروجه، ولم يحك لنا كاتب التوراة كثيرا مما دار في هذا اللقاء القصير، فقد كان شحيحا للغاية - وعلى غير عادته- واكتفى بإخبارنا بأن فرعون، وقد لاحظ علامات السنين على وجه يعقوب فسأله عن عمره ، وهو سؤال سيندم فرعون مصر طويلا على التورط فيه؛ إذ قال له يعقوب أنه عاش حياة قاسية وقصيرة- ولا ندري لماذا اعتقد يعقوب أنها لن تطول لتبلغ حياة آبائه؟ - فهو لم يتجاوز المئة إلا بثلاثين عاما فقط، ولسنا في حاجة إلى القول بأن فرعون قد امتلأ قلبه بالأسى والحسرة على قصر أعمار المصريين المحزن قياسا بتلك السلالة المعمرة، فقد عاش أبوه إسحاق مئة وثمانين عاما، وعاش جده إبراهيم أقل من عمر ابنه بخمس سنين، وعاش تارح جده الأعلى مئتين وخمس سنين! وربما لن يكون من الإفراط بأن نفترض بأن تلك الإجابة الصادمة قد طهرت قلب فرعون من الحسد القديم للفرعون المصري القديم (بيبي الثاني) آخر ملوك الدولة القديمة والذي تجاوز عمره المئة بقليل، ولكنه هنا فلا لابد وأنه قد أحس بالفجيعة والأسف على هذا الملك الذي اخترمته المنية شابا يافعا، أما لو حدث وأطلعه يعقوب على أعمار البشر خاصة قبل الطوفان، والتي كانت تعطى من قبل كاتب التوراة بسخاء بالغ فلم يكن فرعون مصر بمنجاة من أن يفقد عقله. ولا نريد أن نسيئ الظن فنعتقد أن كاهن (أون) لم يفرح أبدا بهذا اللقاء؛ فالتوراة لم تكلمنا عن هذا، ولا نشك أنه سيكون خبراً طريفاً لو أخبرتنا التوراة عن مساجلة لاهوتية بين القطبين الكبيرين، وإن كنا على يقين أنها لو جاءت بخبر عن هذا اللقاء فلم تكن لتتورع من الإشارة إلى أن الحبر المصري الأعظم قد ترجى - مع انحناءة كبيرة- أن يباركه يعقوب وأن يضع يده على رأسه الحليقة!

وصية يعقوب

من الملامح المشتركة بين القصتين القرآنية والتوراتية ذكرهما معاً قصة وصية يعقوب لبنيه وهو على فراش الموت، ولكن إذا تأملنا فيهما لهالنا الفارق البعيد بين الروايتين: أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِيۖ قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ البَقَرَةِ.

كما رأينا فوصية يعقوب الموجزة لبنيه في القرآن لا يجد فيها قارئها سوى نبي كريم يهمّ بمفارقة الدنيا، فيجمع حوله أبناؤه ليوصيهم بالتمسك بلباب عقيدته الدينية وهي التوحيد، ولا شيء أكثر ذلك، ومن ناحية الأبناء - وكما ينتظر من أبناء صالحين - فنراهم يبادرون ويخبرون أباهم بألا يقلق أبدا من تلك الناحية فسوف يعضون عليها بالنواجذ، هذا هو كل شيء .

أما الرواية التوراتية فتختلف تماما عن هذه الوصية اليعقوبية المختصرة سواء من ناحية مضمونها ومقاصدها أو من ناحية لغتها وأسلوبها فلننظر في اللغة أولاً.

من ينظر في جميع ما تفوه به يعقوب طيلة حياته والتي قاربت القرن ونصف القرن، فلن يجد فيها سوى استعمالاً وظيفياً مباشراً، فلا جمال ولا طلاوة، بل يرى من خلالها ملامح رجل ذا حس عملي واضح، ويستخدم لغة يومية مقتصدة، هي الغاية في البساطة والمباشرة، أما من يقرأ تلك الوصية الوداعية الخلابة فسيذهل من فرط جمالها وبلاغتها، ولما كان من الصعب علينا أن نتخيل أن تختفي تلك الروح الشاعرية من لغة إنسان فلا تظهر إلا وصاحبها على فراش الموت، حيث يكفّ الشعراء والأدباء عادة عن استخدام تشبيهاتهم وكناياتهم، ويتكلمون في هذا المقام- كجميع الناس- أي بوضوح واختصار، وخاصة إذا علمنا بأن الرجل كان يُحتضر وبعد الفراغ مباشرة أسلم الروح فدعونا - معذرة - نقرأ تلك التحفة الأدبية كاملة.

(وَدَعَا يَعْقُوبُ بَنِيهِ وَقَالَ: «اجْتَمِعُوا لأُنْبِئَكُمْ بِمَا يُصِيبُكُمْ فِي آخِرِ الأَيَّامِ. اجْتَمِعُوا وَاسْمَعُوا يَا بَنِي يَعْقُوبَ، وَاصْغَوْا إِلَى إِسْرَائِيلَ أَبِيكُمْ: رَأُوبَيْنُ، أَنْتَ بِكْرِي، قُوَّتِي وَأَوَّلُ قُدْرَتِي، فَضْلُ الرِّفْعَةِ وَفَضْلُ الْعِزِّ. فَائِرًا كَالْمَاءِ لاَ تَتَفَضَّلُ، لأَنَّكَ صَعِدْتَ عَلَى مَضْجَعِ أَبِيكَ. حِينَئِذٍ دَنَّسْتَهُ. عَلَى فِرَاشِي صَعِدَ. شِمْعُونُ وَلاَوِي أَخَوَانِ، آلاَتُ ظُلْمٍ سُيُوفُهُمَا. فِي

مَجْلِسِهِمَا لاَ تَدْخُلُ نَفْسِي. بِمَجْمَعِهِمَا لاَ تَتَّحِدُ كَرَامَتِي. لأَنَّهُمَا فِي غَضَبِهِمَا قَتَلاَ إِنْسَانًا، وَفِي رِضَاهُمَا عَرْقَبَا ثَوْرًا. مَلْعُونٌ غَضَبُهُمَا فَإِنَّهُ شَدِيدٌ، وَسَخَطُهُمَا فَإِنَّهُ قَاسٍ. أُقَسِّمُهُمَا فِي يَعْقُوبَ، وَأُفَرِّقُهُمَا فِي إِسْرَائِيلَ. يَهُوذَا، إِيَّاكَ يَحْمَدُ إِخْوَتُكَ، يَدُكَ عَلَى قَفَا أَعْدَائِكَ، يَسْجُدُ لَكَ بَنُو أَبِيكَ. يَهُوذَا جَرْوُ أَسَدٍ، مِنْ فَرِيسَةٍ صَعِدْتَ يَا ابْنِي، جَثَا وَرَبَضَ كَأَسَدٍ وَكَلَبْوَةٍ. مَنْ يُنْهِضُهُ؟ لاَ يَزُولُ قَضِيبٌ مِنْ يَهُوذَا وَمُشْتَرِعٌ مِنْ بَيْنِ رِجْلَيْهِ حَتَّى يَأْتِيَ شِيلُونُ وَلَهُ يَكُونُ خُضُوعُ شُعُوبٍ. رَابِطًا بِالْكَرْمَةِ جَحْشَهُ، وَبِالْجَفْنَةِ ابْنَ أَتَانِهِ، غَسَلَ بِالْخَمْرِ لِبَاسَهُ، وَبِدَمِ الْعِنَبِ ثَوْبَهُ. مُسْوَدُّ الْعَيْنَيْنِ مِنَ الْخَمْرِ، وَمُبْيَضُّ الأَسْنَانِ مِنَ اللَّبَنِ. زَبُولُونُ، عِنْدَ سَاحِلِ الْبَحْرِ يَسْكُنُ، وَهُوَ عِنْدَ سَاحِلِ السُّفُنِ، وَجَانِبُهُ عِنْدَ صَيْدُونَ. يَسَّاكَرُ، حِمَارٌ جَسِيمٌ رَابِضٌ بَيْنَ الْحَظَائِرِ. فَرَأَى الْمَحَلَّ أَنَّهُ حَسَنٌ، وَالأَرْضَ أَنَّهَا نَزِهَةٌ، فَأَحْنَى كَتِفَهُ لِلْحِمْلِ وَصَارَ لِلْجِزْيَةِ عَبْدًا. دَانُ، يَدِينُ شَعْبَهُ كَأَحَدِ أَسْبَاطِ إِسْرَائِيلَ. يَكُونُ دَانُ حَيَّةً عَلَى الطَّرِيقِ، أُفْعُوانًا عَلَى السَّبِيلِ، يَلْسَعُ عَقِبَيِ الْفَرَسِ فَيَسْقُطُ رَاكِبُهُ إِلَى الْوَرَاءِ. لِخَلاَصِكَ انْتَظَرْتُ يَا رَبُّ. جَادُ، يَزْحَمُهُ جَيْشٌ، وَلكِنَّهُ يَزْحَمُ مُؤَخَّرَهُ. أَشِيرُ، خُبْزُهُ سَمِينٌ وَهُوَ يُعْطِي لَذَّاتِ مُلُوكٍ. نَفْتَالِي، أَيِّلَةٌ مُسَيَّبَةٌ يُعْطِي أَقْوَالاً حَسَنَةً. يُوسُفُ، غُصْنُ شَجَرَةٍ مُثْمِرَةٍ، غُصْنُ شَجَرَةٍ مُثْمِرَةٍ عَلَى عَيْنٍ. أَغْصَانٌ قَدِ ارْتَفَعَتْ فَوْقَ حَائِطٍ. فَمَرَّرَتْهُ وَرَمَتْهُ وَاضْطَهَدَتْهُ أَرْبَابُ السِّهَامِ. وَلكِنْ ثَبَتَتْ بِمَتَانَةٍ قَوْسُهُ، وَتَشَدَّدَتْ سَوَاعِدُ يَدَيْهِ. مِنْ يَدَيْ عَزِيزِ يَعْقُوبَ، مِنْ هُنَاكَ، مِنَ الرَّاعِي صَخْرِ إِسْرَائِيلَ، مِنْ إِلهِ أَبِيكَ الَّذِي يُعِينُكَ، وَمِنَ الْقَادِرِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ الَّذِي يُبَارِكُكَ، تَأْتِي بَرَكَاتُ السَّمَاءِ مِنْ فَوْقُ، وَبَرَكَاتُ الْغَمْرِ الرَّابِضِ تَحْتُ. بَرَكَاتُ الثَّدْيَيْنِ وَالرَّحِمِ. بَرَكَاتُ أَبِيكَ فَاقَتْ عَلَى بَرَكَاتِ أَبَوَيَّ. إِلَى مُنْيَةِ الآكَامِ الدَّهْرِيَّةِ تَكُونُ عَلَى رَأْسِ يُوسُفَ، وَعَلَى قِمَّةِ نَذِيرِ إِخْوَتِهِ. بَنْيَامِينُ ذِئْبٌ يَفْتَرِسُ. فِي الصَّبَاحِ يَأْكُلُ غَنِيمَةً، وَعِنْدَ الْمَسَاءِ يُقَسِّمُ نَهْبًا». وَلَمَّا فَرَغَ يَعْقُوبُ مِنْ تَوْصِيَةِ بَنِيهِ ضَمَّ رِجْلَيْهِ إِلَى السَّرِيرِ، وَأَسْلَمَ الرُّوحَ وَانْضَمَّ إِلَى قَوْمِهِ. (تك الإصحاح 49).

فكما رأينا فبدلاً من أن يقول يعقوب لرأوبين مثلا: أسامحك يا بني على تدنيس فراشي، وإضجاعك مع سرية أبيك، وصدقني يا راؤبين يا ولدي، بأن ذلك لم يكن سهلا عليّ، وعقوبة لك على تلك الفعلة الشنعاء، فلن تتفضل على إخوتك فلا تغضب، وتعقل يا بني في قادم أيامك ...: شمعون ولاوي: اسمعا يا ولدي العزيزين أرجوكما أن تضبطا أعصابكما، ولا تدعا الغضب يذهب بكما بعيدا ...: يهوذا يا بنى أتمنى لك أن تظهر على

أعدائك، ويكون النصر حليفا لك الخ، ولكن بدلا من ذلك نرى وصيته تصاغ في هذا القالب النبوئي الساحر.

لذا، فيمكن أن نقول مطمئنين بأن تلك الوصية الساحرة ليست من كلام يعقوب مطلقا، بل كانت من إبداع كاتب توراتي متأخر، كانت له لغة شعرية لا تقل عن موهبة من كتب تلك الغزلية الفاتنة - نشيد الأنشاد - أو تلك التأملات الشاعرية الورعة مثل المزامير- والتي لا يعقل أبدا أن تخرج من رجل له نفس وعقل رجل كداوود والذي أوصى خليفته بالقتل وهو على فراش موته! - أو كاتب تلك الأمثولة الفلسفية بعيدة الغور كسفر أيوب، والتي كان ديستويفسكي - أديب البشرية الأعظم - يذرع غرفته باكيا وهو يقرأها.

ولن نتكلم عن غياب ابنة يعقوب الوحيدة من هذا اللقاء الأبوي الأخير، رغم أنها جاءت في المركبات الملكية مع بقية إخوتها إلى مصر، وفي الحقيقة فلا أحد يعلم أين ذهبت (دينه) بعد ذلك؛ فقد تلاشت تماما.

هذا عن اللغة فماذا عن المضمون؟

النص واضح: (وَدَعَا يَعْقُوبُ بَنِيهِ وَقَالَ: «اجْتَمِعُوا لأُنْبِئَكُمْ بِمَا يُصِيبُكُمْ فِي آخِرِ الأَيَّامِ.) فيعقوب يخبر بنيه بما سيفعلونه من بعد رحيله أو قل من أول خروجهم من مصر حتى وقت تسجيل وتدوين الكتاب المقدس، فإذا تذكرنا أن يعقوب لم يكن يعلم ما يجري حوله - بل ما يجري في بيته- فقد صدق أن يوسف قد مات وكاد أن يغشى عليه لما علم - أنه لم يمت، بل صار متسلطا على أرض مصر، ولم تخبرنا التوراة أبدا بأن يعقوب قد أخبر أولاده بأن تلك النبوءة من تعليم الله إياه - فإن الله لم يظهر ليعقوب آخر مرة إلا لكي يخبره بألا يخاف من النزول إلى مصر، وكان هذا الظهور الإلهي هو آخر تجل إلهي، ولن يحدث ذلك مرة أخرى إلا بعد وقت طويل جدا عندما سيظهر الله لموسى في العليقة (خروج 3) .

فلا علينا سوى أن نعيد وضع تلك الصورة المقلوبة لنقول بأن تلك النبوءة ما هي إلا ترجمة لما حدث بعد ذلك بقرون لنسل أولاد يعقوب، بدءاً من دخولهم أرض كنعان وصراعهم مع جيرانهم، وأنها جاءت وصفاً استباقياً لما ظهر من تلك القبائل من تقلبات وأحوال، ومن مسالمة أو اشتراك في الحروب، ومن استقامة على عقيدة الآباء أو

انحراف عنها إلى عقائد الشعوب الوثنية المجاورة، وإذا أراد - القارئ الكريم - أن يعرف مصداق ذلك على نحو تفصيلي فليفرغ نفسه أسبوعاً كاملاً ليقرأ بقية العهد القديم، أو أن يقرأ وصايا أبناء يعقوب في المرويات التلمودية، فقد جاءت على نحو أوضح من نبوءات أبيهم.

جنازة يعقوب

(فوقع يوسف على وجه أبيه وبكى عليه وقبله وأمر يوسف عبيده الأطباء أن يحنطوا أباه فحنط الأطباء إسرائيل، وكمل له أربعون يوما لأنه هكذا تكمل أيام المحنطين وبكى عليه المصريون سبعين يوما)(تك 50 1-3).

عاش يعقوب بعد مجيئه إلى مصر سبعة عشرة عاما فقط، ثم مات في النهاية كما يموت جميع الناس، ولكن ليس جميع الناس، بل وليس جميع الملوك قد حظوا بجنازة مثل جنازة يعقوب الأسطورية، ففي البداية نجد يوسف يأمر عبيده الأطباء بتحنيط جثة أبيه، ثم بكى عليه المصريون جميعا سبعين يوما، ثم استأذن فرعون - عن طريق وسيط مقرب لديه- أن ينفذ وصية أبيه، ويدفنه هناك في أرض كنعان فلم يمانع فرعون في ذلك - وحسنا فعل كاتب التوراة إذ أعفي فرعون مصر العجوز من الخروج بنفسه، والذهاب بعيدا إلى أرض كنعان لكي يشارك في إضجاع يعقوب هناك مع آبائه وزوجته المحبوبة راحيل- ولكن يوسف لم يمض بأبيه وحيدا ، كلا ! فقد صعد معه جميع عبيد فرعون، وجميع الشخصيات الهامة في مصر معتلين المركبات ومحاطين بالفرسان، فكانوا كجيش عظيم جدا، وهناك تجددت الأحزان وناحوا على يعقوب هناك نواحاً عظيماً، ولكن هذه المرة لسبعة أيام فحسب مما أثار ذعر ودهشة شعوب وقبائل تلك البلاد حتى لقد أسموا تلك المنطقة باسم يذكرهم أبد الدهر بهذه المناحة التاريخية: (فلما رأى أهل البلاد الكنعانيون المناحة في بيدر أطاد قالوا: هذه مناحة ثقيلة للمصريين لذلك دعي اسمه ابل مصرايم الذي في عبر الأردن) (تك 50 -11).

ولا شك في أن مراسم الوداع تلك لم يحظ بها أي ملك من ملوك مصر عبر تاريخها كله، ولكن هكذا شاءت إرادة كاتب التوراة الذي رُفعت من عقله أي خطوط فاصلة بين المعقول المقبول، وبين الهذيان المقيت الذي لا يقبله أي عقل، اللهم إلا عقل المؤمنين بحرفية هذا الكتاب العجيب!

خاتمة

(فَوَقَعَ يُوسُفُ عَلَى وَجْهِ أَبِيهِ وَبَكَى عَلَيْهِ وَقَبَّلَهُ. وَأَمَرَ يُوسُفُ عَبِيدَهُ الأَطِبَّاءَ أَنْ يُحَنِّطُوا أَبَاهُ. فَحَنَّطَ الأَطِبَّاءُ إِسْرَائِيلَ. وَكَمُلَ لَهُ أَرْبَعُونَ يَوْمًا، لأَنَّهُ هكَذَا تَكْمُلُ أَيَّامُ الْمُحَنَّطِينَ. وَبَكَى عَلَيْهِ الْمِصْرِيُّونَ سَبْعِينَ يَوْمًا.) (تك 50 1-3).

بعد أن قرأت- قارئي الكريم - هذه الآيات من خاتمة سفر التكوين فهل تستطيع أن تستخرج منه دليلا على عقيدة البعث عن العبرانيين؟ لا؟!!

(أما هذا الشارح الجليل فتساءل لماذا اهتم يعقوب بمكان دفنه إلى تلك الدرجة، وهل يهتم رجل الإيمان بجسده بعد الموت ؟، وإذا كان السؤال - كما نرى - معقولاً ومشروعا فماذا كان سيضير يعقوب لو وارى الثرى جسده هنا في مصر ألم يكن أفضل من يحدث كل تلك البلبلة، ويضطر المملكة المصرية بأكملها للذهاب هناك حيث أوصى بأن يضطجع؟ أما إجابة هذا العالم فجاءت على هذا النحو إذ رأى أن هناك ثلاثة أسباب وراء تشدد يعقوب يهمنا منهما الأول والثالث: (أولاً يؤكد الآباء أن رجال العهد القديم كانوا يهتمون في وصيتهم بدفن أجسادهم في موضع معين كتسليم ملموس خلاله يدرك أولادهم قيامة الجسد ..... ثالثاً طلب أن يدفن مع آبائه ليعلن أن حياته كلها كانت تسير في تناغم وانسجام مع إيمان آبائه المسلم عبر الأجيال ... خاصةً إيمانه بالقيامة من الأموات [77]) إذاً فالدليل - يا عزيزي - واضح أمامك كالشمس في رائعة النهار، ولكنك لن تستطيع أن تراه حتى تُرسَم كاهناً!، فقد استطاع أحد الشراح المسيحيين المحدثين من أن يفعلها بيسر شديد ؛ إذ نراه يختم شرحه لسفر التكوين بقوله: (هنا نسمع عن التحنيط ومعناه في مفهوم المصريين أن هناك حياة أخرى بعد الموت، وكون الكتاب المقدس ينهى سفر التكوين بالإشارة إلى التحنيط فهو بهذا يشير ضمنيا إلى أن هناك قيامة بعد الموت[78]).

فهل هناك برهان أوضح من هذا على ما يمكن أن تجرّه القراءة الاعتقادية - إن صح هذا التعبير- للنصوص الدينية من عجائب وغرائب يقف المرء أمامها مشدوها مذهولاً أكثر من هذا؟ فالرجل وهو المسيحي الصالح ممتلئ باليقين في اعتقاد الآباء البطاركة في القيامة، ولكن عبثا يحاول العثور على دليل مهما كان ضعيفا يشير إلى هذا

(77) تفسير سفر التكوين - القمص تادرس يعقوب ملطي - الأنبا رويس - العباسية -ص 386-387

(78) القس أنطونيوس فكرى شرح سفر التكوين ص405

الاعتقاد فماذا كان عليه أن يفعل؟ هنا تتجلى القناعة في أسوأ مظاهرها، ويضطر الشارح وهو الرجل الذكي إلى الاكتفاء بتلك الإشارة التي سبقت، ويستخرج منها ما استخرج كما لو المصريين وعقائدهم الوثنية يمكن أن يستدل منها على عقيدة أساسية في دين آخر تجوهرت مفاهيمه الأساسية بعد مئات ومئات من السنين من تلك العقيدة وأصبح دينا عالميا يعتنقه قرابة ربع سكان الكوكب وهي عقيدة البعث، فيستخرج من تلك الإشارة برهاناً يمنحه للعبرانيين رغم أن تلك الديانة اليهودية بلا ريب لم تعرف هذا الاعتقاد بأن الله سيقيم الأرواح بعد الموت لكي يحاسبها على مدى التزامها بما قدم إليها من وصايا وتشريعات إلا بعد تلك الفترة بمئات السنين .

لكنه - ويا للأسف - التفسير المسيحي للتوراة، والذي هو الحصاد المرير، والزؤان الشرير للمدرسة اليهودية - المسيحية التي اختطفت المسيحية في طور تشكلها الباكر، فجعلت من العهد القديم هو أساس العقيدة المسيحية، وهو أساس كان يتناسب - ربما- مع اعتبار المسيح مجرد نبي أو حتى المسيّا، ولكن الاستعلان الإلهي كما يجليه الإيمان المسيحي بألوهية المسيح، يجعل من هذا الإرث عبئا شديد الوطأة على تلك العقيدة الجديدة، ويجعل المسيحي مضطرا لقبول هذا الذي لا يقبل ؛ ألا وهو اعتبار العهد الجديد متضمنا بين ثنايا العهد القديم، وكان من نتيجة ذلك أن جعلت المسيحي الصالح يرى ما لا وجود له إلا في اعتقاده . وليس من تطور ديني في تاريخ الأديان كلها في- حدود ما نعلم- يدعو يا للأسف أكثر من هذا التطور، فبدلاً من إعلان القطيعة التامة مع هذا الإرث البدائي المقيت، فقد اعتبر أساسا لعقيدة هي أبعد بكثير جدا من أن تكون تجديدا أو بعثا لهذا الدين العتيق. وقل مثل ذلك- بالطبع - عن صفات الله التي أوردها القرآن الكريم على لسان يوسف ويعقوب فلم تكن في الحقيقة لتتناسب مطلقا مع صورة الله كما تتجلى في الأسفار الأولى من العهد القديم والتي تحكي أخبار تلك الفترة من حياة الآباء فالله كان يتمشى في الجنة عِنْدَ هُبُوبِ رِيحِ النَّهَارِ وتجوز عليه عوارض النسيان والندم والأسف (وكانت شخصيات عصر الآباء تستمع لصوت الرب مباشرة أو تراه في المنام، وفي بعض الأحيان رؤية العين المجردة وتتحدث معه أمام الخباء بل ويدخل يعقوب في صراع جدي مع الله عند مخاضة نهر يبوق وإبراهيم يفاجئ بزيارة يهوه مع اثنين من حاشيته في وضح النهار)، واذا أخذنا واقعة واحدة من بين عشرات الوقائع التي يزدحم بها الكتاب المقدس، والتي تلخص أي واحدة منها تصور الآباء الأوائل لله،

وليكن مثلا واقعة مصارعة يعقوب لله - لأنه موضوع هذا الفصل - وكيف أن المسلم - مثلا - وهو ينطلق من صورة يعقوب القرآنية فإننا نجده يرد ببساطة تثير الدهشة ، بل والغيظ تلك الواقعة، ويراها افتراءً من اليهود على أبيهم الذي ينتسبون إليه، ودون التوقف لحظة واحدة للنظر في مدى توافق تلك النظرة مع بقية التصورات الدينية لتلك الفترة التي عاش فيها ذلك النبي أو تناقضها، والحق الواضح أن كل تأويل متأخر يصدر عن رؤية دينية أخرى أكثر تقدما وتطورا هو الذي ينبغي رده باعتباره تصورا جميلا، ولكنه غير منصف من ناحية، والأهم من ذلك كله أنه غير صحيح والعجب لا ينقضي من غياب هذا الارتباط الواضح - لدى البعض - بين تناسب الشوط الذي يقطعه الإنسان في فهم نفسه، وللعالم الفيزيائي من حوله، وبين تصوره الديني، فلا ندري مثلا كيف يعقل أن تتجاور أمثال معارف أهل تلك العصور القديمة، والتي أبانت عنها على نحو تفصيلي ساطع الدراسات والكشوف التاريخية واللغوية والأثرية، والتي كشفت حدود ومعالم معرفتهم بأنفسهم وبالعالم من حولهم، والتي كانت تحفل بتصورات خرافية ساذجة وتفسيرات أسطورية للعالم وللأشياء من حولهم وبين أن تكون لهم في الوقت ذاته تصورات تنزيهيه عن الله .

لذا فمن يريد أن ينسب - مثلا الإيمان - بفكرة وحدة الجماعة الإنسانية، أو عقيدة تنزيه الإله، أو سواها من الأفكار الدينية المتقدمة مع الغياب الكامل للإطار الثقافي الذي يناسبها من التطور الحضاري العام، فهو لا يبعد في خطئه كثيراً عمن يريد أن ينسب نظريات فيزيائية حديثة كالنسبية، أو الأوتار الفائقة إلى مجتمعات حضارية قديمة لم تتوصل قط إلى المعارف الفيزيائية والرياضية الأساسية التي يستحيل معه تصور تلك النظريات قبل وجودها إذ هي مؤسسة عليها .

إذاً، يمكننا أن نقولها باختصار- وكبديهية واضحة بذاتها- أن فهم الإنسان وتصوره عن الله لهو انعكاس مباشر لمدى معرفته بنفسه وبالعالم .

المبحث الثالث: يوسف ويعقوب في المرويات التلمودية .

(هذه الآية على أنها تشير إلى يوسف الصادق. عندما أنت المرأة الشريرة لتغويه، ضايقته بكلامها، كقولها؛ سأضعك في السجن"؛ فأجابها؛ يحرر الله الأسرى قالت: "سأقتلع عينيك، فأجابها؛ يفتح الله أعين العمى" قالت؛ سأحني قامتك، فأجابها؛ يرفع الله المنحنيين قالت؛ سأتهمك بخطيئة"، وأجابها؛ يحب الله الصادق قالت، سأجعلك غريباً، فأجاب؛ يحفظ الله الغرباء قال أخيراً، كيف إذا سأقدر أن أفعل هذا الشر الكبير".[79]).

من يقرأ سفر التكوين، ويقرأ بعده مباشرة سفر إشعياء الثاني، ويعقبهما بتصفح أي كتاب يعرض المفاهيم الدينية اليهودية في عصر المشنا فمن حقه تماما بأن يتساءل إن كانت تلك الكتب الثلاث تنتمي جميعها حقا إلى عقيدة دينية واحدة؟! ولكن هذا الشيء المستغرب للوهلة الأولى هو ما تقتضيه - بداهة - دواعي التطور للشعب اليهودي عبر تاريخه الطويل، واحتكاكه المتواصل بالأمم الأخرى، والتي كانت في كثير من جوانب اعتقادها أكثر تطورا بكثير من العبرانيين، فأخذوا عنهم - فيما أخذوا- كثيرا من أركان عقائدهم الدينية.

ومن يقرأ كذلك الروايتين القرآنية والتوراتية عن قصة يعقوب وأبنائه متعاقبتين فله أن فله أن يستهول - من باب أولى - الفارق البعيد بينهما، سواء أجاء الفرق من اختلاف أحداثهما، أو من تباين مضمونهما الديني والأخلاقي، ولكن الحقيقة أنه لا شيء يدعو للعجب في ذلك الاختلاف، فتلك هي طبيعة الأمور، وهذا ما يحدث حتما عندما تتغير نظرة الإنسان وتترقى عقيدته الدينية وتتطور عبر مئات السنين.

لذا فلا ينبغي أن يستهول القارئ المسافة والفرق الشاسع بين اعتقادات الآباء البطاركة وأنماط سلوكهم كما يظهرها العهد القديم، وبين الصورة القرآنية الزاهية لذات أنبياء ورجال تلك الفترة؛ فلم ينطلق النبي محمد مباشرة من العهد القديم، بل مما تطورت إليه العقيدة اليهودية، وآلت إليه قبل دعوته بعدة قرون، والتي تأسست على مساهمات أنبياء العهد القديم المتأخرين والأكثر منه على الإسهامات التفسيرية خارج العهد القديم، وخاصة التلمود.

---

(79) التلمود البابلي – المؤسسة الأردنية للبحوث والمعلومات – المجلد العشرون 2011م- ص 75

وعلى هذا فالرواية القرآنية إنما تستمد أهميتها أساسا من كونها -على نحو ما- الخطوة الثالثة والأخيرة في مدارج ارتقاء صورة الإله وتجميل ملامح الأنبياء وأما الحلقة الوسطى بينهما فكانت المرحلة التلمودية، سواء عبرت عن نفسها بالشروح والأفكار المباشرة أو بالقصص والحكايات الشعبية، فهي إذن التي بدأت الشوط الثاني من تلك المسيرة الطويلة، وانطلاقاً من نهايته، سينهض النبي محمد بمهمة استكماله وإيصاله إلى غايته ؛ لذا فمن الطبيعي أن نقف وقفة قصيرة عند تلك المرويات التلمودية؛ لكونها من ناحية أصل كثير من أحداث القصة القرآنية، وأيضا لأنها كانت نواة لبعض الدلالات والجوانب الراقية، والتي تطورت أكثر فأكثر على يد النبي محمد، وبلغت إلى ما يجده كل متصفح للقرآن الكريم من حضور عظيم الكمالات الله، ومن رفعة وجلالة صورة الأنبياء.

لذا فلا ينبغي أن يظن أحد بأن القصة القرآنية عن يوسف ويعقوب ليست سوى ترجمة عربية جميلة لبعض تلك المرويات القصصية التي بلغت النبي من خارج التوراة أو يقال إن القصص القرآني بعامة لا يعدو أن تكون ترجمة انتقائية - وبتصرف - لبعض تلك المرويات، وإن أضفي النبي محمد عليها هنا أو هناك بعضاً من مظاهر نفسه، وبعضاً من ملامح عصره مما أغناها، ونفخ فيها من روحه فالحقيقة - التي نعتقدها- أن ما فعله القرآن لهو أبعد مدى من ذلك بكثير؛ لذا فلا ينبغي التركيز على تشابه الأحداث وهو - ما سنبينه ونقف عنده في هذه الصفحات - بل ينبغي الاهتمام أكثر بما فعله القرآن فيها، من تطوير للمفاهيم، وتهذيب للوقائع، وترقية للدلالات وهو ما سنختتم به هذا الفصل القصير.

إذن سوف نعرض هنا أولاً بعض المرويات التلمودية لقصة يوسف ويعقوب، ولن نتوقف عند شيء من تلك المرويات سوى لما كان له مقابل قرآني مباشر مستهدفين من هذه الصفحات أغراضاً ثلاثة : أولها بيان أصول بعض الوقائع التي جاءت في القصة القرآنية وخلت منها الرواية التوراتية القديمة، وثانيها بيان لتطور بعض المفاهيم الدينية والتي يمكن أن يرى القارئ بوضوح أنها أرقى من سابقتها التوراتية وأقل - في الوقت ذاته - من لاحقتها القرآنية ، وثالثها أن نأتي بلمحة موجزة تبين لنا أي فضاء خرافي وأسطوري كانت تسبح فيه تلك المرويات المسلية لبيان جلالة ما أتى به النبي

محمد إذ من بين فرث ودم تلك المرويات الأسطورية - توراتية كانت أو تلمودية - خرج القرآن الكريم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين.

أولا: أصول بعض المرويات القرآنية .

من يقرأ الحكايات التلمودية عن قصة يوسف وإخوته فسيجد فيها بوضوح ما يمكن اعتباره أصل كثير من مفردات القصة القرآنية وأساساً لبعض وقائعها التي امتازت بها عن الرواية التوراتية، وسنعرض هنا إلى أهم تلك المشابهات الواضحة بين القصتين

(1)

تبنى يوسف

وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًاۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ يُوسُف .

(وفي البداية لم تصارح يوسف بحبها له وإنما حاولت إغواءه بالمكر والحيلة. كانت تتذرع بزيارته وتذهب إليه ليلا، ولأنها لم يكن لها ولد فقد كانت تتظاهر برغبتها في أن تتبناه، عند ذلك دعا لها يوسف الرب فولدت ابنا، ومع ذلك فقد ظلت تعانقه كأنه ابنها، ومع ذلك فلم يتنبه لنواياها الشريرة وفي النهاية عندما تنبه لنيتها الدنيئة ظل أياما مغموما وحاول إثناءها عن نوازعها الخاطئة مذكرا إياها بكلام الرب[80]).

من مشتركات الروايتين القرآنية والتلمودية الحديث عن محاولة تبنى يوسف في بيت سيده فوطيفار، لكن القرآن يجعل من الرجل هو من حض امرأته- وقد فاتهما الولد - على أن يتخذا من يوسف ابنا لهما، وأما الرواية التلمودية فتجعل من فكرة تبنى يوسف مجرد حيلة تتوسل بها المرأة المتصابية لنيل وصال عبدها الفاتن كما يظهر من هذا النص السابق، وليس من الضروري القول بأن الرواية القرآنية تبدو أقرب إلى المعقول من تلك الأخرى، وخاصة أن الرواية القرآنية تجعل من سن يوسف أقل بكثير مما جاءت به التوراة، لذا فمن الطبيعي ألا ترى فيه المرأة وقت دخوله إلى بيتها أكثر من صبي

(80) الأساطير- ج2 ص 45

لطيف، يصلح بأن يكون ابنا لها، وليس شابا بديع الجمال تحاول أن تستميله كرجل وتغويه كعاشق وتتخذه خدنا لها، ولا يعقل كذلك أن يكون التفكير في تبنيه قد تأخر إلى ما بعد نضجه واكتمال بهاءه.

والحقيقة أننا لا ندري لماذا خالف النبي تلك الرواية التلمودية عن التبني فهل لما قدمناه من فروض؛ أي أنه رآها حكاية مقلوبة فصححها، أم أنه كان ينظر في رواية أخرى موازية رآها معقولة أكثر، والحقيقة أنه لا يبعد عندنا هذا ولا ذاك، وإن كنا نميل إلى الفرضية الثانية أكثر.

والحقيقة أننا لا نعلم كذلك أن كان نظام التبني في مصر القديمة يجعل من الميسور أن يتبنى رجل من الطبقة العالية عبدا أجنبيا مشترى أم لا، وأما ما نستيقنه فهو أن قصة التبني في الروايتين لم تأت إلا لبيان ما بلغه يوسف بسبب من جمال طلعته من منزله في قلب الرجل المصري أو قلب امرأته.

(2)
يوسف ونسوة المدينة

* وَقَالَ نِسۡوَةٞ فِي ٱلۡمَدِينَةِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفۡسِهِۦۖ قَدۡ شَغَفَهَا حُبًّاۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتۡ بِمَكۡرِهِنَّ أَرۡسَلَتۡ إِلَيۡهِنَّ وَأَعۡتَدَتۡ لَهُنَّ مُتَّكَـٔٗا وَءَاتَتۡ كُلَّ وَٰحِدَةٖ مِّنۡهُنَّ سِكِّينٗا وَقَالَتِ ٱخۡرُجۡ عَلَيۡهِنَّۖ فَلَمَّا رَأَيۡنَهُۥٓ أَكۡبَرۡنَهُۥ وَقَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّ وَقُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٞ كَرِيمٞ ﴿٣١﴾ قَالَتۡ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمۡتُنَّنِي فِيهِۖ وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ فَٱسۡتَعۡصَمَۖ وَلَئِن لَّمۡ يَفۡعَلۡ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسۡجَنَنَّ وَلَيَكُونٗا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ يُوسُف .

(وعندما بدأت كل محاولات زليخة لإقناعه بالفشل تملكتها حسرة أوقعتها مريضة وأتت كل نساء مصر لزيارتها، وقالوا لها: لماذا شحبت وهزلت هكذا مع أنه لا ينقصك شيء؟ أليس زوجك واحدا من أكبر الأمراء وأقربهم إلى قلب الملك؟ أيكون ذلك لرغبة

قلبك في شيء عسير نواله؟ أجابتهن زليخة قائلة لتعلمن اليوم سبب حالتي التي ترون؟ أمرت خادمتها بإعداد الطعام وأعدت لهن وليمة في منزلها، ووضعت على المائدة سكاكين ليقشرن بها البرتقال ثم أمرت يوسف بالظهور أمامهم فخرج عليهن مرتديا أفضل وأبهى الثياب، وعندما دخل يوسف ورأته النسوة لم يستطعن تحويل أعينهن عنه، وقطعن أيديهن بالسكاكين وتغطت البرتقالات التي في أيديهن بالدماء، لكنهم لم يشعرن بكل ذلك، وظللن ينظرن إلى جمال يوسف دون أن يرفعن أعينهن عنه ثم قالت لهن زليخة: ماذا فعلتن؟ أنظرن لقد وضعت أمامكن البرتقال لتأكلوه لكنكن قطعتن أيديكن، وعندما نظر جميع النساء إلى أيديهن --- يا إلهي! إن أيديهن مغطاة بالدماء التي سالت ولطخت أثوابهن، وعندها قلن لزليخة: لقد سحرنا عبدك هذا ولم نستطع رفع أعيننا عنه لجماله فقالت لهن: فعلتن ذلك وأنتن لم ترونه إلا للحظة واحدة ولم تستطعن رغم ذلك التحكم في أنفسكن، كيف لي إذن أن أتحكم في نفسي معه، وهو الذي يقيم في بيتي وأراه رائحا غاديا كل يوم أمام عيني؟ كيف لي إذن ألا أهزل وتذهب نضارتي بسببه؟ فقالت لها النسوة: معك حق فمن هي التي ترى كل هذا الجمال في بيتها وتكبح مشاعرها[81]؟)

ومن المشتركات بين الروايتين - أيضا - ما جاء في كلتيهما من إقامة امرأة العزيزة وليمة لنساء مصر المترفات، وإدخالها يوسف - في كامل بهاءه - عليهن، وما أحدثه دخوله الفجائي عليهن من دهش، فقطعن أيديهن غير شاعرات بألم، ورغم هذا التشابه العظيم بين الروايتين إلا أن بينهما بعض الفروق الهامة.

فمن جانب زمانها نجد أن زمن رواية القرآن يأتي بعد ما شاع عن مراودة امرأة العزيز ليوسف، وحضور زوجها أثناء ذلك واتهامها ليوسف، ونفي يوسف للتهمة والاحتكام إلى شهادة قريبها، ثم ما كان من تسرب تلك القصة إلى خارج البيت، حيث بلغ مسامع نساء طبقتها اللاتي أنحين عليها باللائمة، وعذلنها على انفلاتها وتهتكها غير اللائق .

أما الرواية التلمودية فنجدها تسبق القرآنية زمنيا فهي تأتي قبل ذلك كله، والأهم من ذلك أننا نجد أن نسوة المدينة واللاتي بدون في القرآن لائمات عاذلات لها، كن في الرواية التلمودية أكثر تعاطفا مع أختهن المتيمة بعبدها، بل كن من حرضنها على اتهام يوسف بالاعتداء عليها.

(81) الأساطير اليهودية ج2 ص49-50

والرواية القرآنية - كما سنرى - أكثر اتزاناً إلى حد ما من نظيرتها التلمودية، فهي لا تبخل على نساء المصريين بحضور أقل القليل من الأخلاق أو حتى لمجرد مراعاة سلم القيم الاجتماعية ؛ لذلك فمن الطبيعي وفقها أن تستنكر سيدات الطبقات العالية أن تواصل امرأة شريفة عبدها أنفة وتكبرا من هذا العار الاجتماعي الثقيل، فلم يكن نسوة مصر عند النبي محمد أقل ترفعا من شريفات قريش الوثنيات، والتي استنكرت عميدتهن أن يدعوهن النبي محمد في بيعة النساء - إلى ترك الزنا فقالت له في زهو يسطع تحت الدهشة والاستنكار (أو تزني الحرة ؟!!)[82].

ومع ذلك فإننا نعتقد بأن تصوير القرآن لامرأة العزيز وتهتكها الواضح في جرأتها على دعوته إليها دون مواربة ما يعكس أثراً من آثار تلك المرويات التلمودية الحاقدة عن فسق المصريات وخلاعتهن .

أما الرواية التلمودية فقد كانت تنطلق إلى غايتها حيث شاءت أن تجمع في قصة واحدة بين فتنة يوسف الخارقة التي تتساقط أمامها كل مقاومة للنساء - كبيرات كن أم صغيرات، ثيبات كن أم أبكارا - للتأكيد على فتنته الأسطورية : وثانيها أنها كانت تنطلق من تأكيدها على شيوع الفاحشة والانحلال الأخلاقي لعموم المصريات، فلم تكن هناك امرأة واحدة في مصر كلها لا تتلهف على أن تلقي بنفسها تحت قدمي يوسف أو لأن تحظى بمجرد نظرة من عينيه الساحرتين، ومن يقرأ مراسم التنصيب الأسطورية ليوسف التلمودي فسيرى مصداق ذلك : (--- وقد امتشق خمسة آلاف رجل سيوفهم وأخذوا يلوحون بها، وهي تتلألأ تحت ضوء الشمس، وسار عشرون ألفا من خاصة الملك وقد تمنطقوا بالأحزمة الجلدية المطرزة بالذهب، وتطلع نساء وفتيات النبلاء من النوافذ ليتأملن جمال يوسف وأخذوا يقذفونه بالسلاسل والخواتم والجواهر لعله يرمي إليهن ولو بنظرة، لكنه لم ينظر إليهن فكافأه الرب بأن جعله محصنا ضد العين الشريرة التي ما استطاعت كذلك أن تمس أيا من ذريته [83]).

ولن نستطيع أن نترك هذه النقطة قبل أن نسجل أننا لا نذكر من بين ما قرأناه عن أطعمة المصريين وفاكهتهم ما جاء في الرواية التلمودية عن البرتقال فهل عرف المصريون البرتقال؟

---

(82) السيرة الحلبية - على بن إبراهيم الحلبى - دار الكتب العلمية - بيروت الطبعة: الثانية - 1427هـ- ج3ص 138

(83) الأساطير اليهودية - ج2 ص71

وهل من دلالة - أيضا - من أن المرويات التفسيرية الإسلامية قد جاءت بمشابه لتلك الفاكهة وهو الأترج؟!

(3)
المصريون والملائكة

وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ يُوسُف

فَلَوْلَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ الزُّخْرُف .

(ومرة أخرى أرسلت إليه طبقا كانت قد تلت عليه التعازيم السحرية على أمل أن يوقعه ذلك تحت سلطانها، لكن عندما وضعه الخصى أمامه، رأى أمام عينيه صورة رجل يناوله سيفا مع الطبق فتوجس من الطبق خيفة ولم يذق منه شيئا وبعدها ببضعة أيام جاءته سيدته وسألته لماذا لم تأكل شيئا مما أرسلت إليك؟ فوبخها قائلا: كيف جرؤت على أن تقولي لي أنك لا تقربين من الأصنام وأنك لا تعبدين إلا الرب؟ إن رب آبائي قد كشف لى سوء طويتك من خلال ملاك فلعلك تعلمين إذن أن شر الأشرار لا يضير من يخافون الرب فيتعففون عن الحرام لأكلن طعامك أمام عينيك، ولسوف يكون رب آبائي وملاك إبراهيم معي عندها خرت زوجة فوطيفار على وجهها عند قدمي يوسف ووعدته من بين دموعها بألا تقترف هذه الخطيئة مرة أخرى[84].)

(أسرع الناس يخرون له ساجدين وهتفوا قائلين: عاش الملك وعاش نائب الملك وعندما رأى يوسف ذلك كله رفع عينيه إلى السماء وصاح قائلا: الرب يرفع الفقراء من التراب ويرفع المحتاجين من اتضاعهم يا رب الملائكة بورك من يثق بك[85].)

قلنا عند عرضنا لقصة يوسف القرآني بأن حضور الملائكة على لسان نسوة المدينة، وكذا على لسان فرعون لهو أمر عجيب وغريب، فلم يعرف المصريون شيئا عن تلك المخلوقات العلوية، ولم يكن لها من موضع داخل تصوراتهم الدينية، فمن أين اعتقد النبي في حضور تلك المخلوقات عند المصريين وغيرهم؟ الإجابة اليسيرة لتفسير ذلك أن هذا التوهم النبوي الخاطئ قد جاءه بشكل عام بسبب ما قلناه من اعتقاده في شيوع المفردات الدينية التي كانت في عصره بين جميع الأمم السابقة ، وذلك لأن الإيمان

---

(84) السابق ج2 ص 46

(85) السابق ج2 ص 72

بالملائكة كان في اعتقاده جزءا من العقيدة الأزلية التي جاء بها الأنبياء جميعا، وبشروا بها بين جميع الأمم السابقة التي بعثوا فيها، وكان من بيت أسباب اعتقاد النبي في هذا الاعتقاد غير التاريخي والخاطئ هو متابعته للمرويات التلمودية، والتي وقعت بدورها في هذا الخطأ الفادح، وكرّت على الأزمنة السابقة، مانحة لها جميع ما عرفه واعتقده اليهود المتأخرون، وهذان المثالان اللذان بين أيدينا الآن لهما برهان واضح على ذلك.

(4)

يوسف يدعو المصريين إلى الله الواحد

إذا كنا قد أظهرنا دهشتنا في غير هذا الموضع من ادعاء أحد الشراح المسيحيين من تبشير يوسف التوراتي بإلهه بين المصريين معتمدين في ذلك على خلو العهد القديم تماماً من أمثال تلك الدعوات لأي من الآباء أو غير الآباء ، فإن الروايتين التلمودية والقرآنية تتفقان في إعطاء يوسف تلك المهمة التي أعفته منها التوراة ففي القرآن نقرأ: قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ٣٧ وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ٣٨ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ٣٩ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٤٠ يُوسُف.

وإذا كانت خطبة يوسف القرآني التبشيرية بين المصريين خطبة جميلة ورائعة، ولا شيء يدعو للعجب منها سوى موضعها العجيب، واشتمالها على أفكار وتصورات خاطئة مثل اعتقاد النبي محمد بأن المصريين لم يكونوا يعتقدون في الآخرة، وأيضا لتطابقها الكامل مع العقيدة الشركية عند عرب الجزيرة قبيل البعثة، و قلنا بأن هذا التصور الذي منحه النبي للمصريين لم يكن يعبر عن عقيدة المصريين في شيء ، وإنما

كان يعبر عقيدة أهل مكة ومن حولها، ولكن النبي كان يظن بأن هذه العقيدة الشركية بعينها كانت عقيدة جميع الأمم والشعوب السابقة مذ دخل الشرك إلى الدنيا قبل زمن نوح وحتى عصره، وخلا ذلك فهي خطبة جليلة خلابة.

أما الروايات التلمودية فقد أبانت بشكل واضح ما كانت عليه عقيدة يوسف الدينية واختلافها الواضح عن عقائد المصريين الوثنيين عابدي الأصنام، وهو ما خلت منه الرواية التوراتية فقد جعلت من يوسف في أكثر من موضع داعياً إلى الله سواء أكان يدعو أفراداً أم جماعات.

ومن أطرف المفاوضات والمساومات التي يمكن أن تكون قد حدثت في التاريخ الديني كله بين صاحب عقيدة، وبين مرشح لها هو ما جرى بين يوسف وامرأة فوطيفار فلنقرأ، ولنضحك قليلا: (ولما رأت أن كل ذلك بلا فائدة، اقتربت منه وطلبت منه أن يعلمها كلام الرب قائلة: (لو شئت أن أترك عبادة الأصنام نفذ لي رغباتي، ولسوف أقنع زوجي المصري هذا بترك عبادة الأصنام ولسوف نسير أنا وهو في طريق الرب، لكن يوسف كان يرد عليها قائلا إن الرب لا يريد ممن يخافونه أن يعيشوا في دنس ولا يحب الزناة[86]).

أما عن دعوة يوسف لعموم المصريين فقد جاءت في الروايات التلمودية في سياق آخر؛ اذ عندما جاءه المصريون في سنوات القحط يطلبون منه أن يعطيهم خبزا لبطونهم، لم يدع يوسف هذه الفرصة تفلت من بين يديه محاولا أن يجمع للمصريين الساغبين بين خبزي الدنيا والآخرة ومنحهم غذاء الروح والجسد معا في سلة واحدة : (طلب يوسف من المصريين قبل كل شيء : (اكفروا بأصنامكم المخادعة وقولوا بورك الرب الذي يعطي الخبز لكل ذي لحم لكنهم رفضوا إنكار آلهتهم الكاذبة، ولجاؤوا إلى فرعون الذي قال لهم اذهبوا إلى يوسف وافعلوا ما أمركم به، وقد كوفئ فرعون على ذلك فأطال الرب في عمره وحكم طويلا إلى أن اغتر بنفسه، وحلت عليه العقوبة المستحقة [87]).

بل إننا نجد يوسف قد اشترط على المصريين أن يختتنوا تماما كما فعل إخوته مع أهل شكيم والحقيقة أن المصريين لم يكونوا في موقف يجعلهم يستطيعون رفض تلك

(86) السابق ص46
(87) أساطير اليهود ص75

الوصية فبعد ممانعة قصيرة فعلوا ما طلبه منهم يوسف، ولعل المصريين يواظبون على تلك الشعيرة الطقسية منذ تلك اللحظة.!

(5)
طلب الاستغفار من يعقوب وشفاعته

﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلۡبَشِيرُ أَلۡقَىٰهُ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ فَٱرۡتَدَّ بَصِيرٗاۖ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٩٦ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ٩٧ قَالَ سَوۡفَ أَسۡتَغۡفِرُ لَكُمۡ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٩٨﴾ يُوسُف.

اشتملت الرواية التلمودية - أيضا - على ملمح من ملامح الرواية القرآنية، ولعله كان الأصل الذي بنيت عليه رواية القرآن، وهو طلب إخوة يوسف من أبيهم أن يستغفر لهم وأن يذكرهم عند الله، ولكنها جاءت في القرآن على نحو مختلف قليلاً، فهي زمنياً تأتي متأخرة كما هو واضح من الآيات عن نظيرتها التلمودية، وتختلف قليلا - أيضا - في صيغتها فهي في القرآن مجرد استغفار لما بدر منهم من ذنوب، وما أسلفوا من مظالم فهي محض اعتذارية مؤثرة حقا .

أما في القصة التلمودية فقد جاءت عندما كان يعقوب يجهز بنيه للرحلة الثالثة إلى مصر مرسلاً إياهم بطُرف بلاده التي يعز وجودها في مصر، ثم سألهم هل تريدون شيئا آخر، وهنا رجوه مستعطفين أن يتوسط لأجلهم عند الرب ولا يخفى أنها أكثر جمالا من نظيرتها القرآنية.

(نعم نريد منك - أيضا - أن تتوسط لأجلنا عند الرب، فدعا أبوهم الرب قائلا: يا إلهي! يا من قلت عند بدء الخليقة كفي للأرض والسماء حينما أخذتا تمتدان وتتسعان إلى ما لا نهاية أنه معاناتي أنا - أيضا -، وقل لها كفي فليرحمكم الرب، وليرعاكم القدير وأنتم عند حاكم مصر فليعطكم يوسف وشمعون وبنيامين[88]).

---

(88) السابق - ص 86-87

الاستغفار وقضية الشفاعة .

وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ التَّوْبَة.

وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ النِّسَاء.

لا يبعد أن تكون تلك القصة - أو قصة أخرى مماثلة لها - هي أصل ما جاء في القرآن الكريم من اختصاص الأنبياء بتلك المزية الفريدة التي تجعلهم كوسطاء بين الله والناس؛ اذ من خلالهم يرحم الله عباده وينعم عليهم بالغفران، وهو ما تكرر في القرآن الكريم مرارا مثل ما جاء في التوبة: ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾ التَّوْبَة ، وآل عمران: فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ آل عِمْرَان ◉ وسورة النور: إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُواْ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾ النُّور ، وسورة محمد: فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾ مُحَمَّد، وسورة الممتحنة: يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا

يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ المُمْتَحنَة ، ولربما كانت تلك النقطة الصغيرة هي أساس ما نمت وصارت إليه فيما بعد قضية الشفاعة الأخروية في الإسلام.

فالشفاعة والتوسط بين الله والناس، والتي كان المشركون يحتجون بها لعبادة الأصنام لاعتقادهم بأنهم كانوا يقربونهم إلى الله زلفى، فقد سلبها القرآن من الطواغيت والأصنام كشفعاء متوهمين في العقائد الشركية، ومن الطبيعي أن تعطى بدلا منهم للمقربين من الله حقا كالأنبياء والملائكة، ولكن وفق إرادة الله ، وإذنه، وداخل شروط الغفران الإلهي والذي يسع كل الذنوب عدا خطيئة الإشراك بالله ، ثم مع نجاح دعوة النبي وتعاظم شعوره بالتفضيل الإلهي له، حيث قيض لدعوته ما لم يقيض لسواها من التوفيق والنجاح فقد أصبح في اعتقاد نفسه هو الشفيع الأعظم للخلائق يوم القيامة.

(6)
لا تدخلوا من باب واحد

وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُواْ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍۖ وَمَآ أُغْنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَاۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ يُوسُف.

(ولأنه كان يعلم أنهم قد يجذبون أنظار الناس إليهم بسبب مشيتهم البطولية وطلعتهم البهية فقد حذرهم من أن يذهبوا إلى المدينة ويدخلوها جميعا من نفس البوابة أو حتى يظهروا جميعا في أي مكان أمام الناس معا لكيلا تصيبهم عين الحسد بشر[89])، (وعندما ذهب أبناء يعقوب إلى مصر لشراء القمح زودهم والدهم بالوصية التالية: أنتم أقوياء وعلى درجة من الجمال، لا تدخلوا عبر أبواب المدن، ولا تتوقفوا في الساحات كي لا يكون للعين الشريرة تأثير عليكم [90]).

---

[89] الأساطير اليهودية ج2 ص 76

[90] التلمود عرض شامل - آ- كوهن - ترجمة جاك مارتي - ترجمة د سليم طنوس - دار الخيال - الطبعة الأولي - 2005م

من بين التفاصيل الصغيرة الدالة على اعتماد إحدى الروايتين على الأخرى هذه التفصيلة الصغيرة المشتركة عن حض يعقوب لبنيه بألا يدخلوا من باب واحد خشية عين الحاسدين.

وإذا كان من المعقول لمن يشاء أن يكتفي بهذا السبب المشترك في ثقافتهما وهو خشية يعقوب على أبنائه من العين الحاسدة، لكن من ينظر في أعداد أبناء يعقوب فلن يجد عددهم بالعظيم ولا بالخطير، فلم يكونوا ستين أو سبعين رجلاً، بل كانوا مجرد عشرة من الرجال ؛ لذا فيغلب على الظن أن تلك التفصيلة، إنما تعتمد على أصداء من الرواية التلمودية التي جعلت من أولاد يعقوب كائنات خرافية، بالغة القوة، لذا فعشرة من أمثالهم يدعون إلى استثارة الحسد، بل ويثيرون ذعر أهل البلاد، ومخاوف ملوكها، مثلما جاء على لسان يعقوب في موضع آخر: (ولقد أمرت أبنائي بألا يدخلوا من البوابة كلهم معا في وقت واحد عندما يصلون إلى مدينة مصر مراعاة لأهل البلاد لكي لا يثيروا انتباههم دون لزوم[91]).

ومَن شاء أن يعلم أي قوة خرافية كان يتمتع بها أبناء يعقوب فليرجع إلى المجلد الثاني من تلك الأساطير التلمودية، فسيراها تنسب إلى جميعهم قوة أسطورية تفوق أبطال الملاحم الشعبية ، وللتدليل على ذلك سنكتفي بإيراد مثل واحد عن هؤلاء الجبابرة الخارقين من أبناء يعقوب، وليكن يهوذا إذ جاء قوله القادم من بين اعترافاته لبنيه، وهو مستلق على فراش موته - حيث لا مظنة للنفج أو الكذب - قال يهوذا الصدوق : (وكنت أعدو بسرعة كالوعلة بل وأسبقها، وأعد منها طبقا يتعشى به أبي، وكنت أستطيع ملاحقة غزال يجري والإمساك به، وكذلك كل الحيوانات البرية، وكنت استطيع اللحاق بمهرة برية والإمساك بها، ووضع اللجام حول عنقها، ولقد قتلت ذات مرة أسدا وخلصت طفلا من بين براثنه، وقد أمسكت مرة دبا من مخلبه وطوحته فألقيت به من على الجبل فسقط صريعا محطم العظام، وكنت أستطيع ملاحقة الخنزير البري واللحاق به والإمساك به وتمزيقه إربا، ولقد هجم فهد ذات مرة على كلبي في حبرون فأمسكته من قرنيه وأخذت أطوحه حتى داخ، فألقيته أرضا وقتلته [92]).

---

(91) الأساطير اليهودية ج2 ص 87

(92) السابق ج2- ص 178

وأما عن تصديقنا لجميع ما أخبرنا به يهوذا فليس لنا من حق لأن نشك فيه، وأما ما يحق لنا أن نشك فيه فليس إلا شيئا واحدا، وهو أن الله تعالى قد خلق في يوم من الأيام فهدا له قرون، فلم يحدث أبدا أن جمع الله لحيوان لاحم بين الأنياب القاطعة في فمه، وبين القرون في رأسه، فأحد أهم قوانين خليقة الله هي الاقتصاد، وأحدهما يغني عن الآخر.

أما عن البراهين الدالة على حضور تلك الحكايات التلمودية، وشيوعها بين المسلمين المتأخرين فإليك مثلا ما أورده هذا المفسر عن استخدام يوسف القدح للتعرف على الغيوب والمخبئات، وكذا ما جاء فيها عن القوة الأسطورية لأبناء يعقوب، فهو وإن دمج في قصته قصتين متداخلتين[93] لكنهما جاءا على نحو مطابق لما جاء في الحكايات التلمودية .

(وذكر بعض المفسرين، أنه لما استخرج الصواع من رحل أخيه، نقر الصواع، ثم أدناه من أذنه، فقال: إنَّ صواعي هذا يخبرني أنكم كنتم اثني عشر رجلاً، وأنكم انطلقتم بأخ لكم فبعتموه، فقال ابن يامين: أيها الملك، سل صواعك عن أخي، أحيّ هو؟ فنقره، ثم قال: هو حي، وسوف تراه، فقال: سل صواعك، من جعله في رحلي؟ فنقره، وقال: إنَّ صواعي هذا غضبان، وهو يقول: كيف تسألني عن صاحبي وقد رأيت مع من كنت؟ فغضب روبيل، وكان بنو يعقوب إذا غضبوا لم يطاقوا، فإذا مسَّ أحدهم الآخر ذهب غضبه، فقال: والله أيها الملك لتتركنَّا، أو لأصيحنَّ صيحةً لا يبقى بمصر امرأة حامل إلا أَلقتْ ما في بطنها، فقال يوسف لابنه: قم إلى جنب روبيل فامسسه، ففعل الغلام، فذهب غضبه، فقال روبيل: ما هذا؟! إن في هذا البلد من ذرية يعقوب؟ قال يوسف: ومَن يعقوب؟ فقال: أيها الملك، لا تذكر يعقوب، فإنه إسرائيل الله ابن ذبيح الله ابن خليل الله[94].) ، (وفيما خاف عليهم أن يدخلوا من باب واحد قولين: أحدهما: أنه خاف عليهم العين لأنهم كانوا ذوي صور وجمال، قاله ابن عباس ومجاهد. الثاني: أنه خاف عليهم

---

[93] جاءت الأولى في : أساطير اليهود – ج2 ص92، وأما القصة الأخرى فقد كان بطلها يهوذا الغضوب، وليس روبيل العطوف أنظرها ص 96 في ذات الكتاب

[94] انظر : زاد المسير في علم التفسير لأبى الفرج ابن الجوزي ج2 ص 461 دار الكتاب العربي - بيروت الطبعة: الأولى - 1422 هـ

الملك أن يرى عددهم وقوتهم فيبطش بهم حسداً أو حذراً، قاله بعض المتأخرين[95].) ، (وإنما أمرهم بذلك لأنه خاف عليهم العين لأنهم كانوا قد أعطوا جمالا وقوة وامتداد قامه، وكانوا أولاد رجل واحد فأمرهم أن يتفرقوا في دخولهم المدينة لئلا يصابوا بالعين فإن العين حق، وهذا قول ابن عباس ومجاهد وقتادة وجمهور المفسرين[96]).

(7)

فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ يُوسُف.

(وبدأ يفتش في الرحال كلها، ولكي لا يستثير شكوكهم بأنه يعلم مقدما مع من تكون الكأس بدأ بتفتيش رحل راؤبين أكبرهم، وانتهى عند بنيامين الذي وجدت الكأس في رحله [97]).

من التفاصيل المشتركة بين الروايتين - كذلك - ما جاء في كليهما للبرهنة على حرص وحذق يوسف في جعل السرقة تبدو مقنعة لإخوته، وألا يثير ريبتهم لما يبتغيه من تدبير وكيد، ومن ذلك ما أوصى به يوسف وكيله المصري الذي أرسله خلف إخوته ليفتش رحالهم جميعا، وأوصاه بأن يبدأ بهم ليستخرج من رحل أخيهم الأصغر أخيرا ما دسه عليه، وهي من التفاصيل الدقيقة التي يصعب أن تأتي مصادفة في قصتين لا ينظر أحدهما إلى قصة الآخر .

(95) تفسير الماوردي - النكت والعيون- أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي- تحقيق السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم دار الكتب العلمية - بيروت ج3 ص59

(96) . تفسير الخازن – ج2 ص 540

(97) ص 93

(8)
وصية يعقوب لبنيه

أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ البَقَرَةِ.

(كما وصاهم بألا يقعوا في خطيئة عبادة الأصنام أيا كان شكلها أو هيئتها وألا ينطقوا بالكفر[98]).

إذا كانت وصية يعقوب التوراتي - كما رأينا - كانت وصية نبوءية زائفة ذات طابع دنيوي خالص، ولا تعكس اهتمام الرجل المحتضر بقضية التوحيد، بل بترتيب شؤون بيته بعد رحيله كما لو كانت وصية لرجل أعمال ناجح، لا نبيا ليس أهم لديه من دينه وعقيدته، لذا فالفارق يبدو بعيدا بينها، وبين هذه الآية السابقة من سورة البقرة، والتي تعرض وصية يعقوب لبنيه وهو على فراش الموت ففيها نجد الرجل يوصي أبناءه جميعا بالتمسك بعبادة الله وحده، وتنص الآية على حسن استجابة بنيه لوصيته الوحيدة لهم، ونراهم يعلنونه بأنهم سيعبدون من بعده ربه ورب آبائه، وأنهم على الإسلام يعيشون عليه ويموتون عليه .

لكن الوصية التلمودية قد فعلت مثل ذلك، وعلى نحو يجعلنا لا نتردد في اعتبارها أساس وصية يعقوب القرآني، والتي تعكس مثلها ظلالا واضحة من تخوف يعقوب على التوحيد وخشيته بأن يشرك بنيه من بعده، وهي خشية لن تغادر قلب النبي محمد أبدا بسبب من اعتقاده في سهولة الانحطاط إلى الشرك لسهولة إغواء الشيطان لبني البشر وإلقائهم بكيده في وهدة الشرك وظلمته ولنتذكر ما قلناه في غير هذا الموضع من أن وصية يعقوب ليست أكثر من ترجمة لما حدث بعده من بنيه وأحفادهم، وما كان من انتكاسهم المتكرر إلى عبادة الأوثان والأصنام. فلنقرأ وصية يعقوب التلمودي: (لقد كان إسماعيل وأبناء قطورة هم الندبة في ذرية جدي إبراهيم وأنتج أبى ندبة هو عيسو، وأخشى الآن أنه من بينكم من يضمر في نفسه النية لعبادة الأصنام) فأجابه الرجال الاثنا عشر قائلين: فلتسمع يا إسرائيل، يا أبانا إن الرب الأبدي الهنا هو الإله الواحد الذي لا

[98] الأساطير اليهودية ج2 ص134

إله غيره، وكما أن قلبك منعقد على وحدانية القدوس تبارك اسمه فإن قلوبنا منعقدة هي الأخرى على وحدانيته . فأجابهم يعقوب قائلا: فليحمد اسم مجد جلاله إلى الأبد [99]).

إذا تجاوزنا على ما اشتملت عليه وصية يعقوب التلمودي من ازدراء وتحقير واضح لبقية نسل إبراهيم سواء من أبناء سريته هاجر أو من زوجته قطورة، فهي على كل حال ذات الوصية القرآنية في جوهرها، ولسنا بحاجة إلى الإشارة إلى الفارق البعيد بين يعقوب التلمودي هذا المتخوف على بنيه بعد رحيله الوشيك من عبادة الأصنام، وبين يعقوب التوراتي الذي كانت الأصنام تعيش في منزله، وتتدلى أمامه من أقراط آذان نسائه، ولم يتخل عنها إلا بعد أن أمره الرب الغاضب والغيور بأن يتخلص منها فياله من تقدم كبير!، ولكن الحكايات التلمودية عن وصية يعقوب تتضمن - أيضا - قصة أخرى لا ينبغي إهمالها وتجاهلها، أولاً لطرافتها وظرفها، وثانياً لأنها تعبر لنا عن أي فضاء خرافي كان النبي يسبح فيها ليخرج منه مفهوماً سامياً عن الله، وتصوراً بالغ الرقي عن أنبيائه ورسله فلنقرأ معا هذه الطرفة المسلية: (إلى الوقت الذي مات فيه يعقوب كان الموت يباغت الناس ويخطفهم قبل أن يحذرهم المرض من اقتراب أجلهم، وذات يوم كلم يعقوب الرب قائلا : يا رب العالم إن الرجل ليموت فجأة قبل أن يقعده المرض أولا، ولذا فإنه لا يستطيع أن يخبر أبناءه بوصيته الأخيرة بخصوص ما سيتركه بعد وفاته، ولكن إذا مرض الرجل أولا قبل موته وأحس بدنو أجله فسيكون أمامه الوقت الكافي ليرتب شؤون بيته قبل موته، فقال الرب: إن طلبك معقول فعلا، وستكون أنت أول من يستفيد من هذا الإجراء الجديد، وهكذا فقد مرض يعقوب برهة قبل موته[100]).

لذا - عزيزي القارئ - إذا قرأت بأن أحداً من الناس قد سقط مريضاً على فراش موته قبل زمن يعقوب بن إبراهيم فحذار أن تصدقه.!

---

(99) الأساطير ج2 ص 128-129

(100) الأساطير ج2 ص120

(9)
هل نسى يعقوب ابنه الحبيب ؟

يَبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ يُوسُف.

كما رأينا عند عرضنا للرواية التوراتية فلم يجر ذكر ليوسف على لسان يعقوب لسبب معقول ومفهوم؛ وهو أن الرجل قد صدق مذ بلغه الخبر الأليم بأن يوسف قد قضى، وأن وحشا رديئا قد افترسه افتراسا، لذا فلا غرابة أن يحاول أن يتعزى عنه، وألا يعود لذكره إلا كما يذكر الأحياء الموتى.

لكن الروايتين التلمودية والقرآنية يشتركان معا في جعل يعقوب يعلم بأن يوسف لم يمت وأن أباه كان يتوقع أن يراه ثانية بطريقة ما، ففي الرحلة الثانية نجد القرآن يورد هذه الآية السابقة، والتي يوصى فيها يعقوب بنيه أن يفتشوا عن يوسف في مصر وكأن قلبه كان يحدس بوجوده فيها دون بقية بلاد الله الواسعة، أما عن بقاء يوسف حيا فقد كان يعقوب القرآني يعلم يقينا بأن الله ما كان ليخلف وعده له، ويخيب رجاءه فيه، مذ أوحى إلى يوسف بحلمه الجليل، والذي فسره يعقوب في ثقة تامة بأن ابنه الأثير سيرث مجد نبوة آل إبراهيم دون بقية إخوته، ولا شك أن نبيا موعودا بالمجد الروحي والدنيوي ما كان ليموت طفلا بين أنياب وحش ضار!

وهذا الذي جاءت به الرواية القرآنية له شبه قريب في الرواية التلمودية ؛ إذ نجد - أيضا وفي ذات الموضع- أي قبل انطلاق الرحلة الثانية إلى مصر - يرسل يعقوب مع بنيه شيئا من طرف بلاده إلى حاكم مصر، ولكنه أرسل معهم - أيضا - ما هو أطرف من ذلك؛ إذ أرسل معهم خطاباً لنائب الملك والذي- هو يوسف نفسه- وكان هذا الخطاب خليطاً من الوعيد والتلطف ويتضمن تذكرة - ذات مغزى- بما فعله الرب بفرعون مصر الذي طمح أن يضم سارة الفاتنة إلى حريمه ففعل الله به ما فعل، وما يعنينا في هذا الخطاب الطويل أنه كان يتضمن هذه العبارة الأخيرة: (من عبدك يعقوب بن إسحق وحفيد إبراهيم أمير الرب إلى الملك الحكيم القوى(صافينات بعينه) حاكم مصر: السلام عليك ليعلم مولاي الملك أن المجاعة قد اشتدت علينا في أرض كنعان، ولذا فقد أرسلت أبنائي إليك ليشتروا لنا شيئا ليأكلوه، لكن للأسف فأنا هرم ولا أستطيع أن أرى بعيني

لأنهما قد كلتا من كر السنين، وكذلك من دموعي التي لا تنقطع حزنا على ابني يوسف الذي أخذ مني ولقد أمرت أبنائي بألا يدخلوا من البوابة كلهم معا في وقت واحد عندما يصلون إلى مدينة مصر مراعاة لأهل البلاد لكي لا يثيروا انتباههم دون لزوم، وكذلك أمرتهم بأن يجوبوا مصر شمالا وجنوبا، ويبحثوا عن ابني يوسف فلعلهم يجدونه هناك[101]).

نعم !، يظل من الصحيح أن يقال بأن يعقوب القرآني قد علم الخبر من مصدره الصحيح؛ أي من الوحي الإلهي المباشر، وأن يعقوب التلمودي قد عرفه عبر التنجيم وهي معرفة جعلته غير واثق من كونه حياً أو ميتاً - كما سنبين ذلك عند تعرضنا لصورة يعقوب في الروايتين -، ومن الصحيح - أيضا - القول بأن الرواية التلمودية تتردد وتتخبط في تلك المسألة تخبطاً عظيماً، فمرة تجعل من يعقوب متأكداً، ومرة تجعله ظاناً غير متثبت، بل إنها تجعل أباه إسحاق وقد ظل حيا إلى تلك الفترة ، وتقطع في موضع آخر بأن يعقوب كان هو الوحيد من بين أسرته جميعا الذي لم يكن يعلم يقيناً بما جرى ليوسف، ولكن رغم ذلك فهي نقطة مشتركة على قدر من الأهمية بحيث يشار إليها: (وكما أخفي الرب الحقيقة عن يعقوب فلم يشعر إسحاق بمبرر يجعله يفضي إلى يعقوب بما آل إليه حفيده فقد كان إسحاق يعرف ما حدث جيدا فهو كان نبيا وكان ينوح ويبكي كلما كان يعقوب معه وإذا خلا بنفسه يكف عن التظاهر بالحزن إذ كان يعرف أن يوسف لا يزال حيا [102]).

ولكن ما لا ينبغي أن يُشك فيه هو أن تلك السلالة المباركة جميعها لم تكن تعرف القراءة ولا الكتابة، فليس من إشارة واحدة عبر سفر التكوين تشير إلى معرفة أي من الآباء البطاركة بالقراءة أو بالكتابة .

(101) السابق ص 87

(102) السابق- ص 31

ثانيا: القصص المحتملة.

إذا كانت تلك القصص التي سقناها في الصفحات السابقة جلية بما يكفي ليطمئن المرء إلى اعتبارها أساساً لبعض جوانب القصة القرآنية، فإن هناك جوانب أخرى من المرويات التلمودية جاءت على نحو أقل وضوحا، لكننا مع ذلك - نرجح - أنها كانت خلف القصة القرآنية، وسنعرض هنا بعضا منها.

(1)

لولا أن رأى برهان ربه

وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ يُوسُف.

قلنا بأن المفسرين قد اختلفوا عند شرحهم لتلك الآية على دلالة ومعنى (الهمّ) الذي وقع من يوسف، وترددوا بين إن كان ذاك (الهم) همًّا نفسيا لا أكثر، أو كان شروعا واقترابا خطرا من تخوم الفاحشة، أو حتى كان همًّا بضربها على اجتراءها أن تطلب من مثله تلك الفاحشة المنكرة ، وقلنا بأن اختلافهم كان عظيما ؛ إذ جاء على قدر عظيم المسافة بين التنزيه الكامل للأنبياء، وبين مراعاة الطبيعة البشرية وشهواتها، أو في كلمتين على قدر الاختلاف بين الملائكة وبين البشر، ولكنهم اتفقوا - بالطبع - على أن يوسف مهما كان من طبيعة ذلك (الهمّ) منه فقد توقف عندما رأى ما أسماه القرآن (برهان ربه)، وهو - كما ترى - تعبير مبهم وغامض، ولذا فقد أثار ما أثار من شروح وتأويلات .

والحقيقة أنه يمكن لمن شاء أن يستغنى بالدلالة اللغوية العامة لتعبير (برهان ربه) ويستغنى معها عن أي حادثة قد تأتي المرء من خارجه، ويستغنى عن تلك القصص المفترضة فهذا التعبير القرآني ربما كان أساس التعبير النبوي البديع الذي يختم به هذا الحديث النبوي المهيب.

(ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا صِرَاطًا مُسْتَقِيمً، وَعَلَى جَنْبَتَي الصِرَاطِ سُورَانِ، فِيهِمَا أَبْوَابٌ مُفَتَّحَةٌ، وَعَلَى الأبواب سُتُورٌ مُرْخَاةٌ، وَعَلَى بَابِ الصِّرَاطِ دَاعٍ، يَقُولُ: أَيُّهَا النَّاسُ ادْخُلُوا

الصِّرَاطَ جَمِيعًا وَلا تَتَفَرَّجُو، وَدَاعٍ يَدْعُو مِنْ جَوْفِ الصِّرَاطِ، فَإِذَا أَرَادَ يَفْتَحُ شَيْئًا مِنْ تِلْكَ الأَبْوَابِ قَالَ: وَيْحَكَ لا تَفْتَحْهُ فَإِنَّكَ إِنْ تَفْتَحْهُ تَلِجْهُ، وَالصِّرَاطُ الإسلام، وَالسُّورَانِ حُدُودُ اللَّهِ تَعَالَى، وَالأَبْوَابُ الْمُفَتَّحَةُ مَحَارِمُ اللَّهِ تَعَالَى، وَذَلِكَ الدَّاعِي عَلَى رَأْسِ الصِّرَاطِ كِتَابُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَالدَّاعِي فَوْقَ الصِّرَاطِ وَاعِظُ اللَّهِ فِي قَلْبِ كُلِّ مُسْلِم(103)).

ولا علينا ممَن يرى من الشُراح في هذا الصوت الباطني العميق صوت ملكاً من الملائكة، أو من يراه مثلما نراه تجسيماً لذلك الحاجز الذي يحجز الناس عن مواقعة ما يعلمون بأنه محرم عليهم، وقد أحسن هذا المفسر تلخيص أقوال المفسرين في معنى (برهان ربه) حيث قال: (والبرهان الذي رآه: هو برهان الله المأخوذ على المكلفين من وجوب اجتناب المحارم، أو هو حجة الله تعالى في تحريم الزنى، والعلم بما على الزاني من العقاب. وقيل: هو تطهير نفوس الأنبياء عليهم السلام عن الأخلاق الذميمة، وقيل: هو النبوة المانعة من ارتكاب الفواحش، وجائز أن يراد كل هذه المعاني لأنها متقاربة غير متعارضة، تحقق هدفا واحدا وهو طاعة الله عز وجل. والخلاصة: لم يرتكب يوسف عليه السّلام المعصية قط، ولولا حفظ الله ورعايته وعصمته لهمّ بها.(104))

لكن المرويات التلمودية أوردت قصة مُسلية عن ذلك الموقف فهل من الضروري أن نجعلها أساسا غائرا خلف التعبير القرآني المبهم ذاك؟، لنقرأ القصة التلمودية أولاً: (ثم وقفت زليخة أمامه فجأة بكل جمالها وبهاء ثيابها وزينتها المفرطة،وأعادت عليه طلب ما يتوق قلبها إليه وكانت تلك أول وآخر مرة يفارق يوسف فيها ثباته، ولكن للحظة - مجرد لحظة-، وعندما أوشك أن يستجيب لرغباتها رأى صورة أمه راحيل أمامه وصورة خالته ليئة وأبيه يعقوب الذي قال له: (في قادم الزمان ستنقش أسماء إخوتك على صدرية الكاهن الأعظم. ألا تريد أن يظهر اسمك منقوشا مع أسمائهم؟ أم تراك ستفرط في هذا الشرف بارتكابك لتصرف آثم؟ إذن فلتعلم أن من يرافق العاهرات يضيع نفسه)، وقد أعادت هذه الرؤية وخصوصا صورة أبيه يوسف إلى عقله وفارقته شهوته في الحال.(105))

---

(103)صحيح الترغيب والترهيب،، برقم.(2348)

(104) التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج- د وهبة بن مصطفي الزحيلي- دار الفكر المعاصر - دمشق الطبعة : الثانية، 1418 هـ ج12ص 243

(105) الأساطير اليهودية ج2 ص 52-53

الحقيقة أنه لا يبعد أبدا بأن تكون تلك القصة أو قصة قريبة منها حاضرة في العقل النبوي عند استلهامه لقصة يوسف، ولا برهان لدينا على تقرير تلك المسألة أو نفيها، اللهم إلا قرينة ليست قوية بما يكفي للجزم والتثبت، ولكنها ليست من الضعف والوهن بحيث تلقى وتهمل؛ وهي تشابه ما أورده المفسرون من أقوال في معنى هذا البرهان الذي رآه يوسف، وهي أقوال ترجع أصداء تلك القصة التلمودية، مما يوحي بأنهم قد عرفوها من أهل الكتاب، وبأنها كانت معلومة لدى آبائهم وقت نزول القرآن، ومنهم قد عرفها النبي بدوره.

وإليك بعضاً مما أورده المفسرون عند تفسيرهم لتلك الآية المحيرة، فقد أورد الإمام الطبري - كعادته - عدداً وافراً من المرويات، وأسندها إلى كبار المفسرين، وتكرر جميعها عدداً قليلاً من الصيغ، وقد اجتزأنا من بين جميع ما أورده هذه الأقوال فهي تغني عن سواها: (عن مجاهد قال: جلس منها مجلس الرجل من امرأته، حتى رأى صورةَ يعقوب في الجدُر ..(قال: نودي: يا ابن يعقوب، لا تكونن كالطير له ريش، فإذا زنى قَعَد ليس له ريش. فلم يُعْرِض للنداء وقعد، فرفع رأسه، فرأى وجهَ يعقوب عاضًّا على إصبعه، فقام مرعوبًا استحياء من الله، فذلك قول الله: (لولا أن رأى برهان ربه).. عن سعيد بن جبير، قال: مثل له يعقوب، فدفع في صدره، فخرجت شهوته من أنامله.)، (قال: كان يولد لكل رجل منهم اثنا عشر ابنًا، إلا يوسف، ولد له أحد عشر، من أجل ما خرج من شهوته... سمعت عبيد الله بن أبي جعفر يقول: بلغ من شهوة يوسف أن خرجت من بَنَانه. سألت محمد بن سيرين، عن قوله: (لولا أن رأى برهان ربه) قال: مَثَل له يعقوب عاضًّا على أصابعه يقول: يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الله، اسمك في الأنبياء، وتعمل عمل السفهاء؟ .. قال قتادة: رأى صورة يعقوب، فقال: يا يوسف، تعمل عمل الفجَّار، وأنت مكتوب في الأنبياء؟ فاستحيى منه[106].

بل إننا نجد من بين المرويات التفسيرية الإسلامية قصة تلمودية أخرى عن ستر امرأة العزيز وجه صنمها حتى لا يراها حيث نهاها، وما أحدثه ذلك في يوسف بعد أن رأى المرأة الوثنية الضالة تستحي من صنمها، فكيف لا يستحي هو - سليل بيت النبوة من ربه - الذي لا يغيب عن عينيه شيء في الأرض ولا في السماء ؟!، ومن ثم فقد قام يوسف عنها خجلا : (أَخْرَجَ أَبُو نُعَيْمٍ فِي «الْحِلْيَةِ» عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ - رَضِيَ اللَّهُ

(106) تفسير الطبري ج16 ص 44

عَنْهُ - فِي قَوْلِهِ: وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا، قَالَ: طَمِعَتْ فِيهِ وَطَمِعَ فِيهَا، وَكَانَ مِنَ الطَّمَعِ أَنْ هَمَّ بِحَلِّ التِّكَّةِ، فَقَامَتْ إِلَى صَنَمٍ مُكَلَّلٍ بِالدُّرِّ وَالْيَوَاقِيتِ فِي نَاحِيَةِ الْبَيْتِ فَسَتَرَتْهُ بِثَوْبٍ أَبْيَضَ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ، فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ تَصْنَعِينَ؟ فَقَالَتْ: اسْتَحِي مِنْ إِلَهِي أَنْ يَرَانِي عَلَى هَذِهِ الصُّورَةِ، فَقَالَ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: تَسْتَحِينَ مِنْ صَنَمٍ لَا يَأْكُلُ وَلَا يَشْرَبُ، وَلَا أَسْتَحِي أَنَا مِنْ إِلَهِي الَّذِي هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ، ثُمَّ قَالَ: لَا تَنَالِينَهَا مِنِّي أَبَدًا. وَهُوَ الْبُرْهَانُ الَّذِي رَأَى(107)).

ومن أغرب التفسيرات ما خرج به هذا المفسر من محاولته الجمع بين الاعتراف ببشرية يوسف وأنه قد همَّ بالمرأة هما طبيعيا، ولكن الله قد ساق له حدثا طبيعيا كذلك، وكان سببا في انصرافه عن المرأة ورجوعه عنها حيث يقول: (وعلى هذا، فإن الذي نطمئن إليه، هو أن هذا البرهان كان شيئا حسيا، أو بمعنى آخر، كان حدثا وقع في تلك اللحظة الحاسمة، فحال دون وقوع هذا الأمر، وكان صارفا عنه.. والذي لولاه لوقع! وهذا البرهان هو- والله أعلم- إشارة كانت تعلن عن قدوم العزيز إلى أهله.. إذ من المعقول جدا أن يكون للعزيز شارة من الشارات، ينبّه بها زوجه إلى أنه قادم إليها.. وذلك كرسول يتقدمه، أو نفير يعلن عنه.. أو نحو هذا.. شأن أصحاب السلطان، حين يغدون، أو يروحون، بين مجلس الحكم، ومجلسه الخاص في أهله وولده.---- وهذا الحدث الذي كان سببا مباشرا في الحيلولة دون وقوع المعصية، هو بالنسبة ليوسف عليه السلام برهان من ربّه، وآية من آيات فضله عليه، وحراسته له !(108)).

وهذا التفسير وإن سُبق إليه هذا المفسر - مراراً - فهو إلى ذلك غير مقبول ؛ إذ لا يوصف ما أورده بالبرهان، وأما أجدر الآراء بالقبول فهو ما اختاره الطبري حيث يقول: (وَالصَّوَابُ أَنْ يُقَالَ: إِنَّهُ رَأَى آية من آيات الله تزجره عَمَّا كَانَ هَمَّ بِهِ، وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ صُورَةَ يَعْقُوبَ، وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ صُورَةَ الْمَلِكِ، وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ مَا رَآهُ مَكْتُوبًا مِنَ الزَّجْرِ عَنْ ذَلِكَ، وَلَا حُجَّةَ قَاطِعَةٌ عَلَى تَعْيِينِ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، فَالصَّوَابُ أَنْ يُطْلَقَ كما قال الله (109))

(107) (راجع - أيضا - أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ج2ص 212)، (*ج18 ص 444*) تفسير الرازى عن قصة الصنم)

(108) التفسير القرآني للقرآن - عبد الكريم يونس الخطيب: دار الفكر العربي - القاهرة- ج6 ص 1255

(109) نقلا عن تفسير ابن كثير ج4 ص327

(2)
(وكانوا فيه من الزاهدين)

وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ يُوسُف.

مَنْ يقرأ الجزء السابق على تلك الآيات من القصة القرآنية فسيرى شديد نكير القرآن على إخوة يوسف لما فعلوه به، وحرصه على بيان قسوتهم وعظيم شرهم ، فقد جعل إخوة يوسف جميعا يخططون لإيذائه والتخلص منه بقتله، وأما أرحمهم به قلباً، فقد أوصاهم بطرحه في البئر لتكون أمامه فرصة للنجاة إذا ما حدث والتقطه منها عابروا السبيل ليسترقوه، ويتخذونه عبدا فيعيش على كل حال. وعلى هذا فزمن تلك المؤامرة في القرآن يأتي قبل زمن حدوث قصة تشاور إخوة يوسف بشأنه في التوراة، وعلى صورة مغايرة لما جاءت به ؛ حيث تقول الرواية التوراتية بأن إخوة يوسف ما هموا بقتله ولا بطرحه في البئر ليموت فيها إلا بعد أن رأوه قادما إليهم حيث كانوا يرعون قطيعهم في (دوثان) ولم يفكروا في بيعه بعد ذلك إلا بعد ما القوه في البئر وجلسوا - بتبلد شعوري كامل - يأكلون ويشربون، وعندما نظروا ووجدوا قافلة الإسماعيليين قادمة إليهم، وهنا فقط خطرت لهم فكرة بيعه عبدا لهؤلاء العابرين، وعلى هذا فلم يخططوا لقتله قبل ذلك، ولم يتواطؤوا جميعا على خديعة أبيهم قبل تنفيذهم ما فعلوا، ولا تعنينا تلك المخالفة القرآنية للتوراة في شيء، ولكن ما يعنينا هنا هو أن القرآن لم يعد ثانية لذكر إخوة يوسف بعدما فعلوا بأخيهم ما فعلوا، لذا فمن العجيب أن يعود المفسرون المسلمون بعد ذلك ليقولوا بمثل ما قالت به الرواية التوراتية من أن إخوة يوسف هم من باعوه إلى أهل القافلة، وليس في القرآن ما يدل مطلقا على هذا التفسير، بل تقول الآيات السابقة - على نحو قاطع - بأن من التقطه من البئر قد نزلوا به إلى مصر مباشرة، وباعوه للرجل المصري ؛ أي أننا لا نجد أثراً يشير في الرواية القرآنية

إلى تنقل يوسف بين أكثر من بائع ومشتر، بل هي حكاية قصيرة مختصرة بين بائع يبيع بخسا، وهم أهل القافلة الذين عثروا على يوسف واستخرجوه من الجب، وبين مشتر رابح، وهو الرجل المصري، والذي نراه ما أن يقتني تلك النفس حتى يوصي امرأته به.

فلننظر أولاً في بعض ما قالوه من خلال هذا النقل الذي يلخص لنا مجمل أقوال المفسرين القدامى في تلك المسألة: (وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ أي وباعوه بثمن مبخوس أي ناقص عن القيمة نقصانا ظاهرا. وهل البائع هنا السيارة في مصر كما تدل الآية اللاحقة، أو إخوة يوسف. قولان للمفسرين. رجح ابن كثير أن البائع هنا إخوته، وعلل فقال: لأن قوله وَكانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ إنما أراد إخوته لا أولئك السيارة، لأن السيارة استبشروا به وأسروه بضاعة، ولو كانوا فيه زاهدين لما اشتروه. فترجح من هذا أن الضمير في شروه إنما هو لإخوته. أقول: والذي رجحه ابن كثير هو الذي يتفق مع رواية التوراة الحالية. وقد نقل ابن كثير عن ابن عباس ومجاهد والضحاك هذا الرأي. دَراهِمَ مَعْدُودَةٍ هذا تفسير للثمن البخس الذي باعوه فيه، ومعنى معدودة أي قليلة تعد عدا. ولا توزن لقلتها. ورواية التوراة الحالية كما سنرى، أنهم باعوه بعشرين درهما وَكانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ومن ثم باعوه بثمن طفيف. ويحتمل أن يكون المعنى واشترى الرفقة يوسف من إخوته، وكانوا فيه غير راغبين لأنهم اعتقدوا أنه آبق. وأن وجوده في البئر بسبب فراره من أسياده، وأن أسياده باعوه لهم لأن من طبعه الإباق أي الفرار من أسياده. وقد ذهب قتادة إلى أن الضمائر كلها في الآية تعود على السيارة. والمعنى وباعه السيارة في مصر بثمن بخس، وكانوا فيه من الزاهدين، بسبب أنهم في الأصل لم يدفعوا فيه ثمنا ولم يعرفوا له قيمة. ولو كنا نثق برواية التوراة الحالية ما التفتنا إلى تفسير قتادة، ولكن لعدم ثقتنا برواياتها ذكرناه. لأنه المتبادر إلى الذهن من السياق ولا يترتب على الخلاف عمل، والعبرة قائمة على أي من المحملين حملنا الآية[110].

أما ما نعتقده فهو أن ما ذهب إليه كثير من المفسرين في عود الضمير في (شروه) إلى إخوته فليس بصحيح على الإطلاق؛ لأن السياق القرآني يقول بأن من استرقوه هم الذين زهدوا فيه رغم استبشار واردهم به في البداية ؛ لذا فلا بد لنا من افتراض حدث ما يفسر تحولهم من الفرح به إلى الزهد فيه، وهذا ما ستفعله بوضوح القصص التلمودية

[110] الأساس في التفسير للأستاذ سعيد حوّى - دار السلام - القاهرة الطبعة: السادسة، 1424 هـ- ج5 ص 2635

ومع ذلك فإننا وإذا كنا نقطع بأن الرواية القرآنية لا تعنى بوصف (الزاهدين) إخوة يوسف فإننا لا نعلم يقينا من كان هؤلاء الزاهدون في يوسف الذين عناهم القرآن بتأثير من تلك المرويات التلمودية، فلقد تنقل يوسف من يد إخوته إلى المديانيين، وباعه هؤلاء إلى الإسماعيليين، الذين باعوه بدورهم إلى سيده المصري، والمرويات التلمودية تقدم سببا مختلفا في كل مرة يدعو البائع للزهد في شراء يوسف ؛ فقد دفع المديانيون لإخوته عشرين قطعة من الفضة فحسب أولا لأنهم لم يصدقوا ما ادعاه إخوته من أنه عبدهم بعد أن نظروا لبرهة واحدة إلى وجه يوسف الملائكي النبيل، حتى لقد أغلظ المديانيون لإخوته قائلين لهم : (ماذا ؟ أتقولون إن هذا الغلام هو عبدكم وخادمكم؟ بل لا بد أنكم أنتم عبيده لا هو عبدكم فهو يفوقكم جميعا جمالا في الطلعة وبهاء في الثغر وحسنا في المظهر لم إذن تكذبون علينا [111]).

أما لماذا باع المديانيون أنفسهم يوسف للإسماعيليين بذات الثمن البخس رغم كل ذلك البهاء الذي يغري بالمغالاة في ثمنه؟، فهنا نجد سبباً مختلفاً لكنه وهمي وخرافي هذه المرة حيث نقرأ

(لكنهم سرعان ما ندموا على الشروة التي اشتروها؛ فقد خافوا أن يجده أقاربه معهم فيقتلونهم لاستعبادهم رجلا حرا كما أن الطريقة المريبة التي باعه بها إخوة يوسف لهم قد أكدت شكوكهم تجاههم في أنهم قادرون على سرقة الناس كما أن فعلتهم الشريرة ستبرر كذلك قبولهم للثمن البخس الذي تقاضوه فيه [112])، وعلى هذا فقد كان خير ما وجده المديانيون لأنفسهم هو أن يتخلصوا من يوسف ببيعه إلى الإسماعيليين مقابل ذات الثمن البخس الذي اشتروه به !، أما كيف باع الإسماعيليون يوسف بأربع مائة قطعة من الفضة؟

فالسبب هنا معلوم ومفهوم: (وأبدى فوطيفار استعداده لدفع أربعمئة قطعة من الفضة ثمنا له إذ إن مبلغا كهذا رغم ضخامته لم يبد ثمنا باهضا في عبد كيوسف الذي أعجب به الرجل للغاية [113]) ومما يدعو للإعجاب أننا نجد صاحب الظلال يصيب كبد الحقيقة إذ افترض أمورا - وكانت ويا للعجب - هي ذات ما جاءت به المرويات التلمودية

[111] أساطير اليهود ص 18
[112] السابق ص21
[113] السابق ص 25

كما نقلنا لك بعضا منها، ولكن هل في النص القرآني ما يجعله يستنبط هذا الذي خرج به؟ فهذا ما سنتركه لك أيها القارئ العزيز[114].

أما سواه وقد حاول أن يفسر لماذا يزهد تاجر في امتلاك عبد فاره وسيم ليبيعه بأغلى الأثمان فنراه يقدم هذا التأويل العجيب: (أَيْ كَانَ السَّيَّارَةُ غَيْرَ رَاغِبِينَ فِي إِغْلَاءِ ثَمَنِ يُوسُفَ- عَلَيْهِ السَّلَامُ-. وَلَعَلَّ سَبَبَ ذَلِكَ قِلَّةُ مَعْرِفَتِهِمْ بِالْأَسْعَارِ[115].)

وقبل أن نترك هذه النقطة فلابد وأن نشير إلى ارتيابنا في تاريخية ما أوردته الروايات الثلاث جميعا من استخدام النقود المعدودة في تلك الفترة البعيدة، ولكن ما يعنينا هنا هو أن النبي قد استعمل لبيان بخس قيمة يوسف عند البائعين ما جرت عليه عادة العرب في البيع والشراء في عصره كما يعبر عن ذلك صاحب المنار حيث يقول: (وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ) شَرَى الشَّيْءَ يَشْرِيهِ بَاعَهُ وَاشْتَرَاهُ ابْتَاعَهُ، أَيْ بَاعُوهُ بِثَمَنٍ قَلِيلٍ نَاقِصٍ عَنْ ثَمَنِ مِثْلِهِ عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ لَهُ مِثْلٌ، هُوَ دَرَاهِمُ لَا دَنَانِيرُ، مَعْدُودَةٌ لَا مَوْزُونَةٌ، وَإِنَّمَا يُعَدُّ الْقَلِيلُ، وَيُوزَنُ الْكَثِيرُ، وَكَانَتِ الْعَرَبُ تَزِنُ مَا بَلَغَ الْأُوقِيَّةَ وَهِيَ أَرْبَعُونَ دِرْهَمًا فَمَا فَوْقَهَا وَتُعَدُّ مَا دُونَهَا، وَلِهَذَا يُعَبِّرُونَ عَنِ الْقَلِيلَةِ بِالْمَعْدُودَةِ،[116])، ولمن شاء من القراء الكرام أن يحرر تلك النقطة ويحققها.

---

(114) راجع الظلال ج4 ص 1971

(115) راجع التحرير والتنوير ج12- ص244

(116) انظر: تفسير المنار ج12 ص223

(3)
وشهد شاهد من أهلها

وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُف.

وهذا الذي قلناه في معنى (برهان ربه) يصح أن يقال مثله - تماما - عما جاء في المرويات التلمودية عن شهادة الشاهدين ببراءة يوسف وطهارته ، فإذا كان يوسف التوراتي قد ولى الأدبار غير آبه بما تركه من ثيابه في يد المرأة الغاوية فإن الروايتين التلمودية والقرآنية قد استثمرتا تلك التفصيلة عبر خلق أحداث فنية تقلب الطاولة على المرأة المتبجحة، والتي أرادت أن تجعل من بقايا ثياب يوسف في يدها حجة لها، وبرهانا على خيانته لأمانة سيده فخلقت من الأحداث - معقولها وغير معقولها - ما جعلته حجة عليها، فأما القرآن فقد جعل من قطع ثيابه من الخلف علامة على تشبثها به رغم إرادته وفراره منها، مخالفا في ذلك المرويات التلمودية التي جعلت القطع من الأمام كدليل على إمساكها به كما سنرى.

وأما المرويات التلمودية - والتي كانت أكثر إسهاباً - فقد جمعت ليوسف شهادتين، أولها: شهادة إعجازية خارقة، وهي إنطاق الله لطفل زليخا الرضيع الذي آلمه وآذاه ما وقع على الشاب المسكين المتعفف من أذى، عندما أمر أبوه الغاضب بجلد يوسف بعد أن بلغه الخبر مباشرة، ودون أن يسمع من عبده كلمة واحدة: (وفتح الرب فم طفل زليخا، وكان رضيعا لا يتجاوز الأحد عشر شهرا فكلم الرجال الذين كانوا يضربون يوسف قائلا: فيم تتشاجرون مع هذا الرجل؟ لماذا تؤذونه هكذا؟ ما تكلمت أمي إلا بالكذب ولا ينطق فيها إلا بالخداع، إليكم حقيقة ما حدث، وقص عليهم الطفل كل ما حدث ----

واستمع إليه الناس في ذهول لكن بعدما انتهى الطفل من حكايته عاد صامتا لا ينطق كما كان من قبل[117]).

لكن ورغم هذا البرهان الإعجازي الساطع على براءة يوسف، والذي يتوقع معه ألا يحتاج أي عاقل أو مجنون لشاهد آخر، إلا أننا نجد فوطيفار يرفع الأمر إلى القضاء كمن يريد أن يشهر بنفسه، ولا ندري ما ضرورة التقاضي إن كان المتهم عبدا رقيقا في قبضة سيده؟! : (وكرر على مسامع القضاة ما حكته له زوجته، وأمر القضاة بإحضار ثياب يوسف التي في حوزة زليخا، وفحصوا القطع التي انقطع فيها، وتبين أن القطع كان في الجزء الأمامي من الثوب، ومن ثم استنتجوا أن زليخة كانت تحاول الإمساك به بقوة، لكن يوسف لم يدعها تفعل ذلك، وها هي الآن تدعي عليه بالبهتان، وقرروا أن يوسف لم يفعل ما يستوجب الحكم بالإعدام، لكنهم حكموا عليه بالسجن لأنه تسبب في تلويث سمعة زليخة الطيبة ! كان فوطيفار نفسه مقتنعا ببراءة يوسف، وعندما ألقاه في السجن قال له (أعلم أنك لم ترتكب تلك الجريمة البشعة لكن لا بد لي من حبسك لكي لا تتلوث سمعة أطفالي [118]).

والأكثر من ذلك أنها عضدت تلك الشهادتين بشهادة ثالثة جاءت هذه المرة من أسنات متبناة فوطيفار وزوجة يوسف المقبلة حيث: (اقتربت من أبيها بالتبني وأقسمت له مؤكدة أن التهمة التي أدين بها يوسف مفتراة، وقد كافئها الرب على تلك الشهادة فجعلها زوجة يوسف [119]).

(4)

ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ ﴿٣٥﴾ يُوسُف .

لا ينبغي أن نترك هذه النقطة من قصة يوسف قبل أن نشير إلى تلك الآية السابقة، والتي تصف ما كان يدور في منزل الرجل المصري، فهو وإن استبانت له براءة يوسف مما ادعته عليه امرأته، فقد رأى بأن خير وسيلة لقطع الألسنة التي تلوك قصة عبده مع امرأته هو أن يلقى بخادمه البريء في السجن، وإلا ففي تركه طليقا ما يؤكد ما شاع

(117) الأساطير اليهودية ج2 ص 55

(118) الأساطير اليهودية ص 56

(119) الأساطير ج2 ص 73

وذاع في المدينة من أن امرأته هي من حاولت إغواءه، لذا فلم يجد الرجل حرجا من إلقاء خادمه البريء في السجن حتى تزاح تلك التهمة الشائنة عن امرأته، ولكن ما يعنينا من هذا كله هو كلمة: (الآيات)؛ لأن من ينظر فيما قاله المفسرون لبيان معناها فلن يجده مقنعا، حيث نجدهم يعيدون ذكر ما أورده القرآن عن قطع الثوب من دبر، ويضيفون إليه خمش الوجه - ولا ندري من أين أتوا بها- ، وأيضا ما كان من شهادة الشاهد الذي أرجع الأمر إلى ما طبعت عليه النساء من الكيد والدهاء، ولا يخفي بأن تلك القرائن كلها لا يصح أن تسمى (بالآيات)، وإنما هي دليل على أن النبي - عليه السلام - وإن لم يقل تصريحاً بتلك المرويات التلمودية إلا أنه أعطانا طبيعة أدلة تلك المرويات التلمودية على براءة يوسف، والتي كانت دون ريب أدلة إعجازية خارقة للعادة حتى تستحق بأن تسمى بالآيات، وهذا الذي نقوله تصريحا يبدو أنه قد هجس في نفس الإمام الرازي الذي افترض وجود آيات أخرى أكثر قوة من تلك التي ذكرها القرآن، واقتصر عليها المفسرون حيث يقول : (وَالْمُرَادُ مِنَ الْآيَاتِ بَرَاءَتُهُ بِقَدِّ الْقَمِيصِ مِنْ دُبُرٍ، وَخَمْشُ الْوَجْهِ، وَإِلْزَامُ الْحَكَمِ إِيَّاهَا بِقَوْلِهِ: إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ وَذَكَرْنَا أَنَّهُ ظَهَرَتْ هُنَاكَ أَنْوَاعٌ أُخَرُ مِنَ الْآيَاتِ بَلَغَتْ مَبْلَغَ الْقَطْعِ وَلَكِنَّ الْقَوْمَ سَكَتُوا عَنْهَا سَعْيًا فِي إِخْفَاءِ الْفَضِيحَةِ[120]).

ولم تغب هذه المرويات التلمودية كذلك عن كتب التفسير: (وقيل: إن الشاهد كان طفلاً في المهد فتكلم بهذا، قاله - أيضا - ابن عباس وأبو هريرة وابن جبير وهلال بن يساف والضحاك[121].)، (وقيل: كان ابن خال لها صبيا في المهد[122].)

---

(120) تفسير الرازي ج18 ص 452

(121) المحرر الوجيز لابن عطية - ج3 ص 236

(122) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل - لجار الله الزمخشري - دار الكتاب العربي - بيروت الطبعة: الثالثة - 1407 هـ- ج2 - ص 460

(5)
نسيان الساقي

(ولكن لم يذكر رئيس السقاة يوسف، بل نسيه) (تك 4- -23)

وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾ يُوسُف.

إذا كانت التوراة قد جعلت الساقي ينسى ما وعد به يوسف من أن يذكر مظلمته عند فرعون وكفي، فقد اتفقت الروايتان القرآنية والتلمودية على جعل هذا النسيان عقوبة من الله ليوسف.

فأما المرويات التلمودية فقد جعلت هذا النسيان الكبير من التدبير الإلهي، بل وعقوبة ليوسف الذي اعتمد على البشر طالبا معونتهم وغفل عن ربه، فكان جزاءه أن قضى سنتين إضافيتين عقوبة له على تلك الخطيئة، وأما القرآن- وفق أحد التفسيرين- فقد عزا ذلك للشيطان الذي أنسى يوسف ذكر الله فعوقب بتلك السنين. ولنقرأ الرواية التلمودية أولا: (إذا شئنا الدقة في الكلام فإن يوسف كان من المفترض أن يتحرر من سجنه في نفس يوم خروج الساقي إذ كان قد مضى عليه في السجن حتى ذلك الحين عشر سنوات (كذا!!) وكان قد كفر بتلك المدة عما اقترفه من جرم في حق إخوته العشرة، ومع ذلك فقد بقي في السجن لعامين آخرين (بورك من يثق في الرب ومن كان أمله في الرب)، ولكن يوسف كان قد وضع ثقته في اللحم والدم ؛ لقد توسل إلى كبير السقاة أن يذكره عندما تنصلح أحواله، ويذكر قصته أمام فرعون، ونسي الساقي وعده له ؛ ولهذا فقد اضطر يوسف إلى البقاء في السجن أكثر من المدة المقررة له بعامين .، ولم يكن الساقي قد تعمد نسيان أمره لكن الرب هو من شاء أن تخونه ذاكرته، وكان كلما قال لنفسه: (لو حدث كذا وكذا فسأذكر قصة يوسف) فإن الظروف التي ذكرها تتغير وتنقلب، أو كان كلما عقد عقدة لتذكره بأمره يأتي ملاك ويحل العقدة فلا يرد يوسف على باله [123]).

(123) الأساطير ج2 ص 62

وكما ترى فلا تعارض بين كون التدبير من الله في المرويات التلمودية أو من تأثير الشيطان عليه في الرواية القرآنية؛ فالفارق بينهما لا يعدو فارق أسلوب التأدب مع الله وتنزيهه عن نسبة الشرور إليه؛ وإلا - في النهاية - فكل الأمور خيرها وشرها من قضاء الله وتدبيره.

وإذا كانت القضية محسومة واضحة في المرويات التلمودية - كما رأينا - فلم تكن في الحقيقة بكل هذا الجلاء في القرآن الكريم ؛ إذ تردد المفسرون بين القول بأن الشيطان قد أنسى يوسف ربه للحظة، وجعل رجاءه في الخروج يعتمد على الساقي مثل الرواية التلمودية، أو أن الضمير يعود على الساقي الذي أنساه الشيطان أن يرفع مظلمة يوسف إلى مولاه الملك، وإن كان ذلك فلا سؤال ولا إجابة : (ولما ظن يوسف عليه السلام أن الساقي ناج، قَالَ لَهُ يُوسُفُ خُفْيَةً عَنِ الْآخَرِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ- لِئَلَّا يُشْعِرَهُ أَنَّهُ الْمَصْلُوبُ- قَالَ لَهُ اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ يَقُولُ: اذْكُرْ قِصَّتِي عِنْدَ رَبِّكَ، وَهُوَ الْمَلِكُ، فَنَسِيَ ذَلِكَ الْمُوصَى أَنْ يذكر مولاه الملك بِذَلِكَ، وَكَانَ مِنْ جُمْلَةِ مَكَايِدِ الشَّيْطَانِ لِئَلَّا يَطْلُعَ نَبِيُّ اللَّهِ مِنَ السِّجْنِ، هَذَا هُوَ الصَّوَابُ أَنَّ الضَّمِيرَ فِي قَوْلِهِ فَأَنْساهُ الشَّيْطانُ ذِكْرَ رَبِّهِ عائد على الناجي، كما قاله مُجَاهِدٌ وَمُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ وَغَيْرُ وَاحِدٍ. وَيُقَالُ: إِنَّ الضَّمِيرَ عَائِدٌ عَلَى يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٍ - أيضا - وَعِكْرِمَةَ وَغَيْرِهِمْ.[124])

والحقيقة أنه يغلب على الظن بأن الرواية القرآنية تتابع نظيرتها التلمودية في ذلك؛ أولاً لأن أغلب المفسرين على ذلك، وأيضا لعدم إساغة أن يجئ تعبير (فأنساه الشيطان ذكر ربه) لمَن يريد أن يقول فأنساه الشيطان أن يذكر خبر يوسف لسيده!، وأيضاً فما غرابة أن يُنسى الشيطان رجلاً ممَنْ استحوذ عليهم، فأي ضرورة لذكر ذلك؟، وإنما المعقول أن تذكر تلك المناسبة النادرة لنسيان أهل الله لسيدهم ومولاهم، وبيان أن الله لا يتساهل ولا يتجاوز أبدا مع هنات مقربيه، بل يؤاخذهم بأليم الحساب ؛ لأن حسنات الأبرار - كما يقال - سيئات المقربين، بل حتى لو افترضنا - جدلاً - بأن الضمير يعود على الساقي وسيده الملك، فما كان هذا لينفي أن يكون النسيان عقوبة ليوسف، وإلا فلا معنى لوجودها في ذاتها.

(124) تفسير ابن كثير ج4 ص335

وإذا كان القرآن قد جعل من إلقاء يوسف في السجن بريئاً مظلوماً محنة خالصة أراد الله من وراء ابتلاءُه بها تعظيم قدره ورفعة شأنه، فقد جاءت المرويات التلمودية - على غير العادة - متحاملة على يوسف، فقد رأت في قضاء يوسف عشرة سنين في السجن جزاءً عادلاً: (عقاباً له على الوشي بإخوته العشرة عند أبيه، وكان على يوسف أن يتحمل الشقاء عشرة أعوام في السجن الذي تسببت فيه نميمة الأشرار والوشاة [125]).

ويحق طبعاً لمن يقرأ هذه الجملة أن يعجب من غياب التناسب الكامل بين الجرم وبين العقوبة، خاصة عندما يتذكر بأن تلك الفعال إنما كانت هنّات طفل صغير، وليس من تشريع أرضي أو سماوي يعاقب طفلا ثرثارا يمشي بالنميمة بين أبيه وبين وإخوته بالسجن عشر سنوات كاملة.

فمهما بحثت أيها القارئ العزيز فلن تجد شبيهاً لذلك الحكم بالغ القسوة حتى في المدونات القانونية التي اشتهرت بشدتها كقانون حمورابي وقوانين (الياسا) لجنكيز خان.!

ولا ينبغي أن يفوتنا هنا هذا التشابه بين ما جاءت به الرواية التلمودية من وصف عمل الملاك لجعل الساقي ينسى يوسف: (أو كان كلما عقد عقدة لتذكره بأمره يأتي ملاك ويحل العقدة فلا يرد يوسف على باله)، وبين ما حفلت به الأحاديث النبوية عن ذات الكيفية لتفسير عملية التذكر والنسيان وإن نسبت الشر كالعادة إلى صاحبه ففي الحديث: (عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد يضرب على كل عقدة: عليك ليل طويل فارقد . فإن استيقظ فذكر الله انحلت عقدة فإن توضأ انحلت عقدة فإن صلى انحلت عقدة فأصبح نشيطا طيب النفس وإلا أصبح خبيث النفس كسلانا" [126]).

لذا ؛ فلا بأس من اعتماد هذا التفسير أم ذاك، لكننا نجد من حضور التأكيد القرآني الدائم على لزوم الاعتماد على الله وحده، ما يرجح بأن يكون يوسف قد عوقب على تلك الهفوة، مثلما عوقب النبي سليمان عندما طاف على نسائه، وكذا ما عوقب به النبي محمد نفسه من تلبُث الوحي عليه عندما وعد النبي السائلين بإجابة ناجزة على ما سألوه عن قصة أهل الكهف وغيرها من القصص الذي اشتملت عليه سورة الكهف، بل ما جاء في

[125] الأساطير ج2 - ص57
[126] (متفق عليه)

قصة أصحاب الجنة الذين عوقبوا على عدم قولهم (إن شاء الله): (وَقَوْلُهُ: وَلا يَسْتَثْنُونَ يَعْنِي وَلَمْ يَقُولُوا: إِنْ شَاءَ اللَّهُ، هَذَا قَوْلُ جَمَاعَةِ الْمُفَسِّرِينَ[127]،) (ولا يقولون إن شاء الله. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل[128]).

والأوضح من هذا كله هو أن القرآن لم يجعل النبي بعيدا عن أن ينسيه الشيطان أمر الله له بمجانبة المشركين كما في هذه الآية: وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَلَا تَقۡعُدۡ بَعۡدَ ٱلذِّكۡرَىٰ مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ الأَنْعَام،

إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ الأَعْرَاف.

(127) تفسير الرازي - ج30- ص 607

(128) تفسير الطبري ج32ص 542

(6)
يوسف والكأس السحرية

فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجۡمَعُوٓاْ أَن يَجۡعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمۡرِهِمۡ هَٰذَا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿١٥﴾ يُوسُف.

علمنا بأن الله قد أوحى إلى يوسف عندما ألقى به إخوته في الجب بألا يحزن، وأن الله ناصره، وأنه سيرفع من شأنه في مقبل الزمان، وأنه سيخبر إخوته بعد حين عن قبيح صنيعهم الذي فعلوه به لكنهم وقت إخباره إياهم لن يعرفوا بأنه محدثهم .

هل تحققت هذه النبوءة في القصة القرآنية ؟

الحقيقة أن القرآن لم يقص علينا شيئا قاطعاً عن هذا، إلا ما فهمه بعض المفسرين من اعتبار قول يوسف لإخوته قبيل أن يكشف لهم عن نفسه في نهاية القصة : قَالَ هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ يُوسُف ◉ فاعتبرها بعض المفسرين هي تحقيق النبوءة كما يقول الرازي عند تفسيره لتلك الآية: (وَصَارَتْ هَذِهِ الْوَاقِعَةُ كَالسَّبَبِ فِي اجْتِمَاعِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَعَ إِخْوَتِهِ وَظُهُورِ صِدْقِ مَا أَخْبَرَ اللَّه تَعَالَى عَنْهُ فِي قَوْلِهِ لِيُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ حَالَ مَا أَلْقَوْهُ فِي الْجُبِّ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ[129]).

لكن هذا التفسير - على احتماله - لم يقنع كثيراً ممَنْ نظروا في تلك القصة، مما اضطر معه المفسرون إلى البحث عن المرويات اليهودية ؛ لكي يملئوا بها هذا الفراغ الذي تركته القصة القرآنية فلننظر - أولاً - في بعض ما أورده المفسرون لنعرف بعدها لمَ أضرب النبي - عليه السلام - عن إيراد تلك التفصيلة القصصية في روايته عن قصة يوسف - هذا على افتراض أن تلك الآية السابقة لم تكن تعبر عن تلك النبوءة القديمة كما نعتقد : (وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: سَتُنْبِئُهُمْ بِصَنِيعِهِمْ هَذَا فِي حَقِّكَ، وَهُمْ لَا يَعْرِفُونَكَ وَلَا يَسْتَشْعِرُونَ بِكَ، كَمَا قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ حَدَّثَنِي الْحَارِثُ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الْعَزِيزِ، حَدَّثَنَا صَدَقَةُ بْنُ عُبَادَةَ الْأَسَدِيُّ عَنْ أَبِيهِ، سَمِعْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ يَقُولُ: لَمَّا دَخَلَ إخوة يوسف عليه فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ، قَالَ: جِيءَ بِالصُّوَاعِ فَوَضَعَهُ عَلَى يَدِهِ، ثُمَّ نَقَرَهُ فَطَنَّ، فَقَالَ: إِنَّهُ لَيُخْبِرُنِي

(129) تفسير الرازي ج18 ص 477

هَذَا الْجَامُ أَنَّهُ كَانَ لَكُمْ أَخٌ مِنْ أَبِيكُمْ يُقَالُ لَهُ يُوسُفُ، يُدْنِيهِ دونكم، وأنكم انطلقتم به وألقيتموه فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ، قَالَ: ثُمَّ نَقَرَهُ فَطَنَّ، قال: فَأَتَيْتُمْ أَبَاكُمْ فَقُلْتُمْ: إِنَّ الذِّئْبَ أَكَلَهُ وَجِئْتُمْ عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ، قَالَ: فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: إِنَّ هَذَا الْجَامَ لَيُخْبِرُهُ بِخَبَرِكُمْ. قَالَ ابن عباس: فلا نَرَى هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ إِلَّا فِيهِمْ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هذا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ.[130])

وَجَآءَ إِخۡوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَعَرَفَهُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ قَالَ ٱئۡتُونِي بِأَخٖ لَّكُم مِّنۡ أَبِيكُمۡۚ أَلَا تَرَوۡنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلۡكَيۡلَ وَأَنَا۠ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمۡ تَأۡتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيۡلَ لَكُمۡ عِندِي وَلَا تَقۡرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنۡهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾ يُوسُف.

أما ما نعتقده فإن المقصود بتلك النبوءة هي ما عبرت عنه هذه الآيات السابقة من إخبار يوسف لإخوته بأن لهم أخا من أبيهم لم يحضر معهم، وهذا لا يستقيم - ولا شك - إلا مع الاعتقاد بأن يوسف قد استخدم أمام أنظارهم في ذلك الكشف شيئاً يعتقدون في قدرته على الإبانة عن الغيوب، مثل تلك الكأس السحرية التي يعرف الناظر فيها المخبئات، ودليلنا على ذلك هو أن إخوة يوسف في القصة القرآنية لم يعجبوا من معرفة يوسف بذاك الأخ الذي تركوه خلفهم في أرض كنعان، وليست تلك الآية التي يقول المفسرون بأنها هي المعبرة عن تحقق النبوءة : قَالَ هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ يُوسُف.

أما عن أصل تلك الحكاية فهو ما جاء في القصص التلمودية على هذا النحو: (تظاهر يوسف بأنه غريب عن إخوته وأخذ كأسه ونقر عليها قائلا : لقد علمت من هذه الكأس السحرية أنكم جواسيس فأجابوه : لقد جاء عبيدك من كنعان ليشتروا القمح [131])، وعندما عادوا إلى أبيهم خاطبوه قائلين : (إنك لم تر يا أبتاه الحكمة والفهم والمعرفة التي ألقاها الرب في قلبه، لقد سمعنا صوته الحلو عندما تكلم معنا، ولا نعرف يا أبتاه من

[130] ابن كثير ج4ص321
[131] الأساطير اليهودية ج2 ص 79

عرّفه بأسمائنا وبكل ما حدث لنا، لقد سألنا كذلك عنك، وقال لنا هل أبوكم لا يزال حيا؟ وهل أحواله على ما يرام ؟[132])

ولا ندري لم اخترعت القصص التلمودية كل تلك الحكاية في مخالفة للقصة التوراتية التي لم تقل سوى بأن يوسف قد علم منهم ما علم إلا بسؤالهم وإجابتهم عليه ؟ (راجع تك 42 : 8-15).

(7)
إذاً لمَ ترك النبي ذلك ؟

الإجابة اليسيرة هي أن النبي ما كان ليورد تلك التفصيلة ؛ لأنها تتعارض على نحو واضح مع جلال النبوة، وتخاصم طبيعة معرفة الأنبياء، فما كان النبي محمد، وهو الذي أغلق باب الكهانة والعرافة وحرم السحر، وجعله من الكبائر الموجبة للكفر أن يجعل من أخيه يوسف عرافاً ينظر في الأقداح، ويستعمل كأساً سحرية ليتعرف منها على الغيوب أو حتى أن يوهم إخوته باعتقاده في أمثال تلك الطرائق الكفرية، وهذه التفصيلة توقفنا على جانب من تلك الاعتبارات التي كانت تقف خلف الرؤية الانتقائية للنبي محمد مما بلغه من القصص الكتابي.

أما لماذا أورد النبي تلك النبوءة إن كان لن يستطيع إبراز تحقيقها على النحو الذي جاءت به في تلك الرواية؟

الحقيقة أننا لا نعلم يقينا سبب ذلك، وإن كنا نظن بأن النبي، وإن لم يورد بأن يوسف قد أخبر إخوته بتلك الوسيلة المنكرة عن علمه بحالهم واطلاعه على شأنهم ، ومع ذلك فقد طافت تلك القصة في عقل النبي هناك، وفي موضعها المتوافق مع الروايات التلمودية دون يقررها على نحو صريح لما قلناه، وإن كشفت معرفته بالقصة التلمودية عن نفسها بإخباره لهم أنه يعرف بأن لهم أخاً غير شقيق لم يحضر معهم، وربما ـ أيضا ـ اكتفاءً من النبي بما ستعبر عنه تلك الآية التي أجراها القرآن على لسان يوسف قبل أن يكشف لهم عن نفسه، وإذا صح هذا فلعله يوفق بين ما نقول به، وبين ما قال به المفسرون من التي اعتبروا تلك الآية وحدها هي التعبير عن تلك النبوءة.

ثالثا: يوسف بعد التوراة وقبل القرآن.

---

[132] الأساطير اليهودية ج2ص86

عرضنا في الصفحات السابقة لبعض القصص التلمودية والتي نعتقد - ترجيحاً أو احتمالاً- بأنها كانت من خلف بعض الجوانب القصصية التي انفردت بها الرواية القرآنية، وامتازت بها عن القصة التوراتية القديمة، ورغم أننا لا نعرف - يقيناً - ما الذي كان موجوداً من تلك القصص زمن النبي، وما بلغه حقاً من أهل الكتاب في زمانه بسبب ما حدث ليهود جزيرة العرب من إبادة وتهجير، فلم نعرف عنهم شيئا من جانبهم، بل جاء جميع ما عرفناه عنهم مما أورده المؤرخون المسلمون، وبما جاء من أقوال أقربائهم الذين أسلموا بعد رحيل النبي، وظلوا ينطلقون من مصادرهم الخاصة، ويعبرون عن ثقافتهم اليهودية القديمة، وكما وجدت هذه المعارف اليهودية من يناهضها ويرتاب في صحة عقيدة أصحابها وبواعثهم، فقد وجد فيها الكثيرون من أهل التشوف والفضول ما يشفي نهمتهم للتفاصيل التي خلت منها قصص القرآن الكريم؛ لذا فهذه المرويات تملأ كتب المفسرين للقرآن، بل، ولا نشك من أنها كانت خلف كثير من الأحاديث المصنوعة والموضوعة على لسان النبي خاصة ما جاء منها عن طريق الصحابي (أبو هريرة) إذ ما أكثر ما دُس عليه وهب وهمام ابني مُنبِه من المرويات اليهودية التي استقياها من الخرافات التلمودية، ثم وجدت طريقها من خلاله إلى المتون الحديثية وصارت من بين الأقوال التي يقطع المحدثون بنسبتها إلى النبي .

ومن يقرأ تلك الحكايات التي تزخر بها كتب التفسير لوجدها ذات شبه عجيب مما لدينا من هذه المجموعة المنتخبة من القصص اليهودي المتأخر الذي سنحاول افتراض أن هذه القصص - بأعيانها أو أشباهها - كانت هي ما اطلع عليها النبي سماعاً أو قُرأت عليه، وسنحاول أن نتبين بعد ذلك الفروق بعض بينها وبين القرآن الكريم في نقطتين مختصرتين.

أولها عن صورة يوسف ويعقوب في تلك القصص من جانب عقيدتهما في الله وتصورهما عن قضية المصير الإنساني، محاولين عبر انتقاء بعض القصص التي تترجم - إلى حد ما - عن تلك الحلقة الوسطى بين المفاهيم التوراتية القديمة، وبين ما صارت إليه اليهودية بعد أن اكتملت كعقيدة وديانة توحيدية ذات مفاهيم واضحة ومحددة من القضايا الأساسية في كل دين.

(1)
يعقوب التلمودي بين النبوة وبين التنجيم

وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلۡمٖ لِّمَا عَلَّمۡنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٦٨﴾ يُوسُف . .

قَالَ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يُوسُف . .

قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٩٦﴾ يُوسُف.

ليس من بين مقاصد هذه الصفحات التي تستهدف - أساساً - تقديم تفسير واضح لما ظهرت عليه قصص الأنبياء وعقيدتهم في القرآن الكريم، وبيان أسباب تغايرها واختلافها عما كانت عليه عقائد أنبياء العهد القديم بأن تخوض في وصف تلك الرحلة الهائلة والشاقة في تطور مفهوم النبوة عند العبرانيين، وشرح أطوارها، ولكن كل ما يعنينا هنا هو أن يعقوب القرآني والذي كان على نحو ما أثرا من آثار هذا التطور الكبير الذي صارت إليه صورة الأنبياء في المرحلة التلمودية وأكمل النبي - عليه السلام - تلك الخطوة ليتجلى لنا يعقوب في القرآن على النحو الجميل الذي رأيناه، مثله في ذلك مثل جميع الأنبياء الأقدمين - كما اعتقدهم النبي وصورهم لنا في القرآن الكريم.

ولربما كان في النقول القليلة التي سنوردها من القصص التلمودية ما يدل على بقية باقية مما كانت عليه صورة الأنبياء قبل أن يدركها هذا التطور ؛ لذا سنقف وقفة موجزة عند بعض النصوص من القصص التلمودية شارحين بإيجاز شديد ما كان خلفها من صورة قديمة بدائية جاءت لتعبر عن إحدى الحلقات التطورية المتتالية التي قطعتها صورة النبي في العقيدة اليهودية لتصل إلى ما وصلت إليه في شكلها الأخير، لنخلص من ذلك على وجه السرعة إلى أسباب تخطى النبي محمد لأمثال تلك المرويات القصصية وإشاحته عنها - على فرض وقوفه واطلاعه عليها أو على أمثالها - لأن تلك القصص وأمثالها، والتي هي طبيعية للغاية كتعبير عن بعض مراحل تطور مفهوم النبوة عند العبرانيين ما كانت بلا شك لتبدو في عين النبي - عليه السلام - إلا مستغربة مستهجنة، وما كان إلا ليعتبرها من افتراء اليهود على أنبياءهم،

وهذا المنظور النبوي الذي يجمع في الوقت ذاته بين حسن الظن و الخطأ هو ما سيتعمق بشدة في النظرة الإسلامية اللاحقة بشكل عام للإرث الكتابي عن الله وعن

الأنبياء، وستكون تلك النظرة الانتقائية للنبي محمد للإرث الكتابي الذي بلغه هو أساس رؤيته ونظرته لمفهوم النبوة ودور الأنبياء، فمن بين صور كثيرة لا نشك في أنها كانت موجودة زمن النبي، وكانت تتفاوت فيما بينها تفاوتا شديدا في جمالها وتنزيهها لله وتعظيمها لحرمة الأنبياء وجليل قدرهم ، لم يكن من عمل للنبي محمد سوى أن يختار من بينها ما هو أكثر تقدما وتنزيها، ثم يخطو بها خطوة فسيحة للأمام ليوصلها إلى كمالها وجلالها الذي يراه كل ناظر في القرآن الكريم.

وعلى هذا فإذا كان يعقوب قد بدا في الحكايات التلمودية على نحو أفضل كثيرا مما وجدناه في التوراة؛ إذ نجده في تلك المرويات وعلى نحو أوضح من الرواية التوراتية كنبيّ يتلقى عن الله الخبر الصحيح، ويقترب على نحو ما من صورة الأنبياء الكاملة، لكننا نجده رغم ذلك في تلك المرويات لا يتخلص تماما من صورة قديمة تجعل منه رجلا يتوسل إلى معرفة الغيوب عن طريق العرافة والدجل !

من ذلك – مثلاً- ما جاء عن قصة تحكي حال يعقوب الثاكل عندما وجد نفسه لا يتعزى عن اختفاء يوسف رغم مرور عام كامل على غيابه: (فقد ارتاب يعقوب في أن يوسف لا يزال حياً، ولذا فلم يصدق حكاية أبنائه تمام التصديق، وحدث له شيء قوى شكوكه المبهمة، فقد ذهب إلى الجبال واقتطع اثنى عشر حجراً من المحجر وكتب أسماء بنيه عليها وأبراجهم الفلكية والشهور التي توافق تلك الأبراج، وقد فعل ذلك ليكون حجر لكل ولد هكذا : "راؤبين" برج الجدى نيسان، وبنفس الطريقة لكل ولد من أولاده الاثني عشر ثم خاطب الحجارة وأمرها بأن تركع أمام حجر راؤبين فلم تتحرك، ثم أمرها بعد ذلك أن تركع أمام حجر شمعون فلم تفعل، وأخذ يكرر ذلك مع باقي الحجارة، وهي ترفض في كل مرة، حتى وصل إلى حجر يوسف أمر الحجارة قائلاً : آمركم أن تركعوا أمام يوسف فخرت جميعها أمامه، وجرب نفس الاختبار على أشياء أخرى كالأشجار وحزم الحطب، وفي كل مرة يحصل على نفس النتيجة وعندها تيقن يعقوب من شكوكه وأن يوسف لا يزال حياً [133]).

فهذه الفقرة إنما تعكس أثراً من آثار الخلط بين صورة النبي كما ستصير إليه، وبين صورة الرائي القديم، الذي كان يمكنه التعرف على الغيوب حسب علامات معروفة تلقى دلالاتها وتأويلاتها نقلاً عن سابقيه، فقد كانت معرفة مكتسبة، ويمكن تعلمها، وعلى

(133) أساطير اليهود ص30

هذا فهو خليط من الساحر والعراف مثله في ذلك مثل الكاهن العربي والبابلي الذي كان يحاول أن يعرف الغيوب عن طريق فحص أكباد الحيوانات التي تقدم كقرابين أو الأقداح أو الأحجار، ثم يستخرجون من إشاراتها ما تنطوي عليه الغيوب، وهذا الذي فعله يعقوب ليس بعيداً جداً عما جاء في الكتاب المقدس في صمويل الأول (14-41) من استخدام (الأوريم والتوميم)وهو نوع من القرعة المقدسة التي كانت مشابهة لعادات الشعوب الأخرى مثل العرب الجاهليين والبابليين وغيرهم، وهي ممارسة سوف تختفي بعد السبي مما يدل على أنهما كان تعبيراً عن مرحلة بدائية تم تجاوزها.

(ورغم أن روح النبوة فيه كانت قد هجرته أيام حزنه على ابنه، فقد عادت إليه الآن وفي رؤية مشوشة يراها، وقرر أن يرسل أبناءه إلى مصر[134]).

ولا يغيب عن فطنة القارئ الكريم ما تدل عليه تلك الفقرة السابقة بوضوح من اعتبار النبوة كما لو كانت هبة طبيعية تسطع وتخفت في روح صاحبها، وليست منحة إلهية تتجاوز صاحبها ؛ لأنها في النهاية رسالة من الله إلى البشر، ولما كان الله لا يكلم كل أحد، فمن الطبيعي أن يكون لها بُعداً وظيفياً؛ أي أن الله يستخدم أحد عباده المختارين لإيصال صوته إلى الناس وإليك هذا المقطع الأخير الذي يكمل دلالة المقطع الثاني: (وعندما اقتربوا من منازلهم لمحوا سيراح ابنة اشر عن كثب، وكانت جارية بالغة الجمال والحكمة وماهرة في العزف على القيثارة فنادوها وأمروها بأن تعزف ليعقوب وتغنى أمامه بما سيقولونه لها فمضت حتى جلست أمام يعقوب وأخذت تعزف لحنا عذبا وتغنى قائلة : عمي يوسف حي - إنه حاكم مصر--- ولم يمت وأخذت تكرر هذه الكلمات كثيرا، ويعقوب يزداد فرحاً واستثارة وأيقظت فرحته روح النبوة بداخله، وعلم أنها تنطق بالحق فروح النبوة لا تحل أبداً على راءٍ وهو مكتئب أو حزين ولا تأتيه إلا إذا كان فرحاناً، وطوال السنوات التي افترق فيها يوسف عنه لم تزره روح النبوة مرة واحدة ؛ لأنه كان حزيناً دائماً ولم تعد إليه فرحته إلا مع كلمات سيراح التي أدخلت السعادة على قلبه فتملكته روح النبوة من جديد، ولذا فقد كافئها يعقوب قائلاً : أي بنية لا يكن للموت سلطان عليك أبداً لأنك قد أحييت روحي من جديد، وهكذا كان فلم تمت

[134]أساطير اليهود - ص107

سيراح، ودخلت الجنة وهي حية وأخذت بأمره تكرر كلمات أنشودتها مرات ومرات ؛ فازداد فرح يعقوب واشتدت روح النبوة فيه وازدادت قوة [135]).

وهذه الفقرة إنما تترجم - بوضوح - عن ضرب آخر من ضروب النبوة والتي شاعت بين الأنبياء المتأخرين، والذين ظهروا بالعشرات، بل وبالمئات بين العبرانيين وغيرهم حيث كانت تلك الهبة الطبيعية يمكن استثارتها بالمعازف وبنشوة الموسيقى كما نجد مثلاً في هذا المثال: (بَعْدَ ذلِكَ تَأْتِي إِلَى جِبْعَةِ اللهِ حَيْثُ أَنْصَابُ الْفِلِسْطِينِيِّينَ. وَيَكُونُ عِنْدَ مَجِيئِكَ إِلَى هُنَاكَ إِلَى الْمَدِينَةِ أَنَّكَ تُصَادِفُ زُمْرَةً مِنَ الأَنْبِيَاءِ نَازِلِينَ مِنَ الْمُرْتَفَعَةِ وَأَمَامَهُمْ رَبَابٌ وَدُفٌّ وَنَايٌ وَعُودٌ وَهُمْ يَتَنَبَّأُون فَيَحِلُّ عَلَيْكَ رُوحُ الرَّبِّ فَتَتَنَبَّأُ مَعَهُمْ وَتَتَحَوَّلُ إِلَى رَجُل آخَرَ) (1صموئيل- 9: 5-6).

وليس من حاجة لبيان الفارق بين هذه الصورة التي رأيناها، وبين ما سيكون عليه يعقوب في القرآن الكريم، أو حتى في مرويات تلمودية أخرى فهذه المرويات ما هي إلا خليط غير متماسك أو منسجم من الهذيانات والخرافات والمبالغات الرخيصة والخيال الشعبي السقيم، ولا تنطوي في مجملها على جمال فني، لكنها تستمد قيمتها في تعبيرها المجسد لمسار تطور الأفكار الدينية اليهودية.

(2)
من الهاوية إلى الجنة أو النار

وإذا كان يعقوب التوراة - كما رأينا - لا يعرف شيئا عن مصيره سوى ما كان يعتقده من ذهاب البشر جميعا إلى الهاوية التي تبتلع الجميع دونما تفرقة بين صالح وطالح، وأمام هذا المصير المحتوم فقد كان أقصى ما يتمناه يعقوب التوراتي هو أن يذهب إليها بسلام بعد شيبة صالحة كآبائه وأجداده، ولا يهبط إليها مغموما مكروبا ينوح على ابنه الحبيب كما رأيناه يقول عندما بلغه خبر موت يوسف، ولكن يعقوب التلمودي كان قد قطع مسافة بعيدة نسبيا عن تلك النقطة ؛ إذ يستبين لنا من القصة القادمة ما يشير إلى تغاير مصائر البشر بعد الموت، وإن ظلت بعيدة جداً عن صورة الإله الأخلاقي الذي يجازى الناس وفق قاعدة أخلاقية ثابتة، بل أننا نجد في هذا النص ما يترجم بدقة مذهلة عن تلك المرحلة الوسطى عن مصائر البشر حيث يتضمن شيئا مما كان شائعاً في معتقدات تلك الأزمنة وعقائد أهلها واعتقادهم المستسلم لقانون الحتمية الكونية

[135] الأساطير اليهودية - ص117

الغشوم التي لا تحفل بأفعال البشر ولا بمشاعرهم، ويتضمن - أيضاً- بذور بعض المفاهيم مما ستبلغه الديانات الكتابية فيما بعد، وأما هنا، وفي هذه القصص فهي مزيج عجيب من إرادة إله يحاسب عباده فرادى كل وفق عمله دون أن تتخلص تلك الإرادة الإلهية من إرث الارتباطات القديم بينهما وبين قوى السحر والتنجيم، حيث نجد بين أسباب حزن يعقوب على موت يوسف الذي أطاح موته بوعد الله ليعقوب بخصوص القبائل الاثنتي عشر، والذي لم يعد يصلح بعد أن نقص عدد بنيه واحدا، ولم يعد متوافقاً مع الأبراج الاثنتي عشرة، ولما لم يعد ممكناً أن ينجب يعقوب طفلاً آخر من زواج جديد، ليس بسبب كبر سنه فحسب، بل بسبب ما عاهد عليه لابان من عدم الزواج على بناته في حياتهن، ولا بعد رحيلهن لذا فقد بطل هذا الوعد الإلهي، وليس هذا فحسب، بل إننا نجد سبباً آخر عجيب جدا لحزنه على فقدان ابنه الأثير: (وبجانب حزنه على خسارته، وأسفه لانقضاء عهد القبائل فقد كان لدى يعقوب سبب آخر للحزن على موت يوسف، فقد كان الرب قد قال ليعقوب إذا لم يمت أحد أبنائك في حياتك فهذه علامة لك بأنك لن تلقى في جهنم بعد موتك ولأنه كان يظن بأن يوسف قد مات فقد كان يعقوب حزينا على مصيره هو - أيضا - فقد أصبح يعتقد الآن أن مصيره إلى جهنم .[136])

ورغم هذا الاعتقاد الغريب فإننا نجد إلى جانبه تقريراً مجاملاً ليعقوب ومُعظماً له حيث نجد تعقيباً على موت يعقوب في موضع آخر يقول: (وهكذا رحل يعقوب عن هذا العالم، ودخل العالم الآتي ليذوق مقدماً ما تمتع به هنا على الأرض مثل أبوية الآخرين (أدم وإسحاق)، ولم ينعم بذلك سواهم من البشر، ومن ناحية أخرى فقد كانت حياتهم في هذا العالم تشبه حياتهم في العالم الآتي فلم يكن لنزعات الشر عليهم سلطان سواء هنا أم هناك وفي ذلك شابههم داود [137]).

وهذه الاضطرابات بين مفهوم الآخرة في القصص التلمودي، إنما تعكس أصداء لتلك الرحلة الطويلة من الجدل الذي ثار لقرون بين المدارس اليهودية المختلفة، والتي ربحت فيها المدرسة التي قالت ببعث الأموات وقيامتهم من تحت التراب ليحاسبوا أمام الله، واستخرجت أدلتها -بشق الأنفس- من بين أضعف الإشارات لمَن يريد أن يستخرج منها دليلاً على حضور البعث والثواب في النصوص التوراتية، والتي بدأت تظهر عند

(136) أساطير اليهود ج2 ص 31

(137) السابق - ج2 - ص135

بعض الأنبياء المتأخرين ثم شقت طريقها إلى الاعتقاد الكامل في البعث والحساب في التلمود. ولكن ما يعنينا من كل هذا هو أن تلك المفاهيم الأساسية قد اكتملت عند اليهود قبل البعثة النبوية بقرون قليلة، ووجدت طريقها إلى جميع التجمعات اليهودية بمن فيهم يهود جزيرة العرب، فمَن يقرأ الآيات القرآنية والأحاديث التي لا تكاد تحصى عن مساجلات النبي مع يهود عصره فسوف يدرك على الفور بأنهم كانوا يؤمنون بجميع المفاهيم التي أتى بها النبي محمد من الإيمان بالله الواحد والبعث والثواب والعقاب والصلاة والزكاة الخ ، ولكن القرآن كان ينعى عليهم أنهم لا يلتزمون - دائما - بتلك العقيدة، ولا يطبقون كما ينبغي تلك الشريعة، وهل يعقل مثلا لو كان النبي يعتقد بأن يهود العرب لا يعرفون البعث أو ينكرونه، فهل كان النبي يتردد عن مهاجمتهم أشد الهجوم، بل ما كان ليعتبرهم أهل كتاب أصلاً ولألحقهم بالمشركين الكافرين.

والأمر أوضح بطبيعة الحال مع قضية التوحيد فلقد حسمت تلك القضية أسبق من سواها، وصار التوحيد في اليهودية التلمودية قريبا جدا بما جاء به الإسلام، واتسعت المسافة تماما بين هذا المفهوم المتأخر والعميق عن توحيد الله ، وبين ذلك الضرب من التوحيد الذي عرفه آباء العهد القديم، ولا برهان أكبر على غياب مفهوم التوحيد بالمعنى التلمودي أو القرآني أوضح من تذكرنا لانتكاس العبرانيين القدامى الدائم - والذي لا ينتهي - إلى عبادة الآلهة الوثنية التي كان يعبدها جيرانهم الوثنيون إلى ما قبل الميلاد بقرون قليلة فما من تفسير لهذا - فيما نعتقد- سوى أنهم كانوا يعبدون إلهاً لا يختلف عن آلهة الأمم الأخرى في شيء، سوى أنه إلههم الخاص بهم من دون الناس، فمن المعلوم أن الأفكار الكبيرة متى دخلت العقل وأوسعت بحضورها فيه دائرة الشعور والتصور الإدراكي فمن المستحيل أن يكون هناك موضع للنكوص السريع إلى ما كان عليه المرء قبل حضور تلك الفكرة واستقرارها فيه، مثلها في ذلك كمن يدركه البلوغ ويغادر طفولته إلى غير رجعة، فمن غير المتصور أن يعود طفلاً كما كان، وهذا - مثلا - ما استشعره النبي - عليه السلام - وآمن به بشأن بقاء عقيدته التي أودعها قلوب وعقول أذكياء أصحابه على الأقل لأجيال طويلة ، فلم يكن متصوراً عنده أن يعودوا إلى تلك الوثنية الغليظة ويعبدون اللات والعزى ومناة وهبل وإسافا ونائلة، بعد أن اتسعت خرائط إدراكهم على هذا النحو الكبير بسبب من تصوره السامي عن الله وصفاته الذي استقر في عقولهم ، حتى أن بعض صحابته ظل يعجب ساخراً من نفسه مما كان عليه من

إيمان ساذج قبل أن يؤمن بالإسلام ، ولم يكن من شيء من هذا منتظراً من أتباع موسى الذين كما تحكي التوراة والقرآن من أنهم قد اشتاقوا إلى إله متجسد في صورة عجل ذهبي، وقبل أن تجف أقدامهم بعدُ من ماء البحر الذي ساروا عبره مغادرين وطن عبوديتهم الطويلة، فلا تفسير أيسر من أنهم كانوا ينتقلون من تصور ديني إلى تصور آخر لا يبعد كثيرا عنه. ولا ينبغي لأحد أن يستدل بشيء ضد هذا الأمر الواضح الذي نقول به معتمداً على شاع من القرآن قد هاجم يهود عصره مراراً، لأنهم قد حرفوا التوراة، فلم يقل القرآن أو النبي أبدا بضياع التوراة الأصلية وذهاب ما فيها من آيات تدل على الأحكام والعقائد التي جاء بشبيه لها، والحقيقة الواضحة أن النبي كان يؤمن إيماناً راسخاً بأن تلك الصحائف التي كانت بين يدي اليهود في عصره كانت تتضمن جميع ما أتى به من توحيد خالص، وتنص على نحو لا لبس فيه على الثواب والعقاب والجنة والنار إلى جميع ما اشتملت عليه عقيدته، ولم يتكلم القرآن أبداً على أن يد التحريف والتبديل قد طالت العقائد والأحكام جميعا، بل اقتصر القرآن في وصف التحريف على جوانب محدودة للغاية منها، إخفاء صفة النبي الخاتم مثلاً، والتي كان يوقن بوجود نصوص صريحة بهذا الشأن تنطبق عليه، ولعلها كانت إشارات لمجيء المسيح الذي ينتظره اليهود إلى يومنا هذا، أو إخفاء بعض الأحكام الشرعية مثل الرجم وما إلى هنالك.

(3)

ومن الفروق التي لا ينبغي إغفالها بين الرواية القرآنية عن قصة يوسف، وبين القصص التلمودية العديدة عن ذات القصة، هو الفارق بين المضامين الأخلاقية والدلالات التعبيرية لبعض أحداثها وإذا أردنا أن نأخذ مثالا واحدا يبين لنا الفرق بين درجتي التأدب والتهذيب النفسي بين من يقف خلف الروايتين القرآنية والتلمودية لكان في هذا المثال - الذي نعتذر عن إيراده - ما يُغني عن أي أمثلة أخرى، ففي البداية نفاجئ بأن الكاهن المصري (فوطيفار) لم يشتر هذا العبد الوسيم القسيم إلا لأنه كان لوطياً شاذاً يفعل الفاحشة في عبيده، ولم ينج منه يوسف إلا بتدخل مباشر من الملاك جبريل! ، (وهكذا أصبح يوسف عبداً للكاهن الوثني فوطيفار أو فوطي فارع كما كان يُدعى أحياناً،

وكان قد سعى لامتلاك ذلك الشاب الجميل لغرض دنيء في نفسه، لكن الملاك جبريل أعجزه على نحو لم يستطع معه إنفاذ غرضه الدنيء[138]).

ثم نقرأ بعدها بأن إخوة يوسف عندما دخلوا مصر كان أول ما فكروا فيه كان أخاهم الذي باعوه من زمن بعيد - وهي صحوة ضمير طيبة تحسب لهم - ؛ ولذا فقد أخذوا يبحثون عنه في كل مكان في المدينة، ولم يتركوا منها موضعاً حتى ما أسمته الرواية (حتى في أكثر الأماكن المشبوهة في المدينة [139])، ومن الطبيعي أن يتبادر إلى ذهن كل قارئ - سوى النوازع - أن المقصود بتلك الأماكن هي بيوت البغاء، وبأنهم قد توقعوا أن أخاهم الذي غادر منزل عائلته طفلا صغيراً فقد فارقه - بسبب من الرق وما يستتبعه - ما أخذه عن أهله من مكارم الأخلاق لذا فهو يتردد على تلك المواخير العامة مثل أي رجل لا أخلاق له. لكننا نفاجأ بأن المراد بتلك البيوت هو شيء آخر، وأوغل في الفحش بكثير مما ظننا إذ عندما سألهم يوسف وقد علم من عيونه المبثوثة عليهم، أنهم كانوا يفتشون في المواخير عن سبب ترددهم على تلك الأماكن المريبة جرت بينهم هذه المحاورة الصادمة: (يوسف وهل بحثتم في كل الأرض ولم تبق إلا مصر لتبحثوا فيها؟ وإن كان حقا في مصر فما الذي يدعو أخاكم لأن يذهب إلى البيوت المشبوهة إن كنتم ذرية إبراهيم وإسحاق ويعقوب؟ وهنا قال الإخوة: لقد سمعنا أن أخانا قد سرقه جماعة من الإسماعيليين وباعوه عبدا في مصر، وحيث إن أخانا كان بالغ الحسن جسما وشكلا، فقد ظننا أنه قد بيع لأجل أغراض مشبوهة، ولذا فقد بحثنا عنه حتى في البيوت المشبوهة)، وإذا كنت أيها القارئ الصالح لا تصدق بأن إخوة يوسف كانوا يقصدون ما طفر في رأسك، فإليك ما هو أقبح من هذه وتلك؛ فقد اتهموا يوسف نفسه بأنه ما احتجز شقيقه بنيامين إلا لأنه ينوي فعل الفاحشة السدومية به. فعندما احتج يهوذا الغاضب على رغبة يوسف في استرقاق أخيه بنيامين بعد أن ثبتت عليه السرقة قال مخاطباً يوسف: (وإنني على يقين من أنك تريد استبقاءُه تحت سلطانك لأغراض محرمة، وفي ذلك تشبه فرعون كما أنك تشبهه في أنك تعد ثم لا تفي بوعدك، لقد قلت لعبيدك أحضروا أخاكم الأصغر إلى لكي أراه فهل هذه هي رؤيتك له؟ وإذا كنت لا تريد إلا أن يكون لك عبدا

---

(138) الأساطير ج2 ص 34

(139) السابق ص77

فعليك إذن أن تقبل أن نكون نحن لك عبيدا بدلا من بنيامين، راوؤبين أكبر منه سنا، وأنا أفوقه قوة، لا شك أن الأمر كما قلت أنا وأنك تنوي فعل الفاحشة بأخينا [140]).

أما يوسف نفسه فلم ينج من تلك المرويات التي جعلت منه رجلاً غليظ الحس ولا حياء له!: (وواصل يوسف كلامه قائلا: ها أنتم ترون بأعينكم وكذا رأى أخي بنيامين بعينه أني أقف أمامكم وأتحدث معكم بالعبرية (!!) فأنا حقاً أخوكم، لكنهم لم يصدقوه فلم يكن قد تحول من صبي أمرد إلى رجل ذي لحية كبيرة وحسب منذ تركوه، ولكن الصبي الذي تركوه يوما في البرية يقف أمامهم حاكما لمصر؛ ولهذا فقد تجرد يوسف من ثيابه وأرى إخوته أنه من ذرية إبراهيم![141]).

ولن نتساءل أكان ذلك ضروريا؟ وأما كان فيما قدمه يوسف لإخوته من براهين على أنه أخوهم المفقود ما يغني عن إبرازه لهم تلك العلامة الخاصة جداً من جسده؟!! وأهكذا يكلم بدوي جائع نائب فرعون مصر؟!، وهل اشتهر الفراعنة حقا باللواط، وبعدم الوفاء بالعهود ـ أيضا ـ ؟ ، إلى آخر ما تحفل به تلك المرويات الحاقدة من سخائم الأنفس التي تجرعت الهوان حتى الثمالة عبر تاريخها الطويل المهين، لكن لا غرابة في كل ذلك فكما تخرج التجارب الأليمة والقاسية شخصاً شائه النفس، مضطرباً فهي تفعل ـ كذلك ـ بالجماعات والشعوب، فلا علينا من تلك الهذيانات المجنونة، فهي لا تدل على أخلاق المصريين القدماء بأي حال من الأحوال، بل تدل على ما كانت تنضح به أنفس كتاب تلك الجماعة التي كانت تستوفي حقها على الأوراق، وقد فاتها الزهو بالحقائق، تماماً كأحلام يقظة ضعيف حاقد يفتك في خلواته بخصومه الذين يعجز عن النظر إلى وجوههم ؛ لذا فلم يكن من غاية نستهدفها من وراء إيراد تلك الجوانب الفاحشة في تلك المرويات إلا للتدليل على أن أمثال تلك التفاصيل بالغة الدمامة والفظاظة، ما كانت لتخطر على عقل النبي محمد الطهور فيجعلها من القرآن الكريم، ولا ينبغي أن يفوتنا ما يعنيه حضور تلك التفصيلات وتكرارها من وجودها واستشرائها في ثقافة الكاتب، فلم نعلم أن مصر القديمة كانت بها بيوتاً للمأبونين، مثلما كان في المملكة الإسرائيلية، أو حتى كان ذلك السلوك الجنسي شائعاً بين المصريين الأقدمين كما كان شائعاً بين شعب الرب.

(140) الأساطير - ج2 ص 96

(141) الأساطير اليهودية - ص 103-104

(4)

قصتان خرافيتان

قلنا بأننا سنعرض من بين هذه المرويات التلمودية ما يدل على أي فضاء خرافي كانت تدور فيه تلك المرويات الأسطورية؛ لنعلم ما كان النبي محمد ينطلق منه، وما كان يقبل منه أو يدع، ولن نجد من بين العشرات من تلك القصص ما يدل على ذلك أكثر من إيرادنا لقصتين اثنتين، تتعلق أولهما بيعقوب، والأخرى تتعلق بيوسف فلننظر أولاً في

قصة يعقوب والذئب

تقول القصة الأولى أن يعقوب، وقد أراد الانتقام من ذلك الوحش الكريه الذي افترس ابنه فقد أوصى بنيه أن يأتوا له بذئب عسى أن يعلم منه خبر يوسف، فحتى لو لم يكن هو من افترسه فلا أقل من يعلم منه من أي عشيرة من الذئاب قد فعل ذلك! أو ربما يشتفي لنفسه بقتله إن تصادف أنه الجاني الأثيم الذي افترس ابنه الحبيب، وقد أفلح أبناؤه - بالطبع- في القبض على أول ذئب وجدوه وأتوا به إلى يعقوب، لكننا سرعان ما نعلم بأن الأبناء ما أتوا أباهم إلا بذئب غريب مسكين كان يعاني مصاباً أليماً تماماً كمصاب يعقوب. (ولكي يعزى يعقوب فتح الرب فم السبع فقال ليعقوب : وحياة الرب الذي خلقني، وحقك أنت - أيضا - يا سيدي - أني ما رأيت ابنك هذا ولا مزقته أشلاء، لقد أتيت من بلاد بعيدة أبحث عن ابني الذي تعرض لمثل ما تعرض له ابنك، وقد اختفى فلا أعلم إن كان حيا أم ميتا، ولذا فقد جئت إلى هنا منذ عشرة أيام لأبحث عنه، واليوم وبينما أنا أبحث عنه لقيني أبناؤك فأمسكوا بي، وزادوني غما على غم فأحضروني إليك، تلك هي حكايتي والآن يا ابن آدم ها أنذا بين يديك وبإمكانك أن تفعل بي ما شئت، لكنني أقسم لك بالرب الذي خلقني أني لم أر ابنك ولا أكلته وما ذقت يوما لحم آدمي، وذهل يعقوب من كلام الذئب فتركه ينصرف إلى حال سبيله وعاد يبكي على يوسف وينوح)[142].

---

(142) الأساطير اليهودية - ص 29

(حدثنا عبد الله بن محمد بن زكريا ؛ حدثنا عبد الله بن عبد الوهاب الخراساني عن ابي مسهر الدمشقي قال حدثني عبد الرجحمن بن سعد قال حدثني لربيعة رحمه الله تعالي قال (لما جيء بالذئب إلى يعقوب - صلى الله على نبينا وعليه وسلم تسليما - قال له يعقوب أكلت قرة عيني وثمرة فؤادي ؟ قال لم أفعل، قال فمن أين جئت ؟ وإلى اين تريد ؟ قال جئت من أرض مصر وأريد ارض جرجان . قال : فما بغيتك بها ؟ قال سمعت الأنبياء قبلك يقولون من زار حميما أو قريبا كتب الله عز وجل له بها ألف ألف حسنة ومحي عنه ألف ألف سيئة ورفع له بها ألف أأف درجة فدعا يعقوب - عليه السلام بنيه فقال لهم : اكتبوا هذا الحديث فقال الذئب اني لا أحدثهم قال لم ؟ لأنهم عصاه): العظمة لأبي الشيخ

لعلنا لا نبعد كثيراً عن الصواب إن قلنا بأن تلك الحكايات وأمثالها ـ ربما ـ كانت من خلف ما جاء في بعض الأحاديث النبوية الصحيحة عن الحيوانات التي تتكلم وتعرف الله، مثل هذا الحديث: (عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " بينا رجل يسوق بقرة إذ أعيي فركبها فقالت: إنا لم نخلق لهذا إنما خلقنا لحراثة الأرض. فقال الناس: سبحان الله بقرة تكلم ". فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

"فإني أؤمن بهذا أنا وأبو بكر وعمر ". وما هما ثم وقال: " بينما رجل في غنم له إذ عدا الذئب فذهب على شاة منها فأخذها فأدركها صاحبها فاستنقذها فقال له الذئب: فمن لها يوم السبع يوم لا راعي لها غيري؟ فقال الناس: سبحان الله ذئب يتكلم؟ ". قال: أؤمن به أنا وأبو بكر وعمر " وما هما ثم.[143])

زواج يوسف وأسينات

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ ﴾ [الرَّعْد : 38] .

رأينا عند عرضنا لقصة يوسف في القرآن الكريم كيف خلت القصة القرآنية من أي ذكر عن زواج يوسف، وهذا الذي فعله القرآن هو الشيء الطبيعي، والذي لا غرابة فيه، فلم يذكر القرآن أي شيء عن تلك الجوانب الشخصية من حياة يوسف اتساقاً مع غرض القرآن الكريم البعيد من تلك القصة وهو بيان ما حوته من (الآيات) كما تشير الآية السابعة من السورة، والحقيقة أن الآيات الكثيرة في قصة يوسف كانت كافية ـ وزيادة ـ للتركيز عليها، ودونما ضرورة للوقوف عند هذا الجانب الشائع من حياة جميع البشر وما فعله القرآن مع يوسف هو ذات ما سيفعله في حياة جميع الأنبياء السابقين على يوسف أو اللاحقين عليه فلم يتوقف القرآن عند هذا الجانب في حياة الأنبياء مكتفياً بما قررته تلك الآية السابقة من أن الأنبياء السابقين على النبي محمد ما كانوا جميعهم

الاصبهاني- دراسة وتحقيق - رضاء الله المباركفوري - دار العاصمة الرياض - ج5 ص1767، و ص 1768 برقم (1268)

[143] (متفق عليه)

إلا بشراً من البشر، يتزوجون كما يتزوج غيرهم من الناس، فليسوا بملائكة يتنزهون عما يحتاج إليه البشر في كل زمان ومكان، أما ما جاء في القرآن عن زواج موسى بابنة الرجل المديني الصالح، فلم تكن تلك الواقعة مقصودة لذاتها، بل جاءت لتترجم عن عناية الله بموسى وإعداده لرسالته، حيث مهدت له الرواية القرآنية بيتا ونزلاً ليقضى به ما شاء له الله أن يقضي في مدين قبل أن يرسله الله برسالته إلى فرعون مصر، ليخرج من قبضته شعب بني إسرائيل ، وفي تلك القصة أعاد القرآن - كما هو معروف- إنتاج قصة زواج يعقوب بابنتي لابان، ولا نشك بأن خلف تلك القصة القرآنية قصة تلمودية سبقته إلى هذا الصنيع، ولكن هذا خارج ما نقصده.

لذا، فإذا كانت التوراة قد قامت بتزويج يوسف من ابنة أون (فوطي فارع) والتي أسمتها (أسينات)، ولم تكن تقصد من وراء ذلك سوى بيان ما أحرزه يوسف من مكانة في مصر، حتى لقد زوجه فرعونها المفتتن به ابنة كاهنها الأكبر، فإن الرواية التلمودية قد زادت على ما أوردته التوراة من قصة زواج يوسف وأفعمتها بالغرائب والأعاجيب حتى إننا لا نذكرها هنا إلا في معرض ما احتوته تلك المرويات من أساطير هي الغاية في الغرابة والسخف فقد زوجته القصص التلمودية بأسنات - أيضا - ولكن أتدري أيها القارئ الكريم من هي أسنات هذه؟

فلتعلم إذاً أنها ابنة أخته (دينا)، ولكن قبل أن نعرف كيف تزوج يوسف من أسينات العبرانية، ونكتشف الغرض من وراء تلك الزيجة العجيبة، فلنعرف أولاً كيف وصلت ابنة أخته دينة إلى مصر .

يعلم كل من قرأ سفر التكوين قصة واحدة لا غير عن حياة دينة ابنة يعقوب الوحيدة، فهي الفتاة التي قام باغتصابها شكيم بن حمور، ولقد دفع شكيم ثمن فعلته المنكرة هذه غاليا ؛ إذ قتله أخواها لاوي وشمعون ومعه جميع سكان المدينة وسبيا الأطفال والنساء، وهو ما لم يعجب أبيهما يعقوب، الذي وبخهما توبيخاً شديداً على هذا السرف في القتل، ولم يقنعه ما احتجا به عنده، لتبرير تلك المذبحة المروعة من غيظهما الشديد لما فعله حمور من إذلال لأختهما، ولكن - وعلى خلاف الرواية التوراتية التي أغلقت تلك القضية، ولم تعد لذكرها ثانية - فإن القصص التلمودية قد خلقت من هذا قصة طويلة عريضة جاءت متناثرة بين جوانب قصة يوسف،

ولكن إليك ملخصها عبر إيرادنا لهذه النقول المتلاحقة : فلقد حملت دينة من مغتصبها حمور وأنجبت منه بنتاً وعندما ولدتها، (أراد أولاد يعقوب أن يقتلوا تلك الرضيعة لكي لا يشير الناس بأصابعهم إلى ثمرة الزنا في بيت أبيهم، لكن يعقوب أخذ قطعة من القصدير ونقش عليها الاسم المقدس وربطها في عنق البنت ووضعها تحت حرش وتركها هناك فحملها ملاك إلى مصر حيث تبناها فوطيفار إذ كانت زوجته عقيما)، ولندع قليلا هذه الرضيعة المحمولة جوا إلى مصر، ولنعرف أولا القليل عن أمها دينة، حيث سنراها بعد وضعها لابنتها تتزوج من أخيها شمعون وتنجب منه ولداً!، (وعندما ذبح شمعون ولاوي جميع سكان شكيم رفضت دينة مغادرة المدينة وتتبع إخوتها وقالت : لن أذهب وأحمل فضيحتي معي ؟ لكن شمعون أقسم لها أنه سيتزوجها وهو ما فعله فيما بعد وولدت دينا لأخيها ولداً)، أما كيف ولماذا تبناها فوطيفار ؟:
(كان فوطيفار قد ذهب إلى سور المدينة مع خدمة وسمعوا صوت طفل وبأمر من قائدهم أحضر الخدم الرضيعة إليه وعندما قرأ قصتها على اللوحة الذهبية قرر أن يتبناها فأخذها معه إلى بيته ورباها كابنته)، ولا نعرف شيئاً عن طفولة أسينات سوى دورها في تبرئة يوسف كما سبق وعلمنا في قصة شهادة الشاهدين الإعجازية على براءة يوسف (كانت أسينات قد أنقذت حياة يوسف وهي لا تزال طفلة يحملها الناس في أحضانهم، فعندما اتهمته زوجة فوطيفار والنسوة الأخريات بالفاحشة، وكاد سيده يأمر بشنقه، اقتربت أسينات من أبيها بالتبني وأقسمت له مؤكدة بأن التهمة التي أدين بها يوسف مُفتراة، ثم تكلم الرب وقال: وحياتك لأنك حاولت الدفاع عن يوسف ستكونين أنت المرأة التي تحمل القبائل التي سينجبها)، ولا ندري إن كان الرب قد قال هذا الكلام للطفلة وسمعته منه مباشرة، أم أن الله قد قرر في نفسه ربط مصيرها بيوسف دون أن يخبرها بشيء مما قدره لها من شرف ومكانة، ولو كان الأول هو الذي حدث فمن العجيب أن أسينات قد نسيته تماما، ولكن لربما كان ذلك لصغر سنها وقت تلك الحادثة ؛ إذ سنراها تتمنع عن يوسف وترفض اتخاذه زوجا لها مفضلة عليه ولي عهد فرعون، ولا علينا من هذا التناقض الذي ستجيئ به تلك المرويات بعد قليل معللة سبب رفضها له لكونه غريبا و(ليس من شعبنا، بل ابن راعي غنم في كنعان)، بل - أيضا- لسوء سمعته وما يلاحق سيرته من محاولته الاعتداء على سيدته، ولكن أباها بالتبني فوطيفار راح يقنعها بأن يوسف بريء مما نسب إليه، رغم أنها هي من أبرئته مما اتهم به كما رأينا من قبل . أما

عن اسمها (أسينات) فلا تصدق ما يقوله قاموس الكتاب المقدس عن معنى اسمها الفرعوني واشتقاقه حيث يقول: (وإنه اسم مصري لفظه في اللغة المصرية القديمة (نس- نيت) وهي نسبة إلى الآلهة (نيت)، بل دعونا أن نصدق ما تقوله الرواية التلمودية، لأنه يدلنا على صفاتها الخارقة في تلك المرويات (والألف في اسم أسنات يرمز إلى مدينة أون التي كان فوطيفار كاهنها، وحرف السامخ يعني ستيره؛ أي المخفية أو المستورة إذ كانت مخفية عن الأنظار لجمالها غير العادي والنون يعنى نوحيميت ؛ لأنها ناحت وتوسلت ليتم تحريرها من بيت فوطيفار الوثني، والطاو يعني تامة أي الكاملة وذلك لأفعالها التقية)، وعلى هذا فلا نعرف من منحها هذا الاسم إن كان اسمها يجمع بين دلالات حياتها المصرية وأصولها العبرية!

(كذلك كان اسم زوجة يوسف موافقا لتاريخها كانت أسينات ابنة دينة وحمور لكنهما تركاها عند حدود مصر، ولكي يعرف الناس من هي نقش يعقوب نسبها وقصة ميلادها على لوحة ذهبية ثبتها حول عنقها)، ولا تلتفت إلى هذا التناقض بين تركها في حرش من الأحراش في أرض كنعان أو على حدود مصر فهذه التناقضات بالعشرات، وليس من تفسير لذلك سوى أنها روايات متعددة كدست بعضها فوق بعض، ولكن التفت - رجاءً - إلى ما تدل عليه تلك المرويات من جعلها يعقوب رجلاً فذاً خارقاً يعرفه القاصي والداني حتى أن فوطيفار يتبنى حفيدته من أجل نسبها الشريف!، ولعل من بين آثار تلك المرويات ما جاء على لسان يوسف القرآني، وهو في محبسه مخاطباً السجينين من أنه يتبع ملة آبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب كما لو أن ساقي فرعون وخبازه كانا يعرفان أجداد يوسف، ويعلمان عظيم أقدارهم تماما كما تقول هذه المرويات عن معرفة المصريين بآل يعقوب، أما كيف رضيت أسينات بيوسف - أخيرا - رغم ازدرائُها له - فكما سنرى -، فقد كانت نظرة واحدة لجمال وجه يوسف وهو في زيارته لبيت سيده الأول، بعد أن صار نائبا لفرعون كافية لوقوعها في حبائل فتنته، دعونا نقرأ: (وبينما هي واقفة بجوار النافذة رأت يوسف يمر من تحتها فطاش صوابها لما رأت جماله الإلهي وطلعته النبيلة التي لا يمكن وصفها حتى انفجرت في البكاء وقالت: يا لغباوتي وحمقى ماذا أفعل الآن ؟ لقد سمحت لنفسي بالانخداع بكلام صاحباتي اللاتي أخبرنني أن يوسف بن راعي غنم من كنعان، والآن ها أنا أرى النور الذي يشع من وجهه كضياء الشمس، وينير منزلنا بسناه، ومن حمقى وغباوتي تكلمت بكلام قبيح في حقه واحتقرته وتفوهت

في حقه بكلام فارغ، لكني لم أكن أعرف أنه من أبناء الرب كما لا بد وأن يكون؛ إذ لا يوجد بين بني البشر من يكون بمثل هذا الجمال اغفر لي يا رب يوسف لقد قادني جهلي بالتكلم بكلام الحمقى والمغفلين ولئن زوجني أبي بيوسف لأكونن له إلى أبد الآبدين [144]) .

ولكن يوسف لم يكن يدري بشيء مما يدور في خلد الجارية المصعوقة من الجمال الإلهي لأنه: (في هذه الأثناء كان يوسف قد أخذ مكانه على مائدة فوطيفار، ولمح مكانه جارية تتطلع إليه من إحدى نوافذ القصر فأمر بإبعادها ؛ إذ لم يكن يسمح أبدا أن تتطلع النساء إليه أو يقتربن منه فقد كان جماله الفائق لطبيعة البشر يذهب دائما بألباب زوجات الكبراء من المصريين ولم ييأسن من ملاحقته ومحاولة التودد إليه، لكن كانت كل محاولاتهن تضيع سدى فقد كان يعمل بنصيحة أبيه يعقوب الذي أوصاه وشدد عليه بأن يترفع بنفسه عن نساء الأغيار [145]).

لكن فوطيفار أخبره بأنها ابنته العذراء التي تعيش حياة التقوى كناسكة منعزلة عن العالم وأنه أول رجل تنظر إليه فأذن لها يوسف أن تقترب منه: (فأتت وحيته قائلة: السلام عليك يا من باركك الرب الأعلى فرد يوسف تحيتها قائلاً: باركك الرب الذي منه تأتي كل البركات، كما أرادت أسينات أن تقبل يوسف فأجفل وارتد إلى الوراء قائلا لها: لا يليق برجل يخشى الرب، ويسبح بحمد الرب الحي ويأكل خبزه الذي باركه، ويتجرع كأس الفناء المبارك، والعصمة عن كل خطية ويدهن نفسه بزيت القداسة العطر؛ لا يليق به أن يقبل امرأة من شعب غريب يعبد، ويقدس الأصنام الميتة التي لا تضر ولا تنفع، ويأكل من خبز الوثنية العفن الذي يخنق روح الإنسان، ويشرب ترياق الزيف ويدهن نفسه بزيت الهلاك، لمست هذه الكلمات شغاف نفس أسينات التي أجهشت بالبكاء فرأف يوسف بحالها وباركها ودعا الرب أن يغمرها بروحه ويجعلها من شعبه، ومن وارثيه وأن يمنحها نصيبا في حياة الخلود)، أما كيف عرف يوسف بما يجمعهما من دم مشترك فلقد كانت تلك التعويذة نافعة لها في ذلك (وبينما كان يوسف يتجول في الأرض نائباً لملكها أخذت الفتيات يرمينه بالهدايا لعله يلتفت إليهن ويمنحهن الفرصة للتطلع إلى جماله، ولم تكن أسينات تمتلك شيئا تقدمه هدية له ؛ ولذا فقد خلعت التعويذة التي كانت

[144] أساطير اليهود - ج2- ص 155
[145] السابق ذات الصفحة

حول رقبتها (أي قطعة القصدير المذكورة آنفا) وأعطته إياها، وعندما علم يوسف نسبها تزوجها لما رأى أنها ليست مصرية، ولكنها تنتمي إلى آل يعقوب من طرف أمها)، أما عن مراسم العقد ووقائع الزفاف فسوف نأتي لك بها من كتاب آخر أقدم من تلك القصص بل لعله كان أساس تلك القصص التلمودية المتأخرة، وأيضا لجمال لغته وظرفها: (وقام يوسف من الصباح الباكر ومضى إلى فرعون وكلمة عن أسينات، فاستدعى فرعون بنتفريس وأسنات ودهش لجمالها وقال : ليباركك الرب إله يوسف هو الذي اختارك لتكوني زوجة لأنه الابن البكر لله، وستُدعين ابنة العلى وسيكون يوسف زوجك إلى الأبد، وأخذ فرعون تاجين من الذهب ووضعهما على رأسيهما وقال: ليبارككما الإله الأعلى وليكثركما إلى الأبد وأدارهما فرعون أحدهما نحو الآخر وقبلا بعضهما بعضا وأحيا فرعون زواجهما وأقام غذاءً كبيرا ومأدبة وفيرة طيلة سبعة أيام، ودعا جميع قادة مصر وأعلن : كل من يعمل خلال الأيام السبعة لعرس يوسف وأسنات سيموت موتا شنيعا، وبعد أن انتهى العرس والوليمة ذهب يوسف إلى أسنات وحملت أسنات من يوسف وأنجبت منسى وإفرائيم أخاه في بيت يوسف [146]) .

وهكذا تزوج يوسف من أسينات وأنجب منها ولدين دون بنات، وعاشا في (تبات ونبات) قبل أن يدركهما هادم اللذات، ومفرق الجماعات، فسبحان من له الدوام .

(146) ـ التوراة كتابات ما بين العهدين- ج3 ص469

ما وراء تلك القصة

لا يخفى على من قرأ تلك الصفحات بأن تلك الأحداث العجائبية المسفة لزواج يوسف من (أسينات العبرانية) لم تأت إلا من أجل مقصد وحيد وقبيح، وهو تنزيه يوسف من التزوج بامرأة غير عبرانية، حتى لو كانت بنت كبير كهنة مصر، فلم يكن كافيا عند كاتبي تلك القصص التلمودية بأن يجعل من زوجة يوسف وأم سبطين كبيرين امرأة متهودة صالحة - وهو ما لم تقل حتى به الرواية التوراتية - وكما كان النبي محمد ليكتفي بذلك؛ لغياب تلك النظرة العنصرية البغيضة من رؤيته كلا! بل جعل منها الكاتب التلمودي المتأخر امرأة تجري فيها دماء آل يعقوب، والحقيقة أنه لم يكن أمامه سوى ذلك، فليس من سبيل آخر أمامه لتحقيق مقصده السخيف ذاك ، فلم يكن ليرضيه - مثلا - أن يزوجه بأي امرأة من آل إبراهيم ، فقد علمنا سوء ظنه واحتقاره للفروع الأخرى من نسل إبراهيم، ناهيك عن الأغراب من الجيران الوثنيين أو من المصريين من باب أولى، وقد رأيت رأيه فيهم ؛ إذن فلم يكن أمامه سوى أن يزوجه امرأة من ذات أسرة يعقوب، حتى لو اضطره ذلك إلى تزويجه بمن ستحرمه الشريعة اليهودية لاحقاً، وما سيدفع يوحنا المعمدان رأسه ثمناً لتنديده الصاخب بمثل تلك الزيجة المحرمة، ولعل مما يسر له أمثال تلك الخروق ما جاء في التكوين عن زواج إبراهيم بأخته غير الشقيقة (تكوين 20-12) أو زواج عمرام أبو موسى نفسه بعمته يوكابد (خروج 6-20)، أو ما يمكن أن يستنتج من قصة ثامار وأمنون (2 صم 13 و1 أخبار 3-9).

على كل حال فلا ينبغي الاعتقاد بأن تلك التحرجات اليوسفية - كما تظهر في هذه القصص - كانت تتعلق يوسف التوراتي في شيء، فقد رأيناه يتزوج امرأة مصرية، بل ويمارس طرقهم في التعرف على الغيوب ويُحنِط أباه، وما إلى ذلك من ممارسات تدل على تمصره الكامل، بل كانت هذه القصص المسلية من نتاج فترة بعيدة جداً عن زمن يوسف وحكايته، حتى أننا نجد اختلافاً بين العلماء على كون هذه القصة ذات أصل يهودي أو مسيحي، لكنها في جميع الأحوال نتاج اليهودية الحاخامية التي تشكلت في ظل التوترات التي كابدتها الروح اليهودية في العصر الإغريقي- الروماني كما نجد عند هذا المؤلف : (وفي رواية يوسف وأسنات يكون هذا الامتناع قبل الزواج جنبا إلى جنب مع رفض الزواج من وثنية، وكانت أسنات كغيرها من النساء في البلاط المصري مأخوذة بجمال يوسف لكنه لا يقابلها إلا عندما يعتقد أنها مصممة على البقاء عذراء،

وعندما يتحقق من رغبتها فإنه يرفض أن يقبل امرأة وثنية، وعندما تتوب عن وثنيها وتصوم مبدية الندم الشديد حينها فقط يوافق يوسف على تقبيلها ولا ينام معها إلا عندما يتزوجان، ويقابل النص الذي يدور في فلك تقاليد الرواية الهلنستية موضوع الحفاظ على العذرية وتأخر تحقيق الرغبة الجنسية بين الزنا والزواج خارج المجتمع الديني([147]).

وقبل أن نترك قصة يوسف وأسنات ربما كان من الملائم أن نعلق على ما جاء في كتاب نقدي - بالغ القسوة - على التوراة وقصصها ؛ وذلك لأنه ينطوي على خطأ فادح فيما يتعلق بالرواية القرآنية عن قصة يوسف وأسينات فلنقرأ كلامه أولا:

(ومن المعروف أن خرافات العرب واليهود نشأت عن مصدر مشترك أخذ الجانبان منه القصص المقدسة لديانتهما ؛ فقصة يوسف دونت في فلسطين وعرفتها جزيرة العرب قبل التوراة ولم يبدل الزمان فيها سوى بعض التفاصيل، أما القصة نفسها فقد بقيت عند الشعوب التي بقيت في الجزيرة العربية، فحسب القرآن أن فوطيفار لم يكن خصياً وأن أسنات كانت رضيعة في حضن أمها لما اتهمت يوسف بمحاولة الاعتداء عليها، ومنذ أن كانت الفتاة صغيرة أظهرت ذكاءً نادرا، ففي أحد الأيام، وكان والدها يروي قصة زوجته مع يوسف وهو الحدث الذي عذبه طويلا حتى إنه احتفظ بالرداء الشهير الذي كان قد تمزق أثناء المشادة، أشار عليه أحد الخدم أن يسأل ابنته أسنات رأيها في ذلك الحادث، وعلى الرغم من أن الصغيرة قد تعلمت الكلام لتوها، إلا أنها قالت لوالدها: اسمع يا أبي إذا كانت أمي قد مزقت رداء يوسف من الأمام فهذا دليل على أنه هو الذي كان يريد اغتصابها، أما إذا كان الرداء ممزقا من الخلف فهذا يعني أن أمي هي التي ركضت وراءه لقد اعترف كل من القرآن والتوراة بأن أسنات كانت زوجة مثالية فولدت ليوسف ولديه منسى وإفرايم إبان سنوات الخير السبع، ثم حلت السنوات العجاف لكن المصريين لم يجوعوا ؛ لأن يوسف كان قد رتب أمور الحياة في أنحاء البلاد كلها فملأ المخازن بالأرزاق، وفي سنوات الآلام والمعاناة كانت مصر غنية لدرجة جعلت الهاربين من ويلات المجاعة يأتونها من مختلف البلدان ليشتروا قمحها.[148]

([147]) الزهد في العالم الإغريقى الرومانى - ريتشارد فين - ترجمة : على للو - وناجح شاهين - مكتبة مؤمن قريش - الطبعة الأولى 2012م - هيئة ابو ظبى للثقافة والتراث – ص 93

([148]) ليو تاكسل ص 151و 152

والحقيقة أننا لا ندري من أين جاء المؤلف بوجود تلك القصة في القرآن؟ وأغلب الظن أنه قرأ شرحاً تفسيرياً مترجماً للقرآن، وكان يتضمن تلك القصة فتوهم وجودها في متن القرآن - وهذا كما لا يخفي غير صحيح - فلم يتكلم القرآن عن زواج يوسف لا بأسنات ولا بغيرها، وأما ما قاله المؤلف في صدر هذا المقتطف - الذي أوردناه - من وجود أصل مشترك لما جاء في القصص التوراتية والقرآن فلا نعلم عنه شيئا، وإن غلب على ظننا بأن الرواية القرآنية إنما تعتمد مباشرة على ما شاع في جزيرة العرب من المرويات التلمودية والتي عرفوها من يهود الجزيرة. وأما الأثر الوحيد الذي وجدناه لتأكيد معرفة أهل عصر النبي بها، ولتأثير تلك السورة في غير المسلمين فهو هذا الخبر- إن صح - وهو يدلنا على عظيم تأثيرها في نفس من يسمعها، حتى لو كان من بين الملمين بها، وكذا ما أشرنا إليه من تجويد النبي لتلك القصة، وما نفث فيها من روحه، حيث لا يعقل أن يبلغ بها أن تؤثر في رجل يهودي إن كانت مجرد تلخيص عربي لقصة يوسف كما شاعت بين أهل الكتاب : (وحدثني شيخٌ من خزاعة، عن جابر بن عبد الله، قال: كان لبني عبد الدار غلامٌ يقال له جبر، وكان يهودياً، فسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل الهجرة يقرأ سورة يوسف، فعرف الذي ذكر في ذلك، فاطمأن إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأسلم، فلما ارتد عبد الله بن سعد بن أبي سرح عن إسلامه رجع إلى مكة فأخبر أهله بإسلامه، وكان العبد يكتم إسلامه من أهله قبل أن يدخل بيته، فعذبوه أشد العذاب حتى قال لهم الذي يريدون، فلما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فشكا إليه، وأخبره ما لقي في سبب عبد الله بن سعد. قال: فأعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثمنه فاشترى نفسه فعتق، واستغنى ونكح امرأةً لها شرف.[149]

[149] المغازي للواقدي ص350 الجزء الأول

خاتمة

هل حدثت تلك القصة حقا؟!

"فالآن ليس أنتم أرسلتموني إلى هنا، بل الله. وهو قد جعلني أباً لفرعون وسيدا لكل بيته ومتسلطاً على كل أرض مصر " (تكوين 45 الآية 8)

الحقيقة أننا لن ندهش كثيرا إن ثبت بالدليل التاريخي القاطع بأنها قصة مختلقة من أساسها، ليس فقط لغياب أي برهان تاريخي على حدوثها، بل لاشتمالها كذلك على كثير من الغرائب والأعاجيب التي لا يسيغها العقل، وتنكرها البداهة مثل ارتكازها في الأساس على معرفة الغيوب عبر تفسير الأحلام وتأويلها، واختصاص يوسف بن يعقوب من دون البشر جميعا بتلك الهبة الخرافية، وقل مثل ذلك عن مدة حكمه الطويلة لمصر، والتي امتدت لثمانين سنة كاملة، ونفوذه العظيم على مصر وأهلها، حتى طمس حضوره الساطع فيها وجود فرعون مصر، وصار إلى جانبه شبحاً من الأشباح، وعلى هذا فهي قصة إن أمكن تخيل حدوثها في أي مكان آخر على الأرض، فلا يعقل أن تكون قد حدثت في تاريخ المصريين المتولعين بتقييد الكبير والصغير من تاريخ ملوكهم، وأضف لذلك - أيضا - تلك المهارات المتنوعة التي منحها كاتب التوراة ومستلهم القرآن معا لصبي صغير جاء من خلفية رعوية، ولا معرفة لديه بشؤون الزراعة وشؤون الحكم حتى تلقى إليه مقاليد إدارة أزمة أمة متحضرة عريقة تعيش محنة مروعة، ويكاد يتعرض وجودها كله للخطر الماحق، وكل هذا بفضل مهارته في تفسير الأحلام !، وأغلب الظن أن هذه القصة قد اختلقت اختلاقا بعد الزمن الافتراضي لحدوثها بزمن بعيد لتفسير وجود العبرانيين كعبيد مسترقين لدى المصريين قبل زمن موسى وخروجه بعدة قرون.

لن ندهش - أيضاً - إن علمنا بأنها قصة ذات نصيب قليل من الحقيقة؛ أي بأن تكون قصة وهمية كبيرة تأسست حول نواة حقيقية صغيرة عن قصة صعود رجل عبري- أو ذي قرابة بالعبرانيين- وقد حالفه الحظ، ونال بفضل كفاءته ومهارته رتبة رفيعة في البلاط المصري، ثم حفت بها المبالغات والخوارق السابقة ؛ لأننا نجد دائما هذه النغمة في المنافي اليهودية أي وجود رجل أو امرأة يتمتع كلاهما بالجمال والمهارة لكي يساعد الله شعبه الحبيب من خلاله أو من خلالها كما في قصة يوسف في مصر وإستير الفاتنة في بلاد فارس، وتظهر تلك القصة كأوضح ما يكون في سفر دانيال فلنقف عندها برهة حيث سنجد جميع معالم قصة يوسف .

دانيال يفسر الأحلام

(وفي السنة الثانية من ملك نبوخذ نصر حلم نبوخذ نصر أحلاما فانزعجت روحه وطار عنه نومه فأمر الملك بأن يستدعي المجوس والسحرة والعرافين والكلدانيين ليخبروا الملك بأحلامه فأتوا ووقفوا أمام الملك فقال لهم الملك : قد حلمت حلما وانزعجت روحي لمعرفة الحلم فكلم الكلدانيون الملك بالآرامية : عش أيها الملك إلى الأبد أخبر عبيدك بالحلم فنبين تعبيره فأجاب الملك وقال للكلدانيين : قد خرج مني القول إن لم تنبئوني بالحلم وبتعبيره تصيرون إربا، إربا وتجعل بيوتكم مزبلة وإن بينتم الحلم وتعبيره تنالون من قبلي هدايا وحلاوين وإكراما عظيما فبينوا لي الحلم وتعبيره فأجابوا ثانية وقالوا : ليخبر الملك عبيده بالحلم فنبين تعبيره. أجاب الملك وقال إني أعلم يقينا أنكم تكتسبون وقتاً إذ رأيتم أن القول قد خرج مني بأنه إن لم تنبئوني بالحلم فقضاؤكم واحد لأنكم قد اتفقتم على كلام كذب وفاسد لتتكلموا به قدامي إلى أن يتحول الوقت فأخبروني بالحلم فأعلم أنكم تبينون لي تعبيره أجاب الكلدانيون قدام الملك وقالوا : ليس على الأرض إنسان يستطيع أن يبين أمر الملك لذلك ليس ملك عظيم ذو سلطان سأل أمرا مثل هذا من مجوسي أو ساحر أو كلداني والأمر الذي يطلبه الملك عسر وليس آخر يبينه قدام الملك غير الآلهة الذين ليست سكناهم مع البشر لأجل ذلك غضب الملك واغتاظ جدا وأمر بإبادة كل حكماء بابل) (دانيال 2 : 1-12).

كما هو معلوم فلم يكن دانيال نبياً، - وإن منحه يسوع لقب نبي)، وعاش قبل الميلاد بقرنين تقريباً، ويحكي عن قصة مفترضة حدثت قبل زمنه بكثير؛ أي في فترة السبي البابلي حيث وصل دانيال ورفاقه إلى قصر نبوخذ نصر، فأمر الملك تعليمهم آداب الكلدانيين ولغتهم يكونوا في خدمته وحلم نبوخذ نصر فرأى تمثالا عظيما من الذهب والفضة ففسره له دانيال ثم إن نبوخذ نصر نفسه أقام تمثالا ليعبده كل سكان المملكة . رفض رفاق دانيال فرماهم الملك في النار إلا أن الله خلصهم منه، وحلم نبوخذ نصر حلما ثانيا رأى فيه شجرة تقطع ففسره له دانيال وأقام بلطشصر مأدبة في بابل وخلال المأدبة رأى على الحائط كتابة فقرأها دانيال وفسرها : أحصى الله أيام ملك وأنهاها . ألقي دانيال في جب الأسود كما ألقي رفاقه في أتون النار ولكن الله نجاه من الموت وهذه القصة المتأخرة تنتمي إلى القصص الديني (والقصص الديني يقدم لنا رواية واقع من الوقائع أو حدثا من الأحداث . وكاتب القصة يختلف عن المؤرخ . فهذا يحاول

أن يكون أميناً للحقيقة التاريخية، أن يعرض لأحداث كما هي وذلك بقدر المستطاع أما الراوي فينطلق من بعض العناصر التي قد تكون تاريخية أو لا لكي يقدم لنا فكرة أو تعليماً أو إرشاداً ذاك هو الوضع في القصص الديني كما نجده في التوراة. نحن لا نطلب فيه الحقيقة التاريخية كما نجدها في الوثائق بل نطلب فيه التعليم الديني الذي توخاه كاتبه[150].)

أما عن هذه القصة ومصداقيتها فنجدها هنا في موضعها الطبيعي أي بين ثنايا سفر أدبي توخى كاتبه أن يشجع المؤمنين المضطهدين فجعل في القسم الإخباري منه أمامه شبابا يحافظون على الشريعة مهما كانت الظروف التي يعيشون فيها قاسية وأليمة، والمغزى في كلا الحالتين هو التشديد على ضعف الكهانة الوثنية وإعلان أن الله وحده هو سيد الزمن والتاريخ، وهو يعرف سر المستقبل ويكشفه بواسطة أنبيائه وهو ما يبين لنا أهمية الأحلام في تلك الأزمنة (بالأحلام يتصل الإنسان بالإله ولقد لعبت الأحلام في أسفار الأنبياء دوراً بارزاً لم تشجبها التوراة ولم يعتبرها الأنبياء وسيلة غير مشروعة لمعرفة إرادة الله . أعطي لدانيال كما أعطي ليوسف بن يعقوب من قبل أن يفسر الأحلام، والله بحسب التقليد الإبراهيمي يخاطب النبي في حلم (عدد 12-6) وسيأتي يوم يعلن فيه يوئيل (3:1) إن موهبة الأحلام ستنتشر بين أفراد الشعب في آخر الأزمنة [151]).

(حينئذ خَر نبوخذ نصر على وجهه وسجد لدانيال وأمر بأن يقدموا له تقدمة وروائح سرور فأجاب الملك دانيال وقال : حقا إن إلهكم إله الآلهة، ورب الملوك وكاشف الأسرار إذ استطعت على كشف هذا السر حينئذ عظم الملك دانيال وأعطاه عطايا كثيرة وسلطه على كل ولاية بابل وجعله رئيس الشحن على جميع حكماء بابل فطلب دانيال من الملك فولى شدرخ وميشخ وعبد نغو على أعمال ولاية بابل أما دانيال فكان في باب الملك) (دانيال 2: 46-49).

---

(150) كتاب القصص الديني - تفسير راعوث والمراثي واستير ودانيال ويهوديت وباروك ورسالة إرمياء - الخوري بولس الفغالي الطبعة الأولي 1997م - منشورات المكتبة البولسية بيروت لبنان - ص7

(151) السابق ص 191

الفرق بين الروايتين

من بين الفروق الهامة بين الروايتين التوراتية والقرآنية فرقاً يستحق التوقف عنده قليلا لظهوره الساطع في هذه القصة على نحو خاص، وهو أسلوب القص في الروايتين؛ حيث نجد أن الرواية التوراتية تحمل نفساً دراميا متنامياً مليئاً بالمفاجئات المفرحة والمحزنة؛ فهي قصة حكّاء بارع حقاً، فهو يعرف كيف يوشي حكايته بالتفاصيل الفنية، ويعرف كيف يسلسلها لتمضي إلى ذروتها في إيقاع رخي جميل، على خلاف القصة القرآنية التي تقف وراءها روح جادة وقور، تتعجل أن تصل بقارئها أو سامعها إلى دلالة الحدث الدينية والأخلاقية، ربما قبل وقوع الحدث نفسه! فمَن يقرأ - مثلاً - مداولات إخوة يوسف في القرآن، فلن يصعب عليه أبدا أن يتوقع ما حدث ليوسف على يد إخوته، ومن يقرأ جواب يعقوب على بنيه وقد طلبوا منه أن يرسل يوسف معهم ليلهو ويلعب، فلن يصعب عليه أن يتوقع ما سيرجعون إليه به من مبررات كاذبة بعدما يقترفون فعلتهم المنكرة بحق أخيهم، فقد أعطاهم يعقوب بلسانه ما سيقولونه له، وقل مثل ذلك عن إيحاء الله ليوسف في البئر بأنه سيُنبئ إخوته بما فعلوه فهي تفسد ذروة مفاجأة تلك القصة كلها عندما يعلن يوسف في النهاية لإخوته عن نفسه مثلما فعلت قصة التوراة، وأوضح من ذلك ما حكاه القرآن عن أخلاق يوسف وما وهبه الله من علم ومن حكمة قبل أن يقص علينا محاولة المرأة المصرية أن تغويه، فقارئ القصة القرآنية يعلم يقيناً أن رجلاً كهذا، سيتأبى وسيقاوم الإغواء والإغراء، ولا مثال كذلك يُجلي هذا الفارق البعيد أنفع من تذكر يعقوب في الروايتين، فقد جمد قلبه، وكادت المفاجأة أن تودي بحياته في قصة التوراة، بينما نراه في القرآن راسخاً جليلاً، ويتلقى النبأ في ثبات واتزان عظيمين، وينبأ بنيه بأنه كان يعلم من الله ما لا يعلمون، وقل مثل ذلك في جميع مفردات القصة ومراحلها وهذا الجانب وحده كاف للبرهنة على روح كاتبيها وحالهما وقت صياغتها.

يمكن لمَن شاء أن يقول بأن الفارق بينهما لهو الفارق بين كاتب رائق المزاج، يتمتع بموهبة أدبية لا شك فيها، وكان يقف على مسافة نفسية مريحة من أجواء قصته وأحداثها؛ لذا، فهو يعرف كيف يزخرفها كقصة فنية، وبين مستلهم تقى مرتعد النفس، ومتوفز الشعور كانت تنقدح معالم قصة قديمة في باطنه لتخرج إلينا محملة بانفعالات صاحبها النفسية ومعاناته الشعورية جراء معالجته اللاشعورية لها في أعماق باطنه، فهي إذاً نتاج الفارق بين عملية الكتابة الواعية التي تستهدف في النهاية نصاً مقروءاً،

وبين مكابدات التلقي اللاشعوري الذي ينتج في النهاية نصاً يثير التأمل عبر الإلقاء والتلاوة، ودعونا لا ننسى بأن تلك المكايدات المحمدية كانت -على الأقل في القرآن المكي- أليمة شاقة حتى إننا نجد صاحبها يقول لمَن لاحظ عليه حضور المشيب قبل أوانه (شيبتني هود وأخواتها) وما نرى (أخوات هود) إلا سور القصص القرآني المهيبة التي تثير أعمق الانفعالات الدينية وأطهرها على ما فيها من رتابة ومن تكرار .

من يقرأ هذه القصة سواء في روايتها القرآنية أو التوراتية فسيجدها هي ذات القصة في معالمها الأساسية، وإن كان النبي محمد قد صبغها كالعادة بصبغته الخاصة، ومنحها قسمات رؤيته الدينية المتطورة فصارت - مثل ما قلنا من قبل عن قصة نوح قصة جديدة تماما - ويمكننا القول بان التناول القرآني لقصة يوسف التوراتي لا يبعد كثيرا عما سيفعله بهذه القصة، الصوفية المسلمون، الذين سيشغفون أشد الشغف بهذه القصة – وما لهم لا يفعلون ؟!- ، وهي قصة تحوي جميع العناصر التي تجعل منها قصة شائقة ومثيرة للتأمل، فهي قصة حافلة بالمشاعر والنوازع الإنسانية كافة من الحب والشفقة والشهوة والحسد والغربة وتقلبات الحظ وتحولات المصائر والصعود من قاع بئر في الصحراء إلى سدة عرش مملكة الممالك!، لكننا سنجدهم - أيضا - يطورون القصة القرآنية ذاتها عبر إضفاء دلالات روحية على أحداثها، وسيضيفون إليها من جانبهم أحداثاً ووقائع لا وجود لها في الأصل القرآني، ناهيك عن الأصل التوراتي أو التلمودي البعيد، كما فعل الشاعر عبد الرحمن الجامي في تحفته الجميلة (يوسف وزليخا).

أما عن يعقوب القرآني فمن المعلوم أنه لم يظهر على صفحات القرآن المكي إلا مع قصة يوسف، ولم يشر القرآن من قريب أو من بعيد إلى ما اهتمت به الرواية التوراتية - لأسباب تخصها - من تلك الأحداث من سيرة حياته الحافلة بالعجائب والغرائب، ولا حاجة لنا إلى القول بأن النبي محمدا ما كان يوافق أبداً على ما جاء في سيرة يعقوب التوراتي من تدليس وغش وكذب ومخاتلة وجبن، وهي صفات تمنحه بلا منازع لقب البطريرك الأسوأ في التاريخ الديني اليهودي - المسيحي كله.

ليس من المقبول أن ننهي هذا الفصل عن يوسف قبل أن نقول كلمة موجزة عن قيمة تلك القصة كما جاءت في الروايات الدينية عامة، وكما جاءت في القرآن الكريم على وجه الخصوص - على الرغم مما قلناه عنها ومن اعتقادنا في الضعف الشديد

لمصداقية أحداثها التاريخية-، فمن المعروف أن الناظرين في تلك القصة وأمثالها في القرآن الكريم لا يخرجون عن نظرتين أساسيتين، ترى أولها في تلك القصة - مثلا - أنها قصة تاريخية بالمعنى الحرفي للكلمة؛ أي أن القرآن يقرر حقائق تاريخية لا شك فيها، وعلى الناظر في تلك القصة أن يستخرج منها تاريخ الأمم السابقة، تماما كما يقرأ المرء وثيقة تاريخية لا سبيل للشك فيها، بل إنها تفوق من تلك الناحية أي قصة أخرى أوردها المؤرخون، وتواترت الروايات التاريخية لإثباتها ؛ لأنها كلام الله رب الزمان، وهو الذي يقص بنفسه على عباده طرفاً من علمه المحيط الشامل، وعلى هذا فينبغي أن تصحح هي الوقائع التاريخية كما أثبتها المؤرخون، بل وكما رآها شهود العيان، لا أن تمتحن تلك القصة إلهية المصدر فيقبل منها أو يرفض في ضوء الكشوف التاريخية التي تعضدها أو توهنها، وهذه هي النظرة التقليدية لعموم المؤمنين كما يعبر عنهم هذا المؤرخ والباحث الجليل: (وليس من شك في أن القرآن الكريم إنما يقدم لنا عن طريق القصص القرآني معلومات هامة وصحيحة تماماً عن عصور ما قبل الإسلام وأخبار دولها أيدتها الكشوف الحديثة كل التأييد، وعلى سبيل المثال فإنه يقدم لنا عن طريق قصة الكليم - عليه السلام - كثيراً من المعلومات الملكية الإلهية في مصر الفرعونية وعن الأحوال السياسية والاقتصادية والاجتماعية فيها، والأمر كذلك بالنسبة إلى قصة الخليل صلوات الله وسلامه عليه حيث يقدم لنا الكثير من المعلومات عن العراق القديم وأما عن بني إسرائيل فإنه ليس هناك من شك من أنه ليس هناك كتاب سماوي حتى التوراة نفسها قد فصل الحديث عن بني إسرائيل وأفاض في وصف يهود وأحوالهم وأخلاقهم وأبان مواقفهم من الأنبياء كما فعل القرآن الكريم وصدق الله العظيم إذ يقول (إن هذا القرآن يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم يختلفون فيه [152])).

وهناك من ينظر إلى تلك القصة باعتبارها قصة تقرأ لعبرتها ودلالاتها الأخلاقية فحسب، ولا تراد لأخبارها التاريخية، فهي كما يرى مفكر جليل القدر وهو الأستاذ عباس العقاد إذ يقول عنها وعن القصص القرآن عامة وعلاقته بالتاريخ:

(هذا هو الشطر الأكبر من القصص القرآنية يُراد به تعليم المصلحين وتربية الهداة، ولا يراد به سرد أخبار التاريخ إلا في عرض القصة حيث يقتضيه السياق وإن في القرآن الكريم لقصصاً شتى من غير قصص الدعوة أو قصص الجهاد في تبليغ

---

[152] دراسات تاريخية من القرآن الكريم ج1 محمد بيومي مهران – ج1- ص 9، 10

الرسالة، ولكنها تراد كذلك لعبرتها ولا تراد لأخبارها التاريخية، ومنها قصة يوسف، ويصح أن تحسب منها قصة إسماعيل عليهما السلام فقصة يوسف قصة إنسان قد تمرس من طفولته بآفات الطبائع البشرية من حسد الإخوة إلى غواية المرأة، إلى ظلم السجن، إلى تكاليف الولاية وتدبير المصالح في إبان الشدة والمجاعة وقصة إسماعيل تتخللها هذه التجارب الإنسانية في عهد الطفولة كذلك فيصيبه نظام الأسرة باختلاف مكانة الزوجة السيدة والزوجة المستعبدة، وتصيبه الغربة المنقطعة عن العشيرة وعن الزاد وعن الماء، وتكتب عليه ضريبة الفداء وهي في مفترق الطريق بين الهمجية التي كانت لا تتورع عن الذبائح البشرية، وبين الإنسانية المهذبة التي لا تأبى الفداء بالحياة، ولكنها تتورع عن ذبح الإنسان، ثم يكتب لهذا الغلام الطريد الوحيد أن ينمى إليه أمة ذات شعوب وقبائل تتحول على يديها تواريخ العالم على مدى الأيام ويشتمل القرآن على قصص غير قصص الأنبياء في دعواتهم وغير قصص الأنبياء في تجاربهم الإنسانية ومنها قصص الملكين، والفتية من أهل الكهف وما جاء على ألسنة النمل والنحل والطير وما ختمت به قصص الرسالة في دعوة نبي الإسلام - عليه السلام - وكلها ينبغي أن تقرأ كما تقرأ عظات الهداية وأماثيل العبر، وكلها مع ذلك يحتاج إلى الفهم والبديهة من المؤرخ الأمين قبل التهجم عليه بمقياس التاريخ الناقص الذي لا يصلح لقياس الحقائق الوجدانية وأولها حقائق الأديان[153].)

وقد آثرنا أن ننقل رأي المرحوم العقاد - على طوله - لأنه يلخص أفضل تلخيص رأي من قال بتلك النظرة، رغم أن هذا الذي قاله الأستاذ عباس العقاد ما هو إلا بيان وتفصيل عميق لما سبق، وأن قال به الإمام محمد عبده، وسيُبنى على أساس من قول الأستاذ الإمام - أيضاً - الأستاذ محمد خلف الله ما سيبنيه من اعتبار القصص القرآني قصصاً أدبياً، ولكن سيتفق الجميع على أن الغاية منه ما هي إلا العظة والاعتبار لا أحداث التاريخ ووقائعه.

}قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ مَا مِثَالُهُ : بَيَّنَّا غَيْرَ مَرَّةٍ أَنَّ الْقِصَصَ جَاءَتْ فِي الْقُرْآنِ لِأَجْلِ الْمَوْعِظَةِ وَالِاعْتِبَارِ لَا لِبَيَانِ التَّارِيخِ وَلَا لِلْحَمْلِ عَلَى الِاعْتِقَادِ بِجُزْئِيَّاتِ الْأَخْبَارِ عِنْدَ الْغَابِرِينَ، وَإِنَّهُ ليحكي مِنْ عَقَائِدِهِمُ الْحَقُّ وَالْبَاطِلُ، وَمِنْ تَقَالِيدِهِمُ الصَّادِقُ وَالْكَاذِبُ، وَمِنْ

[153] عباس محمود العقاد - الإسلام دعوة عالمية - الهيئة المصرية العامة للكتاب 1999م – ص166

عَادَاتِهِمُ النَّافِعُ وَالضَّارُّ، لِأَجْلِ الْمَوْعِظَةِ وَالْاعْتِبَارِ، فَحِكَايَةُ الْقُرْآنِ لَا تَعْدُو مَوْضِعَ الْعِبْرَةِ وَلَا تَتَجَاوَزُ مَوْطِنَ الْهِدَايَةِ،[154].}

والحقيقة أن هذه النظرة المستنيرة لفهم القصص القرآني وإن أفادت في علاج بعض آلام العقل المؤمن بحرفية النصوص الدينية، والذي يزعجه أيما إزعاج ما تحفل به الروايات الدينية جميعا من تصورات خرافية، ومفاهيم غير تاريخية لكنها برغم هذا كله - في اعتقادنا - مجرد حل هروبي لمواجهة تلك المشكلة العويصة؛ إذ يقف دون قبول هذا الرأي حاجز لا يمكن تخطيه أو عبوره، وهو ما نصت عليه الآيات القرآنية مراراً - وعلى نحو لا لبس فيه - على تاريخيتها الكاملة، ولا نشك في أن النبي محمد لو سمع بشيء من تلك الآراء، لما وجد فيها سوى كفراً بواحاً، وتكذيباً صريحاً لما جاء به؛ فلماذا إذن نأتي بحلول تتعارض مع ما نصت عليه تلك النصوص وتتعارض مع اعتقاد أصحابها فيها ؟.

أما مَن ينطلق من اعتبار أن النبوة في جوهرها ما هي إلا وَثبات إدراكية لأرواح سامية كانت تُستلهم من نبع الغيوب - سبحانه- بعض الكشوف عن الحقائق الكلية، لكنها عندما تثوب إلى نفسها فلابد لها وأن تُترجم ما استلهمته ببصيرتها المسددة من رب الهداية كلها داخل أبنية معارف عصرها، وداخل حدود مفاهيمهم الثقافية واللغوية فهي على هذا تجمع -على أقصى تقدير- بين شذرات من المعرفة الإلهية الصحيحة التي ينبغي لكل مؤمن بأي دين من تعظيمها وإجلالها، ولكنها في النهاية تعبر أساساً عن ثقافة تلك المجتمعات التي خرجت منها والتي كانت تجمع في ثقافتها بين الصحيح والخاطئ، وبين الحقيقي والمُتوهم .

لذا، فلا سبيل إلا بتقديم حل جذري واضح، ولا لبس فيه لتلك الإشكالات، ولا أوضح من أن يقول المرء - ككاتب هذه السطور - أنه وإن امتلأ قلبه بالتوقير والإجلال الكاملين لمستلهم القرآن الكريم إلا أنه يرى أن النبي، وعلى الرغم نُبل مقصده، وشرافة غرضه فقد كان ينطلق من معارف تاريخية خاطئة، كان يصدقها في نفسه تمام التصديق، وبنى على أساس منها تصوراً دينياً جليلاً يستحق في كثير من جوانبه الإعجاب والتقدير، إنما لا يصح أبداًَ أن يقال بأنه كان لا يعني ما يقول، أو أنه كان

---

(154) تفسير المنار - ج1 ص 330

يضرب أمثالاً لا يقصد من ورائها إلا العظة والعبرة!، فهذا يجانب الحقيقة الجلية التي يخرج بها كل قارئ للقرآن الكريم، وإنما على المرء أن يبحث عن تفسير للنبوة يجمع له - عليه السلام - بين صدقه الذاتي ونبل مقاصده دون أن يتغافل في الوقت ذاته على ما تأسست عليه رؤيته من معارف تاريخية خاطئة، ما سنحاول - رغم بؤس ملكاتنا - أن نقوم به بعد أن نفرغ من تقديم بعض النماذج التطبيقية لقصص القرآن الكريم.

الفصل الثاني

الجن في القرآن الكريم

المبحث الأول: الجن بين الجاهلية والإسلام
المبحث الثاني: قصة النبي مع الجن في القرآن
المبحث الثالث: هل يفلح التأويل ؟

المبحث الأول: الجن بين الجاهلية وبين الإسلام .

(لقد كان لعرب ما قبل الإسلام - أول من خاطبهم القرآن- حب عظيم للطبيعة، وتميزوا مثل جميع البداة الضاربين في الفيافي الواسعة للطبيعة العذراء بحدس عميق لوجود اللامرئي في المرئي، وقد أكد الإسلام الذي حافظ على الصورة البدوية الروحانية السامية هذه السمة، وجعل من الطبيعة بستاناً عظيماً تتواجد فيه آثار صنعة البستاني اللامرئي باستمرار[(155)]).

من المعلوم أنه لا أحد يعلم شيئاً ذا بال عن أصول المعتقدات الخرافية التي شاعت في الثقافات البشرية عبر تاريخنا الطويل، وسبب ذلك واضح ويسير؛ وهو أن معظم الخرافات البشرية التليدة - مثلما يُحكى عن العنقاء التي تبعث من الرماد، وحكاية الحصان المجنح، وقصص عرائس الماء التي تغوي من يركبون البحر، وما أشبه ذلك من معتقدات شعبية نجدها حاضرة دوماً في ثقافة كافة الأمم - تضرب بأصولها عميقا في ظلمات عصور ما قبل التاريخ حتى خفيت - أو كادت- عن البشر جذورها، وللتعرف على أصول تلك الاعتقادات فلابد من العودة بعيداً إلى الظروف التاريخية والنفسية المصاحبة لظهورها، وهو ما لا سبيل إليه في أكثر الأحيان .

ومن ناحية أخرى فلا خلاف على أن الظهور الفجائي للإسلام على مسرح التاريخ كان نقلة حاسمة في تطور الثقافة العربية ؛ حيث أطاحت تلك العقيدة الظافرة بكثير من المعتقدات الشعبية المتجذرة بين سكان الصحراء العربية - مثل اعتقادهم في الغيلان التي تتلون في الصحراء لتضل المسافرين وتهلكهم، والهامة العطشى للدم والداعية للثأر، والصدى، والهواتف والتعشير، والصفر وما إلى ذلك، ولكن - وعلى المقابل - فقد استبقى الإسلام بعضاً من أعرق تلك الاعتقادات العربية الخرافية ومنحها حياة أبدية حيث ظلت - على سبيل المثال- عقيدة الجن العربي راسخة متجذرة في الثقافة الإسلامية بعدما تلقت تلك العقيدة الشعبية العتيدة دَفعة قوية على يدي النبي محمد، واستكملت ملامحها في القرآن الكريم وفي أحاديث النبي وفي المخيال الشعبي للمسلمين عبر العصور التالية؛ لكي تعيش تلك الخرافات مجدداً ، ولكن ليس كمعتقدات شعبية - يؤمن

---

(155) مقدمة إلى العلوم الكونية الإسلامية - سيد حسين نصر - ترجمة سيف الدين القصير - الطبعة الأولى 1991م - دار الجوار للنشر والتوزيع - اللاذقية - سوريا - ص 16

بها من يشاء ويجحدها من يشاء - بل صارت بدلا من ذلك من بين أهم مقررات الإيمان القويم لمئات الملايين من البشر، وعلى صهوات الخيول انطلقت عقيدة الجن العربية من تلك البقعة الصغيرة لتشمل العالم الواسع كله .

ما الجن ؟

(قال أبو محمد : لم ندرك بالحواس ولا علمنا وجوب كونهم ولا وجوب امتناع كونهم في العالم - أيضاً - بضرورة العقل لكن علمنا بضرورة العقل إمكان كونهم، لأن قدرة الله تعالى لا نهاية لها وهو عز وجل يخلق ما يشاء، ولا فرق بين أن يخلق خلقا عنصرهم التراب والماء فيسكنهم الأرض والهواء والماء، وبين أن يخلق خلقا عنصرهم النار والهواء، فيسكنهم الهواء والنار والأرض، بل كل ذلك ممكن في قدرته، لكن لما أخبرت الرسل الذين شهد الله عز وجل بصدقهم بما أبدى على أيديهم من المعجزات المحلية للطبائع - بنص الله عز وجل على وجود الجن في العالم، وجب ضرورة العلم بخلقهم ووجودهم، وقد جاء النص بذلك وبأنهم أمة عاقلة مميزة متعبدة، موعودة متوعدة متناسلة يموتون، وأجمع المسلمون كلهم على ذلك، نعم والنصارى والمجوس والصابئون وأكثر اليهود حاشا السامرة فقط، فمن أنكر الجن أو تأول فيهم تأويلا يخرجهم به عن هذا الظاهر فهو كافر مشرك حلال الدم والمال[156]).

لعل تعريف ابن حزم السابق للجن ووصفه لعالمهم: (بأنهم أمة عاقلة مميزة متعبدة، موعودة متوعدة متناسلة يموتون)، يصلح كمثال واضح لبيان تلك المسافة البعيدة التي قطعتها عقيدة الجن، وتطورها الخاطف من تلك العقيدة العربية الساذجة - والتي شاعت أشباهها بين جميع الأمم القديمة - وبين ما صارت إليه تلك العقيدة في الإسلام؛ أي وفق تلك الصورة المركبة الراقية، والتي ظن ابن حزم أنها مما اتفقت عليه جميع الأمم التي ذكرها.

أما الحقيقة الواضحة فهي أن ذاك التعريف للجن وعوالمهم هو من ابتكارات نبي الإسلام وإبداعاته حتى ليصعب - على رجل مخضرم أدرك الجاهلية والإسلام - أن

(156) الفصل في الملل والأهواء والنحل - ابن حزم الأندلسي- - دار الجيل - بيروت - لبنان - تحقيق : محمد إبراهيم نصر و عبد الرحمن عميرة الطبعة الثانية 1996م - ج5 ص111

يتعرف بسهولة على صورة الجن في الجاهلية - كما كان يعتقدها -، ويستبين ملامحها القديمة في ذاكرته، بعد كل تلك التطورات الكبيرة التي لحقتها على يد النبي محمد، وهو الأمر الذي يجعل من تلك العقيدة نموذجاً - بالغ الندرة - للعقائد الخرافية التي نعرف - يقيناً - مقدار مساهمة عقل ومخيال رجل واحد في تطويرها، ويرجع السبب في ذلك إلى أن حدث الإسلام كعقيدة وانطلاقه كرسالة عالمية كان مما تشكل بسرعة خاطفة تحت سمع التاريخ وبصره على خلاف كل الديانات الكبرى السابقة عليه، ولن نحتاج لكي نتعرف بدقة على مقدار مساهمة النبي في تطوير تلك العقيدة سوى أن نتعرف على المواريث الثقافية التي انطلق منها النبي، ونرى كيف كانت هيئة تلك اللبنات الأساسية التي منحت النبي المادة الأولية لهذا العالم، ثم ننظر لما صارت إليه تلك المادة في الإسلام.

وعليه، فسنقدم هنا - وبإيجاز شديد- معالم عقيدة الجن عند العرب قبل الإسلام، ثم نثني بعرض مختصر لما جاء عن الجن والشيطان في المرويات الكتابية، ثم سنقارن بين ما جاء به الإسلام موافقاً أو مخالفاً لهاتين العقيدتين، لنخلص من ذلك إلى ما يصح أن يسمى بالإسهامات المحمدية في هذا الشأن، وقبل أن نفعل ذلك فيجدر بنا القول بأنه ليس من اليسير أن يتثبت المرء تماماً من طبيعة اعتقادات عرب الجاهلية عن الجن وعالمهم بعد ما أحدثه الإسلام من مزج شديد بين اعتقادات العرب في الجاهلية وبين ما قبله النبي من اعتقادات اليهود وأساطيرهم عن الجن والشياطين - كما سنرى - إلا أننا ورغم ذلك - يمكننا أن نستخلص من نصوص القرآن وما ساقه فيها عن اعتقادات عرب الجاهلية ما كان يشكل بعض المعالم الأساسية لعالمهم، مضافاً إليه ما لا يُستغرَب وجوده ومما شاع شبيهُه في قصص الجن والشياطين عند الشعوب الأخرى..

أما عن بقية هذا التراث العربي الشاسع شعراً وقصصاً والذي حفل بالحديث عن الجن وقصص الجاهليين معها، فلا نشك أن بعضه تراث صحيح النسب إلى الجاهليين ولا نشك - أيضاً - في أن أكثره تراث موضوع ، مصنوع ، حتى صار من المتعذر أن يتثبت المرء من وجود إجابة حاسمة عن هذا السؤال العسير: هل ما تصوره تلك القصص والأشعار المُلفقة - والتي رويت في الإسلام وفي ظلال مفاهيمه - يرجع إلى عقيدة جاهلية خالصة؟، أم أنها نسجت ولفقت على أساس من تلك الصورة التركيبية المُحدثة التي جاء بها الإسلام؟...!

أما عن حجم تلك المادة الهائل في تراثنا الأدبي القديم - شعراً ونثراً- فلا غرابة في سعة هذا الباب؛ وذلك لوجوده - يقيناً - في أصول اعتقاد عامة العرب في الجاهلية واستمراره في الإسلام، وما ظننا بموضوع كهذا يأخذ مادته من حكايات الأعراب وخرافاتهم المثيرة المسلية، وأيضا ما جاء عن تلك العقيدة في أشعار العرب مما أبدعته قرائح الشعراء وتخيلاتهم، مضافا إليهما تضمنته عقيدة الإسلام وما توسع فيه - بعد ذلك - مفسرو القرآن وشارحو الأحاديث النبوية، وما استنبطه الفقهاء من أحكام شرعية لوضع ضوابط للعلاقة بين أهل هذين العالمين إذا ما التقيا، وما قد يترتب على اختلاطهما من نتائج؟!، ولكن لا يعنينا من هذا كله سوى ما يُعيننا على الوقوف على معالم تلك العقيدة - ولو في خطوطها العامة - فهو كاف لما تستهدفه هذه الصفحات.

أولا: الجن قبل الاسلام:

(1)

(ورأيت للأعاريب من الأعاجيب في باب الجن ما لا يوصف[157])

يرجح كثير من الباحثين في تاريخ ديانة العرب على أن صورة الوثنية العربية قبيل الإسلام ربما كانت هي الصورة الأقرب لما كانت عليه اعتقادات الشعوب السامية القديمة جميعا، ومع ذلك فنحن لا نعرف الشيء الكثير عن تصورات عرب شمال الجزيرة عن آلهتهم، ولا نعرف على نحو دقيق كيف كانت علاقتهم بعالم الموتى وبعالم الأرواح من حولهم، وجل ما بلغنا عنهم في هذا الشأن يدل على اضطراب شديد في تصوير تلك العلاقة، ففي مقابل فيض المعارف الغزيرة عن السامية الجنوبية كما كشفت عنها الدراسات الحديثة، فقد جاءت معارفنا عن الوثنية الشمالية مضطربة ومشوهة ؛ وذلك للنقص الشديد في النقوش والقيود الأثرية التي تكشف عن عالمهم الثقافي بشكل دقيق: (إذا كانت ديانة عرب بلاد الشام تشكو من قلة الوثائق وتبعثرها، فإن ديانة عرب الشمال تشكو من انعدام الوثائق الكتابية والفنية انعداما تاما والباحث في هذا المجال مضطر إلى الاعتماد على مصادر متأخرة على ظهور الإسلام بنحو قرنين على الأقل[158]) .

جاءنا أوثق ما عرفناه عن عقائد الجاهليين مما أورده عنهم القرآن الكريم - وهو لا يحيط - بداهةً - بتصوراتهم الدينية؛ حيث اقتصر القرآن على عرض آراءهم في بعض النقاط المحدودة التي جادلهم النبي بشأنها. وجاءنا أكثر ما عرفناه عنهم فيما أوردته قصص العرب وأشعارهم، ولا ندري إلى أي مدى تعكس تلك القصص تصوراتهم الدينية بشكل دقيق، هذا مع التسليم بصحة نقله.

تنتمي العقائد العربية قبيل الإسلام وتصوراتها عن الآلهة والأرواح - بوجه عام - إلى ما يسميه الباحثون بالوثنية العليا ؛ أي إلى ذلك الطور المتأخر الذي نما وتطور عن اعتقادات دينية سابقة كانت أشد بدائية، ولكننا لا نعرف بوضوح إلا صورتها

---

(157) ربيع الأبرار ونصوص الأخيار- جار الله الزمخشري - مؤسسة الأعلمي، بيروت الطبعة: الأولى، 1412 هـ- ج1 ص316

(158)موسوعة تاريخ الأديان - الكتاب الثاني - مصر - سورية - بلاد الرافدين - العرب قبل الإسلام - تحرير فراس السواح : ترجمة ديميتري أفينيريوس وآخرون - دار التكوين - دمشق - سوريا -الطبعة الرابعة 2017م- ص323

المتأخرة تلك، وأما أصولها الموغلة في القدم فليس لدى الباحثين سوى حدوس وفروض متباينة لنشأة تلك الاعتقادات الأسطورية.

من المعلوم أن الإنسان قد وجَّه جميع مواهبه منذ أقدم أيامه لتسخير عالم الأرواح، وجعله في خدمته وتحت تصرفه، أو لتحويله بحسب رغباته، وتجنب ضرره وأذاه. قام بذلك رجال الدين خاصة، ورجال الدين بحكم اتصالهم بالآلهة وبالعالم غير المنظور، هم خلفاء الآلهة على وجه الأرض، وألسنة الأرواح الناطقة بين الناس. فكانوا حكاماً ورجال دين وسحرة وأطباء وعلماء، كما قام بذلك المنجمون والسحرة والكهان وغيرهم ممَن تكهن وتحدث عن الغيب، وأظهر أن في قدرته التأثير على حياة الإنسان ونفعه وضره بالاستعانة بعالم الأرواح، وبما عنده من قدرات خارقة في إمكانها اختراق حَجب الأسرار والتحكم في العالم الخفي لتحويله إلى صالح إنسان إلى الإضرار به. (وليس الجاهليون بدعا في هذه الأمور، بل كان غيرهم من الشعوب كالعبرانيين والبابليين والإغريق والرومان والمصريين والهنود وكل الشعوب الأخرى تعتقد بذلك[159]).

ولا يعنينا من بين جميع اعتقادات العرب الكثيرة عن الموجودات الخفية التي كانت تحيط بعالمهم من كل جانب مثل الهاتف والرئي والغيلان والهامة سوى ما يتعلق بعقيدة الجن.

فقد عرفت العرب عقيدة الجن والشياطين شأنهم في ذلك شأن كثير من الشعوب القديمة الأخرى بل كانت هذه العقيدة فيما يبدو بالغة الأهمية وعظيمة التأثير في حياة العربي الجاهلي حتى ذهب بعض الباحثين إلى أنها ربما فاقت في تأثيرها تأثير حياتهم الدينية برمتها: (لقد لعب الإيمان بالجن عند بعض الجاهليين دوراً فاق الدور الذي لعبته الآلهة في مخيلتهم، فنسبوا إليها أعمالاً لم ينسبوها إلى الأرباب، وتقربوا إليها لاسترضائها أكثر من تقربهم إلى الآلهة. إنها عناصر مخيفة راعبة. تؤذي من يؤذيها ويلحق به الأذى والأمراض، ولذلك كان استرضاؤها لازماً لأمن تلك الآفات. وهذه العقيدة جعلت الجن في الواقع آلهة، بل أكثر سلطة ونفوذاً منها، وصيرت عمل الآلهة

[159] المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ج12ص 292

سهلاً يسيراً تجاه الأعمال التي يقوم بها الجن. ولا زال أثر هذه العقيدة باقياً في نفوس الناس حتى الأيام، مع تقليل أهمية عمل الجن على الإنسان في الإسلام[160].

أصل تلك العقيدة

أما عن أصل تلك العقيدة في الجن وعالمهم، فيرى بعض الباحثين أن عقيدة الجن ترجع في أصلها البعيد إلى الطوطمية: (فلا شك أن الجن بكل ما لهم من قوة غامضة ليسوا إلا صوراً من فصائل الحيوان أضفيت عليها سمات خارقة لا تنبت عن المفهوم البدائي للطبيعة الحية [161]).

ووفق هذا التفسير، فقد ساعدت مشاعر الرهبة والخوف في تعزيز تلك القناعات الخرافية فكل صوت في الصحراء العربية كان يؤخذ بداهة على أنه من رطانة الجن، وكل منظر غريب كان يظن أنه شبح شيطان، وأما الغيلان فلربما كانت تجسيماً مخيالياً لوحوش ليلية شريرة كانت تسكن في مساكن بعينها مثلما لاحظ - أحد ثقات الباحثين - وهو ما يُعضد لديه أصل هذا الاعتقاد العربي القديم في الجن فيقول:
(أنه إذا كان الجن يتردد على الخرابات والمناطق المهجورة بصفة عامة فإن مقارهم هي نفس تلك المواضع التي تزدحم بالوحوش وهي ليست القفار التي تنعدم فيها الحياة، بل المناطق والمعابر الجبلية وحول الأشجار والمروج وخاصة المواضع التي تزدحم بالأشجار في المناطق الرطبة بقيعان الوديان[162]).

ولم يكن المعتزلة - عقلانيو الإسلام - بعيدين جداً عن هذا التفسير السابق؛
فقد كان أبو إسحاق المتكلم، من أصحاب الجاحظ، يقول في الذي تذكر الأعراب من عزيف الجان، وتغول الغيلان: (أصل هذا الأمر وابتداؤه أن القوم لما نزلوا ببلاد الوحش عملت فيهم الوحشة، ومن انفرد وطال مقامه في الفلاة والخلاء والبعد عن الإنس، استوحش، ولا سيما مع قلة الاشتغال والمذاكرين؛ والوحدة لا تقطع أيامهم إلا بالمُنى

---

(160) (انظر المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام- ج12 ص 285)، وأغلب ما سنورده في هذه النقطة عن تشابه عالم الجن مع عالم الجاهليين فسوف نعتمد على مادته على ما أورده المرحوم العلامة جواد علي ففيه الكفاية

(161) محاضرات في ديانة الساميين - روبرتسن سميث- ترجمة د عبد الوهاب علوب - المجلس الأعلى للثقافة - القاهرة - 1997م - ص 126

(162) السابق ص 127

وبالتفكير؛ والفكر ربما كان من أسباب الوسوسة، وقد ابتلي بذلك غير حاسب.... وإذا استوحش الإنسان مثل له الشيء الصغير في صورة الكبير وارتاب وتفرق ذهنه، وانتفضت أخلاطه فيرى ما لا يرى، ويسمع مالا يسمع ويتوهم على الشيء الصغير الحقير أنه عظيم جليل، ثم جعلوا ما تصور لهم من ذلك شعرًا تناشدونه وأحاديث توارثوها فازدادوا بذلك إيمانًا ونشأ عليهم ناشئ، وربي به الطفل فصار أحدهم حين يتوسط الفيافي وتشتمل عليه الغيطان في الليالي الحنادس فعند أول وحشة أو فزعة وعند صياح بوم ومجاوبة صدى تجده وقد رأى كل باطل وتوهم كل زور، وربما كان في الجنس وأصل الطبيعة نفاجًا كذابًا وصاحب تشنيع وتهويل فيقول في ذلك من الشعر على حسب هذه الصفة، فعند ذلك يقول: رأيت الغيلان وكلمت السعلاة، ثم يتجاوز ذلك إلى أن يقول: قتلتها، ثم يتجاوز ذلك إلى أن يقول: رافقتها، ثم يتجاوز ذلك إلى أن يقول: تزوجتها....[163]).

وأما عن أساس هذا الاعتقاد الجاهلي نفسه والبحث عن مدى أصالة عقيدة الجن عند العرب أو استعارتهم له من جيرانهم فلا تهمنا إجابة هذا السؤال في شيء، بل يكفي أن نطمئن بهذا القدر أو ذاك - إلى ما كان موجوداً من تلك الاعتقادات الخرافية قبيل الإسلام ؛ لأن كل ما يعنينا هو أن نتعرف على طبيعة تفاعل النبي مع معتقدات عصره الثقافية وكيف كانت استجابته المخيالية مع تلك المواريث أما ذاك الإرث الثقافي في ذاته فنتركه لأصحابه من الاختصاصيين المتعمقين[164] .

(2)
خطوات على الطريق الطويل .

قبل أن نعرض لصورة الجن في الاعتقادات الجاهلية قبيل الإسلام فيحسن أن نقدم هنا خارطة عامة تحدد معالم تطور العقائد الدينية في الأرواح بوجه عام لما ستكشفه تلك الخارطة في بيان حظ تلك العقيدة العربية من الرقي أو التخلف قياساً بمعراج التطور الاعتقادي العام، وحيث سنرى - على هدي منها - كيف طوي الإسلام عدة مراحل

---

(163) تاريخ آداب العرب- مصطفي صادق الرافعي - دار الكتاب العربي - ج1 ص234

(164) عن تلك القضية راجع فصل : (خرافات الجن والشياطين والعفاريت والرياح) - شوقي عبد الحكيم- مدخل لدراسة الفولكلور والأساطير العربية - مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة - القاهرة 2015م - ص 109 وما بعدها

تطورية دفعة واحدة، وستفيدنا في بيان الخطوة الفسيحة التي قطعها الإسلام متجاوزاً بها عقائد العرب الجاهليين تماما، مثل من يقيس الفارق بين ارتفاع تل متواضع، وبين ارتفاع جبل شاهق.

ولعل أفضل تلخيص لتلك المرحلة الطويلة التي عبرها الإنسان البدائي من خطواته الأولى حيث لا تمييز بين خير وشر، ولا بين إله وشيطان حتى وصل إلى مفهوم قوة الشر العالمية، أو الكونية كما ستتجلى في ديانة التوراة - أول الأديان الكتابية - هو ما قدمه الراحل الأستاذ عباس العقاد : (ففي البداية آمن الإنسان بالأرواح والأطياف في أول عهده بالدين في الهمجية الأولى. وآمن منها بما يرجوه ويخشاه ولكن كما يرجو النفع من كل شيء يحيط به وتتعلق به المنافع والمضار، ولم يكن للتفرقة بينهما معنى في مقياس الأخلاق أرفع من معنى التفرقة بين الحيوان الأنيس والحيوان الضاري ثم خطا في طريق التدين خطوة أخرى حين قسم الأرواح والأطياف إلى طيب وخبيث واحتاج إلى الكاهن والساحر ليروض له الخبث بالرقي والتعاويذ ويجزي عنه الطيب بالدعوات والقرابين وعمل التخصص عمله البطيء فانفصل دور الدعاء عن دور السحر وإن عمل فيهما كاهن واحد ثم خطا الإنسان خطوة أخرى من التمييز بين المنفعة والمضرة وبين المنفعة التي تصدر على الدوام من الطيبة وحسن النية، والمضرة التي تصدر على الدوام من طبع خبيث ونية سيئة، ولم يكن أمامه في هذه الخطوة مثل على الشر الخبيث الذي يضمر السوء ويتوارى عن النظر - أقرب إلى الحس والخيال من الحية التي تزحف على التراب وتندس في الجحور كيدا وخديعة وتمكنا من الدس والأذى فيما توهمه ولم يكن في وسعه أن يتوهم شيئا سواه، ولهذا بقيت الحية مقترنة بقوة الشر حقيقة أو رمزاً إلى أحدث العصور، وعاش الإنسان عصوراً مديدة يعمل الأعمال أو يتركها لأنها مأمونة نافعة أو محذورة وخيمة العواقب، فلما أخذ يعملها أو يتركها لأنها واجبة مطلوبة أو لأنها محرمة محظورة كانت هذه خطوته الأولى في طريق التمييز بين الواجب والمُحرَم وبين الخير والشر في أضيق الحدود ولم يزل خيره وشره خير قبيلة واحدة أو شر قبيلة واحدة حتى تجمعت القبائل في أمة ذات مجتمع واحد وشريعة واحدة، فعمت نظرته إلى الشر والخير ولم تزل تتسع في عمومها حتى برزت في ذهنه فكرة (النوع الإنساني)، ووُجدت مع هذه الفكرة الرفيعة فكرة أرفع منها وأشرف جداً في مغازيها وثمراتها وهي فكرة الإنسان عن ضمير الإنسان ولم يكن في الوسع أن يعقل

شيئاً عن (الضمير الإنساني) قبل أن يعرف أن الإنسان نوع واحد من وراء العشائر والقبائل والشعوب والأقوام [165]).

عالم الجن العربي

أما عن الملمح الأساسي عن عالم الجن عند العرب الجاهليين فهو أنه جاء مطابقاً لعالمهم المنظور حتى حُق - لبعض الدارسين أن يقدم لنا هذا التلخيص الجامع للعلاقة بين العالمين: (فنحن إذاً أمام حياة جاهلية مستترة غير منظورة، هي حياة جن جاهليين[166].)

أما تفصيل ذلك فقد كانت الجن - في اعتقاد العرب - تتألف من عشائر وقبائل تربط بينها رابطة القربى وصلة الرحم. وهي كعشائر وقبائل جزيرة العرب، تتقاتل فيما بينها، ويغزو بعضها بعضًا. ولها أسماء ذكر بعضًا منها أهل الأخبار، كما أن لها ملوكاً وحكاماً وسادات قبائل. فهي في حياتها تحيا على شكل نظام حياة الجاهليين[167]. وإذا اعتدى مُعتدِ على جان انتقمت قبيلته كلها من المعتدي أو المعتدين. وبين قبائل الجن عصبية شديدة، كعصبية القبيلة عند الجاهليين، وهي تراعي حرمة الجوار، وتحفظ الذمم والعقود، وتعقد الأحلاف.... وقد تتقاتل طوائف من الجن، فيثير قتالها عواصف الغبار، ولذلك فسر الجاهليون حدوث العواصف والزوابع بفعل الجن ...

ويروي أهل الأخبار أن الجن تتصادق مع الإنسان وتتباغض معه، وقد تقتله، ورووا في ذلك قصصًا، وذكروا أنها قد تتألم لوفاة رجل طيب أو شهير محبوب. وقد تعطف على المحتاجين والمعوزين. وذهب الجاهليون إلى جواز قتل الجن للإنسان. وقد بقي هذا الاعتقاد في الإسلام[167]، وقد يقع الحب بين الجن والإنس. فقد ذكر أن الجنية قد تتبع الرجل تحبه، ويقال لها: تابعة. ومن ذلك قولهم: معه تابعة، أي من الجان والتابعة جنية تتبع الإنسان. كما يكون للمرأة تابع من الجن، يتبع المرأة يحبها. وقد يعشق الجني امرأة ويتصادق معها. وقد يسرق الجن الأطفال والرجال والنساء. وينسب فقدان الأشخاص في البوادي إلى الجن في الغالب، وقد يعود من استهوته الجن وقد اقتبس منهم علماً، مثلما نقل ابن خلدون عن تبع بن حسان الحميري (ثم رجع تبع بن حسان من

---

(165) (عباس محمود العقاد - إبليس ص 85- 86- منشورات المكتبة العصرية صيدا بيروت

(166) (المفصل 12ص 287) وسننقل هنا منتخبات مما أورده صاحب المفصل عدا ما سنضعه بين قوسين من أقوال سواه

(167) السابق ج12ص 289

استهواء الجن وهو أعلم الناس بنجم وأعقل من يعلم في زمانه وأكثرهم حديثا عما كان ويكون...[168]).

والجن قد تنفع الناس - أيضا - ، لأن من الجن من هو طيب النفس، مفيد نافع،ولا سيما إذا ما تقرب إليها الإنسان وأحسن إليها. وقد يتصاهر الإنسان مع الجن، وتقوم الجن بأعمالها بشكل غير منظور في الغالب، لأنها أرواح. وهي قد تحذر الإنسان أو ترشده إلى شيء يريده بصوت جمهوري مسموع، يقال له: الهاتف، دون أن يرى الشخص أو الأشخاص صاحب ذلك الصوت. وهي تنبئ عن المستقبل كما تتحدث عن الماضي، والجن وإن كانت من الأرواح، أي أنها غير منظورة، إلا أن في استطاعتها أن تتجسم متى شاءت. فتظهر على هيئة جسم من الأجسام. إذ إن للجن قدرة على التشكل بالشكل الذي تريده، تظهر في صورة حيوان أو في صورة إنسان أو غير ذلك. ومن هنا نجد قصص مصاهرة الإنسان للجن، وظهور نسل وأسر من هذا الزواج.

وفي استطاعتها - أيضا - تغيير الشكل الذي ظهرت به بشكل آخر حيث تشاء: (وكانت العرب تعتقد في ان الجن تتجسد في هيئة الحية لذا فقد كانوا يتجنبون قتلها خوفا من ثأر الجن وأهم مواطن الجن في نظر الجاهليين، هي المواضع الموحشة، والأماكن المقفرة التي لا تطرق إلا نادرا والمحلات التي لا تلائم الصحة، والمقابر، والأماكن المظلمة، والمهجورة. ففي مثل هذه المواطن تنزل الجن، وتفضل الإقامة بها)، (وتزعم الأعراب أن الله عز ذكره حين أهلك الأمة التي كانت تسمى وبار، كما أهلك طسما، وجديسا، وأميما، وجاسما، وعملاقا، وثمود وعادا- أن الجن سكنت في منازلها وحمتها من كل من أرادها، وأنها أخصب بلاد الله، وأكثرها شجرا، وأطيبها ثمرا، وأكثرها حبا وعنبا، وأكثرها نخلا وموزا. فإن دنا اليوم إنسان من تلك البلاد، متعمدا، أو غالطا، حثوا في وجهه التراب، فإن أبى الرجوع خبلوه، وربما قتلوه[169].)

وقد ورد مثل هذه الأقوال عن مواضع أخرى كانت عامرة آهلة، ثم أقفرت، مثل الحجر موضع ديار ثمود مما يدل على أن من اعتقادات العرب قبل الإسلام هو أن المواضع التي تصيبها الكوارث تكون بعد هلاك أصحابها مواطن للجن. ونجد مثل هذه الأساطير عند العبرانيين وعند غيرهم من الشعوب. والمواضع المذكورة هي المواضع

---

[168] تاريخ ابن خلدون - تحقيق خليل شحادة - دار الفكر بيروت - الطبعة الثانية - 1988م - ج2 ص 327

[169] (انظر ج6 ص 427- الحيوان - الجاحظ - دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الثانية - 1424ه

المفضلة المختارة لسكنى الجن. غير أن مواطن الجن غير محدودة ولا معينة، إنها تسكن كل موضع ومكان، حتى بيوت الناس لا تخلو منها، بل حتى البحار والسماء لا تخلو منها كذلك، فدولتها إذاً على هذا الوصف أوسع من دولة الإنسان. وعلى من سكنت الجن بيته ألا يمسها بأذى ولا يلحق بها أي سوء، وأن يقوم بترضيتها بالبخور وبما شاكل ذلك مما تحبه الجن، وإلا أساءت إليه، وجعلت بيته مؤذياً شؤماً،
لا يرى من يسكن فيه أي خير.

وأما عن تأثير الجن في عالم البشر فقد اعتقد العرب في أن الجن تسبب الأمراض للإنسان، فنسبت العرب الأمراض الخبيثة والخطيرة للجن فزعموا مثلاً أن الجنون وسائر الأمراض العصبية تحدث بسبب دخول الجن والشياطين في جسد الإنسان وسيطرتها عليه؛ لذلك لا يمكن شفاء من أصابه مس من الجن أو لوثة في العقل إلا بإخراج تلك الأرواح من جسده فكان علاجها من واجب الكهنة، ومن بين الأمراض التي نسبها العرب للجن الطاعون فزعموا أن الطاعون وخز وكانوا يسمونه وخز الجن واعتقد العرب أن السفعة هي نظرة الجن والمسفوع هو المعيون)، ونسبوا إلى الجن إحداث كثير من الأمور غير الطبيعية، مثل الأمراض والأوبئة ومرض الصرع والاستهواء والجنون خاصةً. فالجنون هو تلبُس الجن بالإنسان ودخولهم جسمه. لذلك ربطوا بين الجن والجنون.)، (والعرب تزعم أن الطاعون طعن من الشيطان، ويسمّون الطّاعون رماح الجنّ.[170])، (ومن مذاهب العرب أن لكل شاعر شيطاناً يلقي إليه الشعر وهذا مذهب مشهور بين العرب في الجاهلية [171])، وكانوا إذا قتلوا الثعبان خافوا من الجن أن يأخذوا بثأره [172]، وكانوا يعتقدون أن السفعة نظرة الجن..الخ .

سكنت الجن المواضع المظلمة والفجوات العميقة فيها وباطن الأرض، ولذلك قيل لها: ساكنوا الأرض. كما سكنت المقابر. والمقابر هي من المواضع الرئيسية المهمة المأهولة بالجن. ولذلك يخشى كثير من الناس ارتيادها ليلا. وهي لا بد أن تكون على هذه الصفة، فهي مواطن الموتى، وأرواح الموتى تطوف على القبور، والموت نفسه شيء مخيف، والجن أنفسها أرواح مخيفة، فهل يوجد موضع أنسب من هذا الوضع

---

[170] الحيوان ج 6 ص 429

[171] انظر : بلوغ الأرب ج2 ص 365)، والحيوان ج6- ص 433

[172] (بلوغ الأرب ج2 ص 358

لسكن الجن؟، وكان في اعتقادهم أن الأماكن المذكورة مليئة بالجن، لذلك كانوا يستجيرون برجال من الجن في أسفارهم، إذا نزلوا منازلهم، يقولون: نعوذ بأعز أهل هذا المكان، أو إني أعوذ بكبير هذا الوادي. وإلى ذلك أشير في القرآن الكريم: ﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦﴾ [الجِن : 6].

وذكر أهل الأخبار أن الجاهليين كانوا يرون أن الجن تعزف في المفاوز بالليل. والعزف والعزيف صوت الجن، وهو جرس يسمع بالمفاوز. وهو صوت يسمع بالليل كالطبل. وروي عن "ابن عباس" قوله: "كانت الجن تعزف بالليل كله بين الصفا والمروة". وقد ادعى أناس من الجاهليين إنهم كانوا يرون الغيلان والجن، ويسمعون عزيف الجان، أي صوت الجن. وقد بالغ الأعراب في ذلك، وأغربوا في قصص الجان، لما كانوا يتوهمونه من ظهور الأشباح لهم في تجوالهم بالفيافي المقفرة الخالية، فتصوروه جنًّا وغولا وسعالى، وبالغوا في ذلك - أيضا - ، لما وجدوه في أهل الحضر ولا سيما في الإسلام من ميل إلى سماع قصص الجان والسعالى والغول. وقالوا أنهم ربما نزلوا بجمع كثير، ورأوا خياماً، وقباباً، وناساً، ثم إذا بهم يفقدونهم من ساعتهم، وذلك لأنهم من الجن: (ويذكرون أن ابن امرأة من الجن أراد الحج في الجاهلية، فخافت عليه أمه من سفهاء قريش، ولكنه ألح عليها بأن تسمح له بالذهاب. فلما أكمل الطواف، وصار ببعض دور بني سهم، عرض له شاب منهم فقتله، فثارت غيرة شديدة بمكة، ومات من بني سهم خلق كثير قتلهم الجن انتقاما منهم لمقتل الجان، فنهضت بنو سهم وحلفاؤها ومواليها وعبيدها، فركبوا الجبال والشعاب بالثنية، فما تركوا حية ولا عقربا ولا عظاية ولا خنساء ولا شيئًا من الهوام يدب على وجه الأرض إلا قتلوه، حتى ضجع الجن، فصاح صائحهم من على أبي قبيس يطلب وساطة قريش بينهم وبين بني سهم الذين قتلوا منهم أضاف ما قتله الجن من بني سهم، فتوسطت قريش، وأنهي النزاع، وتغلب بنو سهم على الجن[173]).

والجن مثل البشر، يعتّدون كذلك، ولا يردعهم من اعتدائهم إلا بالقوة.

---

(173) (الأزرقي نقلا عن المفصل ج12 ص 288)

(هذا رجل من "بني سهم" يقص علينا في الإسلام إنه كان بـ "تبالة" يراجع نخلا له، وبين يديه جارية له، فصرعت، فأدرك أن الجن هم الذين صرعوها، فوقف عليها قائلا: يا معشر الجن! أنا رجل من بني سهم، وقد علمتم ما كان بيننا وبينكم في الجاهلية من الحرب وما صرنا إليه من الصلح والعهد والميثاق ألا يغدر بعضنا ببعض، ولا يعود إلى مكروه صاحبه، فإن وفيتم وفينا، وإن غدرتم عدنا إلى ما تعرفون. فخافت الجن من هذا التهديد، وأفاقت الجارية، ولم يصبها بعد ذلك مكروه[174]).

وأهم مواطن الجن في نظر الجاهليين، هي المواضع الموحشة، والأماكن المقفرة التي لا تطرق إلا نادراً، والمحلات التي لا تلائم الصحة، والمقابر والأماكن المظلمة والمهجورة. ففي مثل هذه المواطن تنزل الجن، وتفضل الإقامة بها، وسبب ذلك، هو أن الإنسان يخشى هذه المواضع، ويشعر بشيء من الخوف والوحشة من الدخول إليها، فقد يتعرض فيها إلى التهلكة، فأوحى هذا الإحساس إليه أنها "مسكونة"، وأن سكانها هم الجن. وأنهم قد يتعرضون له بسوء إن لم يعرف كيف يسلك سلوكاً طيباً معها، ولذلك صار يتحاشى ولوج هذه المواضع، لا سيما في الليالي المظلمة، وإذا دخلها مضطراً، تخيل الأشباح والأرواح وهي تلعب به كيف تشاء، وتحوم حوله. ومن هنا ظهر عنده القصص المروي عن مواطن الجن.[175]

[174] أخبار مكة للأزرقي نقلا عن جواد علي المفصل ج12ص 288
[175] المفصل ج12 ص 294

(3)

الجن في المرويات الكتابية

(إذا لم تستطع الكائنات البشرية رؤيتها فهذه نعمة لأنه لو أعطيت القدرة للعين البشرية على رؤيتها فلن يستطيع أحد البقاء [176])، (لو يعلم الناس في الوحدة ما أعلم ما سار راكب بليل وحده أبداً[177]) .

سبق وأن قدمنا كثيرا مما قبله النبي محمد من المرويات التلمودية [178]، ولا تستهدف الصفحات القادمة سوى بيان التأكيد على مساحة الخطوات التي قطعتها العقيدة العربية عن الجن، وبأنها لم تكن بعيدة عن التصورات اليهودية البدائية، أو مثل سواها من العقائد الساذجة ولم تكن لتصل إلى ما بلغته في الإسلام إلا عبر التقائها برافد آخر، وهو المرويات والأساطير التلمودية.

ومن ينظر في الصورة التوحيدية التي جاء بها الإسلام ومنظومة الأخلاق والكمالات الإلهية فمن الطبيعي أن يتوقع وجود تلك الشخصية لكي تلعب دوراً محورياً، كان أوضح بكثير من التصور التوراتي، وأقل كثيرا في التصور المسيحي، فقد كان مفهوم الجن أو الأرواح الشريرة أسبق وأقدم من معرفة الشيطان كمفهوم متأخر، عرفه العبرانيون من جيرانهم أو مستعبديهم الفرس، ثم جاءت صورة الشيطان متأخرة، وحاول العبرانيون أن يفسروا كل مظاهر الأرواح الشريرة كالتابعة والجان بأنها أسماء شتى لذات الشيء، وأما مقتضى التطور الطبيعي فهو يقضي بأن يعرف اليهود الجن أولاً، ثم لا يعرفون بعد ذلك مفهوم الشيطان بعد أن عرفوا مفهوم الملائكة.

ومن الواضح أن عقيدة الجن كان لها حضوراً مستقلاً ومتمايزاً عن الشياطين في العهد القديم، لأننا نجد ما يوحي بأن الجان أقدم عهداً من الشياطين التي ترتبط بالقصة الكتابية عن خلق الإنسان والملائكة الساقطة؛ لأنه يحضر مع ممارسات أكثر بدائية من الدين مثل السحر والعرافة واستحضار الأرواح، ويمكن لمَن يشاء أن يتتبع ما جاء في العهد القديم عن الجن والرئي والعراف ليدرك بوضوح أنها ربما كانت تعني تلك الأرواح الشريرة الهائمة، والتي تتمتع بقوة خارقة، فهي تؤذي الناس وقد ينتفعون بقوتها، وواسع

---

[176] (التلمود عرض شامل ص 340)

[177] (أخرجه البخاري - (2 / 247)

[178] وقد قدمنا تفصيل ذلك في مبحث من آدم إلى نوح في المرويات التلمودية فليرجع إليه

معرفتها خاصة عن أحوال العالم السفلي فهي تستطيع التنقل من هناك إلى العالم، وبالعكس على خلاف الإنسان المسجون في هذا العالم مثلما يظهر من حكاية صموئيل مع عرافة عين دور، ولكننا لا نصل إلى التلمود حتى نرى حضوراً عظيماً لتلك الأرواح، وقد قطعت - فيما يبدو - مسافة بعيدة عن الشياطين والتي هي مجرد ملائكة ساقطة، وشكلت أساس المعتقدات المحمدية بعد مزجها بعالم الجن العربي.

ساد الاعتقاد الجازم في وجود الجن والشياطين بين اليهود وخاصة بين الجمهور الذين يتبع قواعد التلمود؛ حيث يمتلئ التلمود بالوصايا والوصفات التي تتضمن حقيقة وجود الشياطين وطريقة التوقي منهم، بل لقد اعتبرت الشياطين والجن أحد أهم الأسباب التي تفسر وجود المعاصي والوقوع في الذنوب: (سبب هام للخطيئة هو أن يكون الفرد مسكوناً أو مأخوذاً من طرف روح شريرة تحرم هذا السيئ الحظ من حسه للعدالة، أو من السيطرة على نفسه: (لا أحد يرتكب خطيئة إلا إذا دخلت فيه الروح الشريرة [179])، (ثلاثة أشياء تقود الإنسان إلى انتهاك إرادة خالقه وعصيانه بمليء إرادته: وهي الوثنية، الروح الشريرة، الحاجات الملحة التي تقوده للفقر[180]).

تطورت نظرة اليهود إلى الجن والشياطين فغادرت التصور التوراتي عن كونهم ملائكة ساقطين إلى تصور مختلف حيث جعلت لهم نظريات خلق متضاربة، وتتنوع الآراء حول هذه المخلوقات الضارة يظن البعض أنها تشكل جزءاً من المخلوق الإلهي: (ومن بين الأشياء العشرة الأولى التي يقال أنها خلقت عشية أول يوم سبت وهي المزاكون ؛ أي الأرواح الشريرة)، وأما عن كيفية تفسير وجودهم على هذه الهيئة الشبحية - كما لو كانوا ظلالاً لعالم البشر - فقد قدمت لذلك نظرتين إحداهما ترجعه إلى اعتباره حلاً ضرورياً، أو اضطرارياً بسبب احترام الله وتقديسه ليوم السبت: (فإن القدوس الواحد الممجد قد خلق أرواح الشياطين، وعندما كان على وشك خلق أجسادهم توقف واحترم راحة يوم السبت، ولم يخلقها واعتبرت بذلك أرواحاً غير متجسدة، وبحسب شكل آخر للنظرية يمكن أن يكون الله قد نقل أرواح البشر الأشرار إلى هذه الأرواح بمثابة عقاب؛ فالرجال الذين وضعوا مشروع برج بابل كانوا يشكلون ثلاث فئات، فالذين من الفئة الأولى كانوا يقولون نصل حتى السماء، ونسكن فيها، ويقول

(179) التلمود عرض شامل ص 339
(180) السابق ص 339

آخرون لنصل إلى السماء ونمارس فيها عبادة الأوثان، وأما الفئة الثالثة فيقولون لنصل إلى هناك ونحارب الله، لقد بدد الله شمل الفئة الأولى وحول الفئة الثالثة إلى قرود وشياطين ليلية والثانية أربك لغتهم[181])، (ونوعية أخرى يجعلون من الله خالقهم الأصلي غير أن تناسب انتشارهم كان نتيجة علاقاتهم مع عائلات بشرية (فخلال الفترة الممتدة على مدى مئة وثلاثين عاما، حيث كان آدم قد انفصل عن حواء بعد أن طُردا من جنة عدن، كانت الأرواح الشريرة الذكرية تتحمس لحواء ووثقت علاقاتها معها بينما تحمست الأرواح الشريرة الأنثوية لآدم وحصلت منه على أحفاد وسلالات [182]).

أما عن صفاتها في التلمود: (فهي حسب ثلاث وجهات نظر تشبه الملائكة الخدم، وبثلاث أخرى الكائنات البشرية كما الأوائل لها أجنحة تطير من طرف العالم إلى الطرف الآخر وتعرف المستقبل. فهي كالبشر تأكل وتشرب وتنجب وتموت. يقول البعض أنها كالحرباء تغير شكلها ولونها يمكنها الرؤية، ولكنها لا ترى[183]).

أما عن علاقاتها بعالم الإنس: (إذا لم تستطع الكائنات البشرية رؤيتها فهذه نعمة؛ لأنه لو أعطيت القدرة للعين البشرية على رؤيتها فلن يستطيع أحد البقاء بسبب هذه الأرواح التي هي أكثر عددا من البشر، ويقول أحد الحاخامات عنها، بأنهم يحيطون بنا مثل السياج حول الحقل كل واحد يملك ألفاً على يساره آوآلافاً مؤلفةً على يمينه، ويقول آخرون بأن ضجة الخطابات العامة تكون لهم الركب تتعب بسببهم، وتبلى ثياب الحاخامات باحتكاكها بهم فهم يسببون المرض لأقدامنا [184]) .

أما عن مكان إقامتهم (يمكن مصادفة الأرواح الشريرة في كل مكان، وخصوصا الأماكن المظلمة القذرة الخطرة والماء: (لأن الشرقيين يعتقدون أن الجن يسكنون الأنهار بيوت الملوك، الينابيع، الحمامات ... وبذلك تبدو الأرواح الشريرة وكأنها تجسد الخطر فهي ترتاد الخرائب - أيضا -... لأن الشياطين تسكنها، وهناك مكان آخر لإقامتهم وهو المراحيض[185]).

---

(181) التلمود عرض شامل ص 340

(182) التلمود عرض شامل ص 340

(183) (السابق 340

(184) السابق ص 340

(185) السابق ص 341

ومن أجل طرد شياطين المراحيض يقدم التلمود هذه التعويذة على رأس أسد وعلى أنف لبؤة: رأيت الشيطان حيث ينبت الكراث ضربته بفك حمار فصرعته [186])، بل، ويمكن أن يقتل البشر الجن، خاصة إذا كانت روحاً مؤذية مثلما تحكي هذه القصة: (الاعتقاد السائد في العالم أن الأرواح الشريرة ترتاد أماكن المياه في الينابيع والحقول، وإليكم ما رواه أحد الحاخامات: حصل في قريتي أن آبا جوزي زيتور كان جالسا يدرس إلى جانب النبع عندما ظهرت له الروح هناك وقالت : هل تعرف كم من السنين أقمت هنا؟ كنتم مع نسائكم وأنتم تجلسون في ضوء القمر دون أن تشعروا بوجودها أو بضررها؟ وأعرف أن روحاً شريرة تقيم هنا مسببة الإساءة للبشر. سأل أبا جوزي: ما العمل؟ أجاب اذهب وأخبر السكان قل لهم من يملك مجرفة، أو أداة لقلب التراب فليحضر إلى هنا عند الفجر ويراقب نبع الماء، وعندما يلاحظون تموجات على السطح فليضربوا النبع بأدواتهم ويصيحون: النصر لنا، وعليهم ألا يغادروا المكان قبل أن يشاهدوا خثرة دم على سطح الماء.)، وفعل الحاخام ونفذ أهل قريته النصيحة وقتلوا الروح الشريرة بما أوصاهم به؟ [187]).

وأما عن نشاطها فنعلم: (تهرب الأرواح الشريرة من الضوء وتبحث عن الظلمات ؛ فالليل هو الفترة الخطرة الممنوع إلقاء السلام على أي شخص خوفاً أن يكون جنياً [188])، (عندما تظهر الروح الشريرة لشخص منفرد فهي تسيئ إليه، وعندما تظهر لاثنين فلا تسبب لهما ضرراً، أما الثلاثة فلا تظهر لهم أبداً، والمطلوب عدم التجول إفرادياً في الظلام [189])، (بما أن الكائن البشري مُعرَض لأعمال الجن الضارة فينبغي اتخاذ إجراءات فعالة ضدها. سبق أن ذكرنا بعضاً منها التعاويذ والرقيات (جمع رقية) الهدف منها طرد الشياطين في بعض الظروف، لكن هنا قاعدة عامة من أجل طرد الشيطان قولوا: مت لتكن ملعوناً،محطماً،مطروداً ابن الوحل،ابن النجس، ابن الطين... [190]).

---

[186] السابق ص342

[187] ص 342

[188] التلمود عرض شامل ص 343

[189] السابق- ص 343

[190] السابق ص 345) أ، ما عن تقديم الجن الطيب النصائح الطيبة إلى الحاخامات لكي يتجنبوا أذى الجن الشرير أو الشياطين فهناك الكثير من القصص عن ذلك ص345 وما بعدها

وأما عن الوسيلة الأنجع للوقاية من الشياطين فهي الحماية الإلهية: (الحماية الإلهية من هذه الكائنات الضارة مضمونة بإطاعة الوصايا (إذا أطاع أحدهم وصية دينية واحدة، فهناك ملاك يتولى أمره، واذا طبق أحدهم وصيتين فهناك ملاكان، وإذا ما طبق جميع الوصايا عندئذ تتولى أمره مجموعة من الملائكة ؛ لأنه قيل: سيأمر ملائكته بحراستك أينما توجهت ومن هؤلاء الملائكة ؟ هم أولئك الذين سيحرسونك من الأرواح الشريرة، كما قيل ألف ينزلون إلى يسارك وعشرة آلاف إلى يمينك [(191)])، (ورغم أن الجن نظرياً هم غير مرئيين لكن هناك طرق لتمييز حضورهم وحتى رؤيتهم. من يريد إدراك وجودهم عليه رش الرماد الناعم حول سريره وفي الصباح سيرى عليه آثار أقدامهم [(192)]) .

وهناك أخبار كثيرة عن تعرض بعض الحاخامات لأذى الجن، فقد رآهم وتعرض لأذيتهم وعندما صلى رفاقه لأجله شُفي، وأما عن دور الرُقية وسواها من الاحتياطات فيكفي هذا النقل: (أي فرد متوضع داخل بيوت الراحة يتحرر من ثلاثة أشياء: الأفاعي، العقارب، الأرواح الشريرة، وكان في طبريا مراحيض إذا دخلها رجلان في النهار فإنهما يشعران بالألم فيها. ويروى عن الحاخامات أنهم كانوا يذهبون إليها إفرادياً، ولم يشعروا بأي ضرر فسألهم زملائهم: ألم تشعروا بالخوف ؟ أجابوا: تلَّونا رُقية، وفي حالة كهذه يفضل التواضع والصمت. وقام حاخام آخر بتدريب جمل على مرافقته إلى هذا البناء الصغير: (ليكون بحمايته من الأرواح الشريرة). وقبل أن يصبح (ربا) رئيساً للأكاديمية كان من عادة زوجته أن تهز حبة بندق في قارورة صغيرة أمامه كي تخيف الشياطين، ولكن عندما كان يترأس الاجتماعات كانت تفتح نافذة في الجدار وتضع يدها على رأس زوجها[(193)]).

وأما أقرب ما وجدناه عن الجن والملائكة في الأحاديث النبوية فهي هذه النقول: (وعند دخول الخلاء - بيت قضاء الحاجة - عليه أن يقول: لتتعظموا أيها العظماء الأخيار خدم الملكوت العلوي، ولتسبحوا إله إسرائيل، لتنصرفوا عني حتى أدخل وأقضي حاجتي وأعود إليكم)، فقال آبى لا يقل المرء ذلك حتى لا يذهبوا ويتركوه ولكن عليه أن يقول:

---

(191) التلمود عرض شامل ص 348

(192) التلمود عرض شامل ص 341

(193) التلمود عرض شامل ص 342

أحفظوني، أحفظوني، ساعدوني، ساعدوني، اقتربوا مني، اقتربوا مني، انتظروني، انتظروني حتى أدخل وأخرج فهذا هو نهج البشر [194])،
(وعندما يخرج من الخلاء - بيت قضاء الحاجة - يقول مبارك الذي خلق الإنسان بحكمة وخلق فيه العديد من الفتحات والعديد من التجاويف ومعلوم وظاهر أمام كرسي عرشك أنه إذا فتحت إحدى الفتحات أو سدت واحدة منها فلا يستطيع المرء أن يمثل بين يديك [195])، (قال الرابى تنحوما بر حينلاى مَن يحتشم في الخلاء - بيت الراحة ينج من ثلاثة أشياء: الأفاعي والعقارب والأرواح الشريرة، وأضاف البعض ومن الكوابيس وكان هناك خلاء في طبريا إذا دخله اثنان معا حتى في أثناء النهار تؤذيهما الأرواح الشريرة فدخله الرابي آمي والرابي آسى كل بمفرده، ولم تؤذهما الأرواح الشريرة، فقال لهما العلماء ألم تخافا؟، فقالا لهم إن الروايات التي نقلناها عن معلمينا بخصوص آداب الخلاء هي التزام الحشمة والصمت وعند المصائب التزام الصمت وطلب الرحمة[196]).

ثانيا: الجن بعد الاسلام.

(1)

الجن والشيطان في القرآن الكريم

مَنْ يريد التعرف على المعالم الأساسية المتعلقة بعالم الجن في الإسلام فحسبه أن يقرأ القرآن الكريم وسيجده يتضمن الإجابة الواضحة على كثير من الأسئلة الجوهرية المتعلقة بهذا العالم الخفي، وسيعلم منه - مثلاً- ما هو أصل الجن ؟ ومن أي شيء خُلقوا؟ ولماذا خلقوا ؟ وما دورهم في التجربة الإلهية ؟ وما علاقتهم بعالم الإنس؟ وما مصيرهم الأخروي ؟، فكل هذا وسواه مما يسهل على القارئ أن يستخرجه من مطالعة نصوص القرآن الكريم.

وسوف نأتي هنا - وبإيجاز شديد - على معالم العقيدة القرآنية في الجن والشياطين مقتصرين على نصوص القرآن، وعلى أقل القليل من أقوال الشراح والمفسرين، وأما

---

(194) التلمود الذكر - الصلاة - الدعاء تفسير الأحلام) د ليلى أبو المجد - علاء تيسير احمد مكتبة مدبولي 2012 م ص 501)
(195) السابق ذات الصفحة
(196) السابق ص 513

عن الجن والشياطين في الأحاديث النبوية فسوف نتوقف عنده بعد الفراغ مباشرة من هذه الصفحات ؛ لأنها ذات ارتباط وثيق بصورة الجن عن عرب الجاهلية كما سنرى.

إبليس أصل الجن .

أورد القرآن الكريم قصة سقوط الشيطان في أحد عشر موضعاً[197]، وبتنويعات طفيفة سنورد أكثرها تفصيلاً فيما يأتي : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾﴾ [الأعراف : 11 - 18].

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ

---

(197) آثرنا إيراد هذه المواضع الستة التي اختارها الأستاذ فراس السواح أولا : لأنها تستوفي معالم القصة القرآنية وتغني عن سواها وثانيا : لسهولة أن يتعرف القارئ على سياق النقل اللاحق الذي سننقله عنه بعد قليل وسنناقش- من خلال التعقيب عليه - ما نظنه - أسباب هذا الالتباس القديم عن أصل الشيطان في الإسلام .

فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسۡتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوۡعِدُهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [الحِجر : 26 - 43] .

﴿ وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ قَالَ ءَأَسۡجُدُ لِمَنۡ خَلَقۡتَ طِينٗا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيۡتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِي كَرَّمۡتَ عَلَيَّ لَئِنۡ أَخَّرۡتَنِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَأَحۡتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذۡهَبۡ فَمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمۡ جَزَآءٗ مَّوۡفُورٗا ﴿٦٣﴾ وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم بِخَيۡلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ وَعِدۡهُمۡۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلٗا ﴿٦٥﴾﴾ [الإسْرَاء : 61 - 65] .

﴿ وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوّٞ لَّكَ وَلِزَوۡجِكَ فَلَا يُخۡرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلۡجَنَّةِ فَتَشۡقَىٰٓ ﴿١١٧﴾﴾ [طه : 116 - 117] .

﴿ إِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن طِينٖ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبۡلِيسَ ٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيۡكَ لَعۡنَتِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ

مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [ص : 71 - 85] .

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾ [الكَهْف:50] .

من المعلوم أن قصة إبليس القرآني إنما هي تطوير محمدي لبعض القصص التي جاءته من خارج الكتابات الرسمية اليهودية والمسيحية ويكفي هنا أن نقدم هذا الموجز لبيان تلك المشابهة.

(ففي الروايات التلمودية المتأخرة يبدأ كل تفصيل عن العداوة الشيطانية للإنسان، وعن أثر هذه العداوة في خروج آدم من النعيم، وفيها ارتقاء من وسوسة الحية إلى وسوسة شمائيل رئيس الملائكة التي عمل في القصة عمل إبليس، وتوسع رواق اليوبيل حوالي القرن الثاني قبل الميلاد في الكلام على مشطيم اسم الفاعل من مادة شط في اللغة العبرية يقابله كلمة (شيطن) في اشتقاق اللغة العربية، وتحتوي التلموديات في مثل هذا العصر كلاماً عن الشيطان بليعال روح الكذب والخداع... ويحتوي كتاب أخنوخ قرابة هذا الوقت، كلاماً عن الملائكة الهابطين بقيادة كبيرهم المطرود من رحمة الله، ويقول كتاب الحكمة أن الموت نزل على الدنيا من جراء حسد الشيطان[198]).

(على الرغم من أن القصة القرآنية هي أكثر اختصاراً وإيجازاً من مثيلاتها في الأسفار غير القانونية، إلا أنها تتفق معها في العناصر الرئيسة، وهي :

-1 الأمر الإلهي وعصيانه (بعد خروج آدم من يد الخالق إنساناً تام التكوين، أمر الرب الملائكة كلهم أن يسجدوا له ففعلوا، وكان رئيسهم ميكائيل أول الساجدين لكي يضرب للآخرين مثالا في الطاعة ولكن الملاك الرئيس ساتان الذي أضمر الغيرة والحسد لآدم رفض السجود) (الهاجاداه).

(198) إبليس ص 94

-2إبليس يسوغ سلوكه: (قال ساتان للرب : لقد خلقتنا من ألقك وبهائك، فكيف تأمرنا أن ننطرح أمام من خلقته من تراب ؟ فأجابه الرب : ومع ذلك فإن تراب الأرض هذا يفوقك حكما وفهما) (الهاجاداه).

-3الطرد والسقوط: (فلما سمع منه الرب ذلك أمسك به ورماه خارج دائرة السماء، فهوى نحو الأرض وتبعه حشد من الملائكة الذين شجعهم تمرده على إظهار ما كتموه في أنفسهم من حسد آدم) (الهاجاداه).

-4طلب المهلة: (فأمرنا الرب إلهنا أن نوثقهم جميعاً (الأرواح الشريرة) ولكن رئيس الأرواح مستيما مثل أمام الرب وقال له : أيها الإله الخالق، اترك لي بعضا منهم ليستمعوا إلي ويفعلوا ما أمر به.. فأمر الرب أن يبقى عشر الأرواح الشريرة مع مستيما وأن ينزل التسعة أعشار الباقية إلى مكان الحساب) (سفر أخنوخ الأول).

-5وعيد إبليس: يكتفي النص التوراتي من وعيد إبليس بقوله : ومنذ ذلك الوقت صارت العداوة بين الإنسان والشيطان (الهاجاداه)، أما في النص القرآني فإن إبليس يسترسل في وعيده... ([199]).

وعلى هذا فلن نتكلم هنا عن قصة إبليس القرآني مع آدم ودلالتها من منظور عقيدة الخلق في الإسلام ؛ لأن قصة إبليس في القرآن الكريم إنما تتعلق أساساً بقضية أخرى - تختلف تماماً عما نحن بشأنه - وهي قضية وجود الشر في العالم، وتفسير مظاهر الفساد والنقصان في هذا الوجود، بل كل ما يعنينا من معالم تلك الشخصية الأسطورية هو بيان تقرير القرآن الحاسم من أن إبليس كان أصل الجن، مثلما كان آدم هو أصل البشر حيث نجد - في آية سورة الكهف - تأصيلاً بعيداً لحضور الجن العربي من خلال نسبة إبليس إلى تلك الطائفة.!

(اختلفوا في الشياطين فقال أكثر المسلمين أن من عصى من الجن صار شيطاناً وزعم بعضهم أن الشيطان من ذرية إبليس خاصة بعد اختلافهم في إبليس أمن الجن هو أم من الملائكة ؟ وكل ما اجتن عن الأبصار فهو جن ملكاً كان أو جنياً أو شيطاناً والشيطنة الخبث والنكارة، فيقال لعتاة الإنس شياطين كما يقال لعتاة الجن شياطين

---

[199] راجع أساطير الأولين- فراس السواح - ص 207-208

وللغرس السريع شيطان ولكل داهية أو خفيف فطن شيطان، وجاء في الحديث أن الكلب الأسود البهيم شيطان...[200]).

(قال أبو عمر بن عبد البر : الجن عند أهل الكلام والعلم باللسان منزلون على مراتب ؛ إذا ذكروا الجن خالصاً قالوا جني فإن أرادوا أنه ممن يسكن مع الناس قالوا عامر والجمع عمار وإن كان ممن يعرض للصبيان قالوا أرواح فإن خبث وتعزم فهو شيطان فإن زاد على ذلك فهو مارد فإن زاد على ذلك وقوي أمره قالوا عفريت والجمع عفاريت والله تعالى أعلم بالصواب [201]).

ولكن- وكما هو متوقع - فلم يمض هذا التأصيل القرآني الجديد دون أن يثير خلافاً حامياً بين المفسرين وعلماء الإسلام، ولم يزل ذلك الخلاف حاضراً منذ زمن تنزُل القرآن إلى يومنا هذا، حيث حاول المفسرون - ما وسعهم- أن يوفقوا بين ظاهر تلك الآية من سورة الكهف وبين ما علموه من أهل الكتاب من أن إبليس كان من الملائكة العاصين المتمردين ولم يكن ينتمي إلى جنس ثالث - مغاير للبشر والملائكة معا - وهو عالم الجن الشياطين وساعدهم على ذلك - أيضا - اتساع الدلالة اللغوية لكلمة (جن) لتشمل كل خفي ومستتر عن الأبصار صالحاً كان أو طالحاً.

ولغياب معرفة عرب الجاهلية بعالم الملائكة على النحو الذي قررته الكتب المقدسة: (وقد أشير في القرآن الكريم، إلى أن من الجاهليين من زعم أن الملائكة بنات الله. وتحدث المفسرون في تفسير ذلك، غير أنهم خلطوا في الغالب بين الملائكة والجن. ولم يأتوا بشيء يذكر عن رأي أهل الجاهلية في الملائكة. وما ذكروه هم عن الملائكة، هو إسلامي، يرجع في سنده إلى أهل الكتاب، ولا سيما القصص الإسرائيلي، ولهذا فهو مما لا يمكن أن يقال عنه إنه يعبر عن رأي الجاهليين. ويظهر أن الجاهليين لم يكونوا يعرفون شيئًا عن الملائكة، لأن الاعتقاد بالملائكة من عقيدة الديانة اليهودية ثم النصرانية، وهم لا يعرفون الكتاب، إلا من كان منهم على دين اليهودية أو النصرانية، أو كان من الحنفاء أو على اتصال بأهل الكتاب، كأمية بن أبي الصلت وأمثاله[202].)

---

(200) انظر البدء والتاريخ- ابن طاهر المقدسي- مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد-ج2ص 71-

(201) العلاقة بين الإنس والجن من منظار القرآن والسنة - د إبراهيم كمال ادهم - بيروت المحروسة للطباعة والنشر - 1993م - ص18

(202) (المفصل ج12 ص 314

وأما عن سبب هذا الاختلاف فيرجع في اعتقادنا إلى سببين متداخلين: أولهما وأظهرهما، هو أنه كان بسبب تنافر هذا التأصيل القرآني في ذاك الموضع مع بقية سياقات القصص القرآني الأخرى ، والتي تذكر قصة آدم مع الملائكة حيث جاء فيها ما يوحي بأن إبليس كان ملكاً من الملائكة قبل أن يقع ضحية تمرده على الأمر الإلهي ، ويستنكف عن السجود للمخلوق الترابي، ورغم هذا فلم يتردد أكثر المفسرين في القول بأن إبليس كان أصل الجن مثلما صار آدم أصل الإنس؛ لأن هذا هو ظاهر القرآن [203] ؛ فلم يجدوا مفراً من التسليم بتلك الحقيقة القرآنية الساطعة .

وأما السبب الآخر - وهو ما يشكل الأساس البعيد لهذا الاختلاف - فهو أن تنازع المفسرين والمتكلمين إنما كان بمثابة رجع الصدى لذلك التنافر الجوهري الغائر في العقل النبوي ذاته، ونعني به تردد النبي محمد بين مصدرين مختلفين تماماً في استقاءه لمعالم تلك الخليقة الخفية؛ أي عالم الجن والشياطين حيث استقى النبي قصة إبليس وحدها من المرويات الكتابية؛ وعلى هذا فقد كانت القصة القرآنية - خلا ذلك الموضع من سورة الكهف - تعكس أصولها التلمودية البعيدة فلم يكن الشيطان في تلك القصص سوى ملاك ساقط لتمرده على المشيئة الإلهية - وإن انتمى لفظاً إلى عالم الجن - ومن ناحية أخرى فنجد بقية عالم الشياطين في الإسلام تنتمي واقعياً إلى عالم خرافي آخر مختلف تماما عن سابقه وهو عالم أساطير الجن العربي.

(و"إبليس" من هذه الأفكار التي نفذت إلى العرب عن طريق أهل الكتاب، والعلماء على أن الكلمة معربة، وهي كذلك. فأصلها "ديابولس "DiaboIos" "وهي كلمة يونانية استعملت في مقابل لفظة "شيطان". وقد أطلقت لفظة "أباليس" في مقابل "شياطين[204]".)

ولقد ترتب على تأسيس القرآن بأن إبليس كان من الجن -ولم يكن من عالم الملائكة- وقوع هذا التداخل الذي لا سبيل لحله بحيث لا يمكن لأحد - في اعتقادنا - أن يوفق - تماما - بين ملامح هذين العالمين اللهم إلا على النحو التركيبي، والذي ساغ في العقل المحمدي ذاته أي ؛ عبر تلك الآلية المخيالية الانتقائية حيث يتبدى لنا إبليس في

---

(203) (انظر رأي ابن تيمية وغيره في كتاب : المصارع - الشيخ محمود المصري مكتبة الصفا للنشر والتوزيع - الطبعة الأولى - 2010م - ص 54-55

(204) (المفصل ج12ص 331

قصة الخليقة القرآنية الأولى شبيها إلى حد بعيد بحضور الشيطان بين (بنو الله) (وَكَانَ ذَاتَ يَوْمٍ أَنَّهُ جَاءَ بَنُو اللهِ لِيَمْثُلُوا أَمَامَ الرَّبِّ، وَجَاءَ الشَّيْطَانُ - أيضا - فِي وَسْطِهِمْ.) (أيوب 1: 6) في سفر أيوب فهو يحضر هناك معهم ويمثل بين يدي الله ودون وجود أي إشارة يفهم منها إن كان الشيطان ينتمي إلى عالم الملائكة أو يختلف عنهم.

ولعل هذه الأسطر القادمة تجلي لنا على أفضل وجه طبيعة الاختلاف العميق في الخطاب القرآني وتلخص لنا - من ناحية أخرى - المنطق العقلي لأصحاب هذين التفسيرين المتخالفين .

(نلاحظ من البنية اللغوية للأمر الإلهي بالسجود لآدم ورفض إبليس الانصياع لهذا الأمر، وذلك في التنويعات الخمسة الأولى على القصة، أن إبليس كان من الملائكة لأن الاستثناء في قوله: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِآدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ١١٦﴾ [طه: 116] ◉ وتنويعاته الأخرى هو استثناء متصل لا منقطع، لأن وقوع الإباء منه دليل على أن الأمر الإلهي يشمله وأنه من الملائكة . ولكن التنويع السادس يشذ عما سبق، إذ يعلمنا أن إبليس كان من الجن لا من الملائكة . فإذا كان الأمر كذلك، فإن الأمر الإلهي الموجه إلى الملائكة لا يشمله، كما أن إباءه من السجود لا يكون معصية لأن المأمور غيره. وهذا من متشابهات القرآن التي لم يصل المفسرون إلى اتفاق بشأنها [205].)

وهذا التلخيص السابق - على رصانته وإحكامه - لا يقدم لنا شيئاً مفيدًا لحل تلك القضية بل يكتفي ببيان طبيعة الإشكال القديم وصعوبة حله .!

ورغم إدراكنا لصعوبة هذا الإشكال فإننا نعتقد في وجود مفتاح يسير لحله، وذلك عبر تفهم سبب حدوث هذا الإشكال نفسه، ولن نحتاج للعثور على هذا المفتاح سوى أن نتذكر حقيقة جوهرية واحدة وهي أن نصوص القرآن إنما كانت تترجم في النهاية عن عقل واحد ولنتذكر - أيضا - كيف استوعب ذلك العقل الألمعي تلك المفارقة الظاهرية، واتسع لها منطقة الخاص في تقدير الأمور ومنطقتها بطريقته المميزة. وعلى هذا فلا بدلنا من اعتماد تفسير واحد من بين هذين التفسيرين المتناقضين ونقدمه على سواه ولا أرجح - في اعتقادنا - من التفسير الذي يدل عليه ظاهر الآية فلا بد إذاً أن نجعل

---

(205) ص 206 أساطير الأولين

(الاستثناء المنقطع)، هو الأصل فيكون هو المعنى المراد في كل النصوص الأخرى وتحمل بقية النصوص الموهمة للاختلاف على ما يقتضيه هذا الاستثناء الحاسم.

على هذا النحو أو قريباً منه فهم بعض المفسرين القدامى تلك القصة على وجهها الصحيح، وحاولوا الإغضاء عن ذلك التناقض الظاهري اعتماداً على دلالة السياق الكلي، ودون التوقف كثيراً عند التعبيرات اللغوية بحيث تطغى تلك المحددات اللغوية لتلغي الدلالة المنسجمة القارّة في داخل البنية العميقة للنصوص وإلى القارئ مثالا من أمثلة الفهم الصحيح لتلك القضية: (كَانَ مِنَ الْجِنِّ - كلام مستأنف جار مجرى التقليل بعد استثناء إبليس من الساجدين، كأن قائلا قال: ما له لم يسجد؟ فقيل: كان من الجن فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ والفاء للتسبيب - أيضا - ، جعل كونه من الجن سببا في فسقه، لأنه لو كان ملكاً كسائر من سجد لآدم لم يفسق عن أمر الله، لأنّ الملائكة معصومون البتة لا يجوز عليهم ما يجوز على الجن والإنس، كما قال لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ وهذا الكلام المعترض تعمد من الله تعالى لصيانة الملائكة عن وقوع شبهة في عصمتهم [206]).

وكلام الزمخشري السابق - هو في اعتقادنا- أقرب تلك الفهوم للعقيدة التي جاء القرآن لتقريرها بشأن إبليس، فالاستثناء هنا منقطع حقاً، وهذا يعني - ببساطة تامة - أن الأمر الإلهي كان يتسع ليشمل كل من يصلح للخطاب فيطلب منه السجود لآدم، ولكن القرآن لم يذكر سوى الملائكة فقط تغليباً؛ وعلى هذا فلم يكن إضمار اعتبار إبليس من الجن- في العقل النبوي - بمانع نظري - من قبوله أن يكون من بين الساجدين، ومن ناحية أخرى فكون إبليس من الجن جعل منه في ذات الوقت محلاً للاختيار بين القبول والإذعان، أو بين الرفض والعصيان على خلاف عالم الملائكة المجبولين على الطاعة والانصياع لأوامر الله.

وعلى هذا فقد كان إخراج القرآن لإبليس من زمرة الملائكة، ومنحه أصلاً مغايراً لها وللإنس معاً ونسبته إلى عالم الجن أمراً ضرورياً ولازماً في المنطق المحمدي، فما كان ليستقيم عند النبي - وقد تابع التصور الكتابي المتأخر عن الملائكة التي لا تأكل ولا تشرب ولا تتناسل -، والأهم من هذا كله أنها لا تعصي الله طرفة عين- سوى أن

---

(206) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل - الزمخشري - دار الكتاب العربي - بيروت الثالثة - 1407 هـ- ج2 ص 727

يجعل إبليس من جنس آخر غير جنس الملائكة، ولقد كان عالم الجن - وهو عالم يتوسط بين الإنس وبين الملائكة - هو الأنسب والأوفق - في اعتقاده -؛ فللجن من عالم الملائكة القدرة على التشكل كما يشاء، والقدرة التي تفوق قدرة البشر، وله من ملامح عالم الإنس قدرته على الطاعة أو العصيان والتناسل والطعام والشراب ..الخ.

أما عن معالم تلك القصة مخيالياً، فينبغي أن نشير إلى ملمحين أساسيين تبقى أثر واضح لأولهما في ثنايا النصوص وهو أن صياغة القصة تفترض حضور كل الحقائق دفعة واحدة، لا فرق في هذا بين ما يتصور وجوده من تلك الحقائق وبين ما ستتكشف عنه التجربة البشرية تدريجياً!

حيث نجد مثلاً عقيدة البعث حاضرة لحظة أن أمر الله الملأ العلوي بالسجود لآدم بعد نفخ الروح فيه بلحظات قليلة ولم يكن بعد موت ليتصور من بعده البعث والنشور ! ﴿ قَالَ أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝١٤﴾ [الأَعْرَاف : 14] .

ونجد إبليس يستنتج أن شرائع الله التي ستتنزل على البشر في مقبل الزمان ستكون سهلة واضحة فيصفها إبليس بأنها (صراط مستقيم) ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝١٦﴾ [الأَعْرَاف : 16].

ونجد إبليس يجهر بأنه لن يتوانى عن إغواء معظم البشر، ولن يفلت من قبضة غوايته سوى حفنة قليلة من المخلصين، وهي مقولة وإن بدت نبوءة تتضمن ثقة الشيطان في عظيم مواهبه وتقديره الصائب لضعف الكائن البشري؛ إلا أنها في الحقيقة لم تكن سوى ترجمة لتقدير النبي محمد لحظ البشر من الصلاح عبر تاريخ الرسالات الإلهية، مثلما عبر عنلاذلك القرآن مرارا: ﴿ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ۝١٧﴾ [الأَعْرَاف : 17].

ونجد إبليس يعلن بأنه سيغوي ذرية آدم في (الأرض)، ولم يكن هناك بعد هبوط إلى الأرض حيث ستأتي الذرية البشرية بعد النزول إليها: ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٣٩ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝٤٠﴾ [الحِجْر : 39 - 40]، بل نجد الوعيد الإلهي يمتد ليشمل مع لإبليس تلك الذرية البشرية، وهي التي لم تخلق بعد أصلا ! : ﴿ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًاۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ

أَجۡمَعِينَ ﴿١٨﴾ [الأَعۡرَاف : 18]، ﴿ قَالَ أَرَءَيۡتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِي كَرَّمۡتَ عَلَيَّ لَئِنۡ أَخَّرۡتَنِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَأَحۡتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٦٢﴾ [الإِسۡرَاء : 62].

وعلى هذا فمن يقرأ مجموع تلك القصة بتنويعاتها في القرآن الكريم فسوف يدرك أن المنطق الداخلي للقصة، إنما هو منطق خاص جدا ؛ فهو يتعالى عن الزمان ولا يتقيد بحدود المكان شأنه في هذا شأن جميع القصص التي تدور في فلك الملكوت الأعلى، حيث يرى أهل الملأ الأعلى طرفي الزمان، وحيث تظلل النهايات ملامح البدايات أو قل إنها على خلاف منطق البشر العادي تعرف بدايتها استنتاجا من خواتيمها، فلا فرق بين بدء أو انتهاء فكلها عند أهل العلم المحيط سواء.!

هذا عن الملمح الأول، ومن ناحية أخرى فلا نشك في حضور بعض المعالم الفنية التي كانت تلون تلك القصص وقت تنزلها وقد غابت عنا الآن تفاصيلها، ومَن يدري فلعلها كانت قريبة مما استنبطه مخيال بعض المفسرين الأقدمين؟!: (كان ابن عباس يقول: إن إبليس كان من أشراف الملائكة وأكرمهم قبيلة، وكان خازنا على الجنان، وكان له سلطان السماء الدنيا وسلطان الأرض، وكان مما سولت له نفسه من قضاء الله أنه رأى أن له بذلك شرفا على أهل السماء، فوقع من ذلك في قلبه كبر لا يعلمه إلا الله، فاستخرج الله ذلك الكبر منه حين أمره بالسجود لآدم، فاستكبر وكان من الكافرين، فذلك قوله للملائكة: (إني أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون) يعني: ما أسر إبليس في نفسه من الكبر[207].)

ووفق تفسير ابن عباس - السابق - تبدو لنا معالم تلك الدراما الكونية واضحة جلية ؛ فلم يكن الأمر بسجود الملأ العلوي إلا بمثابة اختبار إلهي لإبليس وحده، ولم يكن ذلك الابتلاء سوى ذريعة لتنفيذ الخطة الإلهية العظمى من تقدير التجربة البشرية بتمامها ؛ حيث كان ذلك الاختبار ضرورياً لطرد الشيطان أولاً من الجنة، وإخراج آدم وزوجه من الفردوس إلى الأرض لتبدأ بذلك التجربة البشرية، ولم يكن أيسر من ذلك لما سبق في العلم الإلهي القديم من وقوع كلا الأمرين في المستقبل ؛ أي من رفض الشيطان السجود لما علمه الله من تكبره وصلفه، ولما علمه الله من سرعة استجابة آدم للغواية والفتنة بسبب نسيانه وضعفه .

---

[207] تفسير الطبري - - تحقيق شاكر - الرسالة - ط1 2000م - ج 18ص 41

أما عن حضور أمثال تلك التناقضات فلعل أصلح ما يقال في تفسير حضورها هو ما قاله عالم المصريات الرائد هذا :(إن من يشرح الديانة بطريقة منهاجية على نحو ما يحدث في كثير من الحالات فإنه ينتهي إلى نتائج عقيمة غير صحيحة (إن الحياة والروح لتفر من المبضع الخشن).

وإني لأرجو القارئ أن يعذرني إذا اضطررت من حين لآخر أن أذكر ذلك التناقض والخلط الغريب في المعتقدات المصرية، فإنها وإن كانت في ذاتها غريبة ثقيلة، إلا أنها بالنسبة لنا نحن الذين نعيش في القرن العشرين، مثيرة لدهشتنا أكثر مما ينبغي. ولكن أليس الغموض والتناقض هما الظاهرة الرئيسية لكل ديانة؟، إن كل من يحاول أن ينشر ديانة واضحة المبنى إنما ينزع منها سر الحياة ويجنبها ناحيتها الروحية وراء الطبيعية، وهي تلك الظاهرة التي تجعلها محببة إلى الإنسان، وذلك لأنها ليست وليدة تفكير، بل هي وليدة شعور.[208])

[208] ديانة مصر القديمة - أدولف إرمان - ترجمة د عبد المنعم أبو بكر - د محمد أنور شكري - الهيئة المصرية العامة للكتاب 1997م ص 2

الجن قبل البشر .

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الحِجْر : 26 - 27] .

نص القرآن - مراراً - على أن الجن كانوا أسبق وجوداً من عالم الإنس مثلهم في ذلك مثل الملائكة وهذا أمر بدهي ؛ لأننا نجد الله يستشير الملائكة قبل أن يخلق الإنسان ويأمر الملائكة والشيطان معاً بأن يسجدوا لهذا المخلوق الترابي الذي كرمه الله ؛ بأن خلقه بيده ونفخ فيه من روحه مثلما تابع القرآن في هذا القصص التلمودية: (يستخدم النص القرآني الاسم إبليس في قصة سقوط الملاك الرئيس التي تقوم على العناصر نفسها التي رأيناها في الأسفار التوراتية غير القانونية، وفي نصوص الهاجاداه التي غدت جزءاً من الأدبيات التلمودية. أما بعد سقوط الملاك وتحوله إلى عدو البشر، فإن النص القرآني يستخدم الاسم شيطان في بقية أخباره عن نشاط ذلك الملاك الأسود في التاريخ وصولاً إلى اليوم الأخير (209).)

ولا نفع هنا من ذكر أقوال المفسرين من أن الله قد خلق الجن قبل خلق آدم بألفي سنة - بالتمام والكمال - وما سوى ذلك من ظنون وتخرصات، فهي أقوال سقيمة لا ترجع إلى أساس نقلي صحيح فلا علينا من طرحها وإهمالها (210).

لم خلق الله الجن ؟!

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ ﴾ [الذَّارِيَات : 56 - 58] .

(قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ قِيلَ: إِنَّ هَذَا خَاصٌّ فِيمَنْ سَبَقَ فِي عِلْمِ اللَّهِ أَنَّهُ يَعْبُدُهُ، فَجَاءَ بِلَفْظِ الْعُمُومِ وَمَعْنَاهُ الْخُصُوصُ. وَالْمَعْنَى: وَمَا

(209) أساطير الأولين - ص 205

(210) البداية والنهاية- ابن كثير - دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان- الطبعة الأولى 2003م - ج1ص 166 ولمزيد من أقوال المفسرين عن الجن قبل خلق آدم انظر فصل : (ابتداء خلق الجن) في كتاب : (عجائب وغرائب الجن كما يصورها القرآن والسنة - بدر الدين الشبلي - مكتبة القرآن- القاهرة - تحقيق إبراهيم الجمل - ص 21

خَلَقْتُ أَهْلَ السَّعَادَةِ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِلَّا لِيُوَحِّدُونِ. قَالَ الْقُشَيْرِيُّ: وَالْآيَةُ دَخَلَهَا التَّخْصِيصُ عَلَى الْقَطْعِ، لِأَنَّ الْمَجَانِينَ وَالصِّبْيَانَ مَا أُمِرُوا بِالْعِبَادَةِ حَتَّى يُقَالَ أَرَادَ مِنْهُمُ الْعِبَادَةَ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ ﴿١٧٩﴾ ﴾ [الْأَعْرَاف : 179] وَمَنْ خُلِقَ لِجَهَنَّمَ لَا يَكُونُ مِمَّنْ خُلِقَ لِلْعِبَادَةِ، فَالْآيَةُ مَحْمُولَةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُمْ، وَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ ۞ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ ﴿١٤﴾ ﴾ [الحُجُرَات : 14] وَإِنَّمَا قَالَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ. ذَكَرَهُ الضَّحَّاكُ وَالْكَلْبِيُّ وَالْفَرَّاءُ وَالْقُتَبِيّ. وَفِي قِرَاءَةِ عَبْدِ اللَّهِ: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ وَقَالَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَيْ وما خلقت الجن ولأنس إِلَّا لِآمُرَهُمْ بِالْعِبَادَةِ. وَاعْتَمَدَ الزَّجَّاجُ عَلَى هَذَا الْقَوْلِ، وَيَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ﴿٣١﴾ ﴾ [التَّوْبَة : 31](.[211]

قرر القرآن الكريم على نحو قاطع سبب خلق الله للإنس والجن فلم يخلقهما الله - وفق القرآن الكريم - إلا لعبادته، والتعرف عليه، ومع ذلك فقد خلت الخطة الإلهية بشأن تعبيد الجن على هذه الأرض من ذكر أي خبر نافع يتعلق بعالم الجن وتاريخهم الديني على هذه الأرض.

ورغم توقعنا بأن لا يأتي القرآن على تفاصيل عقيدة عالم الجن فنعلم من القرآن- مثلا - أن الجن كانوا في البدء - على غرار الإنس - أمة واحدة يعبدون الله ولا يشركون به شيئاً و نعلم منه - أيضا - مدة استقامتهم على تلك الطريقة، مثلما علمنا مدة صلاح الجنس البشري، أو نعلم متى انحرفت الجن عن الطريق السوي المستقيم فأشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا، ونسبوا إلى الله الصاحبة والولد ؟ وهل بعث الله إليهم أنبياء قبل محمد أم لا [212]؟ وما إلى ذلك من أسئلة لا حصر لها ويتوقعها كل من يظن أن النبي

---

[211] انظر تفسير القرطبي ج17ص 55

[212] (وقد أفرط رواة الإسلام من أهل الأخبار في مزاعمهم عن الجن ونسبوا إليها كل غريب وكل عظيم لأنها مظنة كل ذلك في أوهامهم، وقفي على أثارهم جماعة من المتصوفة حتى عينوا أول من أسلم من الجن وهو بزعمهم (هامة بن الهام بن لاقيس بن إبليس...) وأول نبي أرسل إلى الجن فيما قالوا (عامر بن عمير بن الجان) فقتلوه وقتلوا بعده 800 نبي) انظر تاريخ آداب العرب- مصطفي صادق الرافعي - دار الكتاب العربي - ج1 ص235

كان يقيس عالم الجن على عالم البشر جزافاً كلا!، ويكفي أن نقرأ هذه الآيات : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ﴾ [الأَنْعَام : 128 - 130].

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓا۟ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾ قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [الأَعْرَاف : 37- 38] .

﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾ [الأَعْرَاف : 179] .

وكما رأينا لم يفعل القرآن الكريم شيئاً من ذلك على نحو صريح، ولهذا فقد جاءت قضية تعبيد الجن في القرآن الكريم غامضة مضطربة، وأما سبب ذلك فلا يفسره في اعتقادنا سوى غياب منطقية أمثال تلك القياسات الصريحة في بواطن العقل المحمدي

بالغ الفطنة؛ لأننا إذا تفهمنا أن يضل البشر المساكين بسبب الشياطين فكيف تضل الجن؟ أو قل كيف لا يهتدون؟! وكيف ينحرفون عن العقيدة الإلهية القويمة وهم من يعاينون الملكوت الإلهي ويسمعون بآذانهم أخبار أهل السماء؟!، ولماذا يستبعدون البعث والنشور - مثل البشر المحجوبين - ودلائل القدرة الإلهية لا تغيب عن أنظارهم في الأرض ولا في السماء ؟ ولماذا يحتاجون إلى أنبياء من البشر أصلا؟ .!

رغم هذا الذي افتقدناه صراحة من القرآن الكريم فقد جاءنا من ظلال القرآن ما يوحي بأن تلك المشابهة كانت حاضرة ضمنياً في العقل المحمدي بسبب من تجذر طريقة التفكير تلك، ويعضد ذلك أن العقيدة الإسلامية قد ادخرت موضعاً رحيباً للشياطين الضالة والمضلة عن سواء السبيل، لتشبه مصائرهم مصائر البشر، فنجد عالم الأخرويات الإسلامية يحفل بالحديث عن مصائر الجن في الآخرة، وكيف سيعذبون كالبشر في نار جهنم خالدين فيها، وكيف سيوبخون فيها مثلما سيوبخ كفرة الإنس، مما يدل على صحة منطق علماء المسلمين وفقهاء الإسلام الذين توسعوا بالمشابهة الافتراضية الكامنة في العقل المحمدي وما يجمع بين العالمين في قضية التكليف، ودفعوا تلك النقطة المثيرة للفضول إلى حافتها القصوى مثلما جمح علماء الشريعة المتأخرون: (وقد وقع نزاع بين المتأخرين في أن الجن مكلفون بفروع الدين، فقال بعض محققيهم : إنهم مكلفون بها في الجملة لكن لا على حد تكليف الإنس بها لأنهم يخالفون الإنس بالحد والحقيقة، فبالضرورة يخالفونهم في بعض التكاليف . مثاله أن الجن قد أعطى بعضهم قوة الطيران في الهواء فهو مخاطب بقصد البيت الحرام للحج طائراً، والإنسان لعدم تلك القوة لا يخاطب بذلك، هذا في طرف زيادة تكليفهم على تكليف الإنس، فكل تكليف يتعلق بخصوص طبيعية الإنس ينتفي في حق الجن، لعدم تلك الخصوصية فيهم . والدليل على تكليف الجن بالفروع الإجماع على أن النبي صلى الله عليه وسلم أرسل بالقرآن إلى الإنس والجن، وجميع أوامره ونواهيه يتوجه إلى الجنسين، وقد تضمن ذلك أن كفار الإنس مخاطبون بها، وكذلك كفار الجن [213])

[213] البحر المحيط في أصول الفقه - بدر الدين بن بهادر الزركشي - وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بالكويت - الطبعة الثانية - 1992م - ج1

العلاقة بين العالمين

وأما عن العلاقة بين العالمين، فهي علاقة العداوة الأبدية منذ أن رفض إبليس أن يسجد لآدم، وما كان من لعنة الله إياه على صلفه، وتحذير الله لآدم وزوجه من إطاعة هذا العدو الماكر، وتحذيرهما من أنه لن يدخر جهداً في إخراجهما من الجنة ونعيمها إلى الأرض وشقائها : ﴿ فَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَـٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ ﴾ [طه : 117].

ثم استمر التحذير لذرية آدم من إطاعة الشيطان بعد أن صار قبيلة، لتقرر ملمحاً أساسياً أن أهل هذا العالم يرون البشر دون أن يروا، وأنهم سيكونون أولياء للكفار والجاحدين من الإنس: ﴿ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الأَعْرَاف : 27].

(قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ ﴿٢٧﴾ ﴾ " قبيله" جنوده. قال مجاهد: يعني الجن والشياطين. ابن زيد:" قبيلة" نسله. وقيل: جيله. من حيث لا ترونهم قال بعض العلماء: في هذا دليل على أن الجن لا يرون، لقوله " من حيث لا ترونهم" قيل: جائز أن يروا، لأن الله تعالى إذا أراد أن يريهم كشف أجسامهم حتى ترى. قال النحاس:" من حيث لا ترونهم" يدل على أن الجن لا يرون إلا في وقت نبي، ليكون ذلك دلالةً على نبوته، لأن الله جل وعز خلقهم خلقًا لا يرون فيه، وإنما يرون إذا نقلوا عن صورهم. وذلك من المعجزات التي لا تكون إلا في وقت الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم.[214])

[214] تفسير القرطبي – ج7 - ص 186

حظ الجن من الآخرة ونعيمها

﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾ [هُود : 118 - 119]، ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ [السَّجْدَة : 13]، ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [سَبَإ : 40 - 42]، ﴿ ۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [فُصِّلَت : 25]، ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [فُصِّلَت : 29] .

قلنا أن القرآن الكريم لم يكن يتضمن في أصل الخطة الإلهية شيئا عن الجن ومصائرهم؛ ولهذا فقد تبقى أثر واضح لهذا الإقحام الذي قادت إليه غواية المشابهة، ويتجلى أثر هذا الإقحام في أننا نجد مصير الجن الأخروي ملتبساً إلى حد كبير، فمن ناحية نجد الجحيم حاضراً كعقوبة أبدية للجن الكافرين مثلما تدل عليه الآيات السابقة - وأشباهها كثير -، ولكننا لا نجد شيئا واضحاً عن مصير الطائعين الصالحين من الجن، اللهم إلا استنتاجاً من الفقهاء، وقياساً منهم على مصائر المكلفين من الإنس ولعل هذه الآيات التالية من سورة الرحمن أوضح ما جاء في القرآن كله عن حسن مصير صالحي الجن في الآخرة: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ

رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٖ زَوۡجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشِۭ بَطَآئِنُهَا مِنۡ إِسۡتَبۡرَقٖۚ وَجَنَى ٱلۡجَنَّتَيۡنِ دَانٖ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ إِنسٞ قَبۡلَهُمۡ وَلَا جَآنّٞ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾﴾ [الرَّحۡمَٰن : 46 - 57] .

(والخطاب هنا للجن والإنس لأن الحديث في مطلع السورة معهما وفي الآية السابقة امتنان من الله على مؤمني الجن بأنهم سيدخلون الجنة ولولا أنهم ينالون ذلك لما امتن عليهم به .

يقول ابن مفلح في كتابه الفروع: (الجن مكلفون في الجملة إجماعاً، يدخل كافرهم النار إجماعاً، ويدخل مؤمنهم الجنة وفاقاً لمالك والشافعي رضي الله عنهما لا أنهم يصيرون ترابا كالبهائم، وإن ثواب مؤمنهم النجاة من النار خلافاً لأبي حنيفة والليث بن سعد ومن وافقهما ، قال: وظاهر الأول أنهم في الجنة كغيرهم بقدر ثوابهم، خلافا لمن قال لا يأكلون ولا يشربون فيها كمجاهد، أو أنهم في ربض الجنة، أي حول الجنة كعمر بن عبد العزيز،[215]).

ولا يعنينا في شيء بيان المفاضلة بين أقوال المفسرين، بل كل ما يعنينا هنا هو أن نبرهن على أن تلك القضية كانت غائبة عن الذهن النبوي ذاته فلم يمض النبي قدماً في إيضاحها وتركها هكذا غامضة ملتبسة، حتى ساغت في عقول بعض الفقهاء تلك المفارقة العجيبة: وهي أن الجن يعذبون في الجحيم إذا عصوا، ولا ينعمون في الجنة إذا أطاعوا ، وهي مفارقة مثيرة للدهشة ، ولعل أصحاب هذا الرأي كانوا يستبطنون في أنفسهم سهولة أن يؤمن الجن بالله بعدما منحهم الله تلك القدرة العجيبة على الاقتراب من عالم الغيوب وحرم البشر المساكين منها.!

---

[215] نقلا عن - عالم الجن والشياطين - د عمر سليمان الأشقر - مكتبة الفلاح - الكويت - الطبعة الرابعة - 1984م ص 41-42) (واختلف النَّاس هل يدخل مسلمو الجن الْجَنَّة؟ فَقَالَ الضَّحَّاك: يدخلون الْجَنَّة ويأكلون ويشربون. وَقَالَ مجاهد: يدخلونها ولكن لا يأكلون فِيهَا ولا يشربون، يلهمون من التسبيح والتقديس مَا يجد أَهْل الْجَنَّة من لذيذ الطعام والشراب. وَقَالَ ليث بْن أَبِي سليم: ثوابهم أَن يجاروا من النار، ويقال لَهُمْ: كونوا ترابا.)(انظر ج1 ص 175- المنتظم في تاريخ الأمم والملوك- أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي- تحقيق محمد عبد القادر عطا، مصطفي عبد القادر عطا- دار الكتب العلمية، بيروت الطبعة: الأولى، - 1992 م)

المخيال المحمدي عن إبليس وعالمه

أما أفضل وصف لاكتمال صورة إبليس في القرآن الكريم فهو ما قرره المرحوم عباس العقاد بصفاء بديهة نادر حين فسر الفارق بين أوصاف الشيطان في الأناجيل، وما تلاها من اجتهادات اللاهوتيين المسيحيين ـ ولعله كان يضمر ـ أيضا ـ ما جاء في القرآن على سعة النقلة التي سيحدثها النبي في تلك الصورة بين شيطان الأناجيل أمير الظلام ورئيس هذا العالم ـ وبين الصورة الكونية التي سيتجلى بها في الإسلام : (وعندنا أن الفارق في أوصاف الشيطان بين الأناجيل وما تلاها إنما هو الفارق بين الأوصاف السماعية والأوصاف القياسية أو العقلية ؛ فإن الشيطان لم يتقرر له شأن أو دور معلوم في الأديان الكتابية قبل القرن الأول للميلاد وإنما كان في الكتب العبرية أو اليهودية واحدا من الملائكة المغضوب عليهم أو واحدا من الأرواح المتمردة فلا يعرف إلا بما سمع من أوصافه ولا شأن له في ذلك إلا كشأن الأبطال التاريخيين أو الشخصيات التاريخية التي تعرف بالمسموع عنها بين المسموعات المختلفة ولا يمكن أن تعرف بأوصاف عامة يقتضيها العقل والقياس أما الشيطان الذي تقرر له دور معلوم أمام الله فلا يتوقف العلم بأوصافه على السماع بل يجوز للمفكر أن ينسب إليه كل ما يقتضيه ذلك الدور من الألوان والملامح والخصائص والتبعات ويجوز له كذلك أن ينسب له ما سوف يأتي به بعد أزمنة طويلة في نهاية العالم ومصيره المقدور[216]) .

(2)
الجن في الأحاديث النبوية .

إذا كان القرآن الكريم ـ كما رأينا ـ قد اهتم بالأمور الجوهرية عن هذا العالم الخفي، واهتم بالجوانب الأساسية، فقد جاءتنا التفاصيل من رافد آخر وهي عالم المرويات الحديثية، حيث حوت كتب الحديث والسيرة النبوية العشرات، بل المئات من الأحاديث التي يرفعها رواتها إلى النبي، وفيها يتكلم النبي عن عالم الجن والشياطين،

[216] إبليس- عباس محمود العقاد - ص 103- 104

سواء أكان حديثه كشفا عن عالمها الخاص الذي يخفي على الناس تماما، ولا سبيل لمعرفته إلا بالوحي الإلهي، أو كان إخباراً عن جانب من عالمها المتداخل مع عالم الإنس، والذي عرف المسلمون الأولون طرفا منه ؛ لأنه كان قريباً مما شاع من قصص الجن وأخبارهم في الجاهلية، والذي نشك فيه هو أن تلك الأحاديث المنسوبة إلى النبي قد حوت الصحيح والزائف ، والصادق والمكذوب، ولكن الثابت الذي لا ينبغي أن يشك أحد فيه هو أن الجن وعالمهم - وعلى نحو قريب جدا مما اعتقده عرب الجاهلية - كان من بين معتقدات النبي ومسلماته ، ليس لأن القرآن قد سجل لنا ذلك فحسب، بل لأن هذا هو الأمر المعقول والذي لا يعقل شيء سواه.!

أما عن تلك التوليفة التي أنتجت لنا هذا العالم العجيب؛ أي عالم الجن القرآني فليس إدراكه بالأمر العجيب، خاصة لمن يعرف طريقة النبي وتعامله مع مواريثه الثقافية المتعددة، فقد آمن النبي بالشياطين؛ لأنها كانت من بين مقررات الاعتقاد الديني الذي ارتضاه من عقيدة أهل الكتاب، ووجد في الوقت ذاته عقيدة الجن بين موروثه العربي - والذي آمن به على نحو ما - فقام النبي بتأصيل عالم الجن العربي عبر إلحاقه بعقيدة الشيطان اليهودية- المسيحية ، ونتج من هذا المزج هذا الخليط الغريب والذي نراه في القرآن والحديث!

فليس من الغريب في شيء أن يدمج النبي عالم الشياطين الكتابي في عالم الجن العربي، فصار عالم الجن العربي هو الإطار العام الذي تتحرك فيه تلك الكائنات الماورائية الغريبة، وصارت الشياطين الكتابية عنده من شرار الجن ،ودون أن يأبه النبي كثيرا للمشكلات التي ستنشب من الدمج بين عالمين مختلفين، وحيث تتوزع في القصة الواحدة ملامح متنافرة كما يكون من إنشاء جسد يجمع بين صورة الإنسان وصورة الحيوان كما سنرى .

ومما زاد من تعقيد واضطراب تلك الصورة ما تضيفه إليهما تلك الذخيرة الهائلة من الأحاديث التي تكلم النبي فيها عن الشيطان وكيده في لغة هي أقرب ما تكون إلى المجاز، ولكن حمل الحرفيون كلامه فيها على وجه الحقيقة مثل بعض التعبيرات التي لا تصلح إلا من هذا السبيل، حيث توسع النبي في هذا توسعاً كبيراً، لأنه كان أمام أبواب واسعة بطبيعتها مثل عالم النفس ووساوسها، والرغبة في العثور على تأصيل لنزعات الشر والميل النفسي إلى الخروج عن كل ما وضعه الإنسان من قيود وهي في النهاية -

كما نعلم - حلول عتيقة وتجسيدات خيالية لمشاكل سيكولوجية لم يكن قد أتى بعد أوان حلها بالطريقة العلمية ، رغم ما نجده من بعض اللمحات الثاقبة التي تكشف لنا جلال تلك العقول وقوتها لكنها كانت تتحرك وفق خارطة تفسير خاطئة.!

وليس من مثال يظهرنا على تداخل هذين الرافدين اللذان استقى النبي عليه السلام معارفه منهما أكثر من هذا الفصل عن الجن وعالمهم في القرآن الكريم والأحاديث الصحيحة حيث راوح النبي بين الموروث العربي والحكايات التلمودية وإن غلب اعتماده على الموروث الشعبي العربي في رسمه عالم الجن الاجتماعي، واعتمد النبي كثيرا - فيما نعتقد - على المرويات التلمودية في إيضاح جوانب اعتقادهم وتصوراتهم الدينية وكان المخيال المحمدي خير معين له في التوفيق بين هذين الرافدين وسوف نعرض هنا بعض تلك الأحاديث - مقتصرين على ما جاء في أصح المتون الحديثية - لنعرف إلى أي عالم تنتمي ولنرى في النهاية هل تستقيم جميعها أم أن تلك العناصر المختلفة تستعصي على الانسجام لأنها في النهاية تنتمي إلى عوالم بالغة التباين والاختلاف، فمن بين الأحاديث النبوية التي ترجع أصداء الاعتقادات الجاهلية عن الجن وعوالمها هذه الأمثلة من الأحاديث، والتي سنقتصر على بعضها؛ لأننا لا نستهدف الاستقصاء بل لبيان موقف النبي من هذا التراث الاعتقادي العربي سواء بالموافقة التامة أو بالمخالفة الكاملة، أو بالتصويب لبعض جوانبه واستبقاء الباقي.

النبي يتعوذ من الجن

في مقابل استعاذة عرب الجاهلية بسادات الجن وكبرائهم من سفهاء الجن فقد حضت المعوذتان على الاستعانة بالله رب الإنس والجن، وذلك من خلال صيغة جامعة تغني المسلم عن كل ما يخشاه من شرور أهل ذاك العالم المخيف: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾ [الفَلَق : 1 - 5].

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦﴾ [النَّاس : 1 - 6] .

(عن أبي سعيد الخدري قال : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتعوذ من الجان وعين الإنسان حتى نزلت المعوذتان، فلما نزلتا أخذ بهما، وترك ما سواهما [217]).

اعتقاد النبي في قدم تلك التعاويذ

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم يعوذ الحسن والحسين ويقول : (إن أباكما كان يعوذ بها إسماعيل وإسحاق : أعوذ بكلمات الله التامة، من كل شيطان وهامة، ومن كل عين لامة [218])

وكما ترى فقد اعتقد النبي أنه كان يتابع - في توقي الشياطين والهوام والعين الحاسدة - إرثاً إبراهيمياً عتيقاً.

أصناف الجن

عن أبي ثعلبة الخشني قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: الجن ثلاثة أصناف فصنف يطير في الهواء، وصنف حيات وكلاب، وصنف يحلون ويظعنون[219])

هذا الحديث إن صح - يعرفنا كيف جمع النبي أصل تلك المخلوقات فهو دمج لتجليات الجن والشياطين فمن المأثور الكتابي، الجن الطائر لصلته بعالم الملائكة القديم، والصنف الثاني: يعطي مثلاً لبعض تجسدات الجن في البهائم والحيوان والزواحف، وأما الصنف الثالث فهو يترجم عن عالم الجن العربي .

[217] أخرجه الترمذي في الجامع رقم (2058) وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (4902) الإيضاح والتبيين ص 149- 150

[218] رواه البخاري رقم (3371) قال الحافظ في الفتح (6- 497) : قوله :(من كل شيطان) يدخل تحته شياطين الإنس والجن . قوله (وهامة) بالتشديد : واحدة الهوام ذوات السموم، وقيل : كل ما له سم يقتل، فأما مالا يقتل سمه فيقال له : السوام، وقيل : المراد كل نسمة تهم بسوء . قوله : (ومن كل عين لامة). قال الخطابي : المراد به كل داء وأفة تلم بالإنسان من جنون وخبل)
(نقلا عن كتاب الإيضاح والتبيين - لما صح مما لم يصح من الاحاديث والآثار والهواتف في الجن والشياطين) (أبو نصر محمد بن عبد الله الإمام - مكتبة الإمام الوادعي صنعاء - مؤسسة الريان بيروت - الطبعة الأولى - 2009م- ص55

[219] (انظر الحديث في صحيح الجامع برقم (3114)- وصححه الألباني في تعليقه على المشكاة رقم (4148)

وكما كانت العرب تعتقد في أن للجن دواباً ترتحل عليها فقد جاء في القرآن أن للشيطان خيلاً يجلب بها على أعدائه من بني آدم : ﴿ وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم بِخَيۡلِكَ وَرَجِلِكَ ﴿٦٤﴾﴾ [الإِسْرَاء : 64] .

وأما الأحاديث فقد أخبرتنا بأن للجن دواباً وأن علف دوابهم هو البعر الذي يخرج من دواب الإنس، فعن ابن مسعود أن الجن سألوا النبي الزاد فقال: (لكم كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع في أيديكم أوفر ما يكون لحما وكل بعرة علفا لدوابكم[220])؛ أي أن دوابهم تتقمم طعام دواب الأنس، ولا ندري علام كانت الجن تقتات قبل ذلك.!

أحد مؤمني الجن يدفع عن مؤمن الإنس شيطانيين من الجن !

(عن ابن عباس (أن رجلا خرج فتبعه رجلان ورجل يتلوهما يقول : ارجعا قال: فرجعا قال : فقال له : إن هذين شيطانان، وإني لم أزل بهما حتى رددتهما، فإذا أتيت النبي صلى الله عليه وسلم فأقرئه السلام، وأعلمه أنا في جمع صدقاتنا، ولو كانت تصلح له لأرسلنا بها إليه قال : فنهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك عن الخلوة [221]) .

أما هذا الحديث العجيب فيدل على استمرار الاعتقاد في شأن سفهاء الجن الكافرين، وتعرضهم للإنس بالأذى حيث منع هذا الجني الصالح شيطانين كافرين من التعرض لمسلم سار بليل وحده، ونراه يقرأ النبي السلام، ويخبره بأن مجتمعهم الإسلامي يحرص على جمع الصدقات من أغنياء الجن ليردوها على فقرائهم، ولم يمنعهم عن إرسال تلك الصدقات إلى النبي سوى ما يعلمه النبي من اختلاف العالمين.

الجن يقتلون صحابياً .

(ولما قام "حرب بن أمية" جد معاوية بن أبي سفيان مع "مرداس بن أبي عمرو" بإصلاح "القرية"، وهي إذ ذاك غيضة شجر ملتف لا يرام، فأضرما النار في الغيضة،

[220] (رواه مسلم (450) كتاب الصلاة)

[221] قال الشيخ أحمد شاكر (إسناده صحيح)، وصححه الألباني انظر السلسلة الصحيحة رقم (3134)، الإيضاح والتبيين ص 147-148

فلما استطارت وعلا لهيبها سمع من الغيضة أنين وضجيج كبير، ثم ظهرت منها حيات بيض تطير حتى قطعتها وخرجت منها، فما لبث أن مات الرجلان، أماتهما الجن على ما يزعمه رواة هذا الخبر. ولعلهما ماتا بعضه حية من تلك الحيات التي كانت ساكنة بين تلك الحيات والحشرات، فابتدعت مخيلة القصاصين هذه القصة عن فزع الجن وطيرانها في صورة ثعابين بيض[222].)

وكما رأينا عند العرب الجاهليين من إمكانية أن يقتل العربي الجن، وأن يقتل الجن البشري فقد جاءتنا الأحاديث بما يفيد ذلك - أيضا - ومنها هذا الحديث : (عن أبي السائب قال : دخلنا على أبي سعيد الخدري فبينما نحن جلوس إذ سمعنا تحت سريره فنظرنا فإذا فيه حية فوثبت لأقتلها وأبو سعيد يصلي فأشار إلي أن أجلس فجلست فلما انصرف أشار إلى بيت في الدار فقال: أترى هذا البيت ؟ فقلت: نعم، فقال: كان فيه فتى منا حديث عهد بعرس قال : فخرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الخندق فكان ذلك الفتى يستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنصاف النهار فيرجع إلى أهله فاستأذنه يوما فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : " خذ عليك سلاحك فإني أخشى عليك قريظة " . فأخذ الرجل سلاحه ثم رجع فإذا امرأته بين البابين قائمة فأهوى إليها بالرمح ليطعنها به وأصابته غيرة فقالت له : اكفف عليك رمحك وادخل البيت حتى تنظر ما الذي أخرجني فدخل فإذا بحية عظيمة منطوية على الفراش فأهوى إليها بالرمح فانتظمها به ثم خرج فركزه في الدار فاضطربت عليه فما يدري أيهما كان أسرع موتا : الحية أم الفتى ؟ قال : فجئنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وذكرنا ذلك له،وقلنا : ادع الله يحييه لنا فقال : " استغفروا لصاحبكم " ثم قال : " إن لهذه البيوت عوامر فإذا رأيتم منها شيئا فحرجوا عليها ثلاثا فإن ذهب وإلا فاقتلوه فإنه كافر " . وقال لهم : " اذهبوا فادفنوا صاحبكم " وفي رواية قال : "إن بالمدينة جنا قد أسلموا فإذا رأيتم منهم شيئا فآذنوه ثلاثة أيام فإن بدا لكم بعد ذلك فاقتلوه فإنما هو شيطان" .[223])

---

[222] المفصل ج12 ص 302

[223] رواه مسلم رقم (2236)

الجن والقنفذ

(يذكر عن أعرابي أنه قال: لما ولدت قيل لأبي نفر عنه، فسماني قنفدا وكناني أبا العداء [224]) ، (والجن تمتطي الحيوانات ومن بينها القنفذ فهو من مطايا الجن[225].(

علمنا بأن القنفذ من مراكب الجن في الجاهلية، ووجدنا حديثاً يتابع فيه النبي- على الأرجح - اعتقادات أهل الجاهلية في تجسد الشيطان في القنفذ أو امتطائه القنفذ، فعن قتادة بن النعمان قال :(كانت ليلة شديدة الظلمة والمطر فقلت لو أني اغتنمت هذه الليلة شهود العتمة مع النبي صلى الله عليه وسلم ففعلت فلما انصرف النبي (ص) أبصرني ومعه عرجون يمشي عليه فقال : مالك يا قتادة هاهنا هذه الساعة ؟ فقلت: اغتنمت شهود الصلاة معك يا رسول الله، فأعطاني العرجون وقال إن الشيطان قد خلفك في أهلك فاذهب بهذا العرجون فأمسك به حتى تأتي بيتك فخذه من وراء البيت فاضربه بالعرجون فخرجت من المسجد فأضاء العرجون مثل الشمعة نورا فاستضأت به فأتيت أهلي فوجدتهم رقودا فنظرت في الزاوية فإذا فيها قنفذ فلم أزل أضربه بالعرجون حتى خرج[226]).

الجن يخلصون النصح أحياناً.

كما رأينا في أخبار عرب الجاهلية من أن الجن قد يفعلون الخير، مثل قصة الجني الصالح مع أمية ابن أبي الصلت ورفاقه، فقد جاءنا هذا الحديث عن أن بعض الجن كان له دور في هداية الإنس: ففي صحيح البخاري: (أن عمر بن الخطاب سأل رجلا كان كاهنا في الجاهلية عن أعجب ما جاءته به جنيته قال : بينما أنا يوما في السوق جاءتني أعرف فيها الفزع فقالت: ألم تر الجن وإبلاسها --- ويأسها بعد إنكاسها ---- ولحوقها بالقلاص وأحلاسها .

---

[224] بلوغ الأرب 2 ص 219 نقلا عن كتاب - مدخل لدراسة الفلكلور والأساطير العربية - مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة -القاهرة - 2015م - شوقي عبد الحكيم ص 118 والمنفرات أي إتيان الأمور المنفرة للجن

[225] بلوغ الأرب ج2 ص 325

[226] (الصحيحة 3036)

قال عمر صدق[227] بينما أنا نائم عند آلهتهم، إذ جاء رجل بعجل فذبحه فصرخ به صارخ لم أسمع صارخاً قط أشد صوتاً منه يقول: يا جليح أمر نجيح رجل فصيح يقول لا إله إلا الله قال فوثب القوم قلت: لا أبرح حتى أعلم ما وراء هذا ثم نادى يا جليح أمر نجيح رجل فصيح يقول لا إله إلا الله فقمت فما نشبنا أن قيل هذا نبي[228]).

الجن تتشكل في صور شتى!

تابع النبي الاعتقاد العربي في قدرة الجن على التشكل فيما شاءوا من صور البشر وهيئاتهم المختلفة، أو صور الحيوان خاصة في صورة الكلب أو القط أو الحمار أو الجمل، ولعل الاعتقاد في أن الجن قد خلقت من النار سبب في ذلك ؛ فالنار وهي صورة تحول العناصر تترجم عن هذا الوجود المُخاتل لتلك الكائنات التي تظهر متى تشاء وتختفي متى شاءت في مقابل الصورة الثابتة للمخلوق البشري المجبول من الطين، لكن أكثر ما يكون التشكل في صورة الكلب الأسود أو القط الأسود كما يدلنا هذا الحديث : (إذا قام أحدكم يصلي فإنه يستره إذا كان بين يديه مثل آخرة الرحل فإذا لم يكن بين يديه مثل آخرة الرحل فإنه يقطع صلاته الحمار،والمرأة، والكلب الأسود. قلت: يا أبا ذر ما بال الكلب الأسود من الكلب الأحمر من الكلب الأصفر ؟ فقال: يا ابن أخي سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم كما سألتني فقال : الكلب الأسود شيطان [229]) .

(الحيات مسخ الجن كما مسخت القردة والخنازير من بني إسرائيل [230]).

ولا نشك أن خلف هذا الحديث الأخير خرافات تلمودية عن مسخ بعض العصاة من بني إسرائيل، ولكن النبي يقرر هنا أن هيئة الحيات التي يتجسد بها الجن، إنما هي عقوبة قديمة أنزلها الله ببعض عصاة الجن، وهذا الحديث لا يدل على اعتقاد النبي في أن القردة التي كانت موجودة في عصره من نسل هؤلاء الممسوخين، فقد جاءتنا أحاديث صحيحة تخبرنا على أن الممسوخ لا يولد له كما جاء في صحيح مسلم مرفوعا): إن الله

---

[227] مع ما في هذا الحديث من اضطراب ظاهر لأننا لا ندري هل السامع صوت الصارخ من جوف العجل هو عمر كما يتبادر من ظاهر الحديث أم الكاهن ؟ ولكنها على كل حال قصة تخبرنا بأن الجن قد شاركت الإنس في رجاءها مبعث النبي ويبدو أنها كانت فرحة لمبعثه شان الأرواح الصالحة واحتفائها بالهداية وأهلها

[228] (رواه البخاري (3866) كتاب المناقب)

[229] (رواه مسلم برقم (510) كتاب الصلاة)

[230] (صحيح الجامع للألباني - برقم 3203)، والسلسلة الصحيحة رقم (1824)

عز وجل لم يهلك قوماً أو يعذب قوماً فيجعل لهم نسلاً، وإن القردة والخنازير كانوا قبل ذلك.[231])، ولكن هذا الحديث يدل ربما على اعتقاد النبي في طول بقاء هؤلاء الجن فقد ظلوا على هيئتهم الممسوخة تلك مذ مسخهم الله حتى زمانه .

(على ذروة كل بعير شيطان فامتهنوهن بالركوب فإنما يحمل الله تعالى[232])، (لولا أن الكلاب أمة لأمرت بقتلها ولكن خفت أن أبيد أمة فاقتلوا منها كل أسود بهيم فإنه جنها أو من جنها[233]).

ويقوي تلك النصوص هذه الشهادة الحية التي يقدمها من لا نكذبه، وهو الشيخ وحيد عبد السلام بالي حيث يقول: (قلت : وقد أخبرني جني على لسان بعض المرضى أنه يحب أن يتشكل في صورة الحيوانات السوداء[234]) .

من الجن الذكور والإناث

علمنا من القرآن أن من الجن رجال كما في هذه الآية : ﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ ﴾ [الجن : 6] .

وفي الصحيحين من حديث أنس قال كان رسول الله (ص) إذا دخل الخلاء قال (اللهم إني أعوذ بك من الخبث والخبائث[235]) (قال ابن الأثير الخُبث بضم الباء جمع الخبيث والخبائث جمع الخبيثة ويريد ذكور الشياطين وإناثهم [236]) .

---

[231] رواه مسلم من حديث عبد الله بن مسعود (2663) وهذا الحديث ربما يكفي لرد مجازفة باحث جليل حاول أن يرد تحريم أكل القردة والخنازير إلى اعتقاد النبي في أصولهم الإنسانية حيث يقول : (أما القرآن فلا يسعى إلى تسويغ تحريم لحم الخنزير غللا بوصفه رجسا . بيد أن بعض الآيات من شأنها السماح بتفسير أدق، سنغامر بتقديمه مع التحفظ الشديد . لنذكر الوقائع أولا . يبدو أن الإسلام يقول بإمكان انمساخ كائن بشري حيوانا (فلما عتو عما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين)، كما جاء في القرآن (7\166؛ 2\65) . ويتحدث أيضا عن أولئك الذين لعنهم الله، وغضب عليهم وجعلهم قردة وخنازير (5\60) .فهل يجوز لنا الاستنتاج من ذلك بأن لحم هذين الحيوانين كان محرما بسبب أصولهما البشرية ؟ على هذا النحو قد نخطو خطوة معينة نحو الطوطمية (انظر – بُنى المقدس عند العرب – قبل الإسلام وبعده- يوسف شُلحُد- ترجمة : خليل أحمد خليل- دار الطليعة للطباعة والنشر- بيروت- الطبعة الأولى – 1996م- ص 136-137

[232] (صحيح الجامع برقم (4030)

[233] صحيح مسلم في كتاب المساقاة رقم(47)(صحيح الجامع برقم (5321)

[234] الشيخ وحيد عبد السلام بالي ص 24 في كتاب (وقاية الإنسان من الجن والشيطان) دار الكتب العلمية بيروت لبنان -

[235] (متفق عليه رواه البخاري (142) كتاب الوضوء، ومسلم (375) كتاب الحيض

[236] (لسان العرب - ج2 ص 1088)، (المصارع ص 86)

حيات البيوت

(والحية، من أكثر الحيوانات وروداً في القصص الذي يرويه الإخباريون عن الجن. وقد جعلوها فصيلة مهمة من فصائلها، ونوعا بارزا من أنواعها. ... ولم تنفرد مخيلة الجاهليين وحدها باختراع أسطورة أن الحيات هي من الجن، وإنها جنس منها، فإن غير العرب من الساميين مثل العبرانيين كانوا يقولون - أيضا - بهذا القول. وكذلك قال بهذه الأسطورة غير الساميين، مما يدل على إنه من الأساطير القديمة جدا التي انتشرت عند البشر، بسبب ما قاسوه في أيام بداوتهم من هذا الحيوان[237]).

(من ترك الحيات مخافة طلبهن فليس منا ما سالمناهن منذ حاربناهن[238])، (أي من توقى قتلهن خشية شرهن فليس ذلك من سنتنا. وكانت الجاهلية تقول إنها تؤذي قاتلها أو تصيبه بخبل[239])،(إن بالمدينة جنا قد أسلموا فإذا رأيتم منهم شيئا فآذنوه ثلاثة أيام فإن بدا لكم بعد ذلك فاقتلوه فإنما هو شيطان " .[240])

) تنبيهات مهمة حول قتل حيات البيوت .[241]

1- هذا الحكم وهو النهي عن قتل الحيوانات خاص بالحيات دون غيرها.

2- وليس كل الحيات بل الحيات التي نراها في البيوت وحدها أما التي نشاهدها خارج البيوت فنحن مأمورون بقتلها.

3- إذا رأينا حيات البيوت فنؤذنها ؛ أي نأمرها كأن نقول: أقسم عليك بالله أن تخرجي من هذا المنزل وأن تبعدي عنا شرك وإلا قتلناك فإن رؤيت بعد ثلاثة أيام قتلت .

4- والسبب في قتلها بعد ثلاثة أيام أننا تأكدنا أنها ليست جنا مسلما لأنها لو كانت كذلك لغادرت المنزل فإن كانت أفعى حقيقية فهي تستحق القتل وإن كانت جنا كافرا متمردا فهو يستحق القتل لأذاه وإخافته أهل البيت.

---

[237] (المفصل ج12 ص302

[238] (المشكاة رقم (4138)

[239] (تاج العروس للزبيدي نقلا المفصل ج12ص 303)

[240] رواه مسلم رقم (2236)

[241] المصارع - الشيخ محمود المصري- مكتبة الصفا للنشر والتوزيع - الطبعة الأولى - 2010م

5- يُستثنى من جنان البيوت نوع يقتل بدون استئذان ففي صحيح البخاري عن أبي لبابة أن الرسول (ص) قال لا تقتلوا الجنان إلا كل أبتر ذي طفيتين فإنه يسقط الولد، ويذهب البصر فاقتلوه [242]).

النهي عن الخوف من ثأر الجن

(من ترك الحيات مخافة طلبهن فليس منا ما سالمناهن منذ حاربناهن[243]) : (مَا سَالَمْنَاهُنَّ) أَيْ مَا صَالَحْنَا الْحَيَّاتِ (مُنْذُ حَارَبْنَاهُنَّ) أَيْ مُنْذُ وَقَعَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُنَّ الْحَرْبُ فَإِنَّ الْمُحَارَبَةَ وَالْمُعَادَاةَ بَيْنَ الْحَيَّةِ وَالْإِنْسَانِ جِبِلِّيَّةٌ لِأَنَّ كُلًّا مِنْهُمَا مَجْبُولٌ عَلَى طَلَبِ قَتْلِ الْآخَرِ وَقِيلَ أَرَادَ الْعَدَاوَةَ الَّتِي بَيْنَهَا وَبَيْنَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى مَا يُقَالُ إِنَّ إِبْلِيسَ قَصَدَ دُخُولَ الْجَنَّةِ فَمَنَعَهُ الْخَزَنَةُ فَأَدْخَلَتْهُ الْحَيَّةُ فِي فِيهَا فَوَسْوَسَ لِآدَمَ وَحَوَّاءَ حَتَّى أَكَلَا مِنَ الشَّجَرَةِ المنهية فأخرجا عنها قاله القارئ (وَمَنْ تَرَكَ شَيْئًا مِنْهُنَّ) أَيْ مَنْ تَرَكَ التَّعَرُّضَ لَهُنَّ (خِيفَةً) أَيْ لِخَوْفِ ضَرَرٍ مِنْهَا أَوْ مِنْ صَاحِبِهَا (فَلَيْسَ مِنَّا) أَيْ مِنَ الْمُقْتَدِينَ بِسُنَّتِنَا الْآخِذِينَ بِطَرِيقَتِنَا وَلَعَلَّ الْمُرَادَ مَا لَا تَظْهَرُ فِيهِ عَلَامَةُ أَنْ يَكُونَ جِنِّيًّا[244]).

(عن أسلم قَالَ: كَانَ عُمَرُ يَقُولُ عَلَى المنبر: يَا أَيُّهَا النَّاسُ! أَصْلِحُوا عَلَيْكُمْ مَثَاوِيكُمْ وَأَخِيفُوا هَذِهِ الْجِنَّانَ قَبْلَ أَنْ تُخِيفَكُمْ فَإِنَّهُ لَنْ يَبْدُوَ لَكُمْ مُسْلِمُوهَا، وَإِنَّا -وَاللَّهِ- مَا سَالَمْنَاهُنَّ مُنْذُ عَادَيْنَاهُنَّ.[245]).

(ثنا عبد الله بن أبي مليكة أن عائشة بنت طلحة، حدثته، أن عائشة قتلت جنانا ؛ فأريت فيما يرى النائم فقيل لها : والله لقد قتلت مسلماً ، فقالت : والله لو كان مسلماً ما دخل على أزواج النبي صلى الله عليه وسلم، فقيل لها: وهل كان يدخل عليك إلا وأنت متجلببة أو مخمرة، فأصبحت وهي فزعة، فأمرت باثني عشر ألفا، فجعلتها في سبيل الله عز وجل "[246]).

---

[242] (رواه البخاري (3311) كتاب بدء الخلق

[243] (المشكاة رقم (4138)

[244] انظر عون المعبود شرح سنن أبي داود ومعه حاشية ابن القيم تهذيب سنن أبي داود وإيضاح علله ومشكلاته - محمد أشرف شرف الحق الصديقي - دار الكتب العلمية ا- لطبعة الثانية 1415ه - ج14 ص 109

[245] (حسن الإسناد) انظر صحيح الأدب المفرد باب إصلاح المنازل - دار الصديق للنشر والتوزيع - الطبعة الرابعة 1997م ص 171)

[246] انظر- بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث- تأليف الحارث بن محمد بن داهر التميمي البغدادي الخصيب المعروف بابن أبي أسامة- انتقاء أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان بن أبي بكر الهيثمي- تحقيق د حسين أحمد صالح الباكري - مركز خدمة السنة والسيرة النبوية - المدينة المنورة الطبعة: الأولى، 1992ج1 ص 485 والحديث

وهذه القصة - إن صح سندها - فهي تطلعنا كيف هذا التخوف الجاهلي ظل يتوارى من خلف العقيدة الإسلامية ؛ فهنا نجد السيدة عائشة تتخوف من انتقام الجن من قتلها لجني تجسد في صورة حية من حيات البيوت، ولكن - كما ترى - بعد أن ألحقت به خوفها من أن تكون قد سفكت دم جني مسلم بغير وجه حق فتصدقت كما لو كانت صدقتها دية للجني القتيل أو تكفيرا عن ذلك الذنب غير المقصود: (فَإِنَّهُمَا يَلْتَمِسَانِ الْبَصَرَ) أَيْ يَطْلُبَانِهِ وَفِي رِوَايَةِ الشَّيْخَيْنِ يَطْمِسَانِ الْبَصَرَ بِفَتْحِ الْيَاءِ وَكَسْرِ الْمِيمِ أَيْ وَيُعْمِيَانِ الْبَصَرَ بِمُجَرَّدِ النَّظَرِ إِلَيْهِمَا لِخَاصِّيَّةِ السُّمِّيَّةِ فِي بَصَرِهِمَا (وَيُسْقِطَانِ) مِنَ الْإِسْقَاطِ (الْحَبَلَ) بِفَتْحَتَيْنِ أَيِ الْجَنِينَ عِنْدَ النَّظَرِ إِلَيْهِمَا بِالْخَاصَّةِ السُّمِّيَّةِ قَالَ الْقَاضِي وَغَيْرُهُ جَعَلَ مَا يَفْعَلَانِ بِالْخَاصَّةِ كَالَّذِي يُفْعَلُ بِقَصْدٍ وَطَلَبٍ وَفِي خَوَاصِّ الْحَيَوَانِ عجائب لا تنكر وقد ذكر في خَوَاصِّ الْأَفْعَى أَنَّ الْحَبَلَ يَسْقُطُ عِنْدَ مُوَافَقَةِ النَّظَرَيْنِ وَفِي خَوَاصِّ بَعْضِ الْحَيَّاتِ أَنَّ رُؤْيَتَهَا تُعْمِي وَمِنَ الْحَيَّاتِ نَوْعٌ يُسَمَّى النَّاظُورُ مَتَى وَقَعَ نَظَرُهُ عَلَى إِنْسَانٍ مَاتَ مِنْ سَاعَتِهِ وَنَوْعٌ آخَرُ إِذَا سَمِعَ الْإِنْسَانُ صَوْتَهُ مَاتَ[247]).

برقم (419)(عن ابن أبي مليكة : أن جانا كان لا يزال يطلع على عائشة رضي الله عنها فأمرت به فقتل، فأتيت في المنام فقيل : قتلت عبد الله المسلم فقالت : لو كان مسلما لم يطلع على أزواج النبي صلى الله عليه وسلم فقيل لها : ما كان يطلع حتى تجمعي عليك ثيابك، وما كان يجيء إلا ليستمع القرآن، فلما أصبحت أمرت باثني عشر ألف درهم ففرقت في المساكين) وفي رواية أخرى رأت عائشة رضي الله عنها حية في بيتها فأمرت بقتلها فقتلت، فأتيت في تلك الليلة فقيل لها : إنها من النفر الذين استمعوا الوحي من النبي صلى الله عليه وسلم فأرسلت إلى اليمن فابتيع لها أربعون رأسا فأعتقتهم)انظر : آكام المرجان في أحكام الجان بدر الدين الشبلي- تحقيق أحمد عبد السلام - دار الكتب العلمية بيروت لبنان - ص 63)، وقد عقب محققه فقال : أورده الشبلي في آكام المرجان من رواية المؤلف وفي إسناده عثمان بن عمر مقبول - يعني إذا توبع - ولعله توبع -، انظر كتاب العظمة - أبو الشيخ الأصبهاني - دراسة وتحقيق رضا الله بن محمد المبار كفوري - دار العاصمة الرياض - ج5 ص 1655-

(247) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي: أبو العلا محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفورى الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت- المجلد الخامس - ص 49

المبحث الثاني: قصة النبي والجن في القرآن الكريم .

أولا: حول القصة.

سعت هذه الصفحات لتبين - كما سبق وأن قلنا - أن قصص أنبياء القرآن الكريم لم تكن تترجم عن حيوات بشر عاشوا حقاً وصدقاً في هذا العالم ؛ بحيث يستطيع من يطالع قصصهم في القرآن أن يرى من خلف تلك القصص وأصحابها وجوها متمايزة لنخبة مختارة من الرجال، والذين تنوعت ملكاتهم الإدراكية وتفاوتت مواهبهم الروحية، وتباينت كذلك ثقافاتهم وأخلاقهم بمقدار ما توزعت عصورهم وأماكنهم على تاريخ وخارطة العالم، وبحيث يستطيع من يقرأ سيرهم أن يستخرج من خلف قصصهم ملامح عصورهم وثقافة أزمانهم، مثلما يمكنه أن يفعل ذلك عند قراءته لترجمات المؤرخين لأبطال التاريخ وشخصياته، بل مثلما يمكنه أن يجد شيئا من ذلك عند قراءته لبعض قصص أبطال العهد القديم ؛ حيث سيجد هناك ملامح شخصية واضحة لبعض رجاله ونسائه، سواء أكانوا أنبياء أو ملوكا أو كانوا من عامة الناس، مما يوحي أن خلف تلك الأسماء والملامح عاش بشر حقيقيون - رغم ما تعرضت له تلك الصور من تحسين وتقبيح، وتجميل وتشويه، بل ومن كثير من المبالغات المضحكة وفق مقصد الكاتب وأغراضه من خلف قصصهم لكنه - في النهاية - كان يترجم - في بعض الأحيان - عن بشر حقيقيين خاصة في الأسفار الأخيرة منه مثل قصص شاول وداود وسليمان وغيرهم.

أما أنبياء القرآن جميعاً فلم يكونوا - مثلما رأينا - سوى تنويعات متتابعة للحن أساسي واحد يصح وصفه بأنه مؤثر وجميل، لكنه - ودونما ريب - مكرر ورتيب، حيث نراه يتكرر دوماً من خلف جميع الأسماء والعصور، ولم يكن هذا من الغريب في شيء، فقد كانوا جميعا - كما رأينا - يعكسون ملامح عصر واحد - لم يكن عالم أيا منهم -، بل كان عالم عرب ما قبل الإسلام، ولم يكونوا يعبرون عن عقولهم وعن أنفسهم - بحيث نستطيع - ولو مرة واحدة -أن نقارن بين تصورين أو بين رؤيتين متمايزتين أبداً - ، بل كانوا جميعا يترجمون عن رؤية شخص واحد هو نبي الإسلام، وفي جملة واحدة: فإنهم لم يكونوا في النهاية سوى أقنعة يتجلى من خلفهم صوت وعقل رجل واحد وهو النبي محمد - عليه السلام -، وجدله الخلاق مع ثقافة أهل عصره.

وإذا استهول القارئ الكريم أن يصدق في وجود مثل هذا المخيال النبوي العجيب، والذي كسا أفراداً - ربما لا يعرف عن بعضهم سوى أسمائهم، والذين عاشوا قبله بمئات أو بألوف السنين - بصورته الشخصية وملامح رؤيته الدينية، وصاغهم جميعا على مثال نفسه - عدا نتفاً صغيرة من الصورة أخذت ملامحها - دون شك - من الإرث الكتابي الذي ألم به النبي إلماماً ضعيفاً، كما في رأينا في قصص نوح ولوط ويوسف، أو عرفَ النبي أخبارهم من الموروث الثقافي العربي وحكاياتهم الملفقة عن العرب البائدة، كما شاهدنا في قصتي هود وصالح- نقول لمن يستهول ذلك ويستغربه أنه ليس عليه سوى أن ينتظر قليلاً ليرى - بأم عينيه - كيف استطاعت تلك القريحة الخلاقة أن تمنح - هذه المرة- ملامح البشر وخلائقهم وعقائدهم وحماقاتهم واستجاباتهم، بل وجميع تفاصيل حياتهم لعالم آخر مواز لعالم البشر، وتصوغه في قالبه، وهو تصوره لعالم الجن كما سنرى في هذا الفصل..

أما عن سبب اختيارنا لقصة الجن لنختم بها ما أخترنا عرضه من قصص القرآن الكريم؛ فالعلة ذلك أنها - في اعتقادنا - القصة الوحيدة التي تجمع لنا كل العناصر الثلاثة التي قام عليها القصص القرآني في قصة واحدة ؛ حيث نراها تجمع في أساسها بين الموروث الثقافي العربي وإلى جانبه الإرث الكتابي، وقبل ذلك وبعده تلك الهبة الطبيعية النادرة، ونعني بها هبة المخيال الشخصي الصادق، متفاعلين معاً على طريقة النبي محمد المُثلى في دمج العناصر التي يعرفها كل الناس تفاريق، لكنه- عليه السلام - كان وحده من دون الناس جميعاً الذي كان يستطيع الخروج منها بما لا يخطر ببال أحد!، بل يحق لمَن شاء أن يقول أنه ليس من مبحث واحد يعكس لنا طريقة تفاعل النبي محمد مع ثقافة عصره كما يفيدنا عرض قصة الجن في القرآن الكريم، وأضف إلى تلك الأسباب أنها تصلح - أيضا - للإبانة عن الفضاء الخرافي الذي كانت الأديان الكتابية الثلاثة تسبح فيه، وارتكزت عليه بعض مفاهيمها الأساسية، وسنحاول أن نضيء هذه النقطة لاحقا في ختام هذا الفصل . ولكن قبل أن نورد تفاصيل تلك القصة القرآنية ونحاول أن نردها إلى عناصرها العامة من التراثين العربي والكتابي، فلننقل أولاً كلمة موجزة عن طبيعة المخيال المحمدي على وجه الإجمال، لنرى مصداق ما نقوله كلما تقدمنا في قراءة هذه القصة الشائقة.!

(1)

المخيال المحمدي

ربما يحق لمن يقرأ قصص القرآن الكريم - من هذا المنظور الذي نرشحه - أن يرى بوضوح حضور المخيال المحمدي في لحمة القرآن وسُداه، فالقرآن الكريم إنما هو ترجمة حية وصادقة لحياة باطنية موارة وصاخبة، كان يستثيرها انفعال شعوري عارم، ولكن الصعوبة - في اعتقادنا - تكمن في الحكم على طبيعة هذا الخطاب البياني المعقد، والذي كان يراوح بين الانغماس التام في قضايا الواقع اليومي، ويعنى بشؤونه حتى ليغيب عنه كل أثر للخيال - بل يجد القارئ في بعض نصوصه التشريعية تأسيساً دنيوياً بالغ الصلادة، كما لو كان القارئ يطالع مدونة قانونية جافة هي نتاج عقل مُشرع لا يعرف شيئاً خارج هذا العالم الترابي ، وبين أن يجد إلى جانبه - وربما بعد فقرة واحدة - حضوراً مخيالياً رائعاً يكاد يكون إبداعياً وكل ذلك في وحدة لا تنفصم .

لكن من يتأمل في طبيعة الخيال النبوي- كما يتجلى في القصص القرآني والقصص الحديثي - كما سنرى في القصص النبوي في الفصل القادم - فسيجده مخيالاً تركيبياً، وليس إنشاء إبداعياً أصيلاً يقدر على الخلق والابتكار، ودونما وجود مثال سابق يحتذيه، وفي اعتقادنا أن ذلك لم يكن أبداً بسبب نقص في مواهب النبي محمد المخيالية، كلا! بل كان ذلك بسبب تلك القيود التي كانت تحد من انطلاق مخيال النبي وتقيده بين حدودها، وكان من أجَّل تلك القيود الذاتية وأشرفها هو قيد تخوفه الباطني من أن يغادر تخوم المتابعة الورعة لما اعتقد النبي جازماً في صحته فيمضي وراء ذلك إلى الاختلاق والافتراء والكذب على الله، وذلك عبر الاسترسال مع الفرضيات والرجم بالظنون التي لا تغني من الحق شيئاً وهو ما لم يفعله النبي أبداً.

﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرٗا رَّسُولٗا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوۡ كَانَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَلَٰٓئِكَةٞ يَمۡشُونَ مُطۡمَئِنِّينَ لَنَزَّلۡنَا عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكٗا رَّسُولٗا ﴿٩٥﴾﴾

[الإِسۡرَاء : 94 - 95] .

من بين الأمثلة الدالة على ذلك هو توقف النبي- وربما تردده - في إعطاء الجن رسلاً من أنفسهم بدلاً من أن يجعلهم - كما فعل - عالة على الإنس وتابعين لهم في الهداية الروحية ؛ حيث يقطع النبي أبداً هذه الخطوة المنطقية ليقول لنا بأن الله كان يصطفي من الجن رسلاً ليبعثهم في أقوامهم على غرار عالم الإنس؛ وذلك لسبب واضح وهو أن الله

الذي لم يرسل نبياً قط من الإنس إلا بلسان قومه لكي يفهموا عنه، واستنكر القرآن أن يطلب الكفار المتعنتين من رسلهم أن يرسل الله إليهم ملكاً من الملائكة: (فأجابهم الله بأنه لو كانت الملائكة تسكن الأرض بدلا منكم لأرسلنا إليهم ملكا من جنسهم ولما كنتم أنتم بشرا بعثنا فيكم رسلنا منكم لطفا ورحمة[248]) .

ألم يكن من الأحرى إذن أن يرسل الله إلى الجن رسلا من أنفسها وليس من جنس آخر؟!

ولربما كان النبي قريبا للغاية من تلك الخطوة وهو يستلهم في باطنه صوت الحق يخاطب موبخاً في الآخرة الجاحدين الكافرين من الفريقين: ﴿ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ شَهِدۡنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ١٣٠﴾ [الأَنْعَام : 130].

حيث اختلف المفسرون في تفسير تلك الآية بين من يحمل معنى هذه الآية على ظاهرها فيرى أن الله كان يرسل إلى الجن رسلا من أنفسها، وبين من يرى أن الرسل والأنبياء كانوا من الإنس فقط، وبين من يتوسط بين هذا وذاك، فيرى أن الأنبياء من الإنس وحدهم، وإنما يكون من الجن منذرون ؛ أي تابعون يصطفيهم الأنبياء ليبلغوا أقوامهم من الجن ما يريدون أن يبلغوهم إياه من الدين، وهو قول ضعيف واهن، ولا يعتمد من قالوا به سوى على ما استخرجوه من دعوة الجن أقوامهم إلى الإيمان مثلما جاء في سورة الأحقاف![249]

---

(248) ابن كثير - ج5- ص121

(249) اسند الطبري في تفسيره الرأي الأول إلى الضحاك، والثاني إلى عموم المفسرين، ونسب الثالث إلى ابن عباس - انظر ج12ص 122 - تفسير الطبري - شاكر - الرسالة) (واختلف في ذلك إلى قولين الأول أن للجن رسلا منهم وممن قال بهذا القول الضحاك وقال ابن الجوزي وهو ظاهر الكلام وقال ابن حزم (لم يبعث إلى الجن نبي من الإنس البتة قبل محمد (ص) والثاني أن رسل الجن من الإنس قال السيوطي (جمهور العلماء سلفا وخلفا على انه لم يكن من الجن قط رسول ولا نبي ....كذا روي عن ابن عباس ومجاهد والكلبي وأبي عبيد)(انظر كتاب المصارع - للشيخ محمود المصري - ص 49)

(لكن لم يقل الضحاك ولا أحد غيره باستمرار ذلك في هذه الملة. وإنما محل الخلاف في ذلك في الملل المتقدمة خاصة، وأما في هذه الملة فنبينا محمد صلى الله عليه وسلم هو المرسل إليهم وإلى غيرهم، ولم ينقل أحد عن الضحاك أن رسل الجن منهم مطلقًا، ولا ينبغي أن ينسب إليه ما يخالف الإجماع، على أن الأكثرين قالوا: لم تكن الرسل إلا من الإنس، ولم

أما من يعرف طبيعة تفاعل النبي مع ميراثه الثقافي ويقف على حدود مخياله، فلن يحتاج أبدا لمن يقول له بأن النبي لم يفعل ذلك وما كان ليفعله أبدا ، بل كان أقصى ما يمكن أن يفعله النبي هو ما فعله بالضبط ؛ أي أن يتوجه هو الي تلك المخلوقات العاقلة بدعوته - بعد أن آمن - صادقاً - بلزوم أن تسمع هذه الخليقة الخفية خطاب الهداية الإلهية مباشرة - ودون أن يستطيع النبي بأن يقطع تلك الخطوة الأخيرة ويقول بأنه كان يتابع تقليداً إلهيا قديماً يقضي بأن يتوجه كل نبي ورسول يرسله الله إلى عالمي التكليف المنظور منهما والخفي!

أما لماذا لم يفعل النبي ذلك؟!، فالسبب بسيط للغاية، وهو أن النبي لم يبلغه شيء من ذلك!

حيث يلاحظ كل من يتدبر القرآن كيف غابت أخبار الجن تماما عن قصص الأنبياء الأولين من آدم حتى سليمان، مثلما غابت أخبارهم على ألسنة خصوم الدعوة الإلهية، فلم يجر لهم ذكر مطلقاً على ألسنة هؤلاء أو أولئك فلم نجد- مثلا- نبياً واحداً من الأنبياء السابقين يدعو قومه إلى الاعتقاد في ذلك العالم الغيبي على خلاف عالم الملائكة التي ذكرت مراراً في القصص النبوي القديم، وسواء أكان ذلك في المجتمعات التي عرفت الملائكة أو تلك التي لم تعرفها أصلاً، وهذا يعطينا برهاناً إضافياً على صدق النبي - عليه السلام - فلم يأت القرآن على ذكر عالم الجن صراحة إلا في قصة واحدة وهي قصة النبي سليمان بسبب من تلك المرويات التلمودية المتأخرة التي بلغت النبي محمد عن سليمان بن داود، وما جاء فيها عن علاقته الخاصة بعالم الجن والشياطين: (إن سلسلة قصص الملك سليمان في سفر الملوك الأول لا تحتوي على ما أشار إليه القرآن الكريم من سلطته على عالم الجن وعلى عالم الحيوان ومعرفته لألسنتها. ولكن الأدبيات خارج التوراة حافلة بمثل هذه الأخبار.

ففي التراث الشعبي اليهودي هناك حكايا كثيرة عن السلطان الذي وهبه الله لسليمان على عالم الجن والعفاريت وطيور السماء، وكل ما يدب على الأرض. وهناك ملاك مسخر له يحمل بيده سوطاً ناريا يجلد كل من تسول له نفسه عصيان أمر سليمان، فيحوله إلى

يكن من الجن قط رسول، لكن لما جمعوا مع الجن في الخطاب صح ذلك. ونظيره قوله: {يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ} [الرحمن: 22]، وهما يخرجان من الملح دون العذب، وقيل الرسل من الجن رسل الرسل من بني آدم إليهم لا رسل الله، لقوله تعالى: {وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ} [الأحقاف: 29](انظر ج7ص 244 - شرح الزرقاني على المواهب اللدنية بالمنح المحمدية- أبو عبد الله محمد الزرقاني المالكي دار الكتب العلمية الطبعة: الأولى -1996م

رماد. وقد بنى له الجن هيكل الرب في أورشليم وقصوراً، وأبنية إدارية ومرافق عامة كثيرة، وحفروا له في أرضه نهراً وبعضهم كان يغوص في البحر لاستخراج اللؤلؤ والمرجان والبعض الآخر يحفر في المناجم لاستخراج الياقوت والزمرد وغيرها من الأحجار الكريمة. ويقول ترجوم Sheni) (في التعليق على ما ورد في سفر الملوك الأول: وتكلم سليمان بثلاثة آلاف مثل وكانت نشائده ألفا وخمسا، ـ وتكلم عن الأشجار من الأرز الذي في لبنان إلى الزوفا النابت على الحائط. وتكلم عن البهائم وعن الطير وعن دبيب السمك، وأن سليمان كان متسلطا على كل الحيوان الذي يدب على الأرض وعلى طير السماء وكان يفهم ألسنتها جميعا حتى أنه كان يتحدث مع الأشجار كما كان متسلطا على الجن وعلى أرواح الظلام[250])، (يجب أن نتذكر أن سليمان كان حاكما ليس للبشر فقط، وإنما كذلك لوحوش البرية وطيور السماء وللعفاريت والأرواح وأشباح الليل. وكان يعرف لغات هذه المخلوقات جميعا، كما كانوا يفهمون حديثه [251]) .

أما ما جاء من ذكر للشيطان في قصص الأنبياء الأقدمين في القرآن الكريم فقد كان يقصد به الشيطان الكتابي في صورته التي جاء طورها الإسلام ؛ أي ذلك المغوي للبشر بالآثام، ومزين الفواحش لهم بالوسوسة، والذي لا ينتمي هو وقبيله إلى عالم الجن العربي ـ إلا لفظا ـ وذلك عبر جعله أصل الجن العربي الذي اعتقد الجاهليون أنه يشارك البشر حياتهم، وأن من بينهم الصالح والطالح، والمؤذي والمسالم، ثم جعله القرآن في نقلة مخيالية هائلة مما يشمله عالم التكليف وتلزمهم الشرائع الإلهية ؛ فجعل منهم القرآن المؤمن والكافر والمطيع والعاصي وهو موضوع آخر شاسع سنخصه ـ لاحقا ـ بمبحث مستقل لأهميته البالغة .

أما في عالم الأخرويات فقد حضرت الجن كثيرا ومن ذلك مثلا : ﴿ وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ قَدِ ٱسۡتَكۡثَرۡتُم مِّنَ ٱلۡإِنسِۖ وَقَالَ أَوۡلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلۡإِنسِ رَبَّنَا ٱسۡتَمۡتَعَ بَعۡضُنَا

---

(250) أساطير الأولين القصص القرآني ومتوازياته التوراتية ـ فراس السواح دار التكوين دمشق ـ الطبعة الثانية 20016م ص 119

(251) أساطير اليهود أحداث وشخصيات العهد القديم من يوشع إلى استير - لويس جنزبيرج - ترجمة حسن حمدي دار الكتاب العربي دمشق - القاهرة الطبعة الأولى 2007م ج4 ص 135 - ولمن شاء فليرجع إلى فصل سليمان في هذا الكتاب حيث سيجد أصل معظم ما أورده القرآن الكريم عن سليمان وقصة الهدهد وملكة سبأ وإسلامها لله رب العالمين وبساط الريح الخ

بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [الأَنْعَام : 128] .

﴿ قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَـٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَـٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الأَعْرَاف : 38] .

﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأَعْرَاف : 179] .

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [فُصِّلَت : 29] .

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَـٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [الأَنْعَام : 112] .

ولم تنسب الجن لعموم الأنبياء في القرآن كله سوى تلك الآية السابقة، وهي آية عجيبة سنقف عندها وعند أشباهها في الفصل القادم عند محاولتنا استنباط قوانين التفكير النبوي.

في مقابل هذا التصور المنطقي الغائب، تأتي سورة الرحمن تطبيقا ساميا لخطاب نبي يرسله الله إلى الفريقين معا، ولقد كان هذا الرسول هو النبي محمد الذي خصه الله من دون الأنبياء جميعا بأن أرسله إلى الإنس والجن معا ؛ حيث تتفرد هذه السورة بملمح بالغ الندرة في القرآن الكريم، وهو أن مضمونها يخلو تماما من أي إشارة واضحة تترجم

عن حال مستلهمها، أو عن حال جماعة إيمانه وسط محيطهم العام [252]- ؛ وذلك لأن هذه السورة قد أخذت نقطة شاهقة جدا في استشرافها لتجربة الخليقة برمتها، وأيضا لاتساع منظور خطابها الكوني فهي تخاطب عموم الإنس والجن، مقررة القواعد العامة التي قررها الله لحدود العالمين، ودون أن تترك خلفها أي إشارة يفهم منها على الأقل أن متلقيها كان إنسيا يتوجه بخطابه إلى الإنس ويشمل معهم عالم الجن، أم كان نبيا من الجن يتوجه بخطابه إلى الجن ويشمل معهم عالم الإنس، وهو أمر لا شبيه له في القرآن كله، إنها سورة فريدة حقا.!

(2)
متى وقعت تلك القصة ؟

(ثم إن رسول الله- صلى الله عليه وسلم- انصرف من الطائف راجعًا إلى مكة، حين يئس من خير ثقيف، حتى إذا كان بنخلة قام من جوف الليل يصلي، فمر به النفر من الجن الذين ذكرهم الله تبارك وتعالى، وهم- فيما ذكر لي- سبعة نفر من جن أهل نصيبين فاستمعوا له، فلما فرغ من صلاته ولوا إلى قومهم منذرين، قد آمنوا وأجابوا إلى ما سمعوا. فقص الله خبرهم عليه صلى الله عليه وسلم، قال الله عز وجل وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن إلى قوله تعالى: ويجركم من عذاب أليم وقال تبارك وتعالى: قل أوحي إلي أنه استمع نفر من الجن إلى آخر القصة من خبرهم في هذه السورة[253].)، (وأخيرا اتخذ محمد طريق العودة إلى مكة، وكان - بلا شك - محبطا إحباطا شديدا . وتقول الروايات كيف أنه - وهو في نخلة - أثناء الليل وبينما كان منشغلا بالصلاة والدعاء، أتت إليه مجموعة من الجن واستمعوا إليه ودخلوا في الإسلام . وحتى

---

(252) أغلب الظن أن سورة الرحمن إنما هي سورة مكية (وهو ما قال به الجمهور) مرة لأسلوبها الغنائي والشاعري، ولحضور السجع أو الفاصلة من أولها إلى منتهاها، ولتكرار تلك الآية المستفهمة المتعجبة - وهو أمر لا نجد له شبيها سوى في سور : المرسلات و القمر والشعراء وهي سور مكية اتفاقا -، لكننا نجد ترتيب الأزهر يجعلها سورة مدنية برقم (97)، بينما يجعلها ترتيب بلاشير - نولدكة سورة مكية برقم (28)، ولعل مما يعضد مكية تلك السورة ما جاء في كتب السيرة من أن المشركين قد أوقعوا بالصحابي الجليل عبد الله بن مسعود عندما تحداهم وتلا حيث يسمعون سورة الرحمن مما يدل على مكيتها بطبيعة الحال ؛ لذا فلا ندري في الحقيقة إلام استند من يقول بمدينتها ؟! - انظر البداية والنهاية- ابن كثير - دار الفكر- 1986 م- ج7 ص 162

(253) (انظر - ج4 ص36 - الروض الأنف في شرح السيرة النبوية- السهيلي - دار إحياء التراث العربي، بيروت - الطبعة: الأولى، 1412 هـ)

إذا كانت هذه الرواية وضعت في زمن متأخر، فإنه يجوز لنا أن نصدق أنه في هذه المرحلة الحرجة من حياة محمد زاد اعتماده على الله سبحانه [254]) .

بعد عشر سنوات كاملة قضاها النبي في دعوة قومه إلى الله أصبحت دعوة الإسلام كلها على المحك، وأصبح النبي محمد في موقف لا يحسد عليه ؛ فقد اشتد عنف القريشين بالنبي وبالمؤمنين به، بعدما أيقنوا بأن الأمر أصبح جداً لا هزل فيه، وأن محمدا ليس بحنيفي جديد سخط على عقيدة قومه فهجرها، وراح يجهر برأيه لمن يلقاه أو يجالسه كلا! ، فالخطب أكبر من ذلك بكثير.!

صبرت قريش - في البداية - على النبي ما طاوعها الصبر فمرة بالتهوين من أمره عند أنفسها ، وتذكيرها بأنه قد سبقه إلى التنكر لعبادة آلهتهم عدد ليس بالقليل من الصبئة الضالين لكنهم مضوا في النهاية، وظلت عقيدة الآباء والأجداد راسخة كالجبال، ومرة أخرى بأن استهانوا بما جاءهم النبي به من القرآن وتأثيره الفذ على سامعه - فهم منه سامعه شيئا أو لم يفهم منه إلا أقل القليل لأنه سيترك فيه أعظم التأثير في الحالتين[255]!- فقد زعموا أنهم يستطيعون أن يأتوا بمثله متى شاءوا، وأن القرآن ليس إلا أساطير الأولين، ومرة ثالثة بتحقير صاحب الرسالة والهزء به والتقليل من خطره وصب النعوت القاسية عليه فراحوا ينعتونه بالجنون والكذب والاختلاق والسحر والكهانة، ولكن ذلك كله لم يجدهم نفعا في صرف الناس عنه؛ فلقد كان الرجل يتمتع بمواهب شخصية وإدراكية فائقة كانت تفسد عليهم تدبيرهم، والأهم من مواهبه كلها، أنه كان في النهاية يدعو الناس إلى ما يقبله كل عاقل في زمانه، سواء أكان ما يدعوهم إليه من جانب العقيدة الدينية، أو من جانب المنظومة القيمية والأخلاقية، وبعبارة واحدة

---

(254) - مونتجومري وات - محمد في مكة ص 276) ترجمة د عبد الرحمن عبد الله الشيخ - الهيئة المصرية العامة للكتاب 1994م

(255) من الأمثلة المشتهرة على قوة تأثير القرآن وإن لم يفقه سامعه كثيرا من معناه ما جاء في كتب السيرة عن قصة مفاوضة عتبة بن ربيعة للنبي محمد وكيف حضه عتبة على أن يكف عنه دعوته وله ما شاء من المال، إن كان المال ما يبتغيه من خلف تلك الدعوى، أو أن يزوجونه بما يشاء من النساء إن كان هذا مما يسعده ويلهيه ! ولم يجد النبي من وسيلة للرد على عرض كهذا خيرا من أن يقرأ عليه بعض آيات القرآن الكريم : (فقرأ رسول الله «ص «من أول سورة فصلت إلى قوله سبحانه: (فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ :أَنْذَرْتُكُمْ صاعِقَةً مِثْلَ صاعِقَةِ عادٍ وَثَمُودَ) فقال عتبة: حسبك، حسبك ما عندك غير هذا؟ فقال رسول الله لا. فرجع إلى قريش، قالوا: ما وراءك. ؟ قال: ما تركت شيئا أرى أنكم تكلمون به إلا كلمته قالوا: فهل أجابك؟ قال: نعم والذي نصبها بنية ما فهمت شيئا مما قاله، غير أنه أنذركم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود. قالوا: ويلك يكلمك الرجل بالعربية لا تدرى ما قال؟ !قال: لا والله ما فهمت شيئا مما قال غير ذكر الصاعقة)(انظر -الروض الأنف في شرح السيرة النبوية- السهيلي- ج3- ص149

فقد كان الرجل يدعو إلى الحق وإلى الحقيقة، وليس أقوى من صاحب فكرة جاءت في أوانها، ومن كان هذا حاله فليس من الميسور إيقافه إلا بمحاصرته أو قتله .

حاولت قريش البدء بأهون الشرين وهو التضييق عليه وإرهاب كل يقترب منه - مرجئين الحل الأخير الذي قد يقود إلى ما لا تحمد عقباه من نشوب حرب أهلية في مكة - وهو آخر شيء يحتاجه مجتمع مدينة تجارية- فبعد أن كانوا في البداية لا يهتمون لدعواه، بل يسمعونها ضاحكين هازئين، صاروا بعدها يتواصون - قلقين- بتركه وإهماله باعتباره شاعرا يتربصون به ريب المنون، ولكن لم تجد قريش في النهاية سوى البطش والعنف بمن تطاله أيديهم من المسلمين، فأما ضعفه أتباع النبي - خاصة من العبيد أو الملصقين- فقد ساموهم سوء العذاب وأما أهل المكانة فيهم فقد نالوا نصيبهم من الأذى كاملا غير منقوص ولكن على يد عشيرتهم الأقربين!، وأما النبي نفسه فهو وإن ترك لشأنه دون أن يلحقه كبير أذى، لكنه كان محاصراَ لا يستطيع أن يقترب من أحد ولا يستطيع أحد أن يدنو منه إلا في غفلة من المتربصين المتحفزين، وكان هذا آخر ما يريده النبي ، أي أن يحال بينه وبين الناس ؛ لذا فقد رأى النبي أن يكسر تلك الدائرة المغلقة ويخرج منها إلى محيط جديد لعله يكون أفضل من قريته النافرة ، ووقع اختياره على الطائف لأسباب ظنها النبي أنها ستكون سبباً في قبولهم لدعوته، ولكنها كانت من وراء سوء استجابتهم لما دعاهم إليه، وليس تفصيل ذلك مما نقصد إليه(256).

---

(256) يفسر بعض المؤرخين المحدثين علة خروج النبي إلى الطائف بعد كل تلك المدة الطويلة بأن ذلك كان استجابة من النبي لما عرضه عليه عمه أبو لهب من أن يبسط عليه حمايته بعد موت أبي طالب شريطة أن يكف النبي عن الدعوة في مكة وليجرب حظه إن شاء خارجها فذهب النبي إلى الطائف يحدوه الأمل في أن تستجيب ثقيف لدعوته حيث نفرت قريش لكنه لم يجد هناك حتى من يسمعه أو يصغي إليه (فخرج رسول الله يحاول مع أهل الطائف والآن هو لم يصل إلى شيء مع الثقفيين فهو مضطر إلى الرجوع إلى مكة وكأنه وقد خرج قد تخلى عن حماية أبي لهب وهذا هو المعقول وفي الأخبار كثير عند ابن سعد) راجع (ص336- تاريخ قريش - د حسين مؤنس - الدار السعودية للنشر والتوزيع - الطبعة الأولى - 1988م - جدة)

وهو تفسير لا نراه مقبولا ولا معقولا ولا نشك في أن النبي كان سيفكر في دعوة أهل الطائف أو سواهم بعدما أصمت قريش آذانها عن دعوته ولم يظفر منهم بطائل بعد كل تلك السنوات التي قضاها في دعوتهم إلى الله، ويدل على ذلك أن النبي ظل بعد عودته من الطائف يعرض نفسه في موسم الحج على القبائل القوية ذات الشوكة مثل بنو كندة وبنو كلب وبنو حنيفة وبنو عامر لكي يحملوه إلى بلادهم ويحموه حتى يبلغ دعوة ربه وكان عمه أبو لهب يمشي خلفه يكذبه ويحرض الوافدين مكة في موسم الحجيج على عدم الإصغاء إليه : (قَالَ ابْنُ إسْحَاقَ: وَحَدَّثَنِي حُسين بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُبيد اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ سَمِعْتُ رَبِيعَةَ بْنَ عِبَاد، يُحَدِّثُهُ أَبِي، قَالَ: إنِّي لَغُلَامٌ شَابٌّ مَعَ أَبِي بِمِنًى، وَرَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَقِفُ عَلَى مَنَازِلِ الْقَبَائِلِ مِنْ الْعَرَبِ، فَيَقُولُ: يَا بَنِي فُلَانٍ، إنِّي رَسُولُ اللَّهِ إلَيْكُمْ، يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَأَنْ تَخْلَعُوا مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ هَذِهِ الْأَنْدَادِ، وَأَنْ تُؤْمِنُوا بِي، وَتُصَدِّقُوا بِي، وَتَمْنَعُونِي، حَتَّى أُبَيِّنَ عَنْ اللَّهِ مَا بَعَثَنِي بِهِ. قَالَ: وَخَلْفَهُ رَجُلٌ أَحْوَلُ وَضِيءٌ، لَهُ غَدِيرَتَانِ عَلَيْهِ حُلَّةٌ عَدَنِيَّةٌ. فَإِذَا فَرَغَ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- من قَوْلِهِ وَمَا دَعَا إلَيْهِ، قَالَ ذَلِكَ الرَّجُلُ: يَا بَنِي فُلَانٍ، إنَّ هَذَا إنَّمَا يَدْعُوكُمْ أَنْ تَسْلُخُوا اللَّاتَ وَالْعُزَّى مِنْ أَعْنَاقِكُمْ، وَحَلْفَاءَكُمْ

خرج النبي متسللاً إلى الطائف ليلقى من أهلها تجربة اعتبرها النبي من أشد تجارب حياته مرارة، حتى إنها لتقارن بما أصابه وأصاب المسلمون معه يوم أحد فعن (عائشة - رضي الله عنها- أنها قالت للنبي صلّى الله عليه وسلّم: هل أتى عليك يوم أشد من يوم أحد؟ قال: لقد لقيت من قومك، وكان أشدّ ما لقيته يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل، فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل، فناداني، فقال: إنّ الله قد سمع قول قومك لك، وأنا ملك الجبال، وقد بعثني ربك إليك لتأمرني بأمرك فيما شئت، إن شئت أطبقت عليهم الأخشبين» . فقال النبي صلّى الله عليه وسلّم: «أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به [257]).

مِنْ الْجِنِّ مِنْ بَنِي مَالِكِ بْنِ أَقَيْش، إلَى مَا جَاءَ بِهِ مِنْ الْبِدْعَةِ وَالضَّلَالَةِ، فَلَا تُطِيعُوهُ، وَلَا تَسْمَعُوا مِنْهُ. قَالَ: فَقُلْتُ لِأَبِي: يَا أَبَتِ، مَنْ هَذَا الَّذِي يَتْبَعُهُ وَيَرُدُّ عَلَيْهِ مَا يَقُولُ؟ قَالَ هَذَا عَمُّهُ عَبْدُ الْعُزَّى بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، أَبُو لَهَبٍ.)(راجع السيرة النبوية لابن هشام - تحقيق طه عبد الرؤوف سعد- شركة الطباعة الفنية المتحدة- ج2 ص50)، ولا نشك في أن ما جاء عن محاولة أبو لهب بسط حمايته على ابن أخيه بعد وفاة أبي طالب إنما كانت وسوسة نخوة عارضة سرعان ما انصرف عنها لأسباب موضوعية أخرى كانت أقوى من عاطفته الطبيعية تجاه ابن أخيه فقد كان موقف أبو لهب العدائي والعنيف من دعوة النبي متوافقا تماما مع موقعه الطبقي وتحالفه مع بنى أمية بالمصاهرة والأعمال التجارية، ويتناسب كذلك مع ما شاع عنه من تمسكه الصارم بعقيدة قومه، وهما في اعتقادنا سببان كافيان ليفسرا لنا خرقه الفاضح لتلك التقاليد القبلية الراسخة بحماية أفرادها والدفاع عنهم .

(257) (متفق عليه) خرجه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم: آمين والملائكة في السماء: آمين فوافقت إحداهما الأخرى غفر له ما تقدم من ذنبه (4/ 115)، رقم: (3231)، ومسلم، كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي النبي صلى الله عليه وسلم من أذى المشركين والمنافقين (3/ 1420)، رقم: (1795) وفي رواية لابن عبد البر أنها كانت أشد من يوم أحد (عن عائشة أنها قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم : هل أتى عليك يوم أشد من يوم أحد ؟ قال : لقيت من قومي ما كان أشد . قال : وكان أشد ما لقيت منهم يوم ثقيف، إذ عرضت نفسي ....)(انظر - الدرر في اختصار المغازي والسير - ابن عبد البر- تحقيق شوقي ضيف دار المعارف - الطبعة الثانية ص 63)

وكم تبدو محيرة كلمة (قومك)التي جاءت في هذا الحديث مرتين أولاهما على لسان النبي مخاطبا السيدة عائشة والأخرى على لسان ملك الجبال لتصفا - كما يقول ظاهر الحديث - ابن عبد ياليل بأنه من قوم النبي أو من قوم عائشة! حتى إننا لا نعرف للوهلة الأولى من هؤلاء الذين آثر النبي أن يرفق بهم ملك الجبال فعسى أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله ويوحده ؟ فهل هم أهل مكة كما هو المشهور عند عموم الشراح أم هم أهل الطائف كما يدل عليه ظاهر الحديث ؟ أم أن (قوم) هنا تعني عموم العرب لا فارق في هذا بين ان يكونوا من قريش أو من ثقيف ؟ ! وهذا الأخير هو ما نرجحه أولا لدلالة الأخشبين أي جبلا (أبو قبيس) وجبل (ثور) وهما جبلان بمكة كما اتفق على هذا الشراح جميعا انظر (ج15ص 142- - عمدة القاري شرح صحيح البخاري- بدر الدين العيني - دار إحياء التراث العربي - بيروت)

وأيضا فليس المقصود (بيوم العقبة): تلك العقبة التي وقعت عندها البيعة الأولى، أو البيعة الثانية للأنصار، وإنما هذه عقبة أخرى، وذلك في سفره النبي إلى الطائف والمقصود هنا بقرن الثعالب هو قرن المنازل، الميقات المعروف، أي ميقات أهل نجد الذي يمر عليه من أتى من الطائف. وعلى هذا فدعاء النبي هنا يتوجه إلى قريش لانهم هم من اضطره بكفرهم وعنادهم إلى الخروج لأهل الطائف- كما لو كان النبي ليس مبعوثا إلى أهل مكة - حيث لا نجده يدعو على أهل الطائف أو يستنزل عليهم عذاب الله رغم ما فعلوه به في رحلته اليهم ! والحديث السابق يدلنا بوضوح على حالة الكرب والاستغراق الباطني الذي عاشه النبي في تلك اللحظة حتى هام على وجهه مستغرقا ليجد نفسه وقد قطع تلك المسافة دون

بعد تلك الاستجابة المؤلمة،والتي آذت كيان النبي كله عاد النبي أدراجه في اتجاه مكة محزوناً كاسف البال، حيث كان عليه أن يقطع في عودته ذات المسافة الشاسعة التي قطعها في اتجاه الطائف يسوقه إليها الرجاء، وأما رحلة العودة إلى مكة فقد كانت أثقل وأشق حيث استدار عائدا ليسير على قدميه تحت شمس صيف الجزيرة المحرق عشرات الأميال وحيداً إلا من حضور معية ربه وصحبة خادمه وتابعه الوفي زيد ابن حارثة [258]، وتتزاحم في عقله الخاطرات المقلقة بمحاولة العثور على حلول ناجعة لتلك المشكلات التي باتت تسد الأفق من أمامه، سواء أكانت تلك المشكلات بعيدة المدى عن ضرورة فتح ممرات جديدة لدعوته التي أخذت تراوح مكانها منذ زمن طويل، أو بما كان يشغل باله من العثور على حل ناجز لتلك المشكلة العاجلة، وهي كيف سيدخل مكة حيث ينتظره أتباعه المعذبون، وليجد مكانا يأوي إليه، وبينما كانت مكة تقترب وقعت تلك القصة العجيبة التي ستكون موضوع هذا الفصل.

ولن نستطيع أن نغادر هذه النقطة قبل أن نحدق لبرهة في تلك اللحظة التاريخية التي لا يستطيع أحد مهما كانت عقيدته أو أفكاره الدينية سوى أن يتأملها في إعجاب وتقدير.

فمن المعلوم أن النبي لم يستطع أن يدخل مكة إلا بعد أن وجد لنفسه من يضمن له فيها سلامته الشخصية، فأقام في غار حراء أياماً - لا ندري عددها -، لكنها كانت تكفي لأن يرسل النبي رسلا [259] لعدد من سادة مكة وأشرافها يطلب فيها جوارهم وحمايتهم، فاعتذر له اثنان قبل أن يجد النبي - أخيرا - من يجيره ويدخل مكة في حمايته[260] .

أن يشعر ولعل هذا الحديث يصلح كقرينة تؤيد من قال من كتاب السيرة من أن النبي كان وحيدا تماما وليس في صحبته أحد

(258) هناك من راي أن النبي قد قطع تلك الرحلة وحيدا - مثل ابن إسحاق - وهناك من قال بأن زيدا كان في صحبته كما قطع بذلك ابن سعد - رغم أن زيدا لم يحك لنا شيئا وما أقل ما نعرفه عن زيد وأخباره قياسا بدوره وسابقته في الإسلام

(259) - لا نعلم كيف جرت تلك المفاوضات ومن قام بحمل رسائل النبي إلى هؤلاء ورجوعه إلى النبي بجوابهم !

(260) لم ينس النبي هذا الموقف للمطعم ابن عدي، وأعلن لأبنه بعد انتصاره على المشركين في بدر بأنه كان سيقبل شفاعة أبيه لوكان حيا و سأله أن يطلق له سراح جميع من وقع في يده من أسارى المشركين : (لو كان المطعم بن عدي حيًا ثم كلمني في هؤلاء النتنى لتركتهم له- انظر صحيح البخاري برقم (4023)

وانظر - أيضا - عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير- محمد بن أحمد، ابن سيد الناس، اليعمري الربعي- دار القلم - بيروت - الطبعة الأولى -1993م- ج1 ص 157

وكم كنا نتمنى أن نعرف أي الخاطرات قد جالت في عقل النبي، وهو يتأمل تلك العاصفة التي انطلقت من هذا الغار نفسه قبل عدة سنين، حيث كان يختلي آمناً وادعاً، ولكنه الآن لا يستطيع أن يرجع إلى بيته - وقد غاب عنه رواء وبهاء حضور خديجة ، بل ولا تستطيع عشيرته كلها من بني هاشم أن تؤمن له الحماية - فقد مات أبو طالب وخلفه أبو لهب في زعامة العشيرة المنقسمة على ذاتها - وها هو النبي الذي ألَّب على نفسه قريته الحبيبة كلها، والتي أخذ يستشرفها وهو يقف محزونا مكروبا أمام الغار ليطل من عليائه على مكة وأهلها، لكنه يرى الآن مكة أخرى ؛ إنها مكة الغاضبة الضارية الكافرة، بعد أن كانت في عينيه منذ سنوات قليلة مكة الضالة الغافلة التي لا تجد من يرشدها إلى الله.

لكن عزاء النبي الكبير - رغم كل شيء - كان حاضراً لا يغيب ؛ حيث كان يكفيه أن يتذكر بأن ذلك الصوت المهيب الذي سمعه وحيداً في هذا الغار نفسه منذ عشرة أعوام، صار لا يخلو بيت من بيوت مكة، إلا وبه قلب يردد في أطوائه صدى هذا الصوت المبارك ويشارك صاحبه عظيم الإيمان بأنه كان وحياً من وحي السماء أسمعه الله هذه المرة إلى تلك الأمة المنبوذة، والتي بدت خارج خطة الهداية الإلهية فلم يأتها من بشير ولا نذير بعد مهلك عاد وثمود وقوم مدين وضياع إرث توحيد إبراهيم وإسماعيل بعدما انتكست العرب من بعدهما إلى عبادة الأصنام والأوثان.

(3)
أين وقعت هذه القصة ؟

(وإن قبلنا بترتيب السيرة للأحداث وتفسيرها للإشارات القرآنية فإن محمدا لم يعد لأتباعه بالإخبار المحبطة والمثبطة للقائه بالثقفيين فحسب، وإنما عاد - أيضا - بخبر ينعشهم ويرفع معنوياتهم عن انتصار وفتح للدعوة في مجال ربما لم يخطر ببالهم. يخبرنا ابن إسحاق: (ثم إن رسول الله .... انصرف من الطائف راجعا إلى مكة .. حتى إذا كان بنخلة قام من جوف الليل يصلي فمر به النفر من الجن الذين ذكرهم الله ...فاستمعوا له فلما فرغ من صلاته ولوا إلى قومهم منذرين قد آمنوا وأجابوا لما سمعوا فقص الله خبرهم عليه (وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن [261]) .

---

[261] (نبوة محمد التاريخ والصناعة مدخل لقراءة نقدية - محمد محمود - مركز الدراسات النقدية للأديان - لندن - الطبعة الثانية 2013م ص 143-144

وقعت هذه الحادثة في وادي نخلة[262] أثناء عودة الرسول من الطائف فعندما اقترب النبي من مكة وصار على مسيرة يوم واحد منها رأى تلك الرؤى العجيبة ؛ إذ انكشف له مخياليا عالم الجن فاستشعر النبي في هدأة الليل وسكونه أن نفراً من الجن قد سمعوه وهو يقرأ في صلاته شيئا من سور القرآن - ولا ندري ما الذي دعا النبي في تلك الليلة على وجه الخصوص لكي يوقن بأن الجن قد وقفت عليه أثناء صلاته؟! ولكن لا يبعد أن تكون من خلف ذلك الاعتقاد الذاتي الصادق بعض الوقائع الغريبة مما يحدث كثيرا في ليل الصحراء وتهاويلها، فعززت عنده تلك القناعة الراسخة في وجود عالم الجن واستثارت فيه هذا المخيال العنيف، ولكن ما أن استقرت تلك القناعة الذاتية في العقل النبوي، حتى اندفعت كرة الثلج لتنمو وتكبر انطلاقا من تلك الخاطرة الصغيرة حتى صار لدينا في النهاية تلك السورة القرآنية التي تعد بحق واحدة من أعظم سور القرآن الكريم كله وأكثرها جلالا وتأثيرا في النفس ؛ إنها سورة الجن .

إذاً في وحشة ليل القنوط الحالك ذاك انبثق نور وتفجر أمل!، ولكنه أتى هذه المرة - ويا للعجب - من الباب الذي يرتاع منه الناس عادة ويفزعون؛ إذ أتى التعضيد النفسي من عالم الجن ، فقد جادت الجن بما ضنت به الإنس، وآمنوا حيث كفر البشر، واستجابوا في استبشار جميل حيث لم يلق النبي من عالم البشر سوى الهزء القبيح، وستأتي إنابتهم السريعة والكاملة لتصور لنا - ضمنياً - أشواق النبي لما كان يرجو أن تكون عليه استجابة الخلائق جميعا لنداء الله رب العالمين. ولا يفوتنا هنا أن نذكر القارئ الكريم بأن تجربة الإسراء والمعراج قد وقعت بعد تلك التجربة بمدة يسيرة، ولا يخفى على أحد ما يجمع بينهما من وحدة في التعبير عن تلك الحالة النفسية والروحية المتوفزة والقلقة التي كان يعيشها النبي في تلك المرحلة من مراحل دعوته إلى الله ؛ حيث كان من الضروري أن تستلهم الذات المحمدية كل مواهبها، لتستنهض همتها، ولتحض نفسها على الصمود في وجه تلك العاصفة الهوجاء من التكذيب والإيذاء .

(4)
كيف فهمت تلك القصة العجيبة ؟

(بيد أن الروح لم يخذل محمد. وبينما هو عائد إلى مكة تلقى تأكيداً جديداً على متابعة رسالته في الدعوة إلى عبادة الإله الواحد. فبينما هو يصلي عند النخلة، تراءى

---

[262] (نخلة) اسم واديين إلى الشمال من مكة على طريق الطائف يقال لأحدهما نخلة الشامية وللآخر نخلة اليمانية

جمع كبير من الجن، وقد سمع هؤلاء موعظته وسجدوا للإله الواحد. ومن الجدير ذكره أن الجن من الشخصيات الرئيسية في ديانات القبائل العربية. وليس الجن طبقة واحدة: بعضهم لا صلة له بالبشر أو القبائل، وبعضهم الآخر كان أوثاناً للقبائل.

وقد دعا العلماء هذا: إينوتيزم: لكل قبيلة جنها، لكن الجن أنفسهم كانوا في تواصل دائم بعضهم مع بعض، بل كانوا متخالطين، ولا شك أن رؤي محمد (ص) واضح وجلي: لقد سجد معبودات القبائل للإله الواحد. إذاً محمد (ص) يسير على الطريق الصحيحة، ودعوته سوف تنتصر. ولكن كيف؟ وما الذي يجب عمله بعد ذلك، إذ سُدت السبل كلها وحوصر في الزاوية كالنمر الجريح؟ [263])

هذه الفقرة السابقة - ربما - تصلح كمثال على كثير من الالتباسات التي يقع فيها كثير ممن لا يعرف العربية، ولا يعرف تاريخ العرب الأقدمين ومعتقداتهم الدينية على نحو دقيق، فلم تتراءى الجن للنبي، ولم يقل القرآن قط بأن النبي قد رآهم بعينيه، بل ينص القرآن الكريم - وبوضوح كامل - على أن الله قد أوحى إلى نبيه بقصة حضور تلك الطائفة من الجن وإيمانهم برسالته وهي تفرقة بالغة الأهمية لمن يريد أن يفهم طبيعة المخيال المحمدي على وجهه الصحيح: (عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: "انْطَلَقَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي طَائِفَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ عَامِدِينَ إِلَى سُوقِ عُكَاظٍ، وَقَدْ حِيلَ بَيْنَ الشَّيَاطِينِ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ، وَأُرْسِلَتْ عَلَيْهِمُ الشُّهُبُ، فَرَجَعَتِ الشَّيَاطِينُ إِلَى قَوْمِهِمْ، فَقَالُوا: مَا لَكُمْ؟ فَقَالُوا: حِيلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ، وَأُرْسِلَتْ عَلَيْنَا الشُّهُبُ!! قَالُوا: مَا حَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ إِلَّا شَيْءٌ حَدَثَ، فَاضْرِبُوا مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا، فَانْظُرُوا مَا هَذَا الَّذِي حَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ ؟! فَانْصَرَفَ أُولَئِكَ الَّذِينَ تَوَجَّهُوا نَحْوَ تِهَامَةَ، إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ بِنَخْلَةَ، عَامِدِينَ إِلَى سُوقِ عُكَاظٍ، وَهُوَ يُصَلِّي بِأَصْحَابِهِ صَلاَةَ الفَجْرِ؛ فَلَمَّا سَمِعُوا القُرْآنَ، اسْتَمَعُوا لَهُ، فَقَالُوا: هَذَا وَاللَّهِ الَّذِي حَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ، فَهُنَالِكَ حِينَ رَجَعُوا إِلَى قَوْمِهِمْ، وَقَالُوا: يَا قَوْمَنَا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ۝٢﴾ [الجن : 1 - 2] . فَأَنْزَلَ

[263] أسرار الآلهة والديانات - أ-س- ميغوليفسكي - ترجمة د حسان ميخائيل إسحق - دار علاء الدين - الطبعة الرابعة - 2009- دمشق سوريا - ص511)

اللَّهُ عَلَى نَبِيِّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ ۝١﴾ [الجن:1]، وَإِنَّمَا أُوحِيَ إِلَيْهِ قَوْلُ الجِنِّ "،. (وفي لفظ مسلم، عن ابن عباس : " مَا قَرَأَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى الْجِنِّ، وَمَا رَآهُمُ.." ثم ذكر الحديث : " انْطَلَقَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي طَائِفَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ عَامِدِينَ إِلَى سُوقِ عُكَاظٍ وَقَدْ حِيلَ بَيْنَ الشَّيَاطِينِ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ([264]) ... .، (وعن علقمة قال : قلت لعبد الله بن مسعود : من كان منكم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الجن ؟ فقال ما كان معه منا أحد ([265])).

ورغم أن القرآن واضح حاسم في بيان تلك القضية ولكننا نجد أمثلة لتلك التزيدات السقيمة وقد تسربت إلى ما يسمى بالمتون الحديثية الصحيحة ومن ذلك - مثلاً- ما جاء في الصحيحين عن (معن بن عبد الرحمن قال سمعت أبي قال (سألت مسروقاً من آذن النبي صلى الله عليه وسلم بالجن ليلة استمعوا القرآن؟ فقال حدثني أبوك يعني عبد الله (أنه آذنت بهم شجرة ([266]))، ولا ندري في الحقيقة ما ضرورة هذه الواسطة من تدخل الأشجار أو الأحجار؛ إن كان الله قد أوحي للنبي بحضورهم، بل وبما دار في أنفسهم من خاطرات ومشاعر وأفكار!، فما ضرورة أن تقول الشجرة للنبي أن بعض الجن قد حضروه وهو يقرأ القرآن ؟!، ولكن هكذا زعموا!.

ولا يخفى أن هذه القصة التي تضمنتها رواية ابن عباس غير قصة انصرافه صلى الله عليه وسلم من الطائف، يدل لذلك قوله «انطلق في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ» لأنه في تلك القصة التي هي قصة الطائف كان وحده أو معه مولاه زيد بن حارثة على ما تقدم، وكان مجيئه صلى الله عليه وسلم من الطائف قاصدا مكة. وفي هذه كان ذهابه من مكة قاصداً سوق عكاظ، وأنه قرأ في تلك أي مجيئه من الطائف سورة الجن، وفي هذه قرأ غيرها ثم نزلت تلك السورة، وأن هذه القصة تضمنتها رواية ابن عباس سابقة على تلك، لأن قصة ابن عباس كانت في ابتداء الوحي، لأن الحيلولة بين الجن وبين خبر السماء بالشهب كانت في ذلك الوقت، وتلك كانت بعد ذلك بسنين

---

(264) روى البخاري: (773)، ومسلم: (449)

(265) (رواه أبو داود، كتاب الطهارة، باب الوضوء بالنبيذ، رقم (85)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود، رقم (77).

(266) انظر صحيح البخاري - كتاب المناقب - باب الجن - برقم 3859 وانظر الحديث في صحيح مسلم - كتاب الصلاة - برقم (450)

عديدة كانت في ابتداء الوحي، لأن الحيلولة بين الجن وبين خبر السماء بالشهب كانت في ذلك الوقت، وتلك كانت بعد ذلك بسنين عديدة [267]).

ولا يصح القول - كذلك - بأن الجن كانت أوثانا للعرب! نعم من الصحيح أن بعض القبائل العربية قد عبدت الجن كما نص على ذلك القرآن صراحة ؛ وذلك بأن هابتهم وخضعت لهم ربما أكثر من غيرهم من العرب، ولكن دونما عبادة ولا تقديس بالمعنى المفهوم، مثلما جاءنا عن عشيرة صغيرة من قبيلة خزاعة: (وكانت بنو مليح من خزاعة يعبدون الجن وفيهم نزلت (إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم[268])، (ويرى "نولدكه" أن الجاهليين لم يتعبدوا للجن، ولم يتخذوها آلهة على نحو ما نفهم من معنى الآلهة، وأن "عبد الجن"، وإن دل على التعبد للجن، إلا أن هذه التسمية لا تدل حتما على عبادة للجن [269]) .

ولعل ما يُعضد رأي نولدكه السابق أن القرآن الكريم كثيراً ما يتوسع في دلالة معنى العبادة ومن ذلك ما نجده في الأحاديث الصحيحة من اعتراض عدي بن حاتم الطائي على ظاهر هذه الآية من سورة التوبة : (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله)، فقلت: إنا لسنا نعبدهم ؟! فقال له النبي موافقاً : أما إنّهم لم يكونوا يعبدونهم، ولكنهم كانوا إذا أحلّوا لهم شيئاً استحلّوه، وإذا حرّموا عليهم شيئاً حرّموه، فتلك عِبادتهم[270]) .

ولم يخلص النبي - كذلك - من إيمان الجن به إلى تلك النتيجة المزعومة التي خرج بها الكاتب من اعتقاد النبي بأن العرب سوف يؤمنون برسالته مثلما آمنت الجن بدعوته في تلك الليلة، ويدل على ذلك ما جاء في ختام تلك السورة من تعقيب إلهي على حكاية الجن : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعۡلَمُونَ مَنۡ أَضۡعَفُ نَاصِرٗا وَأَقَلُّ عَدَدٗا ٢٤ قُلۡ إِنۡ أَدۡرِيٓ أَقَرِيبٞ مَّا تُوعَدُونَ أَمۡ يَجۡعَلُ لَهُۥ رَبِّيٓ أَمَدًا ٢٥﴾ [الجِن : 24 - 25]، : ﴿ قُلۡ إِنۡ

---

(267) السيرة الحلبية - ج1 ص505- دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الثانية 1427هجرية

(268) انظر ص 34 : الأصنام - هشام بن محمد بن السائب الكلبي - دار الكتب المصرية1995م، ويعضد ذلك ما جاء في صحيح مسلم من حديث عبد الله بن مسعود، وأما الآية الثانية فقد بيّن الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود مناسبتها - فقال: "نزلت في نفر من العرب كانوا يعبدون نفراً من الجن، فأسلم الجنيون، والإنس الذين كانوا يعبدونهم لا يشعرون". الحديث في مسلم وغيره

(269) انظر المفصل *ج12 278)* (والصفحة التي قبلها

(270) انظر الحديث في السلسلة الصحيحة للشيخ الألباني برقم 3293

أَدۡرِيٓ أَقَرِيبٞ مَّا تُوعَدُونَ ﴿٢٥﴾ أي قل لهم يا محمد: ما أدري هل هذا العذاب الذي وعدتم به قريب زمنه ﴿أَمۡ يَجۡعَلُ لَهُۥ رَبِّيٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾﴾ أي أم هو بعيد له مدة طويلة وأجل محدود؟ قال المفسرون: كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كلما خوف المكذبين نار جهنم، وحذرهم أهوال الساعة، أظهروا الاستخفاف بقوله، وسألوه متى هذا العذاب؟ ومتى تقوم هذه الساعة؟ فأمره تعالى أن يقول لهم: لا أدري وقت ذلك، هل هو قريب أم بعيد؟ ([271])

﴿ قُلۡ إِنۡ أَدۡرِيٓ أَقَرِيبٞ مَّا تُوعَدُونَ أَمۡ يَجۡعَلُ لَهُۥ رَبِّيٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾﴾ [الجِن : 25] .

ولعل أفضل ما وقع في عقل متأمل لفهم دلالة هذا الاستفهام هو ما قاله السمين الحلبي : (قلت: كان النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم يَستَقْرِبُ المَوْعِدَ فكأنه قال:» ما أَدْري أهو حالٌ متوقَّعٌ في كلِّ ساعةٍ أم مُؤَجَّلٌ ضُرِبَتْ له غايةٌ[272] «)، ويعضد ما قاله الحلبي ما جاء في خاتمة سورة الأحقاف - والتي نزلت بعد سورة الجن وتكمل لنا قصتهم- :

﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسۡتَعۡجِل لَّهُمۡۚ كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَ مَا يُوعَدُونَ لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّن نَّهَارِۭۚ بَلَٰغٞۚ فَهَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأَحۡقَاف : 35].

إذاً مَن يقرأ هاتين الآيتين اللتان جاءتا في ختام هذه السورة ذاتها لعلم منهما أن النبي كان لا يشك في نزول العذاب بقومه سواء أكان ذلك عذاباً خاصاً ينزله الله بالمشركين جراء تكذيبهم مثلما أنزله مرارا بالأمم الجاحدة، أو تقوم الساعة عليهم وعلى سواهم فيساقون مع غيرهم من الأمم المكذبة إلى العذاب الأخروي المقيم مثلما جاء ذلك في عشرات الآيات التي تنزلت في تلك الفترة الحرجة من الدعوة [273].

---

[271] انظرج3 ص 437 - صفوة التفاسير محمد علي الصابوني دار الصابوني للطباعة والنشر والتوزيع - القاهرة الطبعة: الأولى، - 1997 م)

[272] الدر المصون في علوم الكتاب المكنون - أبو العباس، شهاب الدين، أحمد بن يوسف بن عبد الدائم المعروف بالسمين الحلبي- تحقيق : الدكتور أحمد محمد الخراط - دار القلم، دمشق- ج10- ص 505

[273] ﴿ قُلۡ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَدًّاۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلۡعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعۡلَمُونَ مَنۡ هُوَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضۡعَفُ جُندٗا ﴿٧٥﴾﴾ [مَرۡيَم: ٧٥]، ﴿ وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ وَلَوۡلَآ أَجَلٞ مُّسَمّٗى لَّجَآءَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ وَلَيَأۡتِيَنَّهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [العَنكَبُوت : ٥٣ - ٥٤]، ﴿ وَلَوۡ نَزَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ بَعۡضِ ٱلۡأَعۡجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيۡهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ مُؤۡمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكۡنَٰهُ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ

وعلى هذا فلا ينبغي أن نفهم من تلك الرؤيا أنها كانت أكثر من تعضيد نفسي جاءت تعويضاً عن مظاهر الإخفاق التي لاقاها النبي في دنيا البشر، بل لقد ظلت السور المكية التي أعقبت سورة الجن تجسد لنا اعتقاد النبي الراسخ في أن العرب لن يؤمنوا بنبيهم بل سيكفر أكثرهم به مثلما كفرت الأمم الغابرة بأنبيائها، وسنجلي تلك النقطة بعد قليل خلال عرضنا لقصة مؤمن أهل القرية ؛ لأن تلك القصة قد جاءت في فاتحة سورة (يس) والتي يتفق علماء القرآن على نزولها بعد سورة الجن مباشرة. وأما ما ادعاه هذا الكاتب عن أن كل قبيلة من العرب كانت لها جنها الخاص بها فلم نجد قط - فيما قرأناه- أثراً يدل على هذا.!

(5)
مثال آخر للتخبط والتحير.

وإلى القارئ مثال آخر على تلك الالتباسات التي وقع فيها بعض الناظرين في تلك القصة: (وفي حين يسهل أن نفهم شيوع الأوهام والأفكار اللاعقلانية لدى الشعوب البدائية والطبقات الدنيا من الأمم المتقدمة، فإن من المدهش أن نجد مثل هذه الأوهام والأفكار في كتاب يؤخذ على أنه كلام الله وفي دعوة رجل تحدى خرافات قومه وسعى إلى إصلاح عاداتهم وأخلاقهم . ويمكن لنا أن نتصور أن ما تشتمل عليه سورة الجن إنما يصف حلما رآه النبي . فرؤيته الأولى للملاك عند الوحي الأول حين بعث نبيا، وصفت بأنها رؤيا صالحة ورؤيته الثانية للملاك في إسراءه إلى المسجد الأقصى فسرت على أنها حلم. والفرضية الأخرى المحتملة هي: أن قد كان لأفكار خصوم محمد تأثير قوي على عقله المتسم بسعة الخيال فجعله يتصور وجود جنس يتصف بما يتصف به البشر من ملكات الإدراك العقلي، ويحتاج كما البشر لأن يدعى إلى الإيمان بالله الواحد واليوم الآخر .... ويمكن - أيضا - أن نعد سورة الجن قطعة من الوعظ المجازي، وكما قال جلال الدين الرومي: (حين تعنى بالأطفال فلتكن لغتك طفولية) فلعل النبي في

ٱلۡأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُواْ هَلۡ نَحۡنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسۡتَعۡجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيۡتَ إِن مَّتَّعۡنَٰهُمۡ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾﴾ [الشُّعَرَاء : 198 - 208] .

التماسه الأعذار لذهنية قومه أبدع قصة الجن وسماعهم القرآن، وما كان من تأثرهم الشديد حتى آمنوا وغدوا مسلمين. كائناً ما كان التفسير فإنه لا لوم ولا تثريب على النبي. فالفلاسفة العظماء في اليونان القديمة بكل ما لديهم من أفكار رفيعة، ومآثر في الرياضيات وعلوم الطبيعة والمجتمع ما استطاعوا تجاهل أفكار قومهم بل انغمسوا في الأساطير الدينية اليونانية. ومع هذا فلأنه تبقى هنالك معضلة. فالمسلمون يؤمنون بأن القرآن هو ما أوحاه الله لمحمد وينكرون أن يكون محمد قد وضع أي شيء منه. ثم إن سورة الجن تبدأ بالأمر قُل. فهل وافق الرب عرب الحجاز على إيمانهم بوجود الجن والأرواح؟ أم أن أقوال محمد هي التي نشرت هذا الإيمان وعززته؟ [274]).

ولسنا بحاجة للقول بأن قصة النبي مع الجن لم تكن رؤية منامية أو حلماً من الأحلام، ولم يكن النبي - كذلك - يستعير عقائد خصومه، بل كان الإيمان بالجن قاراً وراسخاً في صلب عقيدته الشخصية، سواء أكان ذلك بما تابع عليه قومه من عقيدة الجن، أو كان مما استحسنه النبي من عقيدة الشيطان الكتابي، ولكنه سيدمجهما معاً في عقيدة واحدة جديدة كما سنرى.

ولم يكن النبي - كذلك - يخاطب العرب بأوهامهم، كما لو أنه كان يسترسل مع ضلالاتهم التي لا يعتقدها في قرارة نفسه كلا!، بل كان النبي - عليه السلام - يؤمن بالجن والشيطان أشد الإيمان ؛ إذ كيف يعقل أن يشك النبي فيما أعتقد أنه من أسس العقيدة الإلهية القديمة؟! أو كيف يمكن أن يشك النبي فيما يجسده له خياله؟!، وأما ما قرره الكاتب من أن القرآن الكريم قد عزز أوهام العرب وضلالاتهم الأسطورية فهذا ما لا يختلف عليه أحد، وهو الأمر الذي يتقاسمه مع النبي محمد جميع الأنبياء السابقين ؛ فقد كانوا ينطلقون جميعاً من ثقافة عصورهم ويرسخونها سواء أكانت عقائد غيبية متوارثة تتجاوز حدود هذا العالم، أو كانت مجرد تفسيرات خرافية لظواهر طبيعية يشاهدها العيان، وسنخصص لهذه النقطة مبحثا مستقلا بعد قليل.

[274] انظر علي الدشتي - 23 عاما - دراسة في السيرة النبوية المحمدية - ترجمة ثائر ديب - الطبعة الأولى بترا للنشر والتوزيع سوريا -2004م- ص 213و 214 -

(6)
كيف فهم التقليديون تلك القصة ؟

في مقابل أمثال تلك الفهوم الحديثة لدلالة تلك القصة القديمة والتي جاءت ـ كما رأينا ـ مضطربة وناقصة وشائهة، فلربما يحسن بنا أن نقدم هنا مثالين فقط من أمثلة الفهم التقليدي لتلك القصة ـ ليس لأننا نقر صحة الفهم الحرفي لتلك الواقعة ـ بل لأن الفهم التقليدي هو الأقدر على بيان كيف استخدمت تلك القصة العجيبة في سياق الدعوة المحمدية، وكيف كان تأثيرها فيما يبدو فعالاً على المسلمين الأولين : (كان هذا الفتح الرباني في مجال الدعوة، ورسول الله ببطن نخلة عاجز عن دخول مكة، فهل يستطيع عتاة مكة وثقيف أن يأسروا هؤلاء المؤمنين من الجن، وينزلوا بهم ألوان التعذيب؟ وعندما دخل النبي صلى الله عليه وسلم مكة في جوار المطعم بن عدي كان يتلو على صحابته سورة الجن فتتجاوب أفئدتهم خشوعًا وتأثرًا من روعة الفتح العظيم في عالم الدعوة، وارتفاع راياتها، فليسوا هم وحدهم في المعركة، هناك إخوانهم من الجن يخوضون معركة التوحيد مع الشرك[275].)، (نعود فنرى تدبيراً من الله تعالى أن يصرف هؤلاء النفر من الجنّ إلى استماع القرآن في هذا الوقت، بعد تلك الظروف القاسية التي عرضنا لها، لا مصادفةً عابرةً، وكان في تقدير الله أن تعرف الجنّ نبأ الرسالة الخالدة الخاتمة الأخيرة، كما عرفت من قبل رسالة موسى عليه السلام، وأن يؤمن فريق منهم وينجو من النار المعدّة لشياطين الجنّ، كما هي معدّة لشياطين الإنس سواء![276]).

على هذا النحو ـ إذاً- فُهِمَت تلك القصة قديماً، ولم يزل ذلك التفسير الحرفي سائداً عند عموم المسلمين المحدثين، وسيكون من بين أهم ما تستهدفه هذه الصفحات أن تبرهن على أن ذلك الفهم الحرفي لم يعد صالحاً للعقل الحديث، وهو ما سوف يراه القارئ بنفسه بعد أن نتوقف على المضامين التفصيلية لتلك القصة بعد قليل.

---

(275) السِّيرةُ النّبوية ـ عرضُ وقائع وَتحليل أحدَاث- محمد علي الصَّلاَّبي- دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ـ لبنان الطبعة: السابعة، 2008 م ص 221

(276) الجامع الصحيح للسيرة النبوية- د سعد المرصفي ـ مكتبة ابن كثير، الكويت الطبعة: الأولى، ـ 2009 م ج4 ص 1418-

(7)

كم كان عدد الجن المؤمنين؟!

إذا كان القرآن لا يشير إلا أن عدداً قليلاً من الجن قد سمعوا النبي وهو يقرأ بالقرآن، وأوحى الله إلى نبيه يخبره بما كان من حضورهم وإسلامهم، ودون أن يخبرنا الله بشيء تفصيلي عن هؤلاء الجن من كانوا؟ ومن أي البلاد أتوا؟، وما إلى ذلك من تفاصيل تستشرف لها النفس وتتوق لمعرفتها فإن قدامى المفسرين - والذين لم يشف ذلك لهم غُلة - راحوا يذكرون لنا أسماءهم وأسماء بطون قبائلهم، وقريتهم التي جاءوا منها، بل ومنزلتهم بين قومهم وكيف كانوا من ملوكها وأشرافها ولم يكونوا سوقة من غمار عامة الجن وإلى غير ذلك من تفاصيل غير آبهين أحياناً بما يتوافق مع القرآن أو بما يعارضه.

فبينما يقول القرآن مثلاً في الموضعين أنهم (نفر من الجن)، فإننا نجد بعض أقوال المفسرين ترفع أعدادهم إلى الألوف!، ولا ندري كيف تتأتى هذه الألوف مع ما تدل عليه لفظة (نفر) التي اتفق اللغويون كافة على دلالتها على جموع القلة، وإن اختلفوا بعد ذلك بين من يجعلهم دون العشرة وبين من يرفعها إلى قرابة الأربعين؟!، والأكثر أهمية من مخالفة تلك الأعداد لما تعنيه الدلالة المعجمية أن ذلك العدد يتعارض مع قاعدة راسخة أخرى لطالما أكدها القرآن في عالم الإنس ولا نرى من سبب يجعله يستثنى منها عالم الجن، وهي أن الإيمان والهدي يكون دوماً من نصيب أقل القليل من الخلائق!، ويكفي هذا النقل عن ابن كثير لبيان تلك التزيدات السقيمة: (حَدَّثَنَا رَجُلٌ سَمَّاهُ عَنِ ابْنِ جُرَيْجٍ عَنْ مُجَاهِدٍ وَإِذْ صَرَفْنا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الْجِنِّ الْآيَةَ، قَالَ كَانُوا سَبْعَةَ نَفَرٍ ثَلَاثَةً مِنْ أَهْلِ حَرَّانَ وَأَرْبَعَةً مِنْ أَهْلِ نَصِيبِينَ، وكانت أسماؤهم حيي وحسى ومنيثي وشاضر وماضر والأرد وابيان وَالْأَحْقَمَ، وَذَكَرَ أَبُو حَمْزَةَ الثُّمَالِيُّ أَنَّ هَذَا الحي من الجن كان يقال له بَنُو الشَّيْصِبَانِ وَكَانُوا أَكْثَرَ الْجِنِّ عَدَدًا وَأَشْرَفَهُمْ نَسَبًا، وَهُمْ كَانُوا عَامَّةَ جُنُودِ إِبْلِيسَ. وَقَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ عَنْ عَاصِمٍ عَنْ ذَرٍّ عَنِ ابن مسعود رضي الله عنه كَانُوا تِسْعَةً أَحَدُهُمْ زَوْبَعَةُ، أَتَوْهُ مِنْ أَصْلِ نخلة، وتقدم عنهم أَنَّهُمْ كَانُوا خَمْسَةَ عَشَرَ، وَفِي رِوَايَةٍ أَنَّهُمْ كَانُوا عَلَى سِتِّينَ رَاحِلَةً، وَتَقَدَّمَ عَنْهُ أَنَّ اسْمَ سَيِّدِهِمْ وَرْدَانُ، وَقِيلَ: كَانُوا ثَلَاثَمِائَةٍ، وَتَقَدَّمَ عَنْ عِكْرِمَةَ أَنَّهُمْ كَانُوا

اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفًا، فَلَعَلَّ هَذَا الِاخْتِلَافَ دَلِيلٌ عَلَى تَكَرُّرِ وِفَادَتِهِمْ عليه صلى الله عليه وسلم[277]).

أما عن أسماء هؤلاء النفر الصالح من الجن فالملاحظ أنه لم تتفق روايتان قط على أسماءهم ؛ وذلك لسهولة وضع أسماء مختلفة سخيفة لهؤلاء الجن العابرين؛ إذ يكفي أن تكون تلك الأسماء قريبة بعيدة ؛ أي أن تكون قريبة من أسماء الإنس مع تحريف قليل، مثلما تتشابه صورة الجن مع الإنس إلا في بعض الملامح الجسدية الصغيرة في المخيال البشري: (وَقِيلَ في أسمائهم: شاصر وماصر ومنشي وَمَاشِي وَالْأَحْقَبُ، ذَكَرَ هَؤُلَاءِ الْخَمْسَةَ ابْنُ دُرَيْدٍ.)[278]، بل أننا نجد ترجمة لجني مسلم واسمه (عرفطة بن سمراح الجني[279])، وعدُّه الحافظ ابن حجر من بين صحابة النبي، وساق لنا قصة إسلامه.

والأكثر من ذلك فقد تتبع المفسرون ما كان من مصائر جيل صحابة الجن هؤلاء، واهتموا اهتماماً شديداً بمصائرهم، فذكروا لنا من عاش منهم؟ وكم عاش؟ ومن قتل منهم؟ وكيف قتل ؟ وعلى يد من قتل؟ ومن كان آخرهم وفاة ؟ إلى ما سوى ذلك من سخف كثير يكفينا منه مثالاً واحداً فهو يغني عن سواه: (قال عيزار بن حريث : كنت عند عبد الله بن مسعود رضي الله عنه فأتاه رجل فقال له : كنا في سفر فإذا نحن بحية جريحة تتشحط في دمها فقطع رجل منا قطعة من عمامته فلفها فيها فدفنها، فلما أمسينا ونزلنا أتانا امرأتين من أحسن نساء الجن فقالتا : أيكم صاحب عمرو ؛أي الحية التي دفنتموها ؟ فأشرنا لهما إلى صاحبها فقالتا إ: نه كان آخر من بقي ممن استمع القرآن من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان بين كافري الجن ومسلميهم قتال فقتل فيهم فإن كنتم أردتم به الدنيا ثوبناكم أي عوضناكم، فقلنا: لا إنما فعلنا ذلك لله.فقالتا أحسنتم وذهبتا.

(277) (انظر تفسير ابن كثير - ج7 ص 274-

(278) (انظرج16- ص 214 تفسير القرطبي

(279) الإصابة في تمييز الصحابة - تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلى محمد معوض دار الكتب العلمية - بيروت الطبعة: الأولى - 1415 هـ ج4 ص 402)، وعد ابن حجر شاصر - أيضا - من بين الصحابة انظر - السابق ج3 ص 250

يقال اسم الذي لف الحية صفوان بن معطل المرادي صاحب قصة الإفك والجنى عمرو بن خابر رحمه الله[280])..

(8)
متى نزلت تلك السورة ؟

وأما عن زمن تنزل هذه السورة وموقعها بين سور القرآن وفق ترتيب النزول فقد اختلف علماء القرآن بشأنها ترتيب نزولها اختلافاً بعيداً، فنجد مصحف الأزهر - مثلا- يجعل سورة الجن هي السورة الأربعون ولا يسبقها من المطولات سوى سورة الأعراف، ومن السور المتوسطة سورتي ص والقمر، وهو مقدار قليل للغاية إن سلمنا بأن سورة الجن قد نزلت حقاً في أعقاب رحلة النبي إلى الطائف ؛ أي بعد عشر سنوات من البعثة النبوية[281] .

بينما نجد ترتيب نولدكه - بلاشير - يجعلها رقم (64) وعلى هذا فيسبقها عدا قصار السور سور كثيرة مثل - القمر - الصافات - طه - الدخان - الحجر - مريم - يس - الزخرف - ص - الخ، وفي اعتقادنا أن الترتيب الثاني هو الأقرب إلى المعقول ؛ لأن زيارة النبي للطائف كانت بعد وفاة أبي طالب والسيدة خديجة ؛ أي بعد عشر سنوات كاملة من بعثته فلا يعقل أن يكون هذا هو كل ما تنزل من القرآن في تلك السنوات، وأن تكون بقية القرآن المكي وهو ما يعادل ثلثي القرآن كله قد تنزل في تلك المدة القصيرة ؛ أي بين رحلة الطائف وبين الهجرة إلى المدينة!، أي في أقل من عامين أو ثلاثة على الأكثر.!

لكن لا خلاف بين الجميع على أن سورة الجن تسبق سورة الأحقاف - وهما السورتان اللتان ذكرتا تلك القصة -، وهو ما تؤيده الدلالات الداخلية لتطور القصة القرآنية، وما نجده - أيضا - في ختام سورة الأحقاف من الدعوة إلى الصبر كما صبر الأنبياء الكرام من قبله، وهو برهان على أن دعوة النبي لم تكن قد قطعت شوطاً بعيداً

---

(280) أنظر تفسير روح البيان إسماعيل حقي بن مصطفي الإسطنبولي الحنفي الخلوتي- دار الفكر - بيروت- ج10 ص 189 وأمثال تلك القصة بالعشرات في أخبار الجاهليين كما سنرى .ويلاحظ أن معظم تلك المرويات الإسلامية عن الجن وأخبارها تأتي في كتب السنة والسيرة منسوبة إلى عبد الله بن مسعود !

(281) قائمة الزركشي لا تبعد كثيرا عن هذا الترتيب فقد جاءت سورة الجن برقم (39)

في مسيرها الظافر، لكنها كانت فيما يبدو في حال أفضل - ولو قليلا - من موقف الدعوة كما تظهر سورة الجن وسورة يس التي نزلت بعدها اتفاقا [282].

(9)

ما الذي كان يتلوه النبي عندما سمعته الجن؟

الحقيقة أننا لا ندري أي سور القرآن كان النبي يتلو على الجن، لكنه القرآن الكريم الذي يغني قليلة عن كثيره في التعرف على مضمونه وفحواه فكل سورة من سوره تحمل جميع قسماته .!

ومن ناحية لم نجد نصاً صحيحاً يطلعنا على تلك السورة، اللهم إلا هذا الحديث الذي يقول بأن النبي تلا على الجن سورة الرحمن، لكن النص يخصصها بليلة الجن حيث ذهب النبي إليهم ليدعوهم إلى الإسلام - كما زعم الرواة-، ومن المعلوم أنها ليلة أخرى غير تلك الليلة التي عبرت عنها سورة الجن: (عنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى أَصْحَابه فَقَرَأَ عَلَيْهِم سُورَةَ الرَّحْمَنِ مِنْ أَوَّلِهَا إِلَى آخِرِهَا فَسَكَتُوا فَقَالَ: «لَقَدْ قَرَأْتُهَا عَلَى الْجِنِّ لَيْلَةَ الْجِنِّ فَكَانُوا أَحْسَنَ مَرْدُودًا مِنْكُمْ كُنْتُ كُلَّمَا أَتَيْتُ على قَوْله (فَبِأَيِ آلَاء رَبكُمَا تُكَذِّبَانِ قَالُوا لَا بِشَيْءٍ مِنْ نِعَمِكَ رَبَّنَا نُكَذِّبُ فَلَكَ الْحَمْدُ[283]»)، (وسياق كل من القصتين يدل على أنه لم يجتمع الجن به صلى الله عليه وسلم ولا قرأ عليهم، وإنما استمعوا قراءته من غير أن يشعر بهم. وقد صرح به ابن عباس رضي الله تعالى عنهما في هذه، وصرح به الحافظ الدمياطي في تلك حيث قال في سيرته «فلما انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم من الطائف راجعاً إلى مكة، ونزل نخلة قام يصلي من الليل فصرف إليه نفر من الجن سبعة من أهل نصيبين، فاستمعوا له صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ سورة الجن، ولم يشعر بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزل عليه وَإِذْ صَرَفْنا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ: ﴿ وَإِذْ

[282] انظر القائمتين في مدخل إلى القرآن الكريم - الجابري - ص 240و 241

[283] مشكاة المصابيح محمد بن عبد الله الخطيب العمري، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني الناشر: المكتب الإسلامي - بيروت الطبعة: الثالثة، 1985برقم (861) وقال المحقق حديث حسن وأنظره - أيضا - في السلسة الصحيحة برقم (2150) وهناك رواية أخرى قريبة أردها الحاكم في المستدرك برقم (3766) والبيهقي في شعب الإيمان برقم (2264) وأغلب الظن أن سبب وضع ذلك الحديث المريب يرجع لاشتمال الخطاب على الإنس والجن معا في تلك السورة

صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ [الأَحْقَاف : 29] هذا كلامه، (284))..

والأهم من ذلك أن النبي دائماً ما يجعل الرسول يعرف كل شيء عن مقاصد مرسله، ويجعل كذلك المؤمن المهتدي يعرف سريعاً جميع مفردات دعوة نبيه، ويتماهى معها، ولا برهان على ذلك أوضح من أنك لن تجد فارقاً أبداً بين ما قالته الجن في أول السورة - وهم الذين آمنوا منذ برهة قصيرة -، وبين الصوت الإلهي الذي يعقُب على القصة، ويخاطب النبي في خاتمة السورة مما يقطع بأنهما صوت واحد يعبران عن مضمون واحد، وينبثقان من نقطة واحدة، وهي الذات العميقة للنبي - عليه السلام - ولنا عودة إلى تحليل الأصوات في تلك السورة بعد قليل.

أما عن الزمن النفسي لتنزل تلك السورة فهو أمر يدعو للحيرة والعجب؛ لأن قارئ هذه السورة لن يدري هل كانت هذه السورة تترجم عن تجربة نفسية سبقت تنزل تلك الآيات بمدة طويلة؟، أم كانت تلك السورة تترجم عن حادثة وقعت منذ برهة قصيرة، وفيها استشعر النبي حضور الجن فجاءت آياتها لتعبر بشكل فوري عما أحسه النبي من حضورهم، ومن وقع القرآن وتأثيره عليهم ؛ أي أن ذلك كله قد حدث في مجلس واحد. والحقيقة أن مَن يقرأ هذه السورة فلن يجد فيها ما يرجح هذا أو ذاك، وإن كنا نظن أن تلك التجربة الشعورية قد سبقت تنزل هذه السورة بمدة يسيرة، وأن النبي قد تعرض في الحالتين لاستثارة شعورية عنيفة ؛ وعلى هذا، فليس ما يمنع أن يكون النبي قد استشعر حضور الجن ذات مرة وهو يصلي بأصحابه - كما تقول بعض الروايات الحديثية -، ثم جاءت لحظة مشابهة من قوة الشعور بحضور الجن لتترجم عن تلك اللحظة وتكسوها لحماً ودماً.!

﴿ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ [الجِن : 19] .

ومما يدعو للأسف أن هذه الآية السابقة والتي ربما كانت هي الإشارة الوحيدة القادرة على حسم تلك القضية لكنها - ويا للأسف- قد جاءت كما ترى بالغة الغموض

(284) السيرة الحلبية - ج1 ص505- دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الثانية 1427هجرية
ولعل أعجب ما قيل في السورة التي كان النبي يقرأها ما نقله الحلبي عن الدمياطي في النقل السابق من أن النبي تلا عليهم سورة الجن، ولا ندري كيف يقرأ النبي على الجن تلك السورة التي تترجم عن أقوالهم عندما حضروه ؟!

والإبهام، فلا ندري منها من المتكلم؟، وهل الآية تعبر عن دهشة الجن من إخبات أصحاب النبي، واصطفافهم خلفه في الصلاة كما يقول بعض المفسرين: فقد جاء عن ابن عباس قال: قال الجن لقومهم: لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا الجن: قال: لما رأوه يصلي وأصحابه يصلون بصلاته، فيسجدون بسجوده، قال: تعجبوا من طواعية أصحابه له، قالوا لقومهم: كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا.(285)

وأما الفخر الرازي فقد أضاف تفسيراً ثالثاً، ربما كان معقولاً : (يَدْعُوهُ أَيْ قَامَ يَعْبُدُهُ يُرِيدُ قِيَامَهُ لِصَلَاةِ الْفَجْرِ حِينَ أَتَاهُ الْجِنُّ، فَاسْتَمَعُوا الْقِرَاءَةَ كادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً، أَيْ يَزْدَحِمُونَ عَلَيْهِ مُتَرَاكِمِينَ تَعَجُّبًا مِمَّا رَأَوْا مِنْ عِبَادَتِهِ، وَاقْتِدَاءِ أَصْحَابِهِ بِهِ قَائِمًا وَرَاكِعًا، وَسَاجِدًا وَإِعْجَابًا بِمَا تَلَا مِنَ الْقُرْآنِ، لِأَنَّهُمْ رَأَوْا مَا لَمْ يَرَوْا مِثْلَهُ، وَسَمِعُوا مَا لَمْ يَسْمَعُوا مِثْلَهُ وَالثَّانِي: لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ مُخَالِفًا لِلْمُشْرِكِينَ فِي عِبَادَتِهِمُ الْأَوْثَانَ، كَادَ الْمُشْرِكُونَ لِتَظَاهُرِهِمْ عَلَيْهِ وَتَعَاوُنِهِمْ عَلَى عَدَاوَتِهِ يَزْدَحِمُونَ عَلَيْهِ وَالثَّالِثُ: وَهُوَ قَوْلُ قَتَادَةَ: لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ تَلَبَّدَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ، وَتَظَاهَرُوا عَلَيْهِ لِيُبْطِلُوا الْحَقَّ الَّذِي جَاءَ بِهِ وَيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ، فَأَبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يَنْصُرَهُ وَيُظْهِرَهُ عَلَى من عاداه (286)).

أم أن الآية تقول بأن الجن هم الذين تجمعوا حول النبي وتلبدوا عليه حرصا منهم على سماع القرآن؟ وهذا المعنى الأخير هو ما نرجحه، وما نستنتج منه - أيضا - أن هذه السورة جاءت لتترجم عن تلك الحادثة الأولى التي لا نعرف عنها شيئاً، ولعلها لم تكن تعني لحظة بعينها، وإنما تأسست على لحظات كثيرة؛ فما أكثر ما تلا النبي القرآن في هدأة الليل - مظنة حضور الجن ووقت نشاطهم - سواء أكان يقرأه خالياً، أم كان يقرأه على أصحابه معلماً ومصلياً، ولم يكن من الغريب - أبداً - أن تأتي تلك اللحظة من النشاط المخيالي التي تجسد هذا الحضور، وتخرجُه من الخاطرات النفسية إلى صلب الاعتقاد وهو ما فعلته باقتدار هذه السورة الجليلة.

وعلى كل حال فإذا لم يكن النبي يفوق أهل عصره في قوة الإيمان بالجن والتصديق الكامل لحضور هذا العالم المخوف - فليس من شك في أنه قد فاقهم كثيرا من باب آخر، وهو قوة مخياله الذي كان يجسد له ما يعبر في خاطر كل أحد، فقد كان النبي

---

(285) رواه الترمذي، أبواب تفسير القرآن عن رسول الله ﷺ، باب ومن سورة الجن، رقم (3323)، وأحمد في المسند، برقم (1435)، وصححه الألباني في تحريم آلات الطرب (139).

(286) انظر ج30 ص 674 - تفسير الرازي

محمد يمتلك وحده هذه المزية التصورية والتعبيرية العجيبة والتي أخرجت لنا - في النهاية - هذه التحفة الأدبية والمخيالية الجميلة؛ سورة الجن، وهي قصة لا شبيه لها لا نقول في القرآن وحده، بل ليس هناك نظير لها في الكتب المقدسة كلها.

ثانيا: قصة الجن مع النبي في القرآن الكريم.

﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ١ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ
فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ٢ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ٣ وَأَنَّهُۥ
كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ٤ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ٥
وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ٦ وَأَنَّهُمْ ظَنُّواْ كَمَا
ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ٧ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا
وَشُهُبًا ٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ٩ وَأَنَّا
لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ١٠ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ
ذَٰلِكَۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ١١ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ١٢ وَأَنَّا
لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ١٣ وَأَنَّا مِنَّا
ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوْاْ رَشَدًا ١٤ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ
حَطَبًا ١٥ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ١٦ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن
ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ١٧ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ١٨ وَأَنَّهُۥ لَمَّا
قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ١٩ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّي وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ٢٠
قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ٢١ قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ

مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾ قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴿٢٨﴾﴾ [الجن :1-28].

(سورة الجن (72) ترد إلى الرؤيا التي اكتشف فيها محمد أن الجن تسترق السمع إليه عند تلاوته القرآن. بحسب القول المعهود حدث ذلك حين كان في طريق عودته من الطائف إلى حيث ذهب من بعد وفاة أبي طالب، عند وصوله نخلة. وآخرون يجعلون الحادث يقع في هذا المكان لكنهم يختارون له زمنا آخر، وبالتحديد مناسبة رحلته إلى سوق عكاظ. رواية ثالثة تنقل مكان الحدث مباشرة إلى القرب من المدينة. ومع أنه لا يمكن ضبط هذه المعلومات تاريخياً، فنحن نعلم من مصادر أخرى أن محمداً اعتقد بكل جدية أنه عليه - أيضا - أن يبشر الجن. فحين كان مرة في طريقه إلى تبوك (في سنة 9 بعد الهجرة) اتجه إليه ثعبان ضخم، وبقي وقتاً طويلاً واقفاً أمامه، بينما كان محمدا قائماً على راحلته. من بعد ذلك انصرف الثعبان إلى جانب الطريق وانتصب واقفا فقال محمد لمن معه: أتعلمون مَن هذا ؟، إنه أحد الجن الثمانية الذين يشتاقون إلى سماع القرآن)[287].

هذه سورة من أكثر سور القرآن الكريم جلالاً وبلاغة ؛ فهي تأتي في لغة هي الذروة في الجمال، وتتدفق آياتها في إيقاع رصين جليل يسحر الألباب ؛ لذا فلا غرابة أن يقع في فتنتها قراء القرآن جميعاً حتى لو كان من بين قرائها من لا يعتقد في الصورة التقليدية عن الوحي الحرفي للقرآن الكريم، فقد كان المستشرق المعروف لويس ماسينيون - مثلاً- يُعلق على جدار غرفته هذه الآية المؤثرة من سورة الجن : (قل إني لن يجيرني من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحداً) استلهاماً لدلالتها العامة على ان كل

[287] ص 117-118 تيودور نولدكه - تاريخ القرآن - ترجمة د جورج تامر - الطبعة الأولى بيروت 2004، م نشر مؤسسة كونراد -أدناور تعديل فريدريش شفالي - دار نشر جورج ألمز- 2000م

روح ستقف - في النهاية - وحيدة وعارية أمام الله الذي لا يخفى عليه شيء، وأيضا كبرهان دائم على صدق النبي محمد وتقواه وعظيم خشيته من الله وهو ما لم يشك فيه لويس ماسينيون أبداً، وهو - أيضا - ما لا ينبغي أن يشك فيه أحد ؛ لأن مَن يظن - ولو للحظة واحدة - أن النبي قد اختلق تلك القصة أو أي شيء من القرآن الكريم فلن يفهم شيئاً عن الإسلام فليس - في اعتقادنا - من حجاب أكثف من هذا التصور الخاطئ، ليحول بين صاحبه وبين التعامل الصحيح مع هذه الظاهرة المعقدة المدهشة ؛ ظاهرة القرآن ووحيه.[288]

والسورة بعد تنقسم إلى قسمين متعادلين يأتي أولهما على لسان الجن، وهو ما سنتوقف عنده، ويزدحم شطرها الآخر بتأملات عامة تكاد أن تكون تعقيباً غير مباشر على تلك الواقعة ومغزاها، وسنكتفي هنا بما يخصنا من هذه السورة أي بخطاب الجن وما أورده القرآن على لسان ناطقهم.

﴿ قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا ١ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدٗا ٢ ٣﴾ [الجن : 1 - 2] .

الجن يسلمون!

تُفتتح هذه السورة بتقريرها الحاسم بأن هذه الحادثة التي ستدور حولها السورة هي أمر لا يخص النبي محمد وحده، بل أمر يهم الناس جميعا ؛ لذا فالصوت الإلهي يأمر النبي محمد بأن يقص علي مسامع قومه ما حدث له في تلك الليلة التي حضره فيها نفر من الجن العابرين، وما أثاره فيهم سماع القرآن من مشاعر حيث شرح الله صدورهم للإسلام فأسلموا، وها هو صوت الوحي الإلهي يترجم للبشر جميعاً عما ثار في ضمائر وقلوب هؤلاء النفر الصالح من الجن، فجاءت تلك الترجمة في قالب خطابي يضج بالحياة كما لو أنهم يخبروننا -عبر القرون- بما حدث لهم. والآية الأولى تنص كذلك - وبوضوح- على أن النبي لم يكن على علم بمَن حضروه حتى أوحى الله إليه بما كان من نبأ هؤلاء النفر الذين أصغوا إلى القرآن فأعجبهم ما يهدي إليه معناه، بعد أن

[288]) سيرة حياتي - د عبد الرحمن بدوي - ج1 ص162- المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت لبنان الطبعة الأولى - 2000م

راقهم وسحرهم جميل مبناه، مما يوحي بأن مستمعيه من الجن كانوا عرباً - أو كالعرب - بحيث يستطيعون تذوق جمال القرآن وطلاوته [289]، ولذا فقد آمنوا على الفور كما لو كانوا مشركين مرتابين في عقائد آبائهم ولا ينتظرون سوى سماع صوت الحق،وحتى نراهم يؤمنون سريعاً بما بحثوا طويلاً عنه فلم يجدوه .

ومن الواضح أن ختام الآية الأولى يُنبئنا كيف تنامى داخل النبي محمد الشعور بجمال القرآن وفرادته عن أي كلام عربي آخر فلم يكن القرآن - كما هو معلوم - يشبه الشعر في شيء، ولم يكن القرآن كذلك بالنثر المرسل مثلما يكون في الخطب وعامة كلام الناس، ولم يكن القرآن - ثالثاً - بالسجع لما كان يغلب هذا الشكل التعبيري - على الأقل في حدود ما بلغنا من نماذجه - من غموض وإبهام، ومن تكلف كريه، وعلى كل حال فالقرآن شيء مختلف تماماً عن كل موروث العرب القولي، وسيتنامى الشعور النبوي بجلال القرآن بدءا من تلك النقطة الصغيرة، وسيتحول فيما بعد إلى سلاح باتر سيشهره النبي في وجه كل من يطالبه بمعجزة مثل بقية الأنبياء السابقين بدءاً من تحديهم بمجموع القرآن ثم إلى التحدي بعشر سور من مثله كما في سورة هود: ﴿ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٣﴾ [هُود: 13] إلى التحدي بسورة واحدة مثلما جاء في ﴿ وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٢٣﴾ [البَقَرَةِ : 23]

(ولن نشرك بربنا أحدا)

ليس من البعيد أن يفهم من قولهم: ﴿وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدٗا ٢﴾ [الجِن : 2]۞ أن الجن كانوا يستشعرون في قلوبهم قلقاً غامضاً من أنهم لن يُتركوا على هذا التوحيد الخالص، بل سيجدون من يحرضهم على الرجوع عنه والعودة إلى ما كانوا عليه من

(289) (وكان أوّل من بُعث نفر من أهل نصيبين وهي أرض باليمن، وهم أشراف الجنّ،) : أنظر تفسير الطبري - تحقيق شاكر - مؤسسة الرسالة - الطبعة الأولى 2000م ج 23 ص 648

الشرك ليجري عليهم ما قرره الله على عموم المؤمنين- إنساً وجناً - بأنهم لن يتركوا على إيمانهم دون أن يفتنوا بكل وسيلة من وسائل الفتنة والغواية مثلما نصت عليه فاتحة سورة العنكبوت: ﴿ الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝٣﴾ [العَنكَبُوت: 1 - 3].

﴿ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ۝٣﴾ [الجِن : 3] .

ثم نجد الجن - وفور إيمانهم - ينزهون الله عن شبيه ما تعثرت فيه كفرة الإنس والجن من خطيئة الزعم بأن الله قد اتخذ صاحبةً وولداً، وأكثر ما يعنينا في هذه الآية هي دلالتها القاطعة على تطابق اعتقادات الجن والإنس، وأن كليهما كانوا ينسبون إلى الله الصاحبة والولد: ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٞۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ۝١٠١﴾ [الأَنۡعَام : 101]، ﴿ ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدًا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرًا ۝٢﴾ [الفُرۡقَان : 2]، : ﴿ وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدًا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلِيّٞ مِّنَ ٱلذُّلِّۖ وَكَبِّرۡهُ تَكۡبِيرَۢا ۝١١١﴾ [الإِسۡرَاء : 111]، : (وذلكَ أنَهُم لَمَّا سمعُوا القرآنَ ووفقُوا للتوحيدِ والإيمانِ تنبهوا للخطأ فيما اعتقدوه كفرةُ الجنِّ من تشبيهِ الله تعالَى بخلقِه في اتخاذِ الصاحبةِ والولدِ فاستعظمُوه ونزهُوه تعالَى عَنْهُ[290]).

إذن فكما نزه القرآن الله تعالى عن تلك العقيدة الباطلة، فكذلك كان التوحيد والتبرؤ من الشرك والشركاء هو أول ما صدعت به الجن بعد إسلامها: (مصححة بخطابها ما شاع بين العرب من أن الملائكة بنات الله جاءته من صهر مع الجن فجاءت الجن بأنفسها تكذب هذه الخرافة ![291]).

---

(290) تفسير أبي السعود - إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم- أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفي- دار إحياء التراث العربي - بيروت ج9 ص 43

(291) في ظلال القرآن - سيد قطب - ج6 ص 3727

﴿ وَجَعَلُواْ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًاۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [الصَّافَّات: 158 - 159] .

ولا ندري كيف استطاع مفسر أديب أن يخط هذه السطور الغريبة العجيبة السابقة؟! فهل كانت تلك القصة وأحداثها تصلح كبرهان على شيء ؟! وهل شهد أحد شيئاً من أحداث تلك القصة وأبطالها، حتى يتخذ من قول الجن برهاناً على صحة شيء أو كذبه ؟!، فما الفارق إذن بين أن يقرر القرآن بطلان تلك الاعتقادات - رأساً - كما في جاء في تلك السابقة من سورة الصافات، وبين أن يورد القرآن الكريم على ألسنة الجن تكذيباً لها ؟!!، لأنه إذا كان مدار الخطاب القرآني كله هو التصديق والإيمان بوقوع تلك الحوادث الغيبية - والتي لا برهان من الحس عليها- فخطاب القرآن الكريم وحده يكفي المؤمنين المصدقين وزيادة، ولكنه بطبيعة الحال لا يعني شيئاً عند المكذبين الذين يسهل عليهم جحود تلك القصة وتكذيبها؟ .!

﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾﴾ [الجِن:4 - 5]

ثم تنتقل الآيات لبيان اعتذارهم عما كانوا فيه من الكفر زمن الجاهلية - التي غادروها منذ لحظات - حيث كانوا ينسبون إلى الله بجهالاتهم ما لا يليق بذاته العلية ﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا﴾ قال ابن عباس: يريد المشركين من الجن، وهو قول مقاتل: يعني كفارهم[(292)]

ويحتمل ظاهر الآية - أيضا - أنهم كانوا يقصدون أن أباهم وسيدهم إبليس كان يفتري على الله كذباً، وأنهم كانوا يصدقونه مثلما كان البشر المستضعفون يتابعون ملئهم وسادتهم الذين يضلونهم عن سواء السبيل - وهو ما نرجحه -، ثم نراهم بعدها يبرؤون إلى الله مما أسلفوا، متعللين بأنهم ما كانوا ليعتقدوا أن تتواطأ الجن والإنس على الكذب

(292) التَّفْسِيرُ البَسِيْط- أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري عمادة البحث العلمي - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.الطبعة الأولى 1430 هجرية ج22ص 288

والافتراء على الله : (أي حَسِبْنَا أَنْ لَنْ تَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِباً، فَلِذَلِكَ صَدَّقْنَاهُمْ فِي أَنَّ لِلَّهِ صَاحِبَةً وَوَلَدًا، حَتَّى سَمِعْنَا الْقُرْآنَ وتبينا به الحق(293).)

إذاً، فهذه الآية كما تصلح كتعبير عن تبرؤهم واعتذارهم لله مما كانوا عليه الضلال فهي تصلح - أيضاً - بتصديق القرآن عليها - أن تكون عذراً مقبولاً لهم - حيث يتبدى لنا هذا النفر من الجن الساذج كما لو كانوا هم المقابل لعموم الإنس الغافلين المستضعفين سريعي التصديق أو لعلهم كانوا هم المقابل لمؤمني أهل الكتاب، الذين كانوا يتحرقون شوقاً إلى الإيمان برسالة السماء.

﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦ ﴾ [الجِن : 6] .

ثم تحمل الآيات حملة ضارية على البشر وحماقاتهم فتخبرنا أن البشر لم ينالوا شيئاً باحتمائهم من الجن سوى أن اجترأت عليهم الجن لما رأوه من خضوعهم لهم وخوفهم منهم (294).

﴿ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ۝٧ ﴾ [الجِن : 7] .

ثم تنتقل الآية إلى تقرير مشترك اعتقادي، كان يجمع عالمي الإنس والجن معاً قبل الإسلام؛ حيث كانوا جميعاً يرتابون في البعث، ولا يؤمنون بأن خلف هذا العالم شيئاً، فهم على هذا كانوا في اعتقاد النبي يشابهون (الدهريون) ؛ أي تلك الطائفة من العرب الذين قالوا ما حكاه عنهم القرآن مرارا : ﴿ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ۝٢٤ ﴾ [الجَاثِيَة : 24]، : ﴿ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ۝٢٩ ﴾ [الأَنْعَام : 29].

(وأنهم ظنوا) أي الإنس (كما ظننتم) أيها الجن على أنه كلام بعضهم لبعض (أن لن يبعث الله أحدا) أي من الرسل إلى أحد من العباد، وقيل أن لن يبعث سبحانه أحدا بعد

(293) (تفسير القرطبي - ج19ص 9 - *تحقيق* - أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش-: دار الكتب المصرية - القاهرة الطبعة: الثانية، - 1964 م)

(294) ليس من الغريب أبدا أن يخاف البشر إن اعتقدوا بوجود كائنات تشاركهم عالمهم، وتستطيع أن تراهم دون أن يرونها، وتستطيع أن تؤذيهم وتوقع بهم الشر مع عجزه أن يردوا هذا العدوان أو أن يدفعوا عن أنفسهم الأذى فما الغريب مع وجود عقيدة مرعبة كهذه أن يحاول البشر أن يسترضوهم، وأن يتملقوهم، وأن يطلبوا حماية أخيارهم من سفهائهم واهل الشر فيهم ؟!!

الموت، وأيا ما كان فالمراد وقد أخطئوا وأخطأتم ولعله متعلق الإيمان، وقيل إن الجن ظنوا كما ظننتم أيها الكفرة أن لن الخ، فتكون هذه الآية من جملة الكلام الموحى به معطوفة على قوله تعالى أنه استمع وعلى قراءة الكسر تكون استئنافاً من كلامه تعالى، وكذا قبلها على ما قيل وفي الكشاف: قيل الآيتان يعني هذه وقوله تعالى وأنه كان رجال الخ من جملة الموحى وتعقب ذلك في الكشف بأن فيه ضعف لأن قوله سبحانه وأنا لمسنا السماء الخ من كلام الجن أو مما صدقوه على القراءتين، لأن من الموحى إليه فتخلل ما تخلل وليس اعتراضاً غير جائز إلا أن يؤول بأنه يجري مجراه لكونه يؤكد ما حدث في تماديهم في الكفر أولاً، ولا يخفي ما فيه من التكلف. انتهى[295]).

وقد جوّز بعض المفسرين - مثلما رأينا في النقل السابق - أن يكون المراد من هذه الآية أن الجن كانوا مثل الإنس في استبعادهم أن يرسل الله إلى أهل الأرض رسولا يدعوهم لعبادته بعدما خلت الرسل ومضى زمان المرسلين، وهو معني نستغربه ونراه بعيدا لما يستلزمه - إن صح هذا الفهم - من الاعتقاد في أن العرب كانوا يصدقون بإرسال الله رسلاً من قبل، ولكنهم ظنوا أن الرسالات الإلهية قد انقطعت بعد موسى، مثلما اعتقدت في هذا عامة الجن، ولن يرسل الله إلى الناس بعده رسولاً إلى أهل الأرض، وهو معنى لا نظن أنه يترجم عن صحيح عقائد عرب الجاهلية؛ فقد كان عامة العرب يرتابون في دعوى النبوة ذاتها، ولم يكن خلفهم إرث قديم يجعل لهم نصيب منها، كما نص على ذلك القرآن مراراً، ومن ذلك مثلاً : ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًاۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْۖ قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾﴾ [الأَنْعَام: 91]، ﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾﴾ [يس : 6]، ﴿وَإِن كَانُواْ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا

(295) روح المعاني السيد محمد شكري الألوسي - المجلد التاسع والعشرون - ص - 86- إدارة الطباعة المنيرية - دار إحياء التراث العربي بيروت - لبنان

عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُواْ بِهِۦ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ [الصَّافَّات : 167 - 170]، ﴿ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾﴾ [فَاطِر : 42]، ﴿ أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأَنْعَام : 156 - 157] .

على هذا؛ فرغم أن تلك الآية يحتمل ظاهرها كلا المعنيين اللذين تردد بينهما المفسرون - خاصةً مع غموض سياق الآيات حتى إننا لا نعلم على وجه الدقة هل الجن هنا يخاطبون الأنس أم يخاطب بعضهم بعضاً - إلا أننا نقدم هذا الترجيح السابق انطلاقاً من ضرورة وجود اعتقاد سابق عند البشر أولاً، ثم يجعل النبي بعدها الجن تشاركهم فيه ؛ لأننا لا نجيز أن يمنح النبي الجن اعتقاداً خاصاً ومستقلاً عن جميع اعتقادات البشر أولاً: لأنه شيء خلا القرآن تماماً منه، فلم تكن عقائد الجن سوى انعكاس مباشر لعقيدة عرب الجاهلية مثلما كانت عقائد جميع الأمم السابقة انعكاساً لعقائد الجاهليين.

والأهم من ذلك أن الآيات لا تخبرنا في الحقيقة عن عالم حقيقي لمخلوقات عاقلة قد يكون من بين تصوراتها واعتقاداتها ما يشابه أو ما يخالف عقائد عالم البشر.. كلا!، بل كانت الجن وعوالمها مجرد موجودات ذهنية خالصة صاغ النبي عقائدهم على مثال عالم الإنس وأفكارهم ؛ لذا فلابد - بداهةً - أن يوجد الشيء أولاً في العالم الحقيقي عند الإنس حتى يعقل أن نقبل وجوده في عالم الجن الأسطوري .

﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ وَأَنَّهُمْ ظَنُّواْ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا

وَشُهُبًا ۝٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْآنَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ۝٩﴾ [الجن : 6 - 9] .

ثم تكشف -أيضاً- لنا هذه الآيات بعضاً من الحقائق المفترضة عن صورة اعتقادات هذا العالم الخفي، لكنها تأتي - بدلاً من ذلك - على ملمحين من أهم ملامح عالم الجن كما صاغه النبي ؛ حيث تجمع تلك الآيات السابقة بين تصور النبي عن علاقة الإنس بالجن - كما اعتقدها العرب قبل الإسلام - وما كانوا يلتمسونه عندهم من النصرة والحماية، وكذا ما اعتقده النبي عن علاقة الجن بالغيوب مما استقاه -على الأرجح - من خارج ثقافة قومه، لتعبر عن موقف الله من تلك المحاولات الشيطانية لسرقه وحيُه وأنباء تقديره في الخلق، مضافاً إليهما ما افترضه النبي أي ما أسقطه النبي على عقيدة عالم الجن من اعتقادات عامة العرب مفترضاً تشابه العالمين.

أما عن الملمح العربي في هذه الآية فهي تشير إلى ما كانت عليه العرب في الجاهلية، حينما كانوا يحتمون إذا ما نزلوا وادياً مهجوراً بسيد قومه من الجن مثلما كانوا يفعلون عندما يطلبون جوار سيد عربي مرهوب الجانب فيدخلون تحت حمايته وفي جواره، فلا يستطيع أحد بعد ذلك أن يعرض لهم بسوء، وإلى شيوع هذا الاعتقاد بين عرب الجاهلية أطبقت المصادر العربية كلها .

(كان رجال من الناس من العرب وغيرهم إذا نزلوا منزلاً مخوفاً في واد أو شعب يستعيذون برجال من الجن كأن يقول الرجل : أعوذ بسيد هذا الوادي من سفهاء قومه فزاد الإنس الجن بهذا اللجأ إليهم والاحتماء بهم رهقا أي إثماً وطغياناً. إذ ما كانوا يطمعون أن الإنس تعظمهم هذا التعظيم حتى تستجير بهم. وأنهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحدا [296]).

وفي مقابل استعاذة العرب بالجن فقد حض النبي المسلمين على أن يستعيذوا بالله، إذا ما نزلوا وادياً يخافون من شياطينه، أو من هوامُه ، فعن خولة بنت حكيم قالت

---

(296) أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير- أبو بكر الجزائري- مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية - الطبعة: الخامسة، 2003م- ج5 - ص 448-

(سمعت رسول الله (ص) يقول من نزل منزلاً ثم قال أعوذ بكلمات الله التامة من شر ما خلق لم يضره شيء حتى يرتحل من منزله ذلك [297]).

ولا ندري من جانبنا دلالة التأكيد القرآني على كلمة (الرجال)عند الفريقين هنا، اللهم إلا إذا كانت لمجرد التأكيد على أن السيادة كانت في العالمين للرجال دون النساء، فلقد كان رجال البشر هم من يطلبون الحماية سواء لأنفسهم، أو لمَن يكون في حوزتهم من النساء، وعلى المقابل فقد كان رجال الجن هم من يمنح تلك الحماية حيث كانوا يكفون وتكف معهم شرار نسائهم من أن يبسطوا أيديهم بسوء إلى المستجيرين بهم ؛ فهي على هذا لم تأتِ إلا لبيان أن كليهما كان مجتمعاً ذكورياً يقوم عليه الرجال وتخضع فيه النساء، وقد كان هذا الاعتقاد أمراً بدهياً عند النبي، وعند كل أهل عصره وما بعد عصره بقرون، فقد أبدى هدهد سليمان دهشته البالغة من وجود امرأة تحكم تلك المملكة الكافرة، وتوقع النبي جازماً أن دولة الأكاسرة لن تقوم لها قائمة ما دامت قد ألقت بمقاليدها إلى امرأة لتحكمهم![298]

أما الملمح الآخر الذي أوردته تلك الآيات - والذي نعتقد أن العرب لم تكن لتعرفه قبل الإسلام - اللهم إلا إذا افترضنا أنه قد تسلل إليهم من اليهود - فهو ما يصوره النص من أن الجن كانت ترقى إلى السماء لتحاول أن تختلس شيئاً من المعرفة الإلهية، حيث كانوا يسترقون السمَع فيعرفون ما يقضي به الله هناك إلى الملائكة، فيخبرنا ناطق الجن أن ذلك كله قد انقضى ببعثة النبي، وصارت الشهب تنقض - منذ تلك اللحظة - على كل جني يحاول أن يقترب من السماء، وهذه العقيدة ترجع في أساسها - يقيناً - إلى خرافة يهودية مُسفة، لكنها ستكون- ويا للأسف - حجر الزاوية لكثير من نصوص القرآن الكريم: (لقد تعلمنا كل يوم يصدر بلاغ في الجنة، ابنة فلان ستتزوج فلان، زوجة فلان ستتزوج فلان، أموال فلاناً سيمتلك "فلان" يضيف البعض منزل فلان سيملكه "فلان " ...[299])

(ووصلنا نص في أكثر من نسخة بعنوان ميثاق سليمان مكتوب باليونانية الهلنستية وهي لغة الأناجيل ويرجع تاريخه إلى الفترة بين القرن الثاني والقرن الرابع

---

[297] رواه مسلم (2708)- كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار

[298] لن يفلح قوم ولو أمرهم امرأة - رواه البخاري برقم

[299]التلمود البابلي – نقله إلى العربية مجموعة من المترجمين – مركز دراسات الشرق الأوسط – عمان – الأردن- الطبعة الأولى – 2011م- المجلد العشرون- ص 316

الميلاديين، والنص يهودي من حيث الأصل ولكنه خضع للمسة تحريرية مسيحية تتحدث عن ظهور يسوع المسيح في المستقبل. وهو مُكرَس لوصف سلطان سليمان على عالم الجن والعفاريت من خلال خاتم سحري يضعه في إصبعه وتسخيرها في أعماله العمرانية، وهو يذكر بالتفصيل أنواع هؤلاء الجن ووظائفهم ومهاراتهم.

(وفي ميثاق سليمان، لدينا قصة عن العفاريت الذين يطيرون نحو قبة السماء من أجل استراق السمع ومعرفة الأوامر التي يصدرها الله إلى الملائكة وبذلك يتنبؤون بالحوادث المقبلة: فقد احتكم رجل عجوز إلى سليمان شاكياً ابنه الوحيد الذي يعامله معاملة سيئة ويضربه ويهدده بالموت. فاستدعى سليمان الشاب وسأله عن حقيقة الأمر، فأنكر التهمة وطلب إنصافه من أبيه الذي تجنى عليه، ولكن الأب أصر على طلب الموت لابنه. وكان العفريت المدعو أورنياس حاضرا فضحك. ولما سأله سليمان غاضبا سبب ضحكه، قال له إن الوالد سوف يموت بعد ثلاثة أيام موتاً طبيعياً. فأمر سليمان الأب والابن أن يعودا إليه بعد ثلاثة أيام. وعندما انصرفا سأل سليمان العفريت عن الوسيلة التي تعينه هو وأقرانه على كشف حجب المستقبل. فقال له: نحن نطير نحو قبة السماء ونتجول بين النجوم فنسمع الأوامر التي يصدرها الله إلى الملائكة بخصوص حيوات البشر؛ ولكن بما أننا لا نملك قدرة الملائكة على الطيران الطويل فإننا نتعب لعدم وجود شي نستند إليه أو نستريح عنده فيقع بعضنا من الأعالي ويهوي مثل وميض البرق فيظن الناظر إلينا أننا نجوم تتساقط من الأعالي [300])

(والتلمود يعلم أن الأرواح الشريرة والشياطين (العفاريت) والجنيات من ذرية آدم وهؤلاء يطيرون في كل اتجاه وهم يعرفون أحوال المستقبل باستراق السمع في السماء وهم يأكلون ويشربون مثل الإنسان ويكثرون من جنسهم[301].)

واستمر هذا الاعتقاد في الإسلام - أيضاً - ومن بين الآثار الصحيحة في ذلك هذا الأثر: (عن ابن عمر قال : طلق غيلان بن سلمة الثقفي نساءه وقسم ماله بين بنيه، قال : في خلافة عمر، فبلغ ذلك عمر فقال: طلقت نساءك وقسمت مالك بين بنيك؟ قال: نعم، قال : والله! إني لأرى الشيطان فيما يسرق من السمع سمع بموتك، فألقاه في نفسك،

---

(300) أساطير الأولين القصص القرآني ومتوازياته التوراتية - فراس السواح دار التكوين دمشق - الطبعة الثانية - 20016م - ص 119-120

(301) التلمود تاريخه وتعاليمه - ظفر الدين خان - در النفائس - بيروت - الطبعة الثانية - 1972م - ص 76

فلعلك أن لا تمكث إلا قليلا، وأيم الله لئن لم تراجع نساءك، وترجع في مالك، لأورثهن منك إذا مت، ثم لآمرن بقبرك فليرجمن، كما رجم قبر أبي رغال قال: فراجع نساءه وراجع ماله [302]).

أحدث هذا الإعلان القرآني بتلك الصياغة ارتباكاً شديداً بين المفسرين ؛ حيث حاروا بين الاسترسال مع ظاهر الآية الذي يوحي بأن الرمي بالشهب لم يكن معروفاً في الجاهلية، وهو أمر مخالف للعقل - فالشهب لا تنقطع - كل ساعة من الليل أو النهار - وخاصةً مع وجود أحاديث صح سندها عند المحدثين تثبت ذلك، ومع وجود أشعار كثيرة للعرب تتحدث عن الشهب والنجوم حتى افترض أصحاب هذا الرأي - كما يقول الرازي مثلا عن بعضهم - أن تكون قد حدثت عملية تزوير شاملة لإخفاء تلك المعجزة أي ظهور تلك العلامة الكونية منذ البعثة النبوية فقط حتى لو أطاح أصحاب هذا الرأي بتراث العرب كله: (وَهؤُلَاءِ زَعَمُوا أَنَّ كُتُبَ الْأَوَائِلِ قَدْ تَوَالَتْ عَلَيْهَا التَّحْرِيفَاتُ فَلَعَلَّ الْمُتَأَخِّرِينَ أَلْحَقُوا هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ بِهَا طَعْنًا مِنْهُمْ فِي هَذِهِ الْمُعْجِزَةِ، وَكَذَا الْأَشْعَارُ الْمَنْسُوبَةُ إِلَى أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ لَعَلَّهَا مختلفة عَلَيْهِمْ وَمَنْحُولَةٌ.) (الْمَقَامُ الثَّانِي: وَهُوَ الْأَقْرَبُ إِلَى الصَّوَابِ أَنَّ هَذِهِ الشُّهُبَ كَانَتْ مَوْجُودَةً قَبْلَ الْمَبْعَثِ إِلَّا أَنَّهَا زِيدَتْ بَعْدَ الْمَبْعَثِ وَجُعِلَتْ أَكْمَلَ وَأَقْوَى، وَهَذَا هُوَ الَّذِي يَدُلُّ عَلَيْهِ لفظ القرآن لأنه قال: ﴿ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ ﴿٨﴾ ﴾ [الجِن : 8]ﮊ وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْحَادِثَ هُوَ الْمَلْءُ وَالْكَثْرَةُ وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: نَقْعُدُ مِنْها مَقاعِدَ أَيْ كُنَّا نَجِدُ فِيهَا بَعْضَ الْمَقَاعِدِ خَالِيَةً مِنَ الْحَرَسِ وَالشُّهُبِ وَالْآنَ مُلِئَتِ الْمَقَاعِدُ كُلُّهَا، فَعَلَى هَذَا الَّذِي حَمَلَ الْجِنَّ عَلَى الضَّرْبِ فِي الْبِلَادِ وَطَلَبِ السَّبَبِ، إِنَّمَا هُوَ كَثْرَةُ الرَّجْمِ ومنع الاستراق بالكلية.[303])

ومن الطريف أن تلك القضية قد شغلت أديباً كبيراً مثل المعري، حيث نجده في رسالة الغفران يلقى جنياً مسلماً يسميه بأبي هدرش، ويجعله من هؤلاء النفر من الجن الذين سمعوا النبي ورجعوا لينذروا قومهم ثم يسأله بطل الرسالة فيقول: (يا أبا هدرش أخبرني وأنت الخبير هل كان رجم النجوم في الجاهلية فإن بعض الناس يقول إنه حدث في الإسلام ؟ فيقول : هيهات! أما سمعت قول الأودي :

---

[302] (أخرجه عبد الرزاق برقم (12216) وسنده صحيح انظر الإيضاح والتبيين ص 168

[303] (انظر مفاتيح الغيب ج30 ص670- الناشر - دار إحياء التراث العربي - بيروت-

كشـــهاب القذف يرميكم به *** فارس في كفه للحرب نار

وقول حجر :

فانصـــاع كالدري يتبعه *** نقع يثور تخاله طُنبا

ولكن الرجم زاد في أوان المبعث وأن التخرص لكثير في الإنس والجن وأن الصدق لمعوز قليل، وهنيئاً في العاقبة للصادقين[304]).

لا يعنينا من كل هذا سوى أن أديباً حجة في العربية وأشعارها كأبي العلاء كان يجزم - فيما يبدو - بصحة نسبة تلك الأشعار إلى الجاهليين، وعلى المقابل فقد حاول الجاحظ أن يرد جميع الأشعار الذي جاءتنا عن شعراء الجاهلية، وذكرت فيها الشهب لاعتقاده في أن الشهب لم تكن قبل الإسلام، وطعن في البيت البيتين السابقين، بل ولقد زعم الجاحظ أن ما جاء في كتب الفلاسفة اليونانيين القدماء من ذكر للشهب بأنه من افتراءات التراجمة، وجهلهم باللغة التي ينقلون عنها أو إليها [305].

هل عرف الجاهليون هذا التفسير القرآني لوظيفة الشهب ؟

وحراس أبواب السماء دونه *** قيام لديه بالمقاليد رصد

بفصوص ياقوت وكظ بعرشه *** هول ونار دونه تتوقد

فعلا طوالات القوائم فاستوى *** فوق الخلود ومن أراد مخلد

وترى شياطينا تروغ مضاعة *** ورواغها شتى إذا ما تطرد

تلقى عليها في السماء مذلة *** وكواكب ترمى بها فتعرد

ينتابه المتنصفون بسحرة *** في ألف ألف من ملائك تحشد

رسل يجوبون السماء بأمره *** لا ينظرون ثواء من يتقصد [306]

---

[304] انظر رسالة الغفران -ص297-298 - تحقيق د عائشة عبد الرحمن = دار المعارف - الطبعة التاسعة وانظر المختار من رسالة الغفران - إيجاز وشرح كامل كيلاني - مهرجان القراءة للجميع - القاهرة - 2000م ص 116 و117)

[305] (انظر الحيوان للجاحظ ص 278 ج السادس الكتاب الأول الطبعة الثانية - البابي الحلبي -تحقيق وشرح عبد السلام هارون -

[306] انظر : شرح ديوان أمية بن أبي الصلت ص29 - قدم له وعلق حواشيه سيف الدين الكاتب - أحمد عصام الكاتب - منشورات دار الحياة - بيروت لبنان

خلال تلك الأبيات السابقة - والتي ينسبها الرواة إلى أمية بن أبي الصلت - فقد غابت تماماً عن كتب التاريخ العربي القديم أي محاولة لتفسير تلك الظاهرة الفلكية التي لا تغيب عن السماء في ليل أو نهار، وأما تلك الأبيات فهي تتطابق مع ما جاء به القرآن الكريم من تفسير للرمي بالشهب، ولو كان شعر أمية صحيح النسبة إليه ولم يشكك الدارسون القدماء، والمحدثون في صحة نسبته إلى ذلك الرجل العجيب الذي قالوا عنه: أنه لبس المسوح وقرأ الكتب المقدسة وحفلت أشعاره بذكر الآخرة لما كان بوسع الدارسين سوى أن يجعلوه مشاركاً للنبي في هذا الاعتقاد العجيب، ولكن شعر أمية - وخاصة الديني منه - كان مثاراً للجدل منذ قديم الزمان ؛ لذا فقد أوردنا تلك الأبيات من باب: ومن يدري فلعلها صحيحة ؟، خاصةً بعدما قال بعض الدارسين المتعمقين في شعره بعدم استبعادهم لصحة نسبها إلى أمية: (وعندي أن لغة هذه الأبيات ومعانيها لا يمكن أن تصدر إلا عن شاعر مثل أُمية عرف بثقافته الدينية الواسعة بالقياس إلى ما نجده في أشعار العرب الجاهليين ثم هي بعيدة عن محاكاة القرآن. وهذا يجعلنا أكثر اطمئناناً لهذا الشعر الذي يتحدث فيه أمية عن الملائكة والسماء والمظاهر الكونية الأخرى [307]) .

ولعل أوفق ما يمكن أن يخرج به قارئ ديوان أمية هو ما قاله كاتب مادة: (أمية بن أبي الصلت) في دائرة المعارف الإسلامية حيث قال : (أما القول بأن محمد قد اقتبس شيئاً من قصائد أمية فهو زعم بعيد الاحتمال لسبب بسيط ؛ هو أن أمية كان على معرفة أوسع بالأساطير التي نحن بصددها كما كانت أساطيره تختلف في تفصيلاتها عما ورد في القرآن، وفي هذا حجة - أيضاً - على أن أُمية لم يقتبس شيئاً من القرآن الكريم، وإن كان هذا غير مستحيل من الوجهة التاريخية فقد ورد في إحدى الروايات (الأغاني ج17 ص 187 س10) أن أمية (كان أول من قرأ كتاب الله) ويمكن أن نعلل مشابهة قصائد أمية لما جاء في القرآن بحقيقة لا تحتمل شكاً: هي أنه في أيام البعثة المحمدية وقبلها بقليل من الزمان انتشرت نزعات فكرية شبيهة بآراء الحنيفية، واستهوت الكثيرين من

[307] (انظر : أمية بن أبي الصلت حياته وشعره - دراسة وتحقيق د بهجة عبد الغفور الحديثي الثقافي - هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث المجمع الثقافي - الطبعة الأولى 2009م - ص 101-102، وقد اختلف الباحثون في عقيدة أمية، فمنهم من جعله من الحنفاء ومنهم من جعله نصرانيا ومنهم من قطع بيهوديته أو جعله يعتقد اعتقاد اليهود مثل جورجي زيدان : (وذلك للأوصاف التي جاءت في شعره وأكثرها برأيه يطابق التوراة والزبور وبعضها منقول عنها حرفا) انظر السابق ص 62

أهل الحضر وخصوصاً في مكة والطائف، وكانت تغذيها وتنشطها تفاسير اليهود للتوراة وأساطير المسيحيين، مما كان معروفاً ومتداولاً في تلك البقاع وجنوبي الجزيرة في جهات متفرقة منعزلة. ويعلل لنا هذا ما يعرض من اختلاف بين ما جاء في القرآن وما ورد في أشعار أمية. وأُمية وغيرهما من رجال الدين- كزيد بن عمرو وورقة ومسلمة - اقتبسوا جميعاً من مصادر واحدة، سواء أكانت مدونة كما يرى شولتس أم مروية كما ذهب إليه نولدكه، وقد أبان تور أندريا حديثاً، أنه ليس بين قصائد أمية الدينية ما هو صحيح النسب إليه، وأنه يجب أن يعتبر من انتحال مفسري القرآن الأولين، وهم القصاص السدي وابن عباس وغيرهما [308].)

إذاً فلو صحت نسبة تلك الأبيات السابقة لأمية، لكانت برهاناً كافياً على شيوع هذا الاعتقاد الأسطوري بين طلاب الحكمة الدينية من العرب، ولكننا لا ندري - يقيناً - انطلاقاً من نصوص القرآن وحدها - هل كان الاعتقاد في وظيفة الشهب حاضراً قبل الإسلام، وزاد مع مبعث النبي كما قال بذلك جل المفسرين؟!، أم أنه لم يكن موجوداً قط قبل البعثة، وقد أحدثه الله بمبعث نبيه الخاتم لكي يستقل نبيه بالمعرفة الإلهية، فلا ينازعه في ادعائها كاهن أو شاعر؟!، وسوف نتوقف عند ذلك لاحقاً، وإنما يعنينا هنا أن نشير إلى أن تلك العقيدة الخرافية كانت ذات فائدة عظمى للنبي حيث جمعت للنبي محمد غايتين لا أجل منهما:أما أولهما: فمساعدة النبي في تثبته الذاتي من صدق وحي الله إليه وثانيهما: هو إعلاء شأن النبوة وعظيم قدر صاحبها وتحقير الكهانة والكهان، ونفي أي صورة من صور المشاكلة بينها وبين النبوة وهو ما سنعود إليه لاحقاً لتحرير ما نعتقده عن الفارق الجوهري بين هاتين الوسيلتين للتعرف على عالم الغيوب!

ونعتقد أن عامة العرب لم تعرف شيئاً من هذا: أولاً، لأن تلك الخرافة تتأسس على اعتقادات خرافية أخرى - لابد منها - لكي يتصور وجودها، ولم يكن لها من وجود في عقيدة العربي الجاهلي، ومنها الاعتقاد في أن الله يسكن في السماء مع حاشيته، وأنه يصرف شؤون الكون عن طريق ملائكته الذين يسارعون في قضاء حوائجه وإنفاذ أوامره، وما إلى ذلك من مفاهيم كتابية ساذجة، صارت لاحقاً من بين مفاهيم الإسلام،

---

[308] انظر موجز دائرة المعارف الإسلامية ج4 الطبعة الأولى 1998م مركز الشارقة للأبداع الفكري ص 1203-1204 - أ جي بريل - إعداد وتحرير نخبة من العلماء بأشراف إبراهيم زكي خورشيد - أحمد الشنتناوي - د عبد الحميد يونس

وأيضاً؛ لأن هذا النفي الجازم قد قال به كثير من المفسرين وكتاب سيرة النبي. ومن ذلك مثلاً : سمعت الضحاك يقول في قوله: (قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ) هو قول الله (وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ) لم تُحرس السماء في الفترة بين عيسى ومحمد؛ فلما بعث الله محمدًا صلى الله عليه وسلم حرست السماء الدنيا، ورُميت الشياطين بالشهب، فقال إبليس: لقد حدث في الأرض حدث، فأمر الجنّ فتفرّقت في الأرض لتأتيه بخبر ما حدث[309].)

ولعل المرزوقي قد أصاب الحقيقة حيث أخطئها المفسرون، فقدم لنا تفسيراً لم نرَ أحداً من السابقين قال به، وهو: أن الشهب كانت تحدث قبل الإسلام، ولكنها لم تكن رجوماً للشياطين فجعل وظيفة الرجم للشياطين هي التي أُستحدثت ببعثة النبي، فقال : (وقد اعتقد قوم أن انقضاض الكواكب ظهر في الإسلام لأنها جعلت رجوماً للشياطين فيه، وقد جاء في الشعر القديم تشبيه المسرع من الخيل وغيرها بمنقض الكواكب، فالأقرب في هذا أنه كثر في الإسلام، ومن قبل كان يتفق نادراً، أو يكون جعلها رجوماً إسلامياً، وفيما تقدم من الزمان لم يكن لذلك من الشأن فإنه تعالى قال : ﴿ وَجَعَلْنَـٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَـٰطِينِ ۖ ۝٥﴾ [المُلْك : 5] وقوله تعالى لا يبدل ولا يدخل عليه التسمح، بل هو الوحي المحقق والخبر المصدق [310]) .

ولعل تفسير المرزوقي - السابق - يصلح مثالاً لما تثيره أمثال تلك التفسيرات الغيبية من متناقضات، وما تبعثه في العقول من الحيرة، فأما قوله الأول بأن الشهب كانت تقع في الجاهلية نادراً وكثرت في الإسلام - وهو ما قال به كثير من المفسرين - فهو تفسير غير سائغ ولا معقول ؛ وذلك لأن مقتضى العقل يستلزم أن تكثر الشهب في زمن الجاهلية حيث لم تكن هناك حراسة لأبواب السماء، ثم تقل الشهب أو تنقطع في الإسلام، بعدما جعل الله الملائكة تحرس السماء وتهلك من يريد أن يسمع أخبار أهلها، وأما قوله الثاني بحداثة وظيفة الشهب بعد البعثة - وإن كنا نظن أنه الأقرب لما قصد إليه القرآن - فهو رغم ذلك أعجب وأغرب ؛ لأنه لم يقدم تفسيراً لحدوثها في الجاهلية،

---

(309) أنظر تفسير الطبري - تحقيق شاكر - مؤسسة الرسالة الطبعة الأولى 2000م ج 23 ص 648) وانظر - أيضا - ما قرره ابن إسحق من (أن الجن لم تكن تحجب قبل البعثة) سيرة ابن هشام ج1 ص 217

(310) انظر : الأزمنة والأمكنة - أحمد بن محمد المرزوقي الأصفهاني -ة ضبط وتحقيق : خليل النصور - دار الكتب العلمية بيروت لبنان الطبعة الأولى 1996م - ص 65

وعلى هذا فلماذا كانت تقع تلك الظاهرة عبثاً إذاً؟!!، وسنعود إلى تلك النقطة لاحقاً عند الحديث عن الكهانة وشؤونها.

أما عامة المفسرين فقد حاولوا أن يوفقوا بين ظاهر الآية وبين ما علموه من قدم تلك الظاهرة فقالوا مثلما قال الرازي: (الْمَقَامُ الثَّانِي: وَهُوَ الْأَقْرَبُ إِلَى الصَّوَابِ أَنَّ هَذِهِ الشُّهُبَ كَانَتْ مَوْجُودَةً قَبْلَ الْمَبْعَثِ إِلَّا أَنَّهَا زِيدَتْ بَعْدَ الْمَبْعَثِ وَجُعِلَتْ أَكْمَلَ وَأَقْوَى، وَهَذَا هُوَ الَّذِي يَدُلُّ عَلَيْهِ لفظ القرآن لأنه قال: ﴿ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ ﴿٨﴾ ﴾ [الجن : 8] وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْحَادِثَ هُوَ الْمَلْءُ وَالْكَثْرَةُ وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿ نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ ﴿٩﴾ ﴾ [الجن : 9] أَيْ كُنَّا نَجِدُ فِيهَا بَعْضَ الْمَقَاعِدِ خَالِيَةً مِنَ الْحَرَسِ وَالشُّهُبِ وَالْآنَ مُلِئَتِ الْمَقَاعِدُ كُلُّهَا، فَعَلَى هَذَا الَّذِي حَمَلَ الْجِنَّ عَلَى الضَّرْبِ فِي الْبِلَادِ وَطَلَبِ السَّبَبِ، إِنَّمَا هُوَ كَثْرَةُ الرَّجْمِ ومنع الاستراق بالكلية.[311])

وكما ترى فهذا التفسير الذي تجده يملأ كتب المفسرين قديماً وحديثاً هو تفسير غير مقنع؛ لأننا نعتقد أنه لو كان الأمر كذلك لما سيق الخبر في القرآن الكريم على هذا النحو الذي يوحي بالمفاجئة، وتقرير دهشة الجن من هذا التغير الذي حل بالعلاقة بين الأرض والسماء، ولو صح هذا التفسير لما كانت هناك أي فائدة لكلمة (الآن) التي تعني بأن الاستماع لخبر السماء كان مبذولاً ومباحاً لمن شاء من الجن زمن الجاهلية، حتى بعث الله النبي برسالته فطويت تلك الصفحة، وأوصد باب الغيوب إلى الأبد، فقد حل زمن النبوة أخيراً وانقضى إلى غير رجعة زمن الكهانة والكهان .

﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ ﴾ [الشُّعَرَاء : 210 - 212] .

---

(311) (انظر مفاتيح الغيب ج30 ص670- ولا ندري كيف فات الإمام الرازي أن ذلك - حتى على افتراض حدوثه - لن يكون كافيا ابدأ وذاك لأن الشهب لم تكن تنقض في بلاد العرب وحدها !

﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝٦ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ۝٧ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝٨ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝٩ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ۝١٠ ﴾ [الصَّافَّات : 6 - 10] .

أما عن تقديرنا لاعتقاد النبي شخصياً في ذلك، فنحن نرجح أن النبي كان يعتقد بأن السماء كانت تحرس من الشياطين خلال المدة القصيرة التي يرسل الله فيها إلى الأرض أحد أنبيائه بكلامه وبرسالاته، لكي لا يلتبس على البشر ما يأتيهم به الأنبياء نقياً صافياً، وبين ما تأتيهم به الكهان مشوباً كدراً، أما عدا تلك الحالة وفي زمن الفترة بين الرسل فقد كان الله يأذن للبشر أن يستعينوا بالجن في اختلاس الغيوب فتنة واختباراً لهم (يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ كِتَابِهِ الْعَزِيزِ، الَّذِي لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ، تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ: أَنَّهُ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ الْمُؤَيَّدُ مِنَ اللَّهِ، ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ۝٢١٠ ﴾ [الشُّعَرَاء : 210]. ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّهُ يَمْتَنِعُ عَلَيْهِمْ مِنْ ثَلَاثَةِ أَوْجُهٍ، أَحَدُهَا: أَنَّهُ مَا يَنْبَغِي لَهُمْ، أَيْ: لَيْسَ هُوَ مِنْ بُغْيَتِهم وَلَا مِنْ طِلْبَتِهِمْ؛ لِأَنَّ مِنْ سَجَايَاهُمُ الْفَسَادَ وَإِضْلَالَ الْعِبَادِ، وَهَذَا فِيهِ الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَنُورٌ وَهُدًى وَبُرْهَانٌ عَظِيمٌ، فَبَيْنَهُ وَبَيْنَ الشَّيَاطِينِ مُنَافَاةٌ عَظِيمَةٌ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمْ ۝٢١١ ﴾ .

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ۝٢١١ ﴾ أَيْ: وَلَوِ انْبَغَى لَهُمْ لَمَا اسْتَطَاعُوا ذَلِكَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۝٢١ ﴾ [الحَشْر : 21] ثُمَّ بَيَّنَ أَنَّهُ لَوِ انْبَغَى لَهُمْ وَاسْتَطَاعُوا حَمْلَهُ وَتَأْدِيَتَهُ، لَمَا وَصَلُوا إِلَى ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُمْ بِمَعْزِلٍ عَنِ اسْتِمَاعِ الْقُرْآنِ حَالَ نُزُولِهِ؛ لِأَنَّ السَّمَاءَ مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا فِي مُدَّةِ إِنْزَالِ الْقُرْآنِ عَلَى رَسُولِهِ، فَلَمْ يَخْلُصْ أَحَدٌ مِنَ الشَّيَاطِينِ إِلَى اسْتِمَاعِ حَرْفٍ وَاحِدٍ

مِنْهُ، لِئَلَّا يَشْتَبِهُ الْأَمْرُ. وَهَذَا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ بِعِبَادِهِ، وَحِفْظِهِ لِشَرْعِهِ، وَتَأْيِيدِهِ لِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾﴾(312))

وأما أعجب ما قرأناه فهو تفسير ابن تيمية لهاتين الآيتين : ﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾﴾ [الجن : 8 - 9]: (وكانت الشياطين ترمى بالشهب قبل أن ينزل القرآن، لكن كانوا أحياناً يسترقون السمع قبل أن يصل الشهاب إلى أحدهم، فلما بعث محمد صلى الله عليه وسلم ملئت السماء حرساً شديداً وشهباً، وصارت الشهب مرصدة لهم قبل أن يسمعوا كما قالوا : ﴿ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾﴾ [الجن : 8 - 9] وقال تعالى في الآية الأخرى ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾﴾ [الشُّعَرَاء : 210 - 212].

وأما موضع الإشكال في تلك الآية ؛ فهو أن النبي لم ينتبه لضرورة تقديم تفسير لوقوع تلك الظاهرة الكونية قبل زمن الأنبياء، وهو الأمر الذي أربك المفسرين حتى يومنا هذا، كما في هذا المثال : (وقال بعضهم أن الرمي لم يكن أولاً ثم حدث للمنع عن بعض السموات، ثم كثر ومنع الشياطين عن جميعها يوم تنبأ النبي عليه الصلاة والسلام، وجوز أن تكون الشهب من قبل لحوادث كونية لا لمنع الشياطين أصلا والحادث بعد البعثة رمي الشياطين بها على معنى أنهم إذا عرجوا للاستماع رموا بها فلا يلزم - أيضا - أن يكون كل ما يحدث من الشهب اليوم للرمي بل يجوز أن يكون لأمور أخر بأسباب يعلمها الله تعالى... (313)).

(312) تفسير القرآن العظيم - ابن كثير الدمشقي - تحقيق سامي محمد سلامة - دار طيبة للنشر والتوزيع - الطبعة الثانية 1999م ج6 ص 165

(313) انظر : روح المعاني - الألوسي ص 87 : و جاء في قصة سطيح أنه كان له رئي من الجن يأتيه بأخبار السماء وما يحدث في الأرض - انظر الأزمنة والأمكنة ص404، ولكن من يقرأ نبوءات شق وسطيح وأخبارهما لا يشك في أنها قصص مختلقة كاذبة انظر سيرة بن هشام ج 1 ص 30 دار الحديث القاهرة الطبعة الثانية 1998م

﴿ وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾ [الجن : 10] .

ربما كانت هذه الآية السابقة هي الآية الوحيدة التي يحتمل ظاهرها مضموناً مخيالياً وقصصياً خالصاً، فهي تترجم لنا عن حيرة أولئك النفر من الجن أمام دلالة ذلك التغير الكوني، فنراهم يتساءلون عن دلالة وقوعه وأثره الغامض على أهل الأرض جميعا، وأنهم لا يعرفون - هل هو نذير شر مقبل أم فاتحة خير لا يعلمون عنه شيئا!، والحقيقة الواضحة أن موضع تلك الآية قد جاء متأخراً كثيراً عن موضعها المناسب؛ لأننا صرنا نتوقع بعد كل الذي قالته الجن عن إيمانهم بالقرآن وتوحيدهم لله وتنزيههم الرب عن لوثة الشرك إلى غير ذلك مما قالوه إن يكونوا قد علموا- يقيناً - بأن تلك الحادثة قد وقعت لخير أهل الأرض جميعاً، وهذا يدلنا على طريقة تدفق الدلالات القرآنية في العقل النبوي، وأنها لم تكن نتاج تأمل منطقي كامل ، بل كانت تلك الإلهامات تنسكب في الروح النبوي من خلال استثارة نفسية عميقة. ومن ناحية أخرى فمن يتأمل السياق وما يستلزمه استقراء طريقة التفكير النبوية يجعلنا لا نصدق أنه مخيال قصصي خالص، وأن تلك الحيرة الظاهرية التي جاءت على ألسنة الجن ليست سوى أصداء بعيدة لحيرة أخرى، وقعت قديماً أثناء حدث واقعي هذه المرة وتمت استعادتها في الذات المحمدية، وطفرت به ألسنة الجن في هذا المقام الجديد.

على هذا فلا يبعد - في اعتقادنا - أن تلك الآية وما اشتملت عليه من حيرة كانت تعتمد - ولو من بعيد - على حدث طبيعي وقع قبيل البعثة المحمدية، وأقرب شيء لذلك - فيما قرأناه - هو ما جاء في كتب السيرة من حدوث زخات مفزعة من الشهب حتى ارتاعت منها العرب وتوجسوا من حدوث أمر عجيب سيقع بهم - ولكنه كان حتماً من جنس ما كانوا يتوقعونه عند حدوث ظاهرة كونية مخيفة، كالكسوف والخسوف وما شابه ذلك ؛ أي ما كانوا يتوقعونه من موت عظيم من عظمائهم أو مولد سيد من سادات العرب، وما إلى ذلك من تفسيرات خرافية - ومن المعلوم - أيضاً - أن تدفق الشهب كل عدة سنين إنما هي ظاهرة طبيعية صار علماء الفلك الآن يعرفون أسبابها ويحددون بدقة مواقيتها(314) - ولكن النبي فسره لاحقاً على لسان الجن -على أنه إرهاص ببعثته ثم

(314) من المعلوم أن المذنبات هي المسبب الأكبر لحدوث رخات الشهب : (يعتبر المذنب تانبل - تاتل هو المسئول عن هذا السيل ويدور حول الشمس مرة كل 33ونصف سنة في مدار إهليلجي فيخترق مدار الأرض ثم يبتعد خلف كوكب

توسع المفسرون وكتاب سيرة النبي بعد ذلك - في منحه التفاصيل الزاهية، مثلما يدل عليه هذا النقل وما يليه : (ولما رأت قريش الشهب في السماء توقعوا أمراً جللاً حتى تصوروه الفناء، يقول أبي بن كعب: رأت قريش أمراً لم تكن تراه فجعلوا يسيبون أنعامهم، ويعتقون أرقاءهم، يظنون أنه الفناء، وفعلت ثقيف مثل ذلك فبلغ عبد ياليل فقال: لا تعجلوا، وانظروا، فإن تكن نجوماً تعرف فهو عند فناء الناس، وإن كانت نجوماً لا تعرف، فهو عند أمر قد حدث. فنظروا فإذا هي لا تعرف فأخبروه فقال: هذا عند ظهور نبي. فما مكثوا إلا يسيراً حتى قدم الطائف أبو سفيان بن حرب فقال: ظهر محمد بن عبد الله يدعي أنه نبي مرسل فقال عبد ياليل: فعند ذلك رمي بها[315]..)، ولو صح هذا التفسير فلماذا لم يؤمن أبو سفيان أو ابن عبد ياليل ؟!

(عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود أنه حدثه: أن رجلا من ثقيف يقال له عمرو بن أمية، وكان من أدهى العرب، وكان يضن برأيه على الناس؛ قال يعقوب: فلما رمي بالنجوم، كان أول حي فزع لها من الناس ثقيف، فجاءوا إلى عمرو بن أمية فقالوا له: هل علمت بهذا الحدث الذي كان؟ فقال: وما هو؟ فقالوا: نجوم السماء يرمى بها، قال: ويحكم انظروا فإن كانت هي المعالم التي يهتدي بها في البر والبحر، وتعرف بها الأنواء من الشتاء والصيف لصلاح معايش الناس، فهو والله فناء الدنيا، وفناء هذا الخلق، وإن كان غيرها، فهو لأمر حدث أراد الله عز وجل به هذا الخلق، فانظروا ما

أورانوس . وفي كل مرة يدخل فيها المذنب إلى أعماق النظام الشمسي ويقترب من الشمس، يتعرض لأشعة وريح الشمس مما يؤدي إلى الغليان وتتمدد طبقاته الخارجية حين ذاك ينتفخ المذنب ويمتد خلفه من الجهة الأخرى لمقابلة للشمس ذيل طويل من الغبار المتأين والغازات والأبخرة وعندما يبتعد مذنب (تامبل - تاتل)عن الأرض ليمر في مكان بعيد ما عبر مدارها يترك خلفه في كل مرة كمية من المخلفات في موقع مختلف قليلا عن الدورة السابقة . هذه الذيول المتروكة تنتشر شيئا فشيئا مع الزمن أثناء دورانها حول الشمس ليصل الكثير منها إلى جو الأرض . تم رصد سيل (رخة) الأسديات يوم 14نوفمبر سنة 2003م في سماء الشرق الأوسط واستمرت حتى 19 نوفمبر . إن رخة شهب الأسديات يمكن أن تتطور لتصبح عاصفة من الشهب تكون في أوج نشاطها مرة كل 33 ونصف سنة . وأن أول تسجيل لهذه العاصفة كان عام 1833م حيث ظهرت على شكل كتل الثلج وأحدثت هذه العاصفة ضجة كبيرة وخوفا وهلعا كبيرين في أمريكا الجنوبية ... وتسبب سقوط عاصفة الشهب التي أضاءت سماء ولاية أوريسا الساحلية الهندية، محدثة صوتا قويا في إشاعة الر عب بين السكان المحليين)(انظر ص 34 كتاب النيازك والحياة على كوكبنا - د أحمد عبد الهادي - الهيئة المصرية العامة للكتاب 2007 م

[315](انظر - سبل الهدى ج2 ص267.نقلا عن كتاب السيرة النبوية والدعوة في العهد المكي أحمد أحمد غلوش - مؤسسة الرسالة الطبعة: الأولى -2003م ج1 ص279

هو؟[316])، ولعل تلك الرواية هي الأقرب للمعقول فهي تطلعنا عن جهل العرب من حكمة هذا الحدث وغابت عنها تلك التفسيرات الأسطورية عن النبي القادم.

وسواء أصح هذا الذي قلناه، أم جانبه الصواب، ففي تلك الآية تعترف الجن من خلالها بقصور علمها عن معرفة مراد الله في خلقه، فلم يكونوا قبل هذا اللقاء الحاسم بالنبي يعلمون دلالة هذا الانقلاب الكبير في علاقة الأرض بالسماء، لكنهم استيقنوا حينها - بحدس مضيئ صائب - أنهم ما منعوا السماء وأخبارها إلا لأمر جلل يراد بالبشر، وهاهم الآن يعرفون كل شيء عنه!، فقد عرفوا أولاً سبب منعهم من السماء وذودهم عنها ؛ وذلك لأن الله وقد شاءت إرادته - أخيراً- أن يصل أهل الأرض بأهل السماء عن طريق نبي يرسله إلى البشر، فكيف يدع الله - بعد ذلك - كاهناً يزاحم نبيه بطريقته الخبيثة المدعاة وبمعرفته الشائهة الناقصة؟، وعلمت الجن - أيضا - أن الله لم يحفظ السماء عن انتهاب معارفها وأخبارها إلا لخير البشر، وهل هناك خير أعظم من أن يرسل الله نبيا إلى أهل الأرض بعد هذا الانقطاع الطويل الذي استمر ستة قرون كاملة؟.!

ولا ينبغي أن يفوتنا هنا ما تفوح به تعبيرات الجن حديثي الإسلام بجميل الأدب مع الله، فنجدهم يتأدبون مع الله فمرة بتعظيم اسمه بقولهم (جد ربنا)، وأخرى بتنزيه الله من أن ينسب إليه الشر.

كما لو كانت الجن تستبطن ما سوف يقرره علماء الكلام لاحقاً من التفرقة بين الإرادة الكونية والإرادة الشرعية ؛ فالإرادة الكونية تتعلق بكل ما يقع في الكون حيث لا يقع شيء إلا بإرادة الله وتقديره، وعلى هذا فالشر كما الخير من خلق الله وتقديره، وأما الإرادة الشرعية فهي لا تتعلق إلا بالخير فقط فاذا كان الله يريد الخير والشر لكنه لا يرضى بالشر، كما جاء في القرآن ﴿ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ ⁽٧⁾ ﴾ [الزُّمَر : ٧].

ولا يعنينا هنا سوى الإشارة إلى أن روح التأدب اللطيفة تلك، وكانت تظلل خطابات الأنبياء في القرآن حيث ينسبون الخير إلى الله فقط كما جاء على لسان النبي

[316] (انظر سيرة ابن إسحاق (كتاب السير والمغازي) - محمد بن إسحاق بن يسار المطلبي تحقيق: سهيل زكار - دار الفكر - بيروت - الطبعة: الأولى 1978م- ج1 113، ولعل حضور أهل الطائف - في الروايتين - يرجع إلى أنهم يعيشون على رأس جبل عال فلعلهم كانوا يرون الشهب وغيرها من ظواهر السماء أوضح من غيرهم !

محمد في دعاء الاستفتاح الجميل (لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ كُلُّهُ فِي يَدَيْكَ وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ)(317).

ولا ينبغي أن تفوتنا- أيضا - دلالة تعبير كلمة (لمسنا)، وما توحي به (مقاعد السمع) من أننا أمام تصور فلكي عن السماء لا علاقة له بالتصور الحديث عن الفضاء المحيط الذي تسبح فيه هذه الكرة التي يعيش عليها البشر - بل نقولها بصراحة تامة: أننا هنا أمام تصور بدائي ساذج عن السموات السبع التي تتراكب بعضهن فوق بعض، وأن السماء الدنيا - وهي التي نرى نجومها ونعيش تحت سقفها المحفوظ - لم يكن يحجزها ويفصلها عما يعلوها سوى حاجز مادي لا نعلم كيف كانت صورته في اعتقاد النبي، ولكننا لا نشك في أن ذلك الحاجز - وإن كان عالياً شاهقاً - إلا أن الشياطين كانت تستطيع بلوغه والاقتراب منه، بل وأن تضع آذانها لتصغي إلى أهل السماء وأخبارهم كما يضع أي بصاص أذنه ليتسمع إلى ما يدور خلف جدار رقيق في عالم البشر، ولا يجهل القارئ الكريم أن تصور السموات السبع هذا قد علمه النبي من المرويات التلمودية وهو تصور قديم يرجع إلى البابليين، ونقله عنهم اليهود وأشاعوه من بين ما أشاعوه في جزيرة العرب قبل الإسلام (أنكم تعلمون أن قدماء أهل بابل قد تصوروا السماء كأنها سبع طبقات منضدة وجعلوا في كل طبقة أحد النيرين والكواكب الخمسة المتحيرة حسب قدر أبعادها عن الأرض وهو في طبقته كأنه ساكنها وربها. فانتشر هذا الرأي عند أمم أخرى مثل اليونان والسريان وراج عند عوامهم - أيضاً - حتى أخذته أهل الحضر من عرب الجاهلية كما يظهر من ورود ذكره في جملة من النصوص القرآنية (تسبح له السموات السبع والأرض ... (318)) .

﴿ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدٗا ﴾ [الجن : 11] .

ثم تأتي تلك الخطبة البليغة على ذكر خبر لن نفجأ بحضوره في عالم الجن، وهو أنهم كانوا مثل البشر تماما فهم يتوزعون مثلهم بين الصلاح وبين الطلاح، وأنهم كانوا فرقا ومذاهب شتى!،

(317) الحديث رواه مسلم (771)، والنسائي (897) عن علي بن أبي طالب

(318) انظر -علم الفلك - تاريخه عند العرب في القرون الوسطى - كارلو نلينو - أوراق شرقية - بيروت- الطبعة الثانية 1993م- ص 105 وقد جاء أن عدد السموات سبعا في شعر أمية بن أبي الصلت - إن صح نسب هذا البيت له
وأتم ستا فاستوت أطباقها وأتى بسابعة فأنّى تورد
انظر كتاب بهجة الحديثي السابق ص 184

(يقول تعالى ذكره مخبرا عن قيلهم : (﴿ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ وهم المسلمون العاملون بطاعة الله ﴿ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَۖ ﴾ يقول: ومنا دون الصالحين ﴿ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴾ يقول: وأنا كنا أهواء مختلفة، وفِرَقا شتى، منا المؤمن والكافر[319].)

ونرجح - من جانبنا - أن يكون تعبير ﴿ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَۖ ﴾، وتقويه كلمتي ﴿طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴾ في صيغة الجمع بأنه لا يعني الطالحون فقط، بل لعله يشير كذلك إلى طبقة وسطى تقع في منزلة بين المنزلتين تماماً مثلما جاء في سورة فاطرعن حال البشر الذين يتوزعون بين أتقياء صالحين، وبين معتدلين مقتصدين، وبين فسقة فاسدين على مثال ما أورده القرآن الكريم من توزع البشر إلى تلك الطوائف الثلاث التي تدل عليها هذه الآية: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَاۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾﴾ [فَاطِر : 32].

ولا يخفى على القارئ الكريم أن فقهاء المسلمين سوف يستكملون - بهمة ونشاط بالغين - ما بدأه القرآن الكريم وسيخبروننا - ودون أن يطرف لهم جفن- بأن الجن المسلمين أنفسهم سوف يفترقون إلى ذات المذاهب أو الفرق الدينية التي افترق إليها المسلمون من الأنس حيث سنجد في مسلمة الجن من ينتمي إلى مذهب أهل السنة، وسنجد هناك من يتشيع ويغلو في حب علي بن أبي طالب، وسندنا في إثبات شيعة الجن هو أن أحد الصالحين قد استخبر من جني مسلم عن رأي عموم الجن في روافضهم فأخبره الجني الصالح بأنهم يعتبرونهم أشرار الجن!

(سمعتُ الْأَعْمَشَ يَقُولُ: تَرَوَّحَ إِلَيْنَا جِنِّيٌّ، فَقُلْتُ لَهُ: مَا أَحَبُّ الطَّعَامِ إِلَيْكُمْ؟ فَقَالَ الْأُرْزَ. قَالَ: فَأَتَيْنَاهُمْ بِهِ، فَجَعَلْتُ أَرَى اللُّقَمَ تُرْفَعُ وَلَا أَرَى أَحَدًا. فَقُلْتُ: فِيكُمْ مِنْ هَذِهِ الْأَهْوَاءِ الَّتِي فِينَا؟ قَالَ: نَعَمْ. قُلْتُ: فَمَا الرَّافِضَةُ فِيكُمْ ؟ قَالَ شَرُّنَا. عَرَضْتُ هَذَا الْإِسْنَادَ عَلَى شَيْخِنَا الْحَافِظِ أَبِي الْحَجَّاجِ الْمِزِّي فَقَالَ: هَذَا إِسْنَادٌ صَحِيحٌ إِلَى الْأَعْمَشِ.[320])

---

[319] (الطبري - ج23ص 659- طبعة الرسالة - تحقيق شاكر

[320] تفسير ابن كثير - تحقيق سلامة - ج8ص 242

ووجدنا - أيضا - من بين الجن من يفضل طريق التصوف، ويبرحه شوق أهل الطريق إلى الله!، (وَذَكَرَ الْحَافِظُ ابْنُ عَسَاكِرَ فِي تَرْجَمَةِ الْعَبَّاسِ بْنِ أَحْمَدَ الدِّمَشْقِيِّ قَالَ سمعتُ بَعْضَ الجِنّ وَأَنَا فِي مَنْزَلٍ لِي بِاللَّيْلِ يُنْشِدُ :

قُلوبٌ بَرَاهـا الْحُـبُّ حَتى تعلّقـت *** مَذَاهبُها فِي كُلّ غَرب وشَـارقِ

تَـهـيـم بِـحُـبِّ اللَّهِ، واللهُ رَبُّـهـا *** مُعَلّقـةٌ بِـاللَّهِ دُونَ الخَلائقِ[321]

ومن أطرف ما طالعناه هذه القصة: (وَسمعت من الشَّيْخ أَنه خرج إِلَى سفر وَوصل إِلَى بَلْدَة وَكَانَ جَالِسا فِيهَا مَعَ أَصْحَابه بالمراقبة فَحَضَرَ فِي حلقته رجل لَا يعرفهُ فَقرب الرجل وَقبل يَده وَرجله وَقَالَ أَنِّي من الْجِنّ وَهَذَا مَكَان سكنانا وَأَنا بَعْدَمَا رَأينَا طريقتكم أحببناكم فَأُرِيد أَن آخذ مِنْكُم الطَّرِيق فلقنه الطَّرِيقَة النقشبندية وَكَانَ يحضر عِنْده فِي الْحلقَة وَكَانَ يرَاهُ وَلَا يرَاهُ أحد غَيره وَقَالَ للشَّيْخ كل وَقت أردتم أَن أحضر عنْدكُمْ فَاكْتُبُوا اسْمِي على ورقة وضعوها تَحت أَرْجُلكُم أحضر عنْدكُمْ تِلْكَ السَّاعَة وَسمعت - أيضاً - مِنْهُ أَنه حِين سَافر إِلَى كشمير حضر عِنْده وَاحِد من الْجِنّ وَأخذ عَنهُ الطَّرِيقَة وَأَرَادَ أَن يعرض على الشَّيْخ كثيرا من خَواص النباتات فَلم يقبل الشَّيْخ مِنْهُ ذَلِك [322]).

ووجدنا كذلك من الجن من يقول بالاعتزال، بل لقد شاركت الجن - أيضاً - في قمع بدعة القول بخلق القرآن فهذا جني مسلم - لا نشك في انتماءه إلى الحنابلة - يعمد إلى خنق معتزلي يقول بخلق القرآن مستحلاً قتله!، (وذكر شيخ الإسلام ابن تيمية في الاستقامة عن إبراهيم الخواص قال: (انتهيت إلى رجل وقد صرعه الشيطان فجعلت أؤذن في أذنه فناداني الشيطان من جوفه : دعني أقتله فإنه يقول القرآن مخلوق [323]).

وأما عن سندهم في إيراد تلك التفاصيل الدقيقة فقد اعتمدوا على الأثر العجيب (عن السدي رحمه الله تعالى قال (الجن أهواء مثلكم شيعة ورافضة ومرجئة وقدرية [324]).

وأما المصنفون المحدثون فقد أبعد أحدهم النجعة حيث قال: (لا بد أن نعلم أن الجن كالإنس تماماً في اختلاف عقائدهم وديانتهم فمنهم المسلم والنصراني واليهودي

---

(321) السابق ذات الصفحة

(322) (انظر- خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر- محب الدين الحموي - دار صادر – بيروت – ج1 ص 467

(323) الإيضاح والتبيين لما صح مما لم يصح من الاحاديث والأثار والهواتف في الجن والشياطين - أبو نصر محمد بن عبد الله الإمام - مكتبة الإمام الوادعي صنعاء- الطبعة الأولى 2009م - ص 18- نعوذ بالله من أهل الحديث إنسهم وجنهم !

(324) رواه أبو الشيخ في العظمة (5\1688) رقم (1141) وسنده حسن) (نقلا عن المرجع السابق ص 179)

والبوذي والهندوسي بل إن مسلمي الجن قد افترقوا إلى أهل سنة وأهل بدعة وشيعة وقدرية ومُرجئة .... ومنهم الطائع والعاصي والمسلم والكافر والتقي والفاجر والمتبع والمبتدع[325]).

ثمانون سؤالاً للجن!

وأما أعجب ما بلغه المخيال البشري الصادق في تطابق عالمي البشر والجن من الناحية الثقافية والروحية فهي تلك الشطحة البديعة والجامحة التي سجلها لنا متصوف مصري من القرن السادس عشر هو الشيخ عبد الوهاب الشعراني، حيث تلقى الشيخ الشعراني قرطاساً يحوي ثمانين سؤالا تتعلق بالتصوف، وعقيدة أهل الطريق وجرت تلك الواقعة على هذا النحو العجيب .

(وقد أتتني هذه الأسئلة مكتوبة في قرطاس في فم شخص من الجان في صورة كلب أصفر لطيف ككلاب الرمل. وكانت الورقة قدر فرخ ورق من الورق الإفرنجي مرقومة بخط عربي مردومة ففتحتها فإذا فيها: ما قول علماء الأنس ومشايخهم في هذه الأسئلة المرقومة الواصلة إليكم صحبة حاملها قد أشكلت علينا، وسألنا عنها مشايخنا من الجان فقالوا هذه التحقيقات لا تكون إلا من علماء الإنس؟، ثم ذكروا الأسئلة إلى آخرها وكان وصول هذه الأسئلة اليّ ليلة الثلاثاء السادس والعشرين من رجب سنة خمس وخمسين وتسعمائة دخل عليّ حاملها من طاق القاعة المطلة على الخليج الحاكمي ثم خرج وكان مراده الدخول إليّ من باب القاعة فمنعه المجاورون لظنهم أنه كلب حقيقة وطهروا الزاوية من مواضع مشيه، فلما أخبرتهم تعجبوا من ذلك غاية العجب، وندموا على إزعاجهم له، فالحمد لله الذي من علينا بإرشاد إخواننا الجان في هذا الزمان، وها أنا أشرع في أجوبتهم بحسب ما يفتح الله به في الوقت وهو حسبي ونعم الوكيل وسميته بكشف الحجاب والران عن وجه أسئلة الجان نفع الله المسلمين به آمين .[326]) .

وسوف نعرض للقارئ بعضاً من تلك الأسئلة حيث جاء السؤال الأول هكذا: (سألوني عن السبب الذي أخرج غالب مكلفي الخلق من شهود تنزه الحق المطلق إلى

(325) المصارع - للشيخ محمود المصري - ص 47- 48

(326) كشف الحجاب والران عن وجه أسئلة الجان - للشيخ عبد الوهاب الشعراني - الطبعة الأولى- نشره محمد عبد الله عبد الرزاق القاهرة ص 6

وقوفهم مع التشبيه)، وجاء سؤال الجن الثاني هكذا: (سألوني عن الاتحاد الذي يشير إليه أهل الإلحاد هل المراد به أن ترجع صورة العبد هي عين الحق أم المراد غير ذلك؟، أما السؤال الثالث فكان عميقاً : (وسألوني : إذا كان لا حلول ولا اتحاد فما القوى الحاملة للعبد هل هي عين أم غير؟، فإن قلنا هي غير فقد قام العبد بنفسه وهو محال وإن قلنا عين، فهو عين القول بالحلول وما معنى حديث كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها؟، أوضحوا لنا الجواب فإننا في حيرة عظيمة).

وهذه الأسئلة -على الجملة - إنما هي أسئلة ينتظر صدورها هي وأشباهها من طالب معرفة بشري متقدم للغاية في المعرفة الروحية، ولا يفصل بينه وبين رتبة الولاية سوى خطوة واحدة، وأما فرادة هذا الكتاب، فهو أنه لم يصدر عن عقل هذا جاهل، ولا من نفاج كذاب، بل كانت تلك القصة إبداع قريحة رجل ذو مخيال خلاق، ويعد صاحبها من أعظم عقول المسلمين في عهود الانحطاط.!

﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعۡجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَن نُّعۡجِزَهُۥ هَرَبٗا ﴾ [الجِن : 12] .

ثم تخبرنا الجن بما يصح أن نسميه بتفسيرهم الشخصي لما أصابوه من الهداية والرشاد، وأن تلك الهداية ما كانت لتحصل لهم إلا بسبب من اتضاعهم، ومن عظيم قدر الله في قلوبهم، حيث استجابوا لله فلم يترددوا ولم يتوانوا عن الإيمان بالله، فكانوا ما يمكن أن نسميهم ب(صديقي الجن)، حيث لم تكن لهم كبوة، بل سرعان ما آمنوا بالنبي وبرسالته ولما يغادرون بعدُ مجلسهم الأول - مثلما آمن أبو بكر بالنبي فور أن وعظه ودعاه إلى الله-، بل ودون أن يوجه النبي إليهم خطابه أصلاً -، والأكثر من ذلك أنهم فور إيمانهم بالله ومعرفتهم بعظيم قدره، أيقنوا أنهم لن يعجزوا الله الذي لا يعجزه شيء الأرض ولا في السماء، فليس لهم منه مُنجي في الأرض ولا مهرب لهم في السماء وهو معنى قرآني واضح لا يحتاج إلى تأكيد .

﴿ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعۡنَا ٱلۡهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦۖ فَمَن يُؤۡمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخۡسٗا وَلَا رَهَقٗا ﴾ [الجِن:13] .

أضف إلى ذلك كله أنهم وقد تسلل نور الإيمان إلى قلوبهم اليقظة فقد استنبطوا بأنفسهم موازين محاسبة الله لخلقه، فعلموا أن الله لن يظلم من آمن به، فلن يمنعه الله شيئا

يستحقه بصالح أعماله، ولن يحمل الله عليه شيئاً من ذنوب غيره تماماً مثلما جاء نظيره في القرآن وكما تعبر عنه هذه الآية: ﴿ وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا يَخَافُ ظُلۡمٗا وَلَا هَضۡمٗا ﴿١١٢﴾﴾ [طه : 112].

﴿ فَلَا يَخَافُ ظُلۡمٗا ﴾ يقول: فلا يخاف من الله أن يظلمه، فيحمل عليه سيئات غيره، فيعاقبه عليها ﴿ وَلَا هَضۡمٗا ﴾ يقول: لا يخاف أن يهضمه حسناته، فينقصه ثوابها. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل[327].)

﴿ وَأَنَّا مِنَّا ٱلۡمُسۡلِمُونَ وَمِنَّا ٱلۡقَٰسِطُونَۖ فَمَنۡ أَسۡلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوۡاْ رَشَدٗا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلۡقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبٗا ﴿١٥﴾﴾ [الجن : 14 - 15] .

ثم تقرر الجن - بجلاء كامل - مصير الفريقين في الآخرة - التي لم يكونوا يعرفون قبل سويعة أي شيء عنها بل كانوا ينكرونها - لكنهم الآن يعلمون أن المسلمين- أهل الهداية والرشاد - سوف تنالهم رحمة الله وفضله، وأما الكافرون الجاحدون فسيكونون حطب جهنم، ولا نشك في تقرير هذا المصير، إنما هو تأكيد إضافي على أن الجن ما كانوا يستحقون العبادة من البشر مثلما جاء في سورة الأنبياء : ﴿ إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوۡ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةٗ مَّا وَرَدُوهَاۖ وَكُلّٞ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأَنبِيَاء: 98 - 99].

﴿ وَأَلَّوِ ٱسۡتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقٗا ﴿١٦﴾ لِّنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ وَمَن يُعۡرِضۡ عَن ذِكۡرِ رَبِّهِۦ يَسۡلُكۡهُ عَذَابٗا صَعَدٗا ﴿١٧﴾ وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيۡهِ لِبَدٗا ﴿١٩﴾﴾ [الجن : 16 - 19] .

[327] (تفسير الطبري - ج18ص 379- شاكر - الرسالة)

إلى هنا ينتهي صوت الجن الخالص لندخل في مرحلة غامضة من الخطاب تعبر عنه تلك الآيات الثلاث السابقة، والتي لا ندري معها هل انقطع فجأة صوت الجن ليبدأ الصوت الإلهي في تعقيب مهيب ما أقربه ليكون امتداداً لصوت ناطق الجن، أم أن صدى صوت ناطق الجن ما زال مستمراً، لكنه تماهي مع الصوت الإلهي حتى يصعب التمييز بينهما كما يكون من تداخل ماء النهر بالمحيط؛ فلا يعرف الناظر في تلك الفقرة متى يبدأ هذا أو متى ينتهي ذاك؟، لكن هذا الغموض ينتهي بنعومة تامة، ويخرج الصوت الإلهي من هذا الضباب الدلالي ليظهر واضحاً جلياً بدءاً من قوله تعالى مخاطبا النبي عليه السلام : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّي وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ ﴾ [الجِن : 20].

وسواء أكان الصوت يعبر عن هذا أم ذاك - والثاني هو الأرجح [328]- فليس من فارق أبداً، فالمعني كله لا يخرج عما سبق وأن قرره القرآن وما سيكرره مراراً من تقرير معنيين لا يتعارضان في شيء، لعل أرجحهما هو ما تكرر نظيره في القرآن الكريم أكثر من صاحبه وهو: أن الله يثيب الطائعين الصالحين والذين تتدفق عليهم البركات ما داموا على إيمانهم مثلما جاء هذا المعنى في سورتي المائدة والأعراف: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [المَائِدَة : 66]، ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [الأَعْرَاف : 96]، أو أن الله يبتلي الكافرين بسعة الرزق

[328] ومن ألطف ما قرأناه لإيضاح العلاقة بين قول الجن وتعقيب الله ما استخرجه هذا الباحث المتدبر من قاعدة بلاغية جديدة أسماها (تصديق المتكلم بعطف كلام لم يقله على كلامه مع الإشعار بأنه ليس من كلامه)، وضرب مثلا لهذا بتلك الآيات السابقة فقال : (وفي هذا الكلام المعطوف على أقوال النفر من الجن، ما يشعر بأنه من كلام الله وليس من أقوال النفر . وفي هذا الإجراء البياني تصديق للنفر من الجن في مقالاتهم، مع إنشاء بيان جديد أراد الله عز وجل بيانه وإضافته)(أنظر ج5 ص658- 659 - معارج التفكر ودقائق التدبر تفسير تدبري للقرآن الكريم بحسب ترتيب النزول - عبد الرحمن حسن الميداني - دار القلم دمشق - الطبعة الأولى 2000م

كما جاء في سورة (المؤمنون) : ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ۝٥٦﴾ [المُؤْمِنُون : 55 - 56].

والمعنى سائغ مألوف على التفسيرين، فقد جمعهما القرآن مراراً في آية واحدة كما في قوله تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ۝٣٥﴾ [الأَنبِيَاء : 35].

وقبل أن نغادر هذه السورة نجد من الضروري التأكيد على أنه لا ينبغي للقارئ الكريم أن يعجب من أن تجري كل هذه الخطبة البليغة والمليئة بالمفردات الإسلامية على ألسنة صالحي الجن، والذين لم يعرفوا الإسلام إلا منذ برهة قصيرة - حتى يظن أنه كان يحسُن أن يقول هذا كله مثلاً جنياً مسلماً من السابقين الأولين إلى الإسلام، وهو يدعو قومه إلى الهدى كما لو كان فيهم، كمصعب بن عمير الذي أرسله النبي إلى أهل المدينة ليعلمهم الدين الذي علمه إياه.

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٠ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ۝٢١ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ۝٢٢ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۝٢٣ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ۝٢٤ قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ۝٢٥ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ۝٢٧ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ۝٢٨﴾ [الجِن: 20 - 28] .

من يقرأ هذا التعقيب الإلهي الذي ختمت به هذه السورة، فلن يجد شيئاً يخاطب به الله نبيه سوى شبيه ما قررته الجن سابقاً وحذو النعل بالنعل - حيث سيجد الدعوة إلى توحيد الله والنهي عن الإشراك به، وسيجد كذلك أن الله هو الذي يجير ولا يجار عليه،

وسيجد عقيدة الخلود في النار للعاصين - دون ذكر الجنة التي غابت - أيضاً - عن خطاب الجن؛ لأن المقام مقار إنذار ووعيد .

وهذه الملاحظة الأخيرة ربما كانت مفيدة لهؤلاء المفسرين الذين حاروا في تقرير مصير صالحي الجن - كما سنرى خلال عرضنا لقصة الجن في سورة الأحقاف وفيها سنجد الجن -وقد آمنوا- يعودون مسرعين ليبشروا قومهم بما آمنوا به منذ لحظات - وحيث تستكمل هناك قصة أولئك النفر المؤمنين، كما لو كان هذا المقطع القادم نسخة مصغرة من سورة الجن سواء في مادتها القصصية أو في الأجواء النفسية الخاصة بمستلهم القرآن كما سنرى عند التعقيب على الآيات الختامية للسورتين.

الجن في سورة الأحقاف

﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الأَحْقَاف : 29 - 32] .

*****

﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الأَحْقَاف : 29]

تبدأ هذه الآيات من حيث انتهت خطبة وافد الجن، فهي تحكي لنا عن المرحلة الثانية من قصة أولئك النفر الصالحين من الجن، والذين رأيناهم في السورة السابقة يعلنون إسلامهم، لنجدهم هنا يستكملون ما يجب أن نتوقعه من مؤمنين صالحين؛ أي أن لا يؤثروا أنفسهم بنعمة الإيمان، ولزوم أن يشركوا معهم قومهم الضالين فيما أصابوه

من خير، وأن يستنقذوهم من الضلالة، ومَن يدري فلربما علموا من مجرد سماعهم القرآن أن المسلم الحق لا بد وأن يدعو إلى المعروف ويبشر بالإيمان وينهي عن الكفر والعصيان؟.!

ربما كان في ظلال الآية الأولى ما يوحي لنا بسرعة نقلتهم من مجلس النبي إلى قومهم في سرعة خاطفة لما لهم من تلك القدرة الخارقة، التي خصهم الله بها دون البشر، والآية إلى جانب هذا تعيد التأكيد - من طرف خفي - على أن النبي لم يكن على علم بوجودهم-، ناهيك أن يكون هو من ذهب إليهم ليعرض عليهم ما جاء به من الإسلام، بل إن الآية قاطعةً في أن الله هو من صرفهم إليه، وقدر لهم أن يستمعوا إلى النبي وهو يقرأ القرآن؛ لما شاءه لهم من الكرامة والخير؛ لأننا لا نظن أن كلمة (صرفنا) تدل على شيء مما جاءت به الأحاديث التي يسمونها (الصحيحة)، من أن الجن كانت تضرب في مشارق الأرض ومغاربها لتبحث عن سبب ذودها عن السماء، بل نرجح أن تلك الكلمة (صرفنا) تدل ببساطة تامة على أن الله ساق بعض الجن العابرين لكي يستمعوا إلى القرآن، لما أراده الله من التسرية عن قلب نبيه المحزون، وأيضاً لما قدره من الرحمة بالجن وإرشاد أولئك الغافلين إلى سواء السبيل.

لا تضيف الآية الأولى شيئاً إلى ما قررته سورة الجن من معان، سوى أنها تعكس لنا تصور النبي عما جاء به قومه من الدين، فلم يكد النبي يفرغ من قراءته حتى آمنت بدعوته الجن ودونما تردد، بل تولوا سراعاً إلى قومهم، لكي يدعوهم للإيمان بما وفقوا إليه، وهذا يعكس لنا ملمحاً أساسياً عن تقدير النبي لطبيعة ما جاء به قومه، فلم يعتقد النبي أبداً أنه أتى قومه بشيء عجيب أو غريب حتى يحتاج من يسمعه إلى أن يخلو بنفسه طويلاً متأملاً متفكراً، كلا!، بل ما جاءهم النبي إلا بما هو ميسور القبول لكل ذي عقل، يستوي في ذلك أصحاب الفطر السليمة سواء أكانوا من عالم الإنس أو من عالم الجن. ويكفي في ذلك ما تدل عليه هذه الآية: ﴿ ۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ ﴾ [سَبَإ : ٤٦].

الملاحظ أن الجن شأنهم في هذا - شأن جميع المتحولين حديثاً للإيمان في القرآن سرعان ما يتبنون الخطاب الرسالي كله، ويضمنوه ما سمعوه وما لم يسمعوه، وكأنهم

يتماهون مع صاحب الدعوة وينطقون بلسانه، ويترجمون عن جميع معارفه، ودونما تقديم برهان على أنهم ألموا بها أو اطلعوا عليها من قبل، مثلما سنرى عند عرضنا لقصة سحرة فرعون الذين صدعوا بكل مفردات العقيدة الإلهية بعدما كانوا كافرين بها قبل الوقت الضئيل الذي استلزمه أن يلقي موسى عصاه .

﴿ وَقَالُواْ يَٰقَوۡمَنَآ إِنَّا سَمِعۡنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٣٠﴾ [الأَحۡقَاف : 30] .

إذن فقد آمنت الجن منذ برهة قصيرة بعقيدة الإسلام، وهاهم يتحولون إلى دعاة متحمسين لها ومترجمين في خطابهم جميع مفردات الدعوة كما قررها الإسلام، بل ومهتدين بطرائقه المثلى من التلطف في الخطاب، فأما لغة الدعوة فستتجلى منذ أول الخطاب حتى منتهاه، حيث سنرى كيف سيخاطب الجن أقوامهم في هذه الآية - والتي بعدها - كما يخاطب العربي أهله تحبباً وتأليفاً لسامعه: (يا قومنا)؛ لأنه يذكره بأن من يخاطبه ينتمي إليه فهو حري أن يرجو له الخير،ويخلص له النصيحة مثلما خاطبت الأنبياء أقوامهم بذات الصيغة العربية، ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا ٣٠﴾ [الفُرۡقَان : 30] ﴿ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوۡمِي كَذَّبُونِ ١١٧﴾ [الشُّعَرَاء : 117] ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوۡتُ قَوۡمِي لَيۡلٗا وَنَهَارٗا ٥﴾ [نُوح : 5].

وأما عن مفردات الدعوة الدينية كما آمنت بها الجن فسوف تتطابق بسرعة خاطفة مع عقيدة صاحب الرسالة المحمدية، بل وفي بعض أهم خصائصها التي تميزت بها العقيدة الإسلامية؛ حيث نجد الجن تذكر لقومها تلك العقيدة القرآنية الخالصة من أن الأنبياء يصدق بعضهم بعضاً ؛ فالسابق يبشر بلاحقه، واللاحق يتابع سابقه ويصدقه في كل ما جاء به لأنهم في النهاية يبلغون رسالة واحدة، سواء في مصدرها أو في مضمونها ، وهي عقيدة من الجلي أن الجن كانت تعرفها من اطلاعهم الواسع على الرسالات السابقة، وقد جاءت الرسالات الإلهية السابقة كلها في اعتقادهم مطابقة لما اعتقده النبي من أنها رسالة واحدة يرسل الله بها أنبياءه، ويبشر بعضهم ببعض ويصدق بعضهم بعضا.

وإذن والحال هذه فليس بعجيب أن نخلص إلى أن الجن ربما كانت تتلهف لأن يبعث نبي جديد يتمم رسالة موسى مثلما قيل مَن تشوف كثير من الناس قبيل البعثة لأن يظهر لأهل الأرض نبي يأتيه خبر السماء، لكي يخرجوا من ليل الضلالة الطويل والذي استمر قروناً بعد قرون، ولعل هذه الدلالة تعضد ما سبق وأن قلناه من ترجيح معنى قولهم في السورة السابقة ﴿ وَأَنَّهُمْ ظَنُّواْ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ﴾ [الجِن : 7] بأنه كان استبعاداً من الجن للبعث والنشور ولم يكن استبعاداً منهم لأن يرسل الله رسلاً إلى أهل الأرض، وأن الجن كانوا يجحدون عقيدة البعث مثل عامة العرب.

لكننا لا ندري كيف لم يسمع هؤلاء النفر من الجن برسالة عيسى المسيح رغم أننا في القرن السادس الميلادي وقد اعتنقت الإمبراطورية الرومانية كلها المسيحية منذ جعلها قسطنطين - فعلياً- العقيدة الرسمية لإمبراطورية شاسعة!، فكيف سمعت الجن برسالة بموسى الذي لم يعتنق رسالته سوى عدة عشرات من الألوف في بقعة صغيرة، وقد تشتتوا في الأرض منذ قرون، ولم يسمعوا بدعوة عيسى المسيح؟!، إلا لو افترضنا أنهم كانوا بدواً، لا يعلمون كثيراً مما يجري حولهم، أو ربما حدث هذا التجاهل لمثل هذا تلك الأسباب العجيبة التي اقترحها بعض المفسرين المحدثين الذين لم يكتفوا بما قاله المفسرون القدماء، ولقد كانوا أقرب للصواب منهم كما سنرى.

(وخصصوا موسى عليه السّلام بالذكر، لأحد أمرين: إما لأن هذه الطائفة من الجن كانت تتدين بدين اليهود، وإما لأنهم كانوا يعرفون أن موسى عليه السّلام قد ذكر محمدا صلّى الله عليه وسلّم وبشّر به [329].)

ولا علينا في أن نسقط تلك الظنون التي لا تُغني من الحق شيئا، وألا نلتفت طرفة عين إلى تلك الأقوال المرسلة التي لا برهان عليها من عقل صحيح أو من نقل صريح .!

أما عن عقيدة القرآن في تصديق الرسل بعضها بعضاً، ومن أخذ العهود على النبيين جميعاً بتصديقه عندما يبعث النبي الأخير، فهو جلي من نصوص القرآن مثل قوله في سورة الأعراف: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ﴾ [الأَعْرَاف : 157]، ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ

(329) التفسير الوسيط للزحيلي الطبعة : الأولى - 1422 هـ- ج 3 ص 2425

ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [آل عِمْرَان : 81].

وعلى هذا فقوله: أنهم كانوا يعرفون أن موسى قد ذكر النبي وبشَر به!، فلا ندري ما خصوصية موسى إن كانت الأنبياء جميعاً قد أُخذ منهم الميثاق على الإيمان بنبوة محمد مثلما تدل عليه الآيات السابقة؟!، ناهيك أننا لا نعلم كيف يبشر موسى بمحمد مباشرةً، وهو لن يبعث في علم الله إلا بعد قرابة عشرين قرناً من زمان موسى؟!، وكيف يبشر به موسى مع ما سيتوسط بينهما من مئات الأنبياء، بل وكيف يبشر موسى بمحمد الذي سيبعث في أمة غير أمته؟

أما عن كون هذا النفر من الجن كانوا يهوداً، فهو ما سبقه إليه المفسرون وكُتاب السيرة، مستهدفين ذات ما ذهب إليه من محاولة تقديم تفسير لتجاهل هؤلاء الجن للمسيح، كما لو أنهم لا يقرون بها، وهو تفسير لا يستقيم مع سيقرره الإسلام من النهي عن الإيمان ببعض الأنبياء دون بعض.

(وَيُقَالُ كَانُوا سَبْعَةً، وَكَانُوا يَهُودًا فَأَسْلَمُوا، وَلِذَلِكَ قَالُوا" أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسى[330].)

أما عن مجرد الاعتقاد في توزع الجن على الأديان التي شاعت في العرب قبل الإسلام فقد بلغنا طرف من ذلك، ولكن في خرافات عرب الجاهلية وحسب، حيث جاءنا - في أغاني أبي الفرج - خبر عن جن تهودوا في الجاهلية في سياق قصة طريفة وقعت لأمية بن أبي الصلت.[331]

وأما الحقيقة الأشد وضوحاً من كل ما سبق فهي أن نتذكر أن الذي بشر صراحةً بالنبي - وفق القرآن - لم يكن موسى، بل كان المسيح كما جاء في سورة الصف : ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ

[330] (انظر الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام- السهيلي - دار إحياء التراث العربي، بيروت - الطبعة الأولى، 2000م - ج2 ص 197-

[331] راجعها إن شئت في كتاب : أديان العرب وخرافاتهم - الأب أنستاس ماري الكرملي - المؤسسة العربية للدراسات والنشر - الطبعة الأولى 2005م ص 61

وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾ [الصَّف : 6]ﷺ ومثلما يؤكده هذا الحديث الصحيح: (عن العرباض بن سارية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إني عند الله مكتوب: خاتم النبيين وإن آدم لمنجدل في طينته وسأخبركم بأول أمري دعوة إبراهيم وبشارة عيسى ورؤيا أمي التي رأت حين وضعتني وقد خرج لها نور أضاء لها منه قصور الشام [332]).

على هذا فتجاهل دعوة المسيح هو في الحقيقة أمر محير وعجيب، إلا لو اعتبرنا أن هذا القول الذي جاء على لسان الجن ما هو إلا ترجمة عن لا شعور النبي في تلك الفترة الباكرة في أنه يتابع على الإجمال الشريعة اليهودية، وهو ما ذهب إليه كثير من المفسرين قدماء ومحدثين، حيث قالوا بأن ذكر الجن لموسى دون سواه من الأنبياء؛ لأنه كان صاحب شريعة دينية شاملة، ولم يأت مجدداً ومتابعاً لغيره مثلما كان المسيح لموسى وهو تفسير مقبول ولا غبار عليه :

(ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَى فَسَّرَ إِنْذَارَ الْجِنِّ لِقَوْمِهِمْ فَقَالَ مُخْبِرًا عَنْهُمْ: قالُوا يا قَوْمَنا إِنَّا سَمِعْنا كِتاباً أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسى وَلَمْ يَذْكُرُوا عِيسَى لِأَنَّ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أُنْزِلَ عَلَيْهِ الْإِنْجِيلُ فِيهِ مَوَاعِظُ وَتَرْقِيقَاتٌ وَقَلِيلٌ مِنَ التَّحْلِيلِ وَالتَّحْرِيمِ، وَهُوَ فِي الْحَقِيقَةِ كَالْمُتَمِّمِ لِشَرِيعَةِ التَّوْرَاةِ فَالْعُمْدَةُ هُوَ التَّوْرَاةُ، فَلِهَذَا قَالُوا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى، وَهَكَذَا قَالَ وَرَقَةُ بْنُ نَوْفَلٍ حِينَ أَخْبَرَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلم بقصة نزول جبريل عليه الصلاة والسلام أَوَّلَ مَرَّةٍ فَقَالَ: بَخٍ بَخٍ! هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي كَانَ يَأْتِي مُوسَى يَا لَيْتَنِي أَكُونُ فيه جذعا. مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ أي في الكتب المنزلة على الأنبياء قبله،[333]).

﴿ قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ ﴿٣٠﴾ [الأَحْقَاف : 30] ، لأن كتاب موسى أصل للإنجيل وعمدة لبني إسرائيل في أحكام الشرع، وإنما الإنجيل متمم ومكمل ومغير لبعض الأحكام [334]).

---

[332] (مشكاة المصابيح برقم (5759)

[333] (انظر ج7 ص280- تفسير القرآن العظيم -ابن كثير الدمشقي- تحقيق محمد حسين شمس الدين دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون - بيروت الطبعة: الأولى - 1419 هـ)

[334] تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان- عبد ارحمن بن ناصر السعدي - تحقيق عبد الرحمن بن معلا اللويحق- مؤسسة الرسالة الطبعة: الأولى 1420هـ -2000 م - ص 783

أما ما نعتقده بشأن اختصاص موسى بالذكر على لسان الجن فنعجب من عدم التفات المفسرين إلى وثيق ارتباط ما جاء على لسان الجن في نهاية السورة بما جاء في أولها، ونعني به تلك الآية الغامضة والتي حار بشأن دقيق معناها المفسرون قديماً وحديثاً .

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾﴾ [الأَحْقَاف : 10] .

﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْ ﴾ [الأَحْقَاف : 10] ..

اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك، فقال بعضهم معناه: وشهد شاهد من بني إسرائيل، وهو موسى بن عمران عليه السلام على مثله، يعني على مثل القرآن، قالوا: ومثل القرآن الذي شهد عليه موسى بالتصديق التوراة.[335])

ثم نقل الطبري رأي من قال بأن المقصود بالشاهد من بني إسرائيل هو عبد الله بن سلام، وتكفل الطبري بعدها برد هذا الرأي المتهافت فنقل عن أصحاب الرأي الأول ما يضعفه ويدحضده. (قال مسروق: والله ما نزلت في عبد الله بن سلام، ما أنزلت إلا بمكة، وما أسلم عبد الله إلا بالمدينة، ولكنها خصومة خاصم محمد صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم بها قومه، قال: فنزلت ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ﴿١٠﴾﴾.قال: فالتوراة مثل القرآن، وموسى مثل محمد صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم، فآمنوا بالتوراة وبرسولهم، وكفرتم..... عن الشعبيّ، قال: إن ناسا يزعمون أن الشاهد على مثله: عبد الله بن سلام، وأنا أعلم بذلك، وإنما أسلم عبد الله بالمدينة، وقد أخبرني مسروق أن آل حم إنما نزلت بمكة، وإنما كانت محاجة رسول الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم لقومه، فقال: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ يعني الفرقان

[335]جامع البيان في تأويل القرآن- الطبري - الرسالة – ج- 22ص 103

﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثۡلِهِۦ﴾ فمثل التوراة الفرقان، التوراة شهد عليها موسى، ومحمد على الفرقان صلى الله عليهما وسلم[336].)

ولا حاجة إلى بيان ضعف هذا الرأي والذي قبله، فليس في تصديق موسى لنفسه أي فائدة، ولا معنى كذلك للتعسف، والقول بأن تلك الآية قد نزلت في رجل كعبد الله بن سلام، مثلما يصر كثير من المفسرين حتى يومنا هذا، ولعل أجدر الأقوال بالاعتبار وإنعام النظر، هو ما نقله الرازي من رأيين متقاربين بعدما أن ضعف قول من قال من المفسرين بأن المقصود هو عبد الله بن سلام

(الْقَوْلُ الثَّانِي: فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَشَهِدَ شاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ أَنَّهُ لَيْسَ الْمُرَادُ مِنْهُ شَخْصًا مُعَيَّنًا بَلِ الْمُرَادُ مِنْهُ أَنَّ ذِكْرَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَوْجُودٌ فِي التَّوْرَاةِ وَالْبِشَارَةُ بِمَقْدِمِهِ حَاصِلَةٌ فِيهَا فَتَقْدِيرُ الْكَلَامِ لَوْ أَنَّ رَجُلًا مُنْصِفًا عَارِفًا بِالتَّوْرَاةِ أَقَرَّ بِذَلِكَ وَاعْتَرَفَ بِهِ، ثُمَّ إِنَّهُ آمَنَ بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَنْكَرْتُمْ أَلَسْتُمْ كُنْتُمْ ظَالِمِينَ لِأَنْفُسِكُمْ ضَالِّينَ عَنِ الْحَقِّ؟ فَهَذَا الْكَلَامُ مُقَرَّرٌ سَوَاءٌ كَانَ الْمُرَادُ بِذَلِكَ الشَّاهِدِ شَخْصًا مُعَيَّنًا أَوْ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ لِأَنَّ الْمَقْصُودَ الْأَصْلِيَّ مِنْ هَذَا الْكَلَامِ أَنَّهُ ثَبَتَ بِالْمُعْجِزَاتِ الْقَاهِرَةِ أَنَّ هَذَا الْكِتَابَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَثَبَتَ أَنَّ التَّوْرَاةَ مُشْتَمِلَةٌ عَلَى الْبِشَارَةِ بِمَقْدَمِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَعَ هَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ كَيْفَ يَلِيقُ بِالْعَقْلِ إِنْكَارُ نُبُوَّتِهِ.[337])

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: عَلى مِثْلِهِ ذَكَرُوا فِيهِ وُجُوهًا، وَالْأَقْرَبُ أَنْ نَقُولَ إِنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَهُمْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ كَمَا أَقُولُ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِ مَا قُلْتُ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ أَلَسْتُمْ كُنْتُمْ ظَالِمِينَ أَنْفُسَكُمْ.[338])

وأرجح الأقوال وأقربها - في اعتقادنا - هو القول الثاني ؛ لأنه الأكثر اتساقاً مع منطوق الآية ويتوافق مع زمن نزولها[339]؛ وإن صح هذا فسيصبح تفسير ذكر موسى

---

[336] (السابق ذات الصفحة)

[337] مفاتيح الغيب - الرازي - دار إحياء التراث العربي - بيروت- ج28ص 11)

[338] السابق الرازي ج28 ص 12)

[339] يلاحظ أن موسى هو الذي كان خبره يذكر دائما في كل تلك الفترة المكية الباكرة، ولم يذكر المسيح بجانبه قط كنبي كصاحب دعوة إلهية ، بل، لم يذكر المسيح عبر القرآن المكي سوى ثلاثة مرات هي : المؤمنون و الزخرف وسورة مريم - ومن ينظر في سياق تلك السور الثلاث لعلم أن ذكر المسيح لم يكن غاية في ذاته، بل كان يأتي دائما في مقام نفي ألوهية المسيح، وتقرير عبوديته الكاملة لله ؛ أي أنه يذكر بجانب تلك العبادات الباطلة التي هاجمها القرآن الكريم ، ولأن المسيح صار وثنا يعبد من دون الله، فقد جاء ذكر المسيح وولادته الإعجازية مفصلا في سورة مريم، ثم يتضح بجلاء الغرض من إيراد قصته من التعقيب الذي يعقب قصة مريم وابنها : ﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ

وإغفال المسيح على لسان الجن واضح لكل من يريد أن يراه ؛ لأن ما جاء على لسان الجن من ذكر لموسى وكتابه وتصديق النبي بما بين يديه من التوراة لم يكن إلا بسبب من تداعي المعنى في العقل النبوي، حيث علقت صيغة تلك الآية التي ذكرت في بداية السورة، والتي كانت تعبر عن شاهد يهودي افتراضي لم يكن بدوره - في واقع الأمر - أكثر من تعبير يجسد لنا، يعبر عن شوق النبي وتوقعه لإيمان اليهود به، خاصة مع ما قرّ في قلب النبي من وجود بشارات واضحة في التوراة تنطبق عليه -، ثم جاءت شهادة الجن بذات الصيغة القريبة كشهادة عاجلة وناجزة لمحمد - عليه السلام -، ولا يجمع بين هاتين الشهادتين أكثر من يقين النبي ذاتياً بكليهما ؛ أي أن علماء بني إسرائيل المنصفين سوف يؤمنون به إذا سمعوه يتلو القرآن، مثلما لن يتردد عقلاء الجن - أيضا - في تصديقه - أيضاً - إذا حدث وأن ساقهم الله إليه وسمعوه يتلو سورة واحدة من سور القرآن .

إذن فلم يكن هؤلاء الجن من المتهودين مثلما قال المفسرون السابقون - لكنهم رغم ذلك قد قاربوا الحقيقة - ولو على نحو ما - حين وصفوا أصحاب هذا الصوت بأنهم كانوا يهوداً أو كانوا يعتقدون اعتقاد اليهود -، وأما الحقيقة الواضحة فهي أن النبي محمد نفسه كان في تلك المرحلة من مراحل دعوته أقرب ما يكون لصوت نبي من أنبياء العهد القديم؛ ولأن هؤلاء الجن كانوا هم المقابل لشهود افتراضيين من اليهود لطالما تاق النبي

يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾﴾ [مَرْيَم : ٣٤ - ٣٨] ، وجاء ذكر المسيح في سورة الزخرف ولكنه يأتي لنفس الغرض ﴿۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾﴾ [الزُّخْرُف : ٥٧ - ٥٩]، أما موضع سورة المؤمنون فهو حضور عابر من خلال ذكره عبر حشد الأنبياء وتقرير أن المسيح وأمه آيتان للعالم، ويلاحظ أن القرآن لم يسم عيسى بالمسيح إلا في القرآن المدني، أما في القرآن المكي فلم يسم إلا بعيسى أو مباشرة (ابن مريم) : ﴿ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾﴾ [المُؤْمِنُون : ٥٠ - ٥٢]

الي تصديقهم لهم[340] ، ولذا فقد وجدنا الجن هنا يستعيرون لسانهم ويعكسون ظلالهم في مخياله الصادق.

﴿ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾ [الأَحْقَاف : 31] .

وأخيراً نجد هنا قانون الدعوة إلى الله مطبقاً على وجهه الصحيح؛ حيث نجد الجمع بين التبشير والإنذار، وبين الترغيب والترهيب فنراهم يهيبون بقومهم أن يؤمنوا بالنبي الذي أظلهم زمانه كي ينالهم ما يعرفونه من ثمرة الإيمان مستخدمين ذات الصيغة المحيرة التي استخدمها الأنبياء السابقون على إبراهيم مثل هود وصالح، والتي أثارت عقول المفسرين حيث توقفوا أمام دلالة حرف الباء في قوله: ﴿ مِّن ذُنُوبِكُمْ ﴾ في الآيات الثلاث كل في موضعها فقال ابن كثير عن الآية التي معنا (يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ قِيلَ إِنَّ مِنْ هَاهُنَا زَائِدَةٌ وَفِيهِ نَظَرٌ لِأَنَّ زِيَادَتَهَا فِي الْإِثْبَاتِ قَلِيلٌ، وَقِيلَ إِنَّهَا عَلَى بَابِهَا لِلتَّبْعِيضِ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ أَيْ وَيَقِيكُمْ مِنْ عَذَابِهِ الْأَلِيمِ، وَقَدِ اسْتَدَلَّ بِهَذِهِ الْآيَةِ مَنْ ذَهَبَ مِنَ الْعُلَمَاءِ إِلَى أَنَّ الْجِنَّ الْمُؤْمِنِينَ لَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ، وَإِنَّمَا جَزَاءُ صَالِحِيهِمْ أَنْ يُجَارُوا مِنْ عَذَابِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلِهَذَا قَالُوا هَذَا فِي هَذَا الْمَقَامِ وَهُوَ مَقَامُ تَبَجُّحٍ وَمُبَالَغَةٍ، فَلَوْ كَانَ لَهُمْ جَزَاءٌ عَلَى الْإِيمَانِ أَعْلَى مِنْ هَذَا لَأَوْشَكَ أَنْ يَذْكُرُوهُ[341].)

ولا نظن أن سياق الآيات يدل على شيء مما ذكره ابن كثير، وأغلب الظن أن سياق الوعيد الذي يظلل تلك السورة هو ما جعل الوعيد فقط حاضراً على لسان الجن، ويعضده أنها جاءت عطفاً على قوله: ﴿ ۞ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ ﴾ وهي قصة كان الغرض منها توعد قريش بعذاب مماثل لما اشتهر بين العرب من مهلك قوم عاد وقد مهدت لقصة

(340)بهذا التصديق الذي أيقن به النبي وسنرى في الجزء القادم ما يؤيد هذا الاعتقاد حيث ظل النبي يتودد لليهود ويبجل التوراة وعلمائها حتى استيقن أن اليهود لن يتابعوه أبدا فكان له بهم شأن آخر سواء في القرآن بالهجوم الشديد أو بالأعمال الحربية المباشرة

(341) انظر ج7 ص280- تفسير القرآن العظيم -ابن كثير الدمشقي- تحقيق محمد حسين شمس الدين دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون - بيروت الطبعة: الأولى - 1419 ه

عاد وقصة الجن معاً هذه الآية الجامعة: ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَـٰسِرِينَ ﴿١٨﴾ ﴾ [الأَحْقَاف : 18].

وقال مُفسِر آخر: (أي يغفر لكم الذنوب التي بينكم وبين الله تعالى بسترها عليكم ولا يؤاخذكم بها، وأما الذنوب التي بينكم وبين بعضكم بعضاً فإنها لا تغفر إلا من قبل المظلوم نفسه باستسماحه أو رد الحق إليه،(342)).

﴿ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ ﴾ [إِبْرَاهِيم : 10] .

(فإن قلت: ما معنى التبعيض في قوله: ﴿ مِّن ذُنُوبِكُمْ ﴾ ؟ قلت: ما علمته جاء هكذا إلا في خطاب الكافرين، كقوله ﴿ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ ﴿٤﴾ ﴾ [نُوح : 3 - 4] ﴿ يَـٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ ﴿٣١﴾ ﴾ [الأَحْقَاف : 31] وقال في خطاب المؤمنين: هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى تِجارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ إلى أن قال يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وغير ذلك مما يقفك عليه الاستقراء، وكان ذلك للتفرقة بين الخطابين، ولئلا يسوى بين الفريقين في الميعاد. وقيل: أريد أنه يغفر لهم ما بينهم وبين الله، بخلاف ما بينهم وبين العباد من المظالم ونحوها(343)).

وكما ترى فقد استخرج الزمخشري وسواه من المفسرين من أقوال الداعين إلى الله ومن بينهم وافد الجن، دلالات عميقة الغور مثل أن الله يتسامح في حقوقه دون حقوق العباد، وهي دلالات ما نظن أن القرآن كان يقصدها من قريب أو من بعيد، فلم يأتِ القرآن على ذكر تلك القصة ليقدم تشريعاً للجن .

(342) أنظر ج5 ص65- أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير- أبو بكر الجزائري مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية الطبعة: الخامسة، -2003م

(343) انظر ج2 ص 543- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل- جار الله الزمخشري - دار الكتاب العربي - بيروت الطبعة: الثالثة - 1407 هـ

وأما الآية الثالثة فقد جاءت على لسان نوح تصريحاً

﴿ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۚ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾﴾ [نُوح : 4].

﴿ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأَحْقَاف: 32] .

ويلاحظ هنا أن الجن تصف النبي بأنه داعي الله مرتين، ولا ندري لماذا لم يقولوا رسول الله ؟ ومَن يدري ؟!، فلعل السبب في ذلك أن النبي لم يتوجه إليهم بدعوته مباشرةً.

وأما آخر ما سنسمعه من صوت واعظ الجن فهو بيان مصير من سيعرض عن الوعد الجميل ؛ إذ هناك الوعيد الرعيب، وتذكيره بأنه لن يعجز الله ، وأنه ليس له من أولياء ينصرونه من دون الله، ولربما جاء هذا التقرير ثانيةً هنا، كما لو أنه إشارة أنه لا ينبغي أن تغتر الجن بقوتها وبما منحه الله لها القدرة والسلطان؛ لأنهم في النهاية لن يعجزوا الله ببعض بما منحهم من فيض قدرته، وليذكروا أقوامهم بمصير قوم عاد لأن قصة الجن جاءت معطوفة على تلك القصة السابقة عن مصير هؤلاء المكذبين الضالين.

وهكذا ينتهي الخطاب فجأة بما يُوحي بأن حضور تلك القصة كان مقصداً عرضياً، فلم يكونوا سوى مثلاً يُضرَب، وحيث كان يغني عنه كل مثل سواه، ولكن ربما كان في حضور قصة الجن على النحو الذي ذكرت به في سورة الجن، ما جعلهم يحضرون في العقل النبوي كتجسيد لتلك الحالة العنيفة من التوق للتصديق الذي تطلبه الذات لنفسها قبل أي أحد ؛ ولذلك فلا ينبغي أن يغيب عنا أن كلتا القصتين تعتمدان على نقطة إدراكية واحدة، فالقصة الأولى تتأسس على سؤال باطني افتراضي، يقول : ماذا لو سمعت الجن القرآن؟، والقصة الثانية تتأسس على سؤال آخر استلزمه الاعتقاد الذاتي الكامل للنبي في أنهم كانوا حتما سيؤمنون، ولهذا فلابد وأن يعقبه هذا السؤال المنطقي: ماذا كانوا سيقولون لأقوامهم بعد أن يؤمنوا؟، فهُما على هذا نقطتان افتراضيتان خالصتان، وهما يعبران عن صدق ذاتي كامل وأما المعاني التفصيلية فتترجم عنها لحظة الإلهام وتعبر عن حال المستلهم في تلك اللحظة من بوارق الأفكار وخاطرات الشعور .

ومن يتأمل خطاب ذلك النفر الصالح من مؤمني الجن كما جاء في سورة الجن مفصلاً، وفي سورة الأحقاف موجزاً، لعجب أشد العجب من أن يكون هناك بين الجن كافر واحد؛ لأننا لا ندرى كيف يكفر أي جنى يعرف كيف يصل إلى السماء ويعرف أخبارها ؟.!

خاتمة

﴿ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ إِنِ ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ فَلَا تَمۡلِكُونَ لِي مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِۚ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۖ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٨ قُلۡ مَا كُنتُ بِدۡعٗا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ ٩﴾ [الأَحۡقَاف: 8- 9] .

﴿ فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسۡتَعۡجِل لَّهُمۡۚ كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَ مَا يُوعَدُونَ لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّن نَّهَارِۭۚ بَلَٰغٞۚ فَهَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٣٥﴾ [الأَحۡقَاف : 35] .

﴿ قُلۡ إِنۡ أَدۡرِيٓ أَقَرِيبٞ مَّا تُوعَدُونَ أَمۡ يَجۡعَلُ لَهُۥ رَبِّيٓ أَمَدًا ٢٥﴾ [الجِن : 25] .

لن يقرأ أحد قصة الجن مع النبي في موضعيها في القرآن الكريم دون أن تتسلل إلى نفسه تلك المشاعر الإنسانية التي تشيع في السورتين، والتي كانت خليطاً عنيفاً من الشعور بالأسى والاضطراب وقبلهما - وقبل كل شيء آخر- ذلك الاستسلام العميق لأقدار الله، والتأمل الذاهل عما يراد بالناس؛ حيث يصرفون عن الحق الواضح، ويتمسكون بالضلال الصريح،وحيث لا يملك دعاة الحق المشفقين شيئاً سوى الصبر والرجاء؛ وعلى هذا فلم يكن أمام النبي سوى أن يكون كغيره من الأنبياء السابقين الذين سمعوا نداء الله في قلوبهم، والذين لم يسعهم إلا أن يستجيبوا لهذا النداء الباطني العميق غير مبالين بشيء مما تشرئب إليه أعناق الناس.

ولعل أفضل ما قاله مفسرعن حال النبي وقت تنزل تلك السورة، هو ما قاله هذا المفسر الجليل: (إنها قطعة موسيقية مطردة الإيقاع، قوية التنغيم، ظاهرة الرنين مع صبغة من الحزن في إيقاعها، ومسحة من الأسى في تنغيمها، وطائف من الشجي في رنينها، يساند هذه الظاهرة ويتناسق معها صور السورة وظلالها ومشاهدها، ثم روح الإيحاء فيها. وبخاصة في الشطر الأخير منها بعد انتهاء حكاية قول الجن، والاتجاه بالخطاب إلى رسول الله- صلى الله عليه وسلم- هذا الخطاب الذي يثير العطف على شخص الرسول في قلب المستمع لهذه السورة، عطفاً مصحوباً بالحب، وهو يؤمر أن

يعلن تجرده من كل شيء في أمر هذه الدعوة إلا البلاغ، والرقابة الإلهية المضروبة حوله وهو يقوم بهذا البلاغ.[344])

والعجيب - كما ترى - أن مفسراً أديباً مثل صاحب الظلال يشير صراحةً إلى تلك الملامح النفسية، وإلى ظلال الشعور الإنساني الواضح الذي يسيطر على بعض سور القرآن مع احتفاظه المطلق في ذات الوقت بالصورة القديمة عن الوحي الحرفي.

والحقيقة أن حضور تلك الظلال تبقى غير مفهومة - بل ولا يتصور وجودها - مع الاعتقاد في أن الله هو الذي يتكلم بذاته إلى النبي عبر وسيط من الملائكة - التي لا تعرف بدورها شيئا عن مشاعر البشر، وأن النبي- وفق ذلك التصور العتيد - لم يكن سوى متلقٍ سلبى لتلك التنزلات الإلهية، وعلى سبيل المثال، فإننا لا نعرف كيف نتخيل - ولو لبرهة واحدة - أن نجد مثل ما نجده في سور القرآن الكريم من مشاعر إنسانية مثل حضور روح التفاؤل والاستبشار كما في سورة الفتح، وروح القوة والعنف كما في سورتي التوبة والأنفال، وروح القنوط والاستسلام المحزون كما في كثير من السور المكية الباكرة إن كان الله - كلي القدرة - هو الذي يتكلم ويخاطب بكلامه بشراً من الناس فمن أين إذن يتأتى حضور أمثال تلك المشاعر البشرية الخالصة؟.!

﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ بَلَٰغٌۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ٣٥﴾ [الأَحْقَاف : 35 .

على كل حال فرغم أننا لا نعلم بدقة متى نزلت هاتين السورتان،لكننا نعلم يقيناً أنهما تنزلتا في تلك الفترة الحرجة حيث كان النبي - عليه السلام - يصارع في قلب الإعصار، غير واثق من شيء سوى أنه يعبر عن إرادة الله التي لا يسبر غورها، وأنه لا يرجو لنفسه شيئاً من خلف دعوته سوى ألا يسقط من عين الله الذي اختاره من دون الناس جميعاً ليرسله إلى الخلق برسالته، وأن عليه أن يقتدي بمَن سبقه من الأنبياء الذين لاقوا ضريب ما كان يلاقيه، بل صبروا على أشد منه ؛ لذا نجد الصوت الباطني - كما تعبر عنه تلك الآية السابقة- يترجم لنا عن الصراع الناشب في الذات المحمدية وتوزعها بين الرحمة بقومه وبين الشدة عليهم أو بين الأمل والطمع في إيمان قومه، وبين اليأس

[344]انظر في ظلال القرآن - سيد قطب - ج6 ص 3720

والقنوط من إسلامهم، وسنرى كيف التفت النبي بعد ذلك إلى قصص الأنبياء السابقين، وكيف سيحدق طويلاً في سيرتهم خاصةً بعدما أسعفه مخياله العجيب فيرى وجهه في مرآة وجوههم، وبعد أن يرى أهل عصره من خلف أهل عصورهم .

وعلى هذا فإذا صح ما قرره علماء القرآن بشأن هذه السورة وترتيبها المبكر بين سور القرآن، ونزولها بعد سورة الأعراف - وهي أول سورة ذكرت قصص الأنبياء بشكل واف ومشتملة على جميع خصائص القصص القرآني - فنرجو ألا نبعد عن الصواب إن قلنا أنه من تلك النقطة الصغيرة انطلقت معالم القص القرآني، واستوفي النبي ما جميع يحتاج إليه من افتراض التشابه بين حاله وحال الأنبياء السابقين سواء من جانب العقيدة أو مفردات الواقع الاجتماعي والثقافي.

إذاً هذا هو كل ما نص عليه القرآن من قصة أولئك النفر من الجن الذين استمعوا للنبي يتلو القرآن خالياً، وشرح الله صدورهم للإسلام فآمنوا ثم تولوا إلى قومهم ليهدوهم إلى هدى الله.

ثالثا: تعقيب وقصة !

قبل أن نعرض لقضية التأويل، فلنتوقف برهة لبيان ما أثاره تداخل الأصوات في تلك السورة من التباس عند باحث جليل في علوم القرآن، حيث سنرى كيف اقترب بشدة مما نعتقده الحقيقة، ولكنه حام حولها دون أن يصيبها مباشرة، كما كنا نرجو من باحث مثله، ولعلها خفيت عليه لفرط ذكائه؛ إذ راح يلتمس لتلك القصة المخيالية نسقاً منطقياً أكبر مما يجب أن نتوقعه من تجربة نفسية كانت بكل تلك الشدة، وعلى كل هذا المستوى من التعقيد يقول د.نصر أبو زيد عن تلك القصة وتعدد أصواتها: (ولم يكن القرآن في صياغته للواقع الثقافي بمعزل عن تلك التصورات فقد ذُكر الجن في مواضع كثيرة، وخصص سورة كاملة تنبئ عن تحول في طبيعة الجن وإيمانهم بالإسلام والقرآن بعد أن استمعوا له. والسورة من ناحية أخرى تؤكد ما كان مستقراً في العقل العربي من اتصال الجن بالسماء ومن إمكانية اتصال البشر بالجن ﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ۝٤ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۝٥ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦ وَأَنَّهُمْ ظَنُّواْ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ۝٧ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ۝٩﴾ [الجن : 4-9].

ولكن علينا أن نلاحظ أن النص هنا وهو يصوغ الواقع يصوغه بطريقة بنائية خاصة تعيد تركيبه في نسق جديد، ويكفي أن نلاحظ هنا ذلك التداخل في استخدام الضمائر. وإذا كانت السورة تبدأ بمخاطبة الرسول (قل أوحي إلي أنه ...)، فإن ما يلي ذلك يبدو في المستوى الظاهر حكاية لما قاله الجن بعد أن استمعوا إلى القرآن. ولكننا نلاحظ أن الآية الأولى في الاستشهاد السابق - وهي الآية الرابعة في السورة - تتسق مع ما سبقها من آيات السورة في دلالة الضمائر؛ حيث يشير ضمير المتكلمين فيها كلها إلى الجن وذلك على عكس الآيات التالية لها (الآيات 5-6-7)، حيث نلاحظ أن ضمير المتكلم (نا) في (أنا) وفي (ظننا) من الضروري أن يكون دالاً على متكلم آخر غير الجن إلا إذا اعتبرنا أن الآية تعتمد على التجريد حيث يجرد المتكلم من نفسه شخصاً آخر يشير إليه بإسم أو بضمير الغائب، ولكن هذا الافتراض يعوقه استخدام ضمير الغائب

في (ظنوا) إشارة إلى الإنس، وضمير المخاطب في (ظننتم) إشارة إلى الجن في الآية رقم 7، ومعنى هذا التداخل الدلالي في استخدام الضمائر أن صوت الجن ليس صوتاً مستقلاً في النص فإن صوت المتكلم الأصلي في النص يقطع هذا الصوت بين الحين والآخر بحيث يكون حضور الجن حضوراً مشروطاً. هذا بالإضافة إلى أن بدء السورة بفعل الأمر (قل) والمخاطَب بهذا الفعل محمد، يجعل صوت الجن في مستوى تال لصوت المتكلم الأول (الله) من جهة وصوت المخاطب محمد من جهة ثانية وأخيراً يأتي في المرتبة الثالثة صوت الجن. وفي الآيات التالية يبرز صوت الجن بروزاً واضحاً، **ولكن هذا صوت إسلامي** ثم يخفت ليفسح المجال لصوت المتكلم الأول: ﴿ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوْاْ رَشَدًا ١٤ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ١٥﴾ [الجن : 14-15] وهنا ينتهي صوت الجن تماماً ليبرز الصوت الأول حتى نهاية السورة.[345])

ربما كان فيما قلناه أثناء عرض القصة في السورتين ما يقدم تفسيراً واضحاً لتعدد الأصوات وتداخلها في تلك القصة، وفي سواها من قصص القرآن الكريم، ولكن ربما كان من الضروري أن نشير هنا إلى أن محاولة منطقة المخيال الذاتي هو أمر لا جدوى منه، بل لعله يعقد الصورة ولا يجليها؛ لأن ذاك التداخل الصوتي لا يفسره سوى شيء واحد، وهو أن ندرك وحدة العقل الذي كان يقف من خلف تلك الأصوات المتعددة في ظاهرها، ونعلم بأن الصوت الباطني هو الذي كان يتنقل بخفة وسرعة خاطفة للتعبير عن تزاحم الدلالات في العقل النبوي، ولم يكن يفرق من ثم بين صوت النبي، ولا بين صوت مؤمني الجن؛ إذ كان النبي- كما رأينا - يعبر عن قناعاتهم بصوته، وهم كانوا بدورهم يترجمون عن قناعات النبي بأصواتهم، ولا فارق بينهما وبين الصوت الأساسي الأول في القرآن الكريم كله ؛ أي صوت الله الذي يخاطب نبيه بصيغة: (قُل) حيث نجد باطن النبي العميق يتجلى - أحياناً - عبر عدة أصوات دفعة واحدة - كما في هذه القصة- ، فهو يترجم مرة عن صوت الله الهامس في باطن النبي والذي يأمره وينهاه، ويعبر مرة

(345) انظر- مفهوم النص دراسة في علوم القرآن - د نصر حامد أبو زيد - الهيئة المصرية العامة للكتاب 1993م - ص 39-40

أخرى عن صوت الجن بعدما منحهم النبي صوته وقناعاته الثقافية، ويتخلل هذا وذاك صوت الجن المؤمن، ولكن بعد أن يفصل النبي خطابهم عن الجن الكافر، وليخاطب من خلالهم أهل مكة الجاحدين الكافرين، وهو ما يفسر لنا ببساطة تامة تلك الصيغة المربكة التي جاءت فيها الآية السابعة،

﴿ وَأَنَّهُمْ ظَنُّواْ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ۝٧﴾.

وعلى هذا فمحاولة التعليل المنطقي لتلك التجربة هو أمر عجيب؛ لأنه من الطبيعي أن يترك هذا التداخل الدلالي خلفه أثراً من التناقض اليسير ليشير إلى تلك العملية النفسية المعقدة.

أما ما أسماه - الراحل أبو زيد - بالصوت الإسلامي - فهو كما رأينا عبر صفحات هذا الكتاب كله- أنه أمر طبيعي ولا غرابة فيه، ولعل دهشة الباحث الراحل قد جاءته - فيما يبدو - من إدراكه لمفارقة حداثة إسلام الجن، وعجبه من حضور تلك المفردات الإسلامية، وبتلك السرعة على ألسنتهم، فحار في طبيعة ذلك الصوت الذي توقع منه - فيما يبدو - أن يحمل لقارئ القرآن مضامين مختلفة عن مضامين عالم الإنس وتصوراتهم الثقافية، ولكن هذا الذي توقعه الباحث هو الأمر الذي يستغرب وقوعه؛ فلم يكن صوت الجن سوى صوت النبي نفسه، فمن أين يأتي إذن التباين ؟! وكيف يقع الاختلاف؟!

قصة سحرة فرعون المؤمنين

ولعل أفضل بيان لتلك الدهشة غير المُبررة هو أن نعرض هنا - وباختصار شديد- لقصة قرآنية أخرى ربما تفسر لنا طبيعة هذا الصوت الإسلامي، وتشرح لنا - على أفضل وجه - سرعة تلك النقلة البعيدة من الكفر إلى الإيمان، حيث ينتقل فيها مَن كان كافراً منذ لحظة واحدة إلى مؤمن عظيم الإيمان، وليس هذا فحسب بل سنراه يعرض لمفردات العقيدة الإلهية في الإسلام كاملة بعد أن يجهلها - تماماً - قبل لحظات قليلة من إيمانه الفُجائي.

وقد جاءت هذه القصة - التي خلت منها التوراة - في مواضع كثيرة في القرآن الكريم مما يدل على عظيم احتفاء القرآن بها، وقد حضرت مبكراً أولاً في سورة الأعراف [346].

السحرة في سورة الأعراف

﴿ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرۡعَوۡنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ١١٣ قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ لَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ١١٤ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحۡنُ ٱلۡمُلۡقِينَ ١١٥ قَالَ أَلۡقُواْۖ فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٖ ١١٦ ۞ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَۖ فَإِذَا هِيَ تَلۡقَفُ مَا يَأۡفِكُونَ ١١٧ فَوَقَعَ ٱلۡحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١١٨ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ ١١٩ وَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ١٢٠ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٢١ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ١٢٢ قَالَ فِرۡعَوۡنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكۡرٞ مَّكَرۡتُمُوهُ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لِتُخۡرِجُواْ مِنۡهَآ أَهۡلَهَاۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ١٢٣ لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمۡ أَجۡمَعِينَ ١٢٤ قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ١٢٥ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتۡنَاۚ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ ١٢٦﴾ [الأَعۡرَاف : 113-126] .

---

[346] جاءت تلك القصة - أيضا - بصورة عابرة في سورة يونس، ولكن دونما ذكر لايمان السحرة: الآيات 73- 81

يبدأ هذا المشهد بأن نجد السحرة الطامعين يساومون فرعون على جائزتهم إن هم غلبوا موسى، فيمنيهم فرعون بالأجر الجزيل، بل ويعدهم بأن يجعلهم من خواص حاشيته المقربين، ثم نجدهم يسألون موسى أن يُشرع في عرض سحره أمامهم، أو يدعهم يعرضون مهاراتهم المماثلة لسحرُه، فيأذن لهم موسى أن يقدموا ما لديهم، وكان ما لديهم عظيماً هائلاً حيث جعلوا حبالهم وعُصيهم حيات تسعى ثم ألقى موسى عصاه فانقلبت حية ابتلعت كل ما جاءوا به من السحر: (قَالَ الْمُفَسِّرُونَ: إِنَّ تِلْكَ الْحِبَالَ وَالْعِصِيَّ كَانَتْ حِمْلَ ثَلَاثِمِائَةِ بَعِيرٍ فَلَمَّا ابْتَلَعَهَا ثُعْبَانُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَصَارَتْ عَصًا كَمَا كَانَتْ قَالَ بَعْضُ السَّحَرَةِ لِبَعْضٍ هَذَا خَارِجٌ عَنِ السِّحْرِ بَلْ هُوَ أَمْرٌ إِلَهِيٌّ فَاسْتَدَلُّوا بِهِ عَلَى أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ نَبِيٌّ صَادِقٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَى[347]).

وعلى الفور سجد السحرة خاشعين وأعلنوا إيمانهم بالله رب العالمين، وقد عبر القرآن عن حالهم، وكيف بهتوا فلم يتمالكوا أن ألقوا بأنفسهم ساجدين مع صيغة تعبيرية تدل عن أنهم ألقوا أنفسهم دونما وعى منهم ولا تفكير وكأنما ألقاهم غيرهم!،

(وَأُلْقِيَ السحرة ساجدين) وخروا سجداً لله كأنما ألقاهم ملق لشدة خرورهم أو لم يتمالكوا مما رأوا فكأنهم أُلقوا فكانوا أول النهار كفاراً سحرة وفي آخره شهداء بررة[348]).

ثم سنجد بعد ذلك كيف لن يثنيهم بعد إيمانهم هذا وعيد فرعون بتقطيع أيديهم وأرجلهم من خلاف وصلبهم، بل سنراهم يهتفون مُعلنين إيمانهم بالبعث فقالوا: إنا إلى ربنا راجعون بل ويوبخون فرعون على استنكاره لإيمانهم بعد أن رأوا آيات ربهم سائلين الله الصبر والثبات على الإسلام.

(وَما تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآياتِ رَبِّنا لَمَّا جاءَتْنا أي ما تعيب منا إلا الإيمان بآيات الله. أي وما عبته وأنكرته هو أعظم محاسننا، لأنه خير الأعمال، وأعظم المناقب، فلا نعدل عنه طلبا لمرضاتك رَبَّنا أَفْرِغْ عَلَيْنا صَبْراً أي أفض علينا صبرا واسعاً لنثبت على دينك وَتَوَفَّنا مُسْلِمِينَ أي ثابتين على الإسلام[349].)

---

[347] انظر مفاتيح الغيب - الرازي -ج14ص 337)

[348] تفسير النسفي (مدارك التنزيل وحقائق التأويل) أبو البركات حافظ الدين النسفي - حققه وخرج أحاديثه: يوسف علي بديوي دار الكلم الطيب، بيروت الطبعة: الأولى، 1419 هـ - 1998 م- ج1 ص 594

[349] انظر : محاسن التأويل محمد جمال الدين الحلاق القاسمي- تحقيق محمد باسل عيون السود دار الكتب العلمية - بيروت الطبعة: الأولى - 1418 هـ - ج5 ص 168

ولن نتوقف هنا أمام أي من تلك المفردات العقدية الواضحة؛ لأننا سنراها تتكرر كثيراً في السور اللاحقة بل سنكتفي هنا بإظهار ما كان يقف خلف توبيخهم لفرعون حيث نجد هذا الصوت نفسه في قصة مكية قديمة يأتي تعقيب على قصة أصحاب الأخدود: ﴿ وَمَا نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ۝٨﴾ [البُرُوج : ٨]، وسنجده على لسان المجاهدين من بنى إسرائيل: ﴿ وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٢٥٠﴾ [البَقَرَةِ : ٢٥٠] (وأيضا آل عمران ﴿ وَمَا كَانَ قَوۡلَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝١٤٧﴾ [آل عِمۡرَان : 147]، وسنجده في آخر ما نزل من القرآن على لسان النبي يخاطب أهل الكتاب المتعنين: ﴿ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ هَلۡ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلُ وَأَنَّ أَكۡثَرَكُمۡ فَٰسِقُونَ ۝٥٩﴾ [المَائـِدَة : 59] .

السحرة في سورة الشعراء

﴿ قَالَ فِرۡعَوۡنُ وَمَا رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢٣ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ۝٢٤ قَالَ لِمَنۡ حَوۡلَهُۥٓ أَلَا تَسۡتَمِعُونَ ۝٢٥ قَالَ رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝٢٦ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِيٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ لَمَجۡنُونٞ ۝٢٧ قَالَ رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٢٨ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذۡتَ إِلَٰهًا غَيۡرِي لَأَجۡعَلَنَّكَ مِنَ ٱلۡمَسۡجُونِينَ ۝٢٩ قَالَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكَ بِشَيۡءٖ مُّبِينٖ ۝٣٠ قَالَ فَأۡتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٣١ فَأَلۡقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعۡبَانٞ مُّبِينٞ ۝٣٢ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيۡضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ۝٣٣ قَالَ لِلۡمَلَإِ حَوۡلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٞ ۝٣٤

يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى
ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾
وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ
ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ
ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْاْ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ
فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِىَ
ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ
قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ
أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُواْ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا
مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾﴾ [الشُّعَرَاء : 23-51] .

أما سورة الشعراء فنراها تبدأ بنفس ما بدأت به سورة الأعراف، ولكنها تضيف إليها بعض التفاصيل الزاهية، مثل قسمهم بعزة فرعون، واثقين من فوزهم على دحض سحر موسى بما سيلقونه من حبال وعصي، وستخبرنا السورة الثالثة أنها تحولت إلى حيات تسعى لتشابه ما أعطاه الله لموسى من معجزة غريبة لإقناع قوم متحضرين، مما يدل على رسوخ السحر عند المصريين كما شاع بين كتبة العهد القديم - وتابعهم القرآن على ذلك-، ولكن عصا موسى تبتلع ما جاءوا به فيسجد السجرة - كالسابق - معلنين إيمانهم بالله رب العالمين، وعندما يهددهم فرعون بذات ما توعدهم بالله في السورة السابقة فقد أجابوه بأن لا بأس ولا ضير، معلنين توقهم لأن يغفر لهم الله ما أسلفوه من خطايا ويطمعهم في هذا الغفران السابغ سبقهم للإيمان .

السحرة في سورة طه

﴿ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا
وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ
ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟
عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟
ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا
بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾ قَالُوا۟
يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ
يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ
أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ
حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ
أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ
خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ
عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ
ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ
وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ
مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا
ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾ ﴾ [طه : 57-76] .

أما سورة طه فهي الرواية الأوفى،حيث نراها تأتي على مثل ما سبق، ولكنها تضيف لنا العجب العُجاب على لسان السحرة المؤمنين حيث سيأتون على تفاصيل العقيدة الإسلامية كلها، دقيقها وكبيرها كما لو كانوا يتلقون العلم الديني على يد موسى منذ وقت طويل.

فهي أولاً تنص على إعلانهم بالله الذي فطر الإنسان مثلما جاء على لسان هود: ﴿ يَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ [هُود : 51]، ومثلما جاء على لسان مؤمن آل فرعون ﴿وَمَالِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [يس : 22]، ومع ما جاء على لسان إبراهيم ﴿ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهۡدِينِ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الزُّخۡرُف : 27].

وهي تصغر من شأن فرعون بأن تجعلهم يجبهونه بأنه لا يقضي إلا هنا في هذه الحياة الفانية، وهي تعلن بأن ما عند الله خير وأبقى ثم تأتي على تفصيلات عقيدة البعث في الإسلام فتجعل من جهنم مثوى لمَن جاء ربه مجرماً حيث يبقى فيها فلا يموت فيستريح ولا يحيا فيهنأ كما يسعد المؤمنون بل يعذب الخاطئون فيها إلى أبد الأبيد مثلما جاء في سورة الأعلى: ﴿ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلۡأَشۡقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِي يَصۡلَى ٱلنَّارَ ٱلۡكُبۡرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ ﴿١٣﴾ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ ﴾ [الأَعۡلَى : 11-14].

﴿ إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنۡهُمۡ وَهُمۡ فِيهِ مُبۡلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوۡاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقۡضِ عَلَيۡنَا رَبُّكَۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [الزُّخۡرُف : 74-77] .

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي كُلَّ كَفُورٖ ﴿٣٦﴾ ﴾ [فَاطِر : 36] .

وأما جزاء الصالحين فهي الدرجات العُلا في الجنة حيث الجنات التي تجري من تحتها الأنهار خالداً فيها جزاء صلاحه وتقواه، وحيث نجد الجمع بين الإيمان والعمل الصالح معاً، وهو قوام النجاة في العقيدة الإسلامية حيث يحضران معا ولا ينفك أحدهما عن الآخر.

ومن المعلوم أن تلك القصة ـ التي خلت منها التوراة كما سبق وقلنا ـ ما كان لها أن تقع في زمن موسى فلم يكن موسى يعرف شيئاً عن الدار الآخرة أصلاً، فضلاً أن تكون عقيدته الأخروية تشتمل على شيء من تلك التفصيلات التي لن تعرف بعضها العقيدة اليهودية إلا قبيل المسيح بزمن قصير، ناهيك عن مفهوم الله رب العالمين الذي لم تعرفه الديانة اليهودية أبداً على هذا النحو الحاسم الذي جاء به الإسلام: (وأسفار موسى الخمسة تبدأ بخلق العالم، وذلك مباشرة عقب ـ كذا في الأصل !ـ تأتينا إلى السقوط في الخطيئة، حيث نتناول طبيعة الإنسان كإنسان، وهذا العنصر الكلي يمثل في خلق العالم، وعقب سقوط الإنسان في الخطيئة، وهو الإنسان في طابعه الفطري. وهذه أفكار ليس لها أي تأثير على الشكل الذي اتخذته الديانة اليهودية بعد ذلك. ليس لدينا إلا هذه النبوة، العنصر الكلي والذي فيه لم يصبح حقيقة الشعب اليهودي. إن الإله هو وحسب إله هذا الشعب، وليس الله رب الناس، وإن هذا الشعب الإسرائيلي هو شعب الإله[350]).

وأما عن مفردات البيئة المادية فنجد الصَلب على جذوع النخل دون سواه من الشجر، مثلما نجده في قصة مريم ومخاضها ويفسره ببساطة أن تطفو المفردات المحلية على ذهن النبي دون سواها. وحيث نجد تقطيع الأيدي والأرجل من خلاف وهي عقوبة بالغة الشدة شرعها الإسلام لعقاب البغاة على ما جاء في سورة المائدة : ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ

---

(350)- انظر محاضرات في فلسفة الدين ـ الديانة الروحية ـ فريدريك هيجل- ترجمة د مجاهد عبد المنعم مجاهد ـ دار الكلمة -القاهرة 2003م ـ ص 99-100

عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾ [المَائِـدَة : 33]، : (قيل إنه أول من سن ذلك للقطاع تعظيماً لجرمهم ولذلك سماه محاربة لله ورسوله ولكن على التعاقب لفرط رحمته[351]).

﴿ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾﴾ [طه : 73] .

أما أعجب ما جاء في تلك القصة فهو ما أورده القرآن على ألسنة السحرة يخاطبون فرعون فيقولون بأنهم كانوا مكرهين مرغمين على ما قاموا به من السحر؟! وهو أمر غريب وغير مفهوم، ولا يتوافق مع ما أورده القرآن على ألسنة هؤلاء السحرة أنفسهم سواء بما ساقه من قسمهم بعزة فرعون، وهو ما لا يتوقع أن يأتي مثله طواعية من مرغم مغلوب على أمره، أو من تطلُعهم للأجر والمكافأة، وذلك قبل دقائق قليلة من إيمانهم الفجائي فأين كان ذلك الإكراه؟ !

وقد حاول المفسرون أن يقدموا تأويلاً مقنعاً فلم يجدوا سوى أمثال تلك التفسيرات التي سنقدم من بينها مثالاً واحداً للقدماء، وآخر من كتب المفسرين المحدثين: (فَإِنْ قِيلَ: كَيْفَ قَالُوا هَذَا، وَقَدْ جَاءُوا مُخْتَارِينَ يَحْلِفُونَ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ أَنَّ لَهُمُ الْغَلَبَةَ؟. قِيلَ: رُوِيَ عَنِ الْحَسَنِ أَنَّهُ قَالَ: كَانَ فِرْعَونُ يُكْرِهُ قَوْمًا عَلَى تَعَلُّمِ السِّحْرِ لِكَيْلَا يَذْهَبَ أَصْلُهُ، وَقَدْ كَانَ أَكْرَهَهُمْ فِي الِابْتِدَاءِ. وَقَالَ مُقَاتِلٌ: كَانَتِ السَّحَرَةُ اثْنَيْنِ وَسَبْعِينَ، اثْنَانِ مِنَ الْقِبْطِ وَسَبْعُونَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، كَانَ فِرْعَوْنُ أَكْرَهَ الَّذِينَ هُمْ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى تَعَلُّمِ السِّحْرِ، فَذَلِكَ قَوْلُهُمْ: (وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ (وَقَالَ عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ أَبَانَ: قَالَتِ السَّحَرَةُ لِفِرْعَوْنَ: أَرِنَا مُوسَى إِذَا نَامَ، فَأَرَاهُمْ مُوسَى نَائِمًا وَعَصَاهُ تَحْرُسُهُ، فَقَالُوا لِفِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَيْسَ بِسَاحِرٍ، إِنَّ السَّاحِرَ إِذَا نَامَ بَطَلَ سِحْرُهُ، فَأَبَى عَلَيْهِمْ إِلَّا أَنْ يَتَعَلَّمُوا، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى:(وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ[352]، : (وَلِلْعُلَمَاءِ عَنْ هَذَا السُّؤَالِ أَجْوِبَةٌ مَعْرُوفَةٌ: (مِنْهَا) : أَنَّهُ أَكْرَهَهُمْ عَلَى الشُّخُوصِ مِنْ أَمَاكِنِهِمْ لِيُعَارِضُوا مُوسَى بِسِحْرِهِمْ، فَلَمَّا أُكْرِهُوا عَلَى الْقُدُومِ وَأُمِرُوا بِالسِّحْرِ أَتَوْهُ طَائِعِينَ، فَإِكْرَاهُهُمْ بِالنِّسْبَةِ إِلَى أَوَّلِ الْأَمْرِ، وَطَوْعُهُمْ بِالنِّسْبَةِ إِلَى

---

(351) أنظر : تفسير البيضاوي المسمى - أنوار التنزيل وأسرار التأويل - تحقيق محمد عبد الرحمن المرعشلي - دار إحياء التراث العربي بيروت - الطبعة الأولى 1818 ه - ج3 ص 29

(352) (انظر : تفسير البغوي المسمى معالم التنزيل في تفسير القرآن - الحسين بن مسعود البغوي - تحقيق محمد عبد الله النمر وآخرون - دار طيبة للنشر والتوزيع - الطبعة الرابعة 1997م ج5 ص 285-

آخِرِ الْأَمْرِ، فَانْفَكَّتَ الْجِهَةُ وَبِذَلِكَ يَنْتَفِي التَّعَارُضُ، وَيَدُلُّ لِهَذَا قَوْلُهُ: وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِين (وَقَوْلُهُ: وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ))وَمِنْهَا) : أَنَّهُ كَانَ يُكْرِهُهُمْ عَلَى تَعْلِيمِ أَوْلَادِهِمُ السِّحْرَ فِي حَالِ صِغَرِهِمْ، وَأَنَّ ذَلِكَ هُوَ مُرَادُهُمْ بِإِكْرَاهِهِمْ عَلَى السِّحْرِ. وَلَا يُنَافِي ذَلِكَ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا فَعَلُوا مِنَ السِّحْرِ بَعْدَ تَعَلُّمِهِمْ وَكِبَرِهِمْ طَائِعِينَ.)وَمِنْهَا) : أَنَّهُمْ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ: أَرِنَا مُوسَى نَائِمًا: فَفَعَلَ فَوَجَدُوهُ قُرْبَ عَصَاهُ، فَقَالُوا: مَا هَذَا بِسِحْرِ السَّاحِرِ! لِأَنَّ السَّاحِرَ إِذَا نَامَ بَطَلَ سِحْرُهُ. فَأَبَى إِلَّا أَنْ يُعَارِضُوهُ، وَأَلْزَمَهُمْ بِذَلِكَ. فَلَمَّا لَمْ يَجِدُوا بُدًّا مِنْ ذَلِكَ فَعَلُوهُ طَائِعِينَ. وَأَظْهَرُهَا عِنْدِي الْأَوَّلُ، وَالْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى.[353])

وكما ترى فقد أطبق المفسرون القدامى والمحدثون على تقديم تأويل بالغ الضعف لمعنى الإكراه، ولا نظن أن لفظة (حاشرين) تدل على الإكراه في شيء، بل تدل على حشد جميع السحرة الماهرين في البلاد كلها دون أن يغادر منهم أحداً: (الفرق بين الحشر والجمع: أن الحشر هو الجمع مع السوق، والشاهد قوله تعالى:
"وابعث في المدائن حاشرين " أي ابعث من يجمع السحرة ويسوقهم إليك، ومنه يوم الحشر لأن الخلق يجمعون فيه ويساقون إلى الموقف[354]).

ومن ناحية أخرى فلا ندري لماذا يزهد السحرة في أن يعرضوا مهارتهم أمام فرعون حتى يرغمهم على ذلك، مع ما علمناه من حرصهم على إظهار ولائهم لفرعون وقسمهم بعزته ؟..!

وأمام هذا الغموض فلم يجد المفسرون سوى قصة مختلقة لم يثبتها القرآن الكريم، ولم تأتِ على ذكرها الأحاديث الصحيحة - أو حتى الضعيفة الواهنة -، من أن فرعون قد أرغم طائفة من بني إسرائيل على تعلم السحر، ونحن لا نجد في السياق القرآني ما يعضد تلك القصة المسفة، فقد جاء في القرآن على لسان ملأ فرعون يأتهم بكل سحار عليم، فقد كانوا إذن نخبة من السحرة المشهورين بتضلعهم في السحر وهو ما يتوافق مع الاعتقاد الشائع بأن معجزة كل نبي فيما برع فيه قومه أو المخاطبون بدعوته [355].

---

[353] (انظر: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن- محمد الأمين الشنقيطي - دار الطباعة للفكر والنشر والتوزيع - بيروت لبنان 1995م - ج4 ص 66

[354] الفروق اللغوية - أبو هلال الحسن العسكري - تحقيق محمد إبراهيم سليم - دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة – مصر- ص 144

[355] وهو اعتقاد غير خاطئ تماما فقد حظي السحر باحترام المصريين وتقديرهم لأصحابه : (ويقابل التقدير العام الذي حظى به السحر، أن القيام به لم يكن من شأن الأفراد، وإنما كان له ممثلوه الأخصاء ؛ وهؤلاء هم الكهنة (الخرحب)(كتبة كتاب الإله) وكان يشغل أعلى وظائفهم في الدولة القديمة أبناء الملك بالذات، وتحدثنا مجموعة طريفة من القصص

ولا نجد - أيضاً - ما يشير إلى ضرورة أن يعُد فرعون هذه العُدة من تجهيز السحر، وإعدادهم لمثل هذا الموقف كما زعم بعض المفسرين، فقد كان رجوع موسى بآياته السحرية العجيبة أمراً مفاجئاً لفرعون، فكيف يعد فرعون سحرته قبل أن يعلم شيئا عن طبيعة ما جاء به موسى؟!

وعلى الجملة فقد كان ما جاء به المفسرون أمراً ضعيفاً ومخرجاً لا معنى له، بل اضطرهم إليه ما جاء على لسان هؤلاء السحرة فوجدوا في تلك القصة المختلقة مخرجا وكفى..

أما ما نعتقده من تفسير هذا الاختلاف فنحدس بأننا أمام خليط مضطرب من روايتين تلموديتين مختلفتين، حرت أولهما على بيان الحماسة الداخلية للسحرة المصريين وقناعتهم الذاتية، ورغبتهم الحارة في نصرة سيد البلاد أمام سحر العبراني الدخيل، وهي الرواية التي يتوقع منها أن يُقسِم فيها السحرة بعزة فرعون أنهم الغالبون، وأما الرواية الأخرى فجعلت منهم مجرد سحرة مأجورين حشدوا بالترغيب والترهيب، وهي الرواية التي يتناسب معها أن يستوثق السحرة من جوائزهم قبل مواجهة موسى، ولكن القرآن الكريم قد جمعهما في رواية واحدة مستبقياً على ما يشير إلى تنافرهما واختلافهما.

ولعل هذا الأساس السماعي - الذي افترضناه - هو ما يفسر لنا سهولة أن نجد كل تلك المفردات الدينية التفصيلية التي سنجدها كذلك على ألسنة أولئك النفر من الجن الذين أسلموا فنطقوا فور إيمانهم بتلك العقيدة وتفاصيلها الدقيقة، والتي لا يعقل أن تعرف عبر سماع عابر، بل لا يسهل تصورها إلا مخالطة طويلة.

وعلى هذا فإذا أمكن القول بأن تشابه أقوال الأنبياء في القرآن الكريم مما يصح رده إلى اعتقاد النبي في وحدة العقيدة الإلهية عبر العصور فإن هاتين القصتين يجمعها ملمح إضافي آخر وهو مقام التعبير عن الإيمان الفجائي بعد الإنكار العنيف، ورغم ذلك فقد وجدناهما كذلك يعبران عن ذات العقيدة الدينية ؛ وذلك لسبب واضح وهو أن السحرة المصريين إنما كانوا يترجمون عن عقيدة موسى - كما ظنها النبي-، والجن العربي كانوا يترجمون - أيضاً - عن عقيدة النبي محمد، والذي ظن أنه كان يتابع فيها موسى

من الدولة الوسطى كيف كانوا يستخدمون فنهم كذلك لأغراض دنيوية) ديانة مصر القديمة - أدولف إرمان - ترجمة د عبد المنعم أبو بكر - د محمد أنور شكري - الهيئة المصرية العامة للكتاب - 1997م - ص 343- 344

وسواه من الأنبياء الأقدمين مما يقطع بأن الصوتين كانا يعبران عن عقل واحد، وذلك من خلال تنويعة قصصية لصوت تقي مهيب يتردد عبر القرآن الكريم كله، وليعبر دوماً عن قناعات النبي محمد وتصوراته الدينية - لا فرق في هذا بين سحرة ينتمون لعالم الإنس، وقد عاشوا وماتوا قبل مبعث النبي محمد بألفي عام، أو بين جماعة من الجن عاصروا النبي وسمعوه وهو يتلوا سورة ما من سور القرآن الكريم[356] .

[356] ويمكن لمن شاء أن يقرأ قصة أهل الكهف مثلما جاءت في القرآن الكريم من ذات الجانب رغم ما نعرفه أن لها أساسا سماعيا من التراث المسيحي، لكنك ستجد أن الصبغة المحمدية لأبطالها وأجوائها الثقافية وأغراضها لن تخرج عن هذا، رغم بعض الملامح التي لونها الأصل القديم للقصة ولا ندرى كيف كانت صورتها عندما بلغت النبي، ولكنها على كل حال صارت بسبب هذه الأسلمة إلى ما صارت إليه، وقل مثل ذلك في قصة أهل القرية التي جاءت في سورة يس

المبحث الثالث

هل يفلح التأويل ؟ !

أمام ما شاهدناه من هذا التراث القرآني والحديثي الشاسع، والذي يضم - كما رأينا - المعقول وغير المعقول، فقد انقسم المسلمون - ومنذ زمن البعثة النبوية - إلى فريقين أساسيين تشبث أولهما بفهم تلك النصوص وفق ما يدل عليه ظاهر معناها ولنسمهم إجمالاً: بأهل الحرف، وبين من حاول منهم أن يجد سبيلاً للتحرر من بعض المضامين التي لم يسيغوا قبولها ؛ لأنها تخالف العقل، وذلك عبر رد بعض الأحاديث المثيرة للجدل - إن استطاعوا إلى ذلك سبيلاً -، ومرة أخرى عبر تأويلها وتأويل آيات القرآن الكريم ولنسمهم إجمالاً : بأهل المعنى.

وإذا كانت كل الصفحات السابقة - في جملتها - عرضاً لآراء الحرفيين ممَن قبلوا ظاهر النصوص القرآنية والحديثية - كما فهمها عامة القدماء - فلربما يقتضي الإنصاف أن نعرض - بإيجاز شديد - لآراء طائفة أخرى من علماء المسلمين ممَن وقفوا موقفاً مختلفاً من بعض النصوص القرآنية والحديثية، لنرى جدوى تلك المحاولة، ولن نتوقف من بين جميع التأويلات سوى ما نجده يتصل مباشرة بهذا الفصل.

ولكن وقبل أن نورد بعض النماذج القليلة للمؤولين للنصوص القرآنية والحديثية، فلنقدم - أولاً - كلمة مختصرة - وفي حدود ما لا يستغنى عن معرفته - عن قضية التأويل ومشاكله.

اولا: التأويل.

(لو سمعتُ الأعمش يقول هذا لكذَّبتُه، ولو سمعتُه من زيد بن وهب لما صدَّقته، ولو سمعت ابن مسعود يقوله ما قبِلْته، ولو سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول هذا لردَدْتُه، ولو سمعت الله يقول هذا لقلت: ليس على هذا أخذتَ ميثاقنا[357]).

كان مضمون القرآن الكريم - بشكل عام - مناسباً لعقلية العرب في زمن تنزله، فلم يجد المخاطبون الأولون في القرآن كثيراً مما لا تقبله عقولهم، أو يخالف ما شاع في بيئتهم من مفاهيم اجتماعية أو ثقافية أو دينية - أيضاً - خاصة مما شاع من تلك الأخيرة بين أهل الكتاب ؛ ولذلك فلم يجدوا - في البداية - ضرورة للتأويل إلا فيما وجدوه يوحي بالتعارض بين بعض آيات القرآن نفسه، مثلما نجده من تجاور آيات التنزيه الجليل التي تثبتها بعض آيات القرآن وأحاديث النبي، وبين بعض مظاهر التجسيم الغليظ التي توحي بها آيات قرآنية وحديثية أخرى ؛ ولذلك نجد بأول ظهور للتأويل في عالم الإسلام كان يتعلق أساساً بتلك القضية الأساسية، والتي اصطلح على تسميتها في كتب العقيدة وعلم الكلام (بقضية الذات والصفات) حيث قبلها عموم المسلمين الأوليين على حرفتيها، وأوكلوا علمها إلى الله، فأثبتوا ما أثبته الله لنفسه، أو أثبته له رسوله من جميع الأسماء، والصفات، ومعانيها، وأحكامها الواردة في الكتاب والسنة على وجه يليق بالله، من غير نفي لشيء منها، ولا تعطيل، ولا تحريف، ولا تمثيل. وبعد هذا التنزيه - الإجمالي - فقد انطلقوا بحرية تامة وقالوا: أن لله عيناً، ويداً يمنى، وقبضة، وأصابع وساقاً ورجلاً وما إلى ذلك من مظاهر التجسيم الغشوم، وأثبتوا لله - أيضا - ظاهر ما جاءت به الآيات القرآنية والأحاديث النبوية مما يشبه العوارض البشرية - فالله عندهم يفرح ويغضب ويعجب وينظر ويغار ويستحي ويتردد الخ، ولكنهم حملوا كل ذلك على نحو تنزيهي

---

(357) قول شهير لعمرو بن عبيد المعتزلي يعلق على حديث رواه الأعمش بإسناده عن ابن مسعود، وهو حديث: (إن أحدَكم يُجمَع خلقُه في بطن أمه أربعين يومًا، ثم يكون علقة...) انظر قوله في - ميزان الاعتدال في نقد الرجال - الذهبي - تحقيق محمد علي البجاوي - ج3- دار المعرفة بيروت- لبنان - ص (278)،وهذا القول العنيف ربما يعبر عن أقصى ما ذهب إليه أهل الاعتزال من وجوب تحكيم العقل في النصوص الدينية - وهذا طبعا لو صدقنا صحة ثبوت هذا القول الشاطح الذي نقله الذهبي عن ابن عبيد - فقد كان الحافظ الذهبي - على أمانته- شديد القسوة على مخالفيه من المتكلمين والصوفية والشيعة (انظر رأيه في الجاحظ (السابق ص247) ولكن الذهبي كان أهون من غيره من أهل الحديث فقد نقل الذهبي عن يحيي بن معين قوله : (كان عمرو بن عبيد رجل سوء من الدهرية . قلت وما الدهرية ؟ قال : الذين يقولون لا شيء، إنما الناس مثل الزرع، وكان يرى السيف وعقب الذهبي على هذا القول (لعن الله الدهرية فإنهم كفار وما كان عمرو هكذا .)(السابق ص 280)

يخالف ما يتبادر إلى الذهن من صفات المخلوقات[358]. وعلى هذا النهج ذاته استمسك أصحاب مدرسة أهل الحديث وأتباعهم إلى يومنا هذا مثلما يقول بهذا أحد المحدثين: (كان الصحابة - ومن بعدهم ممن لم يتحكك بالبدع - يعلمون حق العلم أنه لا سبيل للعقل إلى تصور يد الله عز وجل ولا سبيل للعقل أن يدرك أنه سبحانه ليس له يد تليق به، فلما أخبرهم الله ورسوله بأن لله يداً آمنوا وصدقوا، فليس في تلك النصوص بحمد الله عز وجل لا كذب ولا إضلال وليس في عقيدة السلف جهل ولا ضلال [359]).

وأما الاتجاه الآخر فقد نفي ظاهر دلالة أمثال تلك الآيات التي سيفضي قبول ظاهرها إلى التجسيم، وحملوا معناها على نحو قريب مما تحتمله العربية من دلالات تنزيهيه راقية، ففسروا - مثلاً - معنى (يد الله فوق أيديهم) بمعونة الله ونصرته ونعمته، وقُل مثل ذلك عما جاء في القرآن عن مجيء الله وتنزله، واستواءُه على العرش فقالوا: بأن الاستواء هو الاستيلاء وأشباه ذلك من مفاهيم وهذا - ببساطة - هو التأويل[360].

---

(358) انظر - أسماء الله وصفاته -الحافظ أبو بكر أحمد البيهقي - حققه وعلق عليه محمد محب الدين أبو زيد مكتبة التوعية الإسلامية - دار الشهداء القاهرة - الجزء الثاني ص 730 وما بعدها)

(359) رسالة في حقيقة التأويل - الشيخ عبد الرحمن بن يحيي المعلمي - تحقيق جرير العربي الجزائري - دار أطلس الخضراء للنشر والتوزيع الرياض دمشق - الطبعة الأولى -2005م ص73)

(360) واليك بعض الأمثلة للمؤولين على اختلاف مذاهبهم وسنقدم هنا مثلا لطائفة الأشعرية سنعقبه مثال للمعتزلة وأخيرا مثال لأهل التصوف والعرفان

(وقوله - عَزَّ وَجَلَّ -: (يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ) قَالَ بَعْضُهُمْ: يد اللَّه في جزاء المبايعة فوق أيديهم في المبايعة؛ أو كلام نحوه. وجائز أن يكون قوله (يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ) أي: يد اللَّه في الجزاء إذا وفوا بالعهد فوق أيديهم عند رسول اللَّه - صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ -؛ لأنه لما بايعوا رسول اللَّه - صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ - كانت لهم عنده يد، فيخبر أن جزاء اللَّه الذي يجزيهم بوفاء تلك المبايعة فوق أيديهم التي عند رسول اللَّه - صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ.- ويحتمل أن يكون ما ذكر من يد اللَّه وإضافتها إليه يريد بها رسول اللَّه - صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ - كأنه يقول: يد رسول اللَّه - صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ - عندكم فيما بايعكم فوق أيديكم عنده؛ لما يحتمل أن يقع عندهم أن يكون لهم يد عند رسول اللَّه - صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ - بما بايعوه؛ كقوله - تعالى -: (يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا. . .) الآية؛ فيخبر أن يد رسول اللَّه - صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ - فوق أيديكم عنده بالمبايعة التي بايعتم، واللَّه أعلم.

ويحتمل: أي: يد رسول اللَّه - صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ - بالمد والبسط بالمبايعة فوق أيديهم، واللَّه أعلم.

ويحتمل قوله: (يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ) أي: توفيق اللَّه - تعالى - إياكم ومعونته على مبايعتكم رسوله فوق وخير من وفائكم ببيعته وعهده، واللَّه أعلم.

وجائز أن يكون قوله: (يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ) أي: يد اللَّه في النصر لرسوله فوق أيديهم؛ كقوله - تعالى - (وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ)، حقيقة النصر إنما يكون باللَّه تعالى، ولا قوة إلا باللَّه.)(أنظر تفسير الماتريدي (تأويلات أهل السنة) أبو منصور الماتريدي- تحقيق د. مجدي باسلوم - دار الكتب العلمية - بيروت، لبنان الطبعة: الأولى، 1426 هـ - 2005 -ج 9 ص ص299)

(لما قال إِنَّما يُبايِعُونَ اللَّهَ أكده تأكيدا على طريق التخييل فقال يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ يريد أن يد رسول الله التي تعلو أيدى المبايعين: هي يد الله، والله تعالى منزه عن الجوارح وعن صفات الأجسام، وإنما المعنى: تقرير أن عقد الميثاق مع الرسول كعقده مع الله من غير تفاوت بينهما، كقوله تعالى مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطاعَ اللَّهَ والمراد: بيعة الرضوان فَإِنَّما

ما التأويل؟

(التأويل في الأصل الترجيع، وفي الشرع: صرف اللفظ عن معناه الظاهر إلى معنى يحتمله إذا كان هو المحتمل الذي يراه موافقاً للكتاب والسنة مثل قول الله تعالى: ﴿يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ ۝٣١﴾ [يُونُس : ٣١] إن أراد به: إخراج الطير من البيضة كان تفسيراً. وإن أراد إخراج المؤمن من الكافر أو العالم من الجاهل كان تأويلاً[361])

والتأويل عند علماء اللاهوت المسيحي هو: (تفسير الكتب المقدسة تفسيراً لفظياً أو مجازياً يكشف عن معانيها الخفية ... وإذا كانت الشريعة كما يقول بعضهم مشتملة على ظاهر وباطن لاختلاف فطر الناس وتباين قرائحهم في التصديق كان لا بد من إخراج النص من دلالته الظاهرية إلى دلالته الباطنية بطريق التأويل. فالظاهر هو الصور والأمثال المضروبة للمعاني، والباطن هو المعاني الخفية التي لا تنجلي إلا لأهل البرهان. والتأويل هو الطريقة المؤدية إلى رفع التعارض بين ظاهر الأقاويل وباطنها [362]).

حدود التأويل بين السعة والضيق

أما عن ضوابط التأويل فنجد علماء الشريعة وعلماء الأصول يشترطون لسلامة التأويل أن يأتي مقترناً بقيدين أساسيين أولهما: أن يكون متوافقاً مع مقتضيات العربية في الاستعمال وثانيهما: أن يكون متوافقاً مع مجمل معالم الشريعة فلا يتقاطع مع أصولها الثابتة والتي هي أركان الدين.

يَنْكُثُ عَلى نَفْسِهِ فلا يعود ضرر نكثه إلا عليه.)(انظر ج4ص 335- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل- جار الله الزمخشري - دار الكتاب العربي - بيروت الطبعة: الثالثة - 1407 هـ)

(إذا تجاوزنا مصطلح المجاز، وهذه العلاقات المتشابكة التي يقيم ابن عربي تأويله على أساسها وجدناه يستخدم مصطلح (الاستعارة) لتأويل نسبة الأيدي إلى الله . وهو لا يؤول الأيدي بالقدرة أو النعمة كما درج على ذلك المتكلمون، بل يرى أن (نسبة الأيدي إلى الله استعارة لحقائق أنوار علوية يظهر عنها تصرفه وبطشه بدءا وإعادة، وتكون تلك الأنوار متفاوتة في نور القرب، وعلى حسب تفاوتها وسعة دوائرها تكون رتبة التخصيص لما ظهر عنها ..)(انظر تفرقة ابن عربي لما جاء عن نسبة اليدين إلى الله سواء في القرآن أو في الأحاديث النبوية حيث سيمنح تفسيرا مختلفا لكل سياق - ص390-391- فلسفة التأويل - دراسة في تأويل القرآن عند محي الدين بن عربي - د نصر حامد أبو زيد - دار التنوير للطباعة والنشر - بيروت لبنان - الطبعة الأولى - 1983م -)

(361) معجم التعريفات - الجرجاني - تحقيق ودراسة محمد صديق المنشاوي دار الفضيلة - القاهرة - ص46) هذا التفسير خطأ في حد ذاته فليست البيضة بالكائن الميت، بل هي كائن حي مع ما يراه الناس من أنها ماد جامدة لا حياة فيها !!

(362) د- جميل صليبا - المعجم الفلسفي - ج1- ص234- دار الكتاب اللبناني 1982م-)

أما فلاسفة الإسلام والصوفية الفلسفيون من بعدهم، فقد أوسعوا فضاء التأويل قليلاً، خاصةً فيما يتعلق بالقسم الثاني أي : الأصول الثابتة فنجد- على سبيل المثال- ابن رشد يقرر الشرط الأول فيقول أن التأويل هو:" إخراج دلالة اللفظ من الدلالة الحقيقية إلى الدلالة المجازية من غير أن يخل في ذلك بعادة لسان العرب في التجوز من تسمية الشيء بشبيهه أو بسببه أو لاحقة أو مقارنة أو غير ذلك من الأشياء التي عددت في تعريف أصناف الكلام المجازي، " ثم يضيف ابن رشد بعد ذلك شرطاً مزدوجاً وهو أن يقوم بالتأويل مَن هو أهل له وفي حدود مبادئ الشريعة فيقول:(وبالجملة فالخطأ في الشرع على ضربين: أما خطأ يُعذَر فيه مَن هو من أهل النظر في ذلك الشيء الذي وقع فيه الخطأ - كما يعذر الطبيب الماهر إذا أخطأ في صناعة الطب والحاكم الماهر إذا أخطأ في الحكم ولا يُعذَر فيه مَن ليس من أهل ذلك الشأن وأما خطأ ليس يعذر فيه أحد من الناس، بل إن وقع في مبادئ الشريعة فهو كفر وإن وقع فيما بعد المبادئ فهو بدعة[363]).

ومن المعروف أن أصول الشرع عند ابن رشد وعند كثير من فلاسفة الإسلام هي ثلاثة أصول فقط، وهي: الإقرار بوجود الله والإقرار بالنبوات والإقرار بالسعادة والشقاء الأخرويين[364] ، وهي أقل كثيراً مما جعله أهل الشرع من بين أصول الشريعة[365].

وجعل ابن رشد التأويل يتفاوت حكمه بين الواجب أو الكفر أو البدعة فيقول: (وإذا تقرر هذا فقد ظهر لك من قولنا إن ها هنا ظاهراً من الشرع لا يجوز تأويله، فإن كان تأويله في المبادئ فهو كفر، وإن كان فيما بعد المبادئ فهو بدعة، وهاهنا - أيضا - ظاهر يجب على أهل البرهان تأويله وحملهم إياه على ظاهره كفر. وتأويل غير أهل البرهان له وإخراجه عن ظاهره كفر في حقهم أو بدعة [366].)

[363] فصل المقال - ابن رشد القرطبي - دار المشرق بيروت لبنان - قدم له وعلق عليه د ألبير نصري نادر - الطبعة الثانية -ص44

[364] (فصل المقال ص44)

[365] حيث نجد عندهم وجوب الإيمان بالملائكة والجن والقضاء والقدر والمعراج والشفاعة وعصمة الأنبياء وعذاب القبر ونعيمه وسؤال منكر ونكير ووجوب الإمامة، وعدم جواز الخروج عليهم وعلامات الساعة الخ، وستطول القائمة أكثر فأكثر عند علماء أهل الحديث المتأخرين انظر على سبيل المثال كتاب أصول الدين جمال الدين أحمد بن محمد الغزنوي الحنفي - تحقيق وتعليق عمر وفيق الداعوق - دار البشائر الإسلامية - الطبعة الأولى - 1998م - بيروت لبنان

[366] (فصل المقال ص 46

ويُضيف ابن رشد بعد ذلك شرطاً جديداً - لا يتعلق بعملية التأويل ذاتها، بل يتعلق بالمخاطب به -، وهو أن يكون التأويل حاضراً كتب في البرهان فقط، فلا يبيح أن يطالعه الذين تكفيهم الحجة الخطابية؛ وهم ما يسميهم بعوام الناس فيقول: (وأما المصرح بهذه التأويلات لغير أهلها فكافر لمكان دعائه الناس إلى الكفر. وهو ضد دعوى الشارع وبخاصة متى كانت تأويلات فاسدة في أصول الشريعة كما عرض ذلك لقوم من أهل زماننا[367]) .

وكما ترى فقد أوسع ابن رشد من حدود التأويل، ولكنه يفرق - في النهاية - وبوضوح تام أن هناك تأويلاً صحيحاً معقولاً صحيحاً، وهناك ضرب فاسد من التأويل، ربما يعذر صاحبه عندما يستوفي شروطه لكنه مخطئ مأجور على كل حال. ثم كثرت بعد ذلك في كتب الأصوليين المتأخرين الضوابط الحاكمة للتأويل خاصةً بعدما فشت في عالم الإسلام التفسيرات الباطنية للنصوص الدينية، وقد دعا هذا أصولياً كبيراً مثل الإمام الشاطبي أن يقرر شرطين لصحة التأويل فيقول: (وكون الباطن هو المُراد من الخطاب قد ظهر - أيضاً - مما تقدم في المسألة قبلها، ولكن يُشترط فيه شرطان: أحدهما: أن يصح على مقتضى الظاهر المقرر في لسان العرب ويجري على المقاصد العربية والثاني: أن يكون له شاهد نصاً أو ظاهراً في محل آخر يشهد لصحته من غير معارض.).. ويشرح الشاطبي الشرط الثاني بقوله: (وأما الثاني فلأنه إن لم يكن له شاهد في محل آخر أو كان له معارض صار من جملة الدعاوى التي تدعي على القرآن، والدعوى المجردة غير مقبولة باتفاق العلماء.[368]):

وساق الشاطبي أمثلة كثيرة للتفسيرات الباطنية التي وصفها بأنها: (ليست من علم الباطن كما أنها ليست من علم الظاهر)، ومن بين الأمثلة الكثيرة التي أوردها (تفسيرهم قوله تعالى: ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ﴾ [النَّمْل : 16] إنه الإمام ورث النبي علمه، وقالوا في (الجنابة): إن معناها مبادرة المستجيب بإفشاء السر إليه قبل أن ينال رتبة الاستحقاق، ومعنى (الغُسل) تجديد العهد على من فعل ذلك، و(الكعبة) النبي،

---

(367) (فصل المقال ص 53

(368) الموافقات ج4- ص 231-232، وللمزيد عن معرفة شروط التأويل وأقسامه واختلاف الفقهاء في شروطه يراجع فصل(الظاهر والمؤول) في كتاب المحيط في أصول الفقه للإمام الزركشي - ص436وما بعدها - المجلد الثالث- تحرير د عمر سليمان الأشقر - دار الصفوة - الغردقة - 1992م

و(الباب) على، و(الصفا) هو النبي، و(المروة) علي، و(البحر) هو العالم، و(المن)علم نزل من السماء، و(الجن الذين ملكهم سليمان) باطنية ذلك الزمان، و(الشياطين) هم الظاهرية الذين كلفوا بالأعمال الشاقة إلى سائر ما نقل من خباطهم الذي هو عين الخبال وضحكة السامع، نعوذ بالله من الخذلان [369]).

صعوبة التأويل الديني

مشكلة التأويل - كما رأينا - مشكلة قديمة، وجديدة - كما سنرى -، لأنها تتعلق بالعقل البشري ونشاطه أمام النص، وأيضا لتعدد أغراض التأويل، ولكن ربما تكمن صعوبة التأويل في النص الديني خاصة هو أننا لا يسهل علينا التيقن والتثبت من نية القائل ولا الجزم بمقاصده يقيناً؛ لأن أصحاب الكتب الدينية ينسبونها إلى العقل الإلهي ذاته، وهذا ما يجعل التأويل الديني يشكل مخاطرة -على خلاف التأويل في النصوص الأدبية ؛ لأن كاتبها إنسان، ويمكننا أن نحدس بحدود دلالات مضامينه وفق ثقافة عصره - وأما النص الديني فقد أفسح الاعتقاد الراسخ بإلهية مصدره الفرصة بما يغري بالاعتقاد بأنه قد يشتمل على مضامين خفية تتجاوز ثقافة عصر تنزله، وأنه قد يشتمل على حقائق مُضمرة بعيدة الغور ستعرف بمرور الأيام وقد يجهلها أهل زمن تنزل النص.!

أما الباب الأرحب للتأويل الديني كله - وهو ما جعله ضرورة عند الفلاسفة ومقبولاً عند بعض الأصوليين - فهو أنه يتأسس على الاعتقاد الجازم في استحالة وقوع التعارض بين النصوص الدينية بعضها البعض من ناحية، ومؤسَس - أيضاً - على استحالة وقوع خطأ معرفي في مضامينه؛ مما جعل كبار المؤولين يتخطون أهم ما ينبغي وجوده في النص الديني لكي يكون التأويل لازماً، وهو شرط الإبهام حيث سنرى كثيراً من المؤولين يؤولون ما لا ضرورة لتأويله لأن النص صريح في ذاته: (أي أن النص هو يتطلب التأويل لأنه يقدم معنى مخفيا يحتاج إلى آلية خاصة لقراءته والوصول إليه، أما المعنى الواضح الظاهر فلا يحتاج إلى تأويل، وربما يجد من لا يجيز تأويله لأن معناه واضح ظاهر[370]).

---

[369] (الموافقات ج4 ص233)

[370] انظر : حدود التأويل، د. عزت السيد أحمد، مجلة جامعة دمشق، العدد الأول، 2012م

أغراض التأويل الديني:

أما أغراض التأويل فهي كثيرة للغاية ولن نجد ما يوضحها سوى تقديم بعض الأمثلة التطبيقية لبعض أهم أغراض التأويل الديني.

ولعل أهم بواعث التأويل هو أن يستظل المؤول بثقافة أخرى ناشئة لا تتوافق مع مجمل الإطار المفاهيمي الذي انبثق منه النص المؤول، ولنأخذ لذلك مثالين لتأويل بعض نصوص الكتاب المقدس، وليكن أولهما عند فيلسوف يهودي(371) ، لا يشك المؤرخون في عمق ثقافته ولا في تمسكه بعقيدته اليهودية لنرى ماذا فعل بتلك النصوص.

1- السخرية من النصوص المقدسة!

(إن فيلون يعتبر من أغراض المجاز الأصلية، تحويل أشخاص قصص التوراة إلى نحو حسن أو سيئ من أنحاء وجود النفس، ومن أجل هذا نرى قصصاً لا يمكن تفسيرها إن أُخذت حرفياً، ولكنها تجد معناها الواضح حينما تدار فتجعل قصصاً داخلياً لحالات النفس، فقصة الخليقة أو التكوين من مبدئها حتى ظهور موسى تمثل لنا تقلب أو تبدل النفس الإنسانية وهي في أول الأمر غير مكترثة بالأخلاق ثم متلفتة ثانياً نحو الفضيلة، وأخيراً حينما لا تكون الرذيلة غير قابلة للشفاء، راجعة تدريجياً إلى الفضيلة. في هذه القصة نجد كل مرحلة ممثلة بشخصية، فآدم (وهو النفس التي لا إلى الفضيلة ولا إلى الرذيلة) نراه يخرج من الحالة بالإحساس (حواء) وهذه بدورها تغويها اللذة والسرور(الحية)، وبهذا تلد النفس العُجب (قابيل) مع كل ما يتبع ذلك من سوء، ومن ثم نجد الخير (هابيل) يخرج من النفس ويبتعد عنها ثم أخيراً تموت في الحياة الأخلاقية. ولكن حينما لا يكون الشر قابل للشفاء فإن بذور الخير التي في النفس يمكن أن تنمو بسبب الأمل والرجاء (إينوس) والندم (إدريس)، لينتهي الأمر بالعدالة (نوح) ثم بالتطهر التام رغم السقوط والانتكاس المتكرر (الطوفان، سدوم). هذا هو سير التفسير المجازي

---

(371) فيلون السكندري ولد بالإسكندرية نحو عام 20أو 30 قبل الميلاد ومات بعد عام (54م)، وكان دارسا للفلسفة اليونانية وسائر الفلسفات التي كانت الإسكندرية تموج بها في عصره، وكان لبروزه في الفلسفة يسمى أفلاطون اليهود وكان يرى أن التوراة تحوي أفكار فلسفية عميقة لا تقل مكانة وسموا عن خلاصة التفكير الإغريقي، وكل ما يجب للوصول إلى تلك الأفكار هو استخلاصها من نصوص التوراة بطريق التأويل المجازي !

لقصة التكوين ومنه نرى أن المجاز الأخلاقي له فيه الدور الأساسي أما المجاز الطبيعي فليس له إلا دور مساعد وتابع فحسب[372]).

أما لماذا يلجأ فيلسوف تقي إلى تلك الطريقة العجيبة؟! فهو يفعله في النهاية لحماية الشرائع الإلهية من سخرية الوثنيين حيث (يصف فيلون ثلاثة أوضاع ممكنة إزاء الشريعة: أولاً اعتبار الشريعة مجرد عرف مأثور. وثانياً: احتقار القانون الوضعي بصفته هذه، والتوجه إلى الله بعبادة روحية خالصة. وأخيراً الجمع بين احترام القوانين الوضعية والعبادة الإلهية وذلك باتباع الشرائع على أن نبحث فيها بالطريقة المجازية معنى باطنياً وعميقاً [373]).

وهذا التأويل كما ترى مجرد تلفيق، ولا ينتمي قطعاً إلى عالم التأويل بأي معنى من معانيه فلم يكن ليدور في خلد كاتب سفر التكوين أن يُفسر كلامه على هذا النحو الرمزي، فقد أسس خطابه كله على أن تلك الشخصيات المؤسسة للتاريخ القومي للعبرانيين، إنما كانت شخصيات حقيقية من لحم ودم، وليست رموزاً ولا تشبيهات بلاغية، وقل مثل ذلك عن تفسير فيلون لما نص عليه العهد القديم من اختصاص العبرانيين من أنهم شعب الله دون سواهم من الأمم والشعوب، وهو مفهوم لم يكن ليثير سوى سخرية اليونانيين والرومان، فلم يجد الفيلسوف من سبيل أمامه سوى العبث بتلك النصوص وتفسيرها على ذاك النحو.

---

(372) الآراء الدينية والفلسفية لفيلون السكندري - إميل بريهييه - ترجمة د محمد يوسف موسى - د عبد الحليم النجار - وزارة المعارف العمومية - القاهرة - 1954م - مصطفي البابي الحلبي - ص69 70

(373) السابق ص94

2- نشيد الأناشيد [374] والعواطف البشرية

(لِيُقَبِّلْنِي بِقُبْلاَتِ فَمِهِ، لأَنَّ حُبَّكَ أَطْيَبُ مِنَ الْخَمْرِ. لِرَائِحَةِ أَدْهَانِكَ الطَّيِّبَةِ. اسْمُكَ دُهْنٌ مُهْرَاقٌ، لِذلِكَ أَحَبَّتْكَ الْعَذَارَى.. لَقَدْ شَبَّهْتُكِ يَا حَبِيبَتِي بِفَرَسٍ فِي مَرْكَبَاتِ فِرْعَوْنَ.. صُرَّةُ الْمُرِّ حَبِيبِي لِي. بَيْنَ ثَدْيَيَّ يَبِيتُ.. هَا أَنْتَ جَمِيلٌ يَا حَبِيبِي وَحُلْوٌ، وَسَرِيرُنَا أَخْضَرُ.. أَسْنِدُونِي بِأَقْرَاصِ الزَّبِيبِ. أَنْعِشُونِي بِالتُّفَّاحِ، فَإِنِّي مَرِيضَةٌ حُبًّا. فِي اللَّيْلِ عَلَى فِرَاشِي طَلَبْتُ مَنْ تُحِبُّهُ نَفْسِي. طَلَبْتُهُ فَمَا وَجَدْتُهُ.. هَا أَنْتِ جَمِيلَةٌ يَا حَبِيبَتِي، هَا أَنْتِ جَمِيلَةٌ! عَيْنَاكِ حَمَامَتَانِ مِنْ تَحْتِ نَقَابِكِ.. شَفَتَاكِ كَسِلْكَةٍ مِنَ الْقِرْمِزِ، وَفَمُكِ حُلْوٌ. خَدُّكِ كَفِلْقَةِ رُمَّانَةٍ تَحْتَ نَقَابِكِ.. ثَدْيَاكِ كَخِشْفَتَيْ ظَبْيَةٍ، تَوْأَمَيْنِ يَرْعَيَانِ بَيْنَ السَّوْسَنِ.. شَفَتَاكِ يَا عَرُوسُ تَقْطُرَانِ شَهْدًا. تَحْتَ لِسَانِكِ عَسَلٌ وَلَبَنٌ، وَرَائِحَةُ ثِيَابِكِ كَرَائِحَةِ لُبْنَانَ.. أُحَلِّفُكُنَّ يَا بَنَاتِ أُورُشَلِيمَ إِنْ وَجَدْتُنَّ حَبِيبِي أَنْ تُخْبِرْنَهُ بِأَنِّي مَرِيضَةٌ حُبًّا.. حَبِيبِي أَبْيَضُ وَأَحْمَرُ. مُعْلَمٌ بَيْنَ رَبْوَةٍ. رَأْسُهُ ذَهَبٌ إِبْرِيزٌ. قُصَصُهُ مُسْتَرْسِلَةٌ حَالِكَةٌ كَالْغُرَابِ.. يَدَاهُ حَلْقَتَانِ مِنْ ذَهَبٍ، مُرَصَّعَتَانِ بِالزَّبَرْجَدِ. بَطْنُهُ عَاجٌ أَبْيَضُ مُغَلَّفٌ بِالْيَاقُوتِ الأَزْرَقِ. سَاقَاهُ عَمُودَا رُخَامٍ، مُؤَسَّسَتَانِ عَلَى قَاعِدَتَيْنِ مِنْ إِبْرِيزٍ. طَلْعَتُهُ كَلُبْنَانَ. فَتًى كَالأَرْزِ. حَلْقُهُ حَلاَوَةٌ وَكُلُّهُ مُشْتَهَيَاتٌ. هذَا حَبِيبِي، وَهذَا خَلِيلِي، يَا بَنَاتِ أُورُشَلِيمَ.. مَا أَجْمَلَ رِجْلَيْكِ بِالنَّعْلَيْنِ يَا بِنْتَ الْكَرِيمِ! دَوَائِرُ فَخْذَيْكِ مِثْلُ الْحَلِيِّ، صَنْعَةِ يَدَيْ صَنَّاعٍ. سُرَّتُكِ كَأْسٌ مُدَوَّرَةٌ، لاَ يُعْوِزُهَا شَرَابٌ مَمْزُوجٌ. بَطْنُكِ صُبْرَةُ حِنْطَةٍ مُسَيَّجَةٌ بِالسَّوْسَنِ. ثَدْيَاكِ كَخِشْفَتَيْنِ، تَوْأَمَيْ ظَبْيَةٍ.. تَعَالَ يَا حَبِيبِي لِنَخْرُجْ إِلَى الْحَقْلِ، وَلْنَبِتْ فِي الْقُرَى.. اَللُّفَّاحُ يَفُوحُ رَائِحَةً، وَعِنْدَ أَبْوَابِنَا كُلُّ النَّفَائِسِ مِنْ جَدِيدَةٍ وَقَدِيمَةٍ، ذَخَرْتُهَا لَكَ يَا حَبِيبِي. لَيْتَكَ كَأَخٍ لِي الرَّاضِعِ ثَدْيَيْ أُمِّي، فَأَجِدَكَ فِي الْخَارِجِ وَأُقَبِّلَكَ وَلاَ يُخْزُونَنِي. وَأَقُودُكَ وَأَدْخُلُ بِكَ بَيْتَ أُمِّي، وَهِيَ تُعَلِّمُنِي، فَأَسْقِيكَ مِنَ الْخَمْرِ الْمَمْزُوجَةِ مِنْ سُلاَفِ رُمَّانِي. شِمَالُهُ تَحْتَ رَأْسِي، وَيَمِينُهُ تُعَانِقُنِي. أُحَلِّفُكُنَّ يَا بَنَاتِ أُورُشَلِيمَ أَلاَّ تُيَقِّظْنَ وَلاَ تُنَبِّهْنَ الْحَبِيبَ حَتَّى يَشَاءَ.)

---

[374] (سفر نشيد الأناشيد سفر ساحر ومثير معا، ولكنه مشكلة . لم يظهر كتاب في العالم حير العلماء واللاهوتيين مثل هذا الكتاب .ولذا كثرت الأسئلة في شأنه : من مؤلفه ؟ هل هو كتاب حب ؟ وحب بين من ومن ؟ من هو الحبيب ومن هي الحبيبة ؟ وهل هو كتاب لاهوت أم رتبة ليتورجية طقسية ترنم في أثناء الفصح اليهودي ؟ والسؤال الأخير : ما مدي صحة القول :إن نشيد الأناشيد هو مجرد أدب غزلي إباحي أدخل اتفاقا في عداد الأسفار الملهمة ؟ وقد نسب هذا السفر في الماضي إلى زمن سليمان الحكيم، بل إلى سليمان نفسه، على ما ورد في الآية الأولى من النشيد . لكن من يطالع السفر في لغته العبرية الأصلية يتبين لغة متأخرة تعود إلى العهد الفارسي (إلى القرن الخامس قبل الميلاد) بل إلى العهد اليوناني (إلى القرن الثالث قبل الميلاد)، في حين أن سليمان بن داود ملك على إسرائيل في القرن العاشر قبل الميلاد (972-932) انظر : نشيد الأناشيد - أجمل نشيد في الكون - لبنان -1994م- كلية اللاهوت الحبرية - نقله وصاغ شرحه يوحنا قمير وراجعة عبريا وشرحه :لويس خليفة -ص9:

مَن يقرأ هذه القصيدة البديعة[375] - التي نقلنا مختارات منها - دون أن يعلم أنها تنتمي إلى مجموعة من الأسفار المقدسة، والتي تعنى بشؤون الدين، فلن يستطيع أبداً أن يضعها بين أي شيء ينتمي لعالم الدين، بل سيجد موضعها الطبيعي هو عالم التراب، وسيقول قارئها أنها قصيدة غزلية جريئة - وقد يقول عن بعض أبياتها أنها أشعار فاحشة مغوية؛ إذ في مقابل ما يتوقعه القارئ من سفر ديني حيث ينتظر أن يجد - ولو لفظاً واحدا فقط- من تلك الألفاظ التي تملئ كتب العهد القديم مثل: الرب، الشعب الحبيب، الأنبياء، الموت، ولكنه لن يجد شيئاً من ذلك، بل سيجد بدلاً من ذلك ألفاظاً يصعب التصديق بأنها تتحمل أي مدلولات روحية مثل: الأثداء، الشفتين، الرجل، السرة، البطن الخ .

أما عن أصل تلك القصيدة فقد اختلف الباحثون بين ردها إلى التراث البابلي أو المصري القديم.

(وفي هذه الكتابات الغرامية العجيبة مجال واسع للحدس والتخمين. فقد تكون مجموعة من الأغاني البابلية الأصل، تشيد بذكر عشتار وتموز، وقد تكون من وضع جماعة من شعراء الغزل العبرانيين، تأثروا بالروح الهيلينية التي دخلت إلى بلاد اليهود مع قدوم الإسكندر الأكبر، (لأن في هذه الأغاني ألفاظاً مأخوذة من اللغة اليونانية)، أو قد تكون زهرة يهودية ترعرعت في الإسكندرية وقطفتها نفس محررة من ضفاف النيل (وذلك لأن العاشقَين يخاطب أحدهما الآخر بقوله أخي أو أختي كما يفعل المصريون الأقدمون). ومهما يكن أصلها فإن وجودها في التوراة سر خفي، ولكنه سر ساحر جميل. ولسنا ندري كيف غفل- أو تغافل- رجال الدين عما في هذه الأغاني من عواطف شهوانية فأجازوا وضعها بين أقوال إشعيا والخطباء[376]).

(375) نعجب من رأي فولتير الذي لم يكن يرى في العهد القديم شيئا : (سوى سجل للقتل، والفسق، والاغتيال بالجملة، ورأى في سفر الأمثال "مجموعة من الحكم التافهة، القذرة، والمهلهلة، المجردة من الذوق، أو للاختيار، أو الهدف"، أما نشيد الإنشاد فهو في نظره "قصيدة حماسية سخيفة")(انظر قصة الحضارة ج39ص246)، والحقيقة أنها قصيدة شعرية مليئة بالتشبيهات الجميلة ولا نشك أنها كانت في لغتها العبرية شديدة البهاء ومليئة بالظلال التعبيرية الحية فلم التحامل المقيت واستقباح الجميل ؟!

(376)) ساق المؤلف بعد هذه الكلمات أمثلة من بعض الأبيات الجريئة مثل التي وضعناها في المقدمة - قصة الحضارة ويليام جيمس ديورَانت - ترجمة: الدكتور زكي نجيب محمُود وآخرين دار الجيل، بيروت - لبنان، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس1988 م- ج2-ص288

أما كيف ضُمَت تلك القصيدة إلى الأسفار المقدسة فهذا من شأن علماء تاريخ الكتاب المقدس وفقهاءُه، وأما كيف قرأ رجال الدين تلك القصيدة الغنائية وفسروها، فهو ما تعنى به هذه الصفحات ؛ لأنها تشكل برهاناً واضحاً على أن العقل البشري لا يعجزه شيء، فيكفي أن يجلس قديس ناسك في خلوته ليطالع هذا السفر، موقناً من استحالة أن يكون معناه على ظاهره حتى يهبط عليه الإلهام، وتتدفق إلى عقله التأويلات المقبول منها وغير المقبول، والمعقول وغير المعقول فما بالنا لو كان هذا المفسر يعتمد على إرث تفسيري طويل على تلك الشاكلة، ولا يعنينا في شيء بيان تهافت تلك التفسيرات أو صحتها، وإنما يعنينا هنا أن نشير فقط إلى تلك المسافة البعيدة بين أول ما يتبادر إلى ذهن قارئ تلك القصيدة، وبين أن يطالع كتاباً يتعسف في استخراج مدلولاتها الخفية عبر التفسير الرمزي أو ما أسماه باحث جليل بالتفسير التمثيلي المجازي: (وهو يعني أن القارئ يقرأ شيئاً ويفهم شيئاً آخر وهذا الشيء الآخر هو المقصود وحده في النصص[377]. فالسِفر إذاً لغز، عليك أن تقرأه وأن يكون معك مفتاح السر لتدرك معناه المجازي. فالأوصاف الجريئة التي يستعملها نشيد الأناشيد هي بالنسبة إلى التفسير المجازي أوصاف روحية محضة: الملك هو يهوه، وكذلك الحبيب، وأورشليم هي الحبيبة. القطيع هو إسرائيل ومسكن الرعاة هو جبل صهيون ... بيت أمي: هو قدس الأقداس في الهيكل. النهدان هما جبل أبيل وجبل جرزيم، أو الملاكان الحارسان للهيكل، السُرة هي أورشليم، والبطن هو جبل يهوذا[378]).

ولكي يوقن القارئ من مهارة المفسرين المسيحيين، وأنهم لا يعجزهم شيء فسوف نقدم هنا مثالين فقط ينتمي أولهما إلى قديس مسيحي قديم، وأما الآخر فسننقله

---

(377) الحقيقة أن هذا أمر ممكن وخاصة عندما تكون هناك إشارات أو تصريح عن حضور المجاز مثلما فعل الصوفية المسلمون وغيرهم حيث وجد الشيخ محي الدين ابن عربي ضرورة لكي ينوه قارئه إلى أنه يرمز للدلالات الروحية من خلف ما يتبدى للقارئ أنه غزل حسي مع ما نعلمه عن مناسبة هذا الديوان خاصة فيقول (فكل اسم أذكره في هذا الجزء فعنها أكني، وكل دار اندبها فدارها أعني، ولم أزل فيما نظمته في هذا الجزء على الإيماء إلى الواردات الإلهية والتنزلات الروحانية، والمناسبات العلوية، جريا على طريقتنا المثلى،فإن الآخرة خير لنا من الأولى،ولعلمها رضي الله عنها، بما إليه أشير (ولا ينبئك مثل خبير)(فاطر14) والله يعصم قارئ هذا الديوان من سبق خاطره إلى مالا يليق بالنفوس الأبية،والهمم العلية،المتعلقة بالأمور السماوية،آمين بعزة من لا رب غيره (والله يقول الحق وهو يهدي السبيل)(الأحزاب 4) (انظر ديوان ترجمان الأشواق الشيخ محي الدين بن عربي - اعتنى به عبد الرحمن المصطاوي - دار المعرفة بيروت لبنان - الطبعة الأولى 2005م - - ص24)

(378) ص13 مقدمة العلامة الأب لويس خليفة لكتاب : نشيد الأناشيد - أجمل نشيد في الكون

عن مفسر حديث حيث سيجد فيهما مثالاً على التفسيرات الورعة، ولكنها بالغة التكلف والتعقيد .

(أَجَابَ حَبِيبِي وَقَالَ لِي: «قُومِي يَا حَبِيبَتِي، يَا جَمِيلَتِي وَتَعَالَيْ. أَنَّ الشِّتَاءَ قَدْ مَضَى، وَالْمَطَرَ مَرَّ وَزَالَ[379]): (يقول لمثل هذه النفس الساعية إليه: قومي يا حبيبتي (نش 10:2) أي انهضي من ملذات العالم، قومي من الأمور الأرضية وتعالي اليّ يامن ما زلت تعملين وأنت مثقلة (مت 28:11) لأنك منشغلة بالأمور الزمنية، تعالي عبر العالم، تعالي اليّ فإني قد غلبت العالم اقتربي، فإنك جميلة، مزينة بالحياة الأبدية أنت الآن حمامة (نش 10:2) لأنك وديعة ولطيفة. الآن أنت مملوءة بالكامل بالنعمة الروحية، فيليق بك ألا تخشي الشباك [380].)

أما المثال الآخر فسيأتي حلاً لما اعتقد فولتير بأنه لغز غير قابل للحل، حيث تحدى فولتير من يفسر له البيت: (لنا أخت ليس لها ثديان سفر نشيد الأناشيد - 8-8) فيقول: (بما أن نشيد الإنشاد هو وصف مجازي لزواج الكنيسة من ابن مريم، كما يؤكد رجال الكنيسة، فإننا نرغب في أن نعرف معنى الكلمات التالية: لنا أخت ليس لها ثديان[381])

أما الإجابة فقد جاءت على هذا النحو في التلمود: (قال الحبر يوحنان: هذا يُقصد به إيلام (عيلام)، الذي كان ممنوحاً العلم وليس التعليم [382])، أما التفسير المسيحي فقد جاء على هذا النحو: (من المحقق أن المقصود بالأخت الصغيرة هو أفرايم أي العشر أسباط التي فقدت من زمان بعيد، لقد كان سبيهم وتشتتهم سابقاً لميلاد المسيح، ولا يزالون تائهين ولا يعرف لهم مقر إلى الآن، لذا لم تكن لهم دراية بكل التدريبات التي اجتازها السبطان الآخران. إنهم قصيري الإدراك وليست لهم صلة أو معرفة بالمسيح في ولادته

[379] .(الأصحاح الثاني 10-11)

[380] (انظر إسحق أو النفس - للقديس أمبروسيوس - تفسير رمزي لسفر نشيد الأناشيد كسفر الاتحاد بين السيد المسيح والنفس البشرية - تعريب : د جرجس كامل يوسف - تعليق وتبويب ومراجعة القمص تادرس يعقوب - كنيسة مار مرقص الرسول - ص30-31: (حيث يجمع فيه القديس بين إسحاق الذبيح وبين المسيح كرمز للنفس البشرية الطاهرة وأن تلك النفس هي موضوع سفر نشيد الأناشيد كله فالعريس السماوي يوقظ النفس كي تتمتع بقبلاته الروحية ويقرع باب قلبها كي تفتح له لتستريح له وحده دون خصمه وينهضها من فراشها فتتحرر من قيود الجسد وحياة الترف ويجتذبها بحبه لها فيخرجها من بابل لتحيا معه في أورشليمه

[381] ليو تاكسل - التورات كتاب مقدس أم جمع من الأساطير - ترجمة د حسان ميخائيل إسحق - ص398

[382]انظر : التلمود البابلي - مركز دراسات الشرق الأوسط - ج 10 - ص 306

وموته وقيامته ورجوعه مرة ثانية، ومع ذلك سوف يتمتعون بنتائج مجيئه الأول بالنعمة ومجيئه الثاني بالمجد[383]).

أما لماذا ساد هذا النوع من التفسير فيقول الباحثون: (ساد التفسير الرمزي في معظم تاريخ الكنيسة؛ لأنهم رأوا أن المحبة البشرية بناحيتيها البدنية والحسية لا تشكل موضوعاً جديراً بأن يتضمنه سفر موحى به من الله، ومع أن شعبية هذا الرأي قد قلّت كثيراً جداً، إلا أن هذا النهج كان بارزاً في معظم تاريخ الكنيسة والكثيرين ممَن تخلوا عنه وجدوا أنفسهم وقد صُدر ضدهم حرمان كنسي.. وأما الآن فقليلون هم الذين يوافقون على أن سفر النشيد كُتب كقصة رمزية بالنظر إلى أنه لا يتضمن الإشارات التي يذكرها الكاتب عادةً لينبه قراءة لمثل هذه النيات على الأقل[384]).

يكفي هنا أن نقدم للقارئ هذه الخلاصات عن تطور شرح هذا السِفر العجيب: (أناشيد الحب. تشكل أناشيد الحب الفئة الثانية في الشعر. فنشيد الإنشاد الذي حير العلماء قروناً طويلة يرد إلى الذهن حالما يذكر هذا النوع من الأناشيد. يذكر تشايلدز خمس طرائق مختلفة تم استخدامها لتفسير هذا السفر على مر التاريخ: (1) اليهود والكنيسة الأولى رأوا فيه صوراً بلاغية للمحبة العجيبة التي لدى الله أو المسيح تجاه شعبه. (2) اعتبر بعض العلماء المعاصرين هذا السفر نشيداً أعقب السبي يتغنى بالمحبة الإلهية - بما يشبه النقطة الأولى -. (3) النظرة الشائعة تعتبره دراما إما بين فتاة وحبيبها (النظرة التقليدية وإما بين ثلاثة أشخاص حيث يسعى الملك لاستمالة الفتاة وإبعادها عن حبيبها. (4) معظم النقاد لا يرون أي تطور في البنية، وإنما يعتقدون أنه مجرد مجموعة من أناشيد الحب الدنيوية مسبوكة في قالب تسابيح. (5) قليلون يعتقدون أن السِفر يستخدم عبارات الحب المجازية لغايات تعبدية لاستخدامها في أعياد ومهرجانات بني إسرائيل. وتعتبر النقطة الثالثة والرابعة الأكثر ترجيحاً، أما أنا فأفضل اعتبارها أنشودة غنائية

---

[383] انظر- خمائل الطيب تفسير سفر نشيد الأناشيد آية، آية - متى بهنام - كنيسة الأخوة - ص217

[384] الجامعة ونشيد الأنشاد - إدوارد .كيرتس - الطبعة الأولى 2015م - مكتبة دار الكلمة للنشر والتوزيع - القاهرة - تحرير النسخة العربية - محمد حسن أحمد غنيم - سلسلة تفاسير تعليم النص ص 154

لم يكن الجميع يقر هذا التفسير فنجد أن ثيودور المبسوستيائي (350؟- 428؟) يقول أن سفر أيوب إن هو إلا قصيدة مأخوذة من مصادر وثنية، وأن نشيد الأناشيد إن هو إلا إحدى أغاني الفرس ذات معنى شهواني صريح، وأن الكثير من نبوءات العهد القديم التي يزعم الزاعمون أنها تشير إلى يسوع، لا تشير إلا إلى حوادث وقعت قبل المسيحية؛ وأن مريم ليست أم الله، بل هي أم الطبيعة البشرية في يسوع)(قصة الحضارة ج12ص100)

تصف علاقة حب بين فتاة جميلة وحبيبها الذي يوصف تارة كراع ريفي، وطوراً كملك)[385].

هل أفلحت تلك التأويلات؟!

الإجابة الواضحة هي: كلا! ولا أدل على صعوبة قبول تلك التفسيرات هو أن تلك الأسئلة القديمة لا تزال تثار إلى يومنا هذا بين قراء الكتاب المقدس، وتثير حيرتهم، سواء أكانوا من المؤمنين به كوحي إلهي أم لا، وهو الأمر الذي اضطر أكثر الشراح ورعا إلى القبول بظاهر معناه، والكف عن تفسيره رمزياً وتقديم هذا التفسير المعقول لإدراجه في الكتاب المقدس: (أما وأن النشيد يتناول الحب الجنسي فهذا أمر لا جدال فيه. ولكن هذا يجب رؤيته في سياقه الأوسع نطاقاً لأن الحب بين الجنسين أكثر من مجرد تعبير بدني، ذلك أن الحبيبين في سفر النشيد يتعاملان بطرق أخرى كثيرة. حيث يمتدح كل منهما الآخر، ويخرجان للنزهة في الريف معا، ويكفيهما أن كلا منهما موجود في حضور الآخر. والتزامهما المشترك ليس من أجل المسرة البدنية فحسب[386])

[385] تفسير الكتاب المقدس في أبعاده المتعددة - التفسير اللولبي - جرانت .أوزبورن - ترجمة نزيه خاطر - دار منهل الحياة بالاشتراك مع مدرسة اللاهوت المعمدانية العربية- لبنان- الطبعة الأولى 2014م - ص260-

[386] الجامعة ونشيد الأنشاد - إدوارد .كيرتس - الطبعة الأولى 2015م - مكتبة دار الكلمة للنشر والتوزيع - القاهرة - تحرير النسخة العربية - محمد حسن أحمد غنيم - سلسلة تفاسير تعليم النص - ص160-

ثانيا: التأويل الصوفي في الإسلام بين رفع دلالات المنطوق وبين التأويل الخالص.

(1)

حاول المسؤولون من أهل العرفان أن يرفعوا من دلالات اللفظ القرآني لكي يشير إلى دلالات باطنية سامية - يزعمون أنها قارة في بنية النص العميقة، فلا يدركها إلا أهل الذوق - وسنقدم هنا مثالين يعبر أولهما عن الصوفية المتشرعين مثل الإمام القشيري؛ أي أولئك الذين لا ينكرون الدلالة الظاهرية للنص، ولكنهم يحدقون خلفها ويستنبطون دلالات، لا نشك أنها لم تكن متضمنة في القرآن ولكن لا ضير، فهي مفيدة لأهلها ومعبرة عن أذواق أهل الطريق الكرام، والمثال الآخر سيكون تفسيراً ذوقياً ورمزياً خالصاً وهو للصوفي الأشهر الشيخ محي الدين بن عربي.

﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّىۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِي ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾ ﴾ [مُحَمَّد : 15].

(كذلك اليوم شأن الأولياء، فلهم شراب الوفاء، ثم شراب الصفاء، ثم شراب الولاء، ثم شراب حال اللقاء. ولكل من هذه الأشربة عمل ولصاحبه سكر وصحو فمَن شرب شراب الوفاء لم ينظر إلى أحد في أيام غيبته من أحبابه.. ومن شرب من كأس الصفاء خلص له من كل شوب فلا كدورة في عهده وهو في كل وقت صاف عن نفسه خال من متطلباته قائم بلا شغل - في الدنيا والآخرة - ولا أرب. ومن شرب كأس الولاء عدم فيه القرار ولم يغب بسره لحظة في ليل أو نهار. ومن شرب في حال اللقاء أنس على الدوام ببقائه فلم يطلب - مع بقائه- شيئا آخر من عطائه لاستهلاكه في علائه عند سطوات كبرياءه [387].)

---

[387] انظر تفسير القشيري عبد الكريم بن هوازن القشيري- المسمى لطائف الإشارات - ج3- وضع حواشيه وعلق عليه عبد اللطيف حسن عبد الرحمن - دار الكتب العلمية بيروت - الطبعة الثانية -2007م

فاذا كان ظاهر هذه الآيات يوحي بأنها أشربة مادية تعطي متعة حسية، فقد رفع المتصوفة دلالة تلك المتع إلى آفاق جميلة حقاً يمكن لمن شاء أن يوافق عليها أو لا يوافق، لكن لا خطر منها فهي لا تتعلق بشيء من قضايا الدنيا وإليك - أيضاً - هذا المثال الذي يتعلق بحكم من أحكام الشريعة .

(2)
مثال آخر

﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ [النُّور : 30] .

(يَغُضُّوا): من أبصار الظواهر عن المحرمات، ومن أبصار القلوب عن الفكر الردية، ومن تصور الغائبات عن المعاينة.. ويقال قوم لا ينظرون إلى الدنيا وهم الزهاد، وقوم لا ينظرون إلى الكون وهم أهل العرفان، وقوم هم أهل الحفاظ والهيبة كما لا ينظرون بقلوبهم إلى الأغيار لا يرون نفوسهم أهلا للشهود، ثم الحق - سبحانه - يكاشفهم من غير اختيار منهم أو تعرض أو تكلف [388]).

وعلى هذا النحو سار المؤولون حتى بالنسبة لأحكام الشرائع ما بين معتدل مقتصد مثل ما رأيناه عند القشيري، وبين غال متطرف كما في هذا المثال: (لأن المال يتم تأويله عند الشيعة بالعلم ومن ثم يكون زكاته تطهير الجهل الذي يعتبر في نظرهم جنابة، وكما أن إخراج المال يعتبر عوناً للمعاش للفقراء، كذلك إخراج العلم إلى الجهال؛ ليكون لهم به الحياة والفوز والنجاة، بالإضافة إلى أن إخراج الزكاة فيه إقامة للأمناء والهداة، فالوحي لديهم يعتبر زكاة للرسول - عليه الصلاة والسلام - والأئمة زكاة الوصي، واللواحق زكاة الإمام .. وهذه إشارة إلى انتقال العلم وتسلسله في مراتب محددة [389].)

---

(388) تفسير القشيري ج2- ص364

(389) أنظر - حقيقة العبادة عند محي الدين ابن عربي - د كرم أمين أبو كرم - دار الأمين القاهرة - الطبعة الأولى - 1997م - ص18

(3)
الجن عند الإسماعيلية

﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [النَّمل : 17].

(أي: جمع له القائمون بأمر دعوته الذين يذبون عنها ويحمونها وهم من الجن، وهم هاهنا في الباطن حملة علمه الذين أجنوه أي ستروه وهم لواحقه، والإنس هم هنا المأنوسون بحكمته الذين هم نقباءه ودعاته. (يوزعون) أي: يبعث بعضهم بعضا ويزدحمون ويتنافسون في الأعمال الصالحة يزدحم المقصر منهم من قومه بالصالح في عمله ليرتقي مثل حظه بلا تحاسد فيما بينهم على ذلك، بل يتنافسون في معاني الأمور ورفيع المنازل[390]).

كانت منظومة التأويل الباطنية التي ربما كانت العقيدة الإسماعيلية أبرز نصوصها، وأكثرها جرأة، فهي تنطلق من تصور عن الدين يبعد كثيراً عن الفهم التقليدي الذي سخر من أمثلتها الشاطبي، فقد أوَّل الإسماعيليون الشرائع الدينية والآيات القرآنية تأويلاً باطنياً يختلف عن ظاهرها، لكنه وكما يقول أحد مفكريهم المعاصرين: (جاء موافقاً للعقل السليم ومطابقاً له، وبالوقت ذاته لم ينبذوا الشرائع المنزلة، ولم ينكروا ما جاء به القرآن والكتب السماوية الأخرى، غير أنهم أولوها واعترفوا بأنهم في غنى عن موجباتها وأنهم يعلمون ما قصد الله منها لأنهم من الذين فتحت بصائرهم بالعلوم فترقوا في مراتب دعوة عالم الدين، التي هي ممثول عالم المبدعات والموجودات فهم على هذا لا يعملون بالتفسير الظاهري فحسب، بل يؤولون الشرائع والأحكام تأويلاً باطنياً مأخوذاً عن مصدر ثقة يعتبر بنظرهم ممثول العقل الكلي... [391]).

---

(390) أساس التأويل - للداعي الإسماعيلي الأجل النعمان بن حيون التميمي - تحقيق وتقديم عارف تامر - منشورات دار الثقافة - بيروت - ص262-263

(391) من مقدمة عارف تامر للكتاب السابق ص-16-15

(4)
الشيخ ابن عربي والجن

وأما إن شئت مثالا للتأويل الصوفي الكامل فإليك هذا المثال من الشيخ ابن عربي في تفسيره لسورة الجن، وسننقل هنا تفسيره للآيات الأولى من تلك السورة - وليرجع القارئ إلى تفسيره كاملاً إن شاء الله - حيث سنعلم معنى مختلفاً للجن ومقاعد السماء ودلالة الشهب ومعنى استراق السمع ومعنى الشرك :

(قد مر أن في الوجود نفوساً أرضية قوية لا في غلظ النفوس السبعية والبهيمية وكثافتها وقلة إدراكها ولا على هيئات النفوس الإنسانية واستعداداتها ليلزم تعلقها بالأجرام الكثيفة الغالب عليها الأرضية ولا في صفاء النفوس المجردة ولطافتها لتتصل بالعالم العلوي وتتجرد أو تتعلق ببعض الأجرام السماوية متعلقة بأجرام عنصرية لطيفة غلبت عليها الهوائية أو النارية أو الدخانية على اختلاف أحوالها. سماها بعض الحكماء: الصور المعلقة، ولها علوم وإدراكات من جنس علومنا وإدراكاتنا. ولما كانت قريبة بالطبع إلى الملكوت السماوية أمكنها أن تتلقى من عالمها بعض الغيب فلا تستبعد أن ترتقي إلى أفق السماء فتسترق السمع من كلام الملائكة أي: النفوس المجردة، ولما كانت أرضية ضعيفة بالنسبة إلى القوى السماوية تأثرت بتأثير تلك القوى فرحمت بتأثيرها عن بلوغ شأوها وإدراك مداها من العلوم، ولا تنكر أن تشتعل أجرامها الدخانية بأشعة الكواكب فتحترق وتهلك أو تنزجر من الارتقاء إلى الأفق السماوي فتتسفل، فإنها أمور ليست خارجة عن الإمكان، وقد أخبر عنها أهل الكشف والعيان الصادقون من الأنبياء والأولياء خصوصاً أكملهم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

وإن شئت التطبيق، فأعلم : أن القلب إذا استعد لتلقي الوحي وكلام الغيب استمع إليه القوى النفسانية من المتخيلة والوهم والفكر والعاقلة النظرية والعملية وجميع المدركات الباطنة التي هي جن الوجود الإنساني، ولما لم يكن الكلام الإلهي الوارد على القلب بواسطة روح القدس من جنس الكلام المصنوع المتلقف بالفكر والتخيل أو المستنتج من القياسات العقلية والمقدمات الوهمية والتخيلية، قالوا:

﴿ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ ﴾ أي: الصواب وذلك هو تأثرها بنور الروح وانتعاشها بمعاني الوحي وتنورها بنوره وتأثيرها في سائر القوى من

الغضبية والشهوية وجميع القوى البدنية ﴿فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾ تنورنا بنوره واهتدينا إلى جناب القدس ﴿ وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴾ أي: لن نمثله بمثال من جنس مدركاتنا فنشبه به غيره، بل نشايع السر في التوجه إلى جناب الوحدة، ولن ننزوي إلى عالم الكثرة لنعبد الشهوات بهوى النفس وتحصيل مطالبها من عالم الرجس فنعبد غيره.

﴿ قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا ١ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدٗا ٢ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةٗ وَلَا وَلَدٗا ٣ وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطٗا ٤ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا ٥﴾ [الجن : 1-5].

﴿ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ ﴾ عظمة ﴿ رَبِّنَا ﴾ من أن نتصوره مدركة فتكيفه فيدخل تحت جنس فيتخذ ﴿ صَٰحِبَةٗ ﴾ من صنف تحته أو ولداً من نوع يماثله ﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا ﴾ الذي هو الوهم ﴿ عَلَى ٱللَّهِ شَطَطٗا ﴾ بأن كان يتوهمه في جهة ويجعله من جنس الموجودات المحفوفة باللواحق المادية فيماثل المخلوقات صنفاً أو نوعاً ﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ ﴾ إنس الحواس الظاهرة ولا جن القوى الباطنة ﴿ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا ﴾ فيما أدركوا منه فتوهموا أن البصر يدرك شكله ولونه والأذن تسمع صوته والوهم والخيال يتوهمه ويتخيله حقا مطابقا لما هو عليه قبل الاهتداء والتنور، فعلمنا من طريق الوحي أن ليست في شيء من إدراكه بل هو يدركها ويدرك ما تدركه ولا تدركه.

﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٞ مِّنَ ٱلۡإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٖ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَزَادُوهُمۡ رَهَقٗا ٦﴾ [الجن : 6].

﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٞ مِّنَ ٱلۡإِنسِ يَعُوذُونَ ﴾ أي: تستند القوى الظاهرة إلى القوى الباطنة وتتقوى بها ﴿ فَزَادُوهُمۡ ﴾ غشيان المحارم وإتيان المناهي بالدواعي الوهمية والنوازع الشهوية والغضبية والخواطر النفسانية.

﴿ وَأَنَّهُمْ ظَنُّواْ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾﴾ [الجن : 7].

﴿ وَأَنَّهُمْ ظَنُّواْ كَمَا ظَنَنتُمْ ﴾ قبل التنور بنور الهدى ﴿ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ﴾ عليهم بالعقل المنور بنور الشرع فيهذبهم ويزكيهم ويؤدبهم بالآداب الحسنة فيأتون ما يشتهون بمقتضى طباعهم ويعملون على حسب غرائزهم وأهوائهم ويتركون سدى بلا رياضة ويهملون هملاً بلا مجاهدة.

﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾﴾ [الجن : 8-9].

﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا ﴾ أي : طلبنا سماء العقل لنستفيد من مدركاته ما نتوصل به لذاتنا ونسترق من مدركاته ما يعين في تحصيل مآربنا كما كان قبل التأدب بالشرائع ﴿ فَوَجَدْنَٰهَا - شُهُبًا﴾ معاني حاجزة عن بلوغنا مقاصدنا وحكماً مانعة لنا عن مشتهياتنا قوية ﴿ وَشُهُبًا ﴾ وأنواراً قدسية وإشراقات نورية تمنعنا من إدراك المعاني التي صفت عن شوب الوهم والوصول إلى طور العقل المنور بنور القدس، فإن العقل قبل الهداية كان مشوبا بالوهم، قريبا من أفق الخيال والفكر، مقصورا على تحصيل المعاش مناسبا للنفس وقواها، فلما تنور بنور القدس بعد عن منازل القوى ومبالغ علمها وإدراكها . وهذا معنى قوله: ﴿ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴾ أي: نورا ملكوتيا وحجة عقلية تطردنا عن الأفق العقلي وتحفظ العقل عن أن يميل إلى النفس فتختلط بنا وتنزل إلى ما ارتقينا إليه من المقاعد فنكتسب منه الآراء القياسية المؤدية إلى موافقات البدن وأمان النفس [392].)

(392) أنظر - تفسير ابن عربي - الجزء الثاني - دار إحياء التراث العربي - بيروت - الطبعة الأولى 2001م - إعداد سمير مصطفي رباب - ص377-378

(5)
الفارابي والجن.

(سئل فيما رآه بعض العوام في معنى الجن وسأله عن ماهيته؟ فقال: إن الجن حي غير ناطق غير مائت؛ وذلك على ما توجبه القسمة / التي يتبين منها حد الإنسان المعروف عند الناس؛ أعني الحي الناطق المائت. وذلك أن الحي منه ناطق مائت؛ وهو الإنسان، ومنه ناطق غير مائت وهو الملك، ومنه غير ناطق مائت وهو البهائم، ومنه غير ناطق غير مائت وهو الجن. فقال السائل: الذي في القرآن مناقض لهذا وهو قوله ﴿ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١﴾.

والذي هو غير ناطق كيف يسمع وكيف يقول؟، فقال: ليس ذلك بمناقض؛ وذلك أن السمع والقول يمكن أن يوجد للحي من حيث هو حي؛ لأن القول والتلفظ غير التمييز الذي هو النطق، وترى كثيرا من البهائم لا قول لها وهي حية. وصوت الإنسان مع هذه المقاطع هو له طبيعي من حيث هو حي بهذا / النوع، كما أن صوت كل نوع من أنواع الحي لا يشبه صوت غيره من الأنواع. كذلك هذا الصوت، بهذه المقاطع، الذي للإنسان مخالف لأصوات غيره من أنواع الحيوان.

وأما قولنا غير مائت؛ فالقرآن يدل بذلك قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝٧٩ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ۝٨٠﴾ [ص : 79-80][393]) ، ربما يكون هذا الخلط هو نتيجة للدمج الذي أحدثه النبي بين عالم الشياطين الكتابي وعالم الجن العربي .

ومن ينظر في هذا التفسير فسيجد أن الفارابي يحاول أن يجعل من الجن أشباحاً مجردة، ولا حقيقة لها ولا فعل ولا تأثير، وإنما هي - في اعتقاده - موجودات ذهنية خالصة، ولم يكن من خلف هذا التفسير سوى نفي خرافات العامة عند من لا يؤمن بها، ولا يريد أن يصادم القرآن في نقطة صريحة واضحة مثلما فعل المعري مثلاً حيث يقول:

---

(393) رسالتان فلسفيتان - أبو نصر الفارابي - تحقيق د جعفر آل ياسين - دار المناهل - الطبعة الأولى 1987م - بيروت لبنان ص80-81) وهما رسالتان أولاهما : (مقالة أبي نصر الفارابي فيما يصح وما لا يصح من أحكام النجوم) نقلها أبو إسحاق البغدادي والرسالة الثانية تتضمن إجابات عن مسائل سئل عنها الفيلسوف، وكأن أحدا من تلاميذه صاغ له الأسئلة بعبارات معينة ومحددة ؛ ثم بدأ هو بالإجابة بكلام مباشر منقول عنه)(من مقدمة المحقق- ص9و ص 13

فاخش المليك ولا توجد على رهب *** إن أنت بالجن في الظلماء خُشيتا
فإنما تلك أخبار ملفقة *** لخدعة الغافل الحشوي حُوشيتا(394)

المؤولون المحدثون.

انطلاقاً من أمثال تلك التأويلات البعيدة عما يقتضيه النص، سار المؤولون في عصرنا الحديث في محاولة منهم للخروج من بعض الإشكالات التي تتضمنها بعض النصوص القرآنية والحديثية، سواء أكان ذلك من إيرادهما لخوارق لم يتقبلها عقل بعضهم، أو كانت لرفع الحرج والدفاع عن الدين ضد خصومه ومنتقديه وسنقدم هنا ثلاثة أمثلة - فقط - من تلك المحاولات فهي تكفي في الدلالة وتغني عن أمثالها وهي كثير .

1- الشيخ محمد عبده والجدري.

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝٥﴾ [الفيل : 1 – 5].

أفاضت كتب السيرة في قصة أصحاب الفيل التي وقعت قبل البعثة النبوية بزمن غير بعيد، وساقوا في ذلك روايات وقصص مفصلة لم يثبتها المحدثون، ولم تذكرها أحاديث النبي - اللهم سوى حديث واحد صحيح ينص على أن الله قد منع الفيل من أن يتقدم في اتجاه مكة (395)، ولكن من الواضح من سياق القصة الموجزة يقول - بوضوح كامل - بأنها كانت معجزة حمى الله بها الكعبة وسكان مكة.

(394) المنتخب من اللزوميات - نقد الدولة والدين والناس - نصوص مختارة من اللزوميات اختارها وقدم لها - هادي العلوي - مركز الأبحاث والدراسات الاشتراكية في العالم العربي -الطبعة الأولى 1990م نيقوسيا/ دمشق ص 177، والحشوي : المتدين الجاهل

(395) (ما خلأت القصواء وما ذاك لها بخلق، إنما حبسها حابس الفيل) أخرجه البخاري، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط،، برقم: (2731) وهو حديث قاله النبي عندما بركت ناقته أثناء الحديبية فنفي النبي أنها حرنت وفسر به النبي بروكها بأنه إشارة من الله لعودته إلى المدينة وأن الله لم يأذن له بعد بدخول مكة مثلما حبس الله الفيل عند دخول مكة .

وبعد أن أورد الشيخ محمد عبده موجزاً لما قاله كتاب السيرة عن حادثة الفيل ثم وافق- إجمالاً - على تلك الروايات قال: (هذا ما اتفقت عليه الروايات ويصح الاعتقاد به وقد بينت لنا هذه السورة الكريمة أن ذلك الجدري أو تلك الحصبة نشأت من حجارة يابسة سقطت على أفراد الجيش بواسطة فرق عظيمة من الطير مما يرسله الله مع الريح، فيجوز لك أن تعتقد أن هذا الطير من جنس البعوض أو الذباب الذي يحمل جراثيم بعض الأمراض وأن تكون هذه الحجارة من الطين المسموم اليابس الذي تحمله الرياح فيعلق بأرجل تلك الحيوانات فإذا اتصل بجسد دخل في مسامه فأثار فيه تلك القروح التي تنتهي بإفساد الجسم وتساقط لحمه وأن كثيرا من هذه الطيور الضعيفة يعد من أعظم جنود الله في إهلاك من يريد هلاكه من البشر، وأن هذا الحيوان الصغير الذي يسمونه الآن بالميكروب لا يخرج عنها وهو فرق وجماعات لا يحصي عددها إلا بارئها ولا يتوقف ظهور أثر قدرة الله تعالى في قهر الطاغين على أن يكون الطير في ضخامة رؤوس الجبال ولا على أن يكون من نوع عنقاء مغرب ولا على أن يكون له ألوان خاصة به ولا على معرفة مقادير الحجارة وكيفية تأثيرها فله جند من كل شيء .. هذا ما يصح الاعتماد عليه في تفسير السورة وما عدا ذلك فهو مما لا يصح قبوله إلا بتأويل إن صحت روايته ومما تعظم به القدرة أن يؤخذ من استعز بالفيل وهو أضخم حيوان من ذوات الأربع جسما ويهلك بحيوان صغير لا يظهر للنظر ولا يدرك بالبصر حيث ساقه القدر. لا ريب عند العاقل أن هذا أكبر وأعجب وأبهر[396]).

والحقيقة أن السياق القرآني يقول بوقوع حادثة إعجازية خارقة، ولا ندري لم اللجوء إلى أمثال تلك التفسيرات مع ما نعلمه عن متابعة النبي - لعشرات بل ومئات - المعجزات التي جاءت لتأييد الأنبياء وتدمير المخالفين المعاندين، ولم يسق القرآن من بينها إرسال الله الأمراض على المعاندين مثلما فعلت التوراة فلماذا نعدل إذن عن التفسير الإعجازي لحادثة كي نردها إلى علة طبيعية، وخاصة إن كان السياق ينص عليها ويستلزمها فلو كان الجدري هو السبب ما كان هناك بلزوم تنزل السورة بتلك الكيفية ، وأغلب الظن أن جميع الروايات التي جاءت في كتب السيرة إنما هي روايات إسلامية

---

(396) - تفسير القرآن العظيم - تفسير جزء عم الأستاذ الإمام محمد عبدة - الجمعية الخيرية الإسلامية - الطبعة الثالثة - 1341 ه - ص 158

متأخرة جاءت لتمنح تلك السورة تفصيلات المعجزة الغامضة، وأما عن اعتقاد النبي في حدوث تلك المعجزة، فيبدو أنها معجزة افتراضية فسر بها النبي ما كان مشتهراً عن العرب قبيل البعثة من فشل حملة ملك حبشي ما على مكة، وأضاف اليها النبي هذا التفسير الإعجازي والذي بدا له منطقياً لتفسير فشل تلك المحاولة معتمدا على عظيم تقديسه للكعبة وحرمة مكة.

2- الشيخ محمد الغزالي والشهب

(ويتحدث الكاتب عن الشهب الساقطة فيكذب ما ورد في القرآن من أنها رجوم للشياطين. ونقول: أجمع علماء الكون على رحابته، واتساع آفاقه والسؤال الذي نورده: هل أبناء آدم وحدهم هم العقلاء الين يحيون فيه؟! أيبني رجل قصراً من سبعين ألف طبقة ثم يسكن غرفة منه ويدع الباقي تصفر فيه الريح؟ فلم بناه بهذه الضخامة؟، الواقع أن هناك غيرنا يسكن هذا الكون، ومن هؤلاء الجن الذين تحدثت عنهم الأديان، فإذا حاول أحدهم التمرد، وإفساد الهداية النازلة لأهل الأرض فما المانع من إرسال شهاب وراءه يحرق كيانه؟.!

جاء في سورة الجن ﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ۝٩ ﴾ [الجن:8 – 9].

ولم يقل القرآن الكريم أن (كل) شهاب يلمع فهو وراء شيطان سارق!، لم يرد هذا القصر في القرآن قط، فقد تتساقط الشهب لأمور أخرى لا ندريها، ولم يعرف العلم المعاصر عنها شيئاً.

ومن هنا فإن القول بأن القرآن (أصبح يتناقض مع العلم في قصة الشهب) لغو لا أصل له.[397])

---

(397) محمد الغزالي - قذائف الحق ص 137-138- (بعدما شاع في بعض الجامعات المصرية بعض تلك الآراء التي ساقها المنتقدون لتكذيب النبي والطعن في القرآن وكانت تأتي من بين ملحدين أو بعض المسيحيين الذين لا يقبلون إلا بخرافاتهم الخاصة وينتقدون غيرهم والشيخ الغزالي يتحدث هنا عما أسماه (عدة وريقات كتبها شخص يدعى كميل جرجس وجمع عليها بعض طلاب جامعة أسيوط) لسابق ص 133

من يقرأ هذا التأويل الذي قدمه الشيخ محمد الغزالي فلن يسعه سوى العجب من سوء هذا التأويل وشططه، فلم يتحدث القرآن - أبداً - عن مخلوقات عاقلة أخرى في هذا الكون الفسيح، ولم يقل أحد من المفسرين أن الجن لا يشاطرون البشر سكنى هذه الأرض، بل لقد تحداهم القرآن بأن يخرجوا من أقطار السماوات يوم القيامة، وأسمى الإنس والجن بالثقلين لأنهما مثلما جاء في سورة الرحمن : ﴿ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ ٣٣ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٣٤ يُرۡسَلُ عَلَيۡكُمَا شُوَاظٞ مِّن نَّارٖ وَنُحَاسٞ فَلَا تَنتَصِرَانِ ٣٥﴾ [الرَّحۡمَٰن : 33-35.]

ولنتذكر أن الشيخ الغزالي رحمه الله لم يكن من بين العلماء الذين يتابعون تلك الفرضيات العلمية المتعلقة بالسؤال الكبير هل نحن وحدنا في هذا الكون ؟ وهي فرضية يأخذها كثير من العلماء على محمل الجد وهناك منظمات للبحث عن المخلوقات الفضائية ، بل كان أغلب الظن ممن يقرأون ما كان يكتبه الأستاذ أنيس منصور خاصة في كتابية الشهريين : الذين هبطوا من السماء - الذين عادوا إلى السماء وسوى ذلك من كتب مسلية وينقل عن مئات الكتب في تلك الموضوعات فينقل مثلا عن عالم روسي يزعم أن ما جاء عن اخنوخ في الأسفار المنحولة الذي رفع إلى السماء كان طبقا طائرا نزل إليه وارتفع به ص58، ونجده ينقل عمن يفسر ما حدث في رؤيا حزقيال سفينة فضائية أو طائرة هيلوكوبتر فضائية وأن هذه السفينة نزلت من محطة مدارية وان روادها تحدثوا إلى حزقيال ص 58) (ويؤكد أن ما حدث في سدوم وعمورة من انخساف للمدن إنما كان بسبب انفجار نووي وينقل ان العلماء الروس يؤكدون أن تجويف البحر الميت ليس الا بسبب من ارتطام احدى السفن الفضائية الهائلة بالأرض - ص75)(ويفسر احتماء لوط وابنتيه بالكهوف كما جاء في سفر التكوين (ولكن التفسير العلمي لذلك هو أن الانفجار كان هائلا وأن الكهوف هي المخبأ الوحيد من الإشعاعات الذرية وأما أن الإشعاعات حولتها إلى كتلة بيضاء عندما تعرضت لها)(ص76)

إلى آخر تلك الخرافات السقيمة التي أشاعها الأستاذ أنيس منصور والذي هو أغزر الكتاب العرب إنتاجا في القرن العشرين فقد كان الرجل قارئا نهما واسع المعرفة، لكنه ظل رغم كل تلك الكتب التي ربما تخطت المئتين مجرد قارئ فلم يواجه الرجل سلطة في عصره ولم يكتب يبدع أدبا جميلا وأفسد ترجماته لبعض مشاهير عصره بالاختلاقات الكاذبة التي أفقدته عند الجادين من القراء مصداقيته !

3- الشيخ رشيد رضا والطاعون

(وأما الحديث الآخر وهو أن الطاعون وخز الجن وهم أعداء البشر فيكفينا في شرحه صاحب المنار عندما قال: يرى المتكلمون أن الجن أجسام حية خفيفة لا ترى، وقد قلنا غير مرة: أن الأجسام الحية الخفيفة التي عرفت في هذا العصر بواسطة النظارات المكبرة وتسمى (بالميكروبات) يصح أن تكون نوعاً من الجن وقد ثبت أنها علل لأكثر الأمراض، قلنا ذلك في تأويل ما ورد من أن الطاعون من وخز الجن.. على أننا نحن المسلمين لسنا في حاجة إلى النزاع فيما أثبته العلم وقرره الأطباء أو إضافة شيء إليه مما لا دليل في العلم عليه لأجل تصحيح بعض الروايات الأحادية [398]).

ثم يتساءل الشيخ الغزالي فيقول: (هل الجراثيم الخفية من عالم الجن؟ لا يستبعد صاحب المنار هذا! مستشهداً بالحديث في سبب الطاعون، وقد يكون رأيه صحيحاً!، وقد يكون الجن الواعون الخبثاء أصحاب بصر بعالم الجراثيم وأصحاب قدرة في إصابة البشر بهذه الجراثيم وما تحمل من علل!، ولعل مطالبة المؤمنين بالتعوذ من الجن في أوقات وأماكن معينة ما يشهد لذلك، فالمسلم مُكلف عند الذهاب إلى الخلاء أن يقول: (أعوذ بك من الخبث والخبائث! وعندما يتصل بزوجته أن يقول: (اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا [399].)

وسنكتفي بإيراد نص الشيخ رشيد رضا - بلا تعليق - ليعلم القارئ وهنه وضعفه:

(وَالْمَادِيُّونَ الْمَحْجُوبُونَ يُنْكِرُونَ مِثْلَ هَذَا " وَمَنْ جَهِلَ شَيْئًا عَادَاهُ " وَلَوْ قِيلَ لِمَنْ كَانَ عَلَى شَاكِلَتِهِمْ قَبْلَ كَشْفِهِمْ عَنْ نَسَمَةِ هَذِهِ الْجِنَّةِ (الْمَيْكْرُوبَاتِ) إِنَّ فِي الْعَالَمِ أَنْوَاعًا كَثِيرَةً مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ الْخَفِيَّةِ الَّتِي لَا يُمْكِنُ أَنْ يَرَاهَا أَحَدٌ بِعَيْنِهِ هِيَ سَبَبُ الْأَدْوَاءِ وَالْأَمْرَاضِ الَّتِي لَا تُحْصَى، وَهِيَ سَبَبِ التَّغَيُّرَاتِ وَالِاخْتِمَارَاتِ الَّتِي نَرَاهَا فِي الْمَائِعَاتِ وَالْفَوَاكِهِ وَغَيْرِهَا لَقَالُوا: إِنَّمَا هَذِهِ خُرَافَةٌ مِنَ الْخُرَافَاتِ، وَقَدْ كَانَ غَيْرُ الْمُسْلِمُونَ يَعُدُّونَ مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ حَدِيثَ أَبِي مُوسَى " الطَّاعُونُ وَخْزُ أَعْدَائِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَهُوَ لَكُمْ شَهَادَةٌ " رَوَاهُ الْحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ، ثُمَّ صَارُوا بَعْدَ اكْتِشَافِ بَاشْلس الطَّاعُونَ يَتَعَجَّبُونَ مِنْهُ بِصِدْقِ كَلِمَةِ "

---

[398] السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث - محمد الغزالي - دار الشروق ص118

[399] السابق ص120

الْجِنِّ " عَلَى مَيكْرُوبِ الطَّاعُونِ كَغَيْرِهِ، وَقَدْ وَرَدَ أَنَّ الْجِنَّ أَنْوَاعٌ مِنْهَا مَا هُوَ مِنَ الْحَشَرَاتِ وَخَشَاشِ الْأَرْضِ.[400])

[400] تفسير المنار- الشيخ محمد رشيد رضا - الهيئة المصرية العامة للكتاب- ج7 ص 266

خاتمة

أمثال القرآن بين حسن الدلالة وبين تأبيد الخرافة :

﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُواْ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّۗ ﴿٤٤﴾ ﴾ [فُصِّلَت : ٤٤]، ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [النَّحْل : 103].

امتن القرآن الكريم على العرب بإنزال الخطاب الإلهي الأخير بلغتهم واعتبره شرفاً وتكريماً لتلك اللغة وأهلها على ما جاء في سورة الزخرف ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الزُّخْرُف : 44.[

ومن المعلوم - بالضرورة - أن عربية القرآن لا تعني فقط بأنه يتجلى في مفردات العربية وألفاظها، بل إنه يأتي كذلك مُعبراً عن تصورات العرب ومفاهيمهم الثقافية القار!ة في بنية الألفاظ ذاتها، والتي تشع في دلالات اللفظ وتلون معانيه.

ولم يكن من المعقول - مثلاً - أن يتوقع أحد من القرآن الكريم إذا أراد أن يشير إلى رجل غير عربي بأن يأتي بكلمة جديدة لم ينطق بها أحد من العرب قبله، بل يبتكرها ابتكاراً، لكي تخلو هذه الكلمة الجديدة من ظلال دلالات التحقير والانتقاص التي نجدها في اللفظة العربية القديمة، مثلما نجده عند العرب من نعتهم لأهل الأمم الأخرى بأنهم (أعاجم)؛ أي أنهم لا يستطيعون الإبانة والإعراب عما في نفوسهم مثلهم في ذلك مثل - العجماوات التي لا تنطق ولا تُبين، وأنه ليس لجميع الأمم ما اعتقدوه - واهمين - في أنفسهم من تميز باللسن والفصاحة، فكما نجد القرآن الكريم يستخدم اللفظة فهو يصدر كذلك - بالضرورة - عن شيء قريب مما تنطوي عليه تلك الكلمة من معنى غائر تحت اللفظ، أو على أقل تقدير فهو ينطلق من تقدير عظيم مماثل للمنجز القولي العربي ويراه مزية عظمى تستحق الإشادة والتقدير.

معجزة لغوية

ومن ينظر في أقوال المفسرين والمتكلمين المسلمين لبيان تفسيرهم لحكمة مجيء معجزة النبي محمد - الوحيدة - وهي القرآن الكريم معجزة لغوية معنوية، وليست خارقة

على النحو الحسي والمادي الذي جاءت به معجزات الأنبياء الأقدمين لوجدهم يستبطنون ذات التصور العربي العتيق، عندما نراهم يزعمون أن معجزة كل نبي كانت تأتي من جنس ما برع فيه قوم النبي أو من أرسله الله إليهم .

ولما كان المصريون - في اعتقادهم - بارعين في السحر فقد جاءهم موسى بما يفوق سحرهم؛ أي من معجزة العصا التي تنقلب - متى فارقت يد موسى - ثعباناً هائلاً يبتلع عصي سحرة فرعون، ولما كان قوم عيسى المسيح بارعين في الطب وفائقين فيه غيرهم من الأمم فقد جاءهم المسيح بما يعجز عنه كل طبيب قديم أو حديث، من إحياء للموتى وشفاء للأكمة والأبرص، وكذلك لما كان العرب هم أفصح الفصحاء، وأبلغ البلغاء فقد جاءتهم معجزة النبي محمد من جنس ما برعوا فيه، حتى يكون عجزهم عن الإتيان بمثله برهاناً ساطعاً على أنه من مصدر إلهي يتجاوز طاقة البشر؛ لأنه إذا عجز العرب عن الإتيان بمثله فسواهم من الأمم أعجز وأضعف. ولا ندري في الحقيقة أول مَن قال بهذا الرأي العجيب، ولعل أقدم من قال بهذا الرأي - فيما نعلم - والمفسر والنحوي ابن عطية، وتابعه عليه من أتى من بعده، حتى قرت تلك المزاعم كبديهية لا تحتاج إلى برهان، وصارت تتردد على كل لسان.

ولا ضرورة لبيان تهافت هذا التصور تاريخياً؛ فلم ينظر المصريون أبدا إلى السحر باعتباره إنجازهم الأعظم، أو على أنه مدار فخارهم عمن حولهم من الأمم والشعوب الأخرى، بل نظر المصريون القدماء بإعجاب شديد إلى حضارتهم التي قدمت إنجازات مهمة رائعة في الأنشطة البشرية كلها من طب وفلك ودين وعمارة وزراعة ونظم حكم راسخة ثابتة الخ .

ودع عنك - أيضاً - ما يقال بشأن نبوغ قوم عيسى المسيح في الطب، فلا يسع من يكتفي فقط بتصفح الأناجيل سوى أن يرثى - بل تذهب نفسه حسرات - لما سيراه من بؤس البشر في تلك المنطقة من العالم، وما كان فيها من فشو للأمراض وانتشارها بين كافة الطبقات، وخاصة عالم قرى الصيادين الفقراء، ومن يقرأ الأناجيل فسيجد - في منطقة قليلة العدد، محدودة السكان - عدداً هائلاً من الزمني والمصروعين والمقعدين والنازفات والمجانين والمصابين بالبكم والبرص والمفلوجين والعميان وكان جميعهم - لندرة الأطباء أو لعجزهم - يطمحون للشفاء بلمسة شافية من رجل مبارك، كان يجول تلك المنطقة ليعلنهم باقتراب الملكوت، لكنه كان- ويا للأسف- يؤبد اعتقاداتهم الخرافية

المحزنة عن أسباب أمراضهم؛ حيث نراه يرجعها إلى تأثير الشياطين التي تسكن أجسادهم، فأحد المجانين مثلاً كانت تسكنه وحده ألفان من الشياطين، وقد أخرجهم يسوع من جسد الرجل المسكين لكي يدخلوا في أجساد قطيع من الخنازير المستأنسة التي اندفعت لتلقي بنفسها في البحر لتغرق، وتغرق معها تلك الشياطين [401]، بل ولا يكتفي المسيح بذلك، بل نراه ينظر لتلك الخرافة، ويؤسس استنتاجاته المنطقية على أساس من تلك الاعتقادات البدائية المحزنة [402].

وقل مثل ذلك عن تقدير العرب لأنفسهم فإذا كان أي عربي - مهما عظمت جهالته - يستبيح لنفسه أن ينعت كل من ليس بعربي (بالأعجمي!)، فهو ينطلق من ظن العرب في أنهم أعظم الشعوب فصاحة وأقدرهم على الإبانة، وأن غيرهم من الأمم والشعوب الأخرى لا يملكون ما كان لهم من إرث شعري وأدبى، ولم يكن هذا الوهم الساذج بطبيعة الحال سوى أثرمن آثار جهلهم المُطبق بآداب الأمم الأخرى وفنونها - لا أكثر ولا أقل - فمَن يقرأ تراث آدب الجاهلية من شعر وخطابة وحكم وأمثال سائرة فلن يستطيع أن يجد لها موضعاً متقدماً بين آداب الأمم السابقة عليها من اليونانيين والرومان بل والمصريين والفرس والبابليين، ولكن أمثال هذه النعرات القومية الحمقاء كانت موجودة لدى كثير من شعوب العالم القديم فالمصريين كانوا يعتبرون غيرهم دونهم في كل شيء، واليونانيون كانوا يعتبرون غيرهم برابرة، وأما اليهود فهم شعب الله المفضل والمختار على جميع الأمم والشعوب، بل إن كلمة (أسكيمو) كانت تعني - عند أهلها - أنهم هم الرجال.

وسوف نختار أمثلة قليلة من بين الاعتقادات العربية الباطلة والتي شاعت في ثقافة العرب قبيل الإسلام ثم جاء الإسلام لا ليبطلها، ويفندها، بل ليتابعهم عليها فصارت هذه الاعتقادات المحلية لعرب الجاهلية جزءاً من عقيدة دين عظيم الانتشار ويعتنقُه مئات الملايين في قارات العالم كلها .

[401] (انظر إنجيل مرقص الأصحاح الخامس - الآيات 1-20
[402] كما في إنجيل مرقص الأصحاح الثالث - 22 - 27

ثالثا:

(1)
وهو في الخصام غير مبين!

نجد في القرآن الكريم - على جلالة مضمونه بشكل عام - تقعيداً محزناً لبعض المفاهيم المحلية الخاطئة، والانطلاق من افتراض صحتها كمُسلمة بدهية ثم يؤسس عليها ما يبتغيه - باعتبارها حقيقة واضحة بذاتها ولا تحتاج إلى برهان، مثل ما تشتمل عليه هذه الآية من سورة الزخرف: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾﴾ [الزُّخْرُف : 16-18].

فهنا يحمل القرآن الكريم حملة شعواء على مشركي العرب، والذين كانوا ينسبون إلى الله ما يأنفون منه؛ أي من اتخاذ البنات أولاداً فيوبخهم القرآن على تلك القسمة الجائرة، كما جاء في سورة النجم: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾﴾ [النَّجْم: 21-22].

ولقد أحسن (ابن كثير) تلخيص ما أتى به المفسرون في معنى تلك الآية إذ يقول:(أي: المرأة ناقصة يكمل نقصها بلبس الحُلي منذ تكون طفلة، وإذا خاصمت فلا عبارة لها، بل هي عاجزة عَيِيَّة، أوَ مَنْ يكون هكذا ينسب إلى جناب الله عز وجل؟!، فالأنثى ناقصة الظاهر والباطن، في الصورة والمعنى، فيُكمِل نقص ظاهرها وصورتها بلبس الحُلي وما في معناه، ليجبر ما فيها من نقص، كما قال بعض شعراء العرب:

وَمَا الحَلْي إلا زينَةٌ من نقيصةٍ *** يتمّمُ من حُسْن إذا الحُسْن قَصَّرا
وأمَّا إذَا كان الجمالُ موفَّرا *** كحُسْنك، لم يَحْتَجْ إلى أن يزَوَّرا

وأما نقص معناها، فإنها ضعيفة عاجزة عن الانتصار عند الانتصار، لا عبارة لها ولا همة، كما قال بعض العرب وقد بشر ببنت:

"ما هي بنعم الولد: نصرها بالبكاء، وبرها سرقة"[403]).

ولا حاجة بنا إلى التعقيب على خطل هذا التصور العربي الجائر والمهين عن المرأة، ولكن القرآن كما ترى لا يصحح هذا الاعتقاد البائس القبيح، بل نراه يؤبد ذاك الاعتقاد الجاهلي، حيث يبنى على أساس من صحته حجاجُه مع المشركين وتسفيهه اعتقادهم بأنوثة الملائكة التي يحتقرونها لتلك الأسباب المزعومة من ضعف الجسد أو وهن العقل.

بل الأكثر من ذلك أننا نجد القرآن ينطلق على هدى من هذا التفضيل الثقافي لبيئته وأهل عصره، فنراه يعطى للرجل القوامة على المرأة، ويُوكل إليه أمر تربيتها ابنة، وتأديبها زوجة متدرجاً من العظة والنصيحة إلى الهجر في المضجع إلى ضربها في حدود ما أوصت به الشريعة؛ أي ضرباً غير مبرح، ويتجنب الوجه الآدمي المكرم، ثم جعل شهادة المرأة على النصف من شهادة الرجل، وجعل نصيبها من الميراث نصف نصيب أخيها الذكر، ثم يستنتج النبي من مقدمات - هو واضعها - تلك النتيجة المحزنة بأن النساء :(ناقصات عقل ودين).

(2)
الغول

فما تدوم على حال تكون بها *** كما تلون في أثوابها الغول[404]

(ذكروا أن الغول اسم لكل شيء من الجن يعرض للسفار، ويتلون في ضروب الصور والثياب، ذكراً كان أو أنثى[405].)

وأيضاً من بين الاعتقادات الباطلة التي شاعت بين العرب في الجاهلية، ما اعتقدوه عن الغيلان وتلونها، وهو اعتقاد جاء القرآن ليعاتبهم عليه كما في هذه الآية:

---

(403) (تفسير القرآن العظيم - ابن كثير دار ابن حزم الطبعة الأولى 2000م - ص 1678

(404) كعب بن زهير في مديح النبي

(405) المفصل ج12ص304

﴿ قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ ﴾ [الأَنْعَام : 71].

مَن يقرأ الآية السابقة فسيجد فيها معنى قرآنياً قيّما في المفاضلة بين الاستجابة لنداء الله واتباع هديه، وبين اتباع ضلالات الاسترسال مع التصورات الشركية الشائهة - وهو معني قيم ونفيس -، ولكن القرآن الكريم يسوقه من خلال مثَل يؤبد خرافة عربية عريقة عن الجن التي كانت تستهوى المسافرين حتى تلقيهم في الهلكة، وسنسوق لشرح هذا التشبيه ما أورده ابن كثير نقلاً عن الإمام الطبري فهو يوضح دلالة هذا المثل القرآني وما يقف خلفه من متابعة لبعض اعتقادات العرب الباطلة على نحو ناصع.

(وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿ قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا ﴾ الآية. هذا مثل ضربه الله للآلهة ومن يدعو إليها، والدعاة الذين يدعون إلى الله، عَزَّ وجل، كمثل رجل ضل عن طريق تائها ضالا إذ ناداه مناد: "يا فلان بن فلان، هلم إلى الطريق"، وله أصحاب يدعونه: "يا فلان، هلم إلى الطريق"، فإن اتبع الداعي الأول، انطلق به حتى يلقيه إلى الهلكة، وإن أجاب من يدعوه إلى الهدى، اهتدى إلى الطريق. وهذه الداعية التي تدعو في البرية من الغيلان، يقول: مثل من يعبد هذه الآلهة من دون الله، فإنه يرى أنه في شيء حتى يأتيه الموت، فيستقبل الهلكة والندامة. وقوله: ﴿كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ هم "الغيلان"، يدعونه باسمه واسم أبيه وجده، فيتبعها وهو يرى أنه في شيء، فيصبح وقد ألقته في هلكة، وربما أكلته - أو تلقيه في مضلة من الأرض، يهلك فيها عطشا، فهذا مثل من أجاب الآلهة التي تعبد من دون الله، عَزَّ وجل. رواه ابن جرير.[406])

وقد استمر هذا الاعتقاد الجاهلي في الإسلام - أيضاً - حيث نجد في تراثنا هذا القصة الطريفة: (أن رجلاً من قومه من الأنصار خرج يصلي مع قومه العشاء، فسبته الجن، ففُقِد، فانطلقت امرأته إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقصت عليه القصة،

[406] تفسير القرآن العظيم - ابن كثير الدمشقي - ص 695

فسأل عنه عمر قومه، فقالوا: نعم، خرج يصلي العشاء ففُقد، فأمرها أن تربص أربع سنين، فلما مضت الأربع سنين، أتته فأخبرته، فسأل قومها؟، فقالوا: نعم، فأمرها أن تتزوج، فتزوجت، فجاء زوجها يخاصم في ذلك إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: يغيب أحدكم الزمان الطويل، لا يعلم أهله حياته، فقال له: إن لي عذراً يا أمير المؤمنين، فقال: وما عذرك؟، قال: خرجت أصلي العشاء، فسبتني الجن، فلبثت فيهم زماناً طويلاً، فغزاهم جن مؤمنون ـ أو قال: مسلمون، شك سعيد ـ فقاتلوهم، فظهروا عليهم فسبوا منه سبايا، فسبوني فيما سبوا منهم، فقالوا: نراك رجلاً مسلماً ولا يحل لنا سبيك، فخيروني بين المقام وبين القفول إلى أهلي، فاخترت القفول إلى أهلي، فأقبلوا معي، أما بالليل فليس يحدثوني وأما بالنهار فعصا أتبعها، فقال له عمر رضي الله عنه: فما كان طعامك فيهم؟، قال: الفول، وما لم يذكر اسم الله عليه، قال: فما كان شرابك فيهم؟ قال: الجدف، قال قتادة: والجدف ما لا يخمر من الشراب، قال: فخيره عمر بين الصداق وبين امرأته[407]) .

أما عن أساس هذا المثال فهو يتأسس على اعتقاد خرافي شاع في العرب قبل الإسلام عن الغول، وهي شخصية مركبة، مزيجاً من الإنسان والحيوان، أو من الحيوان والجن، وتمتاز بأن لها قدماً كحافر الحيوان، وأما عينها فمشقوقة عمودياً على خلاف الإنس، وكانت تتغول لهم في الفلوات، وتظهر للبعض منهم في أنواع من الصور، وقد قابلها الشاعر الجاهلي تأبط شراً وانتهت تلك المقابلة إلى مشاجرة دامية فقتلها ثم وصفها لنا أبشع وصف وأرعبه عندما رآها نهاراً [408] .

ورغم أن هذه العقيدة القرآنية في الغول إنما جاءت ضمناً وليست صريحة، بل جاءت في مقام التمثيل والتشبيه، وإنما يغلب على اعتقادنا أن القرآن كان ينطلق ضمنياً مما كانت تعتقده العرب عن الغول وتلونها ؛ لأن المثال إنما يستمد قوته من قوة المُشبَه به وحقيقته، والأهم من كل هذا أننا نجد عشرات الأحاديث التي يتابع فيها النبي معتقدات الجاهليين في تجسد الجن في الحيات والإبل والقنفذ وغيرها مثلما رأينا في موضعه..

(407) صححه الشيخ الألباني في - إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل- برقم (1709)

(408) أما عن الغول في الشعر العربي وتجسيدها لمعاني الموت - الحرب - الليل - النار- البرق -البيداء - السراب - الحية - الزمان - المرأة الخ فانظر : أسطورة الغول في الشعر العربي قبل الإسلام - دراسة تحليلية للصورة والرمز- دراجي سعيد - رسالة ماجستير غير منشورة مطبوعة

وإليك بعض الأحاديث الصحيحة التي ذكرت أن الغول كانت من بين ما اعتقده أصحاب النبي: (عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه: أنه كانت له سهوة فيها تمر، وكانت تجيء الغول فتأخذ منه، قال: فشكا ذلك إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال: "اذهب فإذا رأيتها فقل: بسم الله، أجيبي رسول الله". قال: فأخذها فحلفت أن لا تعود، فأرسلها. فجاء إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال: "ما فعل أسيرك؟". قال: حلفت أن لا تعود. قال: "كذبت، وهي معاودة للكذب". قال: فأخذها مرة أخرى، فحلفت أن لا تعود. فأرسلها، فجاء إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال: "ما فعل أسيرك؟ ". قال: حلفت أن لا تعود. فقال:كذبت وهي معاودة الكذب فأخذها فقال: ما أنا بتاركك حتى أذهب بك إلى النبي - صلى الله عليه وسلم -. فقالت: إني ذاكرة لك شيئاً: آية الكرسي، اقرأها في بيتك؛ فلا يقربك شيطان ولا غيره. فجاء إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال: "ما فعل أسيرك؟ ". قال: فأخبره بما قالت. قال:صدقت وهي كذوب[409].(

(عن ابن أُبيّ بن كعب؛ أن أباه أخبره: أنه كان لهم جَرِينٌ فيه تمرٌ، وكان مما يتعاهده فيجدهُ ينقصُ، فحرسَه ذات ليلة، فإذا هو بدابةٍ كهيئة الغلامِ المحتلِمِ؛ قال: فسلمَ فرد عليه السلامَ، فقلت: ما أنت، جنٌّ أم إنسٌ؟ قال: جن. فقلت: ناولني يَدَك، فإذا يد كلبٍ وشعر كلبٍ، فقلت: هذا خلق الجن؟ فقال: لقد عَلِمَتِ الجنُّ أن ما فيهم من هوَ أشدُّ مني. قلت: ما يحملك على ما صنعتَ؟ فقال: بلغني أنك تحبُّ الصدقةَ، فأحببتُ أن أُصيبَ من طعامك. فقلت: ما الذي يُحرِزُنا منكم؟ قال: هذه الآية: آية الكرسيِّ. قال: فتركْتُه، وغدا أبيٌّ إلى رسول اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، فأخبره، فقال: "صَدَقَ الخبيثُ".[410])

---

[409](انظر : صَحِيحُ التَّرْغِيب وَالتَّرْهِيب- محمد ناصر الدين الألباني- برقم (1469) ولا يعنينا في شيء أن تكون هذه القصص موضوعة مخترعة بل يكفي أنها تشتمل على جميع مفردات القصة الجاهلية عن الجن والغول فهي أنثى كما كان يعتقد العرب، وهي تسرق الطعام وهي كالشياطين تكذب وتعاود الكذب، وهي تخضع للنبي ويحجزها القرآن من أن تقرب المسلم أو أن تؤذيه، وهي تتلون في ضروب شتى من الصور والثياب وتعرض للمسافرين ولا يعنينا منه سوى أنه يرجع صدى ما ذكرته العرب عن هيئة الغول وأنها مهما تلونت فلا تستطيع أن تغير بعض أجسادها خاصة اليد والقدمين مثلما جاءت بهذا الأساطير العربية : (وتزعم العامة أن الله قد ملك الجن والشياطين والعمار والغيلان أن يتحولوا في أي صورة شاءوا إلا الغول فإنها في جميع صورة المرأة ولباسها، إلا رجليها فلابد أن تكون رجلي حمار) انظر - الجاحظ - الحيوان ج 6 ص 158

فضلا عن أنها جاءت بصور مختلفة منها هذه الرواية إلى جانب الرواية الأشهر والأقوى كما جاءت في البخاري من حديث أبي هريرة بدلا من أبي أيوب، ولها رواية ثالثة من حديث أبي ابن كعب ! هي أحاديث مختلفة تحكي عن وقائع متباينة

[410] صححه الشيخ الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم (1470)

وأما عن موقف النبي من تلك العقيدة فقد أبطل هذا الاعتقاد المخيف، ونفى بشكل قاطع أن الجن تتراءى للمسافرين فقال: (لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر، ولا نوء ولا غول، ويعجبني الفأل[411]) .

ومن المعلوم أن النبي لم ينف العدوي ولم يقبلها ـ أيضاً ـ، وأما عن الغيلان فقد اختلف الشُراح في دلالة هذا النفي، ويظهر من مراجعة أقوالهم أنه ليس إلا نفياً لظهور الغيلان للمسافرين وليس نفياً لوجودها، لأننا نعلم أن أساسه موجود في عقيدة الجن: (وقيل: قوله: "لا غول" ليس نَفْيًا لعين الغول أو وجوده، وإنما فيه إبطال زعم العرب في تلونه بالصور المختلفة واغتياله، فيكون المعنى بقوله: "لا غول" أنها لا تستطيع أن تُضل أحدًا، ويشهد له الحديث الآخر: "لا غول ولكن السعالى" والسعالى جمع سِعلاة وهي السحرة من الجن، أي ولكن في الجن سحرة لهم تلبيس وتخييل، ومنه الحديث: "إذا تغولت الغيلان فبادروا بالأذان" أي ادفعوا شرها بذكر الله، وهذا يدل على أنه لم يرد بنفيها عدمها، ومنه حديث أبي أيوب ـ رضي الله عنه ـ: "كان لي تمر في سهوة، فكان الغول يجيء فيأخذ". وقال الخطابي: قوله: "لا غول" ليس نفي الغول عينًا وإبطال كونها، وإنما فيه إبطال ما يتحدثون عنها من اختلاف تلونها في الصور المختلفة، وإضلالها الناس عن الطريق، وسائر ما يحكون عنها مما لا نعلم له حقيقة، نقول: لا تصدقوا بذلك ولا تخافوها؛ فإنها لا تقدر على شيء من ذلك إلا بإذن الله، ويقال: إن الغيلان سحرة الجن؛ تسحر الناس وتفتنهم بالانحلال عن الطريق.

والله أعلم[412])

---

[411] أخرجه مسلم في كتاب السلام، باب لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر ولا نوء، برقم (2222).

[412] انظر : نخب الأفكار في تنقيح مباني الأخبار في شرح معاني الآثار- بدر الدين العيني - تحقيق ياسر بن إبراهيم- وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - قطر الطبعة: الأولى، 2008 مج14- ص 85-86

(3)
الشيطان والإجارة .

﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ ﴾ [الأنفال : 48] .

(كَانتِ الْعَرَبُ إِذَا كَانَ السَّيِّدُ فيهم فأجار أحدا لا يحفر فِي جِوَارِهِ، وَلَيْسَ لِمَنْ دُونَهُ أَنْ يُجِيرَ عَلَيْهِ لِئَلَّا يَفْتَاتَ عَلَيْهِ، وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ: وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجارُ عَلَيْهِ أَيْ وَهُوَ السَّيِّدُ الْعَظِيمُ الَّذِي لَا أَعْظَمَ مِنْهُ، الَّذِي لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ وَلَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ، الَّذِي لَا يُمَانَعُ وَلَا يُخَالَفُ، وَمَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ[413]).

ومن التعبيرات القرآنية التي ترتكز على صيغة من صيغ العلاقات الخاصة بين الناس في المجتمع العربي قبيل البعثة النبوية هذا التعبير (وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ)، فعندما يعد الشيطان أتباعه بالحماية والنصرة نجده يستخدم هذا القالب العربي الخالص لوصف العلاقة بين من يمنح الحماية وبين من يتلقاها وهو مفهوم (الإجارة)، وهذا المفهوم كما استخدم في الجاهلية - واستمر لبرهة في الإسلام - هو تعاقد بين ضعيف وقوي يتعهد فيه القوى بحماية الضعيف في حدود ما اتفقا عليه، وكانت العادة أن يعلن هذا الاتفاق في الأماكن العامة لكي يدخل حيز التنفيذ، ومن أمثلته الشهيرة دخول النبي مكة بعد عودته من الطائف في حماية المطعم بن عدي، أو إجارة ابن الدغنة سيد الأحابيش لأبي بكر الصديق وقد هم بالهجرة من مكة إلى الحبشة، وإجارة أم هانئ بنت أبي طالب لبعض من خشية قتلهم يوم الفتح، وكذا إجارة زينب الكبرى بنت النبي لزوجها الخ، ولكن - كما ترى - فقد نقل القرآن هذا المعنى وأجراه على لسان الشيطان، ثم منحه الإسلام لعلاقة مفترضة بين الشيطان وبين أوليائه، وهو يتأسس على اعتقاد عربي جاهلي مما كانت العرب تعتقده من علاقات الجوار والمعاهدات والتحالف.

---

(413) ابن كثير - تفسير القرآن العظيم - دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون - بيروت الطبعة: الأولى - 1419 هـ - ج5 ص 427

(4)
الشعر والشياطين

﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَـٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾﴾ [الشُّعَرَاء : ٢٢١ - ٢٢٦]، ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإِسْرَاء: 88] .

من بين الاعتقادات التي نظن أن النبي قد شارك فيها قومه ذلك الاعتقاد الخرافي من أن الشعر - والبديع منه خاصةً-، إنما مصدره عالم الجن والشياطين، واستمر هذا الاعتقاد الفني في الإسلام: (وَكَانَت الشُّعَرَاء تزْعم أَن الشَّيَاطِين تلقى على أفواهها الشّعْر وتلقنها إِيَّاه وتعينها عَلَيْهِ وتدعى أَن لكل فَحل مِنْهُم شَيْطَانا يَقُول الشّعْر على لِسَانه فَمن كَانَ شَيْطَانه أَمْرَد كَانَ شعره أَجود وَبلغ من تحقيقهم وتصديقهم بِهَذَا الشَّأْن أَن ذكرُوا لَهُم أَسمَاء فَقَالُوا إِن اسْم شَيْطَان الْأَعْشَى مسحل وَاسم شَيْطَان الفرزدق عَمْرو وَاسم شَيْطَان بشار شنقناق.... [414]).

ومن يقرأ تلك الآيات من سورة الشعراء لعلَم أن ذكر الشعراء بعد ذكر الكهانة وبيان طرائقها لم يكن ليأتي هناك إلا لعلاقة وطيدة تجمع الشعر بالكهانة، وهي أن كلاهما - الشاعر والكاهن- يستقيان ما يقولان من عالم الجن والشياطين، وأما عن التفرقة بين النبوة والكهانة فقد بينته الأحاديث، وأما التفرقة بين النبوة وبين الشعر فقد جاءت تفرقة سلوكية تتأسس على عظيم الفارق بين خصال النبي الداعي إلى الله والحاض على مكارم الأخلاق، وبين الشاعر الذي يخوض في كل موضوع ولا يزعه شيء مما يزع النبي المتطلع لمقام ربه ومن يخشى حدوده: (اعلم أن الكفار لما قالوا: لم لا يجوز أن يقال إن الشياطين تنزل بالقرآن على محمد كما أنهم ينزلون بالكهانة على الكهنة وبالشعر

(414) ثمار القلوب في المضاف والمنسوب - عبد الملك بن محمد بن إسماعيل أبو منصور الثعالبي -- دار المعارف - القاهرة ص 70

على الشعراء؟، ثم إنه سبحانه فرق بين محمد صلى الله عليه وسلم وبين الكهنة، فذكر ههنا ما يدل على الفرق بينه عليه السلام وبين الشعراء، وذلك هو أن الشعراء يتبعهم الغاوون، أي الضالون، ثم بين تلك الغواية بأمرين، الأول: ﴿أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾﴾ [الشُّعَرَاء : ٢٢٥] والمراد منه الطرق المختلفة كقولك أنا في واد وأنت في واد، وذلك لأنهم قد يمدحون الشيء بعد أن ذموه وبالعكس، وقد يعظمونه بعد أن استحقروه وبالعكس، وذلك يدل على أنهم لا يطلبون بشعرهم الحق ولا الصدق بخلاف أمر محمد صلى الله عليه وسلم، فإنه من أول أمره إلى آخره بقي على طريق واحد وهو الدعوة إلى الله تعالى والترغيب في الآخرة والإعراض عن الدنيا، الثاني : ﴿ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾﴾ [الشُّعَرَاء : 226] وذلك أيضاً من علامات الغواة، فإنهم يرغبون في الجود ويرغبون عنه، وينفرون عن البخل ويصرون عليه، ويقدحون في الناس بأدنى شيء صدر عن واحد من أسلافهم، ثم إنهم لا يرتكبون إلا الفواحش، وذلك يدل على الغواية والضلالة [(415)].

وتفيدنا تلك الآيات - بالإضافة إلى بيانها لذاك الاعتقاد الأسطوري العريق، وتبين لنا - أيضاً - قيمة الشعر عند العرب، وتفسر لنا عظيم افتتانهم بالقول الجميل، حتى جعلوه يتنزل على صاحبه من عالم آخر يفوق عالم الإنس، واستكثروا أن يحوز إنسي تلك المقدرة، فأرجعوها إلى مواهب ذلك العالم الذي يفوق أهله مواهب عالم البشر. ولعل أساس فكرة الإعجاز القرآني ذاتها تنبع من ذاك الأساس البعيد، وهو إذا كانت عامة العرب تعجز عن الإتيان بمثل قصائد فحول الشعراء، لأنها تتنزل عليهم من عالم الشياطين أفلا يعجز القرآن - وهو كلام الله- جميع الخلائق إنسهم وجنهم عن أن يأتوا بمثل القرآن؟!، لذا فلا غرابة أن يشمل التحدي بالقرآن الجن - أيضاً - ، ليقول بأن الإنس لن تستطيع أن تأتي بمثل القرآن حتى لو استعانت بجميع الشياطين التي كانت تُلهم الشعراء المفلقين.

(415) الرازي - مفاتيح الغيب - دار إحياء التراث العربي - بيروت الطبعة: الثالثة - 1420 هـ ج24 ص 538

وربما كان آخر صدى إبداعي لهذا الاعتقاد الأسطوري القديم هو هذا التصويب الذي أحدثه الأستاذ عباس العقاد عن الشعر ومصدره، حيث جعل الشعر العظيم من روح الله، وليس من نفث الشيطان، ورفع قيمة الشاعر إلى تلك الذروة التي لم يرفعه إليه أحد من قبل:

والشـــعر من نفس الرحمن مقتبسٌ *** والشـــاعر الفذ بين الناس رحمنُ

إذن فمَن يقرأ القرآن الكريم قراءة موضوعية، فسوف يجد أن ما ينطوي عليه من مفاهيم وأفكار، إنما كانت تعكس عصر النبي وثقافته الخاصة كما تعكس المرآة وجه صاحبها، فقد خلا القرآن الكريم - مثلاً - من العمق اللاهوتي للقضايا الدينية والروحية، ولم يكن لذلك من سبب - في اعتقادنا - سوى أن القرآن الكريم يعكس عقل مستلهمه ؛ ولم يكن النبي - عليه السلام - يحب التحديق طويلاً في تلك الأسئلة الكبرى مدققاً ومحللاً، بل كان يريد - أساساً- أن يجمع الناس على الله، وأن يستنقذهم من ضلالات الوثنية وسخفها، وأن يخفف من ضراوة المظالم الإنسانية وقساوة قلب الإنسان على أخيه الإنسان ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، فالقرآن بشكل عام كتاب قريب المنال من عقل الإنسان وقلبه.

ولنا ألا ننسى شيئين هما الغاية في الأهمية عندما ننظر فيما أتى به الإسلام من حلول لقضايا البشر، فأما أولهما فهو أن القرآن الكريم لم يكن وثيقة لتصور انقلابي شامل للعلاقات السياسية والاقتصادية والاجتماعية وفق تصور ديني طموح- كما يريد لنا البعض أن نعتقد - بل كان الإسلام في جوهره تصوراً إصلاحياً رفيقاً، يقبل الجزء الأعظم من مرتكزات الرؤية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي شاعت في عصر النبي، مع إلجام لبعض جموحها وشططها، وتخفيف من حدة نتائج بعض مظاهرها.

وأما الشيء الآخر فهو أن تلك التغيرات التي ستطال العالم - كما رآه النبي - كانت إصلاحات نهائية؛ لسبب واضح وحاسم وهي أنها جاءت مُصاغة في ظلال النهاية القريبة للتجربة البشرية كلها؛ لهذا - وتلك هي المفارقة العجيبة - فكما طمح الإسلام لتغيير العلاقات في الحدود التي استهدفها، فقد أبدها في ذات اللحظة؛ لأنه إذا كان شوق النبي للتغيير قد تأسس على قراءته الخاصة والعجيبة للبدايات، فإن تأبيده لتلك العلاقات سوف يتأسس على تصوره الأعجب عن النهايات، وهو ما سوف نحاول أن نعرض له في القسم الثاني من هذا الكتاب.

وفي جملة واحدة فإن كل مَن ينظر في محتوى القرآن الكريم ومضامينه - بشكل عام - فلن يجد برهاناً على بشريته الخالصة من غياب أي معلومة - ولو صغيرة - من خارج ثقافة عصر النبي ومعارف أهله، رغم حديث القرآن الطويل عن مجتمعات أخرى مغرقة في القدم مثل قوم نوح وعاد وثمود والمصريين والعبرانيين وغيرهم، بل لن يجد فيه سوى مفاهيم العصر الذي تنزل فيه القرآن ومفرداته الثقافية، وكفى به برهاناً على كونه نتاج تلك البيئة، ومعبراً عنها.

الفصل الثالث

القصص في الأحاديث النبوية

أولا: تمهيد عن القصص في الحديث النبوي
ثانيا: قوانين التفكير النبوي الأساسية في القرآن الكريم
ثالثا: السنن والقوانين العامة من الأحاديث النبوية
رابعا: قوة التصور النبوي
خامسا: موهبة النبي الأدبية
سادسا: نماذج من القصص في الأحاديث النبوية
سابعا: الأنبياء الافتراضيون
ثامنا: معالم الشريعة الأزلية

أولا: تمهيد عن القصص في الحديث النبوي .

لن يكتمل- في اعتقادنا - مبحث عن قصص أنبياء القرآن الكريم دون أن نلقي نظرة - ولو عجلى - على قصص الأنبياء والمرسلين كما جاءت في الأحاديث النبوية الصحيحة، لما يشتركان فيه من وحدة المصدر والغاية كما اعتقد بهذا أغلب المسلمين قدماء ومحدثين، ومثلما يعبر عنهم هذا الباحث: (فإذا كان القرآن هو كلام الله – عز وجل - فإن القصص النبوي أكثره وحي من عند الله عز وجل، ومن حيث الغاية فإن مقاصد القصص في الحديث النبوي كمقاصد القرآن في قصصه، كلاهما يراد به تقديم الزاد للدعاة والصالحين[416])

ولا نستهدف من إيراد هذه النخبة المختارة من أحاديث القصص النبوي سوى مقصدين أساسيين أولاهما: هو تأكيد بيان اعتقاد النبي محمد في تشابه المفاهيم والاعتقادات الدينية عند الأنبياء الأقدمين ومماثلتها- تماماً- لما جاء به القرآن.

والثاني: أن نقدم مفتاحاً يسيراً لطريقة فهم النبي وتفاعله الجدلي الخلاق مع الإرث النبوي القديم - كما بلغه واطلع عليه -، ثم نخطو بعد ذلك خطوة أخرى، فنحاول أن نفهم لماذا اعتقد النبي بوجود كل تلك المشابهات بينه وبين الأنبياء السابقين، خاصة في تلك الجوانب الخاصة به وبعصره والتي لا نشك بخلو تلك القصص القديمة منها؟ .!

لذا سنقدم هنا بعضاً من تلك الأحاديث لدعم ما استخلصناه في فهم القصص القرآني ولما تحويه - أيضاً - بعض تلك الأحاديث من تفاصيل دقيقة، ربما كانت تشكل الخلفية المعرفية والثقافية لما ورد مُجملاً في قصص القرآن الكريم، وأضف إلى ذلك أن بعض تلك الأحاديث تحوي قصصاً جديداً لم يرد ذكرها في القرآن الكريم، وقد اخترنا هذه المجموعة القليلة من الأحاديث من بين أحاديث أخرى كثيرة جداً لتدعم ما قلناه ففيها

[416] - صحيح القصص النبوي - د عمر سليمان الأشقر - دار النفائس الكويت - الطبعة السابعة 2007 م- ص2) ونحن نوافقه تماما على ذلك القول، ولكن على معنى آخر وهو أن القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف إنما ينبعان من مصدر واحد وهو أن كليهما إنما كانا ينبثقان من ذات النبي العميقة في تفاعلها الصادق مع الالهامات الإلهية الهادية للبشر جميعا، ونأمل أن نرى بوضوح - في الصفحات القادمة - أن قانون التفكير في القرآن الكريم هو ذاته قانون التفكير في الأحاديث النبوية، وسنعود إلى تلك النقطة لاحقا عند تعرضنا لمعنى النبوة كما نفهمه ونؤمن به ويجدر بنا أن نشير إلى أننا سنعتمد كثيرا على صاحب هذا الكتاب - أكثر من غيره - في شرحه للاحاديث النبوية وسنتخذه كأنموذج للفهم التقليدي للقصص القرآني والنبوي وسننقل عنه - أيضا - بعض أسانيد تلك القصص النبوية كما جاءت في المدونات والمتون الحديثية

الكفاية، وإذا كان القرآن يمتاز عن الحديث بتواتره وقطعية ثبوته - وهذا أمر لا ريب فيه -، فإن هذه الأحاديث التي جاءتنا من أكثر المتون الحديثية صحة يمكننا معها- إلى حد كبير- أن نطمئن إلى صحة مجموعها، وخاصة إن كانت تلك الأحاديث التي سنعرضها لا تخالف النص القرآني في شيء، بل سنراها تنسج على منواله ويحكم تصورها ذات التصور القرآني من رسوخ المفاهيم الاعتقادية وثباتها منذ بدأ الزمان، وأيضاً لأن كثيراً من هذه الأحاديث تعتمد أصولها على قصص توراتية وتلموديه مثلما وجدنا في بعض قصص القرآن الكريم.

وحتى لمَن شاء ألا يعتقد في صحة جميع تلك الأحاديث - وهو ما لا نوافقه عليه رغم اعتقادنا الراسخ بتسرب أحاديث كثيرة لم يقلها النبي أبداً إلى تلك المدونات التي يراها المحدثون أحاديث صحيحة، ولا يشكون للحظة واحدة في صحة نسبتها إلى النبي![417]- نقول إنه حتى لو شاء أحد أن يردها جميعاً فستظل هذه الأحاديث- على أضعف الإيمان - تعكس لنا بوضوح كيف فهمت الأجيال القريبة من عهد النبي تلك القصص، وتعطينا نظرة وافية عن فضائهم المعرفي والإدراكي؛ وعلى هذا فليس على الناظر في تلك الأحاديث سوى أن يتذكر حقيقة واحدة إن غابت عنه فقد أضاع بنفسه مفتاح فهم تلك القصص جميعاً، وهي أن النبي- عليه السلام - ومن خاطبهم من معاصريه - سواء أكان ذلك بالقرآن أو بمجموع أقواله وأحاديثه - لم يكونوا يشكون - ولو للحظة واحدة - في أن ما كان يتلوه أو يقصه عليهم النبي إنما هو وحي إلهي أوحاه الله إليه، وليست قصصاً أدبية تساق للعبرة أو العظة - كما يزعم بعض الباحثين المحدثين- بل كانت تنزلات إلهية خالصة، وكانت تترجم بشكل كامل عن وقائع تاريخية صحيحة حدثت حقاً وصدقاً في هذا العالم مهما بدت لأهل زماننا قصصاً مستغربةً ويصعب تصديقها، وهو ما يفعله على كل حال عموم المسلمين:

(إن القصص في القرآن وصحيح الحديث صدق كله وحق كله، فهو يحكى أخباراً وقعت ليس فيها نقص ولا زيادة) ﴿ نَّحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ نَبَأَهُم بِٱلۡحَقِّۚ ﴾ [الكَهۡف : 13] ﴿ إِنَّ هَٰذَا

---

[417] ويكفي أن يتذكر القارئ الكريم أن أحاديث النبي لم تجمع إلا في القرن الثالث الهجري أي بعد رحيل النبي بأكثر من قرنين من الزمان مما جعلها عرضة للتزوير والتحريف ناهيك عن الصراعات السياسية والمذهبية التي كانت من أوسع أبواب انتحال الأحاديث وتلفيقها وحتى وجدنا محدثا جليلا مثل الإمام البخاري يصرح بأنه استخرج مجموعته الصحيحة التي بلغت (2761) عدا المكرر من بين مئات الألوف من الأحاديث الموضوعة المكذوبة حيث يقول أنه : (جمع صحيحه هذا من زهاء 600 ألف حديث"،)

لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ﴾ [آل عِمۡرَان : ٦٢] ولا يكون القصص حقاً إلا إذا قصه القاص كما وقع من غير تزيد فيه، والله تبارك وتعالى منزه عن الكذب، فلا يمكن أن يقص قصصاً لم يقع ولم يحدث. والله تعالى عليم سميع بصير شاهد حاضر؛ لذا فإنه عندما يقص علينا يقص بعلم المشاهد الحاضر:

﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيۡهِم بِعِلۡمٖۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ۝٧﴾ [الأَعۡرَاف : ٧][418] .

ثانيا: قوانين التفكير النبوي الأساسية

آمن النبي - كما قلنا - إيماناً جازماً بثبات ورسوخ المفاهيم الدينية والثقافية التي كانت في عصره، وافترض النبي وجودها في التاريخ البشري القديم كله. فكما عرف النبي محمد الله على ذلك النحو الجليل الذي آمن به، فقد اعتقد النبي بأن الأنبياء السابقين جميعاً كانوا - ولابد - مثله في ذلك انطلاقاً من اعتقاده الجازم في وحدة الخطاب الإلهي عبر التاريخ الرسالي كله!، وكما شاع - مثلاً - بين مُشركي العرب هذا التصور الخاص بهم عن الله الخالق الرازق مع حضور الأنداد والشركاء في عبادته فكذلك اعتقد النبي كذلك بأن جميع الأمم السابقة كانت تدين بمثل ما دانت به العرب من عقائد، حتى أنك لن تجد إشارة واحدة إلى أي شكل من العبادات الأخرى التي شاعت في الأزمنة القديمة - كما أبانت عنها الدراسات التاريخية الحديثة - فليس عند تلك الأمم السابقة - وفق القرآن - إلا ما كان موجوداً منها في عصر النبي كعبادة الأصنام على نحو ما كانت عليه عند عامة العرب، أو عبادة الشمس كما عبدها قوم سبأ، أو عبادة النجوم كالشعرى اليمانية التي كانت تعبدها بعض القبائل العربية في جنوب الجزيرة.

وكما عرف النبي - أيضاً - مفهوم الملائكة - وعلى الصورة المتطورة التي بلغته عبر المرويات الكتابية المتأخرة -، فقد اعتقد النبي كذلك أن جميع الأمم السابقة قد عرفوه، وعلى النحو ذاته، سواء أكانوا أنبياء من العرب البائدة مثل هود وصالح وشعيب، أو كانوا أنبياء عبرانيين كإبراهيم موسى وسواهم، وسواء أكانوا عبدة أوثان كما وجدنا عند قوم عاد وثمود، وكذا عند المصريين الوثنيين مثلما رأينا على لسان فرعون ونسوة امرأة العزيز، وسواء أكان لتلك الاعتقادات موضع في تصوراتهم الدينية

---

[418] صحيح القصص النبوي ص 14

أم لا، فلم يعرف النبي شيئاً قط عن عبادات المصريين القدماء سوى أنهم كانوا يعبدون الأصنام كغيرهم من الأمم الغابرة، بل إننا قد وجدنا أن قوم نوح كانوا يعبدون ذات الأصنام والأوثان العربية التي كانت في عصره.

وكما كان النبي يعرف شيئاً عن أخبار قوم عاد وثمود فكذلك اعتقد النبي - أيضاً - في أن جميع البشر كانوا يعرفونهم حتى لو بعدت الشقة بينهم في الزمان والمكان كما رأينا في قصة مؤمن آل فرعون. وكما عرف العرب شيئاً عن الرسالات الإلهية من أهل الكتاب الذين عاشوا بينهم لقرون عديدة، فكذلك عرفت جميع الأمم السابقة في القرآن الرسالات الإلهية على ذات النحو، بل وطالبوا أنبياءهم بالمعجزات الدالة على صدقهم أو إنزال ملك يكلمهم إلى آخر ما فصلناه في الفصول السابقة، حتى أننا لا نجد من الضروري أن نؤكد هنا على ضرورة إعادة وضع تلك الصورة المقلوبة وردها إلى هيئتها الصحيحة، فنوصي بالكف عن محاولة أن يستخرج أحد من القرآن أي شيء عن مظاهر اعتقاد أهل تلك العصور القديمة، أو عن أنماط حياتهم - كما يفعل بعض الباحثين حتى الآن، بل ينبغي - بدلاً من ذلك - أن نستخلص مما جاء في القرآن الكريم عن تلك الأمم أنه لا يعكس لنا إلا ما كان موجوداً عند العرب الجاهليين من عقائد، ومعه - أيضاً - ما كانت تظنه العرب عن عقائد أهل تلك العصور- حقيقة أو توهماً - هذا، ولا أكثر ولا أقل!

إذن فمَن يقرأ القرآن الكريم باعتباره انعكاساً لمعارف النبي محمد التاريخية، ومرآة لمعارف عصره فلن يجد أقل صعوبة في التعرف على طبيعة تلك المعرفة، وعلى حدودها - أيضا -؛ إذ لم تزد معرفة النبي - أبداً - عن نتف من تلك المرويات الكتابية الشائعة في عصره، والتي كان أبطالها بعض أنبياء الكتاب المقدس، وعن بعض الحكايات الذائعة الرائجة في عصره عن العرب البائدة مثل عاد وثمود ومدين وغيرهم من القبائل التي بادت وعفي على آثارهم، ولم يتبق لهم من وجود سوى ما رواه الإخباريون العرب عنهم وعن أحوالهم !

لذا، فليس من الغريب مثلاً - والحال هذه - أن يكون النبي سليمان في اعتقاد النبي محمد هو أعظم الملوك في التاريخ الإنساني كله، أو أن تكون بعض تلك الإنشاءات المعمارية -التي ربما تكون قد أنجزتها حقا بعض مدن القوافل الصغيرة، مثل تلك التي ذكرها القصاص عن إرم ذات العماد هي الأعظم في التاريخ البشري كله، وليس هناك

- بطبيعة الحال - موضع للسؤال عن إنجازات مصر القديمة أو بلاد الرافدين، ناهيك عن الحضارة الصينية أو حضارة الإنكا فلم يكن شيء من هذا معلوماً عند النبي أو عند غيره.

لماذا اعتقد النبي في هذا؟

ربما كانت الإجابة على هذا السؤال الكبير تنحصر في سببين أساسيين: أولهما أن المرويات التلمودية قد سبقت النبي إلى معظم هذا، ومنحت كثيراً من المفاهيم الاعتقادية المتأخرة إلى أنبياء العهد القديم - والذين كانوا بطبيعة الحال لا يعلمون عنها شيئا-، ثم أكمل النبي بقية الطريق وحده، وقاس عليهم بقية الأنبياء الذين لم تذكرهم التوراة ولم يأت على ذكرهم التلمود - أيضاً - مثل أنبياء العرب كما رأينا في الفصل الثاني .

أما السبب الثاني وهو ما يصلح - أيضاً - ليكون تفسيراً لتلك الخطوة الفسيحة التي خطاها النبي، فهو بسبب طريقة تفكير النبي الخاصة، ومن أهم معالمها معلمان أساسيان أولهما: تولع النبي الشخصي بالتعميم وميله الشديد إلى التقعيد - أي جعله من الحوادث الخاصة التي حدثت له قاعدة عامة، وثانيهما : ميله إلى التشخيص والتجسيم وسوف نقدم في هذا التمهيد أمثلة عديدة على ذلك النوع الأول من القرآن الكريم وستكون هذه الأحاديث المختارة - أيضاً - بياناً تطبيقياً لهذين السببين وإيضاحاً عملياً لهما .

ربما سيكون مفيداً أن نتذكر ونحن نقرأ تلك الأمثلة بأن هذا العقل العجيب الذي سنراه هنا يبتكر الماضي في ضوء الحاضر، هو ما سوف نراه - في القسم الثاني من هذا الكتاب - يقدم لنا نبوءاته الجازمة الواثقة بشأن المستقبل، ولا شيء يجمع بينهما أكثر من كونهما يعبران معاً عن حالة التفاعل العجيبة تلك ؛ إذ كما قدم النبي قراءته للماضي باعتبارها وحياً إلهياً أوحاه الله إليه، فسوف نجده يقدم تحديقاته وتأملاته الشخصية في المستقبل باعتبارها - كذلك - نبوءات ذات أساس إلهي، معتمداً في ذلك كله على ذات المادة الكتابية الخرافية عن نهاية الزمان، ومستخدماً ذات آليات التفكير وطرائق الاستنباط التي فهم بها الماضي.

وسيكون لنا - أيضاً - في هذه المقدمة وقفة سريعة مع طبيعة مخيال النبي، لمحاولة التعرف على تلك المساحة التي تحرك فيها هذا المخيال الخصيب، عبر تقديم كلمة مختصرة عن النزوع الأدبي عند النبي وموهبته القصصية والفنية.

أما عن تفسيرنا البسيط لتوافق هذا الذي نقوله مع اعتقادنا - في الوقت ذاته - بصدق النبي الكامل فهو أمر سهل وميسور؛ فسبق وأن قلنا بان النبي محمد قد ألمّ بقدر غير قليل من المعارف الشفاهية عن حياة الأنبياء السابقين، وأنه حاول جهده التطابق معهم والتأسي والاقتداء بهم، ولكنه - أيضاً - وهذا هو المهم- قد حاول - وبخيال رائع وبصدق ذاتي كامل - أن يستكمل ما غاب وخفي عنه من صورتهم، وذلك بالنظر في داخله هو واستبطان نفسه مثله في ذلك مثل رسام يكمل لوحه ناقصة لتوأمه الغائب عبر النظر إلى صورته هو في المرآة ؛ لأنهما في النهاية شبيهان!، فهل تراه سيشعر ولو للحظة واحدة أنه يزيف صورة لأخيه بفعله هذا ؟![419]

وقبل أن ندخل إلى ما اخترناه من القصص الحديثي فسوف نقدم في البداية بعض الأمثلة التي تدل بشكل عام على وحدة قانون التفكير القرآني والحديثي، وأهم تلك القوانين - كما قلنا- هما قانونان إحداهما عقلي، هو تولع النبي - عليه السلام - بالتعميم، والآخر شعوري - نفسي هو قوة الشعور والميل إلى التجسيد والتجسيم، ولنبدأ بأولهما وهو الولع بالتعميم واستخراج القوانين العامة من التجارب الشخصية.

(1)
الشيطان والأنبياء

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٥٢ لِّيَجۡعَلَ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ٥٣ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤۡمِنُواْ بِهِۦ فَتُخۡبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٤﴾ [الحج : 52-54] .

[419] إذن فهذه الملامح من طريقة التفكير النبوي هي ما يجب أن ننطلق منه في تفسير التشابه بين الأنبياء جميعا في القرآن الكريم وبين ما جاء به النبي من عقيدة وشريعة، لأن القول بإنطاق النبي للأنبياء السابقين بما كان يريد قوله للمشركين - كما يقترح الأستاذ الجابري! - لا يفسر لنا هذه وجود كل هذه الاحاديث القصصية التي بين أيدينا والتي كان النبي يتوجه بها لأصحابه المؤمنين بنبوته وبأخذه المباشر عن الله فأي ضرورة لهذا إن كان يمكنه الجهر بأن ما يقوله لهم إنما هو من وحى الله إليه سواء أكانت له سابقة عن الأنبياء الأقدمين أم لا ؟!

لا يعنينا هنا كثيراً ما قيل في تفسير تلك الآيات، وهل من ارتباط لازم بينها وبين ما جاء في سورة النجم من قول بعض المفسرين من أن النبي قد تعرض له الشيطان، وهو يقرأ على قريش تلك السورة فدس - كما يزعمون - على لسانه بعض الكلمات القليلة التي يذكر فيها آلهة المشركين بخير أم لا، رغم أن سياق هذه الآيات التي معنا يقول بأن شيئاً ما قد حدث، وإلا فما الغاية من وجودها؟ !

والحقيقة أن الآيات السابقة تقول - ما أقله- أن النبي قد حدثته نفسه بهذا دون أن يفعل شيئاً من ذلك، ولكن ما يعنينا هنا هو أن النبي قد جعل من تلك الحادثة - وكيفما وقعت - قانوناً عاماً يقرر من خلاله- وبوضوح كامل- بأن تلك التجربة الشخصية الرهيبة التي تعرض لها لم ينج من أغوالها وأهوالها أي نبي من الأنبياء السابقين كما تنص على ذلك الآية الأولى من النص السابق.

على هذا - فإذا افترضنا جدلاً بوقوعها- رغم ما قرره علماء أصول الحديث من وهن شديد في أسانيدها - فيمكننا أن نعتبر حدوثها - إن تمت على ذلك النحو الذي ذكروه - من الدلائل الإضافية الناصعة على صدق النبي الذاتي، وأن تلك التنزلات التي كان النبي يتلوها على قومه لم تكن أبداً تأملات واعية، بل كانت استلهامات باطنية تنبثق كشلال هادر من أعماق عقله البعيدة، وكان لسانه يترجمها بإخلاص كامل وعفوية تامة؛ وإلا فمن المستحيل أن يحدث شيء من هذا إن كان ما أتى به النبي تأليفاً واعياً(420)!،

---

(420) ولعل من بين القرائن الدالة على أن القرآن إنما هو انبثاق لا شعوري من عقل النبي هو ما سجله القرآن عن شدة حرص النبي على بقاء القرآن حاضرا في ذاكرته بعد انقضاء تجربة الوحي مثلما جاء مرارا في القرآن وخاصة في سور القرآن الباكرة ومن ذلك قوله ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ۝٧ ﴾ [الأَعْلَى : ٦ - ٧]، وقوله ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۝١٦ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۝١٧ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ۝١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ۝١٩ ﴾ [القِيَامَة : ١٦ - ١٩]، : (عن ابن عباس قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أنزل عليه الوحي يلقى منه شدة، وكان إذا نزل عليه عرف في تحريكه شفتيه، يتلقى أوله ويحرك به شفتيه خشية أن ينسى أوله قبل أن يفرغ من آخره، فأنزل الله: (لا تحرك به لسانك لتعجل به)(انظر تفسير بن كثير - ج8ص 279- تحقيق سلامة - دار طيبة - 1999م) ومثلها ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۝١١٤ ﴾ [طه : ١١٤]

(فقد كان النبي في مستهل دعوته يجهد ذاكرته عندما كان يعاني حالة التلقي لكي يثبت الآيات كما نزلت وتلك حالة غريزية تلقائية تحدث لأي إنسان ينصت لآخر ويريد أن يحفظ كلامه فهو يكرره في نفسه) انظر - الظاهرة القرآنية - مالك بن نبي - ترجمة عبد الصبور شاهين - مكتبة دار العروبة القاهرة - الطبعة الأولى - 1958م - ص 275

(فقال تعالى مؤدباً رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم {لا تحرك به1} أي بالقرآن {لسانك} قبل فراغ جبريل من قراءته عليك. إذ كان صلى الله عليه وسلم حريصا على القرآن يخاف أن يتفلت منه شيء فأكرمه ربه بالتخفيف عليه وطمأنه أن لا يفقد منه شيئا فقال له {لا تحرك به لسانك لتعجل به} مخافة أن يتفلت منك {إن علينا جمعه} أي في صدرك {وقرآنه}

ويصبح التفسير اليسير لتلك الحادثة - إن وقعت على الصورة التي يقولونها - بأنها كانت فلتة لسان عفوية من جراء الصراع الباطني الصاخب والعنيف بين ميل النبي - وقد اشتد عليه ما ناله وأصحابه على يد المشركين من أذى وتكذيب، وما أحزنه من ضلالهم، فكان يتمنى هُداهم، فمال قليلاً بشكل لا شعوري إلى أن يختصر تلك الطريق الشاقة الأليمة؛ بأن يقدم لقومه شيئاً ما فجرت تلك الكلمات القليلة على لسانه كما يحدث كثيراً من فلتات اللسان، وبين ثباته - من ناحية أخرى- على أمر الله وإدراكه التام بأن قضية التوحيد - وهي لباب عقيدته الدينية كلها - ليست أمراً ينبغي المهادنة فيه، واذا تذكرنا أن القرآن قد قرر أن شيئا من الركون النفسي والمهادنة - بل ما هو أكثر- قد حدث كما تعبر عنه هذه الآيات القادمة فسيكون الأمر واضحاً مفهوماً ﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾ [الإسراء : 73 – 75]، ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾﴾ [هُود : 12]

إذن فمَنْ يقرأ هذه الآيات فسيراها تصرح بأنها كانت تشير إلى شيء - لا ندري بدقة مدى اقترابه أو ابتعاده عما ذكره الرواة -، ولكن من يقرأ ما تتضمنه هذه الآيات

على لسانك حيث نسهل ذلك ونجريه على لسانك، {فإذا قرأناه} أي قرأه جبريل عليك {فاستمع} له ثم اقرأه كما قرأه واعمل بشرائعه وأحكامه.)(انظر تفسير السعدي (ج5 ص 478)

ومن الواضح انه لم يكن من موضع أبدا لتلك المخاوف من تفلت القرآن وذهابه من عقل النبي وحافظته إن كان النبي يؤلف القرآن تأليفا واعيا ويديره مليا في عقله، فلا يتلوه على الناس إلا بعد أن يحكم صياغته، ويفرغ من بيان ما يريد أن يبلغه إلى الناس كلا ! فالعقل لا ينسى بسهولة ما ينتجه ! بل الحقيقة الواضحة أن النبي كان يسمع القرآن من صوت باطنه العميق مثلما يسمع الإنسان صوتا من خارجه فيريد أن يحفظ ما سمعه منه لأنه كان يعتقد اعتقادا جازما في إلهية مصدره .

ومع ذلك فقد كان النبي ينسى مثلما ينسى كل البشر كما هو في الحديث الذي رواه الشيخان عن عائشة أنها قالت:سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلاً يقرأ في سورة بالليل فقال: يرحمه الله لقد أذكرني كذا وكذا آية أُنسيتها من سورة كذا وكذا .هذا لفظ البخاري، ولفظ مسلم : رحمه الله لقد أذكرني آية كنت أُنسيتها .) ولنا عودة إلى تلك النقطة

من الوعيد الرهيب، لاستبان له - في وضوح تام - بأن الأمر كان يعبر عن ركون قد وقع من النبي في جانب أساسي لا تصح المهادنة فيه أبدا.

وإذا تذكرنا - أيضاً - أن شيئاً من ذلك قد حدث عند اتباع الدعوات الدينية الكبرى السابقة على الإسلام ؛ أي من القبول ببعض المفاهيم الوثنية واحتوائها داخل العقيدة الجديدة، رغبةً منهم في كسب أتباع تلك الديانات الوثنية سريعاً، وأيضاً للتيقن من أنها ستهضَم - عاجلاً أو آجلاً - داخل الدين الجديد وستتلاشى فيه[421]، وعلى هذا فيمكن تفهم حصول الأمر من هذا الجانب- على افتراض حدوثه - ولكنها كانت على حال لحظة عابرة.

ولربما كان من الضروري أن نتذكر هنا بأن ترتيب نزول القرآن يعضد هذا الفهم، فقد جاءت سورة النجم أولاً وهي سورة الحادثة، ثم جاءت بعدها سورة الإسراء وهي التي حملت آيات المعاتبة والوعيد، وأخيراً جاءت سورة الحج التي حملت في ثناياها التفسير والتنظير والتقعيد.

وعلى كل حال فتلك الواقعة سواء أحدثت على هذا النحو أو على نحو قريب منه، فوقوعها - من المنظور الإسلامي لا يتنافى مع عصمة الأنبياء في شيء ما دام الله يتدخل في النهاية فيخلص كلامه مما تلقيه الشياطين على ألسنة أنبياءه، ويحكم وحيه، فينقيه مما ليس منه.

---

(421) يعرف كل من قرأ الأناجيل ورسائل دعاة المسيحية الأوائل كيف(جامل) هؤلاء مخاطبيهم، وحاولوا استقطابهم بكل سبيل إلى الدعوة الجديدة فكان بطرس مثلا يجامل اليهود ولا يعاشر أبناء الأمم الأخرى حتى استحق توبيخا علنيا من بولس الرسول، رغم أننا نعرف أن بولس نفسه قد ذهب إلى ابعد من ذلك بكثير حيث يقول في كورنثوس الأولى : (استعبدت نفسي للجميع لكي أربح الأكثرين وصرت لليهودي كيهودي لأربح اليهود وللناموسيين كالناموسيين ولغيرهم كأني بغير ناموس .... صرت لكل كل شيء لعلي أستخلص من كل حال قوما) ومن يقرأ إنجيل متى فسيراه يتودد لليهود ويؤدي عباراته أداء يلائم كنيسة بيت المقدس في منتصف القرن الأول للميلاد على خلاص إنجيل مرقس الذي يخاطب الأمم فينطلق في سرد الأخبار الإلهية لعهم وهو الأمر الذي لم يكن اليهود ليقبلوه ! وقد كان من أثر ذلك أن تم القبول بالكثير من المفاهيم الأساسية كعقيدة الثالوث الأقدس وتجسد الله في صورة إنسانية كاملة وبنوة المسيح لله وتبني الأعياد الوثنية وكثير من الممارسات الطقسية مثل القداس والكثير الكثير من الرموز الوثنية و قيام الكنائس في ذات المعابد الوثنية القديمة بعد تطهيرها، بل يرجع المؤرخون بان الكنيسة الغربية لنم تختر يوم الخامس والعشرين من شهر ديسمبر كمولد للمسيح إلا لكي تصرف المسيحيين عن حضور المحافل الوثنية التي كانت تتخذه عيدا للشمس وتعلن فيه الأفراح وانتصار النور على الظلام لأن الاعتدال الخريفي هو الموعد الذي يقصر فيه الليل ويطول، وباختصار فإن ما جعل اليهود يرفضون المسيحية لما اشتملت عليه من عقائد غريبة لم يعرفها العبرانيون، هو ذاته ما جعل أبناء الأمم الوثنية يقبلونها لأنها كانت تشتمل على مفاهيم مأنوسة يألفونها ولم تكن غريبة عندهم . انظر لمزيد من التفاصيل : الأصول الوثنية للمسحية - اندريه نايتون - ادغار ويند - كارل يونج - ترجمة سميرة عزمي الزين - منشورات المعهد الدولي للدراسات الإنسانية -

إذن فكل ما يعنينا هنا هو الإشارة إلى أن من يتأمل هذه الآيات فسيلاحظ بأنها تقول بحصول أمثال تلك التدخلات الشيطانية مع كل نبي ورسول، رغم أنه ليس من إشارة واحدة سبقت في القرآن من قبل، أو أوردها القرآن بعد ذلك، أو جاء ذكر لها في الأحاديث النبوية تحكي عن نبي واحد من بين كل تلك الألوف المؤلفة[422] من الأنبياء قد تعرض لمثل لهذا النوع من تلك التجارب المروعة. وإذا ما تذكرنا أن القرآن الكريم لم يعطِ سوى لعدد قليل جداً من الأنبياء تنزلات قولية يتشكل منها ما يمكن أن يسمى (بكتب الله) عدا إبراهيم وموسى وداود والمسيح!، فسيصبح الأمر أكثر غرابة!، وإذا تذكرنا - أيضاً - أن القرآن لم يتوان في سورة من أقدم سوره من التنديد الشديد بالنبي يونس ؛ لتردده في الاستجابة لمهمته الإرسالية وتقاعسه عنها، فما بالنا إذاً لو أن نبياً من الأنبياء السابقين قد فعل شيئاً من ذلك؟!، أفلم يكن من الأولى أن يذكره القرآن ويندد بصنيعه ؟!، مما يرجح أن تلك النقطة الاعتقادية إنما تأسست على استنتاجات بدت للنبي - عليه السلام - ضرورية ومنطقية، ولا يجب إذاً أن نبحث عن أصل لها في أي مكان خارج عقل النبي وطريقة تفكيره.

وخلاصة القول : فقد اعتقد النبي صادقاً أن تلك التجربة التي تعرض لها قد حدثت من قبل لجميع الأنبياء السابقين دون أن يبلغه أي شيء من هذا قط.

وأما كيف حدث ذلك؟!، فلربما استخلص النبي قانونه العام بهذه الطريقة أو على نحو قريب منها:

أولاً: (نحن جميعاً أنبياء الله نبلغ رسالته إلى الناس)، ثانياً: (لن يقف الشيطان ساكناً ومكتوف اليدين دون أن يحاول إفساد الخطة الإلهية ويصرف الناس عن سبيل الله)، ثالثاً: (من الطبيعي أن يتعرض الأنبياء من قبلي لمثل هذا الذي تعرضت له)، رابعاً: تتكفل طبيعة الروح النبوية التي تميل إلى الحسم، وإلى اليقين بقطع الخطوة الباقية فتحدث هذه النقلة البعيدة من (كان من الممكن) إلى (لا بد وأن ذلك قد حدث)!، كل هذا ودون أن يرى النبي أي ضرورة لذكر اسم نبي واحد من بين جميع الأنبياء ؛ فما كان له أن

---

[422] (عن أبي ذر قال : قلت : يا رسول الله أي الأنبياء كان أول ؟ قال : " آدم " . قلت : يا رسول الله ونبي كان ؟ قال : " نعم نبي مكلم " . قلت : يا رسول الله كم المرسلون ؟ قال : " ثلاثمائة وبضع عشر جما غفيرا " وفي رواية عن أبي أمامة قال أبو ذر : قلت يا رسول الله كم وفاء عدة الأنبياء ؟ قال : " مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا الرسل من ذلك ثلاثمائة وخمسة عشر جما غفيرا ") (انظر- مشكاة المصابيح برقم (5737)

يكذب فيذكر نبياً باسمه دون أن يبلغه شيء من هذا، وفي الوقت ذاته لم يكن يرده تصديقه الذاتي الجازم لصحة استنتاجه عن نسبة ذلك إلى جميع الأنبياء السابقين.

(2)
مصائر من يخرجون أنبياءهم

﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَاۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ٧٦ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَاۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ٧٧﴾ [الإِسْرَاء : 76-77]

لعل مَن يقرأ الآن هاتين الآيتين فلربما لن يجد فيهما سوى استنتاجاً متعجلاً من النبي - بأن المشركين من قومه سوف سيلاقون- حتمًا- الهلاك الماحق إن هموا أخرجوه من بين أظهرهم مثلما فعل الله بالكافرين من الأمم السابقة، والذين آذوا أنبياءهم وأعرضوا عن دعوتهم ؛ لذا فلا شك في أن هذه الآيات قد جاءت قبل أن يفكر النبي بالهجرة مختاراً، بل كان النبي وقت تنزلها يتوعد قريشاً بأن الله سوف يهلكهم إن هُموا فعلوا ذلك، ولكن النبي - وهذا ما يعنينا - قد استخرج قانوناً كاملاً من تلك الحالة الخاصة به، وهي أن إخراج نبي أو اضطراره للهجرة بسبب من يأسه من إيمان قومه فلابد، وأن يتبعه إهلاك الكافرين المكذبين، ولقد استمر هذا الوعيد باستبدال قومه بآخرين حاضراً - بل ومع اتباعه كذلك إن خالفوه وعصوه- حتى زمن نزول سورة محمد، ويمكن اعتبار سنة نزول سورة الأحزاب هي فاتحة التفاؤل النبوي بالنصر الحاسم [423]؛ لذا فنحن نميل إلى تأخرها إلى ما بعد نزول سورة محمد كما فعل بعض الباحثين[424] . إذاً، فيمكن لمن يشاء اعتبار تلك الآية من بين القوانين العامة التي استخلصها النبي من تأمله الخاص في مسار الدعوات الإلهية السابقة كما فهمها، ولا يعنينا في قليل أو كثير ما يمكن أن يقال عن تحققها أو عدمه، بل الذي يعنينا هنا هو محاولة فهم العقل النبوي واستخراج طريقة تقعيده واستنتاجاته .

---

[424] (انظر قائمة نولدكة - بلاشير - في كتاب مدخل إلى القرآن- محمد عابد الجابري - ص 240

(3)
الأنبياء والمنافقون !

﴿ ۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ۝٦٠ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ۝٦١ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۝٦٢﴾ [الأَحْزَاب : 60-62] .

(ثم قال: ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ﴾ أي: هذه سنته في المنافقين إذا تمردوا على نفاقهم وكفرهم ولم يرجعوا عما هم فيه، إن أهل الإيمان يسلطون عليهم ويقهرونهم، ﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا۝٦٢﴾ أي: وسنة الله في ذلك لا تبدل ولا تغير[425].)

﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ﴾: أي سن الله هذه السنة في الأمم الماضية أينما ثقف المنافقون والمرجفون أخذوا وقتلوا تقتيلا ﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا۝٦٢﴾ : أي منه تعالى إذ هي ليست أحكاماً يطرأ عليها التبديل والتغيير بل هي سر التشريع وحكمته[426])
ومن أمثلة التولعات النبوية بالتعميم تلك الآيات السابقة، والتي توجه تحذيراً عنيفاً إلى المنافقين ومروجي الإشاعات الكاذبة، وتحضهم على الكف عن ذلك، وإن لم يفعلوا فسوف يسلط الله عليهم رسوله؛ فيطردهم إلى خارج المدينة محكوماً عليهم بالقتل أينما وجدوا، مصحوبين باللعنة أينما حلوا، ثم تأتي الآية التالية لها لتقرر بأن هذا المصير الأليم للمنافقين الكاذبين ليس ابتداعاً جديداً، بل هي سُنة أزلية قد أرساها الله من قديم الزمان والنبي يمضي فيها .

ولكن إذا تذكرنا أن القرآن الكريم لم يحك لنا عن قصة نبي واحد، وقد قويت شوكته بعد ضعف، وأصبح قادراً على فرض شريعته على مخالفيه - عدا عدد قليل من

---

(425) تفسير القرآن العظيم-ابن كثير - ج6 ص483 - تحقيق سامي سلامة - دار طيبة للنشر والتوزيع- الطبعة: الثانية - - 1999 م

(426) أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير- أبو بكر جابر الجزائري- - مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية - الطبعة: الخامسة، 2003م- ج4 ص 293

الأنبياء ممَنْ وهبهم الله المُلك كداود وسليمان - وإن لم يحك لنا أن شيئًا من ذلك قد حدث لهما -، بل، وإذا تذكرنا أن العرب لم يعرفوا كلمة (منافق) أصلاً قبل الإسلام[427] وما كان لهم أن يعرفوها - فكما هو معروف فلابد وأن يسبق الاسم وجود المُسمى - وليست كلمة (منافق) تعني في العربية مطلق أن يظهر الإنسان شيئاً ويخفي في باطنه غيره، بل جاءت تلك الكلمة القرآنية خاصة بحالة واحدة وهي إعلان الإيمان باللسان وإخفاء الكفر أو الارتياب بشكل خاص، ولم يكن في جزيرة العرب - كما هو معلوم - سلطة عامة تستطيع فرض آرائها جبراً، أو يخضع لها الناس رغم أنوفهم فينافقونها بألسنتهم مضطرين خائفين ؛ فظاهرة النفاق إذن ظاهرة خاصة جداً، ويمكن اعتبارها من بين محليات الدعوة الإسلامية حيث لم نعرف أبداً بوجود نبي من الأنبياء السابقين قد وجد من بين أتباعه عدد وافر من المؤمنين ظاهرياً بدعوته، حتى إنهم يحضرون معه الصلوات، ويجلسون إليه كما يجلس إليه عامة المؤمنين، ولكنهم يخفون في بواطنهم الكفر به وعدم تصديقه، ولكن النبي هنا يجعل من هذا الملمح الخاص بمسيرة دعوته قانوناً وسنة إلهية ؛ أي بأن يسلط الله نبيه على أمثال هؤلاء فيخلص الجماعة المؤمنة من أمثال هؤلاء المنافقين الذين كانوا يندسون فيهم ويشيعون الأباطيل بينهم.

أما عن سبب استخلاص النبي لهذا القانون فلم يكن خلفه من سبب - في اعتقادنا - سوى أن النبي كان متيقناً بأن أي نبي من الأنبياء السابقين لم يكن ليفعل مع هؤلاء المنافقين سوى مثل ما فعله هو بهم، ويشبه هذا اعتقاد النبي في أنه لا ينبغي لأي نبي إذا ما لبس عدة الحرب أن ينزعها عنه دون أن يحارب عدوه ؛ لذا فليس من الضروري أبداً أن نجد سنداً لمثل هذا الاعتقاد في المرويات الكتابية بل يكفي أن يراه النبي كذلك.

(لا ينبغي لنبي إذا أخذ لأمة الحرب وأذن في الناس بالخروج إلى العدو أن يرجع حتى يقاتل [428]).

---

(427) (فكان مما جاء فِي الإسلام ذكر المؤمن والمسلم والكافر والمنافق. وأنَّ العرب إنَّما عرفت المؤمن من الأمان والإيمان وهو التصديق. ثُمَّ زادت الشريعة شرائطَ وأوصافاً بِهَا سُمِيَ المؤمن بالإطلاق مؤمناً. وكذلك الإسلام والمسلم، إنّما عَرَفت منه إسلامَ الشيء ثُمَّ جاء فِي الشَّرع من أوصافه مَا جاء. وكذلك كَانَتْ لا تعرف من الكُفر إلاَّ الغِطاء والسِّتْر. فأما المنافق فاسمٌ جاء بِهِ الإسلام لقوم أَبْطنوا غير مَا أظهروه، وَكَانَ الأصل من نافقاء اليَرْبوع. وَلَمْ يعرفوا فِي الفِسْق إلاَّ قولهم: "فَسَقَتِ الرُّطبة" إذَا خرجت من قِشرها، وجاء الشرع بأن الفِسق : الأفحاش فِي الخروج عن طاعة الله جلّ ثناؤه)(انظر - الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها- ابن فارس - نشرة بيضون - الطبعة الأولى -1997م- ص45)

(428) السنن الكبرى للبيهقي 7\65 وعلقه البخاري بأن ذكره في باب المشاورة بغير إسناد)

أما كيف بلغ النبي تلك النقطة البعيدة واستخرج من تجربته الخاصة هذا القانون الشامل؟

فلا نشك في أن هذا القانون العام إنما هو ترجمة متأخرة لمسار الدعوة المحمدية وتعبيراً ختامياً عما لحق بمسار تلك الدعوة من تطورات هائلة.

ففي البداية نجد أن النبي لم يكن يعلم ما سيقدره الله لدعوته من النجاح أو الفشل، بل كان النبي يمضي في دعوته إلى الله دون أن يعلم أن كان الله سيقيض لدعوته النجاح فيؤمن به الناس فينجون من عذاب الله ويمتعون إلى حين، أو يكذبونه كما كذبت الأمم السابقة أنبيائها، فيحيق بهم ما حاق بالأمم السابقة من الهلاك والتدمير مثلما تعبر عنه هذه الآيات وسواها كثير: ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾ ﴾ [الأَحْقَاف : ٩][429]، ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ

لمزيد من أمثال تلك الأحاديث - انظر - مختصر غاية السول في خصائص الرسول - لابن الملقن - اختصره : د احمد بن عثمان المزيد - الطبعة الأولى 2017م - مدار الوطن للنشر - الرياض - ص 25

[429](وَما أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلا بِكُمْ" يُرِيدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. وَلَمَّا نَزَلَتْ فَرِحَ الْمُشْرِكُونَ وَالْيَهُودُ وَالْمُنَافِقُونَ وَقَالُوا: كَيْفَ نَتَّبِعُ نَبِيًّا لَا يَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِهِ وَلَا بِنَا، وَأَنَّهُ لَا فَضْلَ لَهُ عَلَيْنَا، وَلَوْلَا أَنَّهُ ابْتَدَعَ الَّذِي يَقُولُهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهِ لَأَخْبَرَهُ الَّذِي بَعَثَهُ بِمَا يَفْعَلُ بِهِ، فَنَزَلَتْ" لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَما تَأَخَّرَ" [الفتح: 2] فَنَسَخَتْ هَذِهِ الْآيَةَ، وَأَرْغَمَ اللَّهُ أَنْفَ الْكُفَّارِ. وَقَالَتِ الصَّحَابَةُ: هَنِيئًا لَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَقَدْ بَيَّنَ اللَّهُ لَكَ مَا يَفْعَلُ بِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَلَيْتَ شِعْرَنَا مَا هُوَ فَاعِلٌ بِنَا؟ فَنَزَلَتْ" لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ"(الفتح: 5) الْآيَةَ. وَنَزَلَتْ" وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيراً" (الأحزاب: 47) قَالَهُ أَنَسٌ وَابْنُ عَبَّاسٍ وَقَتَادَةُ وَالْحَسَنُ وَعِكْرِمَةُ وَالضَّحَّاكُ)

(تفسير القرطبي- ج16 ص 185 - تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش - دار الكتب المصرية - القاهرة الطبعة: الثانية، - 1964 م)

وليس في هذه الآية ما يدل من قريب أو بعيد على جهل النبي بمصيره الأخروي ! ونعجب من قول القرطبي بفرح المشركين واليهود والمنافقين بينما هذه السورة بكاملها مكية، ولم يكن ثم يهود أو منافقين في مكة ليفرحوا أو يحزنوا ! ولا نظن أن المفسرين قد ذهبوا إلى هذا التفسير إلا بسبب من هذا الحديث التالي الذي احتج فيه النبي على من رآه يقطع دون برهان على مصير أحد صحابته الصالحين فقال هذا الحديث الذي ساق المفسرين إلى هذا المعنى الفاسد الذي لا يقبله العقل ولا يؤيده النقل !

(أن عثمان بن مظعون لما قبر قالت أم العلاء: طبت أبا السائب في الجنة فسمعها نبي الله صلى الله عليه وسلم فقال: من هذه؟ فقالت: أنا يا نبي الله قال وما يدريك؟ قالت: يا رسول الله عثمان بن مظعون!! قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :أجل عثمان بن مظعون ما رأيناه إلا خيرًا وها أنا رسول الله صلى الله عليه وسلم والله ما أدري ما يصنع بي) ولا يدل هذا الحديث -كما ترى- إلا على ضيق بالنبي بالمصادرة الواثقة على مشيئة الله والقطع الجازم بشيء من الغيوب التي استأثر بها الله عن أفعال عباده وبواطنهم دون أن يعني ذلك أبدا أن النبي لم يكن يدري مصيره في الآخرة كنبي ينطق عن الله ويدعو إلى سبيله فلا يعقل أن النبي لم يكن يعلم أن الله يشمل المؤمنين برحمته ويعذب الكافرين بعدله وحكمته والا ففيم كانت دعوته أصلا ؟!!) (انظر هذه الرواية في كتاب- التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان وتمييز سقيمه من صحيحه، وشاذه من محفوظه - الشيخ الألباني برقم (642)

جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ [الأنعام : ٣٤] ، ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ [يُوسُف : 110]

ولم يكن النصر في البداية يعني سوى شيئاً واحداً، وهو أن يهلك الله الكافرين ويخرج النبي ومن معه من بينهم سالمين، مثلما فعل الله من إنجائه هودًا وصالحًا وشعيبًا وسواهم من الأنبياء ودمر أقوامهم المكذبين، ثم عندما توالت علامات النجاح والتوفيق فقد خطا النبي خطوة أخرى تعبر عنها هذه الآية التي معنا من سورة الأحزاب: ﴿ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوَلَّوُاْ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ [الفَتْح : 22 – 23.]

ثم جاءت تلك الآية السابقة من سورة الفتح، والتي تقرر أن الكافرين لن يثبتوا أمام المؤمنين في أي مواجهة حربية قد تحدث بين الفريقين، وأن النصر الدنيوي سيكون - حتماً ولا محالة - من نصيب المؤمنين الصادقين، ولسنا بحاجة للقول بأن تلك القوانين العامة إنما هي في حقيقة الأمر ترجمة متأخرة لمسار الدعوة المحمدية، ولكن النبي - كما ترى- قد جعل ما حدث معه هو ذات ما فعله الله بالأنبياء السابقين رغم خلو القرآن من أي شبيه لذلك.

(4)
الأنبياء والنساء

﴿ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ﴾ [الأَحْزَاب : 38] .

) يَقُولُ تَعَالَى: ﴿ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُ ﴾ أَيْ: فِيمَا أَحَلَّ لَهُ وَأَمَرَهُ بِهِ مِنْ تَزْوِيجِ زَيْنَبَ الَّتِي طَلَّقَهَا دَعِيُّه زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ وَقَوْلُهُ: ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ ﴾ أَيْ: هَذَا حُكْمُ اللَّهِ فِي الْأَنْبِيَاءِ قَبْلَهُ، لَمْ يَكُنْ لِيَأْمُرَهُمْ بِشَيْءٍ وَعَلَيْهِمْ فِي ذَلِكَ حَرج، وَهَذَا رَدٌّ عَلَى مَنْ تَوَهَّم مِن الْمُنَافِقِينَ نَقْصًا فِي تَزْوِيجِهِ امْرَأَةَ زَيْدٍ مَوْلَاهُ ودَعيه، الَّذِي كَانَ قَدْ تَبَنَّاهُ [430])

(وإن تلقينا بشيء من الإغضاء بعض الآثار الضعيفة التي ألصقت بقصة تزوج زينب كان داود عليه السلام عبرةً بالخصوص فقد كانت له زوجات كثيرات وكان قد أحب أن يتزوج زوجة (أوريا) وهي التي ضرب الله لها مثلاً بالخصم الذين تسوروا المحراب وتشاكوا بين يديه. وستأتي في سورة ص، وقد ذُكرَت القصة في «سفر الملوك». ومحلاً لتمثيل بداود في أصل انصراف رغبته إلى امرأة لم تكن حلالًا له فصارت حلالًا له، وليس محل التمثيل فيما حف بقصة داود من لوم الله إياه على ذلك كما قال: وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه (ص: 24) الآية لأن ذلك منتف في قصة تزوج زينب[431])

من القواعد العامة التي استخلصها النبي - كذلك - من تجربة شخصية - بل تجربة بالغة الخصوصية - وقعت له، وجعل منها قاعدة عامة، وسُنة مطردة من سُنن الله تلك القاعدة التي قررتها هذه الآية السابقة، والتي تجعل من إباحة الله للنبي - عليه السلام - الزواج من مُطلقة ابنه بالتبني، زيد بن حارثة - سُنة عامة ؛ حيث نراها تعود بعيداً إلى الوراء لتجد في تجارب الأنبياء الأقدمين ما يمكنه أن يرفع عن النبي هذا الحرج - الذي لم يكن هناك في الحقيقة من موضع له، وإن بدا صادماً لمألوفات قومه، والذين جعلوا

---

(430) تفسير ابن كثير - ج6 ص 427- طبعة سلامة)

(431) التحرير والتنوير - الطاهر بن عاشور - ج22 ص 41

من عوائدهم الخاصة بهم والتي لا أصل لها في الشريعة الإلهية القديمة ما جعله يتحرج من مخالفتهم-، ولكن النبي محمد استجمع شجاعته الأدبية وفعلها؛ فالأمر المهم عنده هو أن يخشى الله، وألا يتعد حدوده وشريعة العرب هي من كانت تحرم ذلك لا شريعة الله، وهذه القصة إنما هي قصة إنسانية للغاية لمَن يريد أن يفهمها على وجهها الصحيح لا ليتخذ منها مطعناً في أخلاق النبي.

وهناك من المفسرين من توسع في فهم دلالة هذه الآية ولم يحصرها كغيره بقصة زواج النبي بامرأة زيد مثلما فعل هذا المفسر وسواه: (فيما فرض الله له، قال الحسن: فيما خص به من صحة النكاح بلا صداق. وقال قتادة: فيما أحل له. وقال الضحاك: في الزيادة على الأربع، وكانت اليهود عابوه بكثرة النكاح وكثرة الأزواج، فرد الله عليهم بقوله: سنة الله: أي في الأنبياء بكثرة النساء، حتى كان لسليمان، عليه السلام، ثلاثمائة حرة وسبعماية سرية، وكان لداود مائة امرأة وثلاثمائة سرية. وقيل: الإشارة إلى أن الرسول جمع بينه وبين زينب، كما جمع بين داود وبين التي تزوجها بعد قتل زوجها[432])

إذن، فهذا المثال الأخير وإن بدا للوهلة الأولى أنه مجرد استشهاد من النبي بحادثة قديمة، إلا أنه في الحقيقة أكبر من ذلك، وسواء أتعلقت هذه القصة بقصة داود بشكل خاص[433] أم أنها تتسع لتشمل بعض الممارسات الخاصة التي شكل مجموعها ما

[432] البحر المحيط في التفسير- أبو حيان الأندلسي- تحقيق : صدقي محمد جميل- دار الفكر - بيروت -- 1420 ه - ج8 ص 484)

[433] (وَأَمَّا الْفَقِيرُ فَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَيْءٌ إِلاَّ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ صَغِيرَةٌ قَدِ اقْتَنَاهَا وَرَبَّاهَا وَكَبِرَتْ مَعَهُ وَمَعَ بَنِيهِ جَمِيعًا. تَأْكُلُ مِنْ لُقْمَتِهِ وَتَشْرَبُ مِنْ كَأْسِهِ وَتَنَامُ فِي حِضْنِهِ، وَكَانَتْ لَهُ كَابْنَةٍ.)(صموئيل الثاني 3:12)
ولن نقف هنا عند المقارنة بين ما جاء في التوراة وبين ما أورده القرآن الكريم عن النبي داود في سورة (ص) الآيات (21-26) ولكن يكفينا أ نشير هنا إلى صعوبة إلا تكون تلك القصة التوراتية حاضرة على الأقل في ذهن النبي وإن لطفها وشذبها - كالعادة - وجعل منها قصة أخرى لا علاقة لها تقريبا بتلك القصة القديمة الوضيعة لأنه ليس من اليسير أن تأتي كلمة (نعجة) لوصف المرأة في القصتين دون أن نستنتج أنهما تحكيان قصة واحدة وان اختلفت إحداهما عن الأخرى شديد الاختلاف، سواء أكان ذلك في أحداثها ووقائعها أو في دلالتها ومغزاها فليست المشكلة أبدا في وقوع رجل في الخطيئة ، فليس هذا بالغريب في شيء إنما يعنينا من تلك القصة القديمة هو بيان الفارق البعيد بين داود التوراتي وداود القرآني وأيضا بيان الفارق بين إله التوراة وإله القرآن !
حيث نجد أن القصة القديمة تحكي عن اشتهاء داود لامرأة ضابطه الشهم الشجاع بعد أن رآها تستحم عارية فأعجبه جمالها وأخذها إلى بيته واضجع معها ثم محاولته بعد أن استبان له حملها سفاحا منه أن ينسب ابنه من الزنا إلى الرجل الباسل الذي كان يحارب ويحاصر أعداءه ! وعندما لم يفلح في هذا الصنيع القبيح أوعز بقتله وضم امرأته إلى حريمه ، ثم أرسل الرب النبي ناثان إلى داود وقص عليه أمثولة مؤثرة تشبه ما جاء في القرآن، ثم عاقبه الله بعدها بعقوبات بالغة الفظاظة والوحشية فقد حكم الرب أولا بالموت على ابن السفاح المسكين، وأيضا قضى الرب ألا يفارق السيف بيت داود، والأشنع منهما انه قضى بأن تضاجع نساء داود علانية أمام شعب الرب - ويبدو أن كاتب التوراة كان مضطرا ليميت

سيسمى بكتب الشمائل النبوية؛ أي تلك الخصائص التي انفرد بها النبي دون بقية أمته، مثل زواجه بعدد من النساء أكثر مما حددته شريعة الإسلام [434] فهي تبين لنا - في جميع الأحوال - كيف جعل النبي من تلك السابقة الوحيدة سُنة من سُنن الأنبياء، وسنرى من أمثالها الكثير والكثير.

هذا الطفل المسكين وإلا فقد كان سيخلق لنفسه مشكلة عويصة بأن يجعل ابن داود (البكر) ووريث ملكه طفلا غير شرعي لأن الشريعة اليهودية قد حرمت على مثله الدخول في جماعة الرب إلى الجيل العاشر من أحفاده (تث 23:) (راجع القصة بتمامها في (صموئيل الثاني - الإصحاح الحادي عشر - الآيات من 1- 23)

ومن الطبيعي ألا يوافق المسلمون على تلك الواقعة كما روتها التوراة مثلما يعبر عنهم هذا الباحث

(وإننا نعتقد أن ما ذكره بعض المفسرين مجاراة لما جاء عن أهل الكتاب في شأن تعلق داود عليه السلام بامرأة أوريا ومن ثم تعريض زوجها للقتل أمر لا يليق بمقام النبوة والأنبياء فهم الصفوة المختارة بين البشر اصطفاهم الله سبحانه وتعالى لحمل رسالته ونشرها بين الناس ولا يعقل أن يقوم هؤلاء المصطفون بعمل من أعمال الكبائر نهت عنها رسالة السماء التي كان لهم شرف حملها وإلا بطلت الشرائع وأصبحت العقائد الدينية وما تضمنته من تعاليم سامية ومثل رفيعة محل شك ....) (انظر - داود وسليمان في العهد القديم والقرآن الكريم - دراسة لغوية تاريخية مقارنة - د - أحمد عيسى الأحمد - 1990م - ص 267و268)

والحقيقة الواضحة أنه لا يمكن لعاقل أن يرى شبها حقيقيا بين قصة زواج النبي محمد بمطلقة زيد وبين قصة داود مع أوريا الحثي كما أوردتها التوراة ! بل على فرض وقوع تلك القصة على الصورة التي أوردتها الروايات الإسلامية فلم يزن النبي - حاشاه - بالمرأة كما فعل داود ولا قتل زوجها ولا حاول أن يدس على فراش الرجل المخلص ثمرة خطيئته، ولا أي شيء من تلك القبائح بل ربما وقع في قلبه - كما يقولون - حب امرأة كان قد أرغمها من قبل على الزواج برجل لم تكن تريده ابتداءً، ثم استحالت العلاقة بينهما لبغضها إياه، واستطالتها عليه بحسبها ونسبها وقرابتها من النبي، فأي مشكلة أن يتزوجها هو بالذات بعد طلاقها منه ؟! ورغم كل تلك التبريرات التي ساقها القرآن من رغبته في إلغاء شريعة العرب في تحريم امرأة الابن المتبنى كالابن الصلبية فقد كان في نفس النبي شيء من الحرج لم يخفه القرآن ولم ينكره فأسعفته حالة داود وهى أشد منها ومنحته مخرجا أخلاقيا فجعل النبي من تلك الحادثة القديمة قانونا يقرر ألا شيء يقع في باطن الإنسان وقلبه إلا بإرادة الله وتقديره ؛ لذا فلا لوم ولا حرج ما دام النبي لم يتعد شريعة الله - حتى وإن تطلع إلى تلك المرأة وقت أن كانت لا تحل له- ، ولسنا بحاجة للقول بأن النبي محمد لم يكن ليتصور أن يفعل نبي من الأنبياء ما فعله داود أو حتى شيئا قريبا منه، فلم يكن النبي يعرف سوى داود آخر تقي عابد ولا علاقة له بداود التوراة الوضيع المتجبر

ولمن شاء أن يستبين ذلك فليس عليه سوى أن يقرأ سيرة داود كما جاءت في العهد القديم ويقرأ ما جاء عنه في القرآن، وربما يكفي لبيان صورة داود في الإسلام هذا الحديث الذي لا نشك في أنه كان سيصيب معاصري داود بالذهول لو أخبرهم أحد أن نبيا عربيا سيأتي بعد ألف وستة عام من وفاته ليقول هذا الحديث: (أحب الصيام إلى الله صيام داود وكان يصوم يوما ويفطر يوما وأحب الصلاة إلى الله صلاة داود كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه)(انظر صحيح الجامع الصغير وزياداته- برقم (170)

[434] (حدد التلمود عدد الزوجات بأربع للرجل العادي وثمانية عشرة للملك وبهذا كان سليمان حالة شاذة (انظر شرح سفر التكوين - أنطونيوس فكرى - ص 16)

(5)
التآمر على حياة الأنبياء

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ۝٥﴾ [غَافِر : 5] : (أي: حرصوا على قتله بكل ممكن، ومنهم من قتل رسوله [435]) (وقوله : ﴿ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ﴾ يقول تعالى ذكره: وهمت كل أمة من هذه الأمم المكذّبة رسلها، المتحزّبة على أنبيائها، برسولهم الذي أرسل إليهم ليأخذوه فيقتلوه [436]).

وإذا كانت هذه الكلمة ﴿ لِيَأْخُذُوهُ ﴾ غير صريحة في الدلالة على القتل، بل ربما تشير إلى رغبتهم في مطلق الإيذاء، ولكن الدلالة السياقية لها ترجح أن المقصود منها هو القتل دون سواه وهذا ما فهمه المفسرون منها.

فهذا إذن مثال واضح من أمثلة التعميمات التي أطلقها النبي - انطلاقاً مما حدث له - وسحبه كعادته على جميع الأنبياء السابقين من أنهم - ولابد - قد تعرضوا مثله لمحاولات القتل على يد المكذبين من أقوامهم سواء أكان ذلك غيلة أو قتلاً على رؤوس الأشهاد .

وهذه الآية التي جاءت في سورة مكية مبكرة توضح لنا أن هذا التعميم قد جاء بمجرد توجُس النبي من أنه ليس بعيداً عن القتل غيلة أو علانية على يد المشركين الغاضبين من دعوته ومما قد تجلبه عليهم دعوته إن قيض لها النجاح، والحقيقة إننا نعجب من هذا التعميم العجيب، فمن الممكن- بطبيعة الحال - أن نقبل أن بعض الأنبياء قد تعرضوا لمثل ما هم به المشركون من قتل النبي [437] ولكن هذا التعميم - والذي لا

---

(435) تفسير القرآن العظيم - ابن كثير - تحقيق سامي سلامة - ج7 ص 129

(436) تفسير الطبري - تحقيق شاكر - مؤسسة الرسالة - ج21- ص 353

(437) ربما لم يتعرض نبي من الأنبياء السابقين لكل محاولات الاغتيال العديدة التي تعرض لها النبي محمد ونجا منها جميعا إلا إذا صدقنا ما يقال بشأن نجاح محاولة تسميمه على يد يهودية حاقدة، كما جاء في بعض كتب السير والاحاديث- اللهم إلا إذا صدقنا ما جاء في الكتاب المقدس عن حياة داود !- ولمن شاء أن يرجع إلى هذا الكتاب الحديث ففيه الكفاية لمن لم يشاء التعرف على تلك المحاولات العديدة والتي يجدها القارئ مبثوثة بين كتب السيرة القديمة انظر : (10 محاولات لاغتيال النبي صلى الله عليه وسلم) السيد مراد سلامة - دار الإيمان - الإسكندرية - 2004م

برهان عليه من القرآن الكريم- يثير الدهشة والحيرة؛ لأن مَن يقرأ ما أورده القرآن نفسه عن حياة كثير من الأنبياء فلن يجد فيه ما يتسق مع هذا التعميم العجيب. فعلى حين أن القرآن قد حكى لنا - مثلاً - عن تعرُض إبراهيم وموسى ونوح وهود وصالح للوعيد بالقتل، وتعرض شعيب لمثل ذلك نحو واضح، ناهيك عن المسيح- والذي لا ندري أقتل حقاً - كما تجزم الشهادات القريبة من عصره- أم أنه نجا كما يؤكد القرآن من أنه لم يقتل ولم يصلب سوى من ألقى الله عليه شبه المسيح - أضف إلى ذلك ما نسبه القرآن مراراً إلى اليهود من قتلهم الأنبياء بغير حق، ولكن عدا هؤلاء الأنبياء القلائل فقد خلا القرآن من أدنى إشارة لتعرض أنبياء آخرين مثل إدريس وسليمان وداود وزكريا ويعقوب ويوسف وإسماعيل وإسحاق وأيوب وغيرهم لأي شيء من هذا .

ولا يعنينا هنا سوى إعطاء مثل آخر للولع النبوي بالتعميم، ولا نقول هنا بتعارض هذا الحديث مع تاريخ الأنبياء كما ذكره القرآن، بل يكفينا هنا أن نرى كيف صيغت هذه الآية بتلك الكيفية حتى ليوحي ظاهرها على الاستغراق والشمول، رغم أن الأمر ليس كذلك وفق ما قصه علينا القرآن .

(6)
شياطين الإنس والجن

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرۡهُمۡ وَمَا يَفۡتَرُونَ ١١٢﴾ [الأَنْعَام : 112] .

(يَقُولُ تَعَالَى: وَكَمَا جَعَلْنَا لَكَ يَا مُحَمَّدُ أعداء يخالفونك ويعادونك ويعاندونك، جَعَلْنَا لِكُلِّ نبِيٍّ مِنْ قَبْلِكَ - أيضا - أَعْدَاءً فلا يحزنك ذلك[438])، (كلامٌ مبتدأٌ مَسوقٌ لتسليةِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم عما كان يشاهده من عداوة قريش له عليه الصلاة والسلام وما بنَوْا عليها مما لا خير فيه من الأقاويل والأفاعيلِ ببيان أن ذلك ليس مختصاً بك بل هو أمرٌ ابتُليَ به كلُّ من سبَقك من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام[439])

[438] انظر - مختصر تفسير ابن كثير- اختصار وتحقيق: محمد علي الصابوني - دار القرآن الكريم، بيروت - لبنان الطبعة: السابعة، - 1981 م - ج1 ص 609

[439] انظر تفسير أبي السعود- دار إحياء التراث العربي - بيروت - ج3 ص 175

ومن بين التعميمات التي استخرجها النبي من مسيرة دعوته ومنحها لجميع الأنبياء السابقين هذا الاعتقاد الراسخ بتظاهر أعداء الرسالات الإلهية على الأنبياء، واجتماع شرار الخلق من الإنس والجن للصد عن السبيل، وصرف الناس عن الإصغاء لرسالات الله مما يوحي باعتقاد النبي في أن عقيدة الجن كانت حاضرة عند جميع الأنبياء السابقين، ومن المعروف أن عقيدة الجن - على النحو الذي رأيناه في الفصل السابق- إنما كانت اعتقاداً عربياً، ليس من الميسور أن نجد له شبيهاً خارج ثقافة بيئة النبي، فما بالنا بأن يكون موجوداً عن الأمم كافة مثلما يدل عليه ظاهر هذا الآية، ولكن النبي لم يكن يظن سوى أن ما كان يجده في بيئته الثقافية كان موجوداً عند جميع الأمم السابقة.

(7)

قوانين عامة أخرى من القرآن الكريم

﴿ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ٢٣﴾ [الزُّخْرُف : 23]، ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ٣٤﴾ [سَبَإ : 34] .

(في الآيات تقرير رباني عن عادة الزعماء ذوي النعمة والترف في الأمم من الوقوف موقف الجحود والعناد من رسل الله، وحكاية لما يقولونه حيث كانوا يقولون: إننا الأكثر أموالا وأولادا، وإننا سنكون من أجل ذلك في نجوة من العذاب[440]) .

فمَن ينظر مثلاً في دلالة تلك الآيات السابقة فسيراها تقرر بأن المترفين في كل الأمم السابقة هم مَنْ تولوا كبر معارضة الأنبياء وناصبوهم العداء، وجهروا بكفرهم لله كما لو كانت دعوة الأنبياء جميعاً كانت دعوة ثورية جاءت لقلب الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية المستقرة على صيغ جائرة ظالمة ؛ لذا فلابد وأن يعارضها الأغنياء المترفون؛ لأنها كانت تهدم مكانتهم وتتعارض مع مصالحهم، والحقيقة أن هذا أمر غير مُتصور على هذه الصورة العامة.

(440) التفسير الحديث - محمد عزت دروزة - دار إحياء الكتب العربية - القاهرة - 1383 ه القاهرة- ج4 ص 286

أما لماذا اعتقد النبي ذلك ؟!، الحقيقة الواضحة أن النبي كان ينظر إلى معارضيه هو من أهل مكة، وقد كانوا في جملتهم من أهل اليسار والمنتفعين ببقاء الأوضاع على ذلك النحو الظالم الذي كانت عليه في المجتمع المكي زمن البعثة النبوية، ولكن النبي بتولعه بالتعميم سحب تلك الحالة الخاصة به وبمجتمعه، وجعلها قانوناً شاملاً ينتظم كل المجتمعات البشرية السابقة ما عرف منها وما جهل!، تماماً كما فعل بالتعاليم الدينية التي تابعها وطورها، فمثلاً إذا كان التوحيد الصارم هو أساس الاعتقاد المحمدي كله فلابد وأن الأنبياء جميعا كانوا ينطلقون من هذا المفهوم: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الأَنبِيَاء : 25.]

وإذا كان النبي مثلاً يثبت لله صفة الغفور والمعاقب لعباده، فلابد وأن الرسل جميعاً قد أوحى الله إليهم بتلك الصورة عنه، وكشف لهم الله عن ذات الصفات الجليلة التي جاء بها الإسلام..: ﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدۡ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبۡلِكَۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٖ ﴿٤٣﴾ ﴾ [فُصِّلَت : 43.]

وإذا رأى النبي أن الشِرك يحبط صالح الأعمال ويبطلها، فلابد وأن الأنبياء كانوا يعتقدون فيما اعتقد فيه، وأوحى الله اليهم بمثل تلك العقيدة: ﴿ وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [الزُّمَر : 65.]

وإذا كان النبي يفسر كل ما تتقلب فيه المجتمعات من وفرة أو من شدة فيجعله بسبب من الإيمان بالله، أو إلى الكفر بأنعمُه فلابد، وأن ذلك قد حدث مع الأمم كلها، ولم يكن النبي بحاجة إلى ذكر أي شيء عن تلك الأمم فهو يسوق قانوناً إلهياً شاملاً لا يستثني أحدا فلا حاجة لتخصيص ولا ضرورة لتفصيل.

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾ [الأَعۡرَاف : 94] .

ولعل فيما قدمناه الكفاية.

ثالثا: السنن والقوانين العامة من الأحاديث النبوية:

بعد أن قدمنا بعضاً من الأمثلة القرآنية على تلك التعميمات وما استخرجه النبي من قواعد وسنن كونية عامة من تأمله الذاتي في مسار الدعوات الإلهية، وما استنبطه من تجاربه الخاصة، فسنعرض هنا - أيضاً - بعضاً من تلك القوانين العامة كما جاءت في الأحاديث النبوية الصحيحة، لنرى من خلالها مزيداً من الأمثلة على ولع النبي بالتعميم، ولنرى أن ذات قانون التفكير الذي كان يقف خلف القرآن هو ما سنراه هنا في أمثال هذه الأحاديث مما يدل على وحدة مصدريهما [441].

---

[441] حاول العلامة د إبراهيم عوض أن يستدل على اختلاف مصدري القرآن الكريم والأحاديث النبوية من خلال تقديم دراسة طريفة يقارن فيها بين أسلوب القرآن وبين الأحاديث النبوية فجاء كتابه هذا مسليا مفيدا في كل شيء اللهم إلا في بيان ما استهدفه صاحبه منه ! أما عن أصل فكرة الكتاب فهو توسع لما نقله المؤلف في صفحات كتابه الأولى عن الباقلاني من قوله : (إذا وازنا بين خطبه عليه السلام ورسائله وكلامه المنثور وبين نظم القرآن تبين من البون بينهما مثل ما بين كلام الله عز وجل وبين كلام البشر)(ص5)

وما نقله المؤلف - أيضا - عن الشيخ الشعراوي الذي يؤكد أننا : (إذا ما جئنا بأسلوب قرآني وأسلوب حديث قدسي وأسلوب حديث نبوي فسنجد أساليب ثلاثة لا يمتزج فيها أسلوب بأسلوب، بل لكل أسلوب خواصه ومميزاته وطبائعه . فهل يستطيع بشر أن يجعل لموهبته الأساسية ثلاثة أساليب بحيث يقول : أنا الآن سأتكلم بأسلوب قرآن، ثم يقول : أنا الآن سأتكلم بأسلوب حديث قدسي، ثم يقول : أنا الآن سأتكلم بأسلوب حديث نبوي ؟ أن هذا لا يمكن أن يكون في طاقة البشر) (السابق ص6

والحقيقة أن هذا كله كلام غريب وغير مفهوم ! فمن الطبيعي أن تختلف مفردات الشاعر والناثر والمتكلم، ويكفي أن يقرأ احد ديوانا من دواوين شاعر محدث مثل محمود درويش - مثلا - ثم يقرأ بعدها مقالاته الصحفية ويقرأ بعدهما احاديثه بين أصحابه فهل يا ترى سيجد اختلافا في أسلوبه وألفاظ تعبيره ومفرداته أقل مما يجده قارئ القرآن وقارئ الاحاديث نبوية كانت أم قدسية .؟ !

ولعل ما نقدمه هنا من محاولة استخراج طرائق التفكير التي كانت تقف من خلف القرآن ومن خلف الأحاديث - أيضا - ما يكفي لبيان وحدة مصدريهما فهي محاولة - على تواضعها البالغ - ربما كانت أكثر جوهرية ما حشا به المؤلف كتابه بمئات من مفردات الأحاديث النبوية في شتى مناحي الحياة ؛ لكي يقول بعدها بأنه لم يجد أثرا لكثير منها في القرآن، حيث لم يعثر - مثلا- على أي أثر للمفردات اليومية التي جاءت في الاحاديث النبوية مثل أسماء الأطعمة والأشربة والألبسة والأدهنة والحلي الخ ، ولا ندري كيف ساغ لرجل في ذكاءه وسعة علمه أن يتخذ من تلك الوسيلة الغريبة برهانا على هذا ؟! فضلا أن يزهو بهذه الدراسة فيصفها على غلاف كتابه بأنها (أول دراسة من نوعها في تاريخ الفكر الإسلامي !) (انظر - القرآن والحديث مقارنة أسلوبية - د إبراهيم عوض - مكتبة زهراء الشرق - القاهرة - 2000م)

(1)
الأنبياء والمعجزات

(عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: "مَا مِنَ الأَنْبِيَاءِ مِنْ نَبِيٍّ إِلاَّ قَدْ أُعْطِيَ مِنَ الآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْياً أَوْحَى اللهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعاً يَوْمَ الْقِيَامَةِ [442]).

من يقرأ هذا الحديث فسيراه يقرر بوضوح أن الله قد أعطى جميع الأنبياء السابقين آيات ومعجزات تؤيد صدق نبوتهم، ولكن لما كانت كل تلك المعجزات السابقة معجزات مادية حسية فلا تؤثر إلا في من يشاهدها بعينيه، كقلب العصا حية، وفلق البحر لموسى، وكإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى للمسيح، وناقة صالح ، فقد أعطى الله لنبيه محمداً معجزة معنوية خالدة؛ لذا فهو يرجو أن يكون أكثر الأنبياء أتباعا يوم القيامة؛ لاستمرار معجزته وبقائها إلى انقضاء الزمان .

ولكن قارئ القرآن يعلم بأن الله قد آتى - أيضاً - بعض الأنبياء السابقين تنزلات إلهية مثل القرآن تماماً، مثلما أعطى موسى التوراة وداود الزبور والمسيح الإنجيل؛ لذا فلا ندري إذاً ما هي خصوصية القرآن هنا كمعجزة معنوية، إن كانت جميع تلك الكتب السابقة هي وحي منزل - أيضاً - من عند الله - أيضاً - ؟ !

وأيضاً فمن يقرأ القرآن الكريم والأحاديث النبوية الصحيحة، فلن يجد فيهما سوى أن قلة قليلة من الأنبياء هم الذين أعطاهم الله المعجزات الدالة على صحة نبوتهم وفق التعريف الدقيق للمعجزة أي بأنها (أمر خارق للعادة يظهره الله على يد مدع للنبوة تصديقا له[443]) .

فهذا التعريف السابق للمعجزة لا ينطبق إلا على عدد قليل للغاية من الأنبياء مثل موسى وعصاه وآيات المسيح العديدة، وتسخير الجن لسليمان وناقة صالح، وإنقاذ إبراهيم من النار وقد ألقى فيها-، وربما لا ينطبق وصف المعجزة على ما جرى ليونس فلم يكن من شاهد على ما جرى له - ، ولكن ما هي معجزة نوح أو إسحاق أو يعقوب أو إسماعيل أو لوط أو إدريس أو شعيب أو أيوب ومعهم بقية أنبياء القرآن الكريم ؟!

---

[442] الحديث أخرجه مسلم حديث (152)، وأخرجه البخاري في " كتاب فضائل القرآن " " باب كيف نزل الوحي وأول ما نزل" حديث (4981)

[443] للتعرف على معنى المعجزة وأنواعها انظر كتاب : إعجاز القرآن - د حسين نصار - مكتبة مصر - الطبعة الأولى 1999م ص (297) وما بعدها

والأكثر من ذلك أننا نجد القرآن الكريم يصرح بوضوح بأن بعض الأنبياء السابقين لم يأتوا أقوامهم ببينة أبداً مثلما جاء على لسان قوم عاد يخاطبون نبيهم هودا : ﴿ قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ وَمَا نَحۡنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوۡلِكَ وَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ٥٣ ﴾ [هُود : 53.]

وإليك هذا الحديث الذي يصرح بأن الله قد أعطى (بعض) الأنبياء معجزات ولم يعط جميعهم: (سألت ربي مسألة وودت أني لم أسأله، قلت: يا رب! كانت قبلي رسل منهم من سخرت له الرياح ومنهم من كان يحيي الموتى، - وكلمه موسى- قال: ألم أجدك يتيما فآويتك؟ ألم أجدك ضالا فهديتك؟ ألم أجدك عائلا فأغنيتك؟ ألم أشرح لك صدرك ووضعت عنك وزرك؟ قال: فقلت بلى يا رب!(فوددت أن لم أسأله[444]).

بل، إننا نجد أحاديث أخرى كثيرة تقرر بأن كثيراً من الأنبياء لم يؤمن بهم أحد قط؛ فأين كانت إذن تلك المعجزات القاهرة؟!، وكيف يُعقَل أن يكون الأنبياء جميعاً قد جاءوا قومهم بمعجزات- وإن لم يذكرها القرآن- ثم لا يؤمن بها ولو رجل واحد؟!، مثلما ينص على ذلك هذا الحديث: (قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أنا أول شفيع في الجنة لم يصدق نبي من الأنبياء ما صدقت، وإن من الأنبياء نبياً ما صدقه من أمته إلا رجل واحد " [445].)، ومثله ما جاء في حديث الشفاعة الطويل (ثم يقال: ادعوا الأنبياء، فيجيء النبي معه العصابة، والنبي معه الخمسة والستة، والنبي ليس معه أحد،.....[446].)

ولا يعنينا في قليل أو كثير أن نشير إلى تناقض هذه الأحاديث مع بعضها البعض، بل كل ما يعنينا هو أن ندرك أن طريقة التعبير النبوية المولعة بالتعميم هي التي كانت تقود إلى مثل هذه التعارضات الصورية أما كيف تصور النبي مثل هذا الحصاد المحزن لبعض الأنبياء؟!

فيكفي أن نعرف كيف رأى النبي أن كل دعوة إلهية لا بد، وأنها قد وجدت من يستجيب لها حتى لو كان رجلاً واحداً، ثم مضى النبي إلى أبعد من ذلك في تقريره لسوء استجابة السابقين لدعوة الأنبياء حتى وجدنا أن نبياً من الأنبياء يرسله الله إلى قومه

[444] الصحيحة برقم (2538)
[445] رواه مسلم
[446] صحيح الترغيب والترهيب - الألباني برقم (3641)

بالمعجزات ثم لا يستجيب لدعوته ولو رجل واحد كما ينص عليه هذا الحديث الأخير وليس لأحد أن يتساءل عن هذا النبي المجهول وأي نبي هو؟، فالحقيقة أنه لا ضرورة مطلقاً لأن يسميه النبي؛ لأنه لم يكن سوى مجرد نبي افتراضي خالص، فقد كان يكفي النبي اعتقاده في أن اتباع الأنبياء كانوا قلة في كل العصور- كما نص على ذلك القرآن مراراً - فلا غرابة أن يكون من بين هذه الحشود الهائلة من الأنبياء نبي لم يصدقه إلا رجل واحد، ولا يبعد أن يكون هناك نبي آخر لم يفلح حتى في إقناع ولو رجل واحد بدعوته ؛ لأنه إذا كان نبي مثابر ورسول صبور مثل نوح، وقد قضى قرابة الألف عام في قومه داعياً إلى الله، ولم يستجب له كما أخبرنا القرآن إلا (قليل) فهل من الغريب في شيء أن يفترض النبي أنه من بين جميع هؤلاء الأنبياء نبي لم يقيض له ما قيض لنوح؟.!

(ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويتقيدون بأمره ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون ويفعلون ما لا يؤمرون فمَن جاهدهم بيده فهو مؤمن ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل[447]).

ولكن بعد أن لاقت دعوة النبي النجاح وقيض الله لها الذيوع والانتشار حتى نراه يعمم ما حدث له، فيُقرر في الحديث السابق بأنه ما من نبي إلا وكان له من أمته أتباع مخلصون يقتدون به ويتمسكون بشريعته، فأين كان هؤلاء الحواريون لأمثال ذاك النبي الذي لم يؤمن به أحد أو آمن به رجل أو اثنان؟!، وقل مثل ذلك عن هذين الحديثين رغم ارتيابنا في هذا النوع من أحاديث المناقب : (إن لكل نبي أمينا وأميني أبو عبيدة بن الجراح[448])، (إن لكل نبي حواريا وإن حواري الزبير[449]).

(447) صحيح الجامع الصغير وزياداته برقم (5790)
(448) صحيح الجامع الصغير وزياداته برقم (2154)
(449) صحيح الجامع الصغير وزياداته برقم (2155)

(2)
الأنبياء لا يورثون

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾﴾ [مَرْيَم : 4-6] .

(وَرُوِيَ عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ رَضِيَ اللَّهُ عنه أَنَّهُ كَانَ يَقْرَؤُهَا وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوالِيَ مِنْ وَرائِي بِتَشْدِيدِ الْفَاءِ بِمَعْنَى قَلَّتْ عَصَبَاتِي مِنْ بَعْدِي، وَعَلَى الْقِرَاءَةِ الْأُولَى وَجْهُ خَوْفِهِ أَنَّهُ خَشِيَ أَنْ يَتَصَرَّفُوا مِنْ بَعْدِهِ فِي النَّاسِ تَصَرُّفًا سَيِّئًا، فَسَأَلَ اللَّهَ وَلَدَا يَكُونُ نَبِيًّا من بعده ليسوسهم بنبوته ما يُوحَى إِلَيْهِ، فَأُجِيبَ فِي ذَلِكَ لَا أَنَّهُ خَشِيَ مِنْ وِرَاثَتِهِمْ لَهُ مَالَهُ، فَإِنَّ النَّبِيَّ أَعْظَمُ مَنْزِلَةً وَأَجَلُّ قَدْرًا مِنْ أَنْ يُشْفِقَ على ماله إلى ما هذا حده، وأن يَأْنَفَ مِنْ وِرَاثَةِ عَصَبَاتِهِ لَهُ وَيَسْأَلُ أَنْ يكون له ولد ليحوز ميراثه دونهم هذا وجه.

(الثَّانِي) أَنَّهُ لَمْ يُذْكَرْ أَنَّهُ كَانَ ذَا مَالٍ بَلْ كَانَ نَجَّارًا يَأْكُلُ مِنْ كَسْبِ يَدَيْهِ، وَمِثْلُ هَذَا لَا يَجْمَعُ مَالًا وَلَا سيما الأنبياء، فَإِنَّهُمْ كَانُوا أَزْهَدَ شَيْءٍ فِي الدُّنْيَا (الثَّالِثُ) أَنَّهُ قَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ غَيْرِ وَجْهٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ «لَا نُورَثُ، مَا تَرَكْنَا فَهُوَ صَدَقَةٌ» وَفِي رِوَايَةٍ عِنْدَ التِّرْمِذِيِّ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ «نَحْنُ مَعْشَرَ الْأَنْبِيَاءِ لَا نُورَثُ» ، وَعَلَى هَذَا فَتَعَيَّنَ حَمْلُ قَوْلِهِ فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي عَلَى مِيرَاثِ النُّبُوَّةِ، وَلِهَذَا قَالَ: وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ كقوله ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَنُ دَاوُۥدَ ﴿١٦﴾﴾ [النَّمْل : ١٦] أَيْ فِي النُّبُوَّةِ إِذْ لَوْ كَانَ فِي الْمَالِ لَمَا خَصَّهُ مِنْ بَيْنِ إِخْوَتِهِ بِذَلِكَ، وَلَمَا كَانَ فِي الْإِخْبَارِ بِذَلِكَ كَبِيرُ فَائِدَةٍ، إِذْ مِنَ الْمَعْلُومِ الْمُسْتَقِرِّ فِي جَمِيعِ الشَّرَائِعِ وَالْمِلَلِ أَنَّ الْوَلَدَ يَرِثُ أَبَاهُ، فَلَوْلَا أَنَّهَا وِرَاثَةٌ خَاصَّةٌ لَمَا أَخْبَرَ بِهَا، وَكُلُّ هَذَا يُقَرِّرُهُ وَيُثْبِتُهُ مَا صَحَّ فِي الْحَدِيثِ «نَحْنُ مُعَاشِرَ الْأَنْبِيَاءِ لَا نُورَثُ، مَا تَرَكْنَا فَهُوَ صَدَقَةٌ[450]).

---

[450] (تفسير ابن كثير - ج5 - ص 198-190)

نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة [451])، (.... وإن العلماء ورثة الأنبياء وإن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما إنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر [452]).

(أخبرنا قتيبة بن سعيد قال حدثنا أبو الأحوص عن أبي إسحاق عن عمرو بن الحارث قال ما ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم دينارا ولا درهما ولا عبدا ولا أمة إلا بغلته الشهباء التي كان يركبها وسلاحه وأرضا جعلها في سبيل الله وقال قتيبة مرة أخرى صدقة[453]).

ومن بين القواعد التي رآها النبي إرثاً نبوياً عامًا هو موقف الأنبياء من المال الذي يخلفونه وراءهم، فقد اعتقد النبي أنه لا ينبغي لأي نبي من الأنبياء أن يورث أهله شيئًا من حطام الدنيا، بل ينبغي له أن يخرج منها كما دخلها - مثلما فعل هو في مرض موته حيث- كما يقول كتاب السيرة - أعتق عبيده وتصدق بقليل ماله - ثم افترض بنبل كامل بأن الأنبياء السابقين كانوا جميعاً مثله في ذلك، فلم ير النبي نفسه أبداً أفضل من الأنبياء ولم يكن في اعتقاد نفسه أقل منهم لذا فلا غرابة أن يعتقد النبي في ذلك[454]).

والحقيقة التي نعرفها من تاريخ الأنبياء العبرانيين أنهم قد أورثوا أولادهم الأرض والمال والعبيد، بل ولقد جار بعضهم على بعض أولاده أسوء الجور، بل، وعامل بعضهم أبناءه بقسوة وازدراء، لا حنان ولا إنصاف فيه مثلما فعل أبو الأنبياء: (وأعطى إبراهيم

[451] ورغم ما يريبنا من هذا الحديث لتعلقه بقضية فدك واحتمال أن يكون حديثا مصنوعا موضوعا وضعه أهل الحديث فإننا رغم ذلك لا نعتقد بوضعه وانتحاله ، وذلك لوجود أحاديث أخرى صحيحة تؤيد معناه، مثل حرص النبي على أن تخرج نسوته تلك الدنانير الذهبية وتشديده في مرض موته على ذلك بين كل اغمائتين- بأبي هو وأمي - وأيضا اعتاقه لعبيده وهو ما جاءت به كتب السيرة مرارا

[452] (صحيح الترغيب والترهيب - الألباني - برقم (70)

[453] (صحيح مختصر الشمائل (336)

[454] ويبدو أن النبي كان يهم بفعل ذلك كلما ظن أنها النهاية مثلما يدل عليه هذا الحديث : (دخلت أنا وعروة بن الزبير يوما على عائشة فقالت : لو رأيتما نبي الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم في مرض مرضه قالت وكان له عندي سنة دنانير- قال موسى أو سبعة - قالت : فأمرني نبي الله صلى الله عليه وسلم أن أفرقها قالت : فشغلني وجع نبي الله صلى الله عليه وسلم حتى عافاه الله قالت ثم سألني عنها فقال : ما فعلت الستة ؟ - قال : أو السبعة - قلت : لا والله لقد شغلني وجعك قالت : فدعا بها ثم صفها في كفه فقال : ما ظن نبي الله لو لقي الله عز وجل وهذه عنده ؟يعنى سنة دنانير أو سبعة) (سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها برقم (1014)

إسحاق كل ما كان له، وأما بنوا السراري اللواتي كانت لإبراهيم فأعطاهم إبراهيم عطايا وصرفهم عن إسحاق ابنه شرقا إلى أرض المشرق وهو بعد بقيد الحياة)[455].

وسنجد كذلك أن يعقوب يقسم على أولاده وحفيديه ما يملك –وما لم يملك - أيضاً - فقد قسَم يعقوب على أولاده ممتلكاته، متبعاً في ذلك لما شاع بين أهل تلك الفترة من تشريعات المواريث، وهي تشريعات تبدو لنا الآن غريبة وغير مفهومة، ومن ذلك - مثلاً - إعطاء الابن الأكبر البكر نصيب اثنين من البنين مثلما كان شائعاً من تخصيص الابن الأكبر بتلك المزية سواء أكان ابن زوجة محبوبة أو زوجة مكروهة (تث 21: 15- 17).[456]

ولكن كل ما يعنينا هنا أن نقرر بأن صورة الأنبياء العبرانيين الزاهية كما أوردتها المرويات التلمودية المتأخرة، والتي انطلق النبي منها هي التي - ولا شك - قد جعلت النبي - عليه السلام - يعتقد أنهم كانوا على كل تلك الدرجة من الورع ومن الزهد في الدنيا ومتاعها، والحقيقة الواضحة هي أن هؤلاء الأنبياء العبرانيين القدماء لم يكونوا أبداً على تلك الصورة التي اعتقدها النبي عنهم ؛ لذا فلا يبعد أن تكون تلك الصورة الوضيئة كانت أثراً من آثار مرويات وقصص تلمودية صورتهم على تلك الصورة البديعة، ثم أكمل النبي تجميل تلك الصورة حتى بلغ بها تلك الذروة من الصلاح والكمالات النفسية.

---

(455) من يقارن بين قوانين المواريث الإسلامية وأحكام الشريعة اليهودية في هذا الشأن لظهر له الفارق بينهما واضحا جليا، وللتعرف على قضية الميراث في الشريعة اليهودية انظر كتاب - المواريث في اليهودية والإسلام دراسة مقارنة - د عبد الرازق احمد قنديل - مركز الدراسات الشرقية - جامعة القاهرة - ص 120 وما بعدها

(456) على الأرجح كان أخذ البكر نصيبين من دون أخوته يرجع إلى النفقات الخاصة التي كان يتكبدها الابن الأكبر في إقامة الولائم العائلية واستقبال الأشخاص الذين كانوا يحلون ضيوفًا على العائلة في خيمته وفي تقديم الهدايا الباهظة أحيانًا، بصفته ممثلًا للعائلة كلها ونائبًا عنها. ولذلك فقد كان للابن البكر مكانة ممتازة في ذلك العصر فهو يحتل منزلة الأب بعد وفاته وكان الابن البكر يعتبر مقدسا للآلهة وكان يكرس لعبادة الرب الخ انظر (التلمود كتاب الذكر والصلاة ص 138)، ويرى بعض الباحثين أن هذا التشريع اليهودي إنما هو تشريع مستحدث لم تسبقه إليه القوانين البابلية أو الأشورية (راجع : المواريث في اليهودية والإسلام - ص 128

(3)

خصائص الأنبياء

(نحن معاشر الأنبياء تنام أعيننا ولا ينام قلوبنا [457])، (عن عائشة قالت قلت: يا رسول الله ـ إعظامًا للوتر ـ تنام عن الوتر؟ قال يا عائشة! إن عيني تنام ولا ينام قلبي[458]).

ومن ينظر في هذا الحديث الجميل فلن يجد من الضروري أن يفترض أنه قد بلغ النبي خبراً يقرر بأن الأنبياء السابقين كانوا في حالة انتباه ويقظة روحية دائمة، حتى لتنام أعينهم وتظل قلوبهم متعلقة بالله في منامها كما في يقظتها، بل كان يكفي النبي في اعتقاده هذا أن يستبين له ذلك من نفسه هو، حتى يقرر ـ بثقة تامة كاملة ـ بأن تلك الخليقة الجميلة كانت ـ ولابد ـ من بين خلائق الأنبياء السابقين جميعا [459]) .

(عن حذيفة قال كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا حزبه أمر صلى[460])، وقل مثل ذلك في في التجاء النبي إلى الله في مواطن الشدة فيهرع إلى الصلاة والمناجاة فكذلك كان الأنبياء حتماً في اعتقاد النبي (كانوا إذا فزعوا، فزعوا إلى الصلاة. يعني : الأنبياء[461]).

---

[457] سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها - الألباني - برقم (1705)

[458] صحيح أبي داود برقم (1212)

[459] لم يكن النبي يستبيح لنفسه - حاشاه - أن يتوسع في إيجاد سند قديم لما شاءه له هواه أو حتى لعلة منطقية لا يعتقد - صادقا - في حضورها في الشريعة القديمة كلا ! فمثلا نجد من بين الأمور التي حرمها النبي ولم يحدث أبدا أن أوجد لها تأصيلا في الشريعة الإلهية القديمة قضية تحريم أزواجه على المؤمنين من بعد موته فلم يقل أبدا بحرمة أزواج الأنبياء السابقين على اتباعهم سواء أكان ذلك بموت أو طلاق

(قال تعالى (وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا إن ذلكم كان عند الله عظيما) ولم يثبت ذلك لأحد من الأنبياء بل قصة سارة مع الجبار وقول إبراهيم له هذه أختي وأنه هم أن يطلقها ليتزوجها الجبار قد يستدل به أن ذلك لم يكن لسائر الأنبياء وأخرج الحاكم والبيهقي عن حذيفة أنه قال لزوجته إن سرك أن تكوني زوجتي في الجنة فلا تزوجي بعدي فإن المرأة لآخر أزواجها في الدنيا فلذلك حرم على أزواج النبي صلى الله عليه وسلم أن ينكحن بعده لأنهن أزواجه في الجنة ومما قيل في تعليل ذلك أنهن أمهات المؤمنين وأن في ذلك غضاضة ينزه عنها منصبه الشريف وأنه صلى الله عليه وسلم حي في قبره ولهذا حكي الماوردي وجها أنه لا يجب عليهن عدة الوفاة ....) (الخصائص الكبرى - جلال الدين السيوطي - : دار الكتب العلمية - بيروت - ج2 0 ص 236) إذن فلم يقل القرآن أن ذلك كان من بين أحكام الشريعة القديمة ولو فعل لكان أمرا سائغا ومقبولا ! فهو مما تقتضيه - حتما- الآداب النفسية فمن ذا الذي يستطيع أن ينام في فراش نبيه ؟! بينما نجد أن القرآن ومن قبله التوراة يحرمان أن ينام الرجل في فراش ابنه والابن في فراش أبيه ؟ ولا شك أن الأنبياء عند اتباعهم لهم أعظم حرمة ألف مرة من بنوة الجسد وأبوة الجسد .

[460] صحيح أبي داود - الأم- الألباني - برقم (1192)، وصحيح الجامع برقم (4703)

[461] السلسلة الصحيحة برقم (3466)

ولم يرَ النبي - أيضاً - في الابتلاءات التي تصيب الإنسان في الدنيا سوى اختبار إلهي لقوة إيمانه، وأن الناس إنما يبتلون على قدر إيمانهم، فهل من الغريب أن يأتي الأنبياء على رأس قائمة المبتلين؟، ومَن أولى منهم بذلك؟: (أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل يبتلى الناس على قدر دينهم فمن ثخن دينه اشتد بلاؤه ومن ضعف دينه ضعف بلاؤه وإن الرجل ليصيبه البلاء حتى يمشي في الناس ما عليه خطيئة[462]).

(4)
الأنبياء ورعي الغنم

(عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلّى الله عليه وسلم قال: "مَا بعَثَ اللهُ نَبِيًّا إلاّ رَعَى الغَنَم" فقال أصحابُه: وأنتَ ؟ فقَال: "نَعم، كُنتُ أَرعَاها على قَرارِيطَ لأهْلِ مَكَّةَ".[463])

إذن فكُلُّ الأنبِيَاء السابقين قد رَعَوا الغَنَمَ كما يقرر هذا الحديث، لكنّهم لم يَتَّخِذُوا ذَلِكَ مِهْنةً لَهُم كما يقول بعض شُراح هذا الحديث الذي يتأسس - كما هو معلوم - على بعض الشواهد القليلة من حياة بعض أنبياء الكتاب المقدس مثل إبراهيم ولوط وموسى وإسحاق ويعقوب وداود في شبابه، وليس من الضروري القول بأن هذا التعميم لا يمكن قبوله على هذا النحو!، فقد تعددت مهن الأنبياء، وكان بعضهم ملوكاً متوجون وورثوا الملك عن آبائهم، ولكنها طريقة التعبير النبوية التي قادت النبي إلى مثل هذا التعميم العجيب..

وأما كيف فهم المسلمون الحكمة من اشتغال الأنبياء برعي الغنم دون سواها من المهن والصنائع فيكفي في بيان ذلك ما قاله هذا الشارح: (قالَ الحافِظُ ابنُ حجَر "قال العلَماء: الحكمةُ في إلهام الأنبياء مِن رَعي الغَنم قبلَ النّبوةِ أن يحصلَ لهم التَّمَرُّنُ بِرَعْيِها على ما يُكَلَّفُونَه مِنَ القِيام بأمرِ أُمَّتِهِم، ولأنَّ في مُخالَطَتِها ما يَحْصُلُ لَهُم الحِلْمُ والشَّفَقَة لأنهم إذا صَبَروا على رَعْيِها وَجَمْعِها بَعدَ تَفَرُّقِها فِي المَرْعَى وَنَقْلِها مِن مَسْرَحٍ إلى مَسرحٍ وَدَفْعِ عَدُوِّها مِن سَبُعٍ وغَيرِه كالسَّارِقِ وعَلِمُوا اختِلافَ طِباعِها وشِدَّةَ تَفَرُّقِها مَع ضَعْفِها واحتِياجِها إلى المُعاهَدَةِ، أَلِفُوا مِن ذلِكَ الصَّبْرَ على الأُمَّةِ وعَرَفُوا اختِلافَ

---

[462] صحيح الجامع الصغير وزياداته برقم (993)

[463] رَوَاهُ البُخَارِيُّ. برقم (2143) باب الإجارة

طِباعها وتَفاوُتَ عُقُولِها فجَبَرُوا كَسْرَها ورَفَقُوا بِضَعِيفِها وأحْسَنُوا التَّعاهُدَ لها فيكونُ تَحَمُّلُهم لِمَشَقَّةِ ذلِكَ أسْهَلَ مِمّا لو كُلِّفُوا القِيامَ بذلِكَ مِن أوَّلِ وَهْلَةٍ لِمَا يَحْصُل لَهُم مِن التَّدْرِيجِ على ذَلِكَ بِرَعْيِ الغَنَمِ، وخُصَّتِ الغَنَمُ بذلِكَ لِكَوْنِها أَضْعَفَ مِن غَيْرِها، ولِأَنَّ تَفَرُّقَها أكْثَرُ مِن تَفَرُّقِ الإبِلِ والبَقَرِ لإمْكانِ ضَبْطِ الإبِلِ والبَقَرِ بالرَّبْطِ دُونَها في العادَةِ المَألُوفَةِ، ومعَ أكْثَريّة تَفَرُّقِها فهي أسْرَعُ انْقِيادًا مِن غَيْرِها" اهـ)[464].

(5)
الأنبياء يُخيرون عند موتهم

﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأنبياء : 34 - 35] .

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [آل عِمْرَان : 144] .

(عن أبي مويهبة رضي الله عنه مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إني قد أمرت أن أستغفر لأهل البقيع فانطلق معي» فانطلقت معه في جوف الليل فلما وقف عليهم، قال: " السلام عليكم يا أهل المقابر، ليهنكم ما أصبحتم فيه مما أصبح فيه الناس، لو تعلمون ما نجاكم الله منه أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم يتبع آخرها أولها: الآخرة أشر من الأولى "، ثم أقبل علي، فقال: «يا أبا مويهبة إني قد أوتيت بمفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها، ثم الجنة، فخيرت بين ذلك وبين لقاء ربي» قلت بأبي أنت وأمي، خذ مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها، ثم الجنة قال: «لا والله يا أبا مويهبة، لقد اخترت لقاء ربي» ثم استغفر لأهل البقيع ثم انصرف، فبدئ رسول الله صلى الله عليه وسلم بوجعه الذي مات فيه[465]).

---

(464)انظر "فتح الباري شرح صحيح البخاري " لابن حجر : (كتاب الإجارة ج4، ص441

(465) انظر مسند الدارمي - تحقيق: حسين سليم أسد الداراني- دار المغني للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية- الطبعة: الأولى، - 2000 م- برقم (79) وعلق المحقق على هذا الحديث بقوله : (إسناده جيد)

أيضاً من بين ما عممُه النبي على الأنبياء السابقين أنهم كانوا يُخيرون بين البقاء في هذه الدنيا، وبين القدوم على الله مختارين طائعين، رغم ما قرره القرآن من أن البشر جميعاً يموتون، بل ويقتلون، فما معني هذا التخيير وما ضرورته إذن، إن كان النبي حتماً سيموت فلا يخلد أحد في هذه الدنيا؟!، وكيف يُخير نبي إذا قُتل؟!، بل كيف يتصور هذا التخيير مع استعاذة النبي بالله من أن يغتال من تحته كما في هذا الحديث وسواه؟!، (واحفظني من بين يدي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي ومن فوقي وأعوذ بك أن اغتال من تحتي[466]).

ورغم تلك التقريرات القرآنية الجازمة نجد كثيراً من الأحاديث النبوية تقرر بأن الأنبياء لا يدفنون إلا حيث ماتوا، ولا يُقبِض ملك الموت أرواحهم إلا بعد أن يأذنو له بذلك.!

(6)

(لم يقبر نبي إلا حيث يموت [467])

(أن عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم، قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول وهو صحيح: «إنه لم يقبض نبي قط حتى يرى مقعده في الجنة ثم يخير» قالت عائشة: فلما نزل برسول الله صلى الله عليه وسلم ورأسه على فخذي غشي عليه ساعةً، ثم أفاق فأشخص بصره إلى السقف، ثم قال: «اللهم الرفيق الأعلى» قالت عائشة: قلت: إذًا لا يختارنا. قالت عائشة: وعرفت الحديث الذي كان يحدثنا به وهو صحيح في قوله: «إنه لم يقبض نبي قط حتى يرى مقعده من الجنة، ثم يخير» قالت عائشة: فكانت تلك آخر كلمة تكلم بها رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله: «اللهم الرفيق الأعلى[468]).

لسنا بحاجة إلى القول بأن هذا الاستخلاص لا يتوافق مع ما جاء عن أنبياء العهد القديم، فقد رأينا بعضهم يموتون ويدفنون في أماكن بعيدة عن مكان وفاتهم، ولكن ما يعنينا هو أن نلحظ أنه مثلما كان ينطلق النبي من ذاته أحيانا ليكمل الصورة، فإننا نراه - أيضاً - يتطابق نفسياً وشعورياً مع ما منحه للأنبياء السابقين من خصائص دون بقية

---

[466] سواء بيد الخلائق من حيث لا يشعر أو بالخسف والزلازل كما يقول الشراح ! انظر الحديث في صحيح الجامع الصغير وزياداته للشيخ الألباني برقم (1274)

[467] انظر صحيح الجامع الصغير وزياداته برقم (5201)

[468] (انظر صحيح مسلم برقم (2444)

البشر، حيث نجد النبي على فراش موته - وبصدق كامل- يعلن أن ربه قد خيره بين البقاء في الدنيا أو يمضي إلى جوار ربه، فآثر ما يليق به وما يليق بكل نبي [469]!

(7)

وضوء الأنبياء وهيئات صلاتهم وسننهم في الصوم .

(هذا وضوئي ووضوء الأنبياء قبلي) عن أنس بن مالك قال : دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بوضوء فغسل وجهه مرة ويديه مرة ورجليه مرة وقال: هذا وضوء لا يقبل الله عز وجل الصلاة إلا به ثم دعا بوضوء فتوضأ مرتين، مرتين وقال: هذا وضوء من توضأ ضاعف الله له الأجر مرتين ثم دعا بوضوء فتوضأ ثلاثا وقال: هكذا وضوء نبيكم صلى الله عليه وسلم والنبيين قبله أو
قال: هذا... (فذكره [470]).

(إنا معشر الأنبياء أمرنا أن نعجل إفطارنا ونؤخر سحورنا ونضع أيماننا على شمائلنا في الصلاة [471]).

وأما بالنسبة إلى الحديث الأول فمن المعروف أن الوضوء شعيرة متأخرة لم يعرفها الأنبياء العبرانيون الأقدمون [472]، ولكن ربما نسبت اليهم بعض المرويات

---

(469) ولنا أن نفترض- بحذر- وجود أساس لذلك في المرويات الكتابية المتأخرة خارج الكتاب المقدس فقد كان النبيون مثلا يخيرون قبل الموت ويختارون أن يذهبوا طواعية إلى ربهم -لا حتف أنوفهم - كما كان من آدم وموسى كما سنرى بعد قليل

(470) السلسلة الصحيحة برقم (261)

(471) قال الشيخ الألباني : (صحيح) انظر الحديث رقم (2286) في صحيح الجامع

(472) ربما كان من غير الضروري القول بأن الأديان اللاحقة تتأثر - حتما - بما سبقها من أديان سواء، أكان ذلك بما تأخذه منها أو بما تتشدد في رفضه ومحاربته من تعاليمها ! فليس من المعقول أبدا أن يأتي الدين الجديد مخالفا لما سبقه في كل شيء ! وليس من شك في أن الإسلام قد انتقي من بين التعاليم والشرائع اليهودية ما رآه صائبا صالحا وجعله الإسلام من بين أصول الاعتقاد الأزلية التي جاء بها كل الأنبياء السابقين ولا ندري والحال هذه كيف كان النبي ليتحرج من فعل شيء كهذا ؟!

لذا فمن المفيد في بيان أمثال تلك الاحاديث التي معنا أن نذكر أن هذا الباعث على الأخذ والانتقاء كان موجودا سائغا عند النبي والأهم من ذلك انه استمر - أيضا - بعد الإسلام - أيضا - فقد تأثرت الديانة اليهودية ببعض التعاليم الإسلامية الخالصة وسنكتفي هنا عرض ما يتعلق بهذا الحديث فقط - كما جاءت في كتاب مؤلف يهودي متبحر في التلمود وعلى اطلاع حسن - أيضا - على تعاليم الإسلام

(لا شك أن للديانة اليهودية تأثيرا كبيرا واضحا على نشأة الدين الإسلامي وتطوره فكثير من أسس هذا الدين ترتد إلى مصدر إسرائيلي فضلا عن أن كثيرا من معتقداته وآرائه وقوانينه وشعائر عبادته كان قد نبتت في تربة اليهودية أولا و تسمت بطابعها)

(انظر - التأثيرات الإسلامية في العبادة اليهودية - نفتالي فيدر - ترجمة د محمد سالم الجرح - مركز الدراسات الشرقية - جامعة القاهرة - 2001م ص 9)

التلمودية التي شاعت بين يهود العرب هذه الشعيرة ولو على نحو يختلف قليلاً أو كثيراً عن الوضوء كما أتى به الإسلام، ثم أضاف إليه النبي بعض الأركان التي ربما رأى أنها كانت في اعتقاده لازمة وضرورية لكمال التطهر الواجب قبل الوقوف بين يدي الله .

فهل من العجيب إذن أن يقول النبي هذا القول؟!، وألا يكفي أن يعتقد النبي في أن هذه الشعيرة لازمة ولا غنى عنها للدخول في الصلوات حتى يستيقن بأن الأنبياء السابقين

وكما ترى فعلى رغم اعتقاد المؤلف باعتماد الإسلام على كثير من مفردات العقيدة اليهودية وشرائعها - حتى كاد أن يجعل من الإسلام مجرد فرقة يهودية ! - فقد راح على المقابل يستخرج ما أعطاه الإسلام بدوره لليهودية سواء أكان ذلك من تفاصيل الشعائر الدينية أو ما أشاعته المدارس العقلية والتيارات الصوفية الإسلامية من مؤثرات روحية وفلسفية غمرت الفكر اليهودي وكان لها أبلغ الأثر في إغناء الفكر اليهودي في العصر الوسيط، ولكن من بين ما يعنينا من كتابه كله هو أن ننقل هنا بعض ما رصده من صور التأثيرات الإسلامية في الشعائر اليهودية والتي يقرر بوضوح انه لم يكن لها وجود لا في التوراة ولا في التلمود !

وعلى رغم أن التقليد اليهودي يحرم على اليهود اقتباس عادات الأمم الأخرى التي يعيشون بينها مثلما أوصت التوراة (لا تقلدوا عادات الأمم) فقد كان للإسلام كما يقول المؤلف وضع خاص : (وفيما يتعلق بدين العرب فقد تضافرت عوامل عدة على تهيئة القلوب لقبول تأثيره وارتضائه : الأخوة في الأصل واللغة والتقارب في الطباع، ثم قبل كل شيء التوحيد الشريف الذي امتاز به ذلك الدين الأمر الذي أدى إلى استثناء عدد من الجاءونيم للمسلمين من بين بقية الأمم فيما يختص بالقوانين الخاصة المنصوص عليها بحسب التلمود . وتبعهم - أيضا - الحبر موسى بن ميمون، فالدين الإسلامي وحده لا يعد في نظره دينا وثنيا، بينما حكم على النصرانية بأنها دين وثني تماما ثم سار ابنه الحبر إبراهيم الميموني خطوات أبعد من ذلك فجاء وأخرج المسلمين من القاعدة القائلة : (لا تتعودوا بعادات الأمم)، وأفتى بأن الذي يحاكي عاداتهم لا يعد مستبيحا لما حرمته القاعدة ولا شك ان مثل هذا الموقف المتسامح كان يهدف إلى فتح ثغرة أكبر من رأس الإبرة ينفذ منها التأثير الأجنبي على العادات اليهودية)(السابق ص 11)

أما عن طبيعة تلك الاقتباسات فيقسمها المؤلف إلى قسمين يتعلق أولهما : (استيعاب عادات تختص بالعبادة لا أساس لها في التقاليد اليهودية، وثانيا بإحياء عادات قديمة اندثرت من عند اليهود تحت تأثير أسباب معينة وهنا يجدر بنا أن نشير على وجه الخصوص إلى ظاهرة هامة وهي أن العادات التي هجرها اليهود بدافع العزلة والابتعاد عن النصرانية ارتدت ثانية إلى اليهودية بتأثير من الدين الإسلامي)(السابق ص 12)

ومن بين الأمثلة على النوع الأول : (غسل الرجلين للصلاة) حيث يقول بأن سنة غسل الرجلين للصلاة ليس لها أساس في الروايات المأثورة التلمودية فتلك المصادر اليهودية التي تتناول التطهر قبل الصلاة تفيد بأن التشريع القديم كان يقضي بغسل اليدين فقط (السابق ص 18)

ثم يقرر: (أن عادة غسل الرجلين قبل الصلاة مأخوذة من العبادة الإسلامية ... وليست ماهية الوضوء الإسلامي كماهية الوضوء اليهودي فيتحتم في الوضوء الإسلامي بالإضافة إلى غسل اليدين إلى المرفقين غسل الرجلين إلى الكعبين ومسح الرأس وغسل الوجه ومسح الأذنين وما خلفهما والمضمضة والاستنشاق ... الخ . وإزاء هذا الفارق الكبير لم يتمكن اليهود أن يدفعوا الشعور بالاستياء الذي لحقهم من جراء وضوء المسلمين البالغ العناية، بل كانوا يشعرون بالضعة لانهم يتسرعون في عبادة الله إذا قيسوا بجيرانهم المسلمين وتعجب اليهود من سبق العرب لهم في هذا المضمار وهم - في رأيهم - أدنى منهم مرتبة)(السابق ص 22)

(ومما يدل على عمق هذا التأثير أن تطهير الرجلين لم يكن وحده هو الذي صادف هوى وقبولا بين اليهود بل اقتبسوا - أيضا - سائر أركان الوضوء نحو غسل الذراعين وما وراء الأذنين ومسح الرأس والاستنشاق .)(السابق ص 24)، وعن إيجاد مسوغ ديني لنقل تلك الشعائر فيقول بان الحبر إبراهيم بن ميمون قرر: (بانه لا خوف من (تقليد الأمم) في العادات التي لها ما يدعمها في شريعة إسرائيل)(السابق ص 30)

جميعاً كانوا - حتماً - يتطهرون ويتوضؤون؟!، وقل مثل ذلك عما اشتمل عليه الحديث الثاني من تعجيل الفطور وتأخير السحور ووضع اليد اليمنى فوق اليسرى في الصلاة وسنعود لهذه النقطة عن الحديث عن الصوم .

إذن- فلا ريب - في أن جزءاً كبيراً من الاعتقادات النبوية يقدم كثير من الاعتقادات والطقوس الدينية إنما مردها إلى تصديق النبي الكامل للقصص التلمودية، والتي منحت الأنبياء العبرانيين القدامى ما لم يعرفوه من العقائد، وما لم يمارسوه من الطقوس ولكن ماذا نفعل ؟!، فهكذا زعموا وهكذا صدق النبي ..!

رابعا: قوة التصور النبوي:

(سأبدأ بالتحديد بأنني لا أزمع أن أتكلم عن صعوبة فكرية عن شيء يجعل التحليل النفسي عصيًّا على فهم من يتوجه إليه، أسامعاً كان أم قارئاً بل عن صعوبة وجدانية، عن شيء يجعل التحليل النفسي يخسر تعاطف السامع أو القارئ، ويضعف من ميلهما إلى إيلائه اهتماماً وتصديقاً، ويسير علينا أن نتبين أن هاتين الصعوبتين تتمخضان عن نتيجة واحدة. فمن لا يشعر بقدر كاف من التعاطف إزاء شيء ما، يعجز - أيضاً - عن فهمه بيسر [473]).

مَن يقرأ الكتب المقدسة وكتب سير رجال الدين في جميع الديانات فسيرى العجب العجاب ، حيث سيجد فيها كيف يلتقي الأحياء الموتى، وكيف كانوا يعاينون في يقظتهم مخلوقات أخرى غير بشرية، وكيف يتداخل عالمنا مع عالم آخر، وكيف تحفل حيواتهم بالكثير والكثير من الخوارق والمعجزات. فمن يُطالع - مثلًا- سير الحكماء الهندوس فسوف يجد شهادات كثيرة يصف فيها هؤلاء الحكماء المتنسكون تجسداتهم السابقة، وحيواتهم التي عاشوها مراراً قبل تجسدهم الأخير ويصفون لنا أدق دقائقها، فهل يعقل أن تكون كل تلك الشهادات مجرد اختلاقات عمدية ؟! اللهم لا .!

ومن يُطالع - أيضاً - سير القديسين المسيحيين وحكايات الأولياء المسلمين - التي تملأ في تراثنا كتب الطبقات- فسوف يجد قدراً عظيماً من الرؤى الغريبة، ومن القصص العجيبة التي لا يسهل أبداً الاعتقاد في أنها قد حدثت لأصحابها على ذلك النحو الذي

---

(473) فرويد - إبليس في التحليل النفسي - ترجمة جورج طرابيشي - دار الطليعة - بيروت - ط2 - 1992م - ص 93

روته تلك القصص. ولكن ومن ناحية أخرى فمن يسهل عليه ألا يرى فيها جميعاً سوى ركام هائل من القصص المختلقة الكاذبة، والحكايات الموضوعة الزائفة - سواء لأنه لا يصدق بإمكان وقوعها أصلاً أو كان يصدق بإمكان وقوعها لكنه يردها إلى الكذب ؛ لأنها تخالف فقط معتقده الديني الخاص- فهو بكل تأكيد يحمل فوق كتفيه عقلاً غير مرشح لمقاربة أمثال هذا الموضوع الذي نتحدث بشأنه، وذلك لأن أمثال هذه الظواهر النفسية والإدراكية الخاصة فلابد لمَن يريد الاقتراب منها، ومحاولة فهمها من أن يمتلك القدر الضروري من أسباب تفهمها وليس - في اعتقادنا- باباً أوسع لهذا الفهم من أن يكون الناظر فيها قادراً - ولو على نحو ما - على ان ينظر - ولو لبرهة واحدة- من ذات الشرفة التي كان ينظر منها أصحاب تلك الرؤى، وأن يمتلك حظاً - ولو يسيراً - من قوة الشعور الديني، ويستطيع أن يتخيل ما قد يثيره ذلك الشعور في العقل من أفكار وما يستحضره في النفس من مشاعر حادة وعنيفة ؛ إذن فليس من الضروري لأحد أبداً أن يؤمن بوقوع تلك الرؤى كما جاءت في تلك القصص - وإنما من الضروري أن يحاول قارئها أن يعرف من خلالها أي بشر كانوا؟ وكيف كانوا يفكرون ويشعرون؟.

وليس في اعتقادنا من سبيل آخر للتعامل مع تلك القصص وما يقف خلفها من أفكار سوى هذه المقاربة المتفهمة ؛ وذلك لأن رد كل تلك الحكايات إلى الكذب والى الاختلاق إنما هو أمر غير متصور وغير معقول: أولا لأنه سيفضي إلى تكذيب عدد هائل من البشر، وثانياً: أنهم - في اعتقادنا - ليسوا مثل أي بشر، بل ونستطيع أن نقولها هنا ببساطة تامة أنه إذا خلا أمثال هؤلاء الأنبياء والصالحين والمتصوفة العابدون من الصدق فليس بعدهم على وجه الأرض بشر صادق. وسوف نقف عند النقطة فيما بعد، ولذا فلن نعرض هنا إلا لما يرتبط وثيق الارتباط بما نحن فيه ؛ أي من محاولة فهم العقل المحمدي ومحاولة تفهم مسارات هذا العقل المحير والعجيب.

التجسيم والتجسيد

﴿ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢ ﴾ [النَّجْم : 12] .

(عن أبي هريرة قال: قال أبو القاسم صلى الله عليه وسلم: «والذي نفسي بيده لو تعلمون ما أعلم لبكيتم كثيرًا ولضحكتم قليلا »[474]).

ربما يكون هذا الحديث السابق بالغ الأهمية في التعبير عن طبيعة المنظور النفسي الذي كان النبي يطالع منه ما يراه بعين قلبه وخياله، ولا يخفى على مَن يقرأ هذا الحديث أية رهبة، وأي خوف كانت تثيرهما في النبي تلك المشاهد المريعة المخوفة ؛ فلقد كان النبي ينظر بكيانه الحيّ كله إلى مخلوقات بشرية ضعيفة تحيط بها أقدار الله من كل جانب، ويمكن لأي منها أن يجد نفسه في مصير أعظم من كل ما يخطر له على بال، كما يمكن لأي منها أن يقدر عليه مصير أليم شديد لا يستطيع مخياله أن يبلغه، وهل هناك أعظم من أن تجد الروح نفسها تتنعم في رضوان الله إلى أبد الأبيد؟، أو أن تجد نفسها تعاني العذاب في الجحيم إلى ما لا نهاية؟!

أضف إلى ذلك اعتقاد النبي الجازم في أن تلك الأرواح ليست أقدارها رهناً بأعمالها، وأنها تملك مصيرها كاملاً بين أيديها كلا!، لأن هذه الأعمال البشرية إنما تتعلق في النهاية بمشيئة ذات هي أعظم من أن يحويها العقل، أو يسبر غور إرادتها البعيدة فهم الإنسان المحدود .

ومع ذلك فلم تكن القناعة النظرية بتلك الأفكار وحدها هي التي كانت تثير في النبي كل تلك المشاعر الحادة والعنيفة، بل كانت قوة شعور النبي ومقدرة مخياله الفذة على التجسيد والتجسيم هي التي كانت تقف من خلف تلك المشاعر العنيفة، من يطالع مدونات الأحاديث النبوية فسوف يهوله ما تشتمل عليه المئات من تلك الأحاديث ، وما تحويه من إشارات واضحة عن قوة شعور النبي ببعض الحقائق الذاتية، وسيرى القارئ من خلال تلك الأحاديث طبيعة مخيال النبي الخصيب، والذي كان يجسم له اعتقاداته النفسية فيرى النبي اعتقاداته بأم رأسه كأوضح ما تكون، وسنأتي هنا ببعض الأمثلة القليلة الذي تغني عن سواها لبيان ذلك.

---

[474] رواه البخاري - مشكاة المصابيح برقم (5339)

(1)
تسليم الأحجار على النبي

(إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم علي قبل أن أبعث إني لأعرفه الآن[475])

هذا مثلاً حديث بالغ الأهمية لمَن يريد أن يعرف شيئاً ما عن حال النبي النفسي قبل البعثة، وتشوفه إلى فضل الله بأن يختاره من بين الناس جميعا ليصدع بأمره، وينهض بمهمة إصلاح ما كانت تموج به مكة وما حولها من مفاسد أخلاقية، ومن مظالم اجتماعية وما فشا فيها من تصورات دينية شائهة ؛ فمن المعلوم أنه لا يمكن تصور دعوى النبوة إلا مع حضور شروطها الأساسية وأولها التهيئة الثقافية والنفسية لقبول تلك الدعوى من جموع المخاطبين بها، ومن الواضح أن الجماعات اليهودية والمسيحية التي كانت في بلاد العرب قد نهضت بتلك المهمة ولو على نحو ما، وكذا لابد من وجود ما يتطلبها من بواعث الفساد الديني والأخلاقي، وكانت حالة العرب قبيل الإسلام في أمس الحاجة لصوت هذا النذير، وألزم من هذين الشرطين وحضور شرط ثالث، وهو وجود تلك الذات القادرة على الاضطلاع بذاك الدور الجليل، وكان النبي محمد هو من طمحت روحه الصالحة للقيام بهذا الدور ؛ حيث اشرأبت نفسه إلى أن يتحقق رجاء تلك الأرواح الظامئة كلها على يديه، وظل بقية حياته كلها لا يغادر هذا الرجاء معتمداً على حسن ظنه في الله، ومسترسلاً مع صدى الوعد الإلهي في قلبه كما سمعه في الغار، ولعل هذا الحديث يعطينا لمحة باطنية عن حال النبي - عليه السلام - قبيل البعثة الشريفة.

فهل من الغريب - إذاً - ومع شدة وطأة ذاك النزوع العارم في ذات النبي أن يجعله يسمع بأذنيه صوت باطنه الذي كان يهمس له بما يتمناه ويتوق إليه؟!

(2)
معاينة الجنة والنار !

(عن عبد الله بن عباس قال: انخسفت الشمس على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقام قيامًا طويلًا نحوًا من قراءة سورة البقرة ثم ركع ركوعًا طويلًا ثم رفع فقام قيامًا طويلًا وهو دون القيام الأول ثم ركع ركوعًا طويلًا وهو دون الركوع الأول ثم رفع ثم سجد ثم قام قيامًا طويلًا وهو دون القيام الأول

(475) انظر : صحيح السيرة النبوية- محمد ناصر الدين الألباني- المكتبة الإسلامية - عمان - الأردن الطبعة: الأولى ص 88

ثم ركع ركوعًا طويلًا وهو دون الركوع الأول ثم رفع فقام قيامًا طويلًا وهو دون القيام الأول ثم ركع ركوعًا طويلًا وهو دون الركوع الأول ثم رفع ثم سجد ثم انصرف وقد تجلت الشمس فقال صلى الله عليه وسلم: «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته فإذا رأيتم ذلك فاذكروا الله» . قالوا: يا رسول الله رأيناك تناولت شيئا في مقامك ثم رأيناك تكعكعت؟ قال صلى الله عليه وسلم: «إني أريت الجنة فتناولت عنقودًا ولو أخذته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا وأريت النار فلم أر منظرًا كاليوم قط أفظع ورأيت أكثر أهلها النساء» . قالوا: بم يا رسول الله؟ قال: (بكفرهن) قيل: يكفرن بالله؟ . قال: " يكفرن العشير ويكفرن الإحسان لو أحسنت إلى إحداهن الدهر كله ثم رأت منك شيئًا قالت: ما رأيت منك خيرا قط [476])، (وعن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :عرضت علي النار فرأيت فيها امرأة من بني إسرائيل تعذب في هرة لها ربطتها فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض حتى ماتت جوعا ورأيت عمرو بن عامر الخزاعي يجر قصبه في النار وكان أول من سيب السوائب " [477]).

من يقرأ الحديث الأول فسيجد فيه ما يصور حال النبي، وقد أفزعه خسوف الشمس فيصلي بأصحابه طويلاً متضرعاً إلى الله كي تنجلي تلك الآية العجيبة، وتنكشف عنهم تلك الغاشية المخيفة -، والتي لم يكن من تفسير علمي لها عنده ولا عند سواه - سوى أنها قد تكون إشارة إلى غضب الله وسخطه على عباده؛ فأثارت تلك الواقعة قوة شعوره فتجسدت له الجنة حتى صارت في متناول يده، ومثلت النار أمام عينيه حتى رأى بعينيه أهلها يعانون العذاب ويقاسون الآلام [478]).

---

(476) (متفق عليه)

(477) رواه مسلم، وأنظره في مشكاة المصابيح- برقم (5341)

(478) (عجبتُ لكون النساء أكثر أهل النار مع أن الرجال أعمالهم أقبح من أعمالهن !)(سفيان الثوري - طبقات الشعراني - نقلا عن كتاب - المستطرف الجديد - هادي العلوي - مركز الأبحاث والدراسات الاشتراكية في العالم العربي - طبعة ثانية ص - 303)

ولا يعنينا في شيء أن نتوقف عند تقدير النبي في أن نصيب النساء من النار أوفي من نصيب الرجال ! رغم ما يعلمه الناس جميعا من أن أكثر جرائم الجنس البشري من إثارة الحروب والمذابح والاضطهادات وكل أشكال القساوات وضروب التوحش الإجرامي التي حدثت عبر التاريخ المكتوب كله إنما هي من نصيب الرجال - أكثر من النساء-، ولو بحكم فاعليتهم في مجرى الحوادث - إنما يعنينا هنا أن نشير إلى طبيعة تصور النبي وقوة شعوره - ولا نشك في أنه لو علم النبي شيئا عن تاريخ كاليجولا ونيرون وطيبريوس وأتيلا الهوني وسواهم من طواغيت العالم القديم لما قال هذا القول .

وأما الحديث الثاني، فهو يكشف لنا جانباً من طبيعة مشاعر النبي ورقة شعوره حتى وجد أن القسوة على هرة تستحق أن يلقى بمعذبها في النار [479]!، ويكشف لنا شطره الآخر عن اعتقاد النبي فيما شاع بين العرب من أنهم كانوا على التوحيد الخالص الذي جاء به إبراهيم حتى أغرى عمرو بن لحي الخزاعي العرب بعبادة الأصنام فعبدوها، وأوحى إليهم - أيضاً - بتلك التقاليد الشركية من تسييب السوائب فأطاعوه، فهل من الغريب في شيء أن يرى النبي - بعين مخياله - هذا المغوي الأثيم تندلق أحشاؤه في الجحيم، بعدما أضل كل تلك الأرواح وصرفها عن الإيمان بالله ؟!

(3)

الشيطان وكيده!

(إن عدو الله إبليس جاء بشهاب من نار ليجعله في وجهي فقلت: أعوذ بالله منك ثلاث مرات ثم قلت: ألعنك بلعنة الله التامة فلم يستأخر ثلاث مرات ثم أردت أن آخذه والله لولا دعوة أخينا سليمان لأصبح موثقا يلعب به ولدان أهل المدينة [480])، (إن عفريتا من الجن تفلت علي البارحة ليقطع عليّ الصلاة فأمكنني الله منه فذعته وأردت أن أربطه إلى سارية من سواري المسجد حتى تصبحوا وتنظروا إليه كلكم فذكرت قول أخي سليمان (رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي) فرده الله خاسئا [481]) .

---

[479] والحديث لا يقول بداهة بأن كل من يعذب حيوانا يدخله الله النار، إنما يعطي النبي في هذا الحديث مثالا لمصائر القاسية قلوبهم وأن الله يحاسب العباد على الصغير وعلى الكبير، ولربما كان مصير تلك المرأة وأمثالها الجحيم سواء أفعلت هذا الفعل بعينه أو فعلت سواه، وذلك لتحجر مشاعرها واغلب الظن أن الحديث يجمع لها بين الكفر وبين القسوة ! فالاحاديث تراوح مرة بين نسبتها إلى بني إسرائيل ومرة تقول بأنها : (سوداء حميرية) مثلما جاء في مسند أحمد : (عن عبد الله بن عمرو، قال: كسفت الشمس على عهد رسول الله -صلي الله عليه وسلم -، فصلى رسول الله -صلي الله عليه وسلم -، فأطال القيام، ثم ركع فأطال الركوع، ثم رفع فأطال ,قال شعبة: وأحسبه قال في السجود نحو ذلك، وجعل يبكي في سجوده وينفخ، ويقول: "رب، لم تعدني هذا وأنا أستغفرك، رب، لم تعدني هذا وأنا فيهم"، فلما صلى قال: "عرضت علي الجنة، حتى لو مددت يدي لتناولت من قطوفها، وعرضت على النار، فجعلت أنفخ خشية أن يغشاكم حرها، ورأيت فيها سارق بدنتي رسول الله -صلي الله عليه وسلم -، ورأيت فيها أخا بني دعدع، سارق الحجيج، فإذا فطن له قال: هذا عمل المحجن، ورأيت فيها امرأة طويلة سوداء حميريةً، تعذب في هرة، ربطتها، فلم تطعمها ولم تسقها, ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض، حتى ماتت، وإن الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته، ولكنهما آيتان من آيات الله، فإذا انكسف أحدهما"، أو قال: فعل بأحدهما شيء في ذلك، فاسعوا إلى ذكر الله)
ويمكن التوفيق بين كون تلك المرأة حميرية ويهودية بان القصة كانت عن يهودية متهودة من اليمن قبل الإسلام بمدة يسيرة، ولا ندري كيف شاعت قصتها مع هرتها حتى بلغت النبي فتجسدت له ورآها بمخياله في النار؟!
(انظر مسند احمد - تحقيق أحمد شاكر - دار الحديث القاهرة - الطبعة الأولى - 1995م - برقم (6763) وقال محققه : (إسناده صحيح)

[480] صحيح الجامع الصغير وزياداته- الشيخ الألباني - برقم (2108

[481]- صحيح الجامع الصغير وزياداته - برقم (2111

آمن النبي بالجن مثلما اعتقدت بهذا عامة العرب في عصره وقبل عصره بقرون وقرون، واعتقد النبي كذلك في وجود الشيطان كما صورته المعتقدات الكتابية على اختلاف صورها، ولكن فاق النبي سواه بقوة تصوره للشيطان بسبب من تلك الهبة المخيالية العجيبة التي كانت تجسد له مخاوفه، وتجسم له تصوراته عن الشيطان وسوء فعاله، وخشيته من كيده مثل أن يشوه وجهه بالنار، أو أن يشغله عن صلاته فهل هذا من الغريب في شيء ؟!

(4)
أنياب الكلاب

(عن عدي بن حاتم - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم-: مثلت لي الحيرة كأنياب الكلاب، وإنكم ستفتحونها "، فقام رجل فقال: هب لي يا رسول الله ابنة بقيلة، فقال: " هي لك "، فأعطوه إياها، فجاء أبوها فقال: أتبيعها؟، قال: نعم، قال: بكم؟ , احتكم ما شئت، قال: بألف درهم , قال: قد أخذتها، فقيل له: لو قلت: ثلاثين ألفا , قال: وهل عدد أكثر من ألف؟![482])

واليك هذا الحديث السابق الذي يورده المُحدثون وكتاب السير كبرهان على دلائل صحة النبوة، ولا يعنينا منه سوى ما يفيده من قوة تصور النبي حتى إنه كان يرى المدائن العربية - الفارسية كأنياب الكلاب، وكيف كانت تلك الأماكن ترفع لتصور أمام عينيه

71-- انظر الصحيحة: (2725) وقال الألباني في صحيح موارد الظمآن 1427(بعدما صحح الحديث:(وللحديثي شاهد قوي مرسل في كتاب الأموال لأبي عبيد القاسم بن سلام عن حميد بن هلال: أن رجلا من بني شيبان أتى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال: اكتب لي بابنة بقيلة عظيم الحيرة، فقال: " يا فلان، أترجو أن يفتحها الله لنا؟ "، فقال: والذي بعثك بالحق ليفتحنها الله لنا، قال: فكتب له بها في أديم أحمر، فقال: فغزاهم خالد بن الوليد بعد وفاة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وخرج معه ذلك الشيباني، قال: فصالح أهل الحيرة ولم يقاتلوا، فجاء الشيباني بكتاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى خالد، فلما أخذه قبله ثم قال: دونكها، فجاء عظماء أهل الحيرة فقالوا: يا فلان، إنك كنت رأيت فلانة وهي شابة، وإنها والله قد كبرت وذهبت عامة محاسنها , فبعناها فقال: والله لا أبيعكموها إلا بحكمي، فخافوا أن يحكم عليهم ما لا يطيقون، فقالوا: سلنا ما شئت، فقال: لا والله، لا أبيعكموها إلا بحكمي، فلما أبى قال بعضهم لبعض: أعطوه ما احتكم، فقالوا: فاحتكم، قال: فإني أسألكم ألف درهم - قال حميد، وهم أناس مناكير - فقالوا: يا فلان، أين تقع أموالنا من ألف درهم؟ , قال: فلا والله لا أنقصها من ذلك، قال: فأعطوه ألف درهم وانطلقوا بصاحبتهم , فلما رجع الشيباني إلى قومه قالوا: ما صنعت؟ , قال: بعتها بحكمي، قالوا: أحسنت، فما احتكمت؟ , قال: ألف درهم، فأقبلوا عليه يسبونه ويلومونه، فلما أكثروا قال: لا تلوموني، فوالله ما كنت أظن عددا يذكر أكثر من ألف درهم. قال أبو عبيد: وكان بعض المحدثين يحدث بهذا الحديث , ويجعل هذا الرجل من طيئ، فأرى هذه قد سبيت، وإنما افتتحوهم صلحا، وسنة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - والمسلمين: " أن لا سباء على أهل الصلح ولا رق، وأنهم أحرار "، فوجه هذا الحديث عندي: أنها إنما رقت للنفل المتقدم من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - للشيباني، فلم يكن لذلك مرجع، فلهذا أمضاها له خالد، ولولا ذلك ما حل سباؤها ولا بيعها ألا ترى أنه لم يسترق أحدا من أهل الحيرة غيرها؟. أ. ه)

وكل ذلك والنبي محاصر هو وأصحابه يحفرون الخندق تحسباً لحضور الحلف الوثني الذي سيحاصر المدينة وليشكل التهديد الأكبر على الدعوة ومستقبلها [483]).

وأما ما يشتمل عليه من توزيع الأنفس البشرية على مَن يشاء قبل الفتح والغزو فليس مما يعنينا في شيء[484]، وقل مثل ذلك في رؤية النبي لمعالم بيت المقدس وقد سأله المشركون عنه كما يدل على ذلك هذا الحديث: (عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: "لَمَّا كَذَّبَتْنِي قُرَيْش، قُمْتُ فِي الْحِجْرِ فَجَلاَ الله لي بيت المقدس فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه [485]).

أين كان المسجد الأقصى ؟

(إذ لم يعد الجيش يجد من يقتله من الشعب أو ينهبه لأن أحداً من الباقين لم يعد هناك من يكون موضع حنقهم (لأنهم ما كانوا ليبقوا على شخص ما لم يكن قد بقي أعمال أخرى ليعملوها)، حتى أعطاهم قيصر بنقض المدينة والهيكل بالكامل، وألا يتركوا سوى عدد من الأبراج لتظهر روعتها العظمى وهي: فاسيلس، وهيبيكس، وماريمنا، والجزء من السور القريب من المدينة في الجانب الغربي. وهذا السور فقط لكي يوفر معسكراً للحامية التي ستمكث هناك مثلما حفظت الأبراج ولكي تظهر رخاء ونوع تلك المدينة وتحصيناتها التي دحرها الرومان وقهروها. ولكن بالنسبة لكل باقي السور، فقد سوي بالأرض تماماً وذلك بأن حفرت أساساته ولم يتركوا شيئا منه، حتى إن الذي يأتي إلى هناك لا يصدق أبداً أنها كانت مسكونة [486]).

والحقيقة أننا لا نشك في أن النبي قد بلغه شيء عن وصف هذا المسجد، ولكنه وفي تلك اللحظة العصيبة من سخرية المشركين وتكذيبهم لحادثة إسراءه، فقد أسعفته قوة تصوره العجيبة فاستحضرت له ما سبق وأن علمه من قبل، فأخذ يصفه لمكذبيه وصف المعاين لما يراه، ولن نتوقف هنا عند حقيقة وجود مكان للتعبد يقدسه اليهود أم لا، فليس من شك في أنه كان يوجد شيء يمكن أن يرى وأن يوصف في تلك الفترة،

[483] (انظر الطبقات الكبرى - محمد بن سعد - تحقيق إحسان عباس - دار صادر بيروت - الطبعة الأولى - 1969م - ج4 ص 82

[484] لمزيد من الروايات المختلفة عن تلك القصة المحزنة انظر - البداية والنهاية - ابن كثير- دار هجر - ط1 - 1997م - ج9- 523

[485] - الحديث أخرجه مسلم (170) وأخرجه البخاري في كتاب التفسير(4710) وأخرجه البخاري برقم (3133)

[486] خراب أورشليم الثاني واحتراق الهيكل الثاني - المؤرخ اليهودي يوسيفوس - تعريب : الأب د بولا ساويرس - الطبعة الأولى الإلكترونية - مشروع الكنوز القبطية الكتاب السابع الفصل الأول ص 173

حتى وإن كان ذلك الموضع الموصوف بناءً مستحدثاً ولا علاقة له بمعبد اليهود المقدس، والذي دُمر تماماً كما يجمع المؤرخون عام 133 م، ولم يتبق منه في زمن النبي سوى صخرة واحدة يمتد من حولها خلاء فسيح يلقي به المسيحيون ما يستقذرونه من قمامات بيوتهم (487).

(5)
النبي يرى حوضه في الآخرة

(إني بين أيديكم فرط لكم وأنا شهيد عليكم وإن موعدكم الحوض وإني والله لأنظر إلى حوضي الآن وإني قد أعطيت مفاتيح خزائن الأرض وإني والله ما أخاف عليكم أن تشركوا بعدي ولكني أخاف عليكم الدنيا أن تنافسوا فيها(488).

في مرض موته خرج النبي على أصحابه بعدما صلي على أصحابه الراحلين الذين استشهدوا في موقعة أحد، وضحوا بأرواحهم فداء دعوته - وذلك بعد موتهم بثمان سنين كاملة - ثم ارتقى بعدها المنبر ليلقي على أتباعه تلك الوصية الوداعية المؤثرة، ومن فوق منبره - آخر عهده بالحياة والأحياء، وأول عهده بالآخرة - أعلنهم أنه سيمضي إلى ربه سريعاً، وأنه لا يخشى عليهم الرجوع إلى لوثة الشرك بعدما طهر الله الأرض منه، وأخبرهم أنه يرى بعينيه حوضه في الآخرة، حيث سيلقي عنده أصحابه والمؤمنون اللاحقين بدعوته، فهل يستطيع أحد أن يرتاب في صدق النبي، وأنه كان يرى ما رآه حقا وصدقا؟.!

---

(487) لم يجد المسلمون شيئا يمكن أن يسمى (مسجدا) عندما فتحوا بيت المقدس في عهد عمر بن الخطاب،بل وجدوا فحسب صخرة واحدة من بقايا المعبد اليهودي القديم مطمورة بين الأقذار والنجاسات مثلما يشير إلى ذلك المؤرخون المسلمون كابن خلدون على سبيل المثال - حيث يقول عن هيلانة أم الإمبراطور قسطنطين : (وخربت مسجد بني إسرائيل وأمرت بأن تلقى القاذورات والكناسات على الصخرة التي كانت عليها القبة التي هي قبلة اليهود، إلى أن أزال ذلك عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه عند فتح بيت المقدس كما نذكره هنالك) (انظر ج2 ص 175- ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر- ابن خلدون - تحقيق خليل شحادة - دار الفكر العربي - بيروت لبنان -الطبعة الثانية - 1988م)

(488) - الحديث متفق عليه وانظر هذه الرواية في صحيح الجامع الصغير وزياداته برقم (2456)

(6)
الأنبياء يحجون إلى مكة !

﴿ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [آل عِمْرَان : 95 – 97] .

سوف نتكلم بعد قليل عن قضية الحج في الإسلام، ولكننا لن نتوقف هنا إلا عند هذا الملمح المحمدي الفذ، وبيان قدرته التصورية العجيبة وطبيعة مخياله الذي يميل إلى التجسيم والتجسيد، ويكفي أن نتذكر فقط أن النبي كان يعتقد بأن الكعبة هي بيت العبادة الأقدس والأقدم على وجه الأرض كلها، كما تدل على ذلك هذه الآيات السابقة من سورة آل عمران؛ لذا فلم يكن من الغريب أن يستتبع اعتقاد النبي العجيب هذا اعتقاد آخر أعجب منه، وهو أن الأنبياء الأقدمين قد تقاطروا جميعا لزيارة البيت والحج إليه. وكما رأينا من قبل فقد كان يكفي النبي أن يعتقد في شيء حتى يراه مجسماً أمامه كما سنرى فقد جعل النبي الحج إلى مكة من بين الشعائر الدينية التي قام بها كثير من الأنبياء السابقين، ولم يكن هذا مجرد اعتقاد ذهني عام، بل لقد نصت الأحاديث الصحيحة على أن النبي قد رأى بعين مخياله ثلاثة من الأنبياء وهم يحجون إلى مكة وهم النبي موسى والنبي يونس ويسوع المسيح (عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر بوادي الأزرق فسأل: أي واد هذا؟، قالوا: وادي الأزرق قال: كأني أنظر إلى موسى عليه السلام وهو هابط من الثنية وله جؤار إلى الله بالتلبية ثم أتى على ثنية هرشي فقال : أي ثنية هذه ؟ قالوا : ثنية هرشي قال كأني أنظر إلى يونس بن متى عليه السلام على ناقة حمراء جعدة عليه جبة من صوف خطام ناقته خلبه وهو يلبي[489])، وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كأني أنظر إلى موسى في هذا الوادي محرماً بين قطوانتين [490])، وفي رواية أخرى صحيحة

---

(489) انظر الحديث في صحيح مسلم برقم (421)

(490) انظر الحديث في السلسلة الصحيحة برقم (2023)

(كأني أنظر إلى يونس على ناقة خطامها من ليف، وعليه جبة من صوف وهو يقول : لبيك اللهم لبيك[491]).

وقد جاءت الأحاديث - أيضاً - بأن المسيح قد حج إلى مكة فقد : (روى عبد الله بن عمر أن النبي قد ذكر يوماً بين ظهراني الناس المسيح الدجال فقال : (وأراني الليلة عند الكعبة في المنام فإذا رجل آدم كأحسن ما يرى من آدم الرجال، تضرب لمته بين منكبيه، رجل الشعر، يقطر رأسه ماء، واضعا يديه على منكبي رجلين يطوف بالبيت فقلت : من هذا ؟ قالوا : هذا المسيح بن مريم [492]).

وهذا الذي رآه النبي في منامه - ومن المعلوم في العقيدة الإسلامية بأن رؤى الأنبياء المنامية حق - هو ما سوف يحدث - أيضاً - في نهاية الزمان عندما ينزل المسيح من السماء مثلما يدل على ذلك حديث أبي هريرة : (والذي نفسي بيده ليهلن ابن مريم بفج الروحاء حاجا أو معتمرا أو ليثنينهما[493])، والأكثر من ذلك أننا نجد مسجداً صغيراً في مكة يزوره سبعون نبياً من الأنبياء السابقين - بل جاءت بعض الآثار بأنهم قد دفنوا فيه - أيضا - ، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (صلى في مسجد الخيف سبعون نبياً منهم موسى صلى الله عليه وسلم كأني أنظر إليه وعليه عباءتان قطوانيتان وهو مُحرَم على بعير من أزد شنوءة مخطوم بخطام ليف له ضفيرتان [494])، والأكثر من ذلك كله أننا نجد ما يوحي بأن الأنبياء السابقين كانوا يقفون بعرفات (فعن علي بن أبي طالب مرفوعا قال : أفضل ما قلت أنا والأنبياء عشية عرفة : لا اله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير [495]) ولابد وأن نشير هنا إلى أن النبي كان دائما ما يقول في تلك الأحاديث عن حج الأنبياء (كأني أنظر) مما يوحي بأنه يقول: (كأني أتخيل)، ومع ذلك فقد جاءت صورة من رآهم من الأنبياء زاهية، ومشتملة على تفاصيل دقيقة مما يوحي بقوة تخيله، حتى ليغفل القارئ عنها فلا يرى فارقاً بين حضورها هنا، وبين تلك الرؤى المخيالية الأخرى التي يصفها النبي دون أن يجد فيها تلك الكلمة.

---

(491) أنظر الحديث في صحيح الجامع للألباني برقم (4470)
(492) البخاري برقم (3440)
(493) انظر السلسلة الصحيحة برقم (2457)
(494) السلسلة الصحيحة برقم (2032)
(495) السلسلة الصحيحة برقم (1503)

(7)
الإسراء والمعراج ولقاء الأنبياء ووصفهم

من بين أهم الرؤى التي حدثت للنبي - عليه السلام - وذكرها القرآن، وأفاضت فيها كتب الأحاديث حادثتي الإسراء والمعراج؛ حيث أسري الله به أولاً إلى بيت المقدس، ثم عرج به من هناك إلى السموات السبع العلا، والتقي في كل سماء من يسكنها من الأنبياء السابقين، ولن نتكلم هنا عن تلك المشاهد المروعة التي رأى النبي فيها أهل النار يقاسون وفاق ما اجترحوه في الدنيا مثل المرابين والزناة والمنافقين وآكلي حقوق اليتامى وغيرهم، فهو يعكس لنا تصور النبي عن مصائرهم وما يستحقونه من أليم العذاب في الآخرة، وإنما يعنينا من بين كل تلك المشاهد المفزعة أوصافه الدقيقة لبعض كبار الأنبياء ولبعض رؤساء الملائكة لنحاول أن نفهم كيف ولماذا رآها على هذا النحو الذي جاءت به الروايات الحديثية ؟!

عن جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :("عرض علي الأنبياء فإذا موسى ضرب من الرجال كأنه من رجال شنوءة، ورأيت عيسى بن مريم فإذا أقرب من رأيت به شبها عروة بن مسعود، ورأيت إبراهيم فإذا أقرب من رأيت به شبها صاحبكم - يعني نفسه - ورأيت جبريل فإذا أقرب من رأيت به شبها دحية بن خليفة " [496].)

فمن يقرأ هذه الأوصاف الدقيقة فلن يرى فيها سوى ترجمة شعورية صادقة لبعض الصور الوصفية التي - ربما يكون النبي قد سمعها عن موسى وعن عيسى، ولربما قد رأى بعينيه صوراً لهم - أيضا - فقد كانت الكعبة تحتوي على تصاوير لكثير من الشخصيات المقدسة مثل إبراهيم وإسماعيل وإسحاق فقد رسم الجاهليون صورة لإبراهيم وجعلوا في يده الأزلام يستقسم بها[497]، ونجد كذلك صورة لمريم عليها السلام[498]، وأما إبراهيم - فحتى لو لم ير النبي صورة له - فلربما كان في اعتقاد النبي بأنه من ولد إبراهيم ما أغناه عن أي صورة وصفية مسموعة؛ فأي غرابة أن يشبه الابن أباه ؟؟!، أما عن شبه جبريل بدحية الكلبي، فقد كان دحية بن خليفة - كما هو معلوم

---

[496] رواه مسلم

[497] (انظر صحيح السيرة النبوية - إبراهيم العلي - دار النفائس للنشر والتوزيع - الأردن - الطبعة الأولى - 1995م- ص416

[498] (انظر- المغازي للواقدي- تحقيق: مارسدن جونس - دار الأعلمي - بيروت الطبعة: الثالثة- م1989- ج2 ص 834

رجلاً وسيماً قسيماً- ؛ لذا فليس من الغريب في شيء أن يجد فيه النبي الصورة البشرية الكاملة التي يتجسد فيها الملاك جبريل، والأكثر من ذلك أننا نجد أحاديث أخرى يسعف النبي مخياله العجيب فيري بعض السابقين ممن لم يرهم - ولا يسهل كذلك الاعتقاد في وجود مرويات تصفهم - لكنه كان يراهم كذلك بعين مخياله في صورة مجسمة، بل ويرى في معاصريه من يشبههم مثلما يدل هذا ذلك هذا الحديث العجيب: (عن أبي هريرة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لأكثم بن الجون الخزاعي: " يا أكثم! رأيت عمرو بن لحي بن قمعة بن خندف يجر قصبه في النار، فما رأيت رجلا أشبه برجل منك به، ولا بك منه ". فقال أكثم: عسى أن يضرني شبهه يا رسول الله؟ قال: " لا، إنك مؤمن وهو كافر، إنه كان أول من غير دين إسماعيل، فنصب الأوثان وبحر البحيرة وسيب السائبة ووصل الوصيلة وحمى الحامي[499]).

ولربما أعان النبي على اعتقاده بهذا إيمانه الراسخ باستمرار حياة الأنبياء بعد الموت وأن أجسادهم لا تبلى،[500] وهو ذات ما سنجده بعد ذلك عن الصوفية المسلمين ودعوى العشرات منهم التقاءهم النبي عليه السلام في اليقظة، وتعدد لقاء بعضهم بالخضر - وهو بطبيعة الحال شخصية خرافية - ومن الأخذ عنه - الخضر - أصول التصوف، ووصايا الطريق إلى الله ومن رؤية كثير من المسلمين للملائكة فهذه الاعتقادات لا ينبغي ردها، أو وصفها بالأكاذيب حتى لمن لا يصدق بوقوعها فالعقل يرى ما يعتقده[501].

---

[499] أورده الألباني كشاهد لرواية مختصرة في السلسلة الصحيحة عن رؤية النبي لعمرو بن لحي برقم (1677) وساق هذا الحديث كشاهد على تقويته وقال عنه : (وهذا إسناد لا بأس به في الشواهد رجاله ثقات غير الهجري فإنه لين الحديث رفع موقوفات كما قال الحافظ)

[500] كما في هذا الحديث : فأكثروا عليّ من الصلاة فيه فإن صلاتكم معروضة عليّ قالوا: يا رسول الله كيف تعرض عليك صلاتنا وقد أرمت؟ فقال :إن الله Y حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء رواه الخمسة إلا الترمذي. أخرجه النسائي في كتاب الجمعة، باب إكثار الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، برقم 1374، وأبو داود في كتاب الصلاة، باب فضل الجمعة وليلة الجمعة، برقم 1047، وابن ماجه في كتاب إقامة الصلاة، باب فضل الجمعة، برقم 1085، وأحمد في أول مسند المكثرين، حديث أوس بن أبي أوس الثقفي، برقم 15729

وأما أصل هذا الاعتقاد النبوي فهو ما نجده في التلمود عن استثناء بعض الأنبياء من تحلل أجسادهم : (باراثيا. توفي سبعة آباء في احترام عالمي والديدان واليرقات لم تكن لهم قدرة عليهم، وهم أبراهام، إسحق يعقوب أمرام وإلا موسى بنيامين ابن يعقوب، جيسي وتشيليان. يضيف البعض: داود،) انظر : التلمود البابلي المجلد العشرون ص 294

[501] - ويكفي أن يرجع القارئ إلى كتاب السيوطي : (تنوير الحلك في إمكان رؤية النبي جهارا والملك - مكتبة الحقيقة - استانبول - تركيا - 1986م، حيث ساق السيوطي في كتابه هذا ما شاع بين المسلمين من إمكان أن يرى الصالحون النبي بعد موته في يقظتهم وساق ما أوردته الأحاديث الصحيحة من أن صحابيا كعمران بن حصين كان يرى الملائكة، وأفاض في ذكر رؤى الصالحين ومشهداتهم .وسيرى الصالحون النبي دائما في أحسن صورة سواء من ترسبت في عقله

(7)
النبي يرى من خلف ظهره

(عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (هَلْ تَرَوْنَ قِبْلَتِي هَا هُنَا ؟! وَاللَّهِ مَا يَخْفي عَلَيَّ رُكُوعُكُمْ وَلَا خشوعكم، وَإِنِّي لأَرَاكُمْ وَرَاءَ ظَهْرِي[502])، وقوله (أتموا الركوع والسجود فو الذي نفسي بيده إني لأراكم من وراء ظهري إذا ركعتم وإذا سجدتم[503]).

من العجيب أننا نجد من بين ما اعتقده المسلمون عن خصوصية النبي التي فضل بها عن جميع البشر أنه كان يرى من خلف، كما يرى من أمام، وذلك لتصديقهم ظاهر ما تنص عليه تلك الأحاديث فقال النووي - مثلاً- في شرحه لهذا الحديث السابق: (" قَالَ الْعُلَمَاء : مَعْنَاهُ أَنَّ اللَّه تَعَالَى خَلَقَ لَهُ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِدْرَاكًا فِي قَفَاهُ يُبْصِر بِهِ مِنْ وَرَائِهِ , وَقَدْ اِنْخَرَقَتْ الْعَادَة لَهُ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَكْثَر مِنْ هَذَا , وَلَيْسَ يَمْنَع مِنْ هَذَا عَقْل وَلَا شَرْع , بَلْ وَرَدَ الشَّرْع بِظَاهِرِهِ فَوَجَبَ الْقَوْل بِهِ . قَالَ الْقَاضِي : قَالَ أَحْمَد بْن حَنْبَل رَحِمَهُ اللَّه تَعَالَى وَجُمْهُور الْعُلَمَاء : هَذِهِ الرُّؤْيَة رُؤْيَة بِالْعَيْنِ حَقِيقَة " [504])، وقال الحافظ ابن حجر(: وَقَدْ اُخْتُلِفَ فِي مَعْنَى ذَلِكَ فَقِيلَ : الْمُرَاد بِهَا الْعِلْم : إِمَّا بِأَنْ يُوحَى إِلَيْهِ كَيْفِيَّة فِعْلهمْ، وَإِمَّا أَنْ يُلْهَم , وَفِيهِ نَظَرٌ ; لِأَنَّ الْعِلْم لَوْ كَانَ مُرَادًا لَمْ يُقَيِّدهُ بِقَوْلِهِ مِنْ وَرَاء ظَهْرِي . وَقِيلَ الْمُرَاد أَنَّهُ يَرَى مَنْ عَنْ يَمِينه وَمَنْ عَنْ يَسَاره مِمَّنْ تُدْرِكهُ عَيْنه مَعَ اِلْتِفَات يَسِير فِي النَّادِر , وَيُوصَف مَنْ هُوَ هُنَاكَ بِأَنَّهُ وَرَاء ظَهْره , وَهَذَا ظَاهِر التَّكَلُّف , وَفِيهِ عُدُول عَنْ الظَّاهِر بِلَا مُوجِب وَالصَّوَاب الْمُخْتَار : أَنَّهُ مَحْمُول عَلَى ظَاهِره , وَأَنَّ هَذَا الْإِبْصَار إِدْرَاك حَقِيقِيّ خَاصّ بِهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، اِنْخَرَقَتْ لَهُ فِيهِ الْعَادَة , وَعَلَى هَذَا عَمَل الْمُصَنِّف فَأَخْرَجَ هَذَا الْحَدِيث فِي عَلَامَات النُّبُوَّة , وَكَذَا نُقِلَ عَنْ الْإِمَام أَحْمَد وَغَيْره"[505]

ما جاء من أوصاف النبي في كتب السيرة واشهرها وصف على بن أبي طالب له أو وصف رجل وصافة مثل هالة بن أبي هالة الخ

[502] أخرجه البخاري برقم (741) ومسلم برقم (424)

[503] برقم (121) صحيح الجامع الصغير وزياداته

[504] انظر شرح مسلم للنووي ج4 ص 129

[505] انظر فتح الباري لابن حجر ج1 ص 415

ولسنا بحاجة إلى القول بأن كل تلك الأقوال - على جلالة قدر أصحابها - إنما هي لغو لا معنى له؛ فلم يقل النبي - أبداً - بأنه يرى من خلف ظهره عامة أحواله، بل لم يقل سوى أنه يستشعر بمن خلفه في الصلاة خاصة، فيرى بعين قلبه من يستغرق في الصلاة فيخشع فيها، ويستشعر حال عامة المنافقين وحديثي العهد بالإسلام الذين لا يقبلون على الصلاة بقلوبهم فلا تخشع فيها جوارحهم كما ينبغي لواقف أمام الله فهو على هذا لا يعبر عن خصيصة دائمة من خصائص النبي، بل كان يعبر عن حالة خاصة عبر النبي لنا فيها عن فرط قوة تصوره لمن كان يقف خلفه في الصلاة لا أكثر ولا أقل؛ وإلا فقد كان النبي - عليه السلام - يحرس من قبل أصحابه لكي لا يغدر به أحد من خلفه.

(8)
النبي وعذاب القبر

(عن أبي هريرة قال كنا نمشي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فمررنا على قبرين فقام وقمنا معه فجعل لونه يتغير حتى رعد كم قميصه فقلنا ما لك يا نبي الله ؟ قال ما تسمعون ما أسمع ؟! قلنا : وما ذاك يا نبي الله ؟ قال : هذان رجلان يعذبان في قبورهما عذابا شديدا في ذنب هين، كان أحدهما لا يستنزه من البول، وكان الآخر يؤذي الناس بلسانه ويمشي بينهم بالنميمة) فدعا بجريدتين من جرائد النخل فجعل في كل قبر واحدة قلنا: وهل ينفعهما ذلك يا رسول الله؟ قال نعم يخفف عنهما ما داما رطبتين [506])، وسوف نقف عند قضية عذاب القبر عند عرضنا للأخرويات الإسلامية - في القسم الثاني من هذا الكتاب - ولكن يكفي هنا أن نرى كيف كانت قوة شعور النبي بما اعتقد فيه ؛ حيث نراه - في الحديث السابق - يسمع ما لا يسمعه أصحابه، ونراه كيف كان ينفعل أشد الانفعال بما يسمعه وحده، حتى يتغير لونه ويرتعد كم قميصه، وحتى تدركه الرحمة بهذين المسكينين فيحاول أن يخفف عنهما ما استطاع إلى ذلك سبيلاً .

فهل يستطيع أحد أن يقول إن النبي كان يتظاهر بكل ذلك؟!، وهل كان كل ذلك ضرورياً لكي يقرر النبي لأصحابه المصدقين لكل ما يقوله لهم أعظم التصديق - بأن هناك عذابا في القبر؟ أم يدل هذا الحديث - ومثله كثير- على قوة شعور النبي وفرط إحساسه الصادق بما يعتقد ؟!

[506] التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان وتمييز سقيمه من صحيحه، وشاذه من محفوظه برقم (821)

وإليك - أخيراً - بعض الرؤى النبوية الأخرى، والتي لن يجد فيها القارئ فارقاً بين ما ينتمي لعالم الدنيا أو لعالم الآخرة : فهذان -على سبيل المثال- حديثان يجسدان حسن ظن النبي بمصير بعض أتباعه الصالحين : (عَنْ جَابِرٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «أُرِيْتُ الْجَنَّةَ فَرَأَيْتُ امْرَأَةَ أَبِي طَلْحَةَ وَسَمِعْتُ خَشْخَشَةً أَمَامِي فَإِذَا بِلَالٌ»[507].)، (أريت جعفرا : ملكا يطير بجناحيه في الجنة [508]).

وهذان حديثان آخران يجسدان لنا توقع النبي لما سيحدث بعض رحيله، ويجسم لنا خشيته - الصادقة - من أن يقتتل أصحابه من بعده ويسفك بعضهم دماء بعض، ولم تكن هذه النبوءة - بطبيعة الحال - سوى أثر من آثار قراءة النبي للماضي، وتأمله الدائم في أخبار الأمم الماضية - كما تصوره - وكذلك تيقنه من أنه سيجري على أمته بعد رحيله ذات القانون الإلهي من وقوع الفرقة والانقسام بعد الوحدة والاجتماع، وأن الدنيا ستفتن عامة أمته من بعده كما فتنت من سبقهم من أتباع الأنبياء، وأيضاً لما قَر في باطن النبي من وجود كثير من الأمور والمشكلات التي لم تحل في حياته، والتي ستنفجر - حتماً - من بعده بعدما تذوي شعلة الإيمان التي أوقدها في قلوب أصحابه كما في الحديث الأول، أو توقعه في الحديث الثاني من أن تغزو أمته المنصورة من حولها من البلاد ويركبون السفن في حروبهم الظافرة: (عن أم حبيبة رضي الله عنها عن رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أنَّه قال (أُرِيتُ ما يَلْقى أُمَّتي مِنْ بَعدي، وسَفْكَ بعْضِهم دماء بَعْضٍ؛ فأحْزَنَني، وسبقَ ذلك مِنَ الله عزَّ وجلَّ، كما سبقَ في الأُمَمِ قَبْلَهُم، فسأَلْتُه أنْ يولِيَني فيهِمْ شَفاعةً يومَ القِيامَةِ، فَفَعَلَ[509])، (أريت قوما من أمتي يركبون ظهر البحر كالملوك على الأسرة [510])، وأما هذا الحديث الأخير فهو يعكس لنا جانباً عن توق النبي اللاشعوري لملاحة تلك الشابة الألمعية اللطيفة، والتي ألهم حبها مذ كانت طفلة، وظل على حبها حتى انتقل إلى رحاب ربه وهو بين سحرها ونحرها: (أريتك في المنام مرتين يحملك الملك في سرقة من حرير فيقول: هذه امرأتك فاكشف عنها فإذا أنت هي فأقول: إن يكن هذا من عند الله يمضه [511])، فياله من وجدان بشري طهور!

---

[507] رَوَاهُ مُسلم
[508] انظر المشكاة برقم (6153) والسلسلة الصحيحة برقم (1226)
[509] صحيح الترغيب والترهيب برقم (3633)
[510] صحيح الجامع الصغير وزياداته برقم (914)
[511] صحيح الجامع الصغير وزياداته برقم (915)

خامسا: موهبة النبي الأدبية:

﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾﴾ [المَائـِدَة : 116 - 119].

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾﴾ [الفُرْقَان : ١٧ - ١٩].

﴿ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾

قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ تَكُ تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ قَالُواْ بَلَىٰۚ قَالُواْ فَٱدۡعُواْۗ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾﴾ [غَافِر : 47 – 50] .

﴿ فَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٞ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلۡ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرۡدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوۡلَا نِعۡمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحۡنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوۡتَتَنَا ٱلۡأُولَىٰ وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثۡلِ هَٰذَا فَلۡيَعۡمَلِ ٱلۡعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الصَّافَّات : 50-61] .

من بين المواهب الساطعة التي ربما غفل عنها كثير من دارسي قصص الأحاديث النبوية هي ما كان يتمتع به النبي - عليه السلام - من موهبة أدبية، وملكة قصصية مدهشة، والتي ظلت تضطرم كامنة تحت حضور مشاعره التقية الورعة، وخشيته الكاملة من الله من أن يفتري عليه كذباً، أو يقول على لسان الحق - سبحانه – ما لم يقع في قلبه من وحي الله إليه؛ فكانت تلك الخشية الدائمة تحول بينه وبين أن يطلق العنان لمواهبه الأدبية الكامنة في نفسه، ولا تجعله يسترسل مع نزوعه الفني الخالص في التصوير والإنشاء.

أما هذا الباب الواسع فنعني به جانبين أحدهما أوسع بكثير من الآخر. فأما الأول فقد كان في تلك القصص التمثيلية التي كان النبي يقصها على أصحابه، سواء أكانت ذات أصل سماعي عربي أو كانت ترجع إلى مأثور كتابي، ولكنه كان يتوسع فيها، ويضيف إليها بحرية نسبية، سواء من ناحية الأحداث والوقائع، أو من جانب المغزى والدلالة الدينية، أو من يدري فلربما كانت إنشاءً خالصاً لم يجد النبي بأساً في أن يصب فيها معاني القرآن ومقاصده ؛ لأنه كان في النهاية لا يغير شيئاً من الحقائق ولا يزيفها. ولكن لأن النزوع الفني الأصيل لا يستطيع أن يقمع تماماً، ولا بد وأن يجد لنفسه مسرباً ومتنفساً، فلقد عثر النبي على هذا الباب الواسع الذي أشبع لديه هذا النزوع الأدبي، والذي لم يكن يتقاطع في الوقت نفسه مع تلك الكوابح الذاتية التي كانت تقيد خطى

المخيال النبوي في قصص الأنبياء - حيث لم يكن يجد فيها موضعاً للتعبير عن هذا الجانب الفني اللهم إلا فيما كان يشيعه - لا شعورياً- في القصص النبوي القديم من لمسات مخيالية جميلة، مثل ما رأينا من تسرب أحاسيسه وأفكاره من خلف أصوات الأنبياء، ولكنها كانت لمسات محدودة ومقيدة بتلك الكوابح الصارمة ومنحها - اعتقاده الراسخ في وحدة العقيدة الإلهية - شرعيتها الكاملة ومن ذلك مثلاً تلك القصص المجهلة في القرآن كقصة - صاحب الجنتين- كما جاءت في سورة الكهف ﴿ ۞ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا رَّجُلَيۡنِ جَعَلۡنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيۡنِ مِنۡ أَعۡنَٰبٖ وَحَفَفۡنَٰهُمَا بِنَخۡلٖ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمَا زَرۡعٗا ﴿٣٢﴾ كِلۡتَا ٱلۡجَنَّتَيۡنِ ءَاتَتۡ أُكُلَهَا وَلَمۡ تَظۡلِم مِّنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ وَفَجَّرۡنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرٗا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٞ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدٗا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهَا مُنقَلَبٗا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرۡتَ بِٱلَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلٗا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ﴿٣٨﴾ وَلَوۡلَآ إِذۡ دَخَلۡتَ جَنَّتَكَ قُلۡتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالٗا وَوَلَدٗا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤۡتِيَنِ خَيۡرٗا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرۡسِلَ عَلَيۡهَا حُسۡبَانٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصۡبِحَ صَعِيدٗا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوۡ يُصۡبِحَ مَآؤُهَا غَوۡرٗا فَلَن تَسۡتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبٗا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ﴿٤٢﴾ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٞ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾﴾ [الكهف : 32 – 43]، وقصة أهل الجنة كما وردت في سورة القلم ﴿ إِنَّا بَلَوۡنَٰهُمۡ كَمَا بَلَوۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ إِذۡ أَقۡسَمُواْ لَيَصۡرِمُنَّهَا مُصۡبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسۡتَثۡنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيۡهَا طَآئِفٞ مِّن رَّبِّكَ وَهُمۡ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصۡبَحَتۡ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوۡاْ

مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُواْ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُواْ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْاْ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [القَلَم : 17- - 32]، أو كانت من القصص التمثيلي الواضح الذي كان يقصه على أصحابه ويستهدف من خلفه العظة والعبرة مثل قصة (الأبرص والأقرع والأعمى)، وكذا قصة (أهل الغار الثلاثة) وقصة:(صاحب فرق الأرز)، وما إلى ذلك من قصص وعظية ذات مخيال عميق، وتصوير فني لطيف، والتي كانت لا تبعد حقا في لغتها أو مقاصدها عن لغة قصص القرآن ومقاصده رغم الفارق البعيد بينها وبين قصص القرآن ؛ حيث كانت قصص الأنبياء في القرآن والأحاديث تترجم - في اعتقاد النبي - عن وقائع حقيقية حدثت حقاً وصدقاً، وأما تلك الأخرى فهي قصص رمزية فحسب .

أما الباب الأرحب الذي عثر عليه النبي ووجد فيه متنفساً لخياله فقد كان عالم غيوب الآخرة وما يمكن أن يقع فيها من عجائب وما يمكن أن يحدث فيها من غرائب، حيث انطلق مخيال النبي الفسيح في هذا الجانب، وأبدع كثيراً من القصص المؤثرة الجميلة معتمداً في ذلك على حسن ظنه في الله، وعظيم ثقته في عدله ورحمته، وكانت تلك الوقائع الأخروية - أيضاً - ترجمة نفسية لما قرّ في نفسه من صفات الله العادل الصارم الذي لا يتسامح أبدا مع خطيئة واحدة فحسب، وهي خطيئة الإشراك به مثلما نجد في حوارات أهل الجنة والنار في الآخرة وجدال المستضعفين مع الأقوياء المتجبرين في الدنيا وهم يقاسون العذاب كما في تلك الأمثلة القرآنية التي صدرنا بها هذه الكلمة[512]، أو مثل ما سنجده في هذه الأحاديث الجميلة التي سنعرض - بعد قليل -

(512) ﴿ وَنَادَوْاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [الزُّخْرُف : ٧٧]
﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [النَّحْل : ٣٢] .

أمثلة منها حيث يفيض الله على البشر المساكين من رحمته ما يدهشهم ويذهلهم عن أنفسهم بفضله وكرمه إذن فقد وجد النبي في عالم غيوب الآخرة ما لم يكن يجده في قصص الأنبياء حيث كانت يحجزه عن التصرف الواسع فيها اعتقاده الصادق بأنها حقائق تاريخية، ليس له أن يزيد عليها أو أن ينقص منها، و أما تلك الغيوب والأحداث المستقبلية فقد كانت إمكاناً خالصًا، وليست وقائع أو أخبارًا يصح أن توصف بالصدق أو بالكذب، بل كانت ترجمة أدبية ورؤيوية لحوادث مستقبلية متخيلة، وتتجلى فيها سعة قدرة الله القادر على كل شيء والذي رجاه النبي من أعماق قلبه ألا يخيب ظنه فيه، وأن يحقق رجاءه بوقوع تلك الحوادث المستقبلية كما تمناها النبي وكما قصها على أصحابه. وسوف نسوق هنا بعض النماذج القليلة - فقط عشرة أحاديث - والتي تدل على ذلك بوضوح شديد ليقرأها القارئ الكريم، ودون أي تعقيب منا فهي واضحة بذاتها وحسب القارئ أن يتذكر وهو يطالعها كم تدين العربية والإنسانية كلها في آدابها وأخلاقها لهذا المبدع الكبير- عليه السلام .

﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ ﴾ [الفُرْقَان : ٢٧ - ٢٩] .

ومن بين المحاورات الكثيرة التي افترض النبي وقوعها الآخرة أمثال تلك المحاورات التي تصف لنا توبيخ الملائكة للكافرين على كفرهم أو تلك المحاورات التي سيجريها القرآن بين المؤمنين وبين الكافرين أو تلك التحسرات المفجعة التي ستدوي من أفواه المكذبين الكافرين بعدما تنكشف أمام أعينهم عوالم الآخرة ويعاينون بأنفسهم ما كانوا يجحدونه في الدنيا الخ فهل من الغريب في شيىء أن يأتي القرآن على أمثال تلك المحاورات الافتراضية ؟!

الحقيقة البسيطة أن النبي لم يكن ليتحرج من أن يجري شيئا من ذلك في القرآن الكريم لأنها تعبر عن مشاعر طبيعية يسهل توقعها سواء مشاعر التحسر والتندم التي لا يستغرب صدورها من الكافرين المكذبين أو جاءت للتعبير عن فرحة المؤمنين المغتبطين بأن الله قد حقق رجاءهم وشاهدوا ثمرة إيمانهم !

أما عن بعض الجمل الخاصة التي نجدها في بعض القصص مثل تلك التي تصف لنا جهل القائمين من الموت عن مدة لبثهم في القبور فلعل كان من خلفها - إلى جانب ما يراه الإنسان في الدنيا من جهله بمقدار الوقت الذي قضاه نائما - ما جاءت به بعض القصص السماعية التي أوردت على ألسنة المستيقظين في الدنيا ذات التعبيرات للدلالة على جهلهم بما قضوه من وقت وهم نيام مثل قصة هؤلاء الفتية الذين ناموا في كهفهم أكثر من ثلاثمائة سنة أو ذلك الرجل الذي أماته الله مائة عام ثم بعثه ولا نشك في أنها كانت قصصا ذائعة شائعة قبيل الإسلام

﴿ قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ ﴾ [المُؤْمِنُون : ١١٢ - ١١٤] .

وربما يعضد هذا الفهم أن تاريخ تنزل القرآن يدل على هذا فمن المقطوع به أن سورة الكهف قد نزلت قبل سورة المؤمنون ثم سورة البقرة

(1)

(عن أبي ذر، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إني لأعلم آخر أهل الجنة دخولًا الجنة، وآخر أهل النار خروجًا منها، رجل يؤتى به يوم القيامة، فيقال: اعرضوا عليه صغار ذنوبه، وارفعوا عنه كبارها، فتعرض عليه صغار ذنوبه، فيقال: عملت يوم كذا وكذا كذا وكذا، وعملت يوم كذا وكذا كذا وكذا، فيقول : نعم، لا يستطيع أن ينكر وهو مشفق من كبار ذنوبه أن تعرض عليه، فيقال له : فإن لك مكان كل سيئة حسنةً، فيقول: رب، قد عملت أشياء لا أراها ها هنا " فلقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ضحك حتى بدت نواجذه[513]).

(2)

(عن عبد الله بن عمرو بن العاص، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إن الله سيخلص رجلًا من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة، فينشر عليه تسعةً وتسعين سجلًا، كل سجل مد البصر، ثم يقول له: أتنكر شيئًا من هذا؟ أظلمك كتبتي الحافظون؟ فيقول: لا يا رب، فيقول: أفلك عذر؟ فيقول الرجل لا يا رب، فيقول: بلى، إن لك عندنا حسنةً، وإنه لا ظلم عليك اليوم، فيخرج له بطاقةً فيها: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله، فيقول: احضر وزنك، فيقول: يا رب، ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقول: إنك لا تظلم. قال: فتوضع السجلات في كفة، والبطاقة في كفة، فطاشت السجلات، وثقلت البطاقة، قال: فلا يثقل اسم الله شيء[514])

(3)

(عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يومًا يحدث، وعنده رجل من أهل البادية: " أن رجلًا من أهل الجنة استأذن ربه في الزرع، فقال له: ألست فيما شئت؟ قال: بلى، ولكني أحب أن أزرع، قال: فبذر، فبادر الطرف نباته واستواؤه واستحصاده، فكان أمثال الجبال، فيقول الله: دونك يا ابن آدم، فإنه لا يشبعك

(513) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة رقم (190) والترمذي في كتاب صفة جهنم، باب ذكر من يخرج من النار من أهل التوحيد ورقمه (2596)

(514) رواه الترمذي في كتاب الإيمان، باب ما جاء فيمن يموت وهو يشهد أن لا إله إلا الله (2639)، وحكم عليه الألباني بالصحة في صحيح الترمذي (2127) وهو في صحيح ابن ماجة برقم (4300)

شيء "، فقال الأعرابي: يا رسول الله لا تجد هذا إلا قرشيًا، أو أنصاريًا، فإنهم أصحاب زرع، وأما نحن فلسنا بأصحاب زرع، فضحك رسول الله[515])

(4)

روى أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله (ص) حدث عما يكون من حساب الله العباد في يوم المعاد ومرور الناس على الصراط ثم قال : (ثم يفرغ الله تعالى من القضاء بين العباد، ويبقى رجل مقبل بوجهه على النار وهو آخر أهل الجنة دخولًا الجنة، فيقول: أي رب، اصرف وجهي عن النار، فإنه قد قشبني ريحها، وأحرقني ذكاؤها، فيدعو الله - ما شاء الله أن يدعوه، ثم يقول الله: هل عسيت أن أعطيت ذلك أن تسألني غيره؟ فيقول: لا وعزتك لا أسألك غيره، ويعطي ربه من عهود ومواثيق ما شاء، فيصرف الله وجهه عن النار، فإذا أقبل على الجنة ورآها سكت ما شاء الله أن يسكت، ثم يقول: أي رب، قدمني إلى باب الجنة، فيقول الله له: أليس قد أعطيت عهودك ومواثيقك لا تسألني غير الذي أعطيت أبدا، ويلك يا ابن آدم، ما أغدرك فيقول: أي رب، ويدعو الله حتى يقول له: فهل عسيت إن أعطيت ذلك أن تسأل غيره؟ فيقول: لا وعزتك، لا أسألك غيره فيعطي ربه ما شاء من عهود ومواثيق، فيقدمه إلى باب الجنة، فإذا قام على باب الجنة انفهقت له الجنة، فرأى ما فيها من الحبرة والسرور، فيسكت ما شاء الله أن يسكت، ثم يقول: أي رب، أدخلني الجنة، فيقول الله : أليس قد أعطيت عهودك ومواثيقك أن لا تسأل غير ما أعطيت؟، ويلك يا ابن آدم، ما أغدرك، فيقول: أي رب، لا أكونن أشقى خلقك، فلا يزال يدعو الله حتى يضحك الله منه، فإذا ضحك الله منه قال: ادخل الجنة، فإذا دخلها قال الله له: تمنه، فيسأل ربه ويتمنى حتى إن الله ليذكره يقول : كذا وكذا، حتى إذا انقطعت به الأماني، قال الله: ذلك لك ومثله معه [516])

(6)

(عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " يؤتى بالموت كهيئة كبش أملح، فينادي مناد: يا أهل الجنة، فيشرئبون وينظرون، فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموت، وكلهم قد رآه، ثم ينادي: يا أهل

[515] رواه البخاري في صحيحه في كتاب التوحيد، باب كلام الرب مع أهل الجنة ورقمه (7519) وفي كتاب المزارعة (2348)

[516] رواه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة في كتاب التوحيد باب (وجوه يومئذ ناضرة) ورقمه (7437) ورواه في مواضع أخرى من كتابه أنظره برقم (806) و(6573) وهو في صحيح مسلم برقم (182)

النار، فيشرئبون وينظرون، فيقول: وهل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموت، وكلهم قد رآه، فيذبح ثم يقول: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت، ثم قرأ: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ ﴿٣٩﴾ [مَرْيَم : ٣٩] ، وهؤلاء في غفلة أهل الدنيا ﴿ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ[517] ﴾ [مَرْيَم : 39.]

(7)

(عن أنس بن مالك، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " إن في الجنة لسوقًا، يأتونها كل جمعة، فتهب ريح الشمال فتحثو في وجوههم وثيابهم، فيزدادون حسنًا وجمالًا، فيرجعون إلى أهليهم وقد ازدادوا حسنًا وجمالًا، فيقول لهم أهلوهم: والله لقد ازددتم بعدنا حسنًا وجمالًا، فيقولون: وأنتم، والله لقد ازددتم بعدنا حسنًا وجمالًا[518]).

(8)

(عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال قالوا يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة قال هل تضارون في رؤية الشمس في الظهيرة ليست في سحابة؟ قالوا : لا قال: فهل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر ليس في سحابة ؟ قالوا : لا قال : فوالذي نفسي بيده لا تضارون في رؤية ربكم عز وجل إلا كما تضارون في رؤية أحدهما قال: فيلقى العبد فيقول: أي فل ألم أكرمك وأسودك وأزوجك وأسخر لك الخيل والإبل وأذرك ترأس وتربع؟ فيقول بلى أي رب قال فيقول: أفظننت أنك ملاقي؟ فيقول: لا فيقول : فإني أنساك كما نسيتني ثم يلقى الثاني فيقول : أي فل ألم أكرمك وأسودك وأزوجك وأسخر لك الخيل والإبل وأذرك ترأس وتربع ؟ فيقول: بلى يا رب فيقول : أفظننت أنك ملاقي؟ فيقول: لا فيقول إني أنساك كما نسيتني ثم يلقى الثالث فيقول له مثل ذلك فيقول يا رب آمنت بك وبكتابك وبرسلك وصليت وصمت وتصدقت ويثني بخير ما استطاع قال (فيقول ههنا إذًا) قال ثم يقال له الآن نبعث شاهدنا عليك ويتفكر في نفسه من ذا الذي

---

[517] رواه البخاري في صحيحه في كتاب التفسير في تفسيره سورة مريم ورقمه (4730)، ورواه مسلم في صحيحه في كتاب الجنة، باب النار يدخلها الجبارون، ورقمه (2849)

[518] رواه مسلم في صحيحه في كتاب الجنة، باب سوق الجنة ورقمه (2833)

يشهد علي فيختم على فيه ويقال لفخذه ولحمه وعظامه انطقي فتنطق فخذه ولحمه وعظامه بعمله وذلك ليعذر من نفسه وذلك المنافق وذلك الذي يسخط الله عليه[519]).

(9)

(عن العرباض بن سارية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (يختصم الشهداء والمتوفون على فرشهم إلى ربنا في الذين يتوفون من الطاعون , فيقول الشهداء: إخواننا، قتلوا كما قتلنا ويقول المتوفون على فرشهم: إخواننا , ماتوا على فرشهم كما متنا , فيقول الرب - عز وجل -: انظروا إلى جراحهم, فإن أشبه جراحهم جراح المقتولين , فإنهم منهم ومعهم , فإذا جراحهم قد أشبهت جراحهم فيلحقون معهم [520]).

(10)

(عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " يخرج عنق من النار يوم القيامة له عينان تبصران وأذنان تسمعان ولسان ينطق، يقول: إني وكلت بثلاثة، بكل جبار عنيد، وبكل من دعا مع الله إلهًا آخر، وبالمصورين[521]).

---

[519] رواه مسلم في صحيحه في كتاب الزهد والرقائق برقم (2968) (فل أي فلان) (المِرباع: وهو ربع الغنيمة يكون لرئيس القوم في الجاهليّة دون أصحابه وصار في الإسلام الخمس على ما فرضه الله تعالى)(انظر : موت الألفاظ في العربية- عبد الرزاق بن فراج الصاعدي- الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة- السنة التاسعة والعشرون. العدد السابع بعد المائة. (1419/1418ه) 1 ص 373-

[520] رواه النسائي في سننه في كتاب الجهاد، باب مسألة الشهادة ورقمه (3164)وحكم عليه الألباني بالصحة في صحيح النسائي ورقمه (2966)

[521] أورده الشيخ ناصر الدين الألباني في (سلسلة الأحاديث الصحيحة) ورقمه :2،512\41) وعزاه إلى الترمذي في سننه (2574) وأحمد في مسنده (8430) وذكر أن الترمذي قال فيه : (حديث حسن صحيح غريب)
ولمن شاء المزيد من تلك القصص الغيبية فليرجع إلى كتاب : (قصص الغيب في صحيح الحديث النبوي - د عمر سليمان الأشقر- دار النفائس للنشر والتوزيع -الطبعة الأولى - 2007م

خاتمة وتمهيد

لعل فيما قدمناه من محاولة تلمُس سبيل واضح لفهم طريقة تفكير النبي، وبيان قوة شعوره بالحقائق التي آمن إيماناً جازماً في صحتها ما يقربنا - ولو خطوة واحدة - من فهم النبي، وتفهُم ما جاء به، فلم يعد بالإمكان التصديق الكامل لصحة كل ما جاء به النبي من اعتقادات كحقائق موضوعية ينبغي الإيمان بها، وليس من كبير نفع - أيضاً - لتصوير اعتقاداته كلها كهذيانات وضلالات خالصة، ناهيك أن تكون إختلاقات عمدية - حاشاه! -، بل الأجدى من هذا كله هو أن ينظر القارئ إلى ما جاء به النبي كترجمة باطنية صادقة لاعتقاداته النفسية والشعورية كما آمن بها، وتصورها عقله وضميره لا أكثر ولا أقل. وفي اعتقادنا أن مَنْ تغيب عنه تلك التفاعلات الجدلية في تعامل النبي مع إرث الأنبياء السابقين -على النحو الذي بلغه وكما فهمه وتفاعل معه بكل كيانه - فلن يفهم شيئاً من هذا الركام الهائل والذي يبدو في ظاهرة متناقضاً أشد التناقض ومعقداً أشد التعقيد حتى لتبدو تلك الأحاديث مثل كرة خيوط هائلة تتداخل وتتشابك خيوطها على نحو مربك ومحير حقاً، لكنها في الحقيقة خيط واحد ان أمكن فهم مسارها المربك والمعقد .

لندخل إذاً إلى ما أخترناه من قصص الأنبياء كما أوردتها الأحاديث النبوية[522] ولكن إذا صادفتنا مناسبات عديدة يجعل النبي من بعض حوادثها نقطة البدء في التاريخ، ونراه يرجع بأصلها إلى بداية البشرية فلنتذكر ما سبق وان قلناه في الفصول السابقة من تولع كتبة العهد القديم بمثل ذلك التأصيل حيث يتفق الجميع مثلاً على أن آدم كان أول مخلوق بشري، وأن قايين كان هو أول قاتل في التاريخ، ولم يعرف البشر تعدد الزوجات إلا على يد لامك القيني قبل الطوفان بمدة يسيرة، ولنتذكر - أيضاً - أن الكتاب المُقدس يقول بأن أول عهد البشر بتناول اللحوم كان بعد الطوفان[523]، ويقرر الشُراح بأن البشر

[522] وينبغي أن نقول هنا أنه يجب علينا أن ننظر بحذر إلى ما يمكن أن يضيفه النبي إلى تلك القصص من تفاصيل أدبية حتى في القصص التي نعلم أن لها أساسا كتابيا، فلم يكن النبي كما راينا ينقصه الخيال النشيط للتفاعل مع تلك القصص وترك طابع رؤيته عليها

[523] فقد قال الله لنوح (كل دابة حية تكون لكم طعاما كالعشب الأخضر ....)(تك 9 : 3و4)وأما قبل نوح فقد قال الله لآدم عندما وضعه في جنة عدن (من جميع شجر الجنة تأكل أكلا)(تك 2::16)، وبعد السقوط قال له (ملعونة الأرض بسببك بالتعب تأكل منها كل أيام حياتك وشوكا وحسكا تنبت لك وتأكل عشب الحقل بعرق وجهك تأكل خبزا)(تك الإصحاح الثالث آيات 17-18): (ومن هذا يبدو جيدا أن الإنسان الأول كان نباتيا ويبدو أن الأمر ظل كذلك حتى أيام نوح في الفلك مع جميع الحيوانات التي كانت معه في الفلك .) انظر دائرة المعارف الكتابية المجلد الخامس - ص 113

لم يعرفوا الخمر إلا بعد الطوفان - أيضاً -، ويؤمن اليهود والمسيحيون بأن برج بابل كان سبب تعدد اللغات البشرية إلى آخر تلك الاعتقادات الباطلة وغير التاريخية.

وإذا تذكرنا أن النبي لم يكن يشك في صحة تلك المعارف الكتابية الخاطئة، وأضفنا إلى ذلك انحصار معارف النبي التاريخية فيما جاء في الكتاب المقدس -على صورته التي بلغته- فلن نجد صعوبة كبيرة في تفهُم اعتبار النبي ورود بعض حوادثه الأولى إلا باعتبارها اللحظة الرسمية لحضورها في التاريخ الإنساني كله، فقد كان التاريخ عند النبي - وعند كتبة الكتاب المقدس من قبله - قصيراً جداً فهو لا يتجاوز سوى عدة آلاف قليلة من السنين وكان - أيضاً - محدوداً جداً في نطاقه الجغرافي؛ حيث لم يكن يتجاوز هذه المنطقة العربية، وكان النبي يعتبر الكتاب المقدس هو الأثر والسجل التاريخي الوحيد الباقي للوقائع والأحداث القديمة ؛ لذا فقد كان من البدهي عنده أن يعتمد عليه ويبني رؤيته الدينية والتاريخية على أساس منه. فمثلاً إذا ذكر الكتاب المقدس أن إبراهيم أضاف ضيفاً فهي المرة الأولى!، وإذا أُختتِن إبراهيم، فهي المرة الأولى كذلك، وإذا فسد اللحم من عصيان بني إسرائيل لنبيهم فهي إذن المرة الأولى، وإذا علم النبي بارتكاب قوم لوط تلك الفاحشة فهي المرة الأولى، وإذا صدق النبي المرويات التلمودية بأن ملك الموت كان يأتي عياناً لقبض أرواح الخلائق،
فنراه يقرر ذلك لعموم البشر وببساطة تامة[524]) .

وربما بلغت النبي قصة تلمودية تجعل من الحيض عقوبة أنزلها الله بنساء بني إسرائيل، كما في هذا الحديث الذي يرفعه الرواة بسند صحيح إلى ابن مسعود وإلى السيدة عائشة زوج النبي: (كان الرجال والنساء في بني إسرائيل يصلون جميعًا فكانت المرأة تتشرف للرجل فألقى الله عليهن الحيض ومنعهن المساجد[525]).

---

[524] كما في هذا الحديث فعن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (كان ملك الموت يأتي الناس عيانا قال فأتى موسى فلطمه ففقأ عينه فأتى ربه عز وجل فقال يا رب عبدك موسى فقأ عيني ولولا كرامته عليك لعنفت به وقال يونس لشققت به فقال له اذهب إلى عبدي فقل له فليضع يده على جلد أو مسك ثور فله بكل شعرة وارت يده سنة فأتاه فقال له ما بعد هذا ؟ قال الموت قال فالآن فشمه شمة فقبض روحه قال يونس عز وجل فرد الله عينه وكان يأتي الناس خفية (أخرجه احمد وصححه الألباني في (مختصر العلو) برقم (10)

[525](وحديث النبي صلى الله عليه وسلم أكثر قيل معناه أشمل لأنه عام في جميع بنات آدم فيتناول الإسرائيليات ومن قبلهن أو المراد أكثر شواهد أو أكثر قوةً وقال الداودي ليس بينهما مخالفة فإن نساء بني إسرائيل من بنات آدم فعلى هذا فقوله بنات آدم عام أريد به الخصوص قلت ويمكن أن يجمع بينهما مع القول بالتعميم بأن الذي أرسل على نساء بني إسرائيل طول مكثه بهن عقوبةً لهن لا ابتداء وجوده وقد روى الطبري وغيره عن بن عباس وغيره أن قوله تعالى في قصة إبراهيم وامرأته قائمة فضحكت أي حاضت والقصة متقدمة على بني إسرائيل بلا ريب وروى الحاكم وبن المنذر

وحتى بعدما علم النبي متأخراً جداً في المدينة بأخبار الدجال وخروجه في آخر الزمان فسنراه يكر راجعاً إلى الوراء، ويجعل الدجال وأمره من بين ما أنذر به الأنبياء والمرسلين جميعاً كما في هذا الحديث الغريب: عن عبد الله بن عمر رضيّ الله عنهما قال: (قام رسول الله صلى الله عليه وسلم في الناس فأثنى على الله بما هو أهله ثم ذكر الدجال فقال: إني لأنذركموه وما من نبي إلا أنذر قومه لقد أنذر نوح قومه، ولكنى أقول لكم فيه قولا لم يقله نبي لقومه تعلمون أنه أعور وأن الله ليس بأعور[526]).

فلنقرأ إذن هذه النخبة المختارة من الأحاديث النبوية، وسوف نقسمها إلى قسمين: الأول منها هي تلك القصص التي تعتمد على مرويات سماعية، وليس الغرض من تقديمها التدليل على اعتماد النبي على المرويات التلمودية فما قدمناه في القرآن يكفي وزيادة لتقرير ذلك، وإنما يجب أن نلحظ فيها بعض مظاهر وحدة العقيدة ووحدة الشريعة - وأيضاً - لنتعرف على تلك اللمسات المحمدية التي لا تخفى على أحد .

أما القسم الآخر فيمكن لمَنْ يشاء أن يسميها بالقصص الافتراضية؛ وهي القصص التي يغلب على ظننا بأنها قصص لا تنتمي للتاريخ الديني ووقائعه، وإنما تنتمي إلى المخيال الأدبي الخالص كما سنرى، وسنختم هذا الفصل بمبحث قصير عن وحدة الشريعة الإلهية كما جاءت في القرآن الكريم، وكما جلتها تلك الأحاديث المختارة، ولنبدأ بالقصص ذات الأساس السماعي .

بإسناد صحيح عن بن عباس أن ابتداء الحيض كان على حواء بعد أن أهبطت من الجنة وإذا كان كذلك فبنات آدم بناتها والله أعلم)(انظر فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر - دار المعرفة بيروت - 1379ه - ج1 ص 400) وبمثل هذا التردد بين متابعة ظاهر الحديث على ابتداء الحيض في نساء بني إسرائيل أو ترجيح عمومه على نساء البشر لقول النبي في الحيض (بانه شيء كتبه الله على بنات آدم) تابع الشراح ابن حجر في ذلك انظر (ج1 ص 499- كشف اللثام شرح عمدة الأحكام- شمس الدين، أبو العون محمد بن أحمد بن سالم السفاريني الحنبلي تحقيق - نور الدين طالب- وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - الكويت، دار النوادر - سوريا - الطبعة: الأولى، - 2007 م-)

ولعل مما يعضد من يأخذ بظاهر هذا الحديث أننا نجد كثيرا من المفسرين يقولون بأن مريم ابنه عمران قد طهرها الله من الحيض (وَطَهَّرَكِ} قِيلَ مِنْ مَسِيسِ الرِّجَالِ وَقِيلَ مِنَ الْحَيْضِ وَالنِّفَاسِ، قَالَ السُّدِّيُّ: كَانَتْ مَرْيَمُ لَا تَحِيضُ، وَقِيلَ: مِنَ الذُّنُوبِ)(انظر تفسير البغوي - ج2ص 36)

[526] أخرجه البخاري برقم (4920) وياله من قول محزن إن صحت نسبته للنبي !!! ولمزيد من تلك الأحاديث انظر - قصة المسيح الدجال ونزول عيسى عليه السلام - محمد ناصر الدين الألباني - المكتبة الإسلامية - عمان - الأردن - الطبعة الأولى - 1421 ه ص 61 وما بعدها

وسنعود إلى أمثال ذلك عند حديثنا عن النبوءات في القسم الثاني من هذا الكتاب، ولكن يكفي أن نعلن دهشتنا هنا من غرابة أن يحذر أول رسول إلى البشر قومه من الدجال الذي لن يأتي موعده سوى في نهاية الزمان ومجيئ النبي الخاتم والأخير فكيف كان يخشى نوح على قومه منه ؟!

سادسا: نماذج من القصص في الأحاديث النبوية :

الحديث الأول
آدم وداود

عن أبي هريرة قال: (قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما خلق الله آدم مسح ظهره فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة وجعل بين عيني كل إنسان منهم وبيصا من نور ثم عرضهم على آدم فقال: أي رب من هؤلاء؟ قال: هؤلاء ذريتك فرأى رجلاً منهم فأعجبه وبيص ما بين عينيه فقال: أي رب من هذا؟ فقال: هذا رجل من آخر الأمم من ذريتك يقال له داود فقال: رب كم جعلت عمره؟ قال ستين سنة قال: أي رب زده من عمري أربعين سنة فلما قضي عمر آدم جاءه ملك الموت فقال: أولم يبق من عمري أربعون سنة؟ قال: أولم تعطها ابنك داود ؟ قال : فجحد آدم فجحدت ذريته ونسي آدم فنسيت ذريته وخطئ آدم فخطئت ذريته [527])، (عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : (لما خلق الله آدم ونفخ فيه الروح عطس فقال: الحمد لله فحمد الله بإذنه فقال له ربه : يرحمك الله يا آدم اذهب إلى أولئك الملائكة إلى ملأ منهم جلوس فقل :السلام عليكم قالوا وعليك السلام ورحمة الله ثم رجع إلى ربه قال: إن هذه تحيتك وتحية بنيك بينهم فقال الله له ويداه مقبوضتان :اختر أيهما شئت قال اخترت يمين ربي وكلتا يدي ربي يمين مباركة ثم بسطها فإذا فيها آدم وذريته فقال: أي رب ما هؤلاء ؟ فقال: هؤلاء ذريتك فإذا كل إنسان مكتوب عمره بين عينيه فإذا فيهم رجل أضوؤهم أو من أضوئهم قال: يا رب من هذا؟ قال: هذا ابنك داود قد كتبت له عمر أربعين سنة قال يا رب زده في عمره قال: ذاك الذي كتبت له قال: أي رب فإني قد جعلت له من عمري ستين سنة قال: أنت وذاك قال ثم أسكن الجنة ما شاء الله ثم أهبط منها فكان آدم يعد لنفسه قال فأتاه ملك الموت فقال له آدم: قد عجلت قد كتب لي ألف سنة: قال بلى! ولكنك جعلت لابنك داود ستين سنة فجحد آدم فجحدت ذريته ونسي فنسيت ذريته قال فمن يومئذ أمر بالكتاب والشهود[528].)

---

[527] رواه الترمذي في سننه في كتاب التفسير باب من سورة الأعراف 4- 267 وأنظره في صحيح سنن الترمذي للألباني 3-52 ورقمه (3282)

[528] رواه الترمذي في كتاب التفسير - أيضا - باب من سورة المعوذتين4- 453 وأنظره في صحيح سنن الترمذي للألباني 3 -137 ورقمه 3607)

ربما يشكل ما اقترحناه مدخلاً جيداً لفهم ما تنطوي عليه هذه المجموعة من الأحاديث النبوية المختارة، والتي نستهلها بهذا الحديث العجيب، والذي جرت وقائعه بعد خلق آدم مباشرة؛ فقد مسّد الله ظهر عبده آدم فسقطت منه جميع الذرية البشرية التي قدر الله خلقها، وتلقتها يد الله أمام نظر آدم الذاهل لما يرى، حيث أخذ أبو البشر ينظر إليها متعجبا كما ينظر إنسان لمخلوقات بشرية كاملة الخلقة، ولكنها ضئيلة جدا، ثم سأل آدم ربه عن ماهية تلك المخلوقات العجيبة؟، فأجابه الله بأنها ما استودع في الغيوب من ذريته. فتأملها آدم مليا بحنان أبوي غامر، ومن بين مئات المليارات من الأرواح الصالحة التي كانت تشع جباهها بالنور، خطف أحدها نظر آدم فثار فضوله لهذا المخلوق الوضئ فسأل الرب عنه فقال له الله: إنه رجل من ذريتك، ولما سأل آدم ربه عن عمره فوجئ آدم بأن حفيده الجميل ذاك لن يعيش سوى ستين عاماً فحسب، ولما كان آدم - في تلك اللحظة - لم يكن يعرف بعد قيمة الحياة وصعوبة التخلي عنها، فقد وهب آدم لحفيده أربعين سنة من عمره، ولكن عندما أتى ملك الموت أخيراً ليقبض روح آدم -، والذي كان يعرف الحساب جيداً- قال آدم لملك الموت: لا يا سيدي، ليس الآن، فقد بقيت من عمري أربعون سنة كاملة!، ولكن ملك الموت- وهو من بين يديه صحائف الأعمار- ذكره بتلك الهبة القديمة التي منحها آدم لحفيده البعيد في الساعة الأولى من حياته، ولكن آدم أصر على عدم معرفته بشيء من ذلك، وصاح أنه لا يذكر شيئاً عن هذا قط، ثم ينتهي الحديث عند تلك النقطة ؛ فلم نعلم هل قبض ملك الموت روح آدم دون أن يلتفت لاحتجاجه الغريب هذا؟!، أم أن الله قد منح آدم تلك السنوات التي تشبث بها، وأمضى لداود - أيضاً - تلك الهبة اليسيرة؟!، فهذا ما يليق بالله حقاً ما دامت قد قضت إرادته أن يخلق مخلوقات هذه عقولها .

أما الحديث الثاني فيختلف قليلاً عن الحديث الأول، فهو يتحدث عن اللحظة الأولى بعد نفخ الروح في آدم، حيث كان أول ما ابتدأه آدم من أفعال في حياته كلها هو أنه عطس، فألهمُه الله أولاً أن يحمده على تلك العطسة الأولى في التاريخ البشري، ثم شمُته الله بنفسه، ثم دعاه الله أن يذهب إلى طائفة من الملائكة، كانوا جلوساً على مقربة منه، وأن يقرأهم السلام ففعل آدم، وردت عليه الملائكة التحية بأحسن منها، وعندما عاد آدم إلى الله أخبره الخالق بأنها التحية الرسمية له ولذريته من بعده إلى يوم القيامة، ثم مَد الله يديه أمام آدم قبضتين مضمومتين، وقال له: اختر أيهما شئت يا آدم، ولما لم يكن آدم

يعلم ما فيهما فقد اختار- بتوفيق من الله - اليد اليمنى لله خاصة وإن كانت كلتا يدي الله يمين[529] .!

تمتاز الرواية الثانية بملمَح مخيالي مدهش في أصالته؛ إذ نرى فيها آدم ينظر إلى نفسه في القبضة الإلهية فكان آدم الناظر والمنظور إليه، وفيها نظر آدم إلى داود إلى آخر ما جاء في الرواية الأولى، ولكنها تختلف عن الرواية الأولى في أنها جعلت آدم يهب داود ستين عاماً لا أربعين، وتضيف في خاتمتها أنه ومنذ تلك اللحظة القديمة أمر الله بكتابة العقود ودعمها بالشهود لكيلا تحدث أمثال تلك المنازعات المؤسفة مستقبلا.

ومن يقرأ هذا الحديث بروايتيه فسيدهش - في البداية - من الفارق الكبير بين الصورة التنزيهية الجليلة لله في القرآن الكريم، وبين ما ينطوي عليه ظاهر هذا الحديث من تشبيهية فجة، ومن تجسيم غليظ حقاً، وقد أثار هذا الحديث وأشباهه كثيراً من النزاع بين الفرق الإسلامية - طوال القرون التالية وإلى يوم الناس هذا- ؛ فثارت كثير من المجادلات بين المنزهة الذين يرفضون أمثال تلك الأحاديث جملة لتعارضها الواضح مع القرآن، وبين من يقبلونها على حرفيتها من غُلاة المجسمة والحشوية، أو بين من يتوسط بينهما فيُأول ما يوهم التجسيم والمشابهة بالمخلوق إلى معنى يليق بالله دون أن يردها عن ظاهرها، ولكن بيان ذلك ليس من بين أغراضنا فلننظر في مضمون الحديث، وفي الجانب الذي يعنينا منه دون سواه [530]) .

حيث نجد هنا أن آدم يختار اليد اليمنى وهو يعكس التفضيل المحمدي والذي كان يحب التيامُن في كل شيء: (كان يحب التيامُن ما استطاع في طهوره وتنعله وترجله وفي شأنه كله[531]).

---

[529] والمعنى أن آدم وان اختار يد الله اليمنى فان شمال الله تتنزه كذلك عما تنطوي عليه دلالة أصل الكلمة من تشاؤم فهي وإن كانت الشمال فهي لا تقل عن اليمين في اليمن والبركة ! وهذا تأصيل قديم جدا للتفاؤل والتشاؤم، وتأسيس غائر في الزمان للتفضيل المحمدي، ومحبته للتيامن في كل شيء كما سنرى ولا يخفي على القارئ الكريم ما كانت تشتمل عليه القبضة الإلهية الأخرى من أرواح الكافرين الهالكين من ذرية آدم مثلما يدل على ذلك هذا الحديث : (إن الله عز وجل قبض قبضة فقال: في الجنة برحمتي، وقبض قبضة فقال: في النار ولا أبالي)(السلسلة الصحيحة برقم (47)

[530] أما عن إثبات أن لله يدين يمنى ويسرى فهو ما يثبته علماء السلفية قدماء ومحدثين ؛ لأنهم يجدون النصوص الحديثية تثبته فلم يتنكرون لما اثبته الله لنفسه وأعلنه النبي في احاديثه الصحيحة ؟! ومن بين هؤلاء العلامة المحدث الشيخ ناصر الدين الألباني حيث يقول : (كلمة اليمنى فيها تنبيه أن فيه هناك يسرى، وهذا طبعاً لا نقوله ونقف عنده؛ لأن هذا قول بالرأي، ولا يجوز أن نقول مثل هذا الرأي فيما يتعلق بغيب الغيوب وهو الله وصفاته ....)(انظر إجابة الشيخ في كتاب (موسوعة العلامة الإمام مجدد العصر محمد ناصر الدين الألباني - شادي بن محمد بن سالم آل نعمان - مركز النعمان للبحوث والدراسات الإسلامية وتحقيق التراث والترجمة، صنعاء - اليمن الطبعة: الأولى، - 2010 م- ج6 ص 294

[531] انظر صحيح الجامع الصغير وزياداته برقم 4918

وتخبرنا الرواية الأولى بأن الله قد قدم داود إلى آدم باعتباره رجلا من آخر الأمم رغم أن المسافة بين موت آدم وبين مولد داود هي أقل قليلاً من المسافة التي تفصل بيننا وبين داود، وهذا يعطينا برهاناً إضافياً على اعتقاد النبي في النهاية القريبة لتجربة الخليقة البشرية.

ونجد في الرواية الثانية - أيضا - بأن تحية الإسلام كانت حاضرة منذ بدء الخليقة، رغم أن صحيح مسلم يجعل من الصحابي أبي ذر الغفاري هو أول من حيا بها النبي، ولا نعلم هل ابتكر أبو ذر هذه التحية ابتداءً مما يجعل من نسبتها إلى آدم أمرا عجيبا، خاصة مع معرفة أصلها بين أصحاب النبي، وأيضاً؛ لأن تلك التحية كانت معروفة عند اليهود[532]).

(وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى تسلم الحجر ثم طاف بالبيت هو وصاحبه ثم صلى فقال أبو ذر فكنت أول من حياه بتحية الإسلام قال: وعليك ورحمة الله ثم قال: ممن أنت فقلت من غفار [533]) .

والروايتان معاً تنسبان إلى داود وضاءة ظاهرة لم يشتهر بها في الإسلام - وإن قالت بذلك التوراة- مثلما جاء: (فأرسل وأتى به، وكان أشقر مع حلاوة العينين وحسن المنظر فقال الرب: قُمِ امسحه لأن هذا هو[534]) .

ولكن المسلم ربما كان يتوقع أن تكون تلك الهبة السخية من نصيب يوسف، فهو يضارع داود في جماله، وتغيب عن سيرته تلك الفظاعات والفضائح وضروب القساوات الإجرامية التي حفلت سيرة داود الملك. ونجد - أيضاً - أن ملك الموت هو من يتولى قبض الأرواح بيده، وهو اعتقاد تلمودي سنقف عنده في حديث قادم، ونجد - كذلك - أن الرواية الثانية ترجع بتأصيل سلوك المؤمن إذا عطس، وكيف عليه أن يحمد الله، وعلى من يسمعه أن يشمته - إلى الله نفسه: (وقد شرع الله لآدم وذريته وهو في الجنة أن يحمد الله إذا عطس، وأن يشمت إذا حمد الله وأن يكون السلام هو تحية أولاده وذريته فيما

---

(532) إلا لو افترضنا أن أبا ذر صادف وأنه حيا النبي من بين جميع التحايا الممكنة بهذه الصيغة ! - والتي كان النبي يعرفها سلفا - ولكنه - بضربة موفقة - جاء بتلك التحية التي قررها الله لآدم وبنيه من أول الخليقة إلى آخر الزمان وهى في الحقيقة أعجب من الأولى !

(533) انظر التعليقات الحسان للألباني برقم (7089)

(534) (صموئيل الأول 15 الآية 12)، ومن العجيب أن أيا من العمرين لا يتوافق مع ما نص عليه الكتاب المقدس من أن داود قد مات عن سبعين عاما فقد ملك داود وهو ابن ثلاثين سنة وامتد حكمه مدة أربعين سنة (1 ملوك الأصحاح 2 الآية 11)

بينهم [535])، (حمد العاطس وتشميته وتحية السلام من الشرائع العالمية التي تشترك الشرائع فيها كلها ولا تختص بأمة دون أمة، وهي ميراث أبيهم آدم عليه السلام[536]).

ونجد أن عمر آدم كان ألف سنة، وعلى هذا فقد امتد عمر آدم حتى شهد مولد نوح أو قريباً منه، وإذا تذكرنا أن قوم نوح في القرآن الكريم كانوا يتعللون بمتابعة الآباء والأجداد في عقيدتهم الشركية، فلنا أن نستنتج بأن الشرك قد وجد، وترسخ في حياة آدم كما سبق وأن قلنا في موضعه ونجد في ختام الرواية الثانية الحض على تسجيل العقود والإشهاد عليها، وأن ذلك كان منذ بدء الخلق، وعلى هذا فلم تعرف البشرية الكتابة منذ زمن المصريين أو السومريين، بل كانت موجودة منذ بدء الخليقة.

والحديثان يدوران - كذلك - في فضاء قضاء الله الشامل وتقديره لكل الأشياء، ومنها تقديره الأعمار قبل خلق البشر، وهي عقيدة إسلامية راسخة ويرجع أصلها - أيضاً - إلى ما حفلت به المرويات التلمودية من تقدير الله لكل ما كان ولكل ما سيكون، وأن كل الأحداث التي ستقع في الزمان كله مسطورة في كتاب شامل لا يغادر منها شيء (إثبات القدر فالله علم في الأزل أعمار العباد، وكتب ذلك عنده، وأرى آدم عليه السلام ذريته من بعده وكتب عمر كل إنسان بين عينيه [537]).

والحديث كذلك يؤصل لحضور الآفات البشرية من النسيان والجحود؛ إذ لولا ما كان من نسيان آدم وجحوده ما عرفت ذريته النسيان أو الجحود (فجحد آدم وكان جحوده نسيانا، وورث أبناء آدم صفات أبيهم فجحدوا كما جحد ونسوا كما نسى، ولذا أمر الله بالكتابة والشهود ليواجه بهما جحود الجاحدين ونسيان الناسين[538]).

وهنا نجد - أيضا - ذلك الاعتقاد القديم والخاطئ بأن الأصلاب - أي ظهور الرجال - هي مُستودَع النطف وليس الخصى، وهو اعتقاد جاء مراراً في القرآن الكريم،

---

[535] الأشقر - ص 22

[536] الأشقر - ص24

[537] (السابق ص 24)(

[538] (الأشقر ص 22) وسوف يكون هذا التصور عن الإنسان وطبيعته حاضرا في مباحث علماء العربية عندما سيبحثون لاحقا في أساس اشتقاق كلمة إنسان حيث سيغلب الاتجاه اللغوي الذي يقول : (أن اسم الإنسان مشتق من النسيان وذلك بحكم أن : (نوع الإنسان مجبول على النسيان وأن : (أول ناس أول الناس) وأن : (النسيان طبيعة الإنسان).....وقد نقل عن ابن عباس أنه قال (إنما سمي إنسانا لأنه عهد إليه فنسي)انظر كتاب: الحكمة العربية - د محمد الشيخ - الشبكة العربية للأبحاث والنشر- الطبعة الأولى - بيروت - 2008م - ص 47

كما جاء مثلاً في هذه الآية: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ﴿١٧٢﴾ ﴾ [الأَعْرَاف : 172] ومثله ما جاء في سورة الطارق: ﴿ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾ ﴾ [الطَّارِق : 7]

ولن نضيع وقت القارئ الكريم بعرض تلك المساجلات العبثية بين مَنْ يخطئون القرآن لتقريره أمثال تلك الاعتقادات الشعبية، وبين من يدافعون عنه ويلتمسون حلولاً متكلفة معقدة لصرف أمثال هذه الآيات عن ظاهرها، ليس لتتوافق فقط مع ما قرره العلم الحديث، بل لكي يتخذوا منها ومن أمثالها برهاناً على إعجاز القرآن العلمي وسبقه العلوم الحديثة في تقرير بعض الحقائق العلمية فلكية وطبية. والحقيقة الواضحة أن القرآن لم يشر قط أنه قد جاء بعلوم ومعارف كان يجهلها المخاطبون بالقرآن، بل كان النبي ينطلق مما شاع بينهم من معارف، خاصةً، وأننا نجد أصل هذا الاعتقاد في الأساطير التلمودية التي جاءت منها تلك القصص أصلاً.

ومن الواضح أن تلك الهبة التي يقول الحديث بأن آدم قد منحها لداود سواء أكانت أربعون سنة في الرواية الأولى، أم ستين سنة في الرواية الثانية - وشُراح الأحاديث يرون أن الرواية الأولى هي الأقوى إسناداً - تدلان - أغلب الظن - على روايتين تلموديتين مستقلتين، وما يعنينا منهما أن كلتيهما جعلتا آدم يريد أن يمد عمر حفيده البعيد إلى مئة سنة، ولا ندري كيف نفسر توافق تلك الهبة مع ما أكدته آيات القرآن الكريم وعشرات الأحاديث النبوية من أن الآجال لا تقدم ولا تأخر؟!، مما يؤكد أنها قصة تلمودية قصها النبي على أصحابه - كما علمها - رغم تعارضها مع ما جاء به القرآن، وأكدته الأحاديث التي جاءتنا عنه .

أصل هذا الحديث

ومن الواضح أنه، حتى لو لم تبلغنا هذه الحكاية التي سنسوقها بعد قليل من الأساطير التلمودية لعلمنا - يقيناً - بأن خلف هذا الحديث قصة أخرى قديمة كان النبي ينطلق منها؛ لأنه يصعب علينا أن نتخيل بأن يأتي النبي بكل تلك التفاصيل الدقيقة دون أن يكون قد بلغته قصة ما، كانت تشتمل على شيء من هذا، إنما يجب قبل أن نورد أساس تلك القصة أن نتذكر طريقة تفاعل النبي مع تلك المفاهيم التلمودية المتأخرة حتى ليصعب علينا أن نفرق بين ما أضاف النبي إلى تلك المرويات، وبين ما أخذ منها .

أما عن أساس تلك القصة الحديثية فهو ما جاء في أساطير اليهود عن تنازل آدم لابنه داود عن عدد من السنين كما يقول هذا النص: (وتبدت أوجه الكمال في روح آدم بمجرد أن تلقاها بل وحتى وهو لا يزال دون حياة، ففي الساعة التي فصلت بين نفخ الروح في الإنسان الأول وصيرورته حيا، كشف له الرب تاريخ البشرية فأراه كل جيل وملوكه وكل جيل وأنبيائه وكل جيل ومعلميه وكل جيل ومتعلميه وكل جيل وساسته وكل جيل وقضاته وكل جيل والمتقين فيه وحكاية سنواتهم وعدد أيامهم وحساب ساعاتهم ومقاس خطواتهم كل ذلك تم تعريفه به وتنازل آدم بمحض إرادته الحرة عن سبعين من السنين المخصصة له ؛ فقد كان مقدرا لعمره أن يستمر لألف عام ؛ أي يوما واحدا من أيام الرب، ولكنه رأى أن دقيقة واحدة من الحياة فقط هي التي خصصت لروح داود العظيمة فوهبها سبعين عاما لتقل سنون عمره إلى تسعمائة وثلاثين[539]).

ونجد هذه التفصيلة ثانية - ولكن في مقام آخر - فبعد أن أكل آدم من الشجرة وعصى ربه وقف عرياناً يقاسي الشعور بالكرب والعار فسمع ما كان يدور بين الملائكة وبين الله من حوار: (لقد صاحت الملائكة قائلين في ذهول: ماذا؟ ألا يزال يتجول في الجنة؟ ألم يمت بعد؟!، وأجابهم الرب: لقد قلت له في يوم أكلك منها ستموت بالتأكيد)، والآن أنتم لا تعلمون أي الأيام كنت أقصد يوماً من أيامي التي يبلغ كل منها ألف عام أو يوم من أيامكم سأعطيه يوماً من أيامي. سيعيش تسعمائة وثلاثين سنة وسيترك سبيعا لذريته [540])، (وإلى حد ما، يدين داود بحياته لآدم ففي البداية لم يكن مكتوبًا له أن يعيش إلا ثلاث ساعات فقط. لكن عندما أمر الرب جميع أجيال المستقبل تمر من أمام آدم، ناشد الرب لكي يمنح داود سبعين سنة من الألف عام التي كتب الرب لآدم أن يعيشها. فوافق الرب على طلب آدم، وأمر الملاك - ميتاترون - بكتابة عقد هبة، ووقع عليه كل من الرب وآدم، وهكذا تم بشكل قانوني نقل سبعين سنة من عمر آدم إلى عمر داود، ثم منح داود الجمال والملك والموهبة الشعرية .... حسب طلب آدم [541]).

---

(539) (أساطير اليهود - ج1 ص 73
(540) أساطير اليهود ج1 ص 85
(541) أساطير اليهود ج4 ص 96

أصل تشميت العاطس

من بين أشهر الممارسات التي شاعت بين البشر في معظم الثقافات الإنسانية تشميت العاطس؛ أي تقديم التهنئة له إذا عطس، وفي مقابل هذا التأصيل الديني لتلك الممارسة والتي يرجع بها الحديث إلى الله الخالق وإلى الإنسان الأول مباشرة، نجد أن المؤرخين ودارسي الثقافات الشعبية يردونها إلى هذا الاعتقاد البدائي: (تؤمن كل حضارة بالبركة التي تحصل بعد (العطسة) يرجع التقليد المذكور إلى الزمن الذي عدت فيه العطسة إشارة لخطر شخصي عظيم. آمن الإنسان لعدة قرون أن خلاصة الحياة، الروح، تقبع في الرأس، وأن بمقدور العَطسة طرد الحياة على نحو مفاجئ. عززت الخرافة بعطسة المريض قبل مفارقة الحياة. عدت جميع الجهود لتفادي العطسة، والعطسة العفوية والعطسة المفاجئة إشارات للحظ الجيد. وفي عصر النهضة في القرن الرابع قبل الميلاد، وبظهور التعاليم الطبية لأرسطو، وأبي الطب هيبوقراط، شرحت العطسة أنها ردة فعل الرأس تجاه جسم غريب أو رائحة غريبة دخلت مجرى التنفس. ذكر الطبيبان الإغريقيان السالفين الذكر، أن عطسة المريض نبوءة تؤشر اقتراب موت المريض، فوضعا لعلاجها عبارات مثل (نتمنى لك حياة طويلة) و(نتمنى لك صحة جيدة) و(ليحفظك الإله جوبتير) وقام الأطباء الرومان بعد حوالي 100 عام باستقراء وملاحظة العلم والمعتقد الخرافي المحيطين بالعطسة، وفسروا وجهة نظرهم بعطسة الفرد المُعافي بأنها محاولة من الجسد لطرد الأرواح الفاسدة المتكونة نتيجة مرض حدث مؤخراً. وفسروا حبس العطسة احتضاناً للأمراض وبالتالي للضعف والموت. انتشرت نتيجة لتلك الأفكار عادة جديدة في الإمبراطورية الرومانية قامت بها عبارات جديدة عديدة تردد بعد العطسة وتشكل (التهاني) للشخص الذي حقق عطسة بمشقة، أما من يرتعش على أطراف العطس فيقال له (حظاً موفقا لك [542]).

وكانت العرب تتخوف العرب من العطاس وأبدوا خشيتهم من خروج النفس والموت، ولكن النبي غلب الجانب الإيجابي من العطاس للنجاة من تلك الخشية: (والمقصود أن التطير من العطاس من فعل الجاهلية الذي أبطله الإسلام، وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم: أن الله يحب العطاس كما جاء في صحيح البخاري من حديث أبي

---

(542) قصة العادات والتقاليد واصل الأشياء - تشارلز باناتي - ترجمة مروان مسلوب- دار الخيال - ص 20 وعن أصل كراهة التثاؤب انظر ذات الكتاب ص 30)

هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إن الله يحب العطاس ويكره التثاؤب فإذا تثاءب أحدكم فليستره ما استطاع فإنه إذا فتح فاه فقال: آه، آه ضحك من الشيطان. [543])

حقاً: (تبقى الكلمات بذاتها غامضة إذا ما حاولنا معرفة القصد منها دون معرفة تاريخها[544]).

ورغم ما أسفرت عنه الدراسات الحديثة من الكشف عن أصول كثير من الاعتقادات والممارسات في جميع الثقافات الإنسانية، ولكن لا يزال هناك من يعتقد في أن هذه القصص النبوية - والتي جاءت من خارج التوراة - إنما هي وحي إلهي خالص، وأنه يجب علينا أن نعتمد على تلك الأحاديث النبوية، وأشباهها لمعرفة أصل الجنس البشري وأساس بعض اعتقاداته مثلما يقول هذا الباحث الصالح: (يبحث علماء الآثار في هذا العصر في الديار البائدة، وبقايا الأمم الغابرة، ليتعرفوا منها على حياة الآباء والأجداد، ويعرفوا أخبارهم وأحوالهم، وعلى الرغم من قلة ما وصلوا إليه من علم فإنه علم مشوب لا يجلي الحقيقة، ولا يزيل الغبش الذي علق بها، ولا يستطيع أن يضرب بصدق في أعماق الماضي السحيق، أما الوحي الإلهي الذي يأتي بأخبار الماضين فإنه كنز لا يقدر بثمن ؛ لأنه يعرف بالحقيقة ناصعة صافية ؛ لأنه علم منزل من العليم الخبير الذي لا يخفي عليه خافية في الأرض ولا في السماء. وبعض هذا العلم لا يمكن الوصول إليه من غير طريق الوحي ومن ذلك ما حدثنا به الرسول (ص) عنه في هذا الحديث فقد أخبرنا بطرف من أخبار أبينا آدم - عليه السلام - وشيء من طباعه وخصائصه التي ورثناها منه كما أخبرنا ببعض الشرائع التي شرعها له ولذريته من بعده[545]).

[543] بلوغ الأرب ج2 ص 334

[544] السابق ص 21

[545] انظر : صحيح القصص النبوي - عمر سليمان الأشقر - ص 19

الحديث الثاني

موت آدم

(عن عتي قال: (رَأَيْتُ شَيْخًا بِالْمَدِينَةِ يَتَكَلَّمُ فَسَأَلْتُ عَنْهُ فَقَالُوا هَذَا أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ فَقَالَ إِنَّ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَام لَمَّا حَضَرَهُ الْمَوْتُ قَالَ لِبَنِيهِ أَيْ بَنِيَّ إِنِّي أَشْتَهِي مِنْ ثِمَارِ الْجَنَّةِ فَذَهَبُوا يَطْلُبُونَ لَهُ فَاسْتَقْبَلَتْهُمْ الْمَلَائِكَةُ وَمَعَهُمْ أَكْفَانُهُ وَحَنُوطُهُ وَمَعَهُمْ الْفُؤُوسُ وَالْمَسَاحِي وَالْمَكَاتِلُ فَقَالُوا لَهُمْ يَا بَنِي آدَمَ مَا تُرِيدُونَ وَمَا تَطْلُبُونَ أَوْ مَا تُرِيدُونَ وَأَيْنَ تَذْهَبُونَ قَالُوا أَبُونَا مَرِيضٌ فَاشْتَهَى مِنْ ثِمَارِ الْجَنَّةِ قَالُوا لَهُمْ ارْجِعُوا فَقَدْ قُضِيَ قَضَاءُ أَبِيكُمْ فَجَاءُوا فَلَمَّا رَأَتْهُمْ حَوَّاءُ عَرَفَتْهُمْ فَلَاذَتْ بِآدَمَ فَقَالَ إِلَيْكِ، إِلَيْكِ عَنِّي فَإِنِّي إِنَّمَا أُوتِيتُ مِنْ قِبَلِكِ خَلِّي بَيْنِي وَبَيْنَ مَلَائِكَةِ رَبِّي تَبَارَكَ وَتَعَالَى فَقَبَضُوهُ وَغَسَّلُوهُ وَكَفَّنُوهُ وَحَنَّطُوهُ وَحَفَرُوا لَهُ وَأَلْحَدُوا لَهُ وَصَلَّوْا عَلَيْهِ ثُمَّ دَخَلُوا قَبْرَهُ فَوَضَعُوهُ فِي قَبْرِهِ وَوَضَعُوا عَلَيْهِ اللَّبِنَ ثُمَّ خَرَجُوا مِنْ الْقَبْرِ ثُمَّ حَثَوْا عَلَيْهِ التُّرَابَ ثُمَّ قَالُوا يَا بَنِي آدَمَ هَذِهِ سُنَّتُكُمْ [546]) .

وهذا حديث نبوي آخر جاء ليحكي لنا قصة موت آدم، وليؤصل - أيضا - من خلاله لبعض ما جاءت به شريعة النبي محمد وهديه، خاصَّة فيما ينبغي فعله بالموتى وتقرير أحكام الجنائز.

ففي البداية نجد آدم أبو البشر يحتضر على فراش موته، ويشهد احتضاره بنوه وأحفاده من حوله، ولكن بدلاً من أن نجد آدم يوصي أبناءه بتقوى الله وعبادته، ويحضهُم على البر والصلاح كما يتوقع من نبي يغادر هذه الدنيا، ويخلف وراءه في دار التكليف والفتنة هذه أبناء أحوج ما يحتاجونه وصية جامعة، تجعلهم يتمسكون بما يصلح حياتهم ما عاشوا، وتنجيهم من عذاب الله إذا ماتوا -، وهو ما لم يفت أحفاده من الأنبياء، بل وكثير من الصالحين من بعده - ولكننا بدلاً من ذلك نجد آدم يعلنهم أنه يشتاق إلى الجنة وثمارها، ولا ندري لم العجلة إلى الجنة وثمارها إن كان آدم يوقن بأنه ليس بينه وبين دخول الجنة والتمتع بثمارها سوى أن تقبض روحه؟!، بل إننا لا نستطيع أن نفترض بأنه لم يكن متيقناً بحضور أجلُه في مرضه هذا، فقد وجدناه في الحديث السابق يتمسك

[546] (روى هذا الحديث عبد الله بن الإمام احمد في زوائد المسند (5-136) وقال ابن كثير بعد سياقه الحديث إسناد صحيح إليه ؛ أي إلى أبيّ ابن كعب : البداية والنهاية (1-98)، وقال الهيثمي فيه رواه عبد الله بن احمد ورجاله رجال صحيح غير عتى بن ضمرة وهو ثقة مجمع الزوائد (8-199) وهذا الحديث وإن كان موقوفا على أبى بن كعب فإن له حكم المرفوع فانه مما لا يقال بالرأي)

بما تبقى له من أيام في هذه الدنيا، ولم يرد ان يغادرها قبل أن يستوفي عمره كاملاً دون نقصان، فلا شك أنه كان يعلم أنها النهاية القريبة.

ولم يكتف آدم بالاشتياق إلى الجنة وثمارها فحسب، بل لقد أرسل أبناءه لكي يأتوه ببعضها - كما لو كان يرسلهم إلى حديقة منزله الخلفية - والأعجب من ذلك هو أن أبناءُه قد نهضوا من حوله ساعين لتلبية رغبته الغريبة تلك، ولن نناقش هنا معقولية ما يطلبه إنسان تلك حاله فلربما غلبه الوجع، بل نعجب كيف ظن أبناءه أنهم يستطيعون له ذلك؟!، ولكننا وقد عجزنا عن فهم ذلك فسنقبل ما قدمه لنا هذا الشارح الجليل من تفسير عبثي لهذا الطلب وتلك الاستجابة السريعة المحيرة: (ولا شك أن آدم - عليه السلام - كان يعلم أن بنيه لا طاقة لهم بتلبية طلبه فأنى لهم الوصول إلى الجنة، وقطف ثمارها وهم كانوا يعلمون ذلك، ولكن برهم بأبيهم جعلهم ينطلقون للبحث عن مراده[547]) .

وكما ترى فقد ذهب الشارح الجليل بعيدا حتى اضطره ذلك إلى وصف طلب آدم وسعي بنيه معا بالعبث، وذلك لأنه يظن أن القرآن الكريم والأحاديث النبوية يخالفان المعتقد اليهودي - المسيحي في أن جنة آدم وحواء كانت جنة أرضية، حددها الكتاب المقدس بدقة بالغة ورسم كتبة سفر التكوين حدودها ومعالمها بأنهار خرافية لم يخلقها الله قط، ولكنها - بلا ريب - لم تكن تبعد كثيراً عن هذه المنطقة العربية [548]..!

أما التفسير البسيط لذاك الطلب، فهو أن النبي كان يتابع المرويات التلمودية - كما سبق وأن أشرنا في موضعه - في أن جنة آدم كانت هنا على هذه الأرض، ولم تكن جنة السماء التي سيدخلها المؤمنون في الآخرة، وهذا يفسر لنا - ببساطة تامة - لمَ طلب آدم من بنيه هذه المطلب، ويفسر لنا كذلك كيف استجاب بنوه لطلبه وبادروا لتنفيذه. فقد كان شيئا ممكنا على كل حال؛ إذ لم يكن عليهم أن يصعدوا إلى السماء، بل كان سيكفيهم أن يذهبوا إلى جنة أرضية، كانت تقع على مرتفع من الأرض غير بعيد من بيتهم، وإلا فهل يستطيع هذا الشارح الجليل أن يخبرنا كيف سيكون موقف الصحابة لو كان النبي عليه

---

(547) الأشقر ص 26

(548) انظر سفر التكوين الإصحاح الثاني الآيات (11-14) حيث سترى هناك أنهارا لا وجود لها على سطح هذا الكوكب، ولكن الشراح المسيحيون على ثقة تامة من أنها كانت موجودة واندثرت : (وموقع الجنة هو أما جنوب العراق أو أرمينيا وعموما فهذه الأرض أرض خصبة وأرض أنهار) انظر تفسير سفر التكوين - الأب أنطونيوس فكري - ص 158

السلام قد طلب منهم هذا المطلب وهو على فراش موته؟،ولقد كانوا أبر بنبيهم وأطوع لأمره من أبناء آدم لأبيهم؟!

وعلى كل حال فقد كان بنوه سعداء الطالع إذ أخرجهم الله من تلك الورطة المحيرة فكان أن: (قابلتهم الملائكة في صورة رجال ومعهم كل ما يحتاج إليه لتجهيز الميت ودفنه وهم يمثلون ما عليه المسلمون اليوم عندما يموت لهم ميت فقد كانوا يحملون معهم أكفانا وحنوطا ويحملون معهم الفؤوس والمساحي والمكاتل اللازمة لحفر القبر[549])، وأخبرتهم الملائكة أن ليس من ضرورة لهذا السعي غير المجدي، فقد انقضت أيام أبيهم في هذه الدنيا، وعليهم أن يرجعوا أدراجهم معهم لعمل ما لا بد منه لدفن أبيهم وفق شريعة الله الخالدة.

(ولما جاءت ملائكة الموت آدم عرفتهم حواء فلاذت بآدم، ويبدو أنها كانت تريد إغراءه بأن يختار الدنيا - فالرسل لا يقبضون حتى يخيروا كما أعلمنا رسولنا صلى الله عليه وسلم، فلم يلتفت إليها آدم عليه السلام، وزجرها قائلا لها: إليك عنى فإني إنما أوتيت من قبلك وهو يشير بذلك إلى ما كان منها في إغوائه ليأكل من الشجرة[550]) .

وكما ترى فعندما دخل الجميع إلى بيت آدم عرفت حواء - على الفور - هوية هؤلاء الأضياف الغرباء- فلم يسبق أن زارهم أحد لا تعرفه سيدة الأسرة الوحيدة على الكوكب -، ولا ندري كيف عرفت حواء أنهم ملائكة الموت، فلم تكن تلك المهمة قد استحدثت أصلا وهما بعد في الجنة؟ !

لكن سواء أعرفتهم حواء استنتاجاً، أم كان ذلك بسبب من قوة حافظتها الفولاذية - فقد مضى على آخر لقاء بينها وبين الملائكة ألف سنة كاملة- فهذا لا يهم كثيراً، وإنما المهم ما سيخبرنا به آخر الحديث من ملمح آخر من خصوصيات الأنبياء، وهو التخيير عند الموت الذي سنلقاه عند كثير من الأنبياء في القصص النبوي، وإن كنا لا نستطيع أن نخفي هنا دهشتنا من تخيير آدم على وجه الخصوص من بين جميع الأنبياء؛ فلقد كان هو النبي الوحيد الذي أطلعه الله على عمره بعد لحظات قليلة من خلقه، ولقد ارتضاه آدم وقنع به، بل ووهب منه ما وهب لابنه داود وجحد هبته بسبب من النسيان وتمسك بكل ماله فكيف يعقل التخيير إذن؟.!

---

(549) صحيح القصص النبوي - الأشقر - 27

(550)صحيح القصص النبوي - الأشقر ص 27

ويخبرنا الحديث - أيضاً - أن آدم قد زجر زوجته التي تريد كانت تريد له أن يرجئ لقاءه بربه، فلم يستجب آدم لغوايتها واختار ما له عند الله فمات آدم وقامت الملائكة بتغسيله وتكفينه وحفروا له - بمساعدة من بنيه - حفره واروه فيها وصلوا عليه جميعا صلاة الجنازة !

(وبذلك تكون هذه الطريقة شريعة عامة لكل الرسل ولجميع المؤمنين في الأرض على مدار العصور والأزمان، وكل طريقة تخالفها فهي مخالفة لهدى الله بمقدار ما فيها من المخالفة...... ومَن يعرف هدى المسلمين في موتاهم الذي علمهم إياه رسولهم صلى الله عليه وسلم يجده موافقا لما فعلته الملائكة بآدم عليه السلام[551]).

أصل هذا الحديث

أما عن أصل هذا الحديث فهو ما جاء في الأساطير التلمودية عن قصة موت آدم، حيث تضمنت جميع العناصر الأساسية التي جاءت في القصة الحديثية فلنقرأها أولاً: (وعندما بلغ آدم من العمر تسعمائة وثلاثين سنة أصابته وعكة وأحس بأن أيامه تشارف على نهايتها، فاستدعى كل ذريته وجمعهم أمام بيت العبادة الذي كان يقدم فيه دائما قرابينه للرب، وذلك لكي يمنحهم بركته الأخيرة. واندهشت ذريته عندما وجدوه ممددا على فراش المرض، اذ لم يكونوا يعلمون ما المرض؟، وما المعاناة؟، وظنوا أنه يغلبه الحنين إلى ثمار الجنة، وهو مكتئب لحرمانه منها. وأعلن شيث استعداده للذهاب إلى أبواب الجنة والتوسل إلى الرب ليدع أحد الملائكة يعطيه من ثمارها. لكن آدم شرح لهم حقيقة المرض والألم، وأن الرب قد أصابه بهما عقوبة له على خطيئته. وكان آدم يعاني الآلام بشدة وانسابت دموعه وانطلقت أناته. وأجهشت حواء بالبكاء قائلةً: سيدي آدم أعطني نصف مرضك وسأتحمله عن طيب خاطر، أما حدث لك هذا بسببي أنا؟، بلى! بسببي تعاني الآن الألم والأوجاع وأمر آدم حواء أن تذهب مع شيث إلى أبواب الجنة ومناشدة الرب ليرحمه ويرسل ملكه ليحضر بعضا من زيت الحياة الذي يتدفق من شجرة رحمته ويعطيه إلى رسوليه ليريحه هذا الدهان ويقضي على الألم الذي يفترسه. وفي طريقه إلى الجنة هاجم شيثا حيوان مفترس. وصاحت حواء في الحيوان المهاجم قائلة: كيف تجرؤ على وضع يدك على صورة الرب؟!، رد الحيوان في سرعة: إنها غلطتك أنت. فلو لم تفتحي فمك لتأكلي الثمرة المُحرمة ما كان فمي قد فتح الآن ليهلك كائناً

[551] السابق ص 27

بشرياً، لكن شيث نهره قائلاً: أمسك لسانك. امنع نفسك عن صورة الرب حتى يوم الدينونة، فتركه الحيوان عندئذ قائلاً: انظر، ها أنا أمنع نفسي عن صورة الرب ثم تقهقر راجعاً إلى مخبئه. وعندما وصلا إلى أبواب الجنة أخذت حواء تبكي بحرقة وشيث - أيضاً - يتوسلان إلى الله بمرات كثيرة لكي يعطيهما من زيت شجرة رحمته. وظلا يدعوانه هكذا لساعات طويلة. وأخيراً ظهر أمامهما الملك الكبير ميكائيل وأخبرهما أنه جاء رسولاً إليهما من عند الرب ليخبرهما أن طلبهما لا يمكن أن يلبى لأن آدم سيموت بعد أيام قليلة، وكما أنه معرض للموت فكذلك ستكون ذريته. وفي زمن البعث، لن يوزع زيت الحياة إلا على المتقين، ومعه كل نعيم ومسرات الجنة [552].)

(وفي آخر يوم في حياة آدم قالت له حواء: لماذا أواصل الحياة بينما أنت لن تفعل؟ كم سأبقى بعد موتك؟، أخبرني بذلك وأكد لها آدم أنها لن تتأخر كثيراً فسيموتان معاً وسيدفنان معا في نفس المكان. وأمرها ألا تلمس جثته إلى أن يأتي ملك من الرب ويتخذ احتياطاته بشأنها وما عليها الآن إلا أن تبدأ فوراً في الصلاة للرب إلى أن تخرج روحه من بدنه، وبينما كانت حواء جاثية على ركبتيها تصلي أتى ملك وأمرها أن تنهض قائلاً: حواء كفي عن تضرعاتك انظري لقد ترك زوجك جسده الفاني، انهضي وشاهدي روحه وهي تصعد إلى خالقه لتمثل أمامه وعندما نظرت رأت عربة من النور تجرها أربعة أنسر لامعة وتتقدمها الملائكة وفي هذه العربة رقدت روح آدم التي كان الملائكة يرفعونها إلى السماء[553]، وعندما اقتربوا منها أحرقوا البخور حتى غلفت السموات بسحابات الدخان ثم ابتهلوا إلى الرب ليرحم صورته وصنع يديه المقدستين ومن جذعها وفزعها استدعت حواء شيثا وأمرته أن ينظر إلى هذه المناظر ويشرح لها تلك المناظر السماوية التي تفوق قدرتها على الفهم وسألته ترى من يكون هذان الحبشيان اللذان يضيفان صلواتهما إلى صلاة أبيك؟، وأخبرهما شيث أنهما الشمس والقمر وقد اسودا هكذا لأنهما لم يستطيعا السطوع في وجه أبي الوضاء، وما كاد ينتهي من كلامه إلا ونفخ ملك في بوق وصاحت كل الملائكة بأصوات مخيفة فلتمجد كل المخلوقات ربها لأنه أسبغ رحمته على آدم صنيعة يده!، ثم أمسك صيراف بآدم وحمله إلى نهر آشرون

---

[552] (أساطير اليهود ج1 ص 99- 100

[553] لعل هذه التفصيلة القصصية هي أساس هذا الحديث النبوي عن تتبع عين الميت روحه وهي تصعد إلى السماء كما في هذا الحديث : (عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألم تروا إلى الإنسان إذا مات شخص بصره فذاك حين يتبع بصره نفسه) (انظر صحيح الجامع الصغير وزياداته - برقم (1313)

وغسله ثلاث مرات ثم ذهب به إلى حضرة الرب الذي جلس على عرشه ومد يده ورفع آدم وناوله للملك الكبير ميكائيل قائلاً: ارفعه إلى جنة السماء الثالثة واتركه هناك إلى اليوم المشهود المخيف الذي قدرته ونفذ ميكائيل الأمر الإلهي وغنت كل الملائكة أغنية حمد مُثنين على الرب للعفو الذي أسبغه على آدم[554]).

والقصة الحديثية كما ترى لا تختلف عن القصة التلمودية إلا في بعض ملامحها أو تفاصيلها، ولا ندري إن كانت تلك التحويرات من صنع النبي، أو كانت بسبب من التغيرات التي طالت تلك القصص في رحلتها الشفاهية الطويلة فصارت تحكى بأكثر من رواية، وربما كانت هناك روايات مختلفة، ولم يتم تدوين سوى هذه الرواية التي بين أيدينا، ولكنها - على الإجمال - هي ذات القصة، وإن أضافت لنا القصة التلمودية ملامح أخرى ربما كانت أكثر أهمية لدينا من قصة موت آدم ودفنه، حيث نجد أن الله يجلس على العرش محاطاً بملائكته، ونجد الملائكة ينفخون في البوق، ونجد أن آدم وبنيه كانوا يصلون ويعبدون الله، ونجد أن أرواح الأنبياء ترفع إلى الجنة لتظل هناك إلى يوم يبعثون، إلى آخر تلك المفردات التي كانت دون شك من خلف ما اعتقده النبي من وجود شريعة أبدية وعقيدة أزلية منذ خلق الله الإنسان الأول إلى مبعثه -عليه السلام -، وأن جميع الأنبياء إنما هم سلسلة متواصلة جاءت لتبلغ الناس ما نسوه مما كان موجوداً في عقائد الأمة المسلمة الأولى، ولا نريد منها أكثر من ذلك.

---

(554) أساطير اليهود ج1 ص 104- 105

الحديث الثالث

عقيدة القدر بين آدم وبين موسى

روى البخاري ومسلم في صحيحيهُما عن أبي هريرة رضي الله عنه قال:

(قال رسول الله صلى الله عليه وسلم احتج آدم وموسى عليهما السلام عند ربهما فحج آدم موسى قال موسى: أنت آدم الذي خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأسجد لك ملائكته وأسكنك في جنته ثم أهبطت الناس بخطيئتك إلى الأرض؟! فقال آدم: أنت موسى الذي اصطفاك الله برسالته وبكلامه، وأعطاك الألواح فيها تبيان كل شيء وقربك نجيا فبكم وجدت الله كتب التوراة قبل أن أُخلَق؟ قال موسى: بأربعين عاماً قال آدم: فهل وجدت فيها (وعصى آدم ربه فغوى) قال: نعم قال: أفتلومني على أن عملت عملاً كتبه الله علي أن أعمله قبل أن يخلقني بأربعين سنة؟، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فحج آدم موسى)، وهذا السياق لمسلم .

وجاء في رواية عند البخاري (احتج آدم وموسى فقال له موسى : أنت آدم الذي أخرجتك خطيئتك من الجنة؟ فقال له آدم : أنت موسى الذي اصطفاك الله برسالاته وبكلامه ثم تلومني على أمر قدر علي قبل أن أخلق؟، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فحج آدم موسى مرتين) ، وجاء في البخاري - أيضاً - (احتج آدم وموسى فقال له موسى يا آدم أنت أبونا، خيبتَنا وأخرجتنا من الجنة؟، فقال له آدم: يا موسى اصطفاك الله بكلامه وخط لك بيده أتلومني على أمر قدره الله علي قبل أن يخلقني بأربعين سنة؟ فحج آدم موسى فحج آدم موسى ثلاثا[555]).

في هذا الحديث - المهم - يحكي لنا عن محاورة ومعاتبة - أو قل مناظرة - وقعت بين آدم وبين موسى عليهما السلام، فقد ألقى موسى في وجه أبي البشر تبعة ما لاقاه من شقاء وعناء في سياسة بني إسرائيل- لتمردهم الدائم عليه وصلابة رقابهم- فأنحى باللائمة على أبيه آدم الذي خالف الأمر الإلهي وأكل من تلك الشجرة الوحيدة التي حرمت عليه، رغم أن الأشجار المثمرة في الجنة لم تكن بالقليلة.

---

[555] روى هذا الحديث البخاري عن أبى هريرة في كتاب أحاديث الأنبياء - باب وفاة موسى ورقمه (3407)، وفي كتاب التفسير باب (واصطنعتك لنفسي)، ورقمه 4736 وفي كتاب القدر باب تحاج آدم وموسى 11-505 ورقمه 6614، وفي كتاب التوحيد باب ما جاء في قول الله عز وجل (وكلم الله موسى تكليما)، ورواه مسلم في كتاب القدر باب حجاج آدم وموسى 4- 2042 ورقمه 2652

أما أين أو متى حدث هذا اللقاء؟! فنحن لا نعلم شيئاً عن ذلك لأن: (هذه القصة لا تُعلَم إلا من قبل الوحي؛ ذلك أنها تتحدث عن لقاء لم يشهده بشر - لقاء بين آدم موسى عليهما السلام، وقد تم هذا اللقاء بناء على طلب موسى، ولا ندري كيف تم، ولكننا نوقن بوقوعه تصديقاً لخبر الرسول صلى الله عليه وسلم [556]).

ورغم أننا لا ندري من أين استنبط الشارح بأن ذلك اللقاء كان بطلب من موسى فليس في الحديث ما يدل على شيء من هذا، لكن ربما من المعقول أن نفترض وقوعها- إن كانت قد وقعت حقاً في الماضي - بمناسبة احتفاء الأنبياء بزيارة النبي محمد لهم في السماء، خاصة وأنهم قد أدوا معاً صلاة جماعية، وأمّهم فيها النبي محمد - عليه السلام - في صلاة جامعة، فلم يكن- ربما - من مناسبة أفضل من تلك المناسبة السعيدة لإفراغ ما في الصدور من لوم ومن معاتبة.

وأما ما تتضمنه هذه القصة من مظاهر اعتقاد النبي في وحدة الخطاب الإلهي فنجد فيها العجب العجاب!، حيث نجدها تسوق على لسان موسى كل ما قرره القرآن بشأن خلق آدم، وتضع كذلك على لسان آدم كل ما جاء به القرآن من أمر موسى ورسالته.

فنجد موسى في الرواية الأولى يقرر ما جاء به القرآن من أن الله قد خلق آدم بيديه مباشرةً ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته وفي هذا من التكريم ما فيه، ونجد آدم يرد التحية بأفضل منها فيقول بذات ما أورده القرآن من اصطفاء الله لموسى برسالته وبكلامه[557] ، وتقريبه نجيا [558] ومن أن الألواح الموسوية كان فيها تبيان لكل شيء [559]، وفي هذا الحديث - أيضاً - ما يدل كذلك على الاعتقاد المحمدي بأن الله كتب التوراة لموسى بيده مباشرة، وهي ترجع صدى الأساطير التلمودية التي نصَت على أن التوراة كانت من بين أول ما خلق الله - رغم أن القرآن قد جعل ذلك من نصيب اللوح المحفوظ -، إلا أن هذا الحديث يشير إلى حضور هذا الاعتقاد التلمودي الخرافي من بين اعتقادات النبي، ونعلم من هذا الحديث - أيضاً - الاعتقاد في أن التوراة كانت حاضرة

---

(556) الأشقر ص 69

(557)- ﴿ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ١٤٤ ﴾ [الأَعۡرَاف : ١٤٤]

(558) ﴿ وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا ٥٢ ﴾ [مَرۡيَم : ٥٢] .

(559)- ﴿ وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡعِظَةٗ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَاۚ سَأُوْرِيكُمۡ دَارَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ١٤٥ ﴾ [الأَعۡرَاف : ١٤٥] .

قبل أن يخلق الله العالم بل أن التوراة كانت تشتمل على قصة آدم كاملة، وأنها كانت تتضمن هذه الآية القرآنية ﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ﴾ [طه : 131] مما يوحي بأن تلك الآية كانت ذات أساس سماعي واستخدمها النبي في قصة آدم

أصل هذا الحديث

الحقيقة أننا لم نجد أصلاً مباشراً لتلك المعاتبة الموسوية لآدم، اللهم إلا تلك الإشارة البعيدة - وغير المباشرة - في إحدى القصص التلمودية عن خشية آدم من أن يلومه المتقون على أنه أدخل الموت إلى العالم بسبب خطيئته وعصيانه لأمر الله[560]) .

(ورغم أن الموت حلّ على العالم من خلال آدم فلا يمكن أن نعتبره مسؤولا عن موت البشر، فذات يوم قال آدم للرب لست مهموماً بموت الأشقياء، لكني لا أحب أن يوبخني المتقون ويلقون عليّ باللوم لموتهم، أرجوك لا تذكر ذنبي، ووعده الرب بأن يلبي رغبته ولهذا عندما يوشك أي إنسان على الموت يظهر له الرب ويأمره بكتابة كل ما فعله خلال حياته ؛ إذ كما يخبره الرب: فإنك تموت بسبب سيئاتك وعندما ينتهي من كتابة السجل يأمره الرب بأن يختمه بخاتمه وهذا هو الكتاب الذي سيحضره الرب يوم القيامة وسيخبر كل بأعماله وما أن تخب نار الحياة في كل إنسان إلا ويعرض على آدم الذي يتهمه الإنسان بالتسبب في موته لكن آدم يفند التهمة قائلاً: ما ارتكبت إلا ذنباً واحداً أهناك من بينكم من لم يرتكب أكثر من ذلك ولو كان أتقى الأتقياء؟![561]).

وأما ما نعتقده بشأن هذا الحديث فهو أنه يتأسس على قصة مخيالية خالصة لم يسقها النبي - على الأرجح - باعتبارها قصة حدثت وانقضت في الماضي -، وإنما هي - في اعتقادنا- قصة تنتمي لعالم غيوب الآخرة وما سيقع فيها، ولعل ما جاء في الرواية الأولى من قوله - عليه السلام - (احتج آدم وموسى عليهما السلام عند ربهما) ما يرجح هذا الفهم فهي تشبه تلك المحاورة التي ستجري في الآخرة بين الله وبين المسيح كما جاءت في سورة المائدة: ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى

---

[560] ولا ينبغي لاحد أن يعجب من أمثال تلك التناقضات في الأساطير التلمودية فهي تحفل بالمئات ؛ فالقصص التلمودية التي تحكي لنا قصة خلق آدم تطلعنا على أن الله قد كشف لآدم عن بنيه وعدد سنوات أعمارهم وهو لم يزل بعد بين الموت وبين الحياة فكيف يعتبر آدم هو من أدخل الموت إلى العالم بسبب أكله من الشجرة ؟!

[561] أساطير اليهود ج1 ص 107

وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾﴾ [المَائـِدَة : 116 – 119.]

فهذه القصة القرآنية الأخيرة مما سيجري حتماً في الآخرة؛ أولاً: لأننا نجد عيسى يتحدث فيها عن وفاته، وأيضاً لأن عبادة المسيح وأمه مما لم يحدث في حياة عيسى، بل وقع ذلك بعد فترة بعيدة من وفاته ووفاة مريم [562]، ولكن القرآن يوردها بصيغة الماضي انطلاقاً من أنه لا فارق بين ما مضى، وبين ما يقدره الله من أحداث ستقع في المستقبل، فكلها في قدرة الله سواء، وهو كثير في القرآن ومن ذلك ما جاء في فاتحة سورة القمر ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾﴾ [القَمَر : 1]، ومثله ما جاء في فاتحة سورة النحل : ﴿ أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾﴾ [النَّحل:1]

---

(562) تحدث الكثيرون عن قضية عبادة مريم وتأليهها في القرآن ولا نشك في أن ما قرره القرآن بشأن عبادتها إنما يعكس شيئا كان موجودا في عصر النبي أو قبل عصره بزمن طويل، ولا يعنينا كثيرا كيف كان أساس هذا التأليه أو مظاهر تلك العبادة إنما الشيء المهم هي أنها كانت تعبد من قبل بعض الطوائف في زمن النبي وأن القرآن قد استنكر تلك العبادة وجعلها كفرا لا يليق بايمان جماعة دينية تقول بتوحيد الله : (وأول نص صريح رأيته في عبادة النصارى لمريم عبادةً حقيقيةً ما في كتاب (السواعي) من كتب الروم الأرثوذكس، وقد اطلعت على هذا الكتاب في دير يسمى (بدير البلمند) وأنا في أول العهد بمعاهد التعليم. وطوائف الكاثوليك يصرحون بذلك ويفاخرون به، وقد زين الجزويت في بيروت العدد التاسع من السنة السابعة لمجلتهم (المشرق) بصورتها وبالنقوش الملونة إذ جعلوه تذكارًا لمرور خمسين سنةً على إعلان البابا بيوس التاسع أن مريم البتول " حبل بها بلا دنس الخطية " وأثبتوا في هذا العدد عبادة الكنائس الشرقية لمريم كالكنائس الغربية، ومنه قول (الأب لويس شيخو) في مقالة له فيه عن الكنائس الشرقية: (إن تعبد الكنيسة الأرمنية للبتول الطاهرة أم الله لأمر مشهور " وقوله " قد امتازت الكنيسة القبطية بعبادتها للبتول المغبوطة أم الله) (ج7 ص 220- تفسير المنار- رشيد رضا - الهيئة المصرية العامة للكتاب - 1990م -

ولعل تلك الخاطرة من المعاتبة المحمدية لآدم قد جالت بخاطر النبي نفسه مثلما عاتب النبي أخاه لوطا على زفرة ضيقة بأن قدم لقومه - في لحظة كربه - ذاك العرض المشين من أن يأخذوا بناته بدلاً من أضيافه أو نسيانه أنه كان يأوي إلى ركن الله وأن الله كان بجانبه، أفلا يخطر للنبي رغم جميع المحن والشدائد التي مر بها ومن قبله جميع الأنبياء أن يجعل أحدهم يعتب على أبي البشر؟

ولكن لماذا موسى تحديداً رغم أن أنبياء كثيرين قد عانوا مثلما عانى موسى وكابدوا آلاماً ومحناً شديدة سواء من أقوامهم مثل نوح، أو كانت ابتلاءً إلهيًا عنيفًا صار مضرب الأمثال كما حدث مع النبي أيوب مثلاً؟

نقول أنه إذا لم يثبت أن هناك أصلاً لتلك المعاتبة في القصص التلمودية وهو ما نستبعده؛ لأننا يصعب علينا بأن نتخيل أن قصة تلمودية تشتمل على كل تلك السمات النصية لما جاء به القرآن- فربما أوكل النبي تلك المهمة إلى موسى - نيابةً لا عن جميع الأنبياء فقط، بل عن جميع المؤمنين الذين يُكشِر لهم الزمان عن أنيابه ومخالبه - واتساقاً مع مجموع خلائق موسى التي تجلت في القرآن والتوراة معاً، فقد بدا فيهما غضوباً شديداً لا يتسامح مع الأخطاء، ولأنه كان النبي الوحيد الذي اعترف النبي محمد بأنه أوذى في الله أكثر منه فصبر[563]، وأيضاً لما حكاه القرآن من بطش موسى بالرجل المصري وقتله، وهمّه بالبطش بقريبه العبراني اللجوج المشاغب، وكذلك ما كان من إلقاءه الألواح الإلهية غضباً من قومه، وما أحدثوه أثناء غيبته للقاء الله من عبادة العجل الذهبي، ومن جره أخاه الأكبر هارون من رأسه ومن لحيته بل ما نجده في خطابه العنيف الشديد وهو يخاطب الله نفسه !

﴿ وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ سَبۡعِينَ رَجُلٗا لِّمِيقَٰتِنَاۖ فَلَمَّآ أَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ قَالَ رَبِّ لَوۡ شِئۡتَ أَهۡلَكۡتَهُم مِّن قَبۡلُ وَإِيَّٰيَۖ أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآۖ إِنۡ هِيَ إِلَّا فِتۡنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهۡدِي مَن تَشَآءُۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَاۖ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡغَٰفِرِينَ ١٥٥﴾ [الأَعْرَاف : 155].

[563] (رحم الله موسى قد أوذي بأكثر من هذا فصبر)(صحيح الجامع الصغير وزياداته برقم (3500)

ويمكن اعتبار هذه المجادلة الاعتذارية هي أشد الاحتجاجات البشرية التي تلقاها الله على لسان مخلوق بشري ؛ وعلى هذا فلربما كان موسى هو الأولى حقًا بأن توكل إليه هذه المهمة، ومن المعقول أن يفترض النبي أن يقول موسى لآدم مثل هذا الذي قاله، وعلى هذا الشكل العنيف الشديد كما جاء في الرواية الثالثة ، وليس من الغريب - أيضاً - أن يدفع آدم عن نفسه تلك التهمة، وأن يخرج من جعبته أقوى الحجج التي يقر بها جميع المؤمنين في جميع الأديان؛ وهي التعلل بقدر الله الشامل وتقديره المحيط بالحوادث كلها، وهو مفهوم قرآني راسخ آمن به جميع الأنبياء والمرسلين - بل لقد آمن به كذلك المشركين الكفار وإن فهموه على نحو جبري خاطئ كما نعلم في جدالهم واعتذارهم في الآخرة وهو يعذبون في النار، وما جرى من كلام بين المستضعفين وبين السادة المتجبرين وهم يتلاومون فيها - ولكن النبي وقد ألهم آدم حجته ومنحه دعمه الكامل فلم يجعله يتنصل من مسؤوليته التي أقر بها بعد العصيان مباشرة، واستغفر ربه منها، وكذلك لم يجعل آدم من نفسه شهيداً أو ضحية بسبب من أقدار الله كما فعل الكفار في حجاجهم وجدالهم، بل نجده يقر بوضوح كامل بأن ذلك الذنب مما قدره الله عليه فلم يكن بد من حدوثه، وبهذا الاحتجاج السليم بالقدر فقد انتصر آدم على موسى وأفحمه.

ويحوي الحديث إلى جانب تقرير عقيدة القدر على هذا النحو التفصيلي الواضح إشارات أخرى منها - مثلاً - أن توراة موسى كانت تحوي ذات معنى الآية القرآنية سواء بلفظها أو معناها - فليس هذا مهما في شيء - ولكنها كانت موجودة على كل حال في كتاب موسى والذي كان عليه قبل أن يهاجم أباه أن يقرأ ما بين يديه أولاً، ولو فعل موسى ذلك لعلم عذر أبيه آدم قبل أن يبديه له، ولا كانت هناك ضرورة أصلاً لتلك المعاتبة!

الحديث الرابع
الملك الهارب إلى الله

روى أحمد عن عبد الله بن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (أن بني إسرائيل استخلفوا خليفة عليهم بعد موسى صلى الله عليه وسلم فقام يصلي ذات ليلة فوق بيت المقدس في القمر فذكر أموراً كان صنعها فخرج فتدلى بسبب فأصبح السبب معلقاً في المسجد وقد ذهب قال : " فانطلق حتى أتى قوما على شط البحر فوجدهم يضربون لبناً - أو يصنعون لبناً - فسألهم: كيف تأخذون على هذا اللبن؟، قال: فأخبروه فلبن معهم فكان يأكل من عمل يده فإذا كان حين الصلاة قام يصلي فرفع ذلك العمال إلى دهقانهم أن فينا رجلاً يفعل كذا وكذا فأرسل إليه فأبى أن يأتيه ثلاث مرات ثم إنه جاء يسير على دابته فلما رآه فر فاتبعه فسبقه فقال: أنظرني أكلمك قال فقام حتى كلمه فأخبره خبره فلما أخبره أنه كان ملكا وأنه فر من رهبة ربه قال: إني لأظنني لاحق بك قال : " فاتبعه فعبدا الله حتى ماتا برميلة مصر" قال عبد الله: لو أني كنت ثم لاهتديت إلى قبريهما بصفة رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي وصف لنا وجاء في رواية في مُسنَد الإمام أحمد: (بَيْنَمَا رَجُلٌ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانَ في مملَكتِهِ فَتَفَكَّرَ، فَعَلِمَ أَنَّ ذَلِكَ مُنْقَطِعٌ عَنْهُ، وَأَنَّ ما هو فيه قَدْ شَغَلَهُ عَنْ عِبادَةِ رَبِّهِ، فَتَسَرَّبَ فَانْسَابَ ذَاتَ لَيْلَةٍ مِنْ قَصْرِهِ فَأَصْبَحَ في مَمْلَكَةِ غَيْرِهِ، وأَتَى سَاحِلَ الْبَحْرِ، وكَانَ بِهِ يضْرِبُ اللَّبِنَ بِالأَجْرِ، فَيَأْكُلُ وَيَتَصَدَّقُ بِالْفَضْلِ، فَلَمْ يَزَلْ كَذَلِكَ حَتَّى رَقِيَ أَمْرُهُ إِلَى مَلِكِهِمْ وَعِبَادَتُهُ وَفَضْلُهُ، فَأَرْسَلَ مَلِكُهُمْ إِلَيْهِ أَنْ يَأْتِيَهُ، فَأَبَى أَنْ يَأْتِيَهُ، فَأَعَادَ ثُمَّ أَعَادَ عَلَيْهِ، فَأَبَى أَنْ يَأْتِيَهُ، وَقَالَ: مَا لَهُ وَمَا لِي؟ قَالَ: فَرَكِبَ الْمَلِكُ إليه، فَلَمَّا رَآهُ الرَّجُلُ وَلَّى هَارِبًا، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ الْمَلِكُ رَكَضَ في أَثَرِهِ، فَلَمْ يُدْرِكْهُ، قَالَ: فَنَادَاهُ يَا عَبْدَ اللَّهِ، إِنَّهُ لَيْسَ عَلَيْكَ مِنِّى بَأْسٌ، فَأَقَامَ حَتَّى أَدْرَكَهُ، فَقَالَ لَهُ: مَنْ أَنْتَ رَحِمَكَ اللَّهُ؟ قَالَ: أَنَا فُلاَنُ بْنُ فُلاَنٍ صَاحِبُ مُلْكِ كَذَا وَكَذَا، تَفَكَّرْتُ في أَمْرِى فَعَلِمْتُ أَنَّ مَا أَنَا فِيهِ مُنْقَطِعٌ، وَإِنَّهُ قَدْ شغلني عَنْ عِبَادَةِ رَبِّى فَتَرَكْتُهُ، وَجِئْتُ هَاهُنَا أَعْبُدُ رَبِّى عز وجل، فَقَالَ: مَا أَنْتَ بأحوج إِلَى مَا صَنَعْتَ مِنِّى؟ قَالَ: ثُمَّ نَزَلَ عَنْ دَابَّتِهِ فَسَيَّبَهَا، ثُمَّ تَبِعَهُ فَكَانَا جَمِيعًا يَعْبُدَانِ اللَّهَ، عَزَّ وَجَلَّ، فَدَعَوَا اللَّهَ أَنْ يُمِيتَهُمَا جَمِيعًا، قَالَ: فَمَاتَا، قَالَ: لَوْ كُنْتُ بِرُمَيْلَةِ مِصْرَ لأَرَيْتُكُمْ قُبُورَهُمَا بِالنَّعْتِ الذي نَعَتَ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم.[564])

---

[564] قال الشيخ ناصر الدين الألباني في تخريجه في سلسلة الأحاديث الصحيحة 6-805 حديث رقم 2833 أخرجه البزار في مسنده (3689/267/4)وأحمد (451/1)وأبو يعلى (5383/261/9)

هذا حديث جميل حقاً يصور لنا في روايته الأولى ملكاً عبرانياً مولعاً بالصلاة، وبينما هو يصلي في ليلة مقمرة فوق بيت المقدس، إذ تذكر ما ارتكبه من خطايا وذنوب، فوقع في قلبه أن يتخلى عن مشاغل الدنيا وهمومها الباطلة، ويفرغ لعبادة الله فتدلى بحبل من فوق المسجد، وغادر مملكته إلى منطقة نائية على ساحل البحر يتكسب من عمل يده ويعبد ربه بإقامة الصلوات متى حان وقتها، وعندما بلغ سيد القرية التي يعيش فيها صلاح حال هذا الرجل الغريب لاحقه حتى عرف منه قصته، والتي لامست شغاف قلبه فسار على أثره وعبدا الله معا حتى ماتا معا ودُفنا في مقبرة واحدة برميلة مصر، وقد أفاض النبي في وصف هاتين المقبرتين اللتين جمعتا بين هذين الرجلين الزاهدين حتى لو رآهما ابن مسعود لتعرف عليهما من دقة وصف النبي لهما.

وفي الرواية الثانية لا نجد ما يشير - صراحةً - إلى كونه ملكاً من بني إسرائيل، ولا نجد ذكراً للذنوب والمعاصي، بل نرى ملكاً صالحاً من الأمم القديمة حيث يستفيق فجأة من غفلته، فيدرك أن ما هو فيه من الملك وأبهته ماهي إلا لحظة مارة عابرة، وسرعان ما ستنقضي فانسل خفية من قصره وغادر مملكته إلى مملكة أخرى مجاورة لا يعرفه فيها أحد، وارتضى - وهو الملك المُترَف- أن يعمل عملاً يدوياً خشناً، فكان يضرب اللبن ويأكل من عمل يده ويتصدق على الفقراء بما يفيض عن حوائجه القليلة، ولما انتشرت أخبار صلاحه وتقواه حتى بلغت مسامع ملك تلك المملكة فأراد أن يعرف حال هذا الرجل الغريب فأرسل إليه مراراً فرفض لقاءه، فزاد ذلك من فضول الملك وتشوفه للقاء هذا العبد الصالح، فلما رآه الملك الزاهد فَرَ هاربا منه ولكن الملك الذي لاحقه وبعد عناء عرف منه قصته فهجر الملك عرشه كذلك وعبدا الله معاًَ حتى ماتا على النحو الذي جاءت به الرواية الأولى.

وهذه القصة - بروايتها - تصف لنا ذات الأجواء التي من الممكن أن نقابلها في وصف سيرة ومناقب أمير مسلم ترك ما في يده وتنسَك مثل ما تحكيه كتب التراث عن الصوفي الأشهر إبراهيم بن أدهم - مثلاً -، فلا نجد هنا صومعة ولا رهبانية، وإنما سعي على الرزق الكفاف وعبادة لله وتعمير الدنيا في آن واحد!، ونلاحظ - كذلك - حضور بعض المفردات الإسلامية الخالصة فالملك- مثلاً- يهتف مناديا الرجل الصالح بقوله (يا عبد الله) ويسأله مستفهماً (من أنت رحمك الله ؟)، ونجد كذلك أوصاف الله كما جاء

بها النبي (ربي عز وجل)، وأيضاً نجد في هذا الحديث ما ينص على حضور الصلوات عند بني إسرائيل عبر اليوم والليلة، وأنها كانت تصلي في أي مكان متى حان وقتها، بل نجد من يستنتج من الحديث الأول: (مشروعية قيام الليل في شريعة بني إسرائيل[565]) .

ولا نشك أن خلف تلك القصة الحديثية قصة تلمودية متأخرة لم تصلنا، ولم يزد فيها النبي سوى ما وجدناه فيها من ألفاظ الإسلام، ولا ينبغي لأحد أن يعتقد في حقيقة حدوثها فلم تكن سوى قصة تلمودية وعظية تمجد قيمة العبادة، وتخلية النفس من شواغل الحياة الدنيا التي لا تنتهي، لذا فليس من الضروري أن يبحث القارئ بين قوائم ملوك العهد القديم ليفتش فيها عن أي إشارة لملك يهودي اعتزل الحكم وساح يعبد الله، بل إننا نجد في الرواية الثانية ملكين يعتزلان عرشهما في وقت واحد كما لو كان اعتزال ملك من الملوك أمر يحدث كل يوم، وليتذكر- القارئ الكريم - أن قصة انسلال أمير هندوسي شاب من قصره حيث كان أباه يحكم مملكة صغيرة على حدود النيبال- ساعياً خلف الحقيقة التي تقبع خلف أوهام العالم ما زال يتردد صداها كأعجوبة منذ ألفين وستمائة سنة!

أما ما يعنينا من تلك القصة الوهمية فهو ما جاء في الحديث الأول عن صلاة الملك فوق سطح بيت المقدس، ورغم أن الحديث يقول بأن ذلك الملك كان من الخلفاء الذين حكموا بني إسرائيل من بعد موسى، فأغلب الظن أن ذلك الملك كان قبل زمن سليمان - أيضاً - مما يوحي باعتقاد النبي في قدم بيت المقدس، وأنه كان موجوداً قبل سليمان بكثير - والذي كان هو من جدده بعد أن بلي وخفيت معالمه -، وأما من بناه فهو إبراهيم - على الأرجح - بعد بنائه للكعبة بُمدة يسيرة، ويؤيد ذلك ما رواه البخاري ومُسلم أن أول بيت للعبادة على سطح الأرض كان هو الكعبة، وأما الثاني فكان بيت المقدس وبينهما أربعون سنة فقط: (عن أَبِي ذَرٍّ، قَالَ : " قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ : أَيُّ مَسْجِدٍ وُضِعَ فِي الْأَرْضِ أَوَّلُ؟،قَالَ: (الْمَسْجِدُ الْحَرَامُ)، قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: (الْمَسْجِدُ الْأَقْصَى)، قُلْتُ: كَمْ بَيْنَهُمَا ؟، قَالَ: (أَرْبَعُونَ سَنَةً)[566] .

وهذا الاستنتاج - في اعتقادنا - يتسق تماماً مع تفكير النبي ومع طبيعة معرفته، فلم يكن لإبراهيم أن يبني مسجده الأول هناك في مكة حيث لا يوجد بشر ثم لا يبني

---

[565] انظر : صحيح القصص النبوي - الأشقر ص 301

[566] صحيح البخاري برقم (3366)، ومسلم (520)

مسجداً آخر في موطنه الأصلي بالأرض المقدسة، حيث كان يعيش هو وبنوه وسوف نرى أثراً من هذا الاعتقاد من حضور القبلة والتوجه إليها في الصلاة عند الأنبياء الأقدمين وأتباعهم، ولا ندري - في الحقيقة - كيف يوفق شَّراح الأحاديث بين هذا الحديث، وبين الحديث الآخر الصحيح، والذي نص النبي به على أن إقامة الصلاة في أي بقعة من بقاع الأرض إنما هي خصيصة اختص الله بها أمة النبي من بين سائر الأمم ؟ : جاء في البخاري وغيره من حديث جابر بن عبد الله عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال (أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي نصرت بالرعب مسيرة شهر وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً وأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل وأحلت لي الغنائم وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس كافة وأعطيت الشفاعة [567]).

(وقد أشكَل هذا الحديث على من لم يعرف المراد به فقال: معلوم أن سليمان بن داود هو الذي بنى المسجد الأقصى وبينه وبين إبراهيم أكثر من ألف عام!، وهذا من جهل هذا القائل فإن سليمان إنما كان له من المسجد الأقصى تجديده لا تأسيسه، والذي أسسه هو يعقوب بن إسحاق صلى الله عليهما وآلهما وسلم بعد بناء إبراهيم الكعبة بهذا المقدار [568]).

ولن نخوض فيما قدمه شراح الأحاديث، ومحاولتهم التوفيق بين الحديثين خاصة أن بين أيدينا حديثاً يصرح بأن سليمان هو من بنى بيت المقدس ، فقال بعضهم بأن آدم كان هو من بني المسجدين جميعاً، وذهب بعضهم إلى أن آدم هو من بنى الكعبة وبنى بعض أبنائه المسجد الأقصى، وأن إبراهيم وسليمان كانا مَنْ جددا بناء الكعبة وبيت المقدس إلى آخر هذا اللغو غير النافع وسنكتفي بنقل واحد يغني عنها جميعاً، وقد استشكل من الحديث قوله: (إن بين المسجدين المسجد الحرام والأقصى أربعين سنة) لأن باني الأقصى هو سليمان - عليه السلام - كما يدل عليه حديث عبد الله بن عمرو الآتي قريباً إن شاء الله، وبينه وبين إبراهيم - عليه السلام - أكثر من ألف عام على ما قاله أهل التاريخ، ثم إن في نص القرآن - كما قال الحافظ - أن قصة داود في قتل جالوت كانت

(567) صحيح الجامع الصغير وزياداته برقم (1056)

(568) (نظر : خصائص جزيرة العرب - بكر عبد الله أبو زيد - وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف 1420ه - الرياض- ص42-43

بعد موسى بمدة، وقد أجيب عن ذلك بأجوبة لعل أقربها قول الخطابي: (يشبه أن يكون المسجد الأقصى أول ما وضع بناءه بعض أولياء الله قبل داود وسليمان ثم داود وسليمان زادا فيه ووسعاه فأضيف إليها بناؤه... وقد جزم الحافظ ابن كثير في (البداية) (أن إسرائيل - وهو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم - هو أول من بنى المسجد الأقصى وأن سليمان عليه السلام جدده بعد ذلك وإذا صح هذا فهو قريب مما أفاده الحديث من المدة بين المسجدين. والله أعلم[569]).

وقد رأى بعض الباحثين المحدثين ما ظنه تناقضاً في القرآن بين ما يدل عليه ظاهر هاتين الآيتين: ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ۝٣٧﴾ [إبراهيم : ٣٧] ، ﴿ وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ۝١٢٧﴾ [البَقَرَةِ : 127].

ففي الإجابة على سؤال عن التناقض بين هاتين الآيتين والتي يوحي أولاهما بأن البيت كان موجوداً وقائماً عندما استقرت عنده هاجر وابنها الصغير، وبين ما ذكره القرآن في الآية الثانية من بناء إبراهيم البيت مع ابنه إسماعيل فأجاب أحد الباحثين بقوله: (النص الديني لا يهتم بتقديم معلومة دقيقة وموثقة، ولكنه يقدم فكرة يمكن التعبير عنها بأكثر من طريقة. والفكرة التي قصدت الآيتان التعبير عنها هي قدسية هذا المكان بصرف النظر عن تاريخ بنائه ومتى بني . إن ما يبدو لنا من تناقض أحياناً في النص الديني نابع من اختلاف منطقنا الحديث عن منطق القص الأسطوري [570]).

والحقيقة أن هذا الاستنتاج - في اعتقادنا- إنما هو استنتاج غير صحيح، فليس هناك تناقضاً بين الآيتين، وذلك لأن النص القرآني يصرح برفع إبراهيم البيت ولم يقُل إنه كان يُنشئُه من عدم، بل كان إبراهيم يقصد ما سيكون مستقبلاً بقوله :

---

(569) انظر : الثمر المستطاب في فقه السنة والكتاب - ناصر الدين الألباني - غراس للنشر والتوزيع - الطبعة الأولى 1422ه ج1 ص 513

(570) الله والكون والإنسان - فراس السواح - دار التكوين - الطبعة الأولى - 2016م - دمشق - سوريا - ص81

(عند بيتك المحرم) أي بيت الله في مستقبل الأيام بعد أن يبنيه هو وإسماعيل، ويؤيد هذا الفهم أننا نجد إبراهيم يدعو لأهل مكة فيقول (رب اجعل هذا بلداً آمنا وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر) ولم يكن من وجود مكة في زمن إبراهيم!، وعلى هذا فليس من البعيد أن يصح ما قاله المفسرون من أن البيت كان قديماً وضعت الملائكة لبناته الأولى أو أن آدم هو من فعل ذلك ثم ترك على تلك الهيئة حتى استكمل إبراهيم بناءه بمعاونة ابنه إسماعيل!، وهذا ما عليه عموم المفسرين المدققين كما في هذا المثال: (قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ﴾ ذَكَرَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ رَفْعُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ لِقَوَاعِدِ الْبَيْتِ، وَبَيَّنَ فِي سُورَةِ «الْحَجِّ» أَنَّهُ أَرَاهُ مَوْضِعَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ﴾ [الحَج : 26] أَيْ: عَيَّنَّا لَهُ مَحِلَّهُ وَعَرَّفْنَاهُ بِهِ. قِيلَ: دَلَّهُ عَلَيْهِ بِمُزْنَةٍ كَانَ ظِلُّهَا قَدْرَ مِسَاحَتِهِ. وَقِيلَ: دَلَّهُ عَلَيْهِ بِرِيحٍ تُسَمَّى الْخُجُوجُ كَنَسَتْ عَنْهُ حَتَّى ظَهَرَ اسْمُهُ الْقَدِيمُ فَبَنَى عَلَيْهِ إِبْرَاهِيمُ وَإِسْمَاعِيلُ عَلَيْهِمَا وَعَلَى نَبِيِّنَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ[571]).

ولا علينا إذا لم نلتفت إلى ما قاله سواهم من أن البيت الحرام كان موجوداً على هيئته الكاملة وأن إبراهيم قد كشف عنه!، (ففي هذه الآيات خبر بناء البيت الحرام بيد إبراهيم وإسماعيل، وقد ذُكرَ البيت قبل هذه الآيات وهو مستكمل وجوده، ومهيأ للعبادة، وهذا ما يشعر بجلاله وقدسيته، وأنه كان مُعداً من قبل بيد القدرة، وأن يدي إبراهيم وإسماعيل اللتين جرتا عليه بعد هذا، إنما لإظهار هذا السرّ المضمر، والقدر المقدور[572]) .

وأغلب الظن أن هذا الاعتقاد النبوي إنما يرجع إلى مروية تلمودية نسبت بناء بيت المقدس لإبراهيم ؛ تعظيماً وترسيخاً لقدمه وقدسيته أو هذا ما نعتقده ولكن تحقيق ذلك خارج مقصودنا فلنمض لما نحن فيه.

---

(571) (انظر - أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن- محمد الأمين الشنقيطي دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع بيروت - لبنان1995 مـ - ج1 ص 44، وانظر - أيضا - : كشف المشكل من حديث الصحيحين - ابو الفرج بن الجوزي - تحقيق علي حسين البواب - دار الوطن الرياض - ج2 ص 408

(572) انظر : التفسير القرآني للقرآن - عبد الكريم يونس الخطيب - دار الفكر العربي - القاهرة - ج1 ص 142 -

الحديث الخامس

النبي سليمان يطوف على نسائه !

(عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (قال سليمان بن داود: لأطوفن الليلة على سبعين امرأة تحمل كل امرأة فارساً يجاهد في سبيل الله فقال له صاحبه: إن شاء الله فلم يقل، ولم تحمل شيئاً إلا واحداً ساقطاً أحد شقيه. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (لو قالها لجاهدوا في سبيل الله) قال شعيب وابن أبي الزناد (تسعين) وهو أصح والسياق للبخاري وأورده البخاري في كتاب الجهاد بلفظ (لأطوفن الليلة على مائة امرأة أو تسع وتسعين امرأة) .

وفي كتاب النكاح بلفظ (قال سليمان ابن داود عليهما السلام: لأطوفن الليلة بمائة امرأة تلد كل امرأة غلاماً يقاتل في سبيل الله فقال له الملك: قل إن شاء الله فلم يقل ونسي فأطاف بهن ولم تلد إلا امرأة نصف إنسان)، قال النبي صلى الله عليه وسلم (لو قال إن شاء الله لم يحنث، وكان أرجى لحاجته [573]).

وهذا حديث يترجم لنا عن خاطرة وقعت في قلب النبي سليمان حيث عزم سليمان على أن يطوف على عدد هائل من نسائه في ليلة واحدة لا يبتغي من وراء ذلك سوى أن يحملن جميعاً منه فيلدن له غلماناً شجعاناً، وعندما يشبون يصيرون مجاهدين في سبيل الله ونشر رسالته، وعندما ذكره الملك المصاحب له بأن يقول (إن شاء الله) لم يفعل سليمان ذلك!، فكان أن طاف بهن في تلك الليلة، ولكن لم تلد له من بينهن جميعاً سوى امرأة واحدة، ولكنها جاءته بغلام شائه ناقص الخلقة، ويعقب النبي على تلك الواقعة بأن سليمان لو كان قد استجاب لنصيحة ملاكه الناصح لكان أقرب إلى الظفر مراده ببركة تلك العبارة.

وهذا الحديث يعطينا برهاناً واضحاً على رسوخ مفهوم الجهاد في سبيل الله عند الأنبياء السابقين، وخاصةً من أعطاه الله القدرة على إنفاذه وتطبيقه ـ والحقيقة التي

(573) (رواه البخاري في صحيحه في كتاب أحاديث الأنبياء باب قول الله تعالى (ووهبنا لداود سليمان) 6- 458 ورقمه 3424 وفي كتاب الجهاد باب من طلب الولد للجهاد (6-34) ورقمه 2819، وفي باب النكاح باب قول الرجل لأطوفن الليلة على نسائي (9-239) ورقمه 5242 وفي باب الإيمان والنذور باب كيف كانت يمين النبي 11-524 ورقمه 6639 وفي باب كفارات الإيمان باب الاستثناء في اليمين 11- 602وفي كتاب التوحيد باب في المشيئة والإرادة 13-446ورقمه 7469 ورواه مسلم في صحيحه في كتاب الإيمان باب الاستثناء في الإيمان 3-1275ورقمه 1654

يعرفها كل أحد ـ أن سليمان- ولا أي نبي أو ملك يهودي آخر-، كانوا يعرفون مفهوم الجهاد في سبيل الله كما جاء به الإسلام، فقد كانت اليهودية ديناً قومياً خاصاً ببني إسرائيل وكانت صراعاتهم التي لا تنتهي مع جيرانهم صراعات سياسية، ولا علاقة لها بهذا المفهوم التشريعي الذي أتى به النبي محمد ـ عليه السلام-، ولنقل هنا كلمة مختصرة عن هذا المفهوم، ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٣٥﴾ [المَائـِدَة : 35]، ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ٢٩﴾ [التَّوۡبَة : 29].

من المفاهيم المتأخرة التي جاء بها الإسلام مفهوم الجهاد في سبيل الله وهو في أبسط معانيه: السعي بجميع الوسائل الممكنة لنشر كلمة الله ورسالته وعرضها على الناس بعد الإطاحة بكل سلطة قد تحول بين الناس وبين أن يختاروا الإسلام طائعين إن شاءوا، أو الرضوخ لسلطانه إذا أرادوا أن يحتفظوا بعقيدتهم القديمة الباطلة، شريطة أن يدينوا بدين يرى الإسلام أن له أصلاً سماوياً يقرُه ويعترف به. ولا يعنينا في شيء ما أثير وما زال يثار من جدل حول هذا المفهوم ـ الذي لا موضع له في زماننا ـ إلا بمقدار إيضاح الفهم النبوي لطبيعة الرسالة الإلهية وحدودها ووسائل نشرها .

فقد انطلق النبي من تصوره عن الله وفهمه الخاص للإرادة الإلهية، وما تريده للناس، وربط بينه وبين التاريخ النبوي القديم، فجعل هذا المفهوم جزءاً من الشريعة الإلهية العامة، وجعل من أنبياء بني إسرائيل طلائع القائلين بهذا المفهوم والساعين إلى تطبيقه تماماً كما سيفعل هو انطلاقاً من قناعته الراسخة بوحدة الرسالة والشرائع الإلهية في جميع العصور.

ولمَّا كانت المرحلة المكية هي مرحلة الدعوة السلمية، وكان سلاحها الوحيد هو التبشير والإقناع والتخويف من عاقبة الإعراض عن دعوة الحق مع التذكير الدائم بمصائر الأمم الغابرة، فقد كان من الطبيعي ألا يظهر هذا المفهوم في تلك الفترة الباكرة، ولكنه ـ كان متضمناً بكل تأكيد في طبيعة الرسالة ذاتها، ولكن لم يكن قد حان بعد الوقت المناسب لتجليته ؛ فما كان النبي ليعلم في أي مسار ستمضي دعوته، ولم يكن يعلم ما

سيقدره له الله في علمه الأزلي القديم من النجاح أو الإخفاق، فليس هو ببدع من الرسل والمهمة الأساسية للرسل - على كل حال - هي إبلاغ رسالة الله لأقوامهم ومن استجابتهم - قبولاً أو إعراضاً- يفعل الله بهم ما يشاء.

﴿ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا
تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ
تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾
قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّى
مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ
ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم ۚ بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ
لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى
بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن
مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن
يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ
وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا
نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ
كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ
إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن

سَاقَيْهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [النَّمْل : 28 – 44].

وعلى هذا فقد منح النبي هذا المفهوم للنبي الوحيد القادر على تطبيقه وهو النبي لسليمان ـ كما تنص تلك الآيات من سورة النمل ـ لأنه كان نبياً ـ وفق القرآن ـ، وملكاً قادراً على تطبيقه، فقد آتاه الله الملك الواسع وسخر له جنوداً من جميع الخلائق فمن يقوم لمثله؟، وما أحراه لأن يكون هو أنموذج النبي المقاتل الذي سيتجلى به النبي محمد بعد سنوات قليلة، فنرى سليمان في الآيات السابقة يرسل خطابه إلى أهل تلك البلاد البعيدة بعدما أطلعه الهدهد على وجود تلك المملكة التي كانت تعبد الشمس من دون الله، ومن خلاله يتوعدهم أنهم إن لم يجيئوا إليه طواعية فسوف يستخدم ما وهبه الله من جنود في إرغامهم على ذلك إن أبوا أن يسلموا لله، ويخرجوا عما كانوا يعبدونه من دونه وهو خطاب يمكن أن نجعل من صياغته ومضمونه أصلاً لتلك الرسائل التي سيرسلها النبي محمد فيما بعد إلى ملوك عصره ليدعوهم إلى الإسلام ؛ فهي تبدأ كذلك مثل رسالة سليمان بالبسملة ومختصرة جداً مثلها بل إنها تتضمن وصف الخاضعين المغلوبين بالصغار كما سينص القرآن على حال دافعي الجزية من أهل الكتاب كما نصت على ذلك سورة التوبة:

﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [التَّوْبَة : ٢٩] ولكن المسألة مضت بسلام؛ فقد أذعنت الملكة وخضعت بعدما رأت من مجد سليمان وقوته ما أبهرها، وأقرت بأنها أسلمت مع سليمان لله رب العالمين .

ثم عندما جاءت المرحلة المدينية وتطور الصراع بينه وبين مشركي العرب إلى الحروب الحقيقية، ولم تعد الوسائل القديمة تجدي نفعاً فهنا جماعة إيمان يمكنها أن تحارب من أجل فكرتها في مقابل محيط وثني لن يقف مكتوف اليدين أمام هذه الدعوة الجديدة ؛ لذا فقد توسع النبي في تقديم نماذج أخرى من التاريخ النبوي القديم لدعم هذا التحول وإيجاد سند ديني وأخلاقي له، وكان من أهمها قصة موسى وقصة طالوت

وجالوت [574] ، وما جاءت به الأحاديث ـ بشكل مفصل ـ عن حروب يوشع بن نون: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٤٦ وَمَا كَانَ قَوۡلَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٤٧ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا وَحُسۡنَ ثَوَابِ ٱلۡأٓخِرَةِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٤٨﴾ [آل عِمۡرَان : 146-148].

﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰٓ إِذۡ قَالُواْ لِنَبِيّٖ لَّهُمُ ٱبۡعَثۡ لَنَا مَلِكٗا نُّقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ قَالَ هَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْۖ قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَاۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ تَوَلَّوۡاْ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ٢٤٦﴾ [البَقَرَةِ : 246] .

لكن إذا تذكرنا أن طبيعة التوحيد اليهودي كانت تختلف اختلافاً بعيداً عن طبيعة التوحيد الشامل الذي أتى به الإسلام فلم يكن الله في اليهودية سوى إلهاً خاصاً ببني إسرائيل وحدهم ولم يعرفوا ـ أبداً ـ التوحيد المطلق لله الذي خلق المخلوقات البشرية من أجل عبادته، وكان الخلاص مقتصراً على بني إسرائيل، وكما نعتت التوراة الله في غير موضع بأن الله هو إله إسرائيل، ومن المعروف كذلك أن اليهودية لم تكن أبداً ديانة تبشيرية وإن حدث في بعض الفترات أن أرغم اليهود بعض الشعوب على التهود لاعتبارات سياسية ولا علاقة لها بهذا المفهوم ؛ أي مفهوم الجهاد (وقد نتج عن هذا الفهم أن امتنع الإسرائيليون عن التبشير بالتوحيد كما أنهم لم يمنعوا غيرهم من عبادة آلهة أخرى [575]) .

فمن أين إذن جاء اعتقاد النبي في حضور الجهاد عند الأنبياء العبرانيين القدامى؟، الإجابة الواضحة: من التلمود، فمن بين الإشارات العديدة في القصص التلمودية على

---

[574] لا يعنينا هنا ما يقال عن مدى توافق الرواية القرآنية مع مقابلها في سفر القضاة وتصرفها في الأسماء ودمجها أكثر من قصة في قصة واحدة، فليس هذا مما يعنينا في شيء، إنما ما يعنينا حقا هو مدى اتساق الرواية القرآنية وكيف نفهم مفهوم الجهاد ودعوة الآخرين إليه في ظل التقرير القرآني الواضح باقتصار النبوة على بني إسرائيل ؟؟

[575] تاريخ الديانة اليهودية ص 26

أن موسى كان يدعو الوثنيين إلى دينه -، بل إنه لم يقم بغزو بلاد الكنعانيين إلا بعد أن رفضوا التوراة - هذا النص الواضح والذي فيه يدعو موسى حموه يثرون المدياني لكي يبقى بين شعب الرب وألا يغادره إلى بلاده ؛ إذ لم يمنعه موسى شيئا مما هو لبني إسرائيل سوى أن يكون له نصيب من الأرض المقدسة فهي خاصة بشعب الرب وحده، وأما ما سوى ذلك فقد كان للمتهودين نصيب فيه وفي القلب منه الخلاص الروحي ومجد الآخرة: (إن أنت لم تأت معنا طواعيةً فسآمرك أن تأتي معنا غصباً ؛ لئلا يقول بنو إسرائيل أنك قد تهودت طمعاً في حصة من الأرض الموعودة، فلما علمت أنك لن تنال منها شيئاً رجعت عن رأيك، وسيقول كذلك الوثنيون عنا أننا لا نقبل الداخلين في ديننا إذ لم نقبل حتى أقرب الناس إلينا، وهو أنت حموي وجد ولدي، كما أن رفضك المجيء معنا مسبة لمجد الرب إذ سيرفض الوثنيون الإيمان الحقيقي، لكن إن سرت معنا فإنني أؤكد لك أن ذريتك ستشاركنا في الهيكل، وفي التوراة وفي الثواب الذي سيناله المتقون في المستقبل، ثم كيف يتأتى لك وأنت الذي رأيت بعينيك كل المعجزات التي صنعها الرب لنا وأنت تسير معنا في الصحراء ... وكنت شاهد عيان كيف أحبنا المصريون ألد أعدائنا، كيف يتأتى لك أن تفارقنا؟ أما يكفيك أن تصبح عضواً في السهندرين وأن تقوم بتعليم التوراة؟،

أما يكفيك ذلك دافعاً لترافقنا؟[576])، (أمر الرب موسى بأن يأمر اليهود بألا يردوا أحدا من الوثنيين إن أراد أن يتهود، ولكن عليهم ألا يقبلوا أبدا تحول أحد من العماليق إلى دينهم [577].)،بل إننا نجد يثرون - حمو موسى - يعود إلى قومه: (وعمل بدأب وجهد بينهم حتى تحولوا إلى الإيمان الحق وساروا في طريق الرب [578])

هذا عن أصل هذا الاعتقاد النبوي، وأما عن الإشكاليات التي يثيرها هذا الحديث فهي ليست بالقليلة، - فمثلاً - كيف يتوافق مفهوم الجهاد عند موسى أو عند سليمان أو غيرهما إذا كان جميع الأنبياء السابقين إنما كانوا يبعثون إلى أقوامهم خاصة؟، ولقد أجاب أحد الباحثين المحدثين على هذا السؤال الذي لم نجد له جواباً، فقدم لنا هذه الإجابة المذهلة في غرابتها: (ولما كان كل نبي قبل محمد (ص) يبعث في قومه خاصة - فذاك

(576) أساطير اليهود ج3 ص75و76

(577) أساطير اليهود ج3 ص 65

(578) أساطير اليهود ج3 ص 76

يعنى أن سليمان عليه السلام كان نبياً عربياً وأن الدولة الإسلامية في عهده قد امتدت لتشمل بلاد الشام وجزيرة العرب[579].

وربما من غير الضروري الإشارة هنا - أيضاً - إلى الحضور الساطع لمفهوم القدر وتعلق أعمال العباد بالمشيئة الإلهية، وهو ما لم يعرفه سليمان ولا غير سليمان من أنبياء العهد القديم على هذا النحو الصارم الشديد، لكنها القصص التلمودية ومتابعة النبي لها.

﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيۡءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝٢٣ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَهۡدِيَنِ رَبِّي لِأَقۡرَبَ مِنۡ هَٰذَا رَشَدًا ۝٢٤﴾ [الكَهۡف : 23 – 24]: (يَعْنِي: إِذَا عَزَمْتَ عَلَى أَنْ تَفْعَلَ غَدًا شَيْئًا فَلَا تَقُلْ: أَفْعَلُ غَدًا حَتَّى تَقُولَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ وَذَلِكَ أَنَّ أَهْلَ مَكَّةَ سَأَلُوهُ عَنِ الرُّوحِ وَعَنْ أَصْحَابِ الْكَهْفِ وَعَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ فَقَالَ: أُخْبِرُكُمْ غَدًا وَلَمْ يَقُلْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ فَلَبِثَ الْوَحْيُ أَيَّامًا ثُمَّ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ [580]).

وهذا الحديث يرجع صدى ما قصه علينا القرآن من معاتبة الله لنبيه محمداً على نسيانه تقديم المشيئة الإلهية ، فكما عوقب النبي بتلبث وتأخر الوحي عليه مثلما تقول هذه الآية السابقة من سورة الكهف، فكذلك عوقب سليمان بترك ما طلبه الملك منه من عدم تحقيق أمنيته، ومثلما عوقب يوسف من قبل على شيء قريب من هذا، ولم يقصر النبي محمد بعد تلك المعاتبة الإلهية في نسبة هذه العبارة إلى الصالحين من الأنبياء وغيرهم[581] ، ولم يستثن من بينهم إلا يوسف كما نص القرآن، وكذلك النبي سليمان

---

[579] انظر : أخطاء يجب أن تصحح في التاريخ - الجزء الأول - ص 80)، والحقيقة أننا لا نوافق من يتسرع فيستنتج أن متابعة النبي لهذه الحكاية التلمودية عن سليمان وملكة سبأ قد جعلت النبي ينسى تلك القاعدة عن اختصاص كل نبي بقومه ويجعل من سليمان داعية إلى الله بكل الوسائل فهذه القاعدة لا تقول سوى أن كل نبي لابد وان يعرف لغة مخاطبيه وثقافتهم فهي على هذا لا تعنى كما نظن على أن النبي لا يدعو إلى الله كل من يفهم خطابه إن كان قادرا على إبلاغه بلغته، فالنبوة وإن كانت خاصة ببني إسرائيل ؛ أي لا يكون الأنبياء من خارج تلك السلالة من ولد إبراهيم، لكن هذا لا يمنع أن يدعو موسى - مثلا- فرعون إلى الإسلام أو أن يبشر- من قبله- يوسف بين المصريين بعقيدة التوحيد، وعلى هذا فأي غرابة في أن يرسل سليمان الذي كان يعرف لغة الطير رسالة إلى ملكة وثنية بلغه أنها تعبد وقومها الشمس من دون الله مع كل ما آتاه الله من القوة والسلطان؟! دونما حاجة إلى تلك الفرضية الوهمية بأنه كان ملكا عربيا يحكم دولة إسلامية كما شطح هذا الباحث

[580] (انظر تفسير البغوي المسمى معالم التنزيل في تفسير القرآن - ج5 ص (162)

[581] حيث نجدها على ألسنة كثير من الأنبياء والصالحين في القرآن ومن ذلك ما جاء على لسان موسى ﴿ قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرًا ۝٦٩﴾ [الكَهۡف : ٦٩]، ونجدها كذلك على لسان حمو موسى ﴿ قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ

كما في هذا الحديث مما يرجح بأنه كانت تقف خلف هذا الاستثناء قصص تلمودية كانت تقول بشيء قريب من هذا، وربما لا نبعد عن الصواب إذا قلنا بأن اعتقاد النبي في تلك القصص التلمودية كانت من خلف اعتقاده الصادق كذلك في تأخر تنزل القرآن عليه، وأنه كان بسبب من تلك الهفوة التي وقع فيها - إن صحت تلك القصة عن تأخر الوحي عنه عندما سأله المشركون كما تقول كتب أسباب النزول - ولو صح هذا لكان تفسيراً معقولاً لتلك الحالة من الارتباك النفسي الذي أضعف قدرته الباطنية على تلقي الوحي الإلهي رغم وجود تلك المعارف القصصية التي تضمنتها سورة الكهف من بين معارفه قبل أن يسأله عنها السائلون، ثم يحتاج إلى كل هذا الوقت لإجابتهم عما سألوه عنه .

أخيراً لا يعنينا ما يُقال عن كيف يستطيع رجل وإن كان نبياً أن يطوف على هذا العدد الهائل من النساء في ليلة واحدة؟!، ولكن يبدو أنها كانت خصيصة منحها الله لسليمان دون بقية رجال الجنس البشري، ولا ندري - كذلك - كيف يطمع سليمان أن يكون له عشرات الأبناء من طوافه على نسائه في ليلة واحدة - كما لو أن سليمان له ألف ابن؟

من الواضح أن المرويات التلمودية قد نسبت إلى سليمان عدداً هائلاً من الأبناء؛ لأننا نجد فيها كيف أماتت الشياطين مائة من أبنائه دفعة واحدة، ولكنها خرافات سخيفة، ربما كانت تقف خلف هذا النوع من القصص المحمدية، ولعل قلة أبناء سليمان الحقيقي تلقي كثيراً من الشك على أعداد زوجات سليمان وجواريه، فقد جمع الرجل لنفسه عدداً خرافياً من النساء - حرائر ورقيقًا -، ولم يكن الرجل عقيماً وعاش معهن طويلاً، فأين ثمرة كل تلك الزيجات مع ما نعلمه عن كثرة أبناء من يتخذون معشار هذا العدد؟ !

إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ [القَصَص : ٢٧]، ونجدها قبل ذلك على لسان الذبيح - ولا يهم إن كان إسحاق أو إسماعيل : ﴿ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ [الصَّافَّات : ١٠٢]، ونجدها عند عامة قوم موسى ﴿ قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ ٱلۡبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيۡنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهۡتَدُونَ ﴿٧٠﴾ [البَقَرَة : ٧٠]، بل ونجدها عند خير الرجلين في قصة أصحاب الجنتين : ﴿ وَلَوۡلَآ إِذۡ دَخَلۡتَ جَنَّتَكَ قُلۡتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالٗا وَوَلَدٗا ﴿٣٩﴾ [الكَهۡف : ٣٩].

الحديث السادس
يوشع والشمس

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (غزا نبي من الأنبياء فقال لقومه لا يتبعني رجل ملك بضع امرأة وهو يريد أن يبني بها ولما يبن بها، ولا أحد بنى بيوتاً ولم يرفع سقوفها، ولا أحد اشترى غنماً أو خلفات وهو ينتظر ولادها، فغزا فدناً من القرية صلاة العصر أو قريباً من ذلك فقال للشمس: إنك مأمورة وأنا مأمور، اللهم احبسها علينا فحبست حتى فتح الله عليه فجمع الغنائم فجاءت - يعني النار - لتأكلها فلم تطعمها، فقال: إن فيكم غلولاً فليبايعني من كل قبيلة رجل، فلزقت يد رجل بيده فقال: فيكم الغلول فلتبايعني قبيلتك فلزقت يد رجلين أو ثلاثة بيده فقال: فيكم الغلول فجاؤوا برأس مثل رأس بقرة من الذهب فوضعوها فجاءت النار فأكلتها ثم أحل الله لنا الغنائم لما رأى ضعفنا وعجزنا فأحلها لنا[582]).

هذا حديث نبوي آخر يؤصل لمفهوم الجهاد في سبيل الله ويرجع به إلى زمن أنبياء العهد القديم المحاربين، فالجهاد يبدأ - كما رأينا - مع موسى وسيستمر من بعده مع يشوع خليفته على شعب الرب، وهذا ما قرره علماء الدين المسلمين لإيمانهم التام بوحدة الشريعة الإلهية كما يقول مثلاً شارح هذا الحديث: (غزو يوشع بمن معه من بني إسرائيل يدل على أن القتال كان مفروضاً على الأمم من قبلنا وليس خاصاً بنا وقد عاقب الله بني إسرائيل بالتيه أربعين سنة عندما أبوا مقاتلة المحاربين[583]) فهنا نرى نبياً من

(582) رواه البخاري في كتاب فرض الخمس باب قوله صلى الله عليه وسلم (أحلت لكم الغنائم)(220/6)ورقمه 3124 ورواه مختصرا في كتاب النكاح باب من احب النكاح قبل الغزو (223/9)ورقمه 5157 ورواه مسلم في كتاب الجهاد والسير باب تحليل الغنائم 1366/3 ورقمه (1747)وهو في شرح النووي على مسلم 12/ 409

(583) (الأشقر 119) والحقيقة إننا نعجب من هذا الفهم ولا ندري كيف يعقل أن يكون التيه بمثابة عقوبة لبني إسرائيل لرفضهم القتال ؟ فكيف يتصور هذا التيه بعدما خرجوا من صحراء سيناء وأصبحوا أمام الأرض المقدسة ؟!
والحقيقة ان القرآن يتابع في هذا تحريم الرب على جيل الخروج دخول الأرض المقدسة فمن المعلوم وفق الكتاب المقدس أنه لما عاد الجواسيس من أرض كنعان وجبن العبرانيون عن محاربة الكنعانيين غضب عليهم الرب وقضي عليهم بالتيه في البرية نحو أربعين سنة مع موت جميع الذين تزيد أعماهم عن عشرين سنة ولم يستثن من مئات الألوف إلا رجلين فقط وهما يشوع بن نون وكالب بن يفنة كما نص على هذا الهراء سفر العدد : (في هذا القفر تسقط جثثكم جميع المعدودين منكم حسب عددكم من ابن عشرين سنة فصاعدا من الذين تذمروا عليّ)(عدد- 29:14)

أنبياء بني إسرائيل [584]، ينتخب من بين جنوده للجهاد في سبيل الله مَنْ لا يتعلق قلبه بشاغل من شواغل الدنيا، وبخاصة من عقد من جنوده على امرأة ولم يدخل بعد بها، ومن كان منهم ينتظر نتاج حيواناته - غنماً كانت أم نوقاً-، وأيضاً من بنى منهم بيتاً ولم يستكمل بنائه ورفع أسقفه، وذلك كأمثلة شائعة في كل العصور للتعلق بالدنيا وطول الأمل بالبقاء فيها،وكأن ذلك النبي القديم إنما كان يريد مقاتلين فدائيين يذهبون إلى الحرب في سبيل الله ومتأهبين لملاقاة الموت أو جنى ثمار النصر لا أكثر ولا أقل [585] ونرى هنا - أيضاً - ذلك النبي القديم يخاطب الشمس باعتبارها مثله- سواء بسواء - أي خادماً مطيعاً يأتمر بأمر الله فيتضرع إلى الله أن تظل ثابتة في كبد السماء حتى يفرغ من حربه ويظهر على عدوه وقد حقق له الله ما أراد: (فحبست حتى فتح الله عليه) .

ويلحظ هنا - أيضاً وكالعادة - تلطيف الصورة التوراتية القديمة، وتجميلها سواء أكان ذلك من حيث الباعث، أو عن بطل تلك القصة فبينما تنص التوراة على أن غاية تلك المعركة إنما كانت من أجل الانتقام من أعداء شعب الرب، نجد الحديث النبوي يجعله جهاداً في سبيل الله وسعياً لنشر دعوته!، أما عن الفارق بين يوشع التوراتي ويوشع (نبي الله) فما أبعد الفارق بين الاثنين ؛ فيشوع القديم والذي يظهره ذلك السفر الذي يحمل اسمه في العهد القديم - والذي يحكي عن تفاصيل حروبه في شمال كنعان وما اقترفه في (أريحا) و(حاصور) و(عاي) وغيرها من المدن مما تقشعر منه الأبدان، حتى ليظهر يوشع في هذا السفر الدموي كفاتح آشوري، أو محارب مغولي سفاك للدماء، ويظهر ضراوة ووحشية بالغة في التعامل مع كل من يقع بين يديه - لا نقول من المحاربين المقاتلين من رجال تلك المدن- الذين كانوا يدافعون عن أرضهم وبلادهم

---

[584] لم يذكر هذا الحديث اسم ذلك النبي، لكن هناك أحاديث أخرى صحيحة تنص على أنه يوشع بن نون كما في هذا الحديث :(ما حبست الشمس على بشر قط إلا على يوشع بن نون ليالي سار إلى بيت المقدس) انظر : صحيح الجامع الصغير وزياداته برقم (5612)، والسلسلة الصحيحة برقم (2226)

[585] أما عن أساس هذا الانتخاب فيرجع إلى ما جاء في سفر التثنية مع فروق قليلة لا تخفي علي القارئ : (إِذَا خَرَجْتَ لِلْحَرْبِ عَلَى عَدُوِّكَ وَرَأَيْتَ خَيْلاً وَمَرَاكِبَ، قَوْمًا أَكْثَرَ مِنْكَ، فَلاَ تَخَفْ مِنْهُمْ، لأَنَّ مَعَكَ الرَّبَّ إِلهَكَ الَّذِي أَصْعَدَكَ مِنْ أَرْضِ مِصْر وَعِنْدَمَا تَقْرُبُونَ مِنَ الْحَرْبِ يَتَقَدَّمُ الْكَاهِنُ وَيُخَاطِبُ الشَّعْبَ وَيَقُولُ لَهُمْ: اسْمَعْ يَا إِسْرَائِيلُ: أَنْتُمْ قَرُبْتُمُ الْيَوْمَ مِنَ الْحَرْبِ عَلَى أَعْدَائِكُمْ. لاَ تَضْعُفْ قُلُوبُكُمْ. لاَ تَخَافُوا وَلاَ تَرْتَعِدُوا وَلاَ تَرْهَبُوا وُجُوهَهُمْ،أَنَّ الرَّبَّ إِلهَكُمْ سَائِرٌ مَعَكُمْ لِكَيْ يُحَارِبَ عَنْكُمْ أَعْدَاءَكُمْ لِيُخَلِّصَكُم ثُمَّ يُخَاطِبُ الْعُرَفَاءُ الشَّعْبَ قَائِلِينَ: مَنْ هُوَ الرَّجُلُ الَّذِي بَنَى بَيْتًا جَدِيدًا وَلَم يُدَشِّنْهُ؟ لِيَذْهَبْ وَيَرْجعْ إِلَى بَيْتِهِ لِئَلاَّ يَمُوتَ فِي الْحَرْبِ فيدشنه رجل آخر وَمَنْ هُوَ الرَّجُلُ الَّذِي غَرَسَ كَرْمًا وَلَمْ يَبْتَكِرْهُ؟ لِيَذْهَبْ وَيَرْجعْ إِلَى بَيْتِهِ لِئَلاَّ يَمُوتَ فِي الْحَرْبِ فَيَبْتَكِرَهُ رَجُلٌ آخَر وَمَنْ هُوَ الرَّجُلُ الَّذِي خَطَبَ امْرَأَةً وَلَمْ يَأْخُذْهَا؟ لِيَذْهَبْ وَيَرْجعْ إِلَى بَيْتِهِ لِئَلاَّ يَمُوتَ فِي الْحَرْبِ فَيَأْخُذَهَا رَجُلٌ آخَر ثُمَّ يَعُودُ الْعُرَفَاءُ يُخَاطِبُونَ الشَّعْبَ وَيَقُولُونَ: مَنْ هُوَ الرَّجُلُ الْخَائِفُ وَالضَّعِيفُ الْقَلْبِ؟ لِيَذْهَبْ وَيَرْجعْ إِلَى بَيْتِهِ لِئَلاَّ تَذُوبَ قُلُوبُ إِخْوَتِهِ مِثْلَ قَلْبِهِ) (سفر التثنية 19: 1-8)

دون أن يسمعوا بوعد الله لإبراهيم -بل بما فعله بالنساء والأطفال والحيوانات - أيضاً - ، وسنرى مثالاً واحداً على ذلك بعد قليل، وسنعود إلى يوشع هذا في مبحث قادم لنرى الفارق بين صورة النبي المحارب والمجاهد في سبيل الله كما تخيله النبي - عليه السلام - وبين يوشع الحقيقي الهمجي ذاك رغم اعتقادنا الكامل أن كاتب سفر يشوع لم يكن يسجل وقائع حقيقية حدثت حقاً وصدقاً، بل كان يسجل أمانيه الإجرامية أكثر مما كان يعبر عن أحداث حقيقية؛ لأننا سنرى كثيراً ممن قتلهم و(حرمهم) يعودون إلى الحياة على صفحات الكتاب المقدس.

وكان من فداحة تلك الأسطورة الكتابية وجموحها، وإغرابها في المبالغة أن شك النقاد في الوجود التاريخي لتلك الشخصية أصلاً، وظنوا أن يوشعاً إنما كان رمزاً من رموز عبادات الشمس؛ لأنه يسير الشمس ويوقفها عن مسيرها، ولكنه في الحقيقة شخص تاريخي فقد جاء ذكر يوشع أو يشوع في نقش فينيقي عُثرَ عليه في قرطاجنة سنة 540م: (إننا خرجنا من ديارنا لكي ننجو بأنفسنا من قاطع الطريق يوشع بن نون [586])، ولكن حتى لو تفهمنا أن تأتي تلك الإشارة السابقة محقرة لشخص يشوع لأنها جاءت من منظور أعدائه وخصومه، لكنها - بكل تأكيد - تظهره كما كان على حقيقته؛ أي مجرد محارب متحجر القلب، ولم يكن محبوب الله الذي يوقف له الأجرام السماوية.

والحديث - أيضاً - يدمج حدثين متباعدين في حدث واحد متصل، وهو ما يحدث كثيرا في القرآن أو في الأحاديث النبوية، وهو الأمر الذي يعطينا فكرة عن مدى إلمام النبي - عليه السلام - بالمرويات التوراتية- التلمودية، فقد كانت معرفة شفاهية لا يُستغرَب معها أن تتداخل فيها الوقائع والأحداث على ذلك النحو، فقد جاءت - مثلاً - حادثة السرقة من الغنائم قبل حادثة وقوف الشمس بمدة غير قليلة، حيث تسببت تلك السرقة من الغنائم في هزيمة العبرانيين أمام أسوار مدينة (عاي)، وبعد أن عوقب السارق المختلس هدأ غضب الرب وتم النصر وفتحت المدينة [587]: (حِينَئِذٍ قَالَ يَشُوعُ لِلرَّبِّ, يَوْمَ أَسْلَمَ الرَّبُّ الأَمُورِيِّينَ أَمَامَ بَنِي إِسْرَائِيلَ, أَمَامَ عُيُونِ إِسْرَائِيلَ: «يَا شَمْسُ دُومِي عَلَى جِبْعُونَ, وَيَا قَمَرُ عَلَى وَادِي أَيَّلُونَ». فَدَامَتِ الشَّمْسُ وَوَقَفَ الْقَمَرُ حَتَّى انْتَقَمَ الشَّعْبُ مِنْ أَعْدَائِهِ. أَلَيْسَ هَذَا مَكْتُوباً فِي سِفْرِ يَاشَرَ؟ فَوَقَفَتِ الشَّمْسُ فِي كَبِدِ السَّمَاءِ وَلَمْ

---

[586] حياة المسيح - عباس العقاد - دار نهضة مصر -2004م - ص 108

[587] انظر سفر يشوع الأصحاح السابع الآيات 21-22)

تَعْجَلْ لِلْغُرُوبِ نَحْوَ يَوْمٍ كَامِلٍ. وَلَمْ يَكُنْ مِثْلُ ذَلِكَ الْيَوْمِ قَبْلَهُ وَلاَ بَعْدَهُ سَمِعَ فِيهِ الرَّبُّ صَوْتَ إِنْسَانٍ. لأَنَّ الرَّبَّ حَارَبَ عَنْ إِسْرَائِيلَ **[588])**.

وأما حادثة وقوف الشمس ومعها القمر - أيضاً - (ولا ندري كيف! ولا ما ضرورته أصلاً؟!) فقد جاءت في واقعة أخرى، وأثناء حرب يشوع ضد تحالف ملكي واسع ضم ملوك أورشليم وحبرون ويرموت ولخيش وعجلون ضد حليفته جبعون، والتي كانت قد عقدت صلحاً ماكرًا مع يشوع، مما أغضب هؤلاء الملوك جميعاً، وجاءوا لحرب حليفته والتي استنجدت بيشوع - ومن غير الضروري - أن نقول بأن جميع هؤلاء الملوك قد هزموا هزيمة منكرة، فقد أسقط الله عليهم حجارة من السماء فقتلت منهم أكثر مما قتل جنود يشوع البواسل بسيوفهم [589]).

وأما ما يعنينا من هذا الحديث فهو أن نتوقف عند بعض الاعتقادات المحمدية التي جاءت في ثناياه ومنها - مثلاً - أن الحديث ينص على أن وقت اشتباك يشوع مع أعدائه كان (وقت صلاة العصر) أو قريباً من هذا الوقت، وهو ما يمكن أن يحمل على وجهين: أولهما أن يشوع قد خشي أن يفلت منه أعداءه بقدوم الليل فينسلون في الظلمة ولا يسعفه الوقت لدحرهم والإجهاز عليهم، كما يمكن أن يُفهَم منه - أيضاً - أن يوشع قد خاف أن يخرج وقت صلاة العصر - تماماً - مثلما حدث مع النبي محمد وأصحابه يوم الخندق فدعا على المشركين قائلاً: (ملأ الله بيوتهم وقبورهم نارا كما شغلونا عن الصلاة الوسطى حتى غابت الشمس[590]).

ومن جانبنا فنحن نرجح هذا الرأي الأخير، وذلك لأننا نجد نصوص التلمود تشدد على حرمة صلاة الأصيل، وتلعن من يؤخرها حتى غروب الشمس: (اللعنة على من

---

[588] (سفر يشوع – 10: 12-15)

[589] (انظر سفر يشوع 10)

[590] انظر الحديث في صحيح الجامع الصغير وزياداته برقم (5887) وكما تر فلم يدع النبي محمد ربه أن يرد عليه الشمس كما فعل أخيه يوشع، ومع ذلك فلم تمض تلك الخارقة اليوشعية دون أن تغري وضاع الأحاديث في اختلاق واقعة مشابهة لبيان فضل علي بن أبي طالب فزعموا أن الشمس قد وقفت لعلي - أيضا - بدعوة من النبي، ولكنها رواية لم تجز على المحدثين فحكموا عليها بالوضع كما في هذا النص (اللهم إن عبدك عليا احتبس نفسه على نبيك، فرد عليه شرقها، (وفي رواية) : اللهم إنه كان في طاعتك وطاعة رسولك فارد عليه الشمس، قالت أسماء، فرأيتها غربت، ثم رأيتها طلعت بعد ما غربت) انظر هذه الحكاية بتمامها في كتاب (سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة- الألباني -دار المعارف، الرياض - المملكة العربية السعودية الطبعة: الأولى، 1992 م الحديث رقم (971)

يؤخر صلاة الأصيل (منحا) حتى غروب الشمس. السبب؟، خشية أن يضيع الوقت ويفوت موعدها [591]).

ولن نتوقف هنا طويلاً عند تلك الخرافة المسفة من وقوف الشمس ليوشع لمجرد أنه كان بحاجة لمزيد من الوقت لكي يدحر أعداءه، فلا حاجة إلى الإشارة إلى أن التوراة ومعها القرآن وبقية الكتب المقدسة لم يكن أصحابها يعرفون شيئاً عن دوران الأرض حول نفسها، وحول محورها، وحول الشمس في ذات الوقت، بل كانوا جميعاً يعتقدون بأن الأرض ثابتة في مكانها لا تتحرك، وأن الشمس هي التي تدور حولها كل يوم [592]، وليس من ضرورة - أيضاً- لأي تأويل مجازي لا يغني من الحق شيئاً، كقول بعضهم أن ذلك الوقوف لم يكن سوى مباركة الرب في الوقت، أو محاولة تقديم تفسير طبيعي

---

[591] انظر كتاب (التلمود كتاب الذكر والصلاة) ص 299) ولعل هذا النص التلمودي السابق يفسر لنا كل تلك الخصوصية التي منحها القرآن وأكدتها الأحاديث النبوية على أهمية تلك الصلاة فقد نص القرآن على وجوب المحافظة على هذا الوقت كما في هذه الآية (حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ (238)البقرة

وأما عن أحاديث النبي التي تشدد على المحافظة على هذا الوقت دون سواه فهي كثيرة جدا ومنها قول النبي : (من ترك صلاة العصر فقد حبط عمله)(رواه البخاري والنسائي وغيره وأنظره في صحيح الترغيب والترهيب برقم (478)، وأيضا قوله : (الذي تفوته صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله)(السابق برقم (480) وسواهما كثير

بل إننا نجد عامة المفسرين يقررون أن تلك الصلاة كانت هي سبب ما أورده القرآن عن قصة سليمان بل أننا نجد عامة المفسرين يقررون أن تلك الصلاة كانت هي سبب ما أورده القرآن عن قصة سليمان : ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَىَّ ۖ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾﴾ [ص : ٣٠ - ٣٣] ومن ذلك (حب الخير : أي حب الخير عن ذكر ربي وهي صلاة العصر لانشغاله باستعراض الخيل للجهاد . حتى توارت بالحجاب : أي استترت الشمس في الأفق وتغطت عن أعين الناظرين)(انظر أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير- الجزائري - ج4 ص 448)

[592] ولقد كان البشر جميعا معذورين في اعتقادهم الخاطئ هذا لأنهم كانوا يرونه يحدث كل يوم أمام أعينهم ولم يخرجوا من هذا التوهم الخاطئ إلا بعد ذلك بمدة طويلة جدا فعرفوا - مثلا - أن تعاقب الليل والنهار إنما يحدث بسبب دوران الأرض حول نفسها وأن دوران الأرض حول الشمس هو ما يأتي بالسنة الشمسية وأما دوران الشمس حول نفسها فينتج عنه الموجات الشمسية .... وحتى بعد أن كف الناس عن هذا الاعتقاد غير العلمي، فقد ظلت كثير من اللغات البشرية تحتفظ بالكلمات التي تترجم عن ذلك الاعتقاد الخاطئ مثل قولهم : (أشرقت الشمس) تعبيرا عن خروجها أول النهار من جهة الشرق و: (غربت الشمس) ؛ أي ذهابها مع نهاية اليوم إلى جهة الغرب لتعود أدرجها إلى الشرق ثانية دون علم منهم بكيفية حدوث ذلك ولكن ذلك كان أمرا يشاهدونه بأبصارهم فكيف يشكون في صحته ؟!

وغنى عن البيان أنه لو وقفت الشمس ليشوع أو لغير يشوع لعرف سكان الأرض جميعا بتلك الخارقة الكونية المذهلة، ولطال الليل في النصف الآخر للكوكب، ولو علم أهل الحضارات القديمة من المصريين والبابليين السبب في ذلك لذهلوا من أن تتوقف الشمس فجأة لهذا السبب العجيب - ؛ أي من أجل تلك الحرب الصغيرة والتافهة والتي كان طرفاها شعبين لا قيمة لهما بين بقية الشعوب المتحضرة ! فلا علينا من نتجاهل هذه المزاعم وأن لا ننظر فيها إلا باعتبارها خرافة كتابية سقيمة ومتابعة محمدية محزنة هذا ولا أكثر ولا أقل !

لتلك الحادثة الإعجازية الخارقة، وما إلى ذلك من تأويلات متكلفة[593]!، فقد وقفت الشمس - دون شك - ليشوع بما يكفي للفراغ من حرب عدوه؛ أي- لعدة ساعات إضافية كما في هذا الحديث-، ووقفت ليوم كامل كما في التوراة التي كان يحب كاتبيها المبالغة الشديدة في وصف أمثال هذه المواقف الخارقة!

لماذا وقفت الشمس ليوشَع؟

أما لماذا وقفت الشمس في هذا الحديث فيمكننا أن نشتم هنا رائحة همّام بن منبه مصدر مرويات أبي هريرة ، والذي كان - ولابد - معتقداً في أن علة هذا الوقوف إنما كان بسبب من حرمة السبت اليهودي، مثلما أشارت إلى ذلك التوراة وأفاضت الحكايات

(593) من المعلوم أنه لم يثر كتاب ديني من الإشكالات مثل ما أثاره الكتاب المقدس عبر القرون، فقد حفل هذا الكتاب العجيب بخوارق لا تحصى وأورد معجزات لا نهاية لها، وبطبيعة الحال فلم يعترض عليها معترض من بين المؤمنين بإلهية مصدره بل آمنوا بها وصدوقها تمام التصديق ! وأيضا لم يتردد المنكرون في رفضها كذلك وفي اعتبارها مجرد خرافات سخيفة لا يقبلها العقل و لا برهان عليها من التاريخ ولكن أساطير الكتاب المقدس - كما يبدو- لا تريد أن ترحل في سلام فنراها تجد من يدافع عنها ويحاول إثبات تاريخيتها سواء أكان من بين المؤمنين بحرفية الكتاب المقدس أو من خارج هؤلاء !

فاذا كان الراحل كمال الصليبي- مثلا - قد حاول الإبقاء على صحة أحداث الكتاب المقدس حتى لو استلزم ذلك منه أن يغير مسرح الحدث التوراتي كله وينقله من أرض العبرانيين إلى جنوب جزيرة العرب! فقد جاءت محاولة أخرى - أكثر جموحا- لتستهدف ذات الغاية، ولكنها فضلت الإبقاء على الجغرافيا وبدلت بدلا من ذلك الأزمنة والتواريخ الثابتة -في دجل علمي من الطراز الأول - مثلما حاول (إيمانويل فليكوفسكي) في كتابه الأشهر : عصور في فوضى فجاء كتابه هذا - مع عظيم الأسف- مثالا نموذجيا على تسخير أعظم تجليات الوعي البشري - وهما الذكاء والثقافة الواسعة- في سبيل الدفاع عن الخرافات الرثة والبالية !

فاذا صعب على أحد - مثلا - أن يصدق كل تلك الخرافات الدينية التي يتشارك فيها اليهود والمسيحيون والمسلمون مثل شق الله البحر لموسى أو إنزال الله المن والسلوى لإطعام العبرانيين الضائعين في الصحراء أو توقف الشمس عن الحركة - يوما كاملا - حتى يكمل يشوع فتوحاته الظافرة الخ فقد جاء هذا الكتاب الفريد كمحاولة مستميتة في الدفاع عن تاريخية تلك الأحداث الوهمية - بتقديم حيلة التفافية بارعة عبر محاولة تقديم تفسير طبيعي لها عن طريق فرضية علمية وهمية - كانت من القوة ومن الإثارة حتى وجب على علماء في قامة كارل ساجان أن يتصدوا لتفنيدها ودحضها - وذلك بالقول بأن مذنبا انفصل عن كوكب المشتري واصطدم بالأرض فأحدث بعض الظواهر الطبيعية الغريبة فهي على هذا مجرد تداعيات طبيعية لكنها اعتبرت في الكتاب المقدس معجزات وخوارق ومن ذلك مثلا أن الأرض قد توقفت عن الدوران فجأة فتوهم العبرانيون بأن الشمس قد توقفت من أجل يشوع فالمهم عنده أن يثبت أن تلك (الخوارق) قد حدثت حقا ودون التمسك باعتبارها معجزات خارقة للطبيعة مما يطيح بالدلالة التي استهدفها كاتب السفر والذي لم يكن ليخطر على باله أن يأتي بعد رحيله بقرون وقرون كاتب يمتلك كل هذا الثقافة وكل هذا الدهاء ليقدم تفسيرا طبيعيا لما نص هو عليه من أن تلك الأحداث إنما هي خوارق إلهية ومعجزات أظهرها الرب من أجل شعبه الحبيب ! ومن جانبنا فإننا لا نشك قد في أن أمثال تلك المجهودات كلها ستذهب أدراج الرياح لأنها في النهاية لا تستهدف الحقيقة بل تسخر المعارف العلمية من أجل إثبات الأباطيل والخرافات فياله من جهد ضائع !

(انظر عصور في فوضي - إيمانويل فليكوفسكي - ترجمة احمد عمر شاهين - رفعت السيد على - فاروق فريد - محمد جلال عباس - الطبعة الأولى 2002م - العروبة للدراسات والنشر - عوالم في تصادم - ترجمة محمد جلال عباس ج1ص 71-77)

التلمودية [594]، ولقد سار كثير من شراح الأحاديث من قدامى ومحدثين خلف هذا التعليل[595]، وهو ما لم يتضمنه هذا الحديث صراحةً، بل اكتفي بالقول بأنها وقفت بما يكفي لكي يحصد نبي الله يشوع ثمار نصره وكفي، رغم أنه ليس غريباً أن يكون هو المقصود - أيضاً- في هذا الحديث، فلقد نص القرآن على أن السبت كان يوماً مقدساً وهاجم اليهود مراراً على أنهم كان يخالفون شريعة السبت وينتهكون حرمته بحيل لا نشك في أن ورائها قصص تلمودية جاءت لتعظيم حرمة السبت[596]).

كيف علم يشوع بالسارق؟

أما عن تلك الوسيلة التي استخرج بها يشوع السارق من بين جموع الشعب فقد كانت طريقة يدوية معقدة حقاً - كما سنرى في النص القادم - وكان من الأيسر- بكل تأكيد - أن يوحي الرب ليوشع باسم ذلك الرجل ويجعله يقر بجريمته، ويدعه يُخرج أمام الشعب ما دسه في خيمته وكفي، ولكن هكذا شاءت إرادة الرب، وهكذا صدق النبي !

---

[594] (وقد وقعت هذه المعركة في يوم الجمعة وكان يشوع يعلم أن الشعب سيسؤءه كثيرا أن يضطر إلى انتهاك حرمة السبت المقدس . كما أنه لاحظ أن الكنعانيين الوثنيين يلجئون إلى السحر والعرافة لكي تساعدهم الأرواح السماوية في حربهم ضد بني إسرائيل . ولهذا فقد تلفظ يشوع باسم الرب الإله فتوقفت الشمس والقمر والنجوم وثبت كل منها في مكانه)(انظر - أساطير اليهود من التلمود ج4 ص 20)

[595](ونحن إنما علمنا وقوفها ليوشع بخبر النبي صلى الله عليه وسلم، وأيضا لا مانع من طول ذلك، ولوشاء الله لفعل ذلك، لكن يوشع كان محتاجا إلى ذلك لأن القتال كان محرما عليه بعد غروب الشمس، لأجل ما حرم الله عليهم من العمل ليلة السبت ويوم السبت وأما أمة محمد فلا حاجة لهم إلى ذلك، ولا منفعة لهم فيه)(من تعليق المحدث الشيخ الألباني على حديث يوشع كما جاء في الصحيحين انظر (سلسلة الاحاديث الضعيفة (ج2 ص 398)

[596] وهذا الحديث وإن جاء كثير غيره من طريق همام ابن منبه،ولكننا لا نشك في إمكانية صدوره عن النبي لأن القرآن الكريم قد حكى لنا ما يكفي لكى نعلم بمعرفة النبي بشيء عن أخبار يشوع كما جاء في سورة المائدة : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُواْ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُواْ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [المَائـِدَة : ٢٠ - ٢٣] .

وهذا ما يوافق الرواية التوراتية التي جعلت من يشوع أحد الرجلين الذين تحمسا للحرب والدخول في حرب ناجزة مع المديانيين فقد أورد سفر يشوع أن موسى أرسل رؤساء بني إسرائيل للتجسس على الأرض والذين عادوا بتقريرهم عن تلك البلاد وقوة أهلها وهو ما ألقى الرعب في قلوب شعب الرب فعوقبوا تلك العقوبة الشديدة من حرمانهم دخول الأرض المقدسة وموتهم جميعا قبل دخول أولادهم إليها !

(فَقَالَ الرَّبُّ لِيَشُوعَ: «قُمْ! لِمَاذَا أَنْتَ سَاقِطٌ عَلَى وَجْهِكَ؟ قَدْ أَخْطَأَ إِسْرَائِيلُ, بَلْ تَعَدُّوا عَهْدِي الَّذِي أَمَرْتُهُمْ بِهِ, بَلْ أَخَذُوا مِنَ الْحَرَامِ, بَلْ سَرِقُوا, بَلْ أَنْكَرُوا, بَلْ وَضَعُوا فِي أَمْتِعَتِهِمْ. فَلَمْ يَتَمَكَّنْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِلثُّبُوتِ أَمَامَ أَعْدَائِهِمْ. يُدِيرُونَ قَفَاهُمْ أَمَامَ أَعْدَائِهِمْ لأَنَّهُمْ مَحْرُومُونَ, وَلاَ أَعُودُ أَكُونُ مَعَكُمْ إِنْ لَمْ تُبِيدُوا الْحَرَامَ مِنْ وَسَطِكُمْ. قُمْ قَدِّسِ الشَّعْبَ وَقُلْ: تَقَدَّسُوا لِلْغَدِ. لأَنَّهُ هَكَذَا قَالَ الرَّبُّ إِلَهُ إِسْرَائِيلَ: فِي وَسَطِكَ حَرَامٌ يَا إِسْرَائِيلُ, فَلاَ تَتَمَكَّنُ لِلثُّبُوتِ أَمَامَ أَعْدَائِكَ حَتَّى تَنْزِعُوا الْحَرَامَ مِنْ وَسَطِكُمْ. فَتَتَقَدَّمُونَ فِي الْغَدِ بِأَسْبَاطِكُمْ, وَيَكُونُ أَنَّ السِّبْطَ الَّذِي يَأْخُذُهُ الرَّبُّ يَتَقَدَّمُ بِعَشَائِرِهِ, وَالْعَشِيرَةُ الَّتِي يَأْخُذُهَا الرَّبُّ تَتَقَدَّمُ بِبُيُوتِهَا, وَالْبَيْتُ الَّذِي يَأْخُذُهُ الرَّبُّ يَتَقَدَّمُ بِرِجَالِهِ. وَيَكُونُ الْمَأْخُوذُ بِالْحَرَامِ يُحْرَقُ بِالنَّارِ هُوَ وَكُلُّ مَا لَهُ, لأَنَّهُ تَعَدَّى عَهْدَ الرَّبِّ, وَلأَنَّهُ عَمِلَ قَبَاحَةً فِي إِسْرَائِيلَ». فَبَكَّرَ يَشُوعُ فِي الْغَدِ وَقَدَّمَ إِسْرَائِيلَ بِأَسْبَاطِهِ, فَأُخِذَ سِبْطُ يَهُوذَا. ثُمَّ قَدَّمَ قَبِيلَةَ يَهُوذَا فَأُخِذَتْ عَشِيرَةُ الزَّارَحِيِّينَ. ثُمَّ قَدَّمَ عَشِيرَةَ الزَّارَحِيِّينَ بِرِجَالِهِمْ فَأُخِذَ زَبْدِي. فَقَدَّمَ بَيْتَهُ بِرِجَالِهِ فَأُخِذَ عَخَانُ بْنُ كَرْمِي بْنِ زَبْدِي بْنِ زَارَحَ مِنْ سِبْطِ يَهُوذَا. فَقَالَ يَشُوعُ لِعَخَانَ: «يَا ابْنِي, أَعْطِ الآنَ مَجْداً لِلرَّبِّ إِلَهِ إِسْرَائِيلَ, وَاعْتَرِفْ لَهُ وَأَخْبِرْنِي الآنَ مَاذَا عَمِلْتَ. لاَ تُخْفِ عَنِّي». فَأَجَابَ عَاخَانُ يَشُوعَ: «حَقّاً إِنِّي قَدْ أَخْطَأْتُ إِلَى الرَّبِّ إِلَهِ إِسْرَائِيلَ وَصَنَعْتُ كَذَا وَكَذَا. رَأَيْتُ فِي الْغَنِيمَةِ رِدَاءً شِنْعَارِيّاً نَفِيساً, وَمِئَتَيْ شَاقِلِ فِضَّةٍ, وَلِسَانَ ذَهَبٍ وَزْنُهُ خَمْسُونَ شَاقِلاً, فَاشْتَهَيْتُهَا وَأَخَذْتُهَا. وَهَا هِيَ مَطْمُورَةٌ فِي الأَرْضِ فِي وَسَطِ خَيْمَتِي, وَالْفِضَّةُ تَحْتَهَا». فَأَرْسَلَ يَشُوعُ رُسُلاً فَرَكَضُوا إِلَى الْخَيْمَةِ وَإِذَا هِيَ مَطْمُورَةٌ فِي خَيْمَتِهِ وَالْفِضَّةُ تَحْتَهَا. فَأَخَذُوهَا مِنْ وَسَطِ الْخَيْمَةِ وَأَتُوا بِهَا إِلَى يَشُوعَ وَإِلَى جَمِيعِ بَنِي إِسْرَائِيلَ, وَبَسَطُوهَا أَمَامَ الرَّبِّ.[597])

والعجيب أننا سنجد الشملة (وهي كساء من القطيفة يتشح بها) ستكون من أظهر مظاهر الغلول من الغنائم في غزوات النبي، وسيكون هذا الحديث من بين الأسباب التي ستجعل النبي محمد بالغ الصرامة مع من يخالفون هذا النهي، حتى لو كان السارق عبدا مسكيناً، ولعله عاش يتمنى أن يرتدي ولو مرة واحدة في حياته حُلة فاخرة، لكنه لن يجد متسعاً من رحمة النبي حتى بعد أن فقد حياته في أحد حروبه كما يقول هذا الحديث الموجع للقلب: (عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: خرجنا مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى خيبر، ففتح الله علينا، فلم نغنم ذهباً ولا ورقاً، غنمنا المتاع والطعام والثياب، ثم انطلقنا إلى الوادي (يعني وادي القرى) ومع رسول الله - صلى الله عليه

[597] (سفر يشوع الإصحاح السابع - الآيات 10-27)

وسلم - عبد له وهبه له رجل من بني جذام، يدعى رفاعة بن زيد من بني الضبيب، فلما نزلنا الوادي قام عبد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يحل رحلة، فرمى بسهم، فكان فيه حتفه، فقلنا: هنيئاً له الشهادة يا رسول الله! قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم: كلا والذي نفس محمد بيده، إن الشملة لتلتهب عليه ناراً، أخذها من الغنائم؛ لم تصبها المقاسم" قال: ففزع الناس، فجاء رجل بشراك أو شراكين؛ فقال: أصبت يوم خيبر. فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم "شراك من نار، أو شراكان من نار".[598])

عقوبة الغلول

ربما يصلح هذا الحديث لبيان الفارق البعيد بين ما كانت عليه شخصيات العهد القديم الحقيقية وبين ما صارت إليه حيث ابتدأت المرويات التلمودية عملية تجميل تلك الملامح البشعة، وسيستكمل النبي محمد بدوره مهمة تزيين صورة رجال العهد القديم لتكون المسافة بين يشوع الحقيقي وبين يشوع الوهمي هي ذات المسافة الشاسعة التي ارتقت فيها صورة يشوع الحقيقية من كونه فاتحاً عسكرياً قاسياً، والغاً في الدماء كما يظهر في هذا السِفر ليصير يشوع بعدها في الموروث اليهودي - المسيحي (رجل الله) ثم تكتمل صورته في الإسلام ليصير(نبي الله)، ولعل المقارنة بين موقف يوشع من السارق في العهد القديم وبين موقفه في هذا الحديث يجلي لنا هذه النقطة إلى حد كبير: (فَأَخَذَ يَشُوعُ عَخَانَ بْنَ زَارَحَ وَالْفِضَّةَ وَالرِّدَاءَ وَلِسَانَ الذَّهَبِ وَبَنِيهِ وَبَنَاتِهِ وَبَقَرَهُ وَحَمِيرَهُ وَغَنَمَهُ وَخَيْمَتَهُ وَكُلَّ مَا لَهُ, وَجَمِيعُ إِسْرَائِيلَ مَعَهُ, وَصَعِدُوا بِهِمْ إِلَى وَادِي عَخُورَ. فَقَالَ يَشُوعُ: «كَيْفَ كَدَّرْتَنَا؟ يُكَدِّرُكَ الرَّبُّ فِي هَذَا الْيَوْمِ!» فَرَجَمَهُ جَمِيعُ إِسْرَائِيلَ بِالْحِجَارَةِ وَأَحْرَقُوهُمْ بِالنَّارِ وَرَمُوهُمْ بِالْحِجَارَةِ وَأَقَامُوا فَوْقَهُ رُجْمَةَ حِجَارَةٍ عَظِيمَةً إِلَى هَذَا الْيَوْمِ. فَرَجَعَ الرَّبُّ عَنْ حُمُوِّ غَضَبِهِ. وَلِذَلِكَ دُعِيَ اسْمُ ذَلِكَ الْمَكَانِ «وَادِيَ عَخُورَ» إِلَى هَذَا الْيَوْمِ[599]).

[598] الحديث رواه البخاري ومسلم والنسائي، وانظر هذه الرواية في صَحِيحُ التَّرْغِيب وَالتَّرْهِيب برقم (1549) وهناك أحاديث أخرى تتردد فيها الشملة

[599] (انظر - سفر يشوع الأصحاح السابع الآيات 24 إلى 27)، مع ملاحظة أن سفر يشوع ينص على سارق واحد بينما يقول الحديث النبوي باشتراك عدة سارقين من الغنيمة

وبينما لم يقصص لنا الحديث شيئاً عن مصير هذا السارق أو المختلس من الغنائم قبل تقسيمها [600]، فلا نشك في أن النبي محمداً لو كان قد نص على ما فعله ذلك النبي بالسارق، فلربما كان ينتظر منه أن يقول بأن (نبي الله يوشع)، قد قضى بقطع يده أو حتى بقتله وكفى!، ولكن التوراة فعلت ذلك - وليتها ما فعلت- فقد نصت على أن يشوع قد رجم الرجل ومعه بنيه جميعاً بالحجارة ثم أحرق جثثهم بالنار، ولم يقم بعد ذلك بدفنهم، بل جعل بني إسرائيل يواصلون رجمهم فيراكمون الحجارة عليهم حتى صارت جثثهم أسفل رابية مرتفعة، وتركت تلك الرابية على حالها إلى وقت تسجيل تلك القصة الأليمة .

وقد أحرجت تلك القصة بفظاظتها ووحشيتها ملايين الأرواح الحساسة من المؤمنين بحرفية الكتاب المقدس من اليهود والمسحيين، والذين قدموا لها تبريرات هي الغاية في السخف للدفاع عن تلك الممارسات الوحشية والتي كانت شيئاً - في الحقيقة - أمرا طبيعياً في تلك الأزمنة القديمة، ولكن لأن يوشع لم يكن في اعتقادهم فاتحاً عسكرياً ينتظر منه ما ينتظر من غيره من الفاتحين المتجبرين، بل كان كما يقول الكتاب المقدس (رجل الله)؛ لذا فقد اضطروا إلى الدفاع والاعتذار، بل ذهبوا إلى ما هو أبعد من ذلك فقد ألقوا باللائمة على جميع ضحايا يشوع وجعلوه منفذا لإرادة الله [601] (وَيَكُونُ الْمَأْخُوذُ بِالْحَرَامِ يُحْرَقُ بِالنَّارِ هُوَ وَكُلُّ مَا لَهُ، لأَنَّهُ تَعَدَّى عَهْدَ الرَّبِّ) والحقيقة الواضحة أن يشوع كان ينفذ شريعة الرب، لأنه هو الذي قضى بإحراق الرجل وكل ماله، ولا شك أن أبناء الرجل ونساءه ومتاعه - في شريعة ذلك الزمان كانوا من بين ما يملك ، فلماذا يُلام يشوع إذن إن كانوا يعتقدون حقا في أن تلك العقوبة الإجرامية إنما كانت تطبيقا لإرادة هذا الإله البربري البغيض؟!

---

[600] أولا لأن النبي لم يحدد عقوبة دنيوية واضحة لتلك الجناية فلم تعتبرها الشريعة الإسلامية سرقة مثل غيرها من السرقات والتي توجب حال ثبوتها قطع يد السارق ؛ لأن ذلك يستلزم - كما يقول الفقهاء - أن يكون المال المسروق مالا مقوما، ويكون في حرز مصون لا مبذولا أمام كل آخذ و - أيضا - تطبيقا لتلك القاعدة النبوية الطيبة من درأ للحدود بالشبهات فلم يكن من المنتظر أن يتم قطع يد الغال والآخذ من الغنيمة ؛ لأن له حقا في تلك الغنائم بعدما تقسم بين المحاربين ؛ لذا فقد كانت شبهة واحدة تكفي لعدم قطع يده، واكتفي النبي بالتخويف من العقاب الأخروي

[601] (وكان على بني إسرائيل أن يوجهوا أولاً دعوة للمسالمة (عد 21: 21، تث 20: 10 و 11)، ولكنها كانت تواجه بالرفض، ويبادرهم الكنعانيون بالحرب، وكان الذنب هو ذنب ملوكهم ورؤسائهم، ولكن كل ما حدث كان دليلًا على هيمنة الله على أحداث التاريخ، وهو ما يذكره الكتاب المقدس صراحة: "لأنه كان من قبل الرب أن يشدد قلوبهم حتى يلاقوا إسرائيل للمحاربة فيحرّموا، فلا تكون عليهم رأفة، بل يُبادون كما أمر الرب موسى" (يش 11:20)، كما حدث مع فرعون (خر 7: 3 و 13 و22 و15:8 إلخ). وفي تلك الأحداث نرى مسئولية الإنسان وسلطان الله المطلق يسيران معًا.) (راجع دائرة المعارف الكتابية، المجلد الثامن صـــ280)

النبي محمد والغلول

﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ ﴾ [آل عِمۡرَان : 161] .

أما لماذا اختار النبي هذه القصة من بين القصص كثير من القصص الأخرى- والتي كان - ولا - شك على إلمام بها- فلربما كانت مناسبة لتبرير اختصاصه وأمته بالغنائم، ولا ندري لماذا جعل النبي من حل الغنائم وإباحتها خصيصة لأمته؟،
دون بقية أمم الأنبياء السابقين رغم أن إدراجها ضمن الشريعة القديمة ربما كان أنفي لبعض الحرج من استباحة الأموال والأنفس، خاصة لمن يريد نشر رسالة الله، وليس لخصومة قومية، ولربما كان من خلف اختيار هذه القصة سببا شخصياً ؛ فمن الأحداث المؤسفة التي تعرض لها النبي - عليه السلام - أنه اتهم باختلاس شيء من الغنائم من قبل بعض المنافقين: (واختلف المفسرون في السبب الذي أوجب أن ينفي الله تعالى عن النبي أن يكون غالا على هذه القراءة- التي هي بفتح الياء وضم الغين، فقال ابن عباس وعكرمة وسعيد بن جبير وغيرهم: نزلت بسبب قطيفة حمراء فقدت من المغانم يوم بدر، فقال بعض من كان مع النبي صلى الله عليه وسلم: لعل رسول الله أخذها فنزلت الآية قال القاضي أبو محمد: قيل: كانت هذه المقالة من مؤمنين لم يظنوا أن في ذلك حرجا، وقيل كانت من منافقين، وقد روي أن المفقود إنما كان سيفا،...[602]).
ومن يتأمل بعض الوقائع التي قدر للنبي - عليه السلام - أن يلقاها في حياته فلا يسعه سوى الألم لأن يتعرض رجل نبيل مثله لمثل هذه التهم الوضيعة، والتي يتنزه عنها ممن هم دون قامته الأخلاقية والإنسانية بكثير، فقد كان النبي بين معاصريه كنخلة شاهقة بين عشب قصير، ولقد كان النبي من هذه الناحية ؛ أي المال وحيازته - ينطوي على ما يمكن أن يسمى بالزهد الطبيعي فلم يكن يأبه بالمال ولا بأصحابه - ولكنه على كل حال صبر عن تهم الصغار هؤلاء، وجاءت تلك الآية لتنفي عنه ومعه كل نبي أمثال هذه التهم الساقطة والتافهة.

---

(602) انظر : المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز- ابن عطية الأندلسي - تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد - دار الكتب العلمية - بيروت الطبعة: الأولى - 1422 ه - ج1 ص 535

هل حقاً حرمت الشريعة اليهودية الغنائم ؟

من بين ما يثيره هذا الحديث من إشكالات؛ أنه يتابع ما جاء في أحاديث نبوية أخرى تنص على تحريم الغنائم في الشريعة اليهودية، وتقرر بأن حل الغنائم للمحاربين هو من بين ما فضل الله به النبي محمد وأمته على بقية الأمم كما في هذا الحديث: (فضلت على الأنبياء بست: أعطيت جوامع الكلم ونصرت بالرعب وأحلت لي الغنائم وجعلت لي الأرض طهورا ومسجدا وأرسلت إلى الخلق كافة وختم بي النبيون[603])، ولكن الحقيقة الواضحة هي أن الشريعة اليهودية لم تحرم الغنائم أبداً، بل نصت مراراً على طريقة تقسيمها، وحفلت نصوص العهد القديم بتفاصيل توزيع الغنائم عند ذكرها لحروب العبرانيين مع جيرانهم فلقد نصت التوراة على تقسيم الغنائم وخصصت جزءاً منها لله رب الجنود - والذي كان يذهب بطبيعة الحال إلى الكهنة واللاويين حيث إنهما كانا يمثلان السلطة الدينية قبل أن يعرف العبرانيون النظام الملكي في عهد شاؤول-، وأما عن الشعب فقد كانت الغنيمة تقسم إلى قسمين ؛ نصف يوزع على الجنود، ونصف يوزع على الشعب غير المحارب - فمثلاً - عندما هزم بنو إسرائيل المديانيين أخذوا (نساء مديان وأطفالهم ونهبوا جميع بهائمهم وجميع مواشيهم وكل أملاكهم ... وأخذوا كل الغنيمة وكل النهب من الناس والبهائم) وأتوا بالجميع إلى المحلة أمام موسى وألعازار الكاهن (عدد 31: 11-12) فأمر الرب أن تنصف الغنيمة (بين الذين باشروا القتال الخارجين إلى الحرب وبين كل الجماعة)، وأن ترفع منها زكاة الرب وتعطى (لألعازار الكاهن رفيعة للرب) (عدد 31:25-30)، وكان الجنود يدفعون للكهنة زكاة مقدارها واحد من كل خمس مئة جزء؛ أي اثنين في الألف، وأما الشعب فكان يدفع زكاة واحد إلى خمسين؛ أي اثنين في المئة مما يحصل عليه من غنائم الحرب، وأما المعادن فلم تكن توزع بل كانت تودع في المعبد (سفر يشوع :6) ثم أدخلت تعديلات بعد نشوء الملكية لا موضع لها هنا.

---

(603) انظر هذه الرواية في (صحيح الجامع الصغير وزياداته للألباني برقم (4222)

الحديث السابع
رجل المقبرة .

(عن جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: خرجت طائفة من بني إسرائيل حتى أتوا مقبرة لهم من مقابرهم فقالوا : لو صلينا ركعتين ودعونا الله عز وجل أن يخرج لنا رجلاً ممن قد مات نسأله عن الموت قال: ففعلوا. فبينما هم كذلك إذ أطلع رجل رأسه من قبر من تلك المقابر خلاسي بين عينيه أثر السجود فقال: يا هؤلاء ما أردتم إلي؟ فقد مت منذ مائة سنة فما سكنت عني حرارة الموت حتى كان الآن فادعوا الله عز وجل لي يعيدني كما كنت[604]).

(قال صلى الله عليه وسلم : حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج فإنه كانت فيهم الأعاجيب ثم أنشأ يحدث قال: خرجت طائفة من بني إسرائيل حتى أتوا مقبرة لهم من مقابرهم فقالوا: لو صلينا ركعتين ودعونا الله عز وجل أن يخرج لنا رجلاً ممَن قد مات نسأله عن الموت قال: ففعلوا. فبينما هم كذلك إذ أطلع رجل رأسه من قبر من تلك المقابر خلاسي بين أعينه أثر السجود فقال يا هؤلاء ما أردتم إلي؟ فقد مت منذ مائة سنة فما سكنت عني حرارة الموت حتى كان الآن فادعوا الله عز وجل لي يعيدني كما كنت[605].)

هنا نجد جماعة من اليهود الفضوليين يخرجون إلى المقابر ويصلون لله ركعتين من غير المكتوبة، فقد كانت صلاة حاجة، ولم تكن حاجتهم إلى الله سهلة أو ميسورة، فقد أرادوا أن يعلموا ما يشعر به المرء عند الموت من فم إنسان ذاق الموت وعاينه بنفسه، وبينما هم يصلون ويناجون؛ إذ حقق لهم الله ما أرادوا وأخرج لهم رجلاً خلاسياً - ؛ أي هجيناً تغلب عليه السُمرة - ليحتج على فضولهم المزعج له، ولكنه على كل حال أخبرهم بما أرادوا ؛ فقد أخبرهم بأن الموت وانتزاع الروح من البدن مذاقه أليم شديد، حتى على أمثاله من المؤمنين الصالحين ممن تعلوا جباههم آثار السجود، وقد مضت عليه مائة سنة كاملة ظل يعاني فيها من تلك الكربة وأوجاعها، ولم تغادره الآلام إلا لحظة إخراجه من مقبرته راجياً منهم أن يصلوا لله كي يعيده إلى حياته البرزخية فينام قرير العين كما استجاب لهم بإحيائه وإخراجه إليهم.

---

[604] صححه الشيخ ناصر الدين الألباني في سلسلة الاحاديث الصحيحة (6-1028) ورقمه 1209

[605]- (السلسلة الصحيحة برقم 2926)

وليس من حاجة للقول بأن التشابه بين ما جاء به الإسلام وما اعتقده النبي عن حياة اليهود الدينية واضح ولا يحتاج إلى بيان، حتى إننا لن نجد غرابة لو وجدنا شبيهاً لهذه القصة بين الكتب التي تذكر مناقب الصوفية المسلمين، أو قصصا تحكى كرامة من كرامات لبعض السلف الصالح.

فهنا نجد اليهود يصلون كصلاة المسلمين مما يُرجح - ما نعتقده - من إيمان النبي بأن صلاة اليهود الأقدمين كانت مثل صلاة المسلمين - تماماً - ؛ أي صلاة ذات ركوع وسجود، ويتوجه بالنوافل منها إلى الله لقضاء الحاجات، ونجد تلك الجماعة تصف الله (عز وجل)، وكذا الرجل المتكلم من قبره.

ويدل هذا الحديث - وكثير مثله - على بيان شدة معاناة الإنسان عند موته حتى لو كان رجلاً صالحاً مثل ذاك الميت الذي كان أثر السجود ظاهراً بين عينيه، ولدينا أحاديث أخرى كثيرة تتكلم عن صعوبة خروج الروح من البدن، رغم أنها تلطفت في النهاية وظلت تلك الشدة مخصوصة بالكافرين والمنافقين .

وهذه القصة تثبت لنا - كذلك - الاعتقاد الإسلامي بإمكانية حدوث الكرامة للصالحين من المؤمنين من الأمم السابقة كما حدث لهؤلاء الصالحين من بني إسرائيل؛ فالله لا يستجيب لكل أحد دعاه لأن يشهد بأم عينيه تلك العجيبة الخارقة للعادة، بأن يحيي الله له ميتاً لكي يسائله عن الموت وأهواله.

ولا نشك في أن هذه القصة إنما هي مروية تلمودية متأخرة لم تصلنا ؛ لأننا نجد النبي يصرح بأنها من بين الأعاجيب التي حفلت بها حياة اليهود كما تدل عليه هذه الرواية الثانية عن ذات القصة.

وأما عن تأخر تلك القصة وانتمائها إلى عالم المرويات التلمودية، فيكفي للتدليل على ذلك ما تثبته تلك الرواية من اعتقاد اليهود عن حياة ما بعد الموت، وكما نعلم فلم يكن العبرانيون يعتقدون في شيء من هذا إلا في المرحلة الأخيرة من مراحل تطور اعتقادهم الديني؛ فآمنوا بالحياة الأخرى بعد أن كانوا - كغيرهم من الأمم الأخرى - يرون أن الموت إنما هو نقلة للأحياء إلى عالم سفلي مقبض، تتكدس فيه الأرواح جميعا صالحة وطالحة، ودونما أمل في العودة إلى الحياة، بل تظل هناك تعاني من الظلمة إلى الأبد، ولعل هذه القصة إنما كانت تنويعة قصصية متأخرة وراقية عن قصة ساحرة

(عين دور)، ولعل أظهر المشابهة بينهما هي أن في كليهما تخرج روح الميت رغماً عنها، فلنكتف بالتذكير بها.

الحديث الثامن
سارة الفاتنة والجبار

روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (هاجر إبراهيم عليه السلام بسارة فدخل بها قرية فيها ملك من الملوك أو جبار من الجبابرة فقيل دخل إبراهيم بامرأة هي من أحسن النساء فأرسل إليه أن يا إبراهيم من هذه التي معك ؟ قال أختي ثم رجع إليها فقال: لا تكذبي حديثي فإني أخبرتهم أنك أختي والله إن على الأرض مؤمن غيري وغيرك فأرسل بها إليه فقامت توضأ وتصلي فقالت: اللهم إن كنت آمنت بك وبرسولك وأحصنت فرجي إلا على زوجي فلا تسلط على هذا الكافر فغط حتى ركض برجله) قال عبد الرحمن : قال أبو سلمة : قال أبو هريرة فقالت: (اللهم إن يمت فيقال هي قتلته فأرسل في الثانية أو في الثالثة فقال : والله ما أرسلتم إليّ إلا شيطاناً، أرجعوها إلى إبراهيم، وأعطوها أجر فرجعت إلى إبراهيم عليه السلام فقالت: أشعرت أن الله كبت الكافر وأخدم وليدة)

وفي رواية أخرى في صحيح البخاري عَن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ (لَمْ يَكْذِبْ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَام إِلَّا ثَلَاثَ كَذَبَاتٍ ثِنْتَيْنِ مِنْهُنَّ فِي ذَاتِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ قَوْلُهُ (إِنِّي سَقِيمٌ) وَقَوْلُهُ (بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا) وَقَالَ بَيْنَا هُوَ ذَاتَ يَوْمٍ وَسَارَةُ إِذْ أَتَى عَلَى جَبَّارٍ مِنْ الْجَبَابِرَةِ فَقِيلَ لَهُ إِنَّ هَا هُنَا رَجُلًا مَعَهُ امْرَأَةٌ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ فَسَأَلَهُ عَنْهَا فَقَالَ مَنْ هَذِهِ؟ قَالَ أُخْتِي فَأَتَى سَارَةَ قَالَ يَا سَارَةُ لَيْسَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ مُؤْمِنٌ غَيْرِي وَغَيْرَكِ وَإِنَّ هَذَا سَأَلَنِي فَأَخْبَرْتُهُ أَنَّكِ أُخْتِي فَلَا تُكَذِّبِينِي فَأَرْسَلَ إِلَيْهَا فَلَمَّا دَخَلَتْ عَلَيْهِ ذَهَبَ يَتَنَاوَلُهَا بِيَدِهِ فَأُخِذَ فَقَالَ ادْعِي اللَّهَ لِي وَلَا أَضُرُّكِ فَدَعَتْ اللَّهَ فَأُطْلِقَ ثُمَّ تَنَاوَلَهَا الثَّانِيَةَ فَأُخِذَ مِثْلَهَا أَوْ أَشَدَّ فَقَالَ ادْعِي اللَّهَ لِي وَلَا أَضُرُّكِ فَدَعَتْ فَأُطْلِقَ فَدَعَا بَعْضَ حَجَبَتِهِ فَقَالَ إِنَّكُمْ لَمْ تَأْتُونِي بِإِنْسَانٍ إِنَّمَا أَتَيْتُمُونِي بِشَيْطَانٍ فَأَخْدَمَهَا هَاجَرَ فَأَتَتْهُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فَأَوْمَأَ بِيَدِهِ مَهْيَم؟ قَالَتْ رَدَّ اللَّهُ كَيْدَ الْكَافِرِ أَوْ الْفَاجِرِ فِي نَحْرِهِ وَأَخْدَمَ هَاجَرَ) قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ تِلْكَ أُمُّكُمْ يَا بَنِي مَاءِ السَّمَاءِ [606]) .

---

[606] الرواية الأولى رواها البخاري في صحيحه في كتاب البيوع باب شراء المملوك من الحربى وهبته وعتقه 4- 410 ورقم الحديث، 2217والرواية الثانية أوردها في كتاب الأنبياء باب قوله تعالى (واتخذ الله إبراهيم خليلا)6 -388 ورقمه 3358

هذا الحديث يحكي لنا عن تعرض إبراهيم -عليه السلام - بعد هجرته من أرض قومه - التي غادرها مفارقا عقيدة أهلها، ومهاجراً إلى ربه - لمحنة قاسية شديدة ؛ إذ لاقى في طريق هجرته هذه التجربة المحزنة. فقد دخل إبراهيم بزوجته الحسناء - رغم تقدم سنها - قرية بها ملك جبار فاسق كان يستبيح لنفسه أن يسطو على الداخلين بأرضه فيأخذ منهم كل ما يعجبه من النساء، وخاصةً العازبات منهن، ومن كانت منهن ذات زوج قتل زوجها واصطفى امرأته فخاف إبراهيم هذا الملك الطاغية، وأوصى سارة الفاتنة كي تقول للملك الجبار مثل الذي قاله له ؛ أي بأنها أخته، وليست زوجا له - وهو ليس كذباً خالصاً على كل حال - فهما في النهاية أخوان في الدين والعقيدة. وعندما أراد الملك بها سوءاً منعها الله منه فأصابه الخناق في الرواية الأولى، وجعلت الرواية الثانية الملك الشهواني الداعر وقد رأى صلاح المرأة وأنها ممنوعة منه أن تدعو له الله فاستجاب الله دعاءها وصرف عنه ما حل به، وعندما غلبته شهوته وهمّ بها في المرة الثانية زاد الله من أوجاعه فأمر بصرفها بعيدا عنه وردها على زوجها المغلوب على أمره بل ومنحها أمة تخدمها، ولا ندري في الحقيقة ما ضرورة تلك الهدية إن لم تكن مكافأة لها على استمتاعه بجمالها وإذا كان الملك الفاسق لم ير في سارة سوى شيطانة؟!

والتوراة - كما نعلم - لا تحكي لنا شيئاً عن هجرة دينية لإبراهيم، بل تكتفي بذكر اصطفاء الله لإبراهيم من دون الناس ودعوته إلى الذهاب إلى الأرض التي منحها الله إياه ووعده بها ولأعقابه من بعده، لكن هذا الحديث يتابع ما جاء به القرآن فيجعل منها هجرة إلى الله، ومفارقة لدار الكفر، حتى إننا نجد سارة تنعت الملك بأنه كافر.

ونلاحظ أن هذا الحديث لا يذكر لنا فرعون مصر صراحة، ويكتفي أن يسميه جبارا من الجبابرة، إلا أننا لا نشك في أن النبي كان يقصد ملكاً مصرياً ؛ لأن مصرية هاجر مما جاءت به السنة الصحيحة [607]، وهو ما قرره جميع شراح الحديث وإن كنا لا ندري- في الحقيقة - لم خلت الرواية الحديثية من القول بأنه ملك مصري رغم أن التوراة ومعها القصص الأجادية تقولان معا بذلك؟!

(607)- مثلما جاء في أمثال هذه الاحاديث (إذا فتحتم مصر فاستوصوا بالقبط خيرا فان لهم ذمة ورحما)(السلسلة الصحيحة للشيخ الألباني- 3\362) وكذا ما جاء في صحيح مسلم بلفظ : (إنكم ستفتحون مصر وهي أرض يسمى فيها القيراط فاذا فتحتموها فأحسنوا إلى أهلها فإن لهم ذمة ورحما) أو قال (ذمة وصهرا)(أخرجه مسلم برقم (2543)

أما عن زيارة إبراهيم لمصر فهي مما لم يأت على ذكره القرآن لكن هذا الحديث يورد هذه الزيارة دون أن يذكر لها سبباً، اللهم إلا إذا كان النبي كان يريد القول بأن إبراهيم قد مر بمصر في طريقه إلى الأرض المقدسة، ولم يكن يقرر بأن إبراهيم كان يعيش في البلاد المقدسة، واضطره أمر طارئ جعله يغادرها وينزل منها إلى مصر كما نصت التوراة وتابعتها على ذلك القصص التلمودية: (وافق ما ورد في التوراة ما أشارت إليه الأحاديث من أن القصة وقعت في أرض مصر ولا ندري إن كان الذي ذكرته التوراة أن نزول إبراهيم مصر هو وسارة كان بسبب الجوع في فلسطين أم بسبب الدعوة إلى الله[608]) .

والحقيقة أن المرويات التلمودية تجمع لنزول إبراهيم إلى مصر بين المقصدين اللذين أوردهما الشارح: (وقد أجبرته المجاعة لترك كنعان لفترة فتوجه إلى مصر ليتعرف هناك على حكمة الكهنة، وإذا لزم الأمر يرشدهم إلى الحقيقة[609]).

ونلحظ ـ أيضاً ـ أن إبراهيم يقول لزوجه في هذا الحديث أنه ليس على الأرض (مؤمن غيري وغيرك) وهو في الحقيقة قول عجيب وغير مفهوم ؛ وذلك لأن ظاهر آية سورة الممتحنة يخبرنا بأن إبراهيم قد آمن معه كثير من قومه قبل أن يهاجر من بلاده، أو على الأقل فأين لوط وقد نص القرآن على متابعته عمه إبراهيم، وكان ممن هاجر معه، والمفسرون يجمعون على نبوته ورسالته في حياة إبراهيم؟!، فكيف لا يكون هناك مؤمن على وجه الأرض غيرهما؟!

(608) الأشقر ص60

(609)أساطير اليهود - ج1 ص 203

شيعة إبراهيم

﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ۝٤ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٥﴾ [المُمْتَحنَة : 4-5] .

يمكن أن يضاف إلى الأمثلة القرآنية التي يمكن لقارئها أن يستبين منها على الفور أن الأنبياء المخاطبين بظاهر الخطاب فيها لا موضع لهم في تلك المناسبة إلا كإطار عام، وأنهم كانوا مجرد مناسبة لعرض تصور ديني يخص الدعوة الإسلامية وقت التنزيل هذا السياق الذي عبرت عنه هذه الآيات السابقة من سورة الممتحنة حيث يحق لقارئ لتلك الآيات أن يعجب من استدعاء صوت إبراهيم بالذات ليعبر عن هذه العقيدة القرآنية الخالصة ؛ أي من وجوب المفاصلة وإعلان القطيعة التامة مع كل رباط يربط المؤمنين بالكافرين، حيث لا موضع هناك لقرابة أو أرحام أو مصاهرة أو أي رباط مع هؤلاء المشركين الضالين، بل ليس ثمّ سوى المناجزة التي لا هوادة فيها حتى يخرجوا من عقيدة الشرك ويعلنوا إيمانهم الكامل بالله وحده.

أما موضع إبراهيم في هذه القصة، فالحقيقة أنه لو لم يتابع القرآن الحكايات التلمودية عن قصة استغفار إبراهيم لأبيه فما كان النبي ليجعله صاحب صوت هذه (المفاصلة)، وليس ذلك لأن أي رسول آخر كان يمكن أن ينوب عنه، بل ربما كان كثير منهم أكثر معقولية من إبراهيم!، وذلك لأن نوحاً أو هوداً أو صالحاً أو شعيباً كان لكل منهم جماعة إيمان تشاركه اعتقاده، وتعلن انحيازها المطلق لما جاء به في مواجهة قومه الكافرين، على خلاف إبراهيم الذي لم يجعل منه القرآن رسولاً مُتابعاً من جماعة مؤمنين تتبع عقيدته وتنسلخ عن مجتمعها الديني القديم، بل إننا نراه - خلا هذا الموضع - وحيداً ولا تابع له سوى ابن أخيه لوط ، بل سنجده في الأحاديث الصحيحة - مثل الذي معنا - يعلن لامرأته بعد هجرته أنه ليس على وجه الأرض مؤمن غيرهما؟!، فأين ذهب عنه

هؤلاء الأتباع إذن؟!، وليس من المعقول القول بأنهم جاءوا فيما بعد الهجرة ومفارقة الديار إلى الأرض المقدسة ؛ لأن المفاصلة كانت هناك قبل الهجرة؟!

ربما كان هذا الالتباس هو ما دعا مفسراً - عظيم الفطنة - كالطبري أن يقول بأن المقصود ب(الذين معه) هم أشباهه من الأنبياء، وليس المراد أتباعه من المؤمنين: (يقول تعالى ذكره للمؤمنين به من أصحاب رسول الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم: قد كان لكم أيها المؤمنون أُسوة حسنة: يقول: قدوة حسنة في إبراهيم خليل الرحمن، تقتدون به، والذين معه من أنبياء الله..... حين قالوا لقومهم الذين كفروا بالله، وعبدوا الطاغوت: أيها القوم إنا برآء منكم، ومن الذين تعبدون من دون الله من الآلهة والأنداد[610].)

والحقيقة أن سياق الآيات الذي يخاطب - بوضوح- عموم المسلمين ويتوجه إليهم بوجوب المفاصلة والمنابذة مع أهلهم الكافرين يقضي بأن يكون المراد من تلك الآية هو دعوة المسلمين إلى التأسي بأمثالهم من عامة المؤمنين السابقين واتخاذهم أسوة لهم، وأضف إلى ذلك أنه لو صح فهم الإمام الطبري لما كان هناك موضع لكلمة (والذين معه) فهي لا تتوافق مع ما يريده إلا بتكلف شديد وهذا الذي نرجحه هو ذات ما فهمه منها عموم المفسرين.

(قَدْ كانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْراهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَيْ وَأَتْبَاعُهُ الَّذِينَ آمَنُوا معه إِذْ قالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآؤُا مِنْكُمْ أَيْ تَبَرَّأْنَا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنا بِكُمْ أَيْ بِدِينِكُمْ وَطَرِيقِكُمْ وَبَدا بَيْنَنا وَبَيْنَكُمُ الْعَداوَةُ وَالْبَغْضاءُ أبدًا يَعْنِي وَقَدْ شُرِّعَتِ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ مِنَ الْآنِ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ، مَا دُمْتُمْ عَلَى كُفْرِكُمْ فَنَحْنُ أبدًا نَتَبَرَّأُ مِنْكُمْ وَنُبْغِضُكُمْ حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ أَيْ إِلَى أَنْ تُوَحِّدُوا اللَّهَ فَتَعْبُدُوهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَتَخْلَعُوا مَا تَعْبُدُونَ مَعَهُ من الأوثان والأنداد[611].)

(قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ) قُدْوَةٌ (حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ) مِنْ أَهْلِ الْإِيمَانِ (إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ) مِنَ الْمُشْرِكِينَ (إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ) جَمْعُ بَرِيءٍ (وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ) جَحَدْنَا وَأَنْكَرْنَا دِينَكُمْ (وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أبدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ

---

(610) تفسير الطبري - الرسالة - شاكر - ج23 ص 317

(611) - تفسير القرآن العظيم - ابن كثير الدمشقي- دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون- بيروت الطبعة: الأولى - 1419 هـ - ج8 ص 116

وَحْدَهُ) يَأْمُرُ حَاطِبًا وَالْمُؤْمِنِينَ بِالِاقْتِدَاءِ بِإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَالَّذِينَ مَعَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي التَّبَرُّؤِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ.(612)).

وعلى كل حال فأمثال تلك الظواهر في القرآن قليلة للغاية، وسنقف عند بعض منها في الفصول القادمة لنرى دلالة ذلك في خاتمة الكتاب ، لكن هنا نجد أن الملك الداعر يعرف الله مثل جميع البشر السابقين - فلم يرد في القرآن الكريم صوت إلحادي واحد-، بل ونجده يطلب من المرأة الصالحة أن تدعو الله له مما يوحي بأنه كان في اعتقاد النبي رجلاً مشركاً مثلما كانت عليه عامة العرب المشركين زمن البعثة النبوية، ومما يذكرنا - أيضاً - باعتقاد النبي في أن جميع البشر مؤمنهم وكافرهم كانوا لا يجدون مهربا من اللجوء إلى الله وحده في وقت الشدة، كما كان يحدث مع مشركي العرب إذ أحيط بهم في البحر، فعندئذ يلتجئون إلى الله وحده وينسون ما يشركون ولكنهم- وكالعادة - ينسون الله ثانية بعد نجاتهم، مثلما وجدنا هذا الملك يرد ما رآه بعينيه من صلاح المرأة إلى قوة شيطانية ويصفها بأنها شيطان:

﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [الأنعام : 63 – 64] ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [يونس : 22] ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾ [الإسراء : 67] ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [العنكبوت : 65.]

(612) تفسير البغوي تحقيق محمد عبد الله النمر - عثمان جمعة ضميرية - سليمان مسلم الحرش دار طيبة للنشر والتوزيع الطبعة: الرابعة، - 1997 م

وأكثر ما يعنينا من هذا الحديث هو أنه ينص بوضوح على أن إبراهيم كان يصلي، وكانت سارة - أيضاً - تصلي، بل وتتوضأ قبل الدخول إلى الصلاة، وهذا ما قرره هذا الشارح الجليل بقوله: (كان الوضوء مشروعاً في الأمم من قبلنا فسارة عندما قام إليها الجبار قامت تتوضأ وتصلي[613])، ولكي يخرج الشارح من غرابة تصور أن تتوضأ امرأة أدخلت برغمها إلى مخدع ملك فاجر، وليس إلى مصلاه الطاهر فهداه اجتهاده إلى هذا الحل الطريف: (ويبدو أن وضوئهم كان مختلفاً عن وضوئنا وإلا فكيف قامت تتوضأ عندما قام إليها الجبار، لعل وضوؤها كان مسحا لليد والوجه أو أنه كان شبيهاً بالتيمم عندنا وأما صلاتها فالمراد به هنا الدعاء [614]).

والحقيقة أن النبي كان يرى أن الأنبياء كانوا يتوضؤون مثل وضوؤه - تماماً - مثلما رأينا في حديث سابق، ولو كانت الصلاة هنا هي مجرد الدعاء فلم الوضوء إذاً، ولم يتكلم أحد قط عن اشتراط الوضوء لمن يدعو الله؟!، ولا موضع كذلك للقول بالتيمُم أو بشيء شبيه به فقد جعل النبي التيمم مما فضل الله به أمته على سائر الأمم رغم وجوده في التلمود[615]، وسواء أعرف يهود عصر النبي التيمم، أم أن الشريعة اليهودية هي التي اقتبسته من الإسلام[616] فهو في كل الأحوال لم يكن موجوداً زمن إبراهيم .

وأما عن أصل الوضوء فهو طقس تلمودي لم تعرفه التوراة ولا نسبته إلى إبراهيم، ولا إلى موسى ولا إلى أي نبي آخر من أنبياء العهد القديم، ولكن القصص الأجادية كانت التي فتحت هذا الباب أمام النبي محمد؛ حيث منحت جميع العقائد والشعائر والطقوس التي وضعها الأحبار والربيون وحشت بها سيرة الأنبياء الأقدمين والحديث

---

(613)- الأشقر ص62

(614)- السابق ذات الصفحة

(615) (والتيمم معروف في الشريعة اليهودية فقد أباحت لليهود التيمم بالصعيد الطاهر عند تعذر الماء وورد - أيضا - أن النصارى كانوا يعمدون أولادهم - أيضا - بصعيد الأرض وذلك عند قطعهم البوادي وعند تعذر الحصول على الماء وحتمت المجوسية على اتباعها الوضوء - أيضا - عند النهوض من النوم فعلى المجوسي غسل وجهه ويديه وقدميه ثلاث مرات عند نهوضه من النوم صباحا ... واذا تعذر الحصول على الماء وجب عليه التيمم بصعيد الأرض بأن يضع يديه على الرمل ثم يمسح الأجزاء المذكورة من الجسم لان صعيد الأرض ومنه الرمل مادة طاهرة مطهرة مالم تدنس ويبدا المجوسي بغسل الجزء الأيمن من جسمه أولا فيبدأ بغسل يده اليمنى ثم النصف الأيمن من جسمه عند الغسل وبغسل اليد اليمنى عند الوضوء وهو يقدم اليمنى على اليسرى حتى في لبس الحذاء إذ يبدأ بالرجل اليمنى ونجد مثل ذلك في الشريعة اليهودية كذلك)(انظر ص45- تاريخ الصلاة في الإسلام - د جواد علي - مكتبة ضياء – بغداد

(616) (ورد تشريع غاية في الأهمية ويبدو انه تأثير إسلامي وقد أضيف إلى النص وهذا التشريع لم ينسب إلى شخص محدد ولكنه نسب إلى دارس للشريعة جاء من فلسطين انه قال : من لم يجد ماء لكي يغسل يديه (بغرض الطهارة قبل تلاوة اسمع وقبل الصلاة) فعليه أن يمسح يديه بالتراب أو بحجر أو بجذع شجرة فقال العلماء الذين سمعوا هذا القول انه حسن)(انظر التلمود كتاب الذكر والصلاة ص 70)

كما ترى مؤسس على ما قالت به الرواية التوراتية من حسن سارة الفائق رغم سنها العالية، وما أغربت فيه الروايات التلمودية حتى جاوزت المقبول المعقول إلى المبالغات المسفة كما سنرى بعد قليل، والحديث النبوي يخلو من الإشارة إلى أي هبات أخرى قدمها الملك إلى إبراهيم واكتفي بتقرير أن الملك وهب سارة جارية مصرية تخدمها فلم يكن النبي محمد ليقبل أن يرد غني إبراهيم إلى هبات ملك فاجر كافر، والحديث من حيث المقصد والغاية يأتي لتقرير حفظ الله لأوليائه الصالحين مهما كانت قوة أهل الكفر فضلا عن أنه يؤسس لأصل العرب البعيد وأنهم ينحدرون من إبراهيم عبر جاريته هاجر؛ فهاجر هي أم العرب جميعا لأنها أم إسماعيل أبو العرب. ونجد - أيضاً - في هذا الحديث أن إبراهيم كان يشير في الصلاة مما يدل عن إن هذا الحديث قد جاء في أول عهد النبي بالمدينة ؛ حيث كان مباحاً فيها اليسير من الأفعال وقد نهى النبي عن ذلك فيما بعد كما سنرى.

الإشارة في الصلاة

(كان يجوز في شريعة إبراهيم الاستعلام بالإشارة وهو في الصلاة عن أمر يريد معرفته فقد أومأ إبراهيم لسارة بعد عودتها وهو يصلي أي أشار لها بيده مستعلما عما جرى لها[617]).

(عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: كُنَّا نُسَلِّمُ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ فِي الصَّلَاةِ فَيَرُدُّ عَلَيْنَا فَلَمَّا رَجَعْنَا مِنْ عِنْدِ النَّجَاشِيِّ سَلَّمْنَا عَلَيْهِ فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيْنَا فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ كُنَّا نُسَلِّمُ عَلَيْكَ فِي الصَّلَاةِ فَتَرُدُّ عَلَيْنَا فَقَالَ: إِنَّ فِي الصَّلَاةِ لَشُغْلًا" [618]).

ومن المعلوم أن النبي - ومنذ شرعت الصلاة في مكة - لم يكن يرَ بأساً في أن يأتي المرء ببعض الأفعال اليسيرة التي لا تنال من قدسية الصلاة، ولا تشغل كثيرا عن الاستغراق فيها فكان النبي يرد السلام - مثلا - على يسلم عليه أو ربما كان يطلب من أحد شيئا في كلمة أو كلمتين ونحو ذلك، فلما هاجر النبي إلى المدينة وبلغه ما سنأتي به بعد قليل - أو شيئا قريبا منه - رأى أنه من الأكمل والأتم أن يتبنى هذا التشريع، وأن يأمر به - وقد كان- فإذا ما خالف مسلم تلك الوصية فالفقهاء يرون بطلان صلاته.

[617] (الأشقر ص 62)
[618]- متفق عليه

واليك ما نظنه سبب نهي النبي عن رد السلام لمن كان يصلي مثلما جاء في التلمود : (على المرء ألا يقف للصلاة إلا في خشوع، وكان الأتقياء الأول يمكثون ساعة كاملة قبل أن يصلوا كي يوجهوا قلبهم شطر أبيهم السماوي الذي في السماء فإذا ألقى عليه ملك السلام فلا يرد التحية، وإن التف ثعبان حول قدميه فلا يقطع صلاته [619]).

(شرع علماؤنا - حدث أن كان تقي يصلي في الطريق فجاء رئيس (قائد) وألقى عليه السلام فلم يرد فانتظره حتى فرغ من صلاته وبعد أن أنهى صلاته قال له: أيها الأحمق ألم يرد في توراتكم (تثنية 4-9 إنما احترز واحفظ نفسك) وجاء في تثنية 4-15 (فاحفظوا جيدا لأنفسكم) فلماذا لم ترد على السلام عندما ألقيت عليك السلام ؟! فإن قطعت رأسك بالسيف من كان سيطالب لك بالثأر مني؟، فقال له انتظر حتى أطيب خاطرك فلو أنك كنت تقف بين يدي ملك من البشر، وجاء صاحبك وألقى عليك السلام أكنت سترد عليه؟ فقال له : لا وإذا رددت عليه التحية ماذا كان سيفعل بك ؟ قال له : كانت ستقطع رأسي بالسيف فقال له: أليس حرياً بي أن أفعل ذلك فبما أنك كنت تقف بين يدي ملك من البشر يعيش اليوم ويموت غدا وقلت ذلك فحري بي أنا من أقف أمام ملك الملوك القدوس تبارك الموجود إلى الأبد وأبد الآبدين ألا أرد عليك التحية، فهدأ القائد في الحال ورجع ذلك التقي إلى بيته سالما [620]).

وأخيراً فلا علينا إن تجاهلنا ما حكته التوراة من ادعاء إبراهيم من أن سارة كانت أخته من أبيه ؛ لأنه إذا كان فرعون قد صدق كذبة إبراهيم الأولى من أن سارة هي أخته فإن كذبة إبراهيم الثانية بأن سارة نصف شقيقة له قد جازت على ملايين الناس إلى يومنا هذا، خاصةً إذا تذكرنا أن كاتب التوراة لم يصرح بأخوتهما إلا في هذا الموضع دون سواه، ولكن - وكما ترى - فلم تذكر القصة الحديثية هذا التبرير الإبراهيمي الكاذب؛ أولاً لأن النبي محمد ما كان ليظن أن مسلماً - فضلاً أن يكون نبياً - يحل له يتزوج بأخته ويواقعها، والأهم من ذلك أنه كان يملك تفسيراً لمعنى الأخوة، وهو معنى ما كان

---

[619] (راجع ص 307) من كتاب التلمود الذكر - الصلاة - الدعاء تفسير الأحلام) د ليلى أبو المجد - علاء تيسير احمد مكتبة مدبولي م2022)

[620]- السابق ص (324)

إبراهيم ليصل إليه ولا ليعرفه وهو أخوة الدين ورابطة الإيمان، ولكنه في النهاية تفسير محمدي جميل- وقد خفف قليلا من شدة كذبة إبراهيم [621]).

أصل هذه القصة

أما أساس هذه القصة فهي تأتي كالعادة من القصص الأجادية التي أوردت هذه الواقعة بين كل تلك الهذيانات السخيفة التي تحفل بها فهي ترجع سبب نزول إبراهيم إلى مصر بسبب من المجاعة التي ضربت أرض كنعان فترك إبراهيم أرض كنعان ونزل إلى مصر.

(وفي هذه الرحلة من كنعان إلى مصر لاحظ إبراهيم للمرة الأولى جمال سارة فمن عفته لم يكن قد نظر إليها من قبل، ولكن الآن وبينما هما يخوضان في أحد الأنهار رأى انعكاس جمالها على صفحة الماء مثل بهاء الشمس وعندها كلمها قائلاً: أن المصريين شهوانيون جداً وسوف أضعك في صندوق لئلا يقع لي مكروه بسببك) فوضع إبراهيم سارة في صندوق محكم الإغلاق ودخل بها أرض مصر وعندما سأل موظفو الجمارك إبراهيم عما يحوجه هذا الصندوق أجابهم بأنه شعير - رغم أنه جاء من أرض ضربتها المجاعة إلى أرض الوفرة - ثم عندما قال له الموظفون لا بل إن به قمحاً، أخبرهم إبراهيم أنه على استعداد ليدفع ضريبة القمح فقالوا له: بل به فلفل! فوافق إبراهيم على أن يدفع ضريبة الفلفل فارتابوا أن به أحجاراً كريمة فوافق إبراهيم، وعندها فقط ارتاب الموظفون في شأنه فأمروه أخيراً أن يفتح الصندوق! (وعندما فتح الصندوق ذهلت مصر كلها من جمال سارة فبالمقارنة مع كل الجميلات كانت كل الجميلات الأُخريات تبدو مثل القرود، وكانت تفوق حواء نفسها في الجمال، وتصارع خدم الملك

---

[621] (لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات: ثنتين منهن في ذات الله قوله: (إِنِّي سَقِيمٌ)وقوله: (بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا) وبينما هو ذات يوم وسارة إذ أتى على جبار)(صحيح الجامع الصغير وزياداته- برقم (5202)

وكما ترى فلم يخرجه هذا التفسير من دائرة الكذب والا فالمؤمنين لا يتزوجون أخواتهم ! أما عن الكذبتين الآخرتين فمن المعروف أنهما قد جاءتا - أيضا - من الأساطير التلمودية، ومن المعروف أن الاختصاصين في مصادر العهد القديم يتفقون على أن رواية سارة مع فرعون مصر إنما هي رواية يهوية لا تحفل بالأخلاق بل ولم تتورع عن أن تظهر إبراهيم - كما رأينا - كاذبا مخادعا أما رواية إبراهيم مع أبيمالك فقد تدخلت لتحسن الصورة القبيحة فأعلنت أنها أخته حقا ولكن من أبيه (تاريخ لآباء ودياناتهم ص 210) وعليه فليس لنا أن نثق في تلك الرواية المجاملة بل علينا أن نعترف ببساطة تامة بأن سارة لم تكن أختا لإبراهيم لا من أمه ولا من أبيه ولا شقيقته وربما لو صح أنها كانت أخته لكان من المنتظر أن يقول لها : (قولي أنك أختي فقط ولا تقولي أنك زوجتي - أيضا -

للتمتع بها مع أنهم كانوا يرون أن مثل هذا الجمال الأخاذ يجب ألا يظل مقصوراً على فرد واحد، وأبلغوا الملك بهذا الأمر فأرسل الملك قوة كبيرة مسلحة لتحضر سارة إلى القصر، ولما رآها افتتن بجمالها لدرجة أنه أغدق على من أخبروه بقدومها إلى مصر بالهدايا السخية. ودعا إبراهيم ربه والدموع تتساقط من عينيه ناشده قائلاً: أهذا جزاء ثقتي بك؟ فمن أجل فضلك ورحمتك لا تخيب فيك رجائي. كذلك ناشدت سارة الرب قائلة: يا رب لقد أمرت سيدي إبراهيم بأن يترك بيته وأرض آبائه ويرحل إلى كنعان، ووعدته بأن تصنع به خيراً لو نفذ أوامرك، وها نحن قد فعلنا ما أمرتنا به. لقد تركنا بلدنا وأهلنا ورحلنا إلى أرض غريبة وإلى شعب لم نعرفه من قبل. وقد جئنا لننقذ قومنا من الهلاك جوعاً، والآن قد حلت بنا هذه المصيبة، يا رب ساعدني وأنقذني من يد عدوك أكرمنا برحمتك. فظهر ملاك لسارة وهي في حضرة الملك ولم يره وأمرها الملاك بأن تتحلى بالشجاعة قائلاً: لا تخشي شيئاً يا سارة لأن الرب قد سمع دعواتك، وسألها الملك عن الرجل الذي جاءت إلى مصر بصحبته فقالت سارة: إنه إبراهيم أخوها، وعندها قرر الملك أن يجعل إبراهيم عظيما وقوياً وأن يفعل له ما تشاء سارة، وأرسل المزيد من الذهب والفضة إلى إبراهيم وكذلك الماس واللآلئ والأغنام والثيران والعبيد والإماء وجهز له مسكنا بجوار القصر الملكي، ومن حبه الشديد لسارة كتب عقد زواج ومنحها كل ما يملك من ذهب ومن فضة وعبيد وإماء وإقليم جاسان فوق ذلك ملكاً عليهم وفوق كل هذا أعطاها ابنته هاجر أمة لها لأنه كان يفضل أن يرى ابنته خادمة لسارة على أن تكون سيدة في حريم ملك آخر. ولكن سخاءه العظيم لم يجده نفعاً فخلال الليل وبينما هو على وشك أن يقترب من سارة ظهر ملك مسلح بعصا، وكان الملك كلما لمس حذاء سارة ليخلعه من قدميها يضربه الملك على يده، وعندما يمسك بثوبها ينال ضربة أخرى وقبل كل ضربة يضربها كان الملاك يستأذن سارة فان أمرته أن يمنح الملك لحظة ليستعيد رباطة جأشه كان ينتظر ويفعل ما تريد، وحدثت معجزة أخرى عظيمة وهي أن أصيب الملك وحاشيته حتى حيطان بيته وسريره بالجُذام فلم يستطع إشباع رغباته الشهوانية. تلك الليلة التي عانى فيها الملك وملأه من تلك العقوبة العادلة كانت هي الليلة الخامسة عشرة من نيسان وهي نفس الليلة التي زار فيها الرب المصريين لكي ينقذ بني إسرائيل ذرية سارة ومن رعبه من تلك المصيبة التي حلت به سأل الملك كيف يتخلص منها وأرسل في طلب الكهنة وعلم منهم السبب الحقيقي لهذا البلاء الذي أصابهم هم -

أيضاً - بسبب سارة فعندئذ أرسل إلى إبراهيم وأعاد إليه أخته نقية لم تمس واعتذر عما حدث قائلاً: إنه كان ينوي مصاهرته بالزواج إذ كان يظن أنه أخو سارة، وأغدق الهدايا الثمينة على الزوج والزوجة ثم رحلا إلى أرض كنعان بعد إقامة في مصر مدتها ثلاثة أشهر [622])

وكما ترى فالقصة الحديثية إنما هي خليط مضطرب بين رواية التوراة وفظاظتها - حيث نجد ذات الاتفاق المشين بين إبراهيم وبين زوجته على أنهما أخوان - وبين الزخارف الأجادية ومبالغتها السقيمة، إنما يكفينا أن نعلم من هذه القصة ومن أمثالها كيف بدأ فيها أنبياء العهد القديم موصولون بالله، ومحفوظون بحفظه، وكيف كانوا موحدين راسخي الإيمان، وكيف كانوا يصلون ويتعبدون مما لا يدع شكاً للقطع بأن تلك الصورة التلمودية الزائفة عن اعتقادات الأنبياء وعبادتهم كانت هي أساس الاعتقاد المحمدي في وحدة العقيدة والشريعة كما سنرى في خاتمة هذا الفصل .

[622]-(أساطير اليهود ج1 ص 203 وما بعدها)

الحديث التاسع
الملك الذي أعجب بأمته

روى الإمام أحمد في مسنده عن صهيب قال: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا صلى همس شيئا لا أفهمه ولا يخبرنا به قال: أفطنتم لي؟ قلنا: نعم، قال: إني ذكرت نبياً من الأنبياء أعطى جنوداً من قومه (وفي رواية أعجب بأمته)، فقال من يكافئ هؤلاء؟ أو مَن يقوم لهؤلاء؟ أو غيرها من الكلام، فأوحى إليه : أن اختر لقومك إحدى ثلاث: إما أن نسلط عليهم عدواً من غيرهم، أو الجوع، أو الموت، فاستشار قومه في ذلك فقالوا: أنت نبي الله فكل ذلك إليك خر لنا فقام إلى الصلاة، وكانوا إذا فزعوا، فزعوا إلى الصلاة فصلى ما شاء الله قال ثم قال: أي رب أما عدو من غيرهم فلا أو الجوع فلا ولكن الموت فسلط عليهم الموت فمات منهم سبعون ألفاً، فهمسي الذي ترون أني أقول اللهم بك أقاتل وبك أصاول ولا حول ولا قوة إلا بالله [623]).

كان النبي إذا فرغ من صلاته يهمس لنفسه بكلام لا يستبين معناه لأصحابه الذين يصلون خلفه؛ بسبب من خفض صوته، ولكنه عندما فعل ذلك عقب فراغه من صلاة فجر إحدى الأيام في آخر حياته أخبر أصحابه هذه المرة عما همس به، وكيف أنه تذكر أن نبياً من الأنبياء السابقين قد أعجب بقوة أمته فعوقب على الفور من أجل تلك الخاطرة التي لم يكن ينبغي لها أن تلوث عقل وقلب نبي يستمد قوته من اعتماده على الله وحده لا من أسياف جنوده وحرابهم؛ فخير هذا النبي المجهول بين أن يختار واحدة من بين ثلاثة مصائر قاسية لأمته التي أعجب بها: أولها أن يستبيحهم عدو من خارجهم، أو أن تهلكهم سنة عامة فيموتون جوعاً، أو أن يميتهم الله مباشرةً، ولما استشار قومه في تلك البلية التي أوقعهم فيها أوكلوا الأمر إليه فهو نبي الله، فقام إلى الصلاة يناجي ربه فألهمه الله أن يختار لهم الموت العاجل، فمات من أمته سبعون ألفاً على الفور؛ لذا يتحرز النبي من أن يحدث لأمته شيء من قبله، ومن أجل ذلك فهو يعلن اعتماده الدائم على حول الله وقوته .

---

(623) - انظر السلسلة الصحيحة للألباني برقم (2455) وذكره - أيضا - في ذات السلسلة برقم (1061) وليس من ذكر في هذا الحديث لاسم ذلك النبي القديم كما لو كانت ذكرى لمعلومة غائمة تذكرها النبي بعد طول نسيان، ولكن كما ترى فلم يقل النبي سوى أن الله أوحى إلى ذلك النبي مباشرة فلم يكن النبي ليقبل أن يتوسط نبي بين الله وبين نبي آخر مثلما أسقط قصة ناثان النبي مع داود في قضية أوريا الحثي إن صح وكانت قصة داود القرآنية تتضمن شيئا منها .

ولا نبالغ إذا قلنا إنه من بين قصص الأنبياء جميعاً ربما لا تصلح قصة للدلالة على طريقة تفاعل النبي مع ما بلغه من قصص الأنبياء مثل هذا الحديث الغريب حتى إن القارئ لسيرة النبي ليخطر له للوهلة الأولى بأن النبي كان يترجم عن خاطرة خطرت له هو نفسه، ولا يحكي لأصحابه قصة قديمة حدثت حقاً لنبي من الأنبياء السابقين، فالروايات الأخرى لهذا الحديث تنص على أن النبي قد قص على أصحابه تلك القصة في آخر حياته بعد أن فرغ من فتح مكة وتوجه إلى فتح الطائف المعقل الوثني الأخير في جزيرة العرب وهذا الذي هجس في قلب النبي هو ذاته ما جهر به أصحابه علانية - كما تقول كتب السيرة النبوية وأكده القرآن الكريم على نحو أوضح- حيث حكى عنهم كيف أعلنوا واثقين أنهم لن يغلبوا من قلة، وكان ما كان من أثر هذا الزهو والعجب بأن استخفوا بعدوهم الكامن لهم في مضايق وادي حنين وشعابه فهزموا على النحو الذي وصفه القرآن: ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [التَّوْبَة : 25 – 26]

وزد على ذلك أن النبي عليه السلام هو - أيضاً - من خير شيئاً قريباً من هذا التخيير الأليم فقد جاء في مسند أحمد (حدثنا عبد الله حدثني أبي ثنا أبي قال قرأت على عبد الرحمن بن مهدي مالك عن عبد الله بن جابر بن عتيك عن جابر بن عتيك أنه قال: جاءنا عبد الله بن عمر في بني معاوية قرية من قرى الأنصار فقال لي هل تدري أين صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من مسجدكم هذا؟، فقلت نعم فأشرت له إلى ناحية منه فقال هل تدري ما الثلاث التي دعا بهن فيه؟، فقلت نعم قال فأخبرني بهن فقلت دعا بأن لا يظهر عليهم عدواً من غيرهم ولا يهلكهم بالسنين فأعطيهما ودعا بأن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها، قال: صدقت فلا يزال الهرج إلى يوم القيامة [624]) .

[624] (انظر مسند أحمد - تحقيق شعيب الأرناؤوط - عادل مرشد وآخرون - مؤسسة الرسالة - الطبعة الأولى - 2001م - برقم (23749) تعليق شعيب الأرناؤوط : حديث صحيح)

لكن النبي- كما ترى - قد اختار لأمته من العقوبات ما يتناسب مع ما كان يتوقعه لها ؛ أي من وقوع الصراع والمنازعات بين أتباعه عقب وفاته أو بعدها بقليل، وإن جاء هذا التخيير في إطار مختلف سنعرض له عند حديثنا عن النبوءات المحمدية عما سيقع في آخر الزمان ناهيك عما سبق وأن ذكرناه من أن النبي كان هو من يفزع إلى الصلاة إذا حزبه أمر في شأن من الشؤون ؛ ولهذا فقد افترضنا في البداية بأن هذه القصة إنما هي قصة مخيالية خالصة لولا ما جاء في الحديث من تصريح النبي بأنه (ذكر نبيا من الأنبياء) فلم نشك في أن هذا الحديث إنما يرجع صدى لقصة قديمة، ولقد وجدنا أن أساس هذه القصة المحزنة يرجع إلى ما جاء في العهد القديم عن إحصاء داود شعب الرب، حيث وردت هذه القصة مرتين في الكتاب المقدس فمرة تنسب الإحصاء إلى الله وتعزوه الأخرى إلى الشيطان وتختلفان فيما بينهما - أيضاً - في عدد سنين المجاعة !

(وَضَرَبَ دَاوُدَ قَلْبُهُ بَعْدَمَا عَدَّ الشَّعْبَ. فَقَالَ دَاوُدُ لِلرَّبِّ: «لَقَدْ أَخْطَأْتُ جِدًّا فِي مَا فَعَلْتُ، وَالآنَ يَا رَبُّ أَزِلْ إِثْمَ عَبْدِكَ لأَنِّي انْحَمَقْتُ جِدًّا». وَلَمَّا قَامَ دَاوُدُ صَبَاحًا، كَانَ كَلاَمُ الرَّبِّ إِلَى جَادٍ النَّبِيِّ رَائِي دَاوُدَ قَائِلاً: «اِذْهَبْ وَقُلْ لِدَاوُدَ: هكَذَا قَالَ الرَّبُّ: ثَلاَثَةً أَنَا عَارِضٌ عَلَيْكَ، فَاخْتَرْ لِنَفْسِكَ وَاحِدًا مِنْهَا فَأَفْعَلَهُ بِكَ».فَأَتَى جَادُ إِلَى دَاوُدَ وَأَخبَرهُ وَقَالَ لَهُ: «أَتَأْتِي عَلَيْكَ سَبْعُ سِنِي جُوعٍ فِي أَرْضِكَ، أَمْ تَهْرُبُ ثَلاَثَةَ أَشْهُرٍ أَمَامَ أَعْدَائِكَ وَهُمْ يَتْبَعُونَكَ، أَمْ يَكُونُ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ وَبَأٌ فِي أَرْضِكَ؟ فَالآنَ اعْرِفْ وَانْظُرْ مَاذَا أَرُدُّ جَوَابًا عَلَى مُرْسِلِي». فَقَالَ دَاوُدُ لِجَادٍ: «قَدْ ضَاقَ بِيَ الأَمْرُ جِدًّا. فَلْنَسْقُطْ فِي يَدِ الرَّبِّ، لأَنَّ مَرَاحِمَهُ كَثِيرَةٌ وَلاَ أَسْقُطْ فِي يَدِ إِنْسَانٍ». فَجَعَلَ الرَّبُّ وَبَأً فِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الصَّبَاحِ إِلَى الْمِيعَادِ، فَمَاتَ مِنَ الشَّعْبِ مِنْ دَانٍ إِلَى بِئْرِ سَبْعٍ سَبْعُونَ أَلْفَ رَجُل. وَبَسَطَ الْمَلاَكُ يَدَهُ عَلَى أُورُشَلِيمَ لِيُهْلِكَهَا، فَنَدِمَ الرَّبُّ عَنِ الشَّرِّ، وَقَالَ لِلْمَلاَكِ الْمُهْلِكِ الشَّعْبَ: «كَفي! الآنَ رُدَّ يَدَكَ». وَكَانَ مَلاَكُ الرَّبِّ عِنْدَ بَيْدَرِ أَرُونَةَ الْيَبُوسِيِّ. فَكَلَّمَ دَاوُدُ الرَّبَّ عِنْدَمَا رَأَى الْمَلاَكَ الضَّارِبَ الشَّعْبَ وَقَالَ: «هَا أَنَا أَخْطَأْتُ، وَأَنَا أَذْنَبْتُ، وَأَمَّا هؤُلاَءِ الْخِرَافُ فَمَاذَا فَعَلُوا؟ فَلْتَكُنْ يَدُكَ عَلَيَّ وَعَلَى بَيْتِ أَبِي.[625]).

(وَوَقَفَ الشَّيْطَانُ ضِدَّ إِسْرَائِيلَ، وَأَغْوَى دَاوُدَ لِيُحْصِيَ إِسْرَائِيلَ. فَقَالَ دَاوُدُ لِيُوآبَ وَلِرُؤَسَاءِ الشَّعْبِ: «اذْهَبُوا عِدُّوا إِسْرَائِيلَ مِنْ بِئْرِ سَبْعٍ إِلَى دَانَ، وَأْتُوا إِلَيَّ فَأَعْلَمَ عَدَدَهُمْ». 3فَقَالَ يُوآبُ: «لِيَزِدِ الرَّبُّ عَلَى شَعْبِهِ أَمْثَالَهُمْ مِئَةَ ضِعْفٍ. أَلَيْسُوا جَمِيعًا يَا سَيِّدِي الْمَلِكَ

---

[625] (صموئيل 2 \ 24 الآيات 10-17)

عَبِيدًا لِسَيِّدِي؟ لِمَاذَا يَطْلُبُ هذَا سَيِّدِي؟ لِمَاذَا يَكُونُ سَبَبَ إِثْمٍ لإِسْرَائِيلَ؟» فَاشْتَدَّ كَلاَمُ الْمَلِكِ عَلَى يُوآبَ. فَخَرَجَ يُوآبُ وَطَافَ فِي كُلِّ إِسْرَائِيلَ ثُمَّ جَاءَ إِلَى أُورُشَلِيمَ. [5]فَدَفَعَ يُوآبُ جُمْلَةَ عَدَدِ الشَّعْبِ إِلَى دَاوُدَ، فَكَانَ كُلُّ إِسْرَائِيلَ أَلْفَ أَلْفٍ وَمِئَةَ أَلْفِ رَجُل مُسْتَلِّي السَّيْفِ، وَيَهُوذَا أَرْبَعَ مِئَةٍ وَسَبْعِينَ أَلْفَ رَجُل مُسْتَلِّي السَّيْفِ، [6]وَأَمَّا لاَوِي وَبَنْيَامِينُ فَلَمْ يَعُدَّهُمْ مَعَهُمْ لأَنَّ كَلاَمَ الْمَلِكِ كَانَ مَكْرُوهًا لَدَى يُوآبَ. وَقَبُحَ فِي عَيْنَيِ اللهِ هذَا الأَمْرُ فَضَرَبَ إِسْرَائِيلَ. فَقَالَ دَاوُدُ للهِ: «لَقَدْ أَخْطَأْتُ جِدًّا حَيْثُ عَمِلْتُ هذَا الأَمْرَ. وَالآنَ أَزِلْ إِثْمَ عَبْدِكَ لأَنِّي سَفِهْتُ جِدًّا». فَكَلَّمَ الرَّبُّ جَادَ رَائِي دَاوُدَ وَقَالَ: «اذْهَبْ وَكَلِّمْ دَاوُدَ قَائِلاً: هكَذَا قَالَ الرَّبُّ: ثَلاَثَةً أَنَا عَارِضٌ عَلَيْكَ فَاخْتَرْ لِنَفْسِكَ وَاحِدًا مِنْهَا فَأَفْعَلَهُ بِكَ». فَجَاءَ جَادُ إِلَى دَاوُدَ وَقَالَ لَهُ: «هكَذَا قَالَ الرَّبُّ: اقْبَلْ لِنَفْسِكَ: إِمَّا ثَلاَثَ سِنِينَ(626) جُوعٌ، أَوْ ثَلاَثَةَ أَشْهُرٍ هَلاَكٌ أَمَامَ مُضَايِقِيكَ وَسَيْفُ أَعْدَائِكَ يُدْرِكُكَ، أَوْ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ يَكُونُ فِيهَا سَيْفُ الرَّبِّ وَوَبَأٌ فِي الأَرْضِ، وَمَلاَكُ الرَّبِّ يَعْثُو فِي كُلِّ تُخُومِ إِسْرَائِيلَ. فَانْظُرِ الآنَ مَاذَا أَرُدُّ جَوَابًا لِمُرْسِلِي». فَقَالَ دَاوُدُ لِجَادٍ: «قَدْ ضَاقَ بِيَ الأَمْرُ جِدًّا. دَعْنِي أَسْقُطْ فِي يَدِ الرَّبِّ لأَنَّ مَرَاحِمَهُ كَثِيرَةٌ، وَلاَ أَسْقُطُ فِي يَدِ إِنْسَانٍ». فَجَعَلَ الرَّبُّ وَبَأً فِي إِسْرَائِيلَ، فَسَقَطَ مِنْ إِسْرَائِيلَ سَبْعُونَ أَلْفَ رَجُل. وَأَرْسَلَ اللهُ مَلاَكًا عَلَى أُورُشَلِيمَ لإِهْلاَكِهَا، وَفِيمَا هُوَ يُهْلِكُ رَأَى الرَّبُّ فَنَدِمَ عَلَى الشَّرِّ، وَقَالَ لِلْمَلاَكِ الْمُهْلِكِ: «كَفَى الآنَ، رُدَّ يَدَكَ». وَكَانَ مَلاَكُ الرَّبِّ وَاقِفًا عِنْدَ بَيْدَرِ أُرْنَانَ

(626) (ولا يعنينا هنا التناقض الغريب بين مدتي المجاعة حيث تقول رواية صموئيل أنها ستستمر سبع سنين - على غرار مجاعة مصر زمن يوسف - وتكتفي رواية -أخبار الأيام- بثلاثة سنين فقط حيث قدم الشراح المسيحيون تفسيرات هشة وغير مقنعة لتفسير هذا الاختلاف وتردد جميعها هذا التفسير الساذج من أن الرب كان يقصد أن يخير داود بين مجاعة تمتد ثلاثة سنين متلاحقة وبين مجاعة متقطعة تمتد سبع سنين بحيث سيكون القحط في اثنتين منهما خفيفا وسنتان بعد زوال القحط !

وهو تفسير غير مقنع فلم يكن الرب ليقدم لداود هذا العرض الرحيم وهو في غضبه العارم الذي رأيناه حتى لقد أراد أن يفتك بشعبه كله ولو كانت المجاعة على هذا النحو اللطيف لقبلها داود على الفور لأنها ستكون صفقة رابحة أكثر من الوبأ الذي فتك بسبعين ألفا من رجاله ولا ندري هل كانت النساء والأطفال بمنجاة من هذا الوباء أم لا ؟!

ولعل افضل ما قدم لتفسير تلك المشكلة هو ما قدمه هذا القس الجليل (واذا قيل ما هي الحكمة في اقتصاره على ذكر ثلاث سنين، قلنا أن الحكمة في ذلك هي المشاكلة، فأنه قال " ثلاثة أنا عارض عليك، فاختر لنفسك واحدًا. إما ثلاث سنين جوع، أو ثلاثة أشهر هلاك.. أو ثلاثة أيام يكون فيها سيف الرب وبأ في الأرض " فذكره الثلاثة في كل المواضع هو من باب المشاكلة (أي يكون لهم شكل واحد) وهو ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته تحقيقًا أو تقديرًا. فكذلك عبر النبي هنا بلفظة ثلاثة في جميع الأماكن للمشاكلة، وصرف النظر عن طرفي المدة وهما سنتان قبل القحط الشديد وسنتان بعده) (انظر شبهات وهمية حول الكتاب المقدس - أعداد الدكتور القس منيس عبد النور - ص 136) مطبوعة دون تاريخ أو عنوان ويجدها القارئ على الشبكة الدولية

ولكن من ينظر في جواب داود فسيجده لا يتكلم إلا عن خيارين اثنين فقط وهما الوقوع بين يدي أعداءه، وبين الوبأ مما يجعل الافتراض بإضافة تلك العقوبة الثالثة أمرا محتملا خاصة وأن أرض العبرانيين لا تعتمد على الزراعة فقط فهي ليست كمصر وغيرها من حضارات الأنهار !

الْيَبُوسِيِّ. وَرَفَعَ دَاوُدُ عَيْنَيْهِ فَرَأَى مَلاَكَ الرَّبِّ وَاقِفًا بَيْنَ الأَرْضِ وَالسَّمَاءِ، وَسَيْفُهُ مَسْلُولٌ بِيَدِهِ وَمَمْدُودٌ عَلَى أُورُشَلِيمَ. فَسَقَطَ دَاوُدُ وَالشُّيُوخُ عَلَى وُجُوهِهِمْ مُكْتَسِينَ بِالْمُسُوحِ. وَقَالَ دَاوُدُ لِلهِ: «أَلَسْتُ أَنَا هُوَ الَّذِي أَمَرَ بِإِحْصَاءِ الشَّعْبِ؟ وَأَنَا هُوَ الَّذِي أَخْطَأَ وَأَسَاءَ، وَأَمَّا هؤُلاَءِ الْخِرَافُ فَمَاذَا عَمِلُوا؟ فَأَيُّهَا الرَّبُّ إِلهِي لِتَكُنْ يَدُكَ عَلَيَّ وَعَلَى بَيْتِ أَبِي لاَ عَلَى شَعْبِكَ لِضَرْبِهِمْ.[627])

ولا يعنينا هنا الوقوف عند هذا السبب العجيب الذي أغضب الرب ، فمهما يكن السبب الغامض لذلك الغضب الإلهي العارم ، فلا نشك أنه قد كان عند كتبة العهد القديم سبباً كافياً لكي ينزل الرب بشعبه تلك المقتلة[628] المروعة، وذلك لأننا لم نجد داود يبرر هذا الفعل أمام الله أو يجادل الرب في كونه خطأ أم صواباً، بل لم نجد عند داود إلا احتجاجاً مسترحماً بأن يكتفي الرب بمعاقبته هو وأهل بيته على هذا الذنب العجيب، ولم يكن من ضرورة لتلك المذبحة التي أوقعها الرب الغاضب من الإحصاء بالأبرياء المساكين![629] وإنما يعنينا من هذا الحديث هو أن نلاحظ كيف صدق النبي بوقوع تلك القصة الخرافية، وكيف تقبَل - ضمنياً - القبول بكل تلك الأعداد الأسطورية لعدد أمة داود حتى ساغ عنده أن يميت الله منهم سبعين ألف رجل في يوم واحد، وهي أعداد لا يشك عاقل في زماننا في أنها كانت مجرد مبالغات توراتية سخيفة، وقد رأينا لها أشباهاً كثيرة عبر هذا الكتاب، ولكنها متابعة مما توحي لنا - أيضاً - بأن النبي كان على اطلاع واسع على ما ساقته الخرافات التوراتية - التلمودية عن عظمة ومجد داود واتساع ملكه وضخامة أعداد رعيته. وأما الحقيقة الواضحة فهي أنه لم يكن أبداً لملك صغير مثل داود مثل تلك الأعداد الخرافية مثلما سبق، وأن قلنا في موضع آخر عن تلك المبالغات الحمقاء التي تحفل بها التوراة ويكفي أن نذكر القارئ هنا بما قلناه.

(أما كاتب سفر الأيام الأول فقد ذهب أبعد من ذلك عند ذكره للإحصاء المشؤوم الذي تم في عهد الملك داود فقد زعم أن عدد الرجال القادرين على الحرب في عهد داود

[627] (أخبار أيام أول - الأصحَاحُ الْحَادِي وَالْعِشْرُونَ - الآيات 1-8)

[628] وهو أمر سيجده قارئ العهد القديم مألوفا ومتكررا فقد سبق مثلا أن أمات الرب بالوباء أربعة وعشرين ألف رجل في يوم واحد عندما غضب من تورطهم في علاقات داعرة مع بنات الموآبيين والمديانيين وتركهم له والذهاب للسجود لغريمه بعل فغور (عدد9-25)

[629] ولمن شاء أن يتعرف على ما اعتقده العلماء عن السبب الحقيقي الذي أغضب الرب كل هذا الغضب فيمكنه أن يرجع إلى كتاب : الفلكلور في العهد القديم - جيمس فريزر - ج2 - ص 361 وما بعدها

كان مليونا ومئة ألف رجل!، (فَدَفَعَ يُوآبُ جُمْلَةَ عَدَدِ الشَّعْبِ إِلَى دَاوُدَ، فَكَانَ كُلُّ إِسْرَائِيلَ أَلْفَ أَلْفٍ وَمِئَةَ أَلْفِ رَجُل مُسْتَلِّي السَّيْفِ، وَيَهُوذَا أَرْبَعَ مِئَةٍ وَسَبْعِينَ أَلْفَ رَجُل مُسْتَلِّي السَّيْفِ، وَأَمَّا لاَوِي وَبَنْيَامِينُ فَلَمْ يَعُدَّهُمْ مَعَهُمْ لأَنَّ كَلاَمَ الْمَلِكِ كَانَ مَكْرُوهًا لَدَى يُوآبَ)(سفر أخبار الأيام االأول2121: 5)(ونجد في صم 2 نقرأ 800000 لإسرائيل، 500000 ليهوذا) (فَدَفَعَ يُوآبُ جُمْلَةَ عَدَدِ الشَّعْبِ إِلَى الْمَلِكِ، فَكَانَ إِسْرَائِيلُ ثَمَانَ مِئَةِ أَلْفِ رَجُل ذِي بَأْسٍ مُسْتَلِّ السَّيْفِ، وَرِجَالُ يَهُوذَا خَمْسَ مِئَةِ أَلْفِ رَجُل) (صم 2- 23- 9).

فهل تصدق- أيها القارئ الكريم - بأن ملكاً صغيراً كداود كان يملك مليونا ونصف المليون رجل؟!، ولو صح هذا الرقم- وما نراه صحيحاً أو قريباً من الصحيح - لكان عدد العبرانيين زمن الملك داود أكبر من عدد سكان دولة إسرائيل في الوقت الحاضر!، فهل هذا معقول؟!

وإذا صدقنا أن عدد الرجال كان يبلغ المليون ونصف المليون ومثلهم للنساء وضعفيهما - أو أكثر - للأطفال فلربما وصل العدد الإجمالي إلى ما يقارب العشرة ملايين، وهو رقم خرافي هائل، ربما كان يربو على عدد سكان إمبراطوريتين كاملتين من إمبراطوريات العالم القديم، خاصةً إذا ما تذكرنا أن العبرانيين لم يكونوا يملكون إلا جزءاً صغيراً من تلك الأرض الصغيرة، وكان يعيش فيها إلى جوارهم الكنعانيون والفلسطينيون.

ومن ناحية أخرى فهل كانت تلك الأرض القاحلة تستطيع أن تعيل كل هذه الأعداد الخرافية؟ !

أما الحقائق الجغرافية فتقول بأن تلك المنطقة (وإن عدت الأماكن المروية في بعض الأيام (أرضاً جميلة) وأرضاً (تدر لبناً وحليباً وعسلاً) فإن المعيشة ظلت فيها قليلة الاستقرار، ولم يكن في إمكانها أن تغذي عدداً كبيراً من السكان، ويبدو أن هذا العدد لم يتجاوز المليون نسمة على عهد الكتاب المقدس. فأورشليم والسامرة وهما أكبر المدن لم يتجاوز عدد سكانهما الثلاثين ألفاً ولم تكن سائر المدن سوى قرى محصنة وكان باقي السكان يقيمون في مزارع مجمعة حول عيون الماء [630])، ومن ناحية أخرى فمَن يقرأ ما ذكره المؤرخون عن أعداد الجيوش المتحاربة بين المصريين والحيثيين أو في

[630]- (انظر مقدمة الكتاب المقدس الترجمة اليسوعية - ص 41)

الحروب البونية أو في صراع الإسكندر مع الإمبراطورية الفارسية أو في حروب روما نفسها فلن يجد أمثال تلك الأعداد الهائلة أبداً!

وربما كان الأعجب من قبول النبي لتلك الأعداد الخرافية هو كيف قبل النبي أن ينزل الله تلك العقوبة الشديدة بسبب تلك الخاطرة التي وقعت في عقل نبي؟!، وكيف ساغ عنده أن تموت عشرات الآلاف من الأرواح المؤمنة من أجل تلك الخاطرة العابرة التي وقعت في قلب ذلك النبي؟!، أما عن الذنب التوراتي فلم يأت النبي على ذكره مما يوحي بأنه لم يكن في ذاته ذنباً عند النبي بل إننا نجد النبي لا يجد حرجاً في يحصي له عدد أتباعه كما يدل على ذلك هذا الحديث (أحصوا لي كل من تلفظ بالإسلام [631])، وأما الذنب الذي نسبه الحديث إلى ذلك النبي القديم فهو ما استخلصه النبي من مغزى الإحصاء، أو من غيره ؛ حيث أرجعه النبي مباشرة إلى ما وقع في نفس ذلك النبي من عجب وزهو ومن اعتماد على قوة رجاله.

وأما عن قبول النبي لتلك العقوبة الشديدة على مجرد خاطرة عابرة تسللت إلى عقل نبي يهودي، فلربما كان يقف من خلف قبولها ما اعتقده النبي من وجود تلك الأغلال التي فرضها الله على بني إسرائيل، والتي ستحتاج إلى نبي جديد يأتي بشريعة جديدة سمحة تخفف من وطأة وصرامة تلك الأغلال، وكان الرسول محمد ـ في اعتقاد نفسه ـ هو ذلك النبي الذي وضع الله بشريعته هذه الأغلال عن بني إسرائيل كما نصت عليه هذه الآية: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [الأَعۡرَاف : 157]

---

[631] (انظر السلسلة الصحيحة للألباني برقم (246)
ونجد ـ أيضا ـ مثل تلك الأعداد الخرافية قبل ذلك في حرب شاول مع شعب صغير مثل العمونيين حيث دعا شاول المتطوعين من إسرائيل ويهوذا فاجتمع إليه في بازق (330 ألف رجل)(انظر 1صم 7:11-8) واذا تذكرنا (أن الرجل يصبح صالحا للخدمة العسكرية متى بلغ العشرين من العمر (انظر عد 26:3،3:1)وكان اللاويون (من ابن خمس وعشرين سنة فصاعدا يأتون ليتجندوا أجنادا في خيمة الاجتماع ومن ابن خمسين سنة يرجعون من جند الخدمة)(عدد 8-:24و25)فكم يكون العدد الإجمالي إذن ؟ (انظر 324- مادة عمر ـ أعمار ـ دائرة المعارف الكتابية ـ المجلد الخامس)

(ويضع عنهم إصرهم) الإصر: الثقل، قال مجاهد وقتادة وابن جبير. والإصر - أيضاً -: العهد، قال ابن عباس والضحاك والحسن. وقد جمعت هذه الآية المعنيين، فإن بني إسرائيل قد كان أخذ عليهم عهد أن يقوموا بأعمال ثقال، فوضع عنهم بمحمد صلى الله عليه وسلم ذلك العهد وثقل تلك الأعمال، كغسل البول، وتحليل الغنائم، ومجالسة الحائض ومؤاكلتها ومضاجعتها، فإنهم كانوا إذا أصاب ثوب أحدهم بول قرضه. وروي: جلد أحدهم. وإذا جمعوا الغنائم نزلت نار من السماء فأكلتها، وإذا حاضت المرأة لم يقربوها، إلى غير ذلك[632]).

وليس من البعيد كما قال المفسرون أن تكون من بين تلك الأغلال الثقيلة أنهم كانوا يعاقبون على الخاطرات النفسية، ولهذا فقد أخرج النبي الخواطر الإنسانية من بين الذنوب التي يعاقب عليها الله أمته كما يدل عليه هذا الحديث (إن الله تعالى تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها ما لم تتكلم به أو تعمل به[633]).

ومن ينظر فيما أورده شراح الأحاديث فلن نجد شارحاً واحداً توقف - ولو لبرهة واحدة -، ليتساءل عن مدى معقولية أن يُميت الله سبعين ألف رجل مؤمن من أجل خاطرة عبرت في عقل نبي؟ ودون أن يعاقب هذا النبي ولو بمعاتبة إلهية لطيفة!

والحقيقة الواضحة أن تصديق النبي بوقوع تلك القصة الخرافية القديمة هي ما جعلته يقبل تلك الدلالات الفظة، والتي لا موضع لها فيما جاء به هو عن الله، بل إننا نرى كيف تسللت من خلف هذا الحديث صورة الرب التوراتي المتعطش للدماء، والذي لم يكن يعاقب المخطئ في نفسه، بل يعاقبه في ممتلكاته الحية مثله في ذلك مثل سِفاح أثيم يريد أن يوجع إنساناً فيقتل أبناءه ليعذبه بأوجاع فقدهم.

ولربما تفيد تلك الطريقة في الفهم فتكشف لنا اللثام عن بعض ما كان يجري في بواطن النبي من مشاعر إنسانية، لكنه كان يغالبها فيغلبها بقوة إيمانه، فأمثال تلك الأحاديث - هي كما نرى - وثائق نفسية ربما كانت بالغة الأهمية لمعرفة باطن النبي، وممرات شعوره، ومن فاتته دلالتها فقد فاته الكثير. وأما عن تفاعل النبي مع تلك القصة وأمثالها فقد كان عظيماً، ولعله يفسر لنا كل مظاهر الاتضاع المؤثرة في سلوك النبي

---

[632] تفسير القرطبي - ج7 ص 300) فهنا نجد الله يبشر موسى بأنه سيضع عن بني اسرائيل كثيرا من الأغلال عندما يرسل اليهم نبيه الخاتم !

[633]- صحيح الجامع الصغير وزياداته برقم (1730)

خاصة بعد النصر على أعدائه، فيذكر لنا كتاب السيرة مثلاً - صوراً وصفية بالغة الجلال فيخبروننا - مثلاً- كيف دخل النبي مكة عندما فتحها متضعاً خاشعاً، محنياً رأسه حتى لامس رأسه عنق بعيره، لحظة اقتحامه لتلك القرية المتجبرة التي خرج منها من سنوات قليلة خائفاً يترقب، وليس من مقابل تاريخي لهذا الاتضاع الخاشع عند أي من الفاتحين الظافرين، ولكنها النبوة!

الحديث العاشر
موسى وملَك الموت

(عن أبي هريرة قال: أرسل ملك الموت إلى موسى عليهما السلام، فلما جاءه صكه، فرجع إلى ربه، فقال: أرسلتني إلى عبد لا يريد الموت، فرد الله عليه عينه وقال: ارجع، فقل له: يضع يده على متن ثور فله بكل ما غطت به يده بكل شعرة سنة، قال: أي رب، ثم ماذا؟ قال: ثم الموت، قال: فالآن، فسأل الله أن يدنيه من الأرض المقدسة رمية بحجر، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فلو كنت ثم لأريتكم قبره، إلى جانب الطريق، عند الكثيب الأحمر.)

(جاء ملك الموت إلى موسى عليه السلام. فقال له: أجب ربك قال فلطم موسى عليه السلام عين ملك الموت ففقأها، قال فرجع الملك إلى الله تعالى فقال: إنك أرسلتني إلى عبد لك لا يريد الموت، وقد فقأ عيني، قال فرد الله إليه عينه وقال: ارجع إلى عبدي فقل: الحياة تريد؟، فإن كنت تريد الحياة فضع يدك على متن ثور، فما توارت يدك من شعرة، فإنك تعيش بها سنة، قال: ثم مه؟ قال: ثم تموت، قال: فالآن من قريب، رب أمتني من الأرض المقدسة، رمية بحجر، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: والله لو أني عنده لأريتكم قبره إلى جانب الطريق، عند الكثيب الأحمر[(634)].)

هذا حديث آخر يقدم لنا تطبيقاً عملياً لما قرره القرآن للملائكة من مهام ووظائف، من بينها قبض أرواح العباد، سواء أكان ذلك عن طريق ملَك واحد كما تقرر هذه الآية: ﴿۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾﴾ [السَّجْدَة:١١]، أو من خلال عدد من الملائكة كما في هذه الآية : ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الأَنْعَام:61]

يؤكد -هذا الحديث بروايته- تلك الخصيصة العجيبة التي منحها النبي محمد للأنبياء، وهي أنهم يخيرون عند موتهم بين البقاء في الدنيا أو الانتقال إلى الرفيق الأعلى،

(634) الحديث الأول رواه البخاري في صحيحه في كتاب الجنائز باب من أحب الدفن في الأرض المقدسة ورقمه 1339، والحديث الثاني رواه مسلم في كتاب الفضائل - باب فضائل موسى صلى الله عليه وسلم ورقمه (2372)

فقد أرسل الله هنا ملك الموت متجسداً في صورة بشرية لكي يقبض روح نبيه موسى، ولكن لأن موسى رجل كانت به حدة، فقد لطَم ملَك الموت لطمة أفقدته إحدى عينيه، فعاد الملاك الرهيب إلى الله شاكياً بطش موسى به، فرد الله عليه تلك العين، وأمره أن يعود إلى موسى ويطلب منه أن يضع يده على ظهر ثور ثم يعد الشعرات التي غطتها يده، فيكون له بكل شعرة من تلك الشعرات سنة، ويكون أجله من السنوات بعدد تلك الشعرات، وبذلك ينال حياة مديدة، ولكن موسى عندما استعلم من ملك الموت عما وراء تلك الحياة المديدة، فلما علم أنه الموت فقد اختاره من قريب؛ فما عند الله لرسله وأنبيائه خير وأبقى.

مَنْ يقرأ هذا الحديث ملياً فلن يغيب عنه أن موسى لم يكن يعلم بتلك المزية إلا إذا افترضنا أن موسى قد عاجل ملك الموت قبل أن يعرض عليه هذا التخيير، وعلى كل حال، فنحن لا نشك في أن تلك المزية التي منحها النبي للأنبياء قد جاءت في فترة متأخرة من حياة النبي، فليس من أثر لمثل ذلك التخيير في القرآن، بل لعل فيما قرره القرآن وعشرات الأحاديث من أن الأعمار لا تقدم ولا تؤخر، ما يتعارض بشكل واضح مع تلك المزية، سوى إذا افترضنا أن تلك المزية إنما هي استشارة للتكريم، وليست على الحقيقة إذ هي تنطلق من التصور المحمدي عن نفسه وافتراضه أن الأنبياء كانوا جميعاً مثله في ذلك ؛ أي أنهم عاشوا حياتهم كلها يشتاقون إلى لقاء ربهم وقربه، فليس من المعقول أن يتلكأ النبي ويفضل بقاءه في الدنيا على لقاء ربه ورضوانه، فهو إذاً استئذان يعطي معنى التشريف والتكريم، لأن هذا لو كان على حقيقته لاضطرب تاريخ العالم، ولكن هناك مَن يفهم الأمر على حرفتيه مثل هذا الشارح الصالح: (ولو فعل موسى ذلك فمن المرجح أن يكون لا زال حياً إلى اليوم [635]).

من الضروري القول إن التوراة لم تعرف مثل هذا التخيير، وما كان لها أن تعرفه، فهو مؤسس على علاقة مفترضة عن الله والأنبياء لا علاقة له بما كان بين الله وأنبيائه في التوراة كما سنرى، ولكن آخر الحديث له مقابل مختلف في الرواية التوراتية عن موت موسى وتمنيه على الله أن يكحل ناظريه برؤية الأرض الموعودة قبل أن يموت كما جاء في (تثنية 3 : 23-29، 34: 1-7).

---

(635) الأشقر ص 99

في هذا الحديث صمت غير مستغرب عن تعليل حرمان موسى الدخول مع قومه إلى الأرض المقدسة فنحن نعلم أن القرآن - كما جاء في سورة المائدة - قد جعل من التيه عقوبة لبني إسرائيل الذين جبنوا عن الدخول إليها ومحاربة أهلها ومع ذلك فقد سمى القرآن عدم دخولهم(تيهاً) رغم أنهم - في الحقيقة - قد خرجوا من هذا التيه، وأصبحوا على مرمى حجر من الأرض الموعودة، ولكن الأعجب أن التوراة تقول هذا القول الغريب أيضاً، ويبدو أن القرآن وقد قبل ما أوردته التوراة عن عدم دخول موسى مع قومه، ولكنه لم يوافق تلك الرواية على جعل حرمان موسى معهم باعتباره عقوبة له، بل لم يدخل موسى الأرض المقدسة مع الداخلين سوى لأنه كان قد استنفد ما كتبه الله له من أيام في الدنيا، وليس من إشارة إلى حرمانه من دخول الأرض المقدسة عن حرمان موسى - ومعه هارون - دخول الأرض المقدسة بسبب تشككهما في قدرة الرب على إخراج الماء من الصخر -، ولا ندري لما يشك موسى في قدرة الله على ذلك، رغم أن الله قد قدم له سابقاً براهين مقنعةً للغاية على قدرته على ذات الفعل، بل وعلى ما هو أصعب منه بكثير - ولكن هذا هو ما حدث! (عدد 20 : 12-13).

ينتهى الحديث بوصف قبر موسى ؛ إذ لو كان النبي هناك لأراه لأصحابه عند الكثيب الأحمر فقد كان القبر ظاهراً على سطح الأرض!، ولكن التوراة تذكر أن قبر موسى لم يعرفه إنسان إلى هذا اليوم ؛ أي إلى اليوم الذي حررت فيه التوراة، وكتبت بعد موت موسى بقرون طويلة (فَمَاتَ هُنَاكَ مُوسَى عَبْدُ الرَّبِّ فِي أَرْضِ مُوآبَ حَسَبَ قَوْلِ الرَّبِّ. وَدَفَنَهُ فِي الجِوَاءِ فِي أَرْضِ مُوآبَ مُقَابِلَ بَيْتِ فَغُورَ. وَلمْ يَعْرِفْ إِنْسَانٌ قَبْرَهُ إِلى هَذَا اليَوْمِ.(تثنية 34 : 5-6)[636].

[636] رغم أن الوصف النبوي لن يفيد كثيرا ؛ فما أكثر الكثبان الحمراء وغير الحمراء في تلك المنطقة، ولكن ينبغي أن يشمر المنقبون عن سواعدهم على كل حال، فهناك من يسعده أن يدفع الملايين، بل مئات الملايين لكى يعرف موضع هذا القبر لكى يستقين الملحدون من أن إنسانا اسمه موسى قد وجد في هذا العالم ! ولا ينبغي أن يدهش القارئ العزيز إذا علم أن كاتب هذه الجملة هو موسى نفسه، فمن المعروف أن جميع اليهود والمسحيين التقليديين يؤمنون بأن التوراة ؛ أي الأسفار الخمسة قد كتبها موسى بنفسه، بما فيها تلك الفقرة التي جعلت مفكرا وفيلسوفا يهوديا مثل باروخ اسبينوزا يجهر قبل مئات السنين أن تلك الأسفار ليست بقلم موسى في شيء، بل كتبت بعد وفاته بزمن طويل

أصل القصة

أما أقرب ما وجدناه لأصل تلك القصة فهو ما جاء في التلمود البابلي على هذا النحو: في تلك الساعة (ساعة موت موسى)، قال لملَك الموت، "اذهب وأحضر لي روح موسى". ذهب ملك الموت ووقف أمامه، وقال؛ "يا موسى سلّمني روحك" ووبخه موسى بقوله؛ " في المكان الذي أجلس فيه ليس لديك الحق بأن تقف وتقول لي؛ "سلمني روحك "، وبخه وصرفه بعيدا بغضب. أخيراً تدخل الرب المقدس - تبارك، وقال لموسى؛ " يا موسى لقد أخذت ما فيه الكفاية من هذا العالم؛ ينتظرك العالم الآخر منذ ستة أيام الخلق " كما هو منصوص؛ " وقال الرب: انظر هناك مكان مي، وأنت يجب أن تقف على الصخرة " أخذ الرب - تبارك هو - روح موسى وخزّنها تحت عرش السعادة السماوية، كما هو منصوص؛ " روح إلهي يجب أن تتوجه إلى صرة الحياة مع الرب إلهك " عندما أخذ روحه كانت هذه مع قُبلة، كما هو منصوص؛ " من فم الرب".[(637)]

(637) التلمود البابلي – المؤسسة الأردنية للبحوث والمعلومات – المجلد العشرون- 2011م- ص 60

الحديث الحادي عشر
قصة جريج العابد

روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة : عيسى، وكان في بني إسرائيل رجل يقال له : جريج كان يصلى فجاءته أمه فدعته فقال: أجيبها أو أصلي؟! فقالت : اللهم لا تمته حتى تريه وجوه المومسات، وكان جريج في صومعته فتعرضت له امرأة وكلمته فأبى فأتت راعيا فأمكنته من نفسها فولدت غلاما فقالت: من جريج فاتوه فكسروا صومعته وأنزلوه وسبوه فتوضأ وصلى ثم أتى الغلام فقال: مَن أبوك يا غلام؟ قال: الراعي قالوا: نبني صومعتك من ذهب قال: لا إلا من طين).

وروى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة أنه قال: (كان جريج يتعبد في صومعة فجاءت أمه قال حميد فوصف لنا أبو رافع صفة أبي هريرة لصفة رسول الله صلى الله عليه وسلم أمه حين دعته كيف جعلت كفها فوق حاجبها ثم رفعت رأسها إليه تدعوه، فقالت: يا جريج أنا أمك كلمني فصادفته يصلي، فقال: اللهم أمى وصلاتي فاختار صلاته فرجعت ثم عادت في الثانية فقالت: يا جريج أنا أمك فكلمني. قال: اللهم أمي وصلاتي فاختار صلاته فقالت: اللهم إن هذا جريج وهو ابني وأني كلمته فأبى أن يكلمني فلا تمته حتى تريه المومسات. قال ولو دعت عليه أن يفتن لفتن قال: وكان راعى ضان يأوي إلى ديره قال فخرجت امرأة من القرية فوقع عليها الراعي فحملت فولدت غلاماً فقيل لها ما هذا؟، قالت: مَن صاحب هذا الدير، قال: فجاؤوا بفؤوسهم ومساحيهم فنادوه فصادفوه يصلي فلم يكلمهم، قال: فأخذوا يهدمون ديره فلما رأى ذلك نزل إليهم، فقالوا له: سل هذه، فتبسم ثم مسح رأس الصبي فقال من أبوك؟ قال أبو راعي الضأن فلما سمعوا ذلك منه قالوا: نبني ما هدمنا من ديرك بالذهب والفضة قال: لا ولكن أعيدوه تراباً كما كان ثم علاه).

وفي رواية عند مسلم - أيضاً - عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (لم يتكلم في المهد الا ثلاثة: عيسى ابن مريم، وصاحب جريج وكان جريج رجلاً عابداً فاتخذ صومعة فكان فيها فأتته أمه وهو يصلي فقالت: يا جريج فقال: يا رب أمي وصلاتي فأقبل على صلاته فانصرفت، فلما كان من الغد أتته وهو يصلي فقالت: يا جريج، فقال: يا رب أمي وصلاتي فأقبل على صلاته، فلما كان من الغد أتته وهو يصلي،

فقالت: يا جريج، فقال: أي رب أمي وصلاتي فأقبل على صلاته، فقالت: اللهم لا تمته حتى ينظر في وجوه الموسات فتذاكر بنو إسرائيل جريجاً وعبادته وكانت امرأة بغي يتمثل بحسنها، فقالت: إن شئتم لأفتننه لكم، قال: فتعرضت له فلم يلتفت إليها فأتت راعياً كان يأوي إلى صومعته فأمكنته من نفسها فوقع عليها فحملت فلما ولدت قالت هو من جريج، فأتوه فاستنزلوه وهدموا صومعته وجعلوا يضربونه فقال ما شأنكم؟، قالوا زنيت بهذه البغي فولدت منك فقال: أين الصبى[638] ؟ فجاؤوا به فقال دعوني حتى أصلى فصلى، فلما انصرف أتى الصبى فطعن في بطنه، وقال: يا غلام من أبوك؟، قال: فلان الراعي قال فأقبلوا على جريج يقبلونه ويتمسحون به وقالوا: نبني لك صومعتك من ذهب، قال: لا أعيدوها من طين كما كانت ففعلوا، وبينا صبي يرضع من أمه، فمر رجل راكب على دابة فارهة، وشارة حسنة، فقالت أمه: اللهم اجعل ابني مثل هذا، فترك الثدي وأقبل إليه، فنظر إليه، فقال: اللهم لا تجعلني مثله، ثم أقبل على ثديه فجعل يرتضع ". قال: فكأني أنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يحكي ارتضاعه بإصبعه السبابة في فمه، فجعل يمصها، قال: " ومروا بجارية وهم يضربونها ويقولون: زنيت، سرقت، وهي تقول: حسبي الله ونعم الوكيل، فقالت أمه: اللهم لا تجعل ابني مثلها، فترك الرضاع ونظر إليها، فقال: اللهم اجعلني مثلها، فهناك تراجعا الحديث، فقالت: حلقى مر رجل حسن الهيئة، فقلت: اللهم اجعل ابني مثله، فقلت: اللهم لا تجعلني مثله، ومروا بهذه الأمة وهم يضربونها ويقولون زنيت، سرقت، فقلت: اللهم لا تجعل ابني مثلها فقلت: اللهم اجعلني مثلها، قال: إن ذاك الرجل كان جبارًا، فقلت: اللهم لا تجعلني مثله، وإن هذه يقولون لها زنيت ولم تزن، وسرقت ولم تسرق فقلت: اللهم اجعلني مثلها[639]).

هنا نجد رجلاً متعبداً من بني إسرائيل يتنسك في صومعته متوحداً لا يريد أن يشغله شاغل عن رياضته الروحية، ولكنه كان يبالغ كثيراً، حتى إنه لم يرد أن يلقى أمه العجوز التي جاءت - مراراً - كي تزوره فغضبت الأم من شدة جفائه، ودعت على ابنها

---

[638] كيف عرف الراهب أنه صبي ولم يكن قد رآه بعد ولم يخبره أحد - وفق هذه الرواية الثالثة - عما إذا كان المولود ذكرا أو أنثى ؟!

[639] رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أبى هريرة وهو في صحيح البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء باب قول الله (واذكر في الكتاب مريم)(ورقمه 3436) ورواه في باب دون ترجمة ورقمه (3466)
ورواه تعليقا في كتاب العمل في الصلاة باب (إذا دعت الأم ولدها في الصلاة) ورقمه (1206)
ورواه مسلم في كتاب المظالم باب (إذا هدم حائطا فليبن مثله) (5-126)
ورواه مسلم في كتاب البر والصلة باب (تقديم بر الوالدين على التطوع في الصلاة) ورقمه (2550)

الناسك بأن يتعرض لمكائد المومسات - واستجاب الله لتلك الدعوة -على ما فيها من غرابة[640] -، فقد حاولت إحدى البغايا أن تواصله، لكنه تأبى عليها - كما هو متوقع من عابد صالح - فكادت له، بأن أسلمت نفسها إلى راع من الرعاة، ولما حملت منه ادعت أن وليدها من الناسك الزائف فغضب من كان يعتقد في صلاحه وتقواه، وأنزلوه من صومعته وأهانوه صفعا وشتما لكن الله - بعد لقنه هذا الدرس الذي أفهمه به قداسة حرمة الأم وعظيم مكانتها- فقد أنطق له - وعلى مسمع من جميع متهميه - هذا الوليد الصغير والذي انتسب إلى أبيه وابرأ الرضيع ساحة العابد التقى وحلت المشكلة!

لا ندري في البداية هل ينبغي التوسع في مدلول تعبير(بني إسرائيل) فتشمل معهم النصارى أم أن الحديث يقول بوقوع تلك القصة عند طائفة من اليهود قبل المسيح؟!، فمنطوق الحديث يشير إلى بني إسرائيل أي إلى اليهود خاصة، ولكن من المعلوم أن اليهودية وأهلها لم يعرفوا الصوامع التي يعتزل فيها النساك للتعبد والرياضة الروحية[641] ، إلا ما كان من طائفة الأسينيين قبل الميلاد بقرنين أو بثلاثة قرون، ولكنها كانت جماعة هامشية منعزلة ظلت تعيش حياة جماعية مشاعية، ويتشارك أهل تلك الطائفة القليل الذي يمتلكونه على السواء، بل إن هذه الرهبنة هي منحة المصريين للعالم، سواء أكانت رهبنة فردية عند القديس باخوم أو رهبنة جماعية عند القديس أنطونيوس في منتصف الثاني للميلاد، ويكفي النظر في اسم هذا الراهب لكي نعرف أنها قصة ربما بلغت النبي من التراث المسيحي، وما أكثر معجزات الآباء المتوحدين التي يرويها كتب التاريخ الكنسي العام!

سنكتفي هنا: أولاً بما ينص عليه الحديث من أن ذاك العابد عندما ألمت به تلك المحنة القاسية، والتي أطاحت بقداسته عند أهل القرية توضأ وصلى، أي صلاة حاجة إلى الله لكي يخرجه من تلك البلية التي ألمت به دون أن يعلم عنها شيئاً مما يدل - كما قلنا -على اعتقاد النبي في حضور شعيرة الوضوء عن الأمم المسلمة السابقة:

---

(640) والمعنى أنها لو دعت عليه أن يفتتن بالوقوع في خطيئة الزنا للبى لها الله رغبتها وهو فهم عجيب لتأثير الدعاء ! فكيف يستجيب الله لدعاء أم غاضبة على ولدها بالوقوع في الزنا ؟ ولا ندري كيف يتوافق هذا ما جاء في أحاديث النبي الأخرى التي تنص على أن الله لا يستجيب دعاء يوقع في الآثام أو يقطع الأرحام كما في هذا الحديث : (ما من أحد يدعو بدعاء إلا آتاه الله ما سأل أو كف عنه من السوء مثله ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم) (انظر - صحيح الجامع الصغير وزياداته برقم (5678)

(641) ومن المعلوم أن اليهود لم يعرفوا الانقطاع للعبادة في صوامع وأديرة

(كان الوضوء مشروعاً لدى الأمم من قبلنا فقد توضأ جريج وصلى ثم طعن في بطن الغلام[642])

ونجد ـ أيضاً ـ في عقوبة الراهب على هذا النحو تعليقاً محمدياً واضحاً على استنكار المغالاة في التنسك والتنطع في العبادة، حيث جعل القرآن من الرهبانية بدعة تخرج عن حدود الاعتدال الذي كان النبي محمد يحبه في أموره كلها، رغم أن الرهبنة ـ في اعتقادنا ـ إنما هي متنفس ربما كان ضرورياً لبعض الأفراد من أصحاب النزعات التقوية القوية من الذين لا يقر لهم قرار بين أبناء الدنيا [643]، ولكن النبي لم يسغ هذا الأمر خاصةً عندما يجور التشدد والاستغراق في العبادة على الأرحام التي لا أقرب منها .

أما عن موقف الإسلام من الرهبانية فقد حرمها النبي كما هو معلوم بحديثه الشهير(لا رهبانية في الإسلام ...) وحض أصحاب تلك النزعات القوية إلى عدم الاسترسال معها مفضلاً القصد والاعتدال في المناشط الإنسانية كلها أما عن موقف الإسلام من أهل الرهبانية في الأمم السابقة فلم يكن بكل هذا الوضوح، خاصةً أننا لا نعلم بدقة دلالة ما تعنيه هذه الآية: ﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْإِنجِيلَ ۖ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً ۚ وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَـٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الحَدِيد : 27].

والآية وإن كانت جعلت الرهبانية مما ابتدعه الناس، ولم تكن من شريعة الله، لكنها رغم هذا تحمل معنى متعاطفا مع هذا النزوع شريطة الوفاء بتلك الحقوق متى ألزم الإنسان نفسه بها، والآية تخبر عن إثابة الله لمن قام بحق تلك الحياة الخاصة مع

---

[642] صحيح القصص النبوي - الأشقر ص 278)

[643] يمكن للقارئ الكريم أن يجد تجسيدا لتلك الحالة الخاصة من الانقباض عن أفراح الحياة الدنيوية وعمق النزوع الروحي الذي يدعو صاحبة إلى الفرار من الدنيا وأهلها بقراءة سيرة حياة ناسك وراهب ولاهوتي مصري صالح رحل عن عالمنا منذ سنوات قليلة وهو الأب متى المسكين بالرجوع إلى كتاب : أبونا متى المسكين ـ السيرة التفصيلية ـ إعداد رهبان دير الأنبا مقار ـ الطبعة الأولى ـ 2008م

سوء ظن النبي بكثير من الرهبان ولعل هذا الانطباع السلبي كان أثراً من آثار ما حكاه سلمان الفارسي للنبي محمد عن تجربته قبل الإسلام مع الرهبان [644].

هنا لابد من أن نلحظ هذا الملمح المشترك في قصص إنطاق الأطفال في المهد - كما جاءت في كثير من الأحاديث - حيث نجدهم جميعاً ينطقون لإبراء أناس صالحين من التهم المُشينة، مثل قصة مريم أم المسيح في الأناجيل غير القانونية، أو قصة هذا الراهب مع تلك البغي، أو تثبيت بعض المؤمنين عند الوقوع في المحنة مثل حديث ابنة ماشطة فرعون، أو ذلك الرضيع الحكيم الذي تدخل لتصحيح ما تطلبه أمه له من خير كما جاء في خاتمة رواية مسلم، وإنما يجب أن نتساءل هنا عما إذا كانت تلك القصة قد صنعت على غرار نطق المسيح في المهد أم أن قصة نطق المسيح في الأناجيل والمرويات غير القانونية قد اخترعت بإيحاء منها؟!

ولكن يكفي أن نعلم من وجود أمثال هذه القصص بأن قصص إنطاق الله للأطفال كانت ذائعة شائعة ؛ لذا فلم ير النبي بأسا من قبول بعض ما جاء في الأناجيل غير القانونية عن نطق المسيح؛ لأنه إذا كان الله ينطق أطفالاً لتبرأة أناس صالحين من عامة المؤمنين فكيف لا يفعل الله ذلك مع صديقة صالحة مثل مريم أم نبي عظيم القدر مثل السيد المسيح!

وسنكتفي بالتعليق على قصة جريج وحدها، ولكن ينبغي أن نلحظ هنا قول الجارية المسكينة وهي تقول لظالميها (حسبي الله ونعم الوكيل)، وهو قول يستخدمه القرآن لمَنْ كان في شدة ويعلم ألا ناصر له إلا الله كما جاء في هذه الآية

﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ ﴾ [آل عِمۡرَان : 173]

ونلحظ - أيضاً - غياب أي أثر للتعبير عن الدهشة من تلك الأم التي أنطق الله لها رضيعها، ليصوب لها معايير رجائها فيه، بل نراها تخاطبه كما لو كانت تخاطب شاباً عاقلاً، بل ونراها تغضب منه وتدعو عليه!

---

[644] (انظر حديث إسلام سلمان في مسند احمد برقم (23737)، وحسنه الشيخ مقبل الوادعي في كتابه : (المسند الصحيح من دلائل النبوة)

الحديث الثاني عشر
هاجر وسارة

روى البخاري في صحيحه عن سعيد بن جبير قال: قال ابن عباس: (أول ما اتخذ النساء المنطق أم إسماعيل؛ اتخذت منطقا لتعفي أثرها على سارة، ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل وهي ترضعه حتى وضعهما عند البيت عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها ماء فوضعهما هنالك ووضع عندهما جرابا فيه تمر وسقاء فيه ماء ثم قفي إبراهيم منطلقا فتبعته أم إسماعيل فقالت: يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه إنس ولا شيء ؟ فقالت له ذلك مرارا وجعل لا يتلفت إليها فقالت له: الله الذي أمرك بهذا ؟ قال: نعم قالت: إذن لا يضيعنا ثم رجعت فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت ثم دعا بهؤلاء الكلمات ورفع يديه فقال (ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم- حتى بلغ - يشكرون) . وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء حتى إذا نفد ما في السقاء عطشت وعطش ابنها وجعلت تنظر إليه يتلوى أو قال يتلبط فانطلقت كراهية أن تنظر إليه فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها فقامت عليه ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحدا فلم تر أحدا فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادي رفعت طرف درعها ثم سعت سعي الإنسان المجهود حتى إذا جاوزت الوادي ثم أتت المروة فقامت عليها ونظرت هل ترى أحدا فلم تر أحدا ففعلت ذلك سبع مرات . قال ابن عباس قال النبي صلى الله عليه وسلم (فذلك سعي الناس بينهما). فلما أشرفت على المروة سمعت صوتا فقالت صه - تريد نفسها - ثم تسمعت - أيضاً - فقالت : قد أسمعت إن كان عندك غواث فإذا هي بالملك عند موضع زمزم فبحث بعقبه أو قال بجناحه حتى ظهر الماء فجعلت تحوضه وتقول بيدها هكذا وجعلت تغرف من الماء في سقائها وهو يفور بعدما تغرف. قال ابن عباس قال النبي صلى الله عليه وسلم (يرحم الله أم إسماعيل لو تركت زمزم - أو قال لو لم تغرف من الماء - لكانت زمزم عينا معينا). قال: فشربت وأرضعت ولدها فقال لها الملك: لا تخافوا الضيعة فإن ها هنا بيت الله يبني هذا الغلام وأبوه وإن الله لا يضيع أهله. وكان البيت مرتفعا من الأرض كالرابية تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وشماله فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جرهم أو أهل بيت من جرهم مقبلين من طريق كداء فنزلوا في أسفل مكة فرأوا طائراً عائفاً فقالوا: إن

هذا الطائر ليدور على ماء لعهدنا بهذا الوادي وما فيه ماء فأرسلوا جريا أو جريين فإذا هم بالماء فرجعوا فأخبروهم بالماء فأقبلوا قال وأم إسماعيل عند الماء فقالوا: أتأذنين لنا أن ننزل عندك؟ فقالت: نعم ولكن لا حق لكم في الماء قالوا: نعم . قال ابن عباس قال النبي صلى الله عليه وسلم (فألفي ذلك أم إسماعيل وهي تحب الأنس). فنزلوا وأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم وشب الغلام وتعلم العربية منهم وأنفسهم وأعجبهم حين شب فلما أدرك زوجوه امرأة منهم وماتت أم إسماعيل فجاء إبراهيم بعدما تزوج إسماعيل يطالع تركته فلم يجد إسماعيل فسأل امرأته عنه فقالت: خرج يبتغي لنا ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم فقالت: نحن بشَّر، نحن في ضيق وشدة فشكت إليه قال: فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام وقولي له يغير عتبة بابه فلما جاء إسماعيل كأنه آنس شيئا فقال: هل جاءكم من أحد؟ قالت: نعم جاءنا شيخ كذا وكذا فسألنا عنك فأخبرته وسألني كيف عيشنا فأخبرته أنا في جهد وشدة قال: فهل أوصاك بشيء؟ قالت: نعم أمرني أن أقرأ عليك السلام ويقول غير عتبة بابك. قال: ذاك أبي وقد أمرني أن أفارقك الحقي بأهلك فطلقها وتزوج منهم أخرى فلبث عنهم إبراهيم ما شاء الله ثم أتاهم بعد فلم يجده فدخل على امرأته فسألها عنه فقالت: خرج يبتغي لنا قال: كيف أنتم؟ وسألها عن عيشهم وهيئتهم قالت: نحن بخير وسعة وأثنت على الله. فقال: ما طعامكم؟ قالت اللحم. قال فما شرابكم؟ قالت الماء. قال اللهم بارك لهم في اللحم والماء. قال النبي صلى الله عليه وسلم (ولم يكن لهم يومئذ حب ولو كان لهم دعا لهم فيه). قال فهما لا يخلو عليهما أحد بغير مكة إلا لم يوافقاه. قال: فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام ومريه يثبت عتبة بابه فلما جاء إسماعيل قال: هل أتاكم من أحد؟ قالت: نعم أتانا شيخ حسن الهيئة وأثنت عليه فسألني عنك فأخبرته فسألني كيف عيشنا فأخبرته أنا بخير قال: فأوصاك بشيء قالت: نعم هو يقرأ عليك السلام ويأمرك أن تثبت عتبة بابك قال: ذاك أبي وأنت العتبة أمرني أن أمسكك ثم لبث عنهم ما شاء الله ثم جاء بعد ذلك وإسماعيل يبري نبلاً له تحت دوحة قريباً من زمزم فلما رآه قام إليه فصنعا كما يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد ثم قال: إن الله أمرني بأمر قال فاصنع ما أمرك ربك قال وتعينني؟ قال وأعينك قال فإن الله أمرني أن أبني ها هنا بيتا وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها قال فعند ذلك رفعا القواعد من البيت فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة وإبراهيم يبني حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له فقام عليه وهو يبني وإسماعيل يناوله الحجارة

وهما يقولان ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾ . قال فجعلا يبنيان حتى يدورا حول البيت وهما يقولان ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ[645] ﴾

ربما يصلح هذا الحديث لأن يكون مثالاً واضحاً بل نموذجاً للتقعيد النبوي لمسألتين بالغتي الأهمية في العقيدة الإسلامية، وأولهما: تأصيل وجود إبراهيم في مكة؛ حيث يمنح أساساً تاريخياً إضافياً لما كان شائعاً عند العرب قبيل البعثة النبوية من ارتباط العرب عامة وقريش خاصة بإبراهيم عن طريق ولده إسماعيل، وثانيها أنه يمنح تأصيلاً موغلاً في الزمان لما كان للكعبة من قداسة في الجاهلية وتأبدت بالإسلام، ويقدم تفسيراً مخيالياً لأصل شعائر الحج القديمة التي استبقى الإسلام - كما هو معروف - معظم أركانها بعد أن خلصها من رواسب الوثنية العربية، ومنحها مدلولات جديدة - تستحق الإعجاب حقاً- لتتوافق مع لباب عقيدة النبي وتعاليمه الأساسية كما سنرى لذا سنطيل الوقوف قليلاً عند هذا الحديث الهام .

أما عن أصل هذا الحديث فهو خليط غير منسجم من القصص التوراتية والتلمودية حيث نجد في بدايته أثراً واضحاً من تداخل حكايتين منفصلتين في القصة التوراتية أولاها عن قصة هرب هاجر من سيدتها المستبدة، والتي اغتاظت من حمل أمتها التي دفعتها بيديها إلى حضن زوجها إبراهيم، ولكن ملاك الرب يظهر لهاجر عَلَى الْعَيْنِ الَّتِي فِي طَرِيقِ (شُورَ) موصيا إياها بأن تعود أدراجها، وأن تخضع لسيدتها وتتحمل إذلالها[646]) .

ثم نراها ثانياً تنتقل بعدها مباشرة إلى قصة توراتية أخرى حدثت بعد القصة الأولى بزمن طويل، وهي ما كان من صرف إبراهيم لهاجر وابنها منصاعا لرغبة

---

[645] هذا الحديث رواه البخاري في حديثه في كتاب الأنبياء باب (واتخذ الله إبراهيم) (النساء125)(127/6 ورقمه (3364)
وفي كلام بن عباس في الحديث ما يدل على رفعه للرسول صلى الله عليه وسلم، فإن لم يكن بن عباس سمعه من الرسول (ص) فيكون مرسل صحابي ومراسيلهم حجة بلا خلاف

[646] انظر سفر التكوين إصحاح 16-الآيات من 1-10)، ولعل فيما أرده الحديث عن اتخاذ سارة المنطق لكي لا تتبعها سارة أثرا عن هذا التداخل بين القصتين لأننا لا نعرف ضرورة لهذا إلا لو كانت هاجر هاربة من وجه غريمتها التي أسلمها إبراهيم لها لتذلها بينما القصة تورد بعد هذا المقطع مباشرة أنها كانت في صحبة إبراهيم وليس من المعقول أن تطارد سارة هاجر وهي في صحبة إبراهيم مرتحلا بها !

زوجته التي أبت أن يتقاسم ابن الجارية ميراث أبيه مع ابنها إسحاق، وهو ما استاء منه إبراهيم - في البداية - لولا أن ملاك الرب - كما هو متوقع - قد أقنعه به [647]).

أما في الرواية الحديثية التي معنا فنجد فيها إبراهيم يأخذ هاجر وابنه إسماعيل ويمضي بهما مباشرة إلى مكان بعيد جداً عن موطنه مرتحلاً بهما إلى ذلك المكان الموحش، والذي سيكون مكة فيما بعد، وتحديداً عند دوحة فوق الموضع الذي سيتفجر منه نبع زمزم تاركاً مع زوجته وابنه قربة بها بعض الماء، وبعض التمر وبعد أن يغادرهما نراه يستقبل البيت الحرام ويدعو الله بما جاء في القرآن من دعاء جميل، وبعد أن نفد الماء وعطشت المرأة المنبوذة ورضيعها نرى هاجر تسعى في طلبه فتتردد لاهثة سبعة أشواط بين جبلي الصفا والمروة في سعيها اليائس بحثاً عن الماء ولهذا سعى العرب ومن بعدهم المسلمون بين هذين الجبلين الصغيرين إحياءً لتلك الذكرى البعيدة التي وقعت لهاجر وإسماعيل أبي العرب، بعدها يتدخل الرب الرحيم ويبعث ملكاً ليفجر الماء من تحت قدمي الصبي المبارك لكي ينقذ هاجر وابنها.

ثم تأتي قبيلة جرهم العربية بعدما أدركت أعجوبة وجود الماء في ذاك القفر المروع، ونراها تكلم هاجر وهي تفهم عنهم كلامهم ولا ندري كيف!، ثم نجدهم يستأذنونها في الإقامة معها فتأذن لهم هاجر شريطة أن تكون البئر لها، وتمر السنون ويكبر إسماعيل ويتزوج إليهم ويأتي إبراهيم بعد زمن طويل جداً فإذا هاجر قد ماتت منذ زمن بعيد، ونجد إسماعيل قد كبر وتزوج وخرج إلى الصيد ولا تحسن زوجته لقاءه وهنا يغادر إبراهيم هذا المكان - كما لو جاء من مسافة قريبة وليس على ظهر جمله مسيرة شهر أو ما يقاربه- مودعاً لدى الزوجة الغافلة رسالة إلى ابنه يقرأه فيها السلام ويوصيه بأن يختار زوجة أكثر لطفاً من تلك الزوجة التي لا تكرم الغرباء ولو بكلمة طيبة ،وتتكرر الزيارة بعد وقت طويل يكون إسماعيل قد طلق زوجته الأولى وتزوج بامرأة أخرى[648]

[647] (انظر سفر التكوين الإصحاح 21 الآيات من 10-19) حيث ستجد في تلك القصة كيف بدا إبراهيم في التوراة ضعيفا واهنا أمام سارة القوية المستبدة فلم يستطع إبراهيم أن يقف في وجهها عندما أمرته بإبعاد ابنه إسماعيل وسريته هاجر رغم ضيقه بالأمر فوجد كاتب التوراة حلا في التدخل الإلهي الذي أقنع إبراهيم وطمأنه على مصير ابنه إسماعيل ! وكذلك لم يجترئ إبراهيم على الزواج بامرأة أخرى إلا بعد وفاة سارة لينجب من (قطورة) كل هؤلاء البنين المختلقين كما أشرنا في موضعه

[648] لله در العلماء المسلمين ! فقد اطلعونا على اسمي هاتين المرأتين الجرهميتن اللتين تزوجهما إسماعيل الواحدة بعد الأخرى ولا ندري من أين عرفوا باسميهما ؟! (حَدِيث بن عَبَّاس فِي تزوج إِسْمَاعِيل بن إِبْرَاهِيم بالمرأتين من جرهم وَاحِدَة بعد أُخْرَى أما الأولى فَقَالَ المَسْعُودِيّ فِي مروج الذَّهَب هِيَ الجداء بنت سعد وَأما الثَّانِيَة فَحكى بن سعد عَن بن إِسْحَاق أَنَّهَا رعلة بنت مضاض بن عَمْرو وَقَالَ هِشَام بن الْكَلْبِيّ هِيَ رِعْلَةُ بِنْتُ يَشْجُبَ بْنِ يَعْرُبَ بْنِ لَوْذَانَ بن جرهم

والتي تحسن هذه المرة لقاء أبيه، والذي رجع ثانية إلى بلاده البعيدة دون أن يرى ابنه لكنه يترك لديها رسالة يقرأ ابنه فيها السلام ويثنى فيها على حسن اختياره هذه المرة ثم يأتي أخيراً ليتم اللقاء ويتعانقان ويبنيان الكعبة معا مرددين الآيات القرآنية التي أوردها القرآن على لسانيهما في سورة البقرة!

أما عن الاختلافات الكثيرة بين الروايتين فلا يعنينا من بينهما جميعاً سوى ما جاء فيهما عن نسل إسماعيل ومكانهم، فقد علمنا أن إسماعيل هو أب العرب ولما كان منفي هاجر وابنها وفق الرواية التوراتية قريباً من مصر، وليس بعيداً هكذا في بلاد العرب فقد اتخذت له أمه المصرية زوجة من بلدها، وهو أمر ينسجم مع الرواية التوراتية ؛ فلم يكن من ضرورة للذهاب بعيداً إلى هذه الدرجة لتغيُب هاجر وابنها عن عين الزوجة المفضلة لإبراهيم، وكلمة (صرفها) تشير بلا شك إلى أن هاجر ستمضي إلى مكان مأنوس قريب، ولن تتوغل في الصحراء مع طفلها، وأيضا لأن الإسماعيليين سيكونون جزءا من الأحداث التي ستتعرض لها التوراة بعد ذلك.

ولا نجد في التوراة شيئا مماثلاً لما جاء في الحديث عن تفجُر الماء من تحت قدمي الرضيع المبارك!، فالنص التوراتي يقول: (وفتح الله عينيها فأبصرت بئر ماء فذهبت وملأت القربة ماء وسقت الغلام) مما دعا كثيراً من الشُراح للقول بأن هاجر اهتدت بفضل من الله إلى بئر قديمة شربت منها هي وولدها: (قال بعضهم أن البئر كانت هنالك ولم تنشأ في الحال بدليل قوله إن الله فتح عينيها ولعلها استدلت عليها بنظرها إلى الأشجار والأعشاب التي تنمو في البراري عند المياه. [649])

ومن العجيب أننا لا نجد في هذا الحديث ذكراً لما همّ به إبراهيم من ذبح ابنه إسماعيل عند مَنْ يقول بأن إسماعيل هو (الذبيح [650]) فلم ير إبراهيم تركته - كما رأينا

وَقَالَ المَسْعُودِيّ هِيَ سامة بنت مهلهل بن سعد بن عَوْف وَقَالَ الدار قطني اسْمهَا السيدة وَقَالَ السُّهيْلي قيل اسْمهَا عَاتِكَة وَقَالَ الشريف الْحَرَّانِي هِيَ هَالة بنت الْحَارِث بن مضاض وَيُقَال سلمى وَيُقَال الحنفاء قلت وَالنَّفس إِلَى مَا قَالَ بن الْكَلْبِيّ أميل وَالله أعلم)(انظر ج1 ص 296من كتاب (فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر)

(649) (شرح سفر التكوين - وليم هارش ص (109)

(650) من بين ما أسماه علماء القرآن ب(مبهمات القرآن) قضية تحديد المقصود بمن هو(الذبيح) هل هو إسحاق أم إسماعيل وذلك لأنه لم يأتنا نص قراني حاسم في تلك القضية ولم يبلغنا كذلك حديث صحيح بشأنها .

والحقيقة أننا نعجب أشد العجب من عدم نص القرآن على اسم هذا (الذبيح) صراحة رغم اهتمامه الشديد بذكر قصة محاولة إبراهيم ذبح ابنه استجابة لرؤية منامية رآها ! فهي - بلا ريب - قصة بالغة الأهمية في دلالتها الدينية سواء لما تجليه عن عظمة تضحية الأب الذي عزم على التضحية بفلذة كبده كقربان إلى الله لمجرد ما ظنه أمرا إلهيا وبعدما

انتظره كل تلك السنوات الطويلة أو بما يدل عليه عميق استسلام ذلك الابن الصابر على أمر الله فانصاع في خشوع نبيل أمام مراد الله فيه فكيف يتصور أن لا يُنص عليه ؟!
ومن جانبنا فإننا نظن أن مرد ذلك الإغفال غير المفهوم ربما كان يعود إلى تردد النبي محمد نفسه في شأن هذا المذبوح وهو أمر لم نجد أحدا من المفسرين قد توقف عنده فيما قرآناه !
وسواء أصح هذا الذي ظنناه أم جانبه الصواب فقد أثار هذا الإبهام فضول المسلمين منذ عصر النبي فاختلفوا بين من يتابع التوراة فيقول بأن إسحاق هو الذبيح وبين من يخالفها ويؤكد أن القرآن يشير إلى إسماعيل ولقد ألفت كتب كثيرة جدا في تلك القضية كان أقدم ما طالعناه من بينها كتاب : (تبيين الصحيح في تعيين الذبيح للقاضي أبي بكر بن العربي - تحقيق - بدر العمراني الطنجي - الطبعة الأولى 2007م- دار ابن حزم بيروت لبنان -)
حيث أفادنا ابن العربي عن عظيم الاختلاف الذي شجر بين المسلمين منذ زمن النبي إلى زمان تأليفه لكتابه ، فقد جعل من بين القائلين بأن الذبيح هو (إسحق) : عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب وأبو ذر الغفاري وابن مسعود وجابر بن عبد الله وأبو هريرة والعباس بن عبد المطلب وابن عباس فيما ما رواه عنه ابن جبير - وهي الرواية التي معنا - ومعهم الحسن البصري والزهري والطبري وابن قتيبة وجعل من بين القائلين بان الذبيح هو (إسماعيل)عبد الله بن عمر وابن عباس - في رواية أبي الطفيل - وعمر بن عبد العزيز والسدي والكلبي والزهري وسعيد بن المسيب وأبو الحسن الأشعري وهو الراي الذي اختاره ابن العربي فقال (وهو الذي تميل النفس إليه) (انظر السابق ص 27 -29)
وأما عن الكتاب المحدثين فسيجد القارئ لما كتبوه أنهم لا يكادون يضيفون شيئا إلى تلك القضية، بل يتوسعون فحسب في ذكر شواهد الطرفين ويكلفون انفسهم عناء الرد على من يخالفونهم ويحشدون على ما يظنونه براهين وقرائن لصحة اختيارهم مثلما فعل الشيخ العلامة عبد الحميد الفراهي في كتابه : (الرأي الصحيح في من هو الذبيح - دار القلم دمشق - الطبعة الثالثة - 1418ه)
ولكن هناك من حاول أن يأتي بالجديد عبر تقديم قراءة مقارنة مدققة لدلالات تلك القصة كما جاءت في التوراة والقرآن مثلما فعل الأستاذ لخضر الشايب في كتابه : (قصة الذبيح بين الروايات الكتابية والإسلامية) مؤسسة الرسالة - الطبعة الأولى 2001م
ولن نتوقف عند ما جاء في هذا الكتاب الهام سوى لما يتعلق بهذا الحديث فقد حاول هذا الباحث تضعيف هذا الحديث الذي معنا باعتباره من كلام ابن عباس وليس فيه مرفوعا إلا عدة أقوال نسبها ابن عباس إلى النبي في ثنايا الحديث (أنظر السابق ص132) وتوسع المؤلف كثيرا في تقديم تصور وهمي طريف عن دلالة ما أسماه (هجرة إسماعيل) فلم يوافق على ما قاله ابن عباس وغيره ممن جعلوا هاجر تذهب بابنها كطريدة منبوذة تحمل رضيعها على كتفها مثلما يقول هذا الحديث وهو الرأي الذي شاع بين المسلمين القدامى والمحدثين بل يرجئ المؤلف تلك الهجرة إلى ما بعد نضج إسماعيل وإدراكه لنبوة أبيه وليستكمل إسماعيل في المنطقة الجديدة الموعودة بما قام به إبراهيم في مكانه فيقول : (أما عن السر في هذه الهجرة البعيدة فهو إرادة الله الدعوة إلى التوحيد في أرض العرب بواسطة إسماعيل فضلا عن أرادته التأسيس لنبوة النبي الخاتم الذي هيأت له سكنى إسماعيل في المنطقة أسباب الوجود ومجال الدعوة)(السابق ص 169)
ولن نناقش هذه القضية لأنها ليست مما يستهدفه هذا الكتاب فقد كتبت مؤلفات كثيرة لحل تلك المنازعة فليرجع إليها من شاء أن يطالعها ليشهد أي تنافس محزن استعر من قديم الزمان على الفوز بنسبة تلك الممارسة الوحشية- التي اتفقت عليها الأديان الكتابية جميعا - لكي يثبتوا أنها قد حدثت مع إسماعيل جد العرب أم وقعت مع إسحاق جد العبرانيين !
ولكن ينبغي أن نتذكر أننا إذا كنا قد وجدنا إبراهيم يناقش الرب في تدميره لسدوم وأخواتها فإننا لا نجده ينبس ببنت شفه عندما يتلقى هذا الأمر الإجرامي بتقديم ابنه محرقة للرب مما يوحي بأن تلك الممارسة التي حكاها الكتاب المقدس عن إبراهيم وابنه إنما كانت جزءا من تلك الممارسات الوحشية التي كان يمارسها أهل تلك الفترة، وسوف نراها ثانية في سفر القضاة حيث سيضحي يفتاح الجلعادي بابنته العذراء وفاء بنذره وهو الأمر الذي لم ينكره الشراح المسيحيون فيقول أحدهم : (من أهم مبادئ ديانة الكنعانيين وقتذاك أن كل أمرئ يجب أن يقدم بكره عن معصيته أن يقدم ثمرة جسده على مذابح مؤآب وفينيقية وقرطاجنة بل في تاريخ إسرائيل قدمت المحرقات التي تبين فزع الإنسان من الخطية، رغبته في إرضاء الله وقد سقط البشر في هذا النوع من الإجرام لا لأن الآباء كانوا أقل إشفاقا على فلذات أكبادهم من آباء العصور الحاضرة، بل لأنهم كانوا ينظرون نظرة أحدّ إلى رعب الخطية التي لاتغفر وكانوا يعبدون آلهة يعرفونها وينسبون إليها تعطشها للدماء وكانوا لا يستكثرون أي ثمن لإرضاء تلك المطالب .... لعل إبراهيم شهد أخيرا أمثال هذه الذبائح وإذ ذاك فكر في إسحق وفي تقديمه ذبيحة كالباقين وتعجب من عدم طلب تلك الذبيحة منه إلى الآن ولهذا فلم يدهش عندما قال له

- إلا بعد أن أصبح إسماعيل رجلاً قد تزوج مرتين الواحدة بعد الأخرى، ويمكننا القول بأن عمر إسماعيل بعد زيارة أبيه الثالثة لم يكن أقل من ثلاثين سنة، بينما تعبير: (بلغ معه السعي) لا يدل إلا على صبي ناهز الحلم، وأصبح في استطاعته - بالكاد - أن يسعى مع أبيه في طلب العيش [651] فكيف سيضحي إبراهيم بإسماعيل؟!

والقصة الحديثية قبل هذا كله إنما هي تصويب وتعريب للموروث اليهودي فهي تعتمد على القصة التلمودية - التي سنذكرها بعد قليل - عن قصة زيارة إبراهيم لإسماعيل، لكنها تصحح أماكنها، وتعيد صياغتها وفق قناعة النبي بأن إبراهيم قد أسكن ذريته في تلك البقعة المباركة التي ستكون أساس العرب، بل وأصل العربية حيث نجد النبي يرجع اللغة العربية الحديثة التي كان يتكلمها أهل عصره إلى إلهام الله لإسماعيل بتلك اللغة كاملة كما ألهم الله آدم لغته التي كان يتكلمها مثلما يدل على ذلك هذا الحديث العجيب (أول من فتق لسانه بالعربية المبينة إسماعيل وهو ابن أربع عشرة سنة[652]).

ويلاحظ أن بعض معالم القصة التوراتية ظلت تشف من تحت الرواية الإسلامية رغم ما أحدثه فيها النبي من تغيير وتصويب فتظهر بعض ملامح الأصل القديم مثل اتفاقهما على أن إبراهيم قد وضع زوجته وابنه تحت دوحة كانت هناك في هذا الموضع المقفر الذي لا ماء فيه وتتفقان معاً في جعل إسماعيل صياداً للطرائد البرية [653]).

الله (خذ ابنك واصعده محرقة)(انظر (حياة إبراهيم - ماير - ترجمة القمص مرقس داود - مكتبة المحبة ص 137-138)

(651) لم يفكر إسماعيل أن يزور هو أباه أبدا مثلما يوقع كل إنسان أن يزور الشاب أباه العجوز خاصة بعد أن تكلف عناء السفر إليه مرتين دون أن يلقاه !

(652) برقم (2581) صحيح الجامع الصغير وزياداته

(653) سكن إسماعيل - وفق التوراة - في برية فاران في أقصى جنوب شبه جزيرة سيناء وهي منطقة مقفرة موحشة ليشب فيها إسماعيل بريا وحشيا مثلما سيكون ابن أخيه عيسو من بعده لذا يمكننا القول بأن إسماعيل هو المناظر لعيسو مثلما سيكون يعقوب امتدادا لأبيه إسحاق حيث وزع كاتب التوراة المناطق الجغرافية والطبائع الإنسانية بين آبائه وبين آباء خصومه زمن كتابة التوراة ولكنها كانت في الحقيقة قسمة غير عادلة ! حيث منح أسلافه الوداعة والتقاليد النبوية والعلاقة الخاصة مع الرب، وأعطى لأباء خصومه النوازع الضارية المتوحشة وسوء الأخلاق وشراستها !
والعجيب أننا سنجد بعد ذلك كاتب التوراة يجعل الإسماعيليين يسكنون في شمال شرق سيناء ولم نفهم شيئا عن سبب هذا الاختلاف الجغرافي خاصة أن التوراة لم تقل بهجرة لأبناء إسماعيل ولكن ربما لانهم كانوا بدوا رحلا وتجارا فلم يجدوا مشكلة في هذا الاختلاف بين موضع سكنى أبيهم وبين سكنى ذريته عندما سيظهرون على مسرح الأحداث !
(ويذكر المؤرخ (سوزومين) أن اليهود كانوا ينظرون إلى العرب الساكنين الحد العربي على أنهم من نسل إسماعيل وأنهم كانوا يرون أنهم من نسل إسماعيل وإبراهيم فهم من ذوي رحمهم ولهم بهم صلة قربى وكانوا لذلك يرجون دخولهم في دينهم واعتناقهم دين إبراهيم جد العرب واليهود وقد عملوا على تهودي أولئك العرب)(انظر كتاب المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام د جواد على - الجزء السادس الطبعة الثانية 1993 م ص 514)

وإلى جانب تلك المشابهات نجد تعريباً لبعض التفاصيل كأن نرى إبراهيم يزود زوجته بالتمر والماء في مقابل الرواية القديمة التي تجعل منه الخبز والماء ونجد كذلك قبيلة جرهم العربية التي عاشت- في اعتقاد النبي قبل زمن إبراهيم بقرون بعيدة تعرف الله كما يظهر من كلام زوجة إسماعيل الثانية حيث نراها تثني على الله وتشكره ؛ فهو عندها مصدر النعم ؛ أي على النحو ذاته عند أهل مكة قبل البعثة من اعتبار الله هو الخالق الرازق رغم عبادتهم للأصنام والأوثان كشفعاء لهم عنده، ونجد كذلك تفسيراً مخيالياً لشُح عين زمزم وغور ماءها التي لا تنال إلا بالدلاء فاستحقت هاجر معاتبة نبوية رقيقة، إذ لو أنها - سامحها الله - كانت قد تركتها تتدفق لكانت نبعاً ثَرة تجري على سطح الأرض. ونجد كذلك تعليقاً نبوياً يفسر لنا كيف يتحمل أهل مكة - دون غيرهم- العيش مقتصرين في طعامهم على اللحم والماء فيعلل تلك المزية بأنها بسبب بركة دعاء إبراهيم لأهل مكة، والحقيقة أن هناك شعوباً أخرى قد اقتصر طعامهم لألوف السنين على اللحم والماء مثل شعب الإنويت أو الأسكيمو. ونجد في الحديث - أيضاً - كيف أن هاجر كانت أول من تتخذ (المنطق) أي ما تشده المرأة على وسطها، ولا ندري إن كانت تلك المقولة من قول النبي أم هي إضافة تفسيرية من ابن عباس؟!، وهذا في الحقيقة أمر غير ذي بال فيكفي أن نعلم أنها المرة الأولى وكفى، ولقد رأينا أشباهاً ونظائر كثيرة لذلك في القرآن وفي الأحاديث النبوية بحيث لا يجد القارئ في صدوره عن النبي أمراً مستغرباً، وأما إذا كان ذلك من قول الراوي فهو يعكس لنا ما كان شائعاً لديه من طريقة تأصيل النبي للأحداث الأولى مُعتمداً على ظهورها الأول في التوراة أو في الأساطير التلمودية .

هاجر وإسماعيل في التوراة

نظر شُراح الأحاديث النبوية إلى تلك القصة وعجب بعضهم من وجود اختلافات جسيمة بينها وبين ما جاء عن أحداثها في العهد القديم فنجد - مثلاً - أحد الشراح المحدثين يحتج على ما أوردته التوراة عن نلك القصة، وأنها لا تذكر شيئاً مما أورده الحديث

أما عن السبب الحقيقي وراء نسبة تلك القبائل لإسماعيل وما يسنلزمه من إيجاد صلة القربي مع العبرانيين فيمكن القبول بهذا التفسير المنطقي البسيط لتلك العلاقة المتوهمة بين نسل إبراهيم وبين بقية الشعوب والقبائل التي جاورها العبرانيون: (يميل علماء التناخ للاعتقاد أن هدف القصة كما ورد من أمثاله في سفر التكوين هو تفسير العلاقات الأثنية واللغوية القريبة بين الإسرائيليين والشعوب الذين يعيشون في أوساطهم)(انظر ص 22- ذرية إبراهيم - مقدمة عن اليهودية للمسلمين - روبن فايرستون وآخرون - ترجمة عبد الغني بن إبراهيم - معهد هاربت وروبرت للتفاهم الدولي بين الأديان)

النبوي من قدوم إبراهيم بهاجر ووضعه لها مع ابنهما في واد غير ذي زرع عند بيت الله المحرم، ولا ما جاء من سعى لهاجر بين الصفا والمروة إلى آخر ما اشتمل عليه هذا الحديث، ولكن الحقيقة أن هذا الاختلاف هو أمر لا غرابة، بل هو الشيء الطبيعي فهما في النهاية روايتان مختلفتان تماماً، وتعكسان أغراض مؤلفيهما، وليس من الضروري في شيء أن يتوافقا. ولكن الشارح يجانبه الصواب عندما يخطئ التوراة في نقطة لا موضع للتخطيء فيها؛ وهي ظنه أن الرواية التوراتية تخالف الحديث - قولا واحداً - بشأن عمر إسماعيل فيقول (وليس صوابا أن سارة طلبت من إبراهيم طرد هاجر عندما رأته يمزح وأنها رفضت أن يرث مع ابنها إسحاق؛ لأن إسماعيل عندما رحل به إبراهيم إلى مكة كان رضيعاً ولم يبلغ العمر الذي يكون فيه المزاح[654]).

والحقيقة أن التوراة تجعل من عمر إسماعيل وقت طرده مع أمه مرة دون سن المزاوجة وتجعل منه مرة أخرى شاباً راشداً قد تخطى سن المزاح، ولا نعرف أيهما كان يقصده محرر التوراة مما يرجح أن ذلك الاضطراب كان أثراً من آثار دمج روايات مختلفة في رواية واحدة مما أحدث هذا التناقض الواضح [655]) .

فمَن يحاول- مثلاً - أن يتعرف على عمر إسماعيل بعد طرد إبراهيم له ولأمه فلن يسعه سوى الدهشة والتعجب من كل تلك التناقضات الغريبة وغير المفهومة، ففي البداية نعرف أن إبراهيم رزق بإسماعيل، وهو في السادسة والثمانين من عمره. (فَوَلَدَتْ هَاجَرُ لأَبْرَامَ ابْناً. وَدَعَا أَبْرَامُ اسْمَ ابْنِهِ الَّذِي وَلَدَتْهُ هَاجَرُ «إِسْمَاعِيلَ». كَانَ أَبْرَامُ ابن سِتٍّ وَثَمَانِينَ سَنَةً لَمَّا وَلَدَتْ هَاجَرُ إِسْمَاعِيلَ لأَبْرَامَ[656]) .

---

[654] (الأشقر ص50)

[655] لم يعد الحديث عن وجود عدة مصادر أصلية تألفت منها التوراة التي بين أيدينا أمرا موضع شك بل لقد تطور البحث كثيرا ولم يعد كافيا - أيضا - الحديث عن مصادر فرعية داخل المصادر الأصلية، بل أصبح الحديث عن مئات المصادر المركب منها التوراة فأحيانا كثيرة تشتمل الفقرة الواحدة على العديد من المصادر، بل كل كلمة منها تنسب إلى مصدر مختلف عن الآخر : (وهذا يعني في المقام الأول ضياع النص الأصلي وأنه وجدت فقط بقايا وثائق قديمة أقرب إلى النص الأصلي ثم لما بدأ تدوين الأدب العبري في عصر ملكتي داود وسليمان بدأ تدوين هذه الوثائق وتنقيحها كل طبقا لرؤيته التاريخية والدينية فظهرت لنا التوراة في صورتها الحالية مركبة من عدد من المصادر التي تعود إلى بيئات مختلفة وعصور عديدة منذ بداية التدوين وحتى الإقرار النهائي للتوراة)(انظر تاريخ الآباء ودياناتهم - رؤية نقدية في ضوء نظرية المصادر - د احمد محمود هريدي - مجلة كلية الآداب - جامعة القاهرة - مجلد (60) العدد (1) يناير 2000م - ص 183

[656] تكوين 16 الآيات 15- 16

وبعد ولادة إسماعيل بثلاث عشرة سنة كاملة يتلقى إبراهيم أمراً إلهياً يلزمه بأن يُختتَن ومعه جميع ذكور بيته فينصاع إبراهيم لأمر الله ويُختتَن - بعد أن قارب المئة - ويختن معه إبنه الوحيد إسماعيل: (وَكَانَ إِبْرَاهِيمُ ابْنَ تِسْعٍ وَتِسْعِينَ سَنَةً حِينَ خُتِنَ فِي لَحْمِ غُرْلَتِهِ وَكَانَ إِسْمَاعِيلُ ابْنُهُ ابْنَ ثَلاَثَ عَشَرَةَ سَنَةً حِينَ خُتِنَ فِي لَحْمِ غُرْلَتِهِ[657]) .

وبعدها بعام تلد سارة لإبراهيم ابنه المفضل إسحاق ؛ وعلى هذا فقد أتم إبراهيم سنواته المئة وصار إسماعيل في الرابعة عشرة من عمره: (وَافْتَقَدَ الرَّبُّ سَارَةَ كَمَا قَالَ وَفَعَلَ الرَّبُّ لِسَارَةَ كَمَا تَكَلَّمَ. فَحَبِلَتْ سَارَةُ وَوَلَدَتْ لإِبْرَاهِيمَ ابْناً فِي شَيْخُوخَتِهِ فِي الْوَقْتِ الَّذِي تَكَلَّمَ اللهُ عَنْهُ. وَدَعَا إِبْرَاهِيم اسْمَ ابْنِهِ الْمَوْلُودِ لَهُ الَّذِي وَلَدَتْهُ لَهُ سَارَةُ «إِسْحَاقَ». وَخَتَنَ إِبْرَاهِيمُ إِسْحَاقَ ابْنَهُ وَهُوَ ابْنُ ثَمَانِيَةِ أَيَّامٍ كَمَا أَمَرَهُ اللهُ. وَكَانَ إِبْرَاهِيمُ ابْنَ مِئَةِ سَنَةٍ حِينَ وُلِدَ لَهُ إِسْحَاقُ ابْنُهُ.[658])

وبعد عامين- أو أكثر- فقد كان الفُطام يمتد حتى سن الرابعة - يفطم إسحاق ويحتفل إبراهيم بتلك المناسبة: (فَكَبِرَ الْوَلَدُ وَفُطِمَ. وَصَنَعَ إِبْرَاهِيمُ وَلِيمَةً عَظِيمَةً يَوْمَ فِطَامِ إِسْحَاقَ. وَرَأَتْ سَارَةُ ابْنَ هَاجَرَ الْمِصْرِيَّةِ الَّذِي وَلَدَتْهُ لإِبْرَاهِيمَ يَمْزَحُ فَقَالَتْ لإِبْرَاهِيمَ: «اطْرُدْ هَذِهِ الْجَارِيَةَ وَابْنَهَا لأَنَّ ابْنَ هَذِهِ الْجَارِيَةِ لاَ يَرِثُ مَعَ ابْنِي إِسْحَاقَ».[659])

ولكن بعد ذلك كله نجد إسماعيل يعود طفلاً رضيعاً بحيث يضعه إبراهيم على كتف زوجته المطرودة من بيته مع قربة ماء وبعض الخبز ويصرفها لتتدبر أمورها وحدها، ونجد هاجر بعد ذلك تضع طفلها الذي تحمله تحت أحد الأشجار، بل ونجد ملاك

[657] (تكوين 17- الآيات 24- 26

[658] التكوين 21 الآيات 1-6)

[659] (تكوين 21-الآيات 8-11) وقد فسر بعض الباحثين المحدثين غضب سارة الشديد من إسماعيل تفسيرا مقذعا بأن قدم قرائن مقبولة نوعا ما - وإن كانت فاحشة بذيئة لدلالة كلمة (يضحك) في النص السابق لأنهم لم يقتنعوا بمعقولية أن يفجر ضحك أخ مراهق مع أخيه الأصغر كل هذا الغضب عند سارة فتأمر إبراهيم بأن يطرد الجارية وابنها إلى الصحراء وهو أمر كان كما يقول : (بمثابة حكم بإعدامهما)، لذا فقد اقترح احد الباحثين بأنها رأت إسماعيل البالغ يعبث بأخيه الصغير وهو تفسير لا نعلم إن كانت التوراة قد عنته حقا أم أنه تفسير شاطح غير مقبول ؟! وان كنا نعتقد أن كتبة التوراة لم يكونوا ليتورعوا عن نسبة هذا الفعل الشائن لإسماعيل ولكن ربما كان المقصود أنها رأته (يضحك) بمعنى يهزأ ويسخر (مثلما فعلت الترجمة التفسيرية - كتاب الحياة) وهو أمر ربما كان كافيا لإثارة ضغائن هذه السيدة المستبدة لولائها الشعوري التام لابنها الوحيد الذي رزقته في شيخوختها فضلا عن رغبتها في استئثار ابنها بميراث زوجها وحده فجعلت من تلك الواقعة التافهة ذريعة لهدفها الأصلي وهو ميراث إبراهيم وممتلكاته دونما حاجة إلى تلك الفرضية الفاحشة والغليظة !

انظر - جوناثان كيرتش - حكايات محرمة من التوراة - ترجمة نذير جذماتي - نينوى للدراسات والنشر والتوزيع -سوريا - الطبعة الأولى 2005م - ص 60 وما بعدها

الرب يدعوها لكي تحمل الغلام!، والحقيقة انه لم يعد طفلاً صغيراً، بل كان شابا ربما تجاوز عمره السابعة أو الثامنة عشرة؛ أي أنه صار في عمر الإسكندر الأكبر عندما بدأ في فتح العالم فلا ندري من كان عليه أن يحمل الآخر؟ !

(فَبَكَّرَ إِبْرَاهِيمُ صَبَاحاً وَأَخَذَ خُبْزاً وَقِرْبَةَ مَاءٍ وَأَعْطَاهُمَا لِهَاجَرَ وَاضِعاً إِيَّاهُمَا عَلَى كَتِفِهَا وَالْوَلَدَ وَصَرَفَهَا. فَمَضَتْ وَتَاهَتْ فِي بَرِّيَّةِ بِئْرِ سَبْعٍ. وَلَمَّا فَرَغَ الْمَاءُ مِنَ الْقِرْبَةِ طَرَحَتِ الْوَلَدَ تَحْتَ إِحْدَى الأَشْجَارِ وَمَضَتْ وَجَلَسَتْ مُقَابِلَهُ بَعِيداً نَحْوَ رَمْيَةِ قَوْسٍ لأَنَّهَا قَالَتْ: «لاَ أَنْظُرُ مَوْتَ الْوَلَدِ». فَجَلَسَتْ مُقَابِلَهُ وَرَفَعَتْ صَوْتَهَا وَبَكَتْ. فَسَمِعَ اللهُ صَوْتَ الْغُلاَمِ. وَنَادَى مَلاَكُ اللهِ هَاجَرَ مِنَ السَّمَاءِ وَقَالَ لَهَا: «مَا لَكِ يَا هَاجَرُ؟ لا تَخَافِي لأَنَّ اللهَ قَدْ سَمِعَ لِصَوْتِ الْغُلاَمِ حَيْثُ هُوَ. قُومِي احْمِلِي الْغُلاَمَ وَشُدِّي يَدَكِ بِهِ لأَنِّي سَأَجْعَلُهُ أُمَّةً عَظِيمَةً.[660])

وأمثال تلك التناقضات في التوراة ليست بقليلة فهي لا تعد بالعشرات، بل بالمئات، ولكن هذا ليس من موضوعنا في شيء [661]).

---

(660) (تكوين الإصحاح 21 الآيات 14-19)

(661) وقد حاولت الأساطير والحكايات التلمودية الخروج من هذ المأزق بالادعاء أن إسماعيل كان محموما من نظرة الحسد التي أصابته بها عين سارة زوج أبيه مما اضطر أمه إلى حمله رغم كبره، وهو قول لا يستحق التعليق عليه لسخفه فليس من دليل على تلك الافتراضات الاعتباطية وأيضا لأننا لو صدقنا أنه كان مريضا فكيف تستطيع امرأة أن تحمل شابا بالغا كل تلك المسافة ؟!

وأما التفسيرات المسيحية فقد فاقتها في السخف حيث نجد احد الشراح يقول :: (وكان الولد حينئذ سنه 16-17 سنة في سن الشباب ولزيادة العرق يحتاج الشاب لكمية من الماء أكثر من كبار السن لذلك خارت قوى إسماعيل قبل أمه وظهر تعبه قبلها .) (انظر تفسير سفر التكوين - أنطونيوس فكري ص 272-273)

أما الحقيقة الواضحة فهذا النص يقول بأن هاجر كانت وحيدة بصحبة طفل رضيع : (فَجَلَسَتْ مُقَابِلَهُ وَرَفَعَتْ صَوْتَهَا وَبَكَتْ) لذا نراها تبكي وما كانت لتبكي إن كان بجانبها شابا في السابعة عشرة من عمره !

أما عن أساس هذا الاعتقاد في صغر سن إسماعيل فيبدو أن مرجعه القصص الأبوكريفية التي قصت الأمر على هذا النحو متجاهلة ما ذكرته التوراة عن سن إسماعيل وقت طرده مع امه : (ورأت سارة إسماعيل الذي كان يغني ويرقص وأبراهام الذي كان متسليا بفرح كبير فغارت من إسماعيل وقالت لأبراهام : اطرد هذه الجارية وابنها فابن هذه الجارية لن يتقاسم ابني إسحق الميراث ووجد إبراهيم هذا الكلام مضرا بعبده وبابنه الذي كان عليه أن يطرده بعيدا عنه لكن الرب قال لأبراهام لا تحزن على الولد والجارية أطع كل ما قالته لك سارة ونفذ أمرها لأنه بفضل إسحاق سيذكر اسمك وعرقك أما بالنسبة لابن الجارية فسأجعل منه أمة عظيمة لأنه من صلبك فقام إبراهيم في الصباح الباكر و أخذ خبزا وقربة ماء وحملها لهاجر والطفل وأرسلها ومضت على غير هدى في صحراء بيرسابي ونفذ ماء القربة وسقط الطفل وقد عطش ولم يعد يستطيع المشي وأخذته أمه ووضعته تحت زيتونة وذهبت لتجلس بمقابله على مرمى سهم لأنها كانت تقول لا أريد رؤية موت ولدي وإذ قعدت بكت وقال لها أحد ملائكة الرب - أحد القديسين - لماذا تبكين يا هاجر ؟ قومي واحملي الطفل وخذيه بين ذراعيك لأن الرب سمع صوتك ورأى الطفل وفتحت عينيها ورأت نبع ماء فذهبت وملأت الجرة ماء وأعطت ابنها ليشرب ثم انطلقت في صحراء باران وكبر الطفل وأصبح راميا بالقوس وكان الله معه وزوجته أمه بمرأة من بنات مصر وأنجبت له هذه الأخيرة ابنا سماه نبيوت لأنه قال كان الرب بقربي عندما أسميته) انظر - التوراة كتابات

أصل هذه القصة الحديثية

وهذا الحديث يرجع أصله - أيضاً- إلى حكاية تلمودية سننقلها كاملة على طولها (وولدت زوجة إسماعيل له أربعة أولاد وبنتًا، وفيما بعد ذهب إسماعيل إلى البادية، مع أمه وزوجته وأطفاله وأقاموا لأنفسهم خياماً في البادية التي أقاموا فيها، وظلوا يخيمون ثم يرتحلون شهرا بعد شهر، وعاماً بعد عام. وأعطى الرب إسماعيل قطعاناً من الماشية والغنم وخياماً، لأجل إبراهيم أبيه، وازدادت ماشية الرجل. وبعد فترة قال إبراهيم لزوجته سارة. سأذهب وأرى ابني إسماعيل لقد اشتقت إلى رؤيته لأني لم أره من زمن طويل. وامتطى إبراهيم ظهر أحد جماله، وذهب إلى البادية، ليبحث عن ابنه إسماعيل؛ إذ كان قد علم أنه يقيم في خيمة في البادية مع كل أهله. وذهب إبراهيم إلى البادية ووصل إلى خيمة إسماعيل قرب الظهر وسأل عنه. فوجد زوجة إسماعيل تجلس في الخيمة مع أطفالها، ولم يكن زوجها ولا أمه معهم وسألها إبراهيم عن إسماعيل قائلاً: أين إسماعيل؟ أجابته: ذهب إلى الصحراء ليصطاد، وكان إبراهيم لا يزال على ظهر بعيره فلم يكن لينزل عن ظهره إلى الأرض لأنه كان قد أقسم لزوجته سارة بأنه لن يترجل عن ظهر بعيره. وقال إبراهيم لزوجة إسماعيل: أعطني ماء يا بنية لأشرب لأني متعب وعطشان من السفر فأجابته زوجة إسماعيل قائلة: ما عندنا ماء ولا خبز. وظلت جالسة في الخيمة ولم تأبه بإبراهيم، بل ولم تسأله عمن يكون. وأثناء ذلك كانت تضرب أطفالها في الخيمة وتلعنهم، وتلعن - أيضا - زوجها إسماعيل وتتحدث عنه بالسوء وسمع إبراهيم كلام زوجة إسماعيل إلى أطفالها وقبح ذلك في عينيه ونادى إبراهيم على المرأة لتخرج له من الخيمة. فخرجت ووقفت وجها لوجه أمام إبراهيم وهو لا يزال راكباً على ظهر الجمل. فقال إبراهيم لزوجة إسماعيل: عندما يعود زوجك إسماعيل بلغيه هذه الكلمات: لقد جاء رجل عجوز جدا من أرض الفلسطينيين (؟!) يسأل عنك، وكان شكله كيت وكيت ومظهره كذا وكذا ولم أسأله من يكون ولما رأى أنك غير موجود كلمني وقال

ما بين العهدين - ترجمة موسى ديب الخوري المجلد الثاني - الطبعة الأولى - 1998م - دار الطليعة الجديدة - سوريا – ص 208

لي: عندما يعود زوجك أخبريه: هكذا قال لي الرجل عندما تعود إلى منزلك اخلع قائم هذه الخيمة التي وضعته فيها وضع غيره مكانه. وعندما انتهى إبراهيم من كلامه مع المرأة نخز بعيره واستدار عائداً إلى بلده. وعندما عاد إسماعيل إلى الخيمة سمع كلام زوجته وعلم أن ذلك كان أباه وأن زوجته لم تكرمه. وفهم إسماعيل الكلمات التي حدث أبوه بها زوجته، فاستمع لصوت أبيه وطلق زوجته فانصرفت. ثم بعد ذلك ذهب إسماعيل إلى أرض كنعان، واتخذ زوجة أخرى وأحضرها إلى خيمته، إلى مكان إقامته. وبعد انقضاء ثلاثة أعوام قال إبراهيم: سأذهب مرة أخرى وأرى ابني إسماعيل لأنني لم أره من زمن طويل فامتطى بعيره وذهب إلى البادية ووصل إلى خيمة إسماعيل قرب الظهر، وسأل عن إسماعيل فخرجت له زوجته من الخيمة وقالت: ليس ههنا يا سيدي فقد ذهب يصطاد ويطعم أبله. وقالت المرأة لإبراهيم : تفضل يا سيدي إلى الخيمة وكل شيئا فلا بد أنك متعب من السفر قال لها إبراهيم : لن أتوقف فأنا في عجلة لاستكمال رحلتي لكن أعطني قليلا من الماء لأشربه لأنني ظمآن فهرولت المرأة إلى الخيمة وأحضرت لإبراهيم ماء وخبزاً ووضعتهما أمامه ورجته أن يأكل ويشرب فأكل إبراهيم وشرب وابتهج قلبه وبارك ابنه إسماعيل وأنهى طعامه وحمد الرب، وقال لزوجة إسماعيل: عندما يعود إسماعيل قولي له هذه الكلمات: لقد جاءنا رجل عجوز جداً من أرض الفلسطينيين وسأل عنك ولم تكن أنت هنا وأحضرت له خبزا وماء فأكل وشرب وابتهج قلبه وقال لي: عندما يعود زوجك إسماعيل قولي له: إن قائم الخيمة الموجود طيب جداً فلا تنزعه من الخيمة وأنهى إبراهيم كلامه مع المرأة وانطلق ببعيره قاصداً بيته إلى أرض الفلسطينيين وعندما عاد إسماعيل إلى خيمته خرجت زوجته لاستقباله بفرح وقلب مسرور وأبلغته بكلام العجوز فعلم إسماعيل أنه كان أباه وأن زوجته قد أحسنت استقباله فحمد الرب ثم بعدها أخذ إسماعيل زوجته وأطفاله ومواشيه وكل ماله وارتحل عن المكان إلى أبيه في أرض الفلسطينيين وحكى له إبراهيم كل ما حدث بينه وبين زوجة إسماعيل الأولى وما فعلته معه وأقام إسماعيل وأطفاله مع إبراهيم أياما طويلة في هذه الأرض وأقام إبراهيم في أرض الفلسطينيين زمناً طويلاً [662]).

[662] انظر : أساطير اليهود - ج1 ص 241 وما بعدها

أصل شعيرة السعي بين الصفا والمروة

في معرض التفرقة بين الطقس وبين الأسطورة وما قد يجمع بينهما قدم أحد الباحثين المحدثين هذا التفسير لأصول طقس السعي بين الصفا والمروة في الإسلام فيقول: (إن الطقس والأسطورة ينشآن عن أفكار دينية مبدئية تتشكل لدى الإنسان من إحساسه بوجود بُعد ما ورائي للوجود، وهو يعبر عن هذا الإحساس بطريقتين: الأولى سلوكية تتبدى في الطقس والأخرى ذهنية تتبدى في الأسطورة. وعلى الرغم من العروة الوثقى التي تجمع بين الطقس والأسطورة فإن كلاً منهما ينشأ في معزل عن الآخر من حيث الأصل وبعد ذلك قد يلتقيان وقد لا يلتقيان؛ فقد نجد طقوساً تُمارس دون مرجعية ميثولوجية وأساطير يجري تداولها دون طقس، وقد نجد طقساً ينشأ عن أسطورة مثلما هو الحال في الطقوس الدورية الكبرى أو أسطورة تنشأ عن طقس وتنشأ الأسطورة عن الطقس عندما يفقد الطقس معناه وغاياته بمرور الأيام ويتجول إلى إجراءات غامضة لا يعرف ممارسوها مدلولاتها ومضامينها. ويمكن أن أسوق شواهد عديدة عن نشوء الأسطورة عن الطقس، ولكني سوف أكتفي هنا بمثال من الثقافة الإسلامية وهو تفسير شعيرة السعي بين الصفا والمروة وهي من شعائر الحج في الإسلام. فلقد ورث الإسلام عن الوثنية القديمة طقوس الحج وأبرزها الطواف حول الكعبة سبع مرات وأخيرا الوقوف على جبل عرفة من أجل الدعاء والابتهال إلى الله ومن بين هذه الطقوس كان طقس السعي بين الصفا والمروة أكثرها غموضا لدى المسلمين بعد أن مارسوه طويلا، ولكن معناه كان واضحاً لدى عرب ما قبل الإسلام ؛ فعلى مرتفع الصفا كان هنالك حجر مقدس على ما يبدو لنا من مراجعة كلمة صفا في القواميس العربية، والتي تعني الحجر الضخم الأملس ومثلها كلمة صفوان، ويبدو - أيضاً- أن على مرتفع المروة كان هناك حجر مقدس آخر لأن القواميس العربية تفيدنا بأن المرو هو حجر الصوان ومفردها مروة وبذلك يكون معنى السعي بين الصفا والمروة لدى الجاهليين هو تبجيل حجر الصفا ثم الانتقال بعد ذلك لتبجيل حجر المروة، وإعادة هذه الشعيرة سبع مرات لأن الرقم سبعة كان رقماً مقدساً عند العرب مثلما هو كذلك عند بقية الشعوب السامية. ولكي يزيل المسلمون هذا الغموض عن طقس الصفا والمروة فقد شاعت لديهم أسطورة تتعلق بهاجر

زوجة إبراهيم وابنها إسماعيل .... هذه هي الأسطورة الإسلامية التي نشأت عن طقس قديم نسيت أصوله[663]).

والحقيقة إننا لا ندري شيئاً عن مدى صحة تلك الفرضية فلربما كانت صائبة موفقة، ولربما كانت خاطئة متوهمة، ولكن ما يسعنا قوله هنا هو أننا لا نظن أن النبي قد ابتدع تلك الأسطورة عن قصة هاجر وإسماعيل، وما نراها إلا صياغة نبوية لقصة جاهلية قديمة كانت تشتمل على شيء من ذلك، ولعل الأجدى من كل تلك الظنون عن أصل طقوس الحج الجاهلي أن نقول كلمة مختصرة عن تلك الشعيرة الإسلامية مع التركيز على يتعلق منها بموضوعنا.

تأصيل الحج في الإسلام

﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ ٢٧ لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۖ فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡبَآئِسَ ٱلۡفَقِيرَ ٢٨ ثُمَّ لۡيَقۡضُواْ تَفَثَهُمۡ وَلۡيُوفُواْ نُذُورَهُمۡ وَلۡيَطَّوَّفُواْ بِٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ ٢٩﴾ [الحَج : 27-29].

﴿ وَإِذۡ جَعَلۡنَا ٱلۡبَيۡتَ مَثَابَةٗ لِّلنَّاسِ وَأَمۡنٗا وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلّٗىۖ وَعَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ١٢٥ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنٗا وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُم بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلٗا ثُمَّ أَضۡطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ١٢٦﴾ [البَقَرَةِ : 125-126 .

من بين الاعتقادات التي شاعت في جزيرة العرب قبل البعثة، وصدقها النبي - تمام التصديق - بل سنجده يبني على أساس منها كثيراً من العبادات والشعائر الدينية -

---

[663] (الله والكون والإنسان - فراس السواح ص 79- 80) ولمن شاء أن يتعرف على الدلالة الفلكلورية لتلك الحكايات الشعبية عن أصول القبيلة وصراع الضرائر وما إلى ذلك فليرجع إن شاء إلى كتاب : سارة وهاجر - شوقي عبد الحكيم - مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة - القاهرة

هي ما شاع بين العرب قبل البعثة بأنهم من نسل إسماعيل بن إبراهيم، وأنهم أبناء عمومة بعيدة للعبرانيين القدماء، فجعل النبي من تلك الاعتقادات العربية - التي لا نعرف مصدرها على نحو دقيق[664]- نقطة محورية في تأصيل عقيدة التوحيد، وأنها كانت هي العقيدة القديمة والقويمة لعامة العرب قبل أن تتسرب إليها المعتقدات الشركية قبل البعثة بقرون قليلة، والتي أدخلها إليهم عمرو بن لحي الخزاعي، وما أضافه من بعده الوثنيون من عبادات وثنية طارئة، وممارسات طقسية تتعلق بمناسك الحج لم يقرها الإسلام مثل الطواف حول الكعبة عراة وما شابه ذلك.

أما عن الحج وطقوسه - وعلى نحو قريب مما كان يمارسه الجاهليون- فقد جعله الإسلام من بين إرث إبراهيم القديم فقال النبي لأصحابه -، وربما رآهم وقد تحرجوا من بعض تلك الممارسات العتيقة بعد الإسلام: (كونوا على مشاعركم فإنكم على إرث من إرث أبيكم إبراهيم [665]) .

ومن المعلوم بأن الحج بمعنى الذهاب إلى الأماكن المقدسة في أوقات معلومة والقيام بأفعال مخصوصة هو من الشعائر الدينية الأساسية التي نجدها في معظم الأديان تقريبا[666]، وكان سبب تلك الزيارات ما اعتقده الناس قديماً في أن للآلهة بيوتاً تحل فيها سميت ببيوت الآلهة وبعد الفراغ من تلك الممارسات كانت تحل أيام العيد فيعمد الحجيج إلى الفرح والسرور والرقص وكانت العرب - بطبيعة الحال - من بين جملة الشعوب التي أدت هذه المناسك منذ أقدم العصور سواء إلى الكعبة أو إلى غيرها من بيوت

---

[664] اتفق علماء الأنساب المسلمين على تقسيم العرب إلى قسمين كبيرين عدنانية وقحطانية ونسبوا العدنانيين سكان شمال شبه الجزيرة العربية بفروعها الكبرى جميعا (ربيعة ومضر وأياد وانمار) إلى إسماعيل، ولا ندري هل كانوا يتابعون في ذلك ما رواه الجاهليون أم أنها نسبة مستحدثة جاءت بعد الإسلام أما القحطانيون - سكان اليمن - فقد نفي أغلب النسابة نسبتهم إلى إسماعيل ولكن ما يعنينا من هذا أن النبي قد قبل هذا التقسيم مثلما يدل عليه هذا الحديث : (إن الله اصطفي كنانة من ولد إسماعيل واصطفي قريشا من كنانة واصطفي من قريش بني هاشم واصطفاني من بني هاشم)(صحيح مسلم برقم (2276)

ولا نستبعد أن تكون تلك النسبة قديمة عند العرب قبل الإسلام ونرجح أنها جاءتهم من اليهود الذين عاشوا بينهم قبل الإسلام بمدة طويلة حيث جاء إسماعيل في التوراة كجد أعلى للشعوب العربية فبعض أولاد إسماعيل لهم أسماء عربية كما جاء في التكوين (23) مثل حدار وبعضهم له أسماء توحي بأسماء الأماكن في الأراضي العربية مثل (دومة)(دومة الجندل في الصحراء السورية -)أو تيماء (مثل تيماء في الجزيرة العربية) وقيدار ابن إسماعيل هو - أيضا - اسم أحد القبائل التي عاشت في وادي آل سرحان في الأردن الحالية ... (انظر - ذرية إبراهيم - ص 22)

[665] (رواه أبو داود والترمذي وابن ماجة وأنظره في صحيح الترمذي للشيخ الألباني برقم (700)

[666] كان الحج أمرا مهما في الديانة اليهودية حيث نجد الأمر بوجوب الحج ثلاث مرات في السنة لبيت المقدس في الأعياد الثلاثة (معجم المصطلحات التلمودية صـ232)

الأصنام العديدة التي كانت موجودة قبل الإسلام حيث كانت تلك الكعبات جميعاً تزار ويطاف بها ويذبح الحجيج ذبائحهم عند أصنامها وينطلقون بالتلبية حول الصنم الذي يطوفون حوله، وأما كيفية تلك التلبيات فقد جاءنا عنها بعض المرويات وأما عن الشعائر وطقوسها: (فليست لدينا ويا للأسف أخبار مدونة عن مناسك الحج وشعائره عند الجاهليين لعدم ورود شيء من ذلك في النصوص الواردة إلينا. ما خلا الحج إلى (بيت الله الحرام) بمكة، حيث حفظت الموارد الإسلامية شيئاً من ذلك، بسبب فرض الحج في الإسلام وإقرار الإسلام لبعض شعائره التي لم تتعارض مع مبادئه، ولولا ذلك لما عرفنا شيئاً عن الحج إلى مكة عند الجاهليين [667].)

وليس الغرض من هذه الكلمة القصيرة عن الحج في الإسلام هو التأكيد على رسوخ أصول بعض تلك الممارسات في البيئة الوثنية العربية قبل الإسلام فهذا أمر لم يعد موضع شك عند المحدثين ولم ينكره القدماء أنفسهم [668]، بل كل ما يعنينا هنا هو بيان ما فعله النبي محمد بهذه الشعيرة الدينية الأساسية، والتي ورثها عن عرب الجاهلية ومحاولة أن نتعرف على ما صارت على يديه، ويمكننا أن نجمل ما أدخله النبي على تلك الشعيرة من تطوير في ثلاثة جوانب أساسية، أولها: التأصيل، وثانيها هو توحيد المناسك، وأما ثالثها فهو منح تلك الممارسات الدينية القديمة دلالات روحية راقية.

أما عن الملمح الأول فيمكن القول بأنه بينما كان العرب يجهلون أصول كثير من تلك الممارسات الطقسية الموغلة في القدم فقد قدم لهم النبي تأصلاً تاريخياً رائقاً لبعض تلك الممارسات عبر إلحاقها بممارسات الأنبياء السابقين، وعلى رأسهم إبراهيم وبنوه، فلم تعد الكعبة مثلا مكانًا مقدساً، لأنه كان يحوي آلهة العرب وأصنامهم في الجاهلية، بل لأن الكعبة كانت أول بيت وضعه الله للناس منذ زمن إبراهيم وابنه إسماعيل أبو العرب !

---

(667) المفصل في تاريخ العرب - جواد على - الجزء السادس - الطبعة الثانية 1993م - ص352

(668) كانت العرب قبل الإسلام - كما هو معلوم - يحجّون البيت ويعتمرون ويحرمون ويطوفون بالبيت أسبوعا ويمسحون بالحجر ويسعون بين الصفا والمروة سبعة أشواطٍ وعليهما صنمان يمسحونهما، وكانوا يلبّون تلبيات مختلفة منها : لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك، تملكه وما ملك، وكانوا يهدون الهدايا ويرمون الجمار ويحرّمون الأشهر الحرم وحتى عندما كانوا ينسئون فقد كانوا يحرصون على أن يجعلوا يوم التروية ويوم النحر ويوم عرفة كهيئة ذلك في شهر ذي الحجة ...)(راجع ص 699 وما بعدها في كتاب (الملل والنحل - الشهرستاني - دار الكتب العلمية - بيروت -لبنان - الطبعة الثانية - 1992م)

كذلك لم تعد الذبائح شعيرة مقدسة، لأن الجاهليين كانوا يقدمونها كقرابين للآلهة الوثنية[669]، بل لأنها كانت إحياء لتلك المناسبة المباركة التي كف الله فيها يد عبده إبراهيم عن التقرب إليه بذبح ابنه، إلى جانب تقرير أنها كانت وسيلة عملية شرعها الله من قديم الزمان لشكره على ما وهبه للناس من بهيمة الأنعام، ومناسبة لإطعام الفقراء البائسين.

وإذا كانت العرب قد حرمَت القتال وسفك الدماء في أشهر معينة من كل عام فلا يستبيحون القتال فيها، حتى كان الرجل يلقى فيها قاتل أبيه وأخيه فلا يهيجه استعظاماً لحرمة هذه الأشهر وليأمن الناس فيها على أنفسهم ومعايشهم ولتزدهر فيها التجارة ويتيسر الحج فيها إلى الكعبة بيت الأصنام الجامع لكل أوثان القبائل العربية ولكن استبدل تلك المواضعة العرفية بشريعة أزلية قررها الله منذ خلق السموات والأرض رغم أن تلك الموادعة لم تكن موضع اتفاق بين جميع العرب: (لعدم وجود دليل يثبت لنا ذلك ويجب حمل كلامهم هذا على قريش ومن والاها وعلى القبائل التي كان للعلماء اتصال بها وعلم بأخبارها[670]) .

ولا يخفى أن هذا التأصيل البعيد هو ترسيخ لمعنى الحُرمة لا يمكن أن يقاس به السبب المباشر الذي دعا العرب إلى تحريم القتال في تلك الأشهر وما كانوا يفعلونه من وقت لآخر من استخفاف بتلك الاتفاقية العرفية القديمة من النسئ والتحليل والتحريم كلما شاءوا [671]).

---

(669) هل كلمة الهدي من الهدية التي تقدم إلى الصنم المعبود ؟

(670) المفصل ج8 ص 472

(671) ﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرٗا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوۡمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٞۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُۚ فَلَا تَظۡلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمۡۚ وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ٣٦ ﴾ [التَّوۡبَة : ٣٦] .
ولا ينبغي لأحد هنا أن يهجس في خاطره صواب هذا الكلام فلكيا، فلم تكن عدة الشهور على هذا النحو إلا بعد مئات الملايين من السنين وإلا فقد كانت السنة الأرضية أقصر كثيرا مما صارت إليه بسبب تباطىء حركة كوكبنا حول الشمس! ولسنا بحاجة للتأكيد على أن هذه الآية تتأسس على اعتقاد النبي في حضور هذا التقسيم الزمني للسنة إلى بدء الخليقة وربما قبلها - أيضا - والحقيقة الواضحة أن هذا التقسيم يرجع إلى عدة آلاف قليلة قبل الميلاد كما يقول الباحثون : (يكاد يكون يقينا أن أقدم نظام للتقويم من وضع المصريين وقد أقاموا سنتهم على أساس رصد النجوم وبخاصة طلوع نجم (الشعرى اليمانية ونجم الكلب مع الشمس ... وحددوا الفترة بين هذين الطلوعين الشمسيين بانها 365يوما قسموها إلى اثني عشر شهرا طول كل منهما ثلاثون يوما وإضافة خمسة أيام زائدة هي أيام النسيء في أخر السنة)(انظر : فكرة الزمان عبر التاريخ - مستشار التحرير كولن ولسون - ترجمة : فؤاد كامل – عالم المعرفة – الكويت- مارس 1992م – ص 85)، يرجح الباحثون أنها سنة 4241ق م (السابق ذات الصفحة)، وأما فكرة النسئ فهي ممارسة قديمة عرفتها كثير من الشعوب في محاولة لضبط السنة الشمسية أو لكي تتوافق الشقاويم القمرية بالشمسية، وما يقال عن تقسيم السنة

أما عن توحيد معالم تلك الشعيرة فقد حسم الإسلام أمرها - ببساطة تامة - بأن أقر بعض الممارسات وجعلها من شريعة إبراهيم القديمة، وألغي بعضها الآخر، حيث اعتبرها النبي ممارسات دخيلة، وهكذا صارت طقوس تلك الشعيرة ومنذ تلك اللحظة أفعالاً مُنضبطة يشارك فيها جميع المؤمنين بلا زيادة ولا نقصان على خلاف ما كانت عليه عند الجاهليين الذين كانوا يمارسونها وفق هواهم كما يقول المؤرخون: (ويظهر من غربلة ما جاء في روايات أهل الأخبار عن (حج البيت) أن مناسك الحج لم تكن واحدة بالنسبة إلى الحجاج، بل كانت تختلف باختلاف القبائل. فقد انفردت قريش بأمور من أمور الحج، واعتبرتها من مناسك حجها، وانفردت قبائل أخرى بمناسك لم تعتبرها قريش موجبة لها، ولم تعمل بها ووقفت قريش في مواقف، اعتبرتها مواقف خاصة بها. وأوجبت على من يفد إلى مكة للحج، مناسك معينة سنتحدث عنها. فلما ظهر الإسلام وحد مناسك الحج وثبتها. وأوجب على كل مسلم اتباعها [672]) .

وأما عن الدلالات الراقية التي أفاضها النبي على شعيرة الحج فهي أوضح من أن تخفى على أحد، فقد جعل النبي تلك الشعيرة ركناً خامساً من أركان الدين وأوجبها في العمر مرة واحدة على كل قادر عليها، وجعلها وسيلة للاغتسال من الآثام والذنوب كافة - كما لو أن الإنسان يولد بعدها بلا خطيئة -، وربط المؤمنين جميعاً من خلالها بموطن الإسلام الأول ونقطة انطلاقه، حتى صارت مشاهدة أجناس الأرض كافة وعلى اختلاف ألوانهم وأعراقهم وهم يحتشدون في ذات الموعد من كل عام، و يلبسون ملبسا واحدا، ويؤدون تلك الشعيرة التقوية مما يحرك مشاعر الناس جميعا وتثير إعجابهم وإن لم يؤمنوا بالإسلام ولا بتعاليمه [673]).

إلى شهور يقال من باب أولى عن تقسيم الشهر إلى أسابيع فمن المعروف أن تقسيم الشهر إلى أسابيع جاء بعد فترة طويلة جدا من تقسيم السنة إلى أشهر مثلما جاء في سفر التكوين عن تقديس يوم السبت وخلق الله العالم في أسبوع

[672] (السابق الجزء 6 ص 353)

[673] وهذا الذي فعله النبي من إضفاء دلالات راقية على طقوس الحج الوثنية حيث سما بها إلى تلك الآفاق التي لم تكن لتخطر في أذهان عرب الجاهلية ولا بين معاصريه سوف يستكمله من بعده أصحاب الأرواح الحساسة والتقية من المسلمين عبر العصور ويكفي أن يرجع القارئ إلى مفهوم الحج عند متصوف كبير كابن عربي أو عند غيره من الصوفية المسلمين ليرى مصداق ذلك أو ليرجع – إن شاء - إلى كتابين جميلين معاصرين عن دلالة الحج ومعناه وسيرى بنفسه كيف يسهل على أذكياء المؤمنين أن يجدوا معان سامية حقا في كل شيء !

وسنختار مثالا واحد من كل من هذين الكتابين لبيان ذلك مقتصرين على ما يتعلق بهذا الحديث أي الطواف والسعي بين الصفا وبين المروة

(بعد أن تصلي ركعتي الطواف عند مقام إبراهيم، عليك أن تذهب إلى المسعى انه المسافة بين جبلي الصفا والمروة (حوالي ربع ميل) اركض سبع مرات بين هذين الجبلين ... أبدا من جبل الصفا وفي الجزء من هذا الطريق الموازي

ثامنا: الأنبياء الافتراضيون:

إذا كنا قد وجدنا فيما قدمناه من قصص الحديث النبوي وكان يتمحور حول هذا الضرب من القصص التي كان النبي يتابع فيها قصص التوراة والحكايات التلمودية، فلربما لا نذهب بعيداً عن الصواب إذا قلنا أننا نحدس بوجود ضرب ثان من القصص النبوية عن الأنبياء السابقين ويصح أن تسمى بقصص (الأنبياء الافتراضيون)، وذلك

للكعبة عليك ان تسير مهرولا وفي بقية الطريق استأنف سيرك المعتاد حتى جبل المروة ... السعي هو البحث .. حركة قاصدة إلى هدف .. يأخذ صورة الجري والإسراع . أثناء الطواف كنت تفعل مثل هاجر .

وفي مقام إبراهيم كنت تقوم مقام إبراهيم وإسماعيل . عندما تبدأ السعي فأنت تفعل كهاجر مرة أخرى ... هنا مظاهر صادقة للوحدانية : الأشكال والأنماط والألوان والدرجات والشخوص والحدود والمميزات والمسافات قد حطمت، كل ما في المشهد الذي أمامك الآن رجل عار وإنسانية مجردة ...لا شيء سوى الإيمان ... المعتقد والحركة في سمو وارتفاع هنا لا يرد ذكر أحد، وحتى إبراهيم وإسماعيل وهاجر هي أسماء وكلمات ورموز فقط ..كل الموجودات الآن في تحرك منضبط .. أي أن الإنسانية والروحانية متجردتان والمناخ الذي يحيط بهما ويملأ الأثير بينهما هو النظام ... هذا هو الحج : قرار بالحركة الأبدية في اتجاه محدد . وهذا هو نفسه طريق حركة الكون المحسوبة بحساب دقيق ... هنا في السعي ستلعب دور هاجر ... امرأة ! امرأة مسكينة، وأمة أثيوبية مستضعفة (كذا في الأصل !) وخادمة لسارة .. هذه هي كل مؤهلاتها ... هذا في النظام الاجتماعي البشري (نظام الشرك) أما في نظام التوحيد .. مجتمع الإسلام .. هذه الخادمة هي التي تدعو الله تعالى وهي أم الأنبياء العظماء ... أولي العزم من الرسل . إنها عند الله تمثل أجمل وأعز مخلوقاته سبحانه إنها في هذا العرض (مناسك الحج) هي الشخصية الرئيسية .. إنها في هذا البيت هي المرأة الوحيدة (الازم) . فريضة الحج هي التي تربط بين الطواف والسعي وتحل التناقض الذي اشكل على الإنسان عبر تاريخه : المادية أم المثالية ؟... العقلانية أم الروحانية ... الدنيا أم الآخرة ... الشهوانية أم الرهبانية ... إرادة الإنسان أم إرادة الله ... التوكل على الله أم الاعتماد على النفس

الله تعالى رب إبراهيم سوف يعلمك الإجابة في كلمة واحدة : كلاهما !!

وهو درس لا يقدمه لك في كلمات ولا يعرضه أمامك لتراه من بعيد، ولا يدخلك معملا لتجرب وتخطئ، ولا يدلي الله لك بالأدلة والبراهين الفلسفية .. كلا . انك ستؤدي هذا الدور بنفسك، وهو دور سبقك إليه نموذج أنساني عظيم، علم الفلاسفة والعلماء والمفكرين من الباحثين عن الإيمان والحقيقة، هذا النموذج الإنساني صاحب هذا الدرس الإلهي الجليل امرأة سوداء .. أمة أفريقية .. وأم .. (إنها هاجر) مرة أخرى استجابت لأمر الله، وأسلمت لا رادته المطلقة، تركت وطنها وجاءت ومعها طفلها بعيدا عنه . بعيدا في هذا الوادي المقفر الموحش ... مكة) (انظر كتاب - الحج الفريضة الخامسة - د علي شريعتي - ترجمة عباس أمير زادة - الطبعة الثانية 2007م - دار الأمير للثقافة والعلوم - بيروت لبنان)

(والطواف من أهم أركان الحج وكل الذين يجتمعون بمكة في موسم الحج يبدؤون بطواف الكعبة وهو إقرار عملي بأن الإنسان سيجعل نقطة واحدة محور كل جهوده وانه سيتحرك في دائرة واحدة وهذه هي المركزية التي نشهدها على المستوى المادي في النظام الشمسي فكل سيارات النظام الشمسي تطوف حول مركز واحد هو الشمس وهكذا يعلمنا الحج أن نجعل عبادة الله الحقة الشاملة مركز كل حياتنا فندور حولها وفي دائرتها ولا نخرج عنها ولا عليها

ثم يسعى الحاج بين الصفا والمروة فينطلق من جانب الصفا ثم يعود إليه وهو يفعل هذا سبع مرات . وهذا يعلمنا بصورة عملية ان يكون مسعانا في حياتنا العملية داخل حدود معينة فلو لم تكن لنا حدود أو ظللنا نتجاوزها فسينفلت بعضنا إلى جانب بينما سيضيع البعض الآخر منا في جانب آخر

ولكن عندما نضع حدودا معينة لمسعانا فنحن سنعود دوما إلى حيث إخواننا الآخرون وهكذا تدور مناسك الحج الأخرى ... فهي تعلمنا بأسلوب أو بآخر أن نتحد وأن نعمل معا . فهذه المناسك مظاهرة عملية للعمل المتناغم .)(انظر كتاب- حقيقة الحج - وحيد الدين خان - ترجمة ظفر الدين خان - دار الصحوة للنشر - الطبعة الأولي - 1987م ص 74- 75

لأننا لم نجد لها موضعاً إلا من خلال هذا المنظور الذي سيبدو - للوهلة الأولى - غريباً، ولكنه -في اعتقادنا- أمر لا غرابة فيه لمن يعرف شيئاً عن مسارات تفكير النبي وطرائق تعبيره، ولعل فيما سنقدمه من أحاديث يدعم هذا الرأي الذي ذهبنا إليه ولنبدأها بهذه القصة الافتراضية رغم نسبتها إلى زمن موسى.

المفاخر بآبائه الكرام !

(روى أحمد في مسنده عن أبي بن كعب قال انتسب رجلان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أحدهما أنا فلان بن فلان فمَن أنت لا أم لك؟!، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (انتسب رجلان على عهد موسى عليه السلام فقال أحدهما: أنا فلان بن فلان حتى عد تسعة فمن أنت لا أم لك؟ قال: أنا فلان ابن فلان ابن الإسلام قال فأوحى الله إلى موسى عليه السلام: أن هذين المنتسبين أما أنت أيها المنتمي أو المنتسب إلى تسعة في النار فأنت عاشرهم، وأما أنت يا هذا المنتسب إلى اثنين في الجنة فأنت ثالثهما في الجنة [674]).

وهذا حديث عجيب غريب حقا!، فهو يورد لنا واقعة بعينها حدثت في مجلس النبي، ثم نجد النبي يورد لها - وعلى الفور - مقابلاً قديماً يطابقها في ألفاظها وفي دلالتها من زمن موسى!

أما عن سبب تلك الدهشة فهو أن تلك القصة لا تتعلق بتشابهات عقدية،ويمكن إرجاعها إلى ما سبق وأن قلناه من اعتقاد النبي في وحدة العقيدة الإلهية عبر التاريخ الرسالي كله؛ إذ ليس من العجيب أن يعتقد النبي- مثلاً - في أن موسى وقومه كانوا يعرفون الجنة والنار كما جاء في هذا الحديث فقد صرح القرآن كثيراً في اعتقاد يهود

---

[674] (انظر مسند الإمام أحمد، برقم: (21178). وصححه الألباني، ينظر- السلسلة الصحيحة, 3/ 265، برقم (1270) وصحيح الجامع برقم (1492)

واذا سهل علينا أن نفهم بأن يقال للمنتسب إلى تسعة أسلاف كافرين أنت عاشرهم في النار فالحقيقة أننا لم نفهم الشطر الثاني في شأن وحي الله لموسى بمصير الرجل المؤمن ! فعندما يقول رجل أنا فلان بن فلان ابن الإسلام فكيف يقال له أنت ثالثهما في الجنة ؟ فلم ينتسب الرجل الصالح إلا إلى رجل واحد ، وليس الإسلام جدا له فكيف يقال له أنت ثالثهما في الجنة ؟!

عصر النبي بهذا، ومن ذلك مثلا: ﴿ وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾﴾ [البَقَرَةِ : 111]، وأما عن اعتقاد موسى وقومه في الجنة والنار فقد جاء ذكر ذلك مراراً في القرآن بل أننا نجده على لسان مؤمنين معاصرين لموسى، ولم يكونوا من بني إسرائيل أصلاً مثلما جاء على لسان مؤمن آل فرعون : ﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾﴾ [غَافِر :40].

وقل مثل ذلك عن سحرة فرعون الذين أورد القرآن على ألسنتهم كل تفاصيل العقيدة الإسلامية عن الجنة والنار وقيمة الحياة الدنيا الخ.

وأما وجه العجب في هذا الحديث فهو صعوبة تصور أن تُخفى عن النبي -عليه السلام- كل تلك الفروق الواضحة بين عرب الجاهلية، وبين قوم موسى حتى إننا لا ندري كيف غفل النبي عنها؟ !

ومن ذلك مثلا كيف يطابق النبي بين مصائر أسلاف هذا العربي المتفاخر بآبائه الوثنيين الكفار، والذين هلكوا في الجاهلية، وبين نظيره المتباهي من قوم موسى بآبائه الكرام؟!، فقد كان أسلاف العبراني القديم على هوانهم ومذلتهم - في النهاية - قوما مؤمنين، ولم يكونوا وثنيين كافرين!، فلم يأتهم موسى - كما هو معلوم - برسالة جديدة لا يعرفونها، وإنما جاءهم موسى مجدداً لعقيدة الآباء القديمة، وليستنقذهم من بطش فرعون، وليخرجهم مما كانوا فيه إلى الأرض المباركة التي وعد الله أجدادهم بها ؛ أي إنهم كانوا قوما مؤمنين وأخلاف مؤمنين قبل موسى بقرون وقرون، فهم ذرية يعقوب فكيف يقول النبي بأن هذا المتفاخر القديم ينتمي إلى تسعة أسلاف كافرين ويلحقه بهم في النار؟!

ولا نستطيع أن نخفي دهشتنا كذلك من حضور تلك المفاخرة - أصلا - بالآباء والأجداد بين قوم كانوا مسترقين مستعبدين طيلة قرون وقرون!، فمَن كان منهم يملك من الآباء والأجداد ما يجعله يفخر بهم، وقد كانوا جميعهم عبيداً مسترقين لفرعون وقومه، وكانوا جميعاً يسامون سوء العذاب؟!

والحقيقة أن تلك المتابعة الافتراضية للنبي رغم غياب ما يعضدها لا يعكس لنا سوى شدة اعتقاد النبي في أن تلك التحزبات والعصبية القبلية، والمفاخرات القبيحة بالآباء والأجداد، والتي كانت مستعرة عند العرب وقت البعثة، واستمرت مع الإسلام - لقرون - واعتقاده في أن تلك الآفة كانت هي ذاتها حاضرة عند قبائل بني إسرائيل !!

وتدلنا - أيضا - على شدة اعتقاد النبي في أن أخاه موسى لم يكن ليترك تلك الدعاوى الباطلة، والنعرات القبيحة دون أن يقف في وجهها لأنها كانت - في اعتقاده - مهمة كل نبي كما يدل على ذلك هذا الحديث : (أنه لم يكن نبي قبلي إلا كان حقا عليه أن يدل أمته على ما يعلمه خيرا لهم وينذرهم ما يعلمه شرا لهم....[675]).

وحتى إذا افترضنا جدلا بأن هذا المزهو بآبائه الكرام كان رجلا مصريا كافرا، وأن صاحبه المتضع الصالح لم يكن - أيضا - من بني إسرائيل، وإنما كانا رجلين متهودين، فلن يستقيم هذا الافتراض البعيد - أيضا - لأنه يستلزم اعتقادا آخر أشد خطلا من السابق، وهو أن موسى كان يصدر عن ذات التصور المحمدي في وحدة الجماعة البشرية، وأنه لم يكن يفرق بين إنسان وآخر إلا بالتقوى والعمل الصالح، والحقيقة - التي يعلمها الجميع - أن موسى التوراة كان بعيدا عن مثل هذا المفهوم، كما كان شعب الرب بعيدا - أيضا - عن تلك السماحة التي جعلت من أمة الإسلام جماعة دينية تقبل بين أبنائها كل من يريد اللحاق بها والانتماء إليها بمجرد إعلانه النطق بالشهادتين [676]!

بل إننا – ويا للعجب - نجد الرجل العبراني الطالح يستخدم ذات التعبير العربي للانتقاص والتحقير فهو يخاطب صاحبه بقوله (لا أم لك !)، وهو تعبير عربي خالص جرى مجرى المثل ومعناه : (أنت عندي ممن يستحق أن يدعى عليه بفقد أمه !) : ونجد كذلك الرجل العبراني الصالح يسمي نفسه (ابن الإسلام) [677]!

---

(675) انظر صحيح الجامع الصغير وزياداته برقم (2403)

(676) فمثلا نجد في المعجم التلمودي هذا التقدير القبيح : (مصري، وهو المتهود الذي تهود من مصر، ويُعد من غير الصالحين للزواج من الإسرائيليات كما أنه غير صالح، ومحرم حتى الجيل الثالث للدخول في جماعة بني إسرائيل (ولكنه مباح للتهود)، وإذا تزوج إسرائيلية فإنه يُدان بحكم افعل. ويسري هذا الحكم مع الرجل أو المرأة على السواء). (انظر معجم المصطلحات التلمودية - صـــ152)

(677) ولولا ما ذكره الرواة من تأخر هذه القصة التالية عن سلمان الفارسي لقلنا أنها ربما كانت هي أصل هذا الحديث : (جلس نفر من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم منهم جابر بن عبد الله الأنصاري فتفاخروا بالآباء فجعل كل واحد منهم يقول أنا فلان بن فلان حتى انتهوا إلى سلمان فقال : أنا سلمان ابن الإسلام فبلغ ذلك عمر بن الخطاب فقال: صدق سلمان وأنا عمر بن الإسلام وذلك قوله : (فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ) (انظر ج2 ص 543- تفسير الماوردي (النكت والعيون) تحقيق السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم- دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان

وإذا غضضنا الطرف عن كل تلك المفارقات العجيبة فلا يخفى أن القضيّة الأساسيّة التي أراد الحديث النبويّ تحقيقها وتثبيتها في قلوب المؤمنين كانت تعميق رابطة الأخوة بين المؤمنين، ولا يكون ذلك إلا بالنهي عما يضعفها، وزجرهم عن التباهي والتفاخر بالآباء والأجداد وما يثيره ذلك من إشعالٍ للعداوات، وتفريق للجماعات، وإثارة للنعرات والخصومات . ومن أجل ذلك، فقد أولى النبي اهتمامه بهذه القضيّة في عددٍ من الأحاديث منها قوله عليه الصلاة والسلام : (إن الله أوحى إلي أن تواضعوا حتى لا يبغي أحد على أحد، ولا يفخر أحد على أحد ولا يبغي أحد على أحد[678])، وكذلك عدّ النبي التفاخر بالأنساب من أخلاق الجاهلية التي ستبقى في أمته إلى قيام الساعة - وهو ما يدلنا على اعتقاد النبي في النهاية القريبة للتجربة البشرية - فقال: (أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركوهن: الفخر في الأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم والنياحة[679])، (إن أنسابكم هذه ليست بسباب على أحد، وإنما أنتم ولد آدم، طف الصاع لم تملؤه، ليس لأحد فضل على أحد إلا بالدين، أو عمل صالح[680])، ويوم فتح مكة خطب النبي في الناس قائلاً: (يا أيها الناس! إن الله قد أذهب عنكم عبية الجاهلية وتعاظمها بآبائها فالناس رجلان: رجل بر تقي كريم على الله، وفاجر شقي هين على الله، والناس بنو آدم، وخلق الله آدم من تراب [681]).

فيا له من حديث جميل عجيب غريب!، ونقولها - بوضوح كامل - أنه لو كان هناك حديث واحد يدعم قول الزاعمين بأن النبي كان يستخدم القصص القديم، ويوظفها لتدعيم دعوته لكان هذا الحديث - الذي وقفنا أمامه حائرين - مثالاً واضحاً على ذلك

---

[678] (انظر صحيح الجامع الصغير وزياداته برقم (1725)

[679] (صحيح الجامع الصغير وزياداته برقم (883) الصحيحة برقم (734)

[680] (صَحِيحُ التَّرْغِيب وَالتَّرْهِيب برقم (2962)

[681] صحيح الجامع الصغير وزياداته برقم (7867)

بل لقد ذهب النبي إلى نقطة كنا نحب ألا نجده قريبا منها إذ أمر المسلمين أن يغلظوا القول لمن تعزى بعزاء الجاهلية وأن يعضوه بهن أبيه تصريحا دونما كناية ! (من تعزى بعزاء الجاهلية فأعضوه بهن أبيه ولا تكنوا)(انظر الحديث في مشكاة المصابيح برقم (4902) وهي لعمري وصية غاضبة لا ندري ما كان حال النبي وقت أن قالها وكان الأكرم لمن سمعها ألا يذكرها أبدا، ولذا فإننا نعجب كيف ساغ لأبي بن كعب أن يقول للرجل أن هذا الفحش من قول النبي : (عن أبي بن كعب أنه سمع رجلا يقول: يال فلان! فقال له: أعضض بهن أبيك، ولم يكن، فقال له: يا أبا المنذر ما كنت فحاشا، فقال: إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: فذكره) (انظر - سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها- برقم (269) فلم يكن من الكياسة ولا من التأدب في شيء أن ينسب أبي الفحش لنبيه، ولكن أبيا كان رجلا به حدة - كما يقول كتاب سيرته- فلم يسعه سوى أن يصرح بما كان يجب أن لا يصرح به حتى وإن سمعه من النبي عليه السلام بعد أن قال له الرجل ما قال !

الزعم، وذلك لأنه يصعب علينا أن نلحقه بما نعتقد من تفسير إلا بصعوبة بالغة، ومن ناحية أخرى فلا يصلح هذا الحديث لأن يمحو عشرات الأحاديث التي تناقض مغزاه؛ لذا فليس أمامنا سوى أن نلحقه بتلك الأحاديث الافتراضية ؛ حيث ليس بوسعنا تصديق أن يلفق النبي قصة قديمة لكي يستخدمها لتقرير حكم في مسألة وقعت بين أصحابه، ولا نستطيع في الوقت ذاته أن نصدق أن يكون من بين ما سمعه النبي من القصص التلمودية قصة تطابق مثل هذه القصة لما سبق وان أوضحناه منذ قليل ؛ وعلى هذا فليس أمامنا سوى أن نعتبرها قصة افتراضية تشبه إلى حد كبير هذه القصة التالية:

المتألي على الله

(روى مسلم في صحيحه عن جندب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حدّث أن (رجلاً قال والله لا يغفر الله لفلان وان الله تعالى قال: (من ذا يتألى عليّ أن لا أغفر لفلان فاني قد غفرت لفلان وأحبطت عملك [682])).

(روى أبو داود في سننه: عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (كان رجلان في بني إسرائيل متواخيين فكان أحدهما يذنب، والآخر مجتهد في العبادة فكان لا يزال المجتهد يرى الآخر على الذنب فيقول: أقصر. فوجده يوماً على ذنب فقال له أقصر. فقال: خلني وربي أبعثت عليّ رقيباً؟ فقال: والله لا يغفر الله لك، أو لا يدخلك الله الجنة. فقبض أرواحهما فاجتمعا عند رب العالمين فقال لهذا المجتهد: أكنت بي عالماً أو كنت على ما في يدي قادراً؟ وقال للمذنب: اذهب فادخل الجنة برحمتي وقال للآخر اذهبوا به إلى النار)، قال أبو هريرة: والذي نفسي بيده لتكلم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته [683].)

وهذا حديث افتراضي آخر يظهر لنا ملمحاً أصيلاً من ملامح الرؤية المحمدية لله وما ينبغي له، فهو يقرر بجلاء كامل أن مصائر العباد بيد الله، وأنه على العبد أن يستنفد طاقته ويستفرغ جهده كله في صالح الأعمال، وليس له بعدها سوى أن يرجو رحمة الله، ولا يعتمد في نجاته على ما قدمه من عمل صالح .

---

[682] (هذا الحديث رواه مسلم في صحيحه في كتاب البر والصلة والآداب ورقمه (2618)

[683] (رواه أبو داود في سننه في كتاب الأدب باب في النهي عن البغي ورقمه (1901) وانظر صحيح سنن أبي داود ورقمه (4097)

ولقد مر بنا رأينا في كيف غضب النبي من امرأة عثمان بن مظعون عندما جعلت استحقاق زوجها دخول الجنة أمراً بدهياً، فردها النبي عن هذا الاجتراء على ما هو بيد الله وحده، وأعلن في مناسبات لا تكاد تحصى على أن النجاة لا تكون بالأعمال إنما هي رحمة ينالها العبد بفضل من الله، فجميع البشر خطاؤون مذنبون ولا يستحق أي بشر أن يدخل الجنة إلا بفضل من الله ورحمته دون أن يستثني نفسه من ذلك : (عن عائشة -: أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: (سدِّدوا وقارِبوا وأبشِروا؛ فإنه لا يُدخِل أحدًا الجنةَ عملُه)، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: (ولا أنا، إلا أن يتغمدني اللهُ بمغفرة ورحمة[684].(

إذن فمن ينظر في هذا الحديث- الذي معنا - فسيراه يشكل النموذج المناقض لذاك الحديث الذي قطعت فيه امرأة عثمان بنجاته من النار ودخوله الجنة ؛ فهنا نجد رجلاً مجتهداً في العبادة يحجر على سعة رحمة الله أن تنال أخًا مؤمنا كان يكثر من الوقوع في الذنوب والخطايا، ولكنه كان يحسن الظن بالله ويرجو رحمته .

ونظن أن الرواية الأولى ليست سوى مختصر للرواية الثانية ؛ لأننا لا نعلم منها كيف سيخاطب الله هذا المتألي عليه إن لم يكن قد جمعهما معاً يوم القيامة فيخاطبهما وهما بين يديه في دار الحساب؟!، فهو على هذا حديث يدور في الآخرة، ولكنه يتأسس على واقعة افتراضية نسب النبي بطليها إلى رجلين من بني إسرائيل؛ لأنها كانت الأمة الموحدة عبر التاريخ كله ولم يكن من الغريب- في اعتقاده - أن يحدث بين كل تلك الملايين من أفراد تلك الأمة قصة تطابق هذه القصة التي وقعت في زمانه فما أكثر المؤمنين المجتهدين! وما أكثر المقصرين المذنبين! وليس من النادر أن يتآخى رجلان مؤمنان أحدهما أكثر استقامة على الشرائع من الآخر!

فهي إذن قصة افتراضية ولا ينبغي- في اعتقادنا- أن نبحث لها عن أصل سماعي فيما بلغ النبي من قصص اليهود، بل ينبغي أن نلحقها مباشرة بهذا النوع من القصص المخيالي الذي يدور في الآخرة، وإن جرت وقائعها في هذه الحياة الدنيا!

---

[684] الحديث في الصحيحين وهذه رواية البخاري في صحيحه - باب القصد والمداومة على العمل - برقم (6467)

أما الغرض منها فهو التأكيد على أن مصائر العباد الأخروي بيد الله وحده، وألا يعتمد العبد على عمله، بل لن يجد العبد بعد سعيه كله، إلا ما قدره الله له من سعادة أو من شقاوة، ويؤكدها تعقيب أبو هريرة على ما جاء في سنن أبي داود.
وفي الحديث تصوير جميل لسعة رحمة الله للمذنبين ولكن تلك الرحمة - ويا للعجب - قد ضاقت بأهل العبادة ؛ حتى إننا لا ندري كيف يعقل أن تكون خطيئة هذا العابد المزهو بعمله تربو على خطايا أخيه المسرف على نفسه ؟!، وكيف لم تشمله رحمة الله - أيضاً -؟! ولكنه منطق الأمثولة الخالصة الذي يجيز وقوع أمثال هذه الغرائب![685]) .

النبي الذي قرصته نملة !

روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (نزل نبي من الأنبياء تحت شجرة فلدغته نملة فأمر بجهازه فأخرج من تحتها، ثم أمر ببيتها فأحرق بالنار فأوحى الله إليه فهلا نملة واحدة! [686])، وفي رواية عند مسلم عن أبي هريرة (أن نملة قرصت نبيا من الأنبياء فأمر بقرية النمل فأحرقت فأوحى الله إليه: أفي أن قرصتك نملة أهلكت أمة من الأمم تسبح؟ ![687]).
وهذا حديث آخر - ربما - لن يجد القارئ الكريم صعوبة في فهمه إذا سار على ما نقترحه من تفسير، وإلا فهو يثير مشكلة عويصة ومحيرة للغاية، فهنا نجد نبياً قديماً يعيش في الصحراء، ونراه يستريح ذات مرة في أحد أسفاره تحت ظل شجرة فيتعرض للذغ نملة، فيأمر النبي الغاضب بإحراق قرية النمل بأسرها، فيعاتب من قبل الله عز وجل على هذا الإفراط والسرف في القتل لأمّة حية من مخلوقات الله، خلقها لكي تعبده وتسبحه، وكان خليقاً به أن يصفح عنها فيدعها تعيش، أو يكتفي بقتل واحدة منها وهي تلك التي قرصته!

---

[685] ولعل تلك القصة ترجع صدي بعيدا لأمثولة المسيح الشهيرة عن الفريسي والعشار حيث يتفقان في جوهر الرؤية التي تقدم الرجاء في الله لمن يخطئ ويعترف بخطاياه على المرائي المعجب بنفسه و المزهو بعمله (انظر إنجيل لوقا 18: 9-14)

[686] روى هذا الحديث البخاري في صحيحه في كتاب بدء الخلق باب إذا وقع الذباب في إناء أحدكم 6-356 ورقمه 3219

[687] رواه مسلم في كتاب السلام باب النهى عن قتل النمل 4 -1759ورقمه 2241

فهل من المعقول أن نعتبره نبياً افتراضياً خالصاً عاش في بيئة مشابهة لبيئة النبي محمد، وتعرض لشيء مما تعرض له النبي محمد في أحد أسفاره الكثيرة، لكنه فعل ذات ما خطر للنبي أن يفعله فعوتب بسبب من تلك الاعتبارات الرقيقة والجميلة التي حجزت النبي - عليه السلام - عن فعل ذلك أي بسبب من ضبط النفس واحترامه لحيوات الأمم والمخلوقات الحية التي تسبح جميعها الله وتمجده؟!

وهذا التأويل - وإن بدا للقارئ الكريم غريباً، بل وبعيد الاحتمال- فهو على كل حال أقل غرابة وأيسر تصديقاً - في اعتقادنا - من تخيل وجود نبي قديم يعرف عنه النبي محمد الكثير أو القليل، ولكنه لا يذكر في القرآن أو الأحاديث النبوية، فلا نعرف أي خبر عنه فلا نعلم شيئاً قط عن مكانه أو زمانه، أو شيء من معالم دعوته أو حكمة واحدة من حكمه، بل يذكر فقط لأنه في لحظة غضبه من لذغة نمله قد أحرق مستعمرة من مستعمرات النمال !

ولربما كان لوجود كل هذا العدد الهائل من الأنبياء[688]، واعتقاد النبي في تشابه مفاهيمهم عن الله، وتشابه بيئاتهم الجغرافية واستجاباتهم الشعورية ما يمكننا أن نعتبره مخزناً هائلاً يحوي جميع ما يمكن أن يخطر ببال النبي محمد من أفعال وخاطرات شعورية ؛ فمع وجود هذا العدد الهائل من الأنبياء ربما وجد النبي في تلك الكثرة ذخيرة لا تنفد من الممكنات، وهي التي منحت الروح النبوية التي تميل إلى القطع والتأكيد سندا قديما لكل ما حدث، وما يمكن أن يحدث له - هو نفسه - من أفكار وخاطرات !

ولا ينبغي أن تغيب عنا هذه الدلالة الواضحة على صدق النبي الذاتي، وهو يقص أمثال تلك القصص على أصحابه ؛ حيث نراه هنا لا يصرح بأسماء أي من هؤلاء الأنبياء، ولقد كان من اليسير عليه أن يأتي بذكر اسم أي نبي من الأنبياء لو كان يختلق تلك القصص، وحتى لمن شاء أن يقول بخشيته من أن يكذبه أهل الكتاب إن هو أتى باسم نبي يعرفون أخباره، فلماذا لم يذكر اسم أي نبي من أنبياء العرب وهو يعلم ألا وجود لهم في التوراة؟!

[688] (مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا) وهو عدد غير مقبول خاصة إذا ما تذكرنا أن النبي محمد ما كان ليقبل بين هؤلاء الأنبياء تلك المئات والمئات من أعداد الأنبياء التي جاءت في الكتاب المقدس فلم يكن هؤلاء أنبياء وفق الصورة التي اعتقدها النبي عن الأنبياء وعلاقاتهم بالله !

ومن يتأمل قصص الأنبياء الذين أورد القرآن أخبارهم، وجاءت الأحاديث النبوية بخبر عنهم، فسوف يلحظ بوضوح تفاوت معارف النبي بشأنهم إلى حد بعيد ؛ فهناك من تأتي سيرته مفصلة مثل قصة موسى ويوسف وإبراهيم، وهناك من هو أقل من ذلك، مثل معظم أنبياء القرآن الذين لا نعرف عنهم سوى معالم دعوتهم ولا نعرف شيئاً قط عن حياتهم الشخصية، وهناك مَنْ لا نعرف عنه إلا واقعة واحدة أو واقعتين مثل يونس وإلياس، وهناك من لا نعرف عنهم أي شيء سوى أسمائهم مثل ذي الكفل وإدريس ؛ لذا فلا يعقل أن يتصور حضور هؤلاء الأنبياء في العقل النبوي ولا يذكر عنهم إلا هذه الواقعة العابرة !

أما مَنْ أخذ هذه القصة على ظاهرها من عموم الشُراح فنراه يأتي بما يستغرب من شروح وتعليلات لا معنى لها، مثل هذا الشارح الذي سنورد شرحه لتلك المعاتبة لتلك الإلهية دونما تعقيب: (إن مقتضى العدل والإنصاف أن لا يؤخذ البريء بجريرة المسيء؛ لقد اعتدت على نبي الله نملة واحدة، فإن كان لا بد من العقاب، فلتعاقب تلك النملة دون غيرها ؛ فقد أعلمنا نبينا أن من حقنا أن ندفع الصائل علينا من البشر والحيوانات حتى لو كانت الحيوانات مستأنسة وهذه النملة باغية ظالمة فإن عاقبها من اعتدت عليه فلا لوم عليه أما أن يعاقب كل النمل في تلك القرية فيحرق بالنار فليس من العدل في شيء [689]).

بل لقد ذهب البعض إلى أبعد من ذلك ؛ حيث حاول بعض شُراح الأحاديث القدامى أن يستخرجوا لنا اسم هذا النبي المجهول فنجد منهم من يقرر - في ثقة تامة - أنه النبي موسى مثلما قال ابن حجر: (حَدِيث أبي هُرَيْرَة نزل نَبِي من الْأَنْبِيَاء تَحت شَجَرَة فلذغته نملة تقدم أَنه مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَام[690]).

والأعجب منذ ذلك أن بعضهم قد نسبة إلى رجل لم يقل القرآن، ولم تنص الأحاديث على نبوته أصلاً، بل إن أغلب المفسرين يقطعون بعدم نبوته ؛ وهو عزير: (جاء عن مجاهد أنه عزير، وكذلك جاء عن ابن عباس والحسن البصري[691]).

---

(689) الأشقر ص (167)

(690) انظر (ج1 ص 296- فتح الباري شرح صحيح البخاري- ابن حجر العسقلاني - دار المعرفة - بيروت، -1379)

(691) (انظر كتاب الاحاديث الصحيحة من أخبار وقصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام - صنفه وخرج احاديثه إبراهيم محمد العلى - دار القلم دمشق -الدار الشامية بيروت - الطبعة الأولى 1995م ص 189)

النبي الذي شجه قومه !

عن عبد الله بن مسعود قال: (قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم غنائم حنين بالجعرانة قال فازدحموا عليه فقال: (إن عبداً من عباد الله بعثه الله إلى قومه فكذبوه وشجوه فجعل يمسح الدم عن جبينه ويقول رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون) قال عبد الله: (فكأني أنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يمسح جبهته يحكي الرجل) اللفظ لأحمد.

وفي لفظ البخاري قال: (كأني أنظر إلى النبي صلى الله عليه وسلم يحكي نبيا من الأنبياء ضربه قومه فأدموه وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول: (اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون[692]).

ومن بين الأنبياء الافتراضيين - أيضاً - هذا النبي الصابر على إيذاء قومه له حتى كان ليضرب فتسيل منه الدماء، ولا يكف عن رجاءُه في هداية الله لقومه متلمساً لهم الأعذار بجهلهم وهو -أغلب الظن- نبي افتراضي لم يكن النبي ليجد صعوبة في تخيله خاصة مع ما سبق وأن ذكرناه من اعتقاد النبي في كثرة أعداد الأنبياء السابقين، وأنهم كانوا جميعاً يلاقون الأذى من أقوامهم، وكانوا جميعا يتصفون بما اتصف به هو نفسه من الحرص على هداية قومه ومن الشفقة عليهم فهو - في اعتقادنا - مجرد مثال عقلي استلهمه الرسول لكي يصبر على ما لاقاه من جشع الأعراب الذين طاردوه حتى تخاطفوا ردائه - وإلحافهم عليه في طلب العطايا من غنائم حنين، والتي جلس في الجعرانة لكي يقسمها بسخاء شديد بين المؤلفة قلوبهم من مسلمة الفتح من أهل مكة كأبي سفيان بن حرب، وصفوان بن أمية، وزعماء العشائر البدوية مثل رؤساء بني تميم وبني فزارة حارماً أصحابه المؤمنين -خاصة الأنصار من أي شيء منها-، ولكي يعود كل بما يستحق ؛ فضعيفي الإيمان - الذين لم يسلموا إلا والسيف على رقابهم - يعودون إلى بيوتهم ومضاربهم بالشاء والبعير، وأهل الإيمان يعودون برسول الله في رحالهم.

ولم يكن من الضروري -كما سبق وأن قلنا- أن يجهد الباحثون أنفسهم للبحث عن هذا النبي بين تلك الثلة القليلة من الأنبياء الذين قص علينا القرآن الكريم شيئاً من أخبارهم، بل كان الأولى من ذلك أن يتلمسوا تلك الاستشهادات النبوية العابرة في تلك

[692] أخرجه البخاري برقم (3477 و 6929) ومسلم (1792) وابن ماجة (4025) وأحمد في المسند (1-380- 432-453-456- 457)

الذخيرة الهائلة من الأنبياء الذين لم يذكرهم القرآن، ولم يكن النبي يعرف شيئاً عنهم قط!، ولكن الغافلين عن طريقة التفكير النبوية تلك ذهبوا يبحثون - كعادتهم - عن هذا النبي المجهول فقال كثيرون أنه نوح عليه السلام! : (والظاهر أن النبي الذي حكى النبي صلى الله عليه وسلم حاله وهو يمسح الدم هو سيدنا نوح - عليه السلام - وهو الذي مال إليه عبيد بن عمير الليثي كما ذكر ذلك ابن إسحق في المبتدأ وابن أبي حاتم في تفسير سورة الشعراء[693]

ثامنا: الشريعة الأزلية

عقيدة يهود عصر النبي

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [البَقَرَةِ : ٨٣]، ﴿ ۞ لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾ [آل عِمْرَان : 113 – 115].

(كان اليهود يفتخرون بدينهم، ويقصون على الأعراب ما يعلمون من عظمة الله وجبروته، وعن خلق الدنيا والجنة والنار والقيامة والبعث والحساب والميزان، وكانوا يذكرون معايب الوثنيين ويمزقون أعراض الأصنام جهراً... [694]).

(وروى ابن إسحاق عن سلمة بن سلامة بن وقش - وكان من أهل بدر - قال: كان لنا جار من يهود في بني عبد الأشهل، قال: فخرج علينا يوماً من بيته حتى وقف على

---

[693] انظر لمزيد من التفصيل : فتح الباري (6-521) ص 40)

[694]انظر- تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهلية و صدر الإسلام - إسرائيل ولفنسون - مطابع الاعتماد مصر - 1937م - ص74

بني عبد الأشهل - قال سلمة: وأنا يومئذ أحدث من فيه سناً، عليّ فروة لي مضجع فيها بفناء أهلي - فذكر القيامة والبعث، والحساب والميزان، والجنة والنار. قال: فقال ذلك لقوم أهل شرك أصحاب أوثان لا يرون أن بعثاً كائن بعد الموت. فقالوا له: ويحك يا فلان!، أو ترى هذا كائناً ؛ أن الناس يبعثون بعد موتهم إلى دار فيها جنة ونار يجزون فيها بأعمالهم ؟!، قال: نعم؛ والذي يحلف به، ويودّ أن له بحظه من تلك النار أعظم تنور في الدار يحمونه، ثم يدخلونه إياه فيطينونه عليه، وأن ينجو من تلك النار غداً. قالوا له: ويحك يا فلان! فما آية ذلك؟ قال: نبي مبعوث من نحو هذه البلاد. وأشار بيده إلى نحو (مكة) واليمن. قالوا: ومتى تراه؟، قال: فنظر إليّ وأنا من أحدثهم سناً، فقال: إن يستنفد هذا الغلام عمره يدركه. قال سلمة: فوالله؛ ما ذهب الليل والنهار حتى بعث الله [محمداً] رسوله صلى الله عليه وسلم وهو حي بين أظهرنا، فآمنا به، وكفر به بغياً وحسداً. قال: فقلنا له: ويحك يا فلان! ألست بالذي قلت لنا فيه ما قلت؟ قال: بلى، ولكن ليس به![695])

ربما كان من اللازم قبل أن نعرض هذا المبحث القصير عن وحدة الشرائع الإلهية - كما اعتقدها النبي - عليه السلام-، أن نقول هنا كلمة مختصرة عن عقيدة تلك الجماعة اليهودية التي سكنت جزيرة العرب قبل الإسلام، والتي كانت عقائدها وتعاليمها الدينية هي الأساس الذي انطلق منه النبي، خاصة بعد أن ضاعت -ويا للأسف- جميع المصادر اليهودية الخاصة بتلك الجماعة، بعد أن أطاح بهم الإسلام كعنصر مؤثر في جزيرة العرب بعد سنوات قليلة من هجرة النبي إلى المدينة وحروبه الظافرة معهم، أو بخروجهم من المشهد العربي كله - بعد وفاة النبي بسنوات قليلة- في عهد الخليفة عمر بن الخطاب[696].

[695] راجع : صحيح السيرة النبوية - ناصر الدين الألباني - المكتبة الإسلامية - عمان - الأردن - الطبعة الأولى - 1421ه- ص58

[696] ينبغي بطبيعة الحال أن نتلقى بكثير من الريبة والحذر تلك الصورة العدائية التي أظهرها كتاب السيرة والمحدثون بعد رحيل النبي بعشرات السنين- حيث أنحوا باللائمة على اليهود في كل ما أصابهم على يدي النبي ! فلم يجدوا يسيغوا مثلا أن يرجعوا ما أصاب اليهود من قتل وتشريد إلى تمسكهم بعقيدة آبائهم وأجدادهم وأنهم خسروا صراعا دينيا وسياسيا مريرا فاندحروا أمام سيف الفكرة المنتصرة، ولكنهم - بدلا من ذلك - لم يتورعوا عن القول بأن رفض اليهود لدعوة النبي إنما كان باعثه الحسد والعناد والتكبر عن قبول الحقيقة الروحية الساطعة التي كانوا يستبطنونها في قلوبهم وأنكرتها ألسنتهم حيث تابعوا القرآن الذي بدأ رسم تلك الصورة المشنوءة عنهم لكنهم بالغوا فيها أشد المبالغة بوضع كثير من القصص المختلقة الكاذبة

أما الحقيقة الواضحة لكل ذي عينين فهي أن كل تلك الشدة والصرامة التي أظهرها النبي لليهود إنما كانت بسبب توجسه منهم وشعوره بخطورة وجودهم على دعوته : (فقد وجد الرسول في تمسك اليهود بدينهم وعدم الانضمام إلى الإسلام تحديا كبيرا له ولدعوته وخطرا كبيرا على مستقبل الدعوة الجديدة خاصة أنهم أصحاب الكتاب السماوي الأول وحكماءهم

وعلى هذا فليس من سبيل لمن يريد التعرف على مفردات ديانة يهود عصر النبي سوى محاولة أن يستخرجها بنفسه من المصادر الإسلامية، والحقيقة الواضحة أن ذلك أمر يسير!، فمَنْ يريد التعرف على عقيدة يهود عصر النبي فليس عليه سوى أن يقرأ القرآن الكريم، وإلى جانبه بعض المدونات الحديثية، وبعضا من كتب السيرة النبوية، ومن خلال ذلك سيمكنه أن يستخرج معالم عقيدة يهود عصر النبي والذين كانوا - في اعتقاد النبي - يمثلون العقيدة اليهودية- إذ لم يكن النبي على الأرجح - يعرف شيئاً كثيراً عن عقائد التجمعات والمراكز الدينية لليهود خارج جزيرة العرب، بل إننا نرجح أن النبي كان يظن أن تلك الجماعة الصغيرة من يهود العرب كانت تعبر عن التصورات الدينية لليهود كافة وعبر التاريخ اليهودي كله [697]!

وإذا ما تذكرنا أن اليهود وقصصهم وأخبارهم تشكل قرابة ثلث القرآن، فيمكننا من خلال قراءة جدل القرآن مع اليهود وسجاله الذي لم ينقطع معهم - سواء أكان ذلك موافقةً واستشهاداً، أو مخالفةً ومعارضةً - أن نسترد - ولو على نحو ما - بعض ضاع من عقيدة تلك الجماعة الدينية الهامشية، والتي عاشت في جزيرة العرب لقرون وقرون قبل الإسلام، والتي بدلاً من أن يطويها النسيان، فقد دخلت التاريخ من أوسع أبوابه لأنها

معترف بعلمهم وتقواهم من قبل معظم العرب) (راجع: موقف السيرة النبوية من التوراة و اليهود - د نبيه القاسم - مؤسسة الأسوار عكا - القدس - ط أولى 2003م - ص 31

أما تلك الصورة التي اعتقدها النبي عن عموم اليهود وسوء فعالهم فلا نشك في أنه كانت من خلفها بعض الحقائق التي عاينها النبي من بعض اليهود وما شاع عنهم من الدس والمكر وسوء تقديرهم لما جاءهم به من الدين ومضيفا إليهم جميع القبائح التي ارتكبها اليهود القدامى كأسلاف سوء لهم !

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٤٦ ﴾ [البَقَرَةِ : 146]

﴿ وَدَّ كَثِيرٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِكُمۡ كُفَّارًا حَسَدٗا مِّنۡ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡحَقُّۖ فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٠٩ ﴾ [البَقَرَةِ : ١٠٩] .

(يقول الحق جلّ جلاله في التحذير من اليهود وغيرهم من الكفار: تمنّى الذين كفروا من أهل الكتاب وغيرهم لو يصرفونكم عن دينكم ويَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمانِكُمْ بنبيكم كُفَّاراً ضالين، كما كنتم قبل الدخول فيه، وذلك حَسَداً مِنْ تلقاء أَنْفُسِهِمْ غيرة أن تكون النبوة في غيرهم، وذلك مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ وعرفوه كما يعرفون أبناءهم، فَاعْفُوا عن عتابهم، وأعرضوا عن تشغيبهم حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ فيهم بالقتل والجلاء.)(انظر البحر المديد في تفسير القرآن المجيد- بن عجيبة الحسني - تحقيق أحمد عبد الله القرشي - ج1-ص151)

(697) الجدير بالذكر أن أهم التجمعات والمراكز العلمية لليهود قبل زمن البعثة كانت في فلسطين وفي العراق حيث اشتهر منها في العراق معهد نهر دعا وسورا وبومباديثا وفي فلسطين اشتهرت صفورية وطبرية وقيسارية الخ)(انظر مدخل إلى دراسة التلمود - د ليلى أبو المجد - الدار الثقافية للنشر - الطبعة الأولى - 2010م - ص 6)

شاركت - ودون أن تدري - في تشكيل عقيدة دينية كبرى كان لها - ولم يزل - أعظم التأثير في عالمنا المعاصر[698]) .

على هذا فمن يقرأ القرآن الكريم وحدُه فلن يغيب عنه أن اليهود في عصر النبي كانوا يؤمنون بالله ويوحدونه فلا يشركون به شيئا[699] ، وكانوا كذلك يؤمنون بالبعث ويؤمنون بالملائكة-، وإن كانوا في خصومة شخصية مع بعض رؤساء الملائكة[700]،

---

[698] ومن المعلوم أن علاقة الإسلام باليهودية قد مرت بطورين كبيرين أولاهما هو ما جاء عن اليهود في القرآن المكي وكانت على الأجمال علاقة ودية كان يوجهها الرجاء فيهم والتصديق لهم كان أغلب ما جاء عن اليهود في القرآن المكي هو قصص اليهود القدامى زمن موسى وبعده ولم يتوجه القرآن مباشرة إلى معاصريه من اليهود إلا بعد الهجرة

وأما الطور الثاني فقد جاء بعد هجرة النبي إلى المدينة وما مرت به علاقته مع اليهود من مسالمة حذرة ثم تطورت إلى صراع مكشوف ما لبث أن تحول سريعا إلى مصادمات دامية حتى قضى عليهم الإسلام وعلى تأثيرهم لكي يعاود ظهور هذا التأثير من خلال مسلمة اليهود وعلمائهم من خلال ما سيقدمونه من مادة تفسيرية لشرح وبيان التعاليم الإسلامية وما سيدسونه من مفاهيم وأفكار ترسخت حتى صارت جزءا من تعاليم الإسلام رغم جهود علماء المسلمين في تتبع تلك المرويات وبيان خطورتها

ولمن شاء مزيدا من التفاصيل عن عقيدة يهود العرب فليرجع إلى كتاب : عقائد اليهود من خلال الحوار مع النبي صلى الله عليه وسلم - عدنان أحمد العبد البرديني - رسالة ماجستير غير منشورة - 2010م- الجامعة الإسلامية بغزة، وأيضا كتاب : اليهود في القرآن الكريم - محمد عزت دروزة - المكتب الإسلامي

271 (وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (30) - اتفق المفسرون على أن عامة اليهود لم يكونوا يؤمنون بأن عزير ابن لله بل كان ذلك الاعتقاد الذي أدانه القرآن يعبر عن فرقة هامشية من بين يهود العرب يبدو انهم قد غالوا كثيرا في تقديس مكانة عزرا ودوره في استعادة التوراة المفقودة بعد السبي : (وقيل أن سبب ادعائهم في عزير أنه ابن الله، أنه لما تسلط الملوك على بني إسرائيل ومزقوهم كل ممزق وقتلوا حملة التوراة وجدوا عزيرا بعد ذلك حافظا لها أو أكثرها فأملاها عليهم من حفظه واستنسخوها فادعوا فيه هذه الدعوى الشنيعة وهذه المقالة وان لم تكن مقالة لعامتهم فقد قالها فرقة منهم)(انظر تفسير السعدي ج1 ص 334)(ذرية إبراهيم ص 38) وينبغي أن نتذكر أن هذه الآية السابقة إنما إنها آية مدنية متأخرة جاءت في سياق تكفير اليهود وإخراجهم من جملة المؤمنين تمهيدا للجزية ؟!

[700] ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾﴾ [البَقَرَة:٩٧]

ولا نعرف شيئا عن سبب بغض يهود عصر النبي لجبريل ومحبتهم الشديدة لميكائيل ! ولكن المفسرين يجمعون على أن تلك الآيات إنما كانت ردا قرآنيا على تلك الخصومة القديمة بين اليهود وبين جبرائيل ويسوقون في ذلك أحاديث لم نعثر لها على أثر فيما طالعناه من متون الأحاديث مثل هذا الحديث: (قُلْ مَنْ كانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ نزل في عبد الله بن صوريا، سأل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عمن ينزل عليه بالوحي؟ فقال: جبريل، فقال: ذاك عدونا عادانا مراراً، وأشدَّها أنه أنزل على نبينا أن بيت المقدس سيخربه بختنصر، فبعثنا من يقتله فرآه ببابل فدفع عنه جبريل.)(راجع مثلا تفسير البيضاوي المسمى (أنوار التنزيل وأسرار التأويل- تحقيق محمد عبد الرحمن المرعشلي: دار إحياء التراث العربي - بيروت الطبعة: الأولى - 1418 هـ- ج1 ص 96)

ويغنينا عنه حديث عبد الله بن سلام في البخاري وغيره من حديث أنس بن مالك (قال سمع عبد الله بن سلام بمقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في أرض يخترف فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي: فما أول أشراط الساعة وما أول طعام أهل الجنة؟ وما ينزع الولد إلى أبيه أو إلى أمه؟ قال: «أخبرني بهن جبريل آنفًا أما أول أشراط الساعة فنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد الحوت

وكانوا يؤمنون بالجنة ونعيمها، ويرون أنها لا تنال إلا باتباع العقيدة اليهودية دون سواها من العقائد الدينية، وكانوا يعتقدون في جحيم الآخرة - مع اعتقادهم في قلة لبثهم فيها[701]- ، وكانوا يعرفون النبوة كما يعرفها عامة اليهود؛ أي باعتبارها مزية خصهم الله بها من دون العالمين، وأما من حيث الشرائع والطقوس الدينية فقد كانوا يصلون ويصومون ويتوجهون في صلاتهم إلى بيت المقدس، وكانوا يقدسون التوراة ويلزمون أنفسهم بشريعة موسى خاصة شريعة السبت..الخ.

وأما عن عمق تصوراتهم الدينية أو ضحالتها فقد كانت تتوافق مع ما نتوقعه عن تصورات لجماعة بشرية كانت فيما يبدو معزولة - إلى قدر ما - عن مراكز الثقافة اليهودية بسبب بحكم وجودها في الجزيرة العربية؛ لذلك فقد كانوا أصحاب عقيدة دينية ساذجة، تسربت إليها الخرافات والأساطير المُسفَة من كل جانب [702] ، وفشت فيهم الأمية فلم يكن علماؤهم متبحرين في نصوصهم الدينية الأصلية، ولكن عقيدتهم الدينية كانت - رغم هذا- أفضل بكثير من عقائد العرب الوثنيين، وليس من شك في أنهم كانوا من خلف تهيئة العرب لقبول ما جاء به الإسلام .

وإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد وإذا سبق ماء المرأة نزعت» . قال: أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله يا رسول الله إن اليهود قوم بهت وإنهم إن يعلموا بإسلامي من قبل أن تسألهم يبهتوني فجاءت اليهود فقال: «أي رجل عبد الله فيكم؟» قالوا: خيرنا وابن خيرنا وسيدنا - وابن سيدنا فقال: «أرأيتم إن أسلم عبد الله بن سلام؟» قالوا أعاذه الله من ذلك. فخرج عبد الله فقال أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله فقالوا: شرنا وابن شرنا فانتقصوه قال: هذا الذي كنت أخاف يا رسول الله رواه البخاري

(701) ﴿ وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعۡدُودَةٗۚ قُلۡ أَتَّخَذۡتُمۡ عِندَ ٱللَّهِ عَهۡدٗا فَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ عَهۡدَهُۥٓۖ أَمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ۝٨٠ بَلَىٰۚ مَن كَسَبَ سَيِّئَةٗ وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٨١﴾ [البَقَرَةِ : ٨٠ - ٨١]
ولا نعرف شيئا عن أصل هذا الاعتقاد ولكن ربما كان ذلك يرجع إلى اعتقادات شاعت بين يهود العرب وأقرب ما وجدناه في تفسير هذا هو ما جاء عن (القاديش)، وهي من أشهر التسابيح اليهودية التي تتلى قبل وبعد الصلاة أو قراءة التوراة ثم أصبحت تتلى في نهاية الطقوس الدينية على أرواح الموتى ويقوم بقراءتها أحد أقارب المتوفي لمدة احدى عشر شهرا ويوم واحد ويعلل أحد الباحثين ذلك بقوله : (وسبب هذا التوقيت أن العرف اليهودي يقول بأن عقاب الآثمين في جهنم يدوم عاما كاملا ...)(انظر ص 69- العادات والمناسبات والطقوس لدى اليهود - غازي السعدي- دار الجليل - عمان - الطبعة الأولى - 1994م

(702) ولم يكن النبي بعيدا عن كثير من التصورات اليهودية الساذجة عن الله كما في أمثال هذه الأحاديث (عن عبد الله بن مسعود قال : جاء حبر إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال يا محمد إنا نجد إن الله يجعل السماوات على إصبع والأرضين على إصبع والشجر على إصبع والماء والثرى على إصبع وسائر الخلق على إصبع فيقول أنا الملك أنا الملك فضحك رسول الله - صلى الله عليه وسلم - تعجبًا مما قال الحبر تصديقًا لقول الحبر ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم (وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعًا قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون). (صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب: قوله وما قدروا الله حق قدره (ج ٤/ص ١٨١٢ /ح ٤٥٣٣)

(عن ابن عباس قال: كان يهود أهل المدينة قبل قدوم رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قاتلوا من يليهم من مشركي العرب من أسد وغطفان وجهينة وعذرة يستفتحون عليهم، يستنصرون يدعون عليهم باسم نبي الله، فيقولون: اللهم ربنا انصرنا عليهم باسم نبيك، وبكتابك الذي تنزل عليه، وعدتنا أنك باعثه في آخر الزمان، وكانوا يرجون أن يكون منهم، فكانوا إذا قالوا ذلك نصروا على عدوهم[703].)

وإلى جانب ما أشاعه اليهود بين العرب من مبادئ الدين، ومظاهر شعائره فيمكن القول بأن أهم تأثير مباشر لتهيئة دعوة الإسلام وظهور النبي هو ما أشاعه اليهود بين العرب من ترقبهم لظهور المسيح، وهو ما حفز حالة الترقب الروحي، وكان من بين أسباب تطلع بعض الأرواح العربية إلى النبوة، فقد روت كتب السيرة كيف كان اليهود يستفتحون على المشركين من أهل يثرب ويخبرونهم بأنه قد أظلهم زمن بعثة نبي منهم، وأنه متى ظهر ذلك النبي المقاتل فسوف يتبعونه ويصدقونه وينتصرون به على أعدائهم المشركين ويقتلونهم فلا يبقون منهم بقية بل يستأصلونهم فيفنونهم كما فنيت عاد وارم: (واستفتاح اليهود على المشركين هو للتفريج عن أنفسهم ولتخويف الأوس والخزرج، ولاعتقادهم حقاً بظهور مسيح منهم؛ أي من بني إسرائيل، ولهذا أنكروا نبوة الرسول ورفضوا التسليم بها لأنه لم يكن منهم؛ ولأن النبوة لا تكون - على رأيهم - إلا في بني إسرائيل فكيف يصدقون بنبي عربي من الأميين (نبي أموت ها عولام)؟ [704]).

وأما عن موقف النبي منهم فيمكن القول - وباختصار شديد - أن النبي لم يرَ أنه قد أتى قد اليهود بكثير مما لم يعرفوه من العقائد والشرائع، وإنما جاء الإسلام في البداية لتصحيح بعض المفاهيم الاعتقادية التي شاعت بينهم، ولكي يقدم حلاً لبعض (ما كانوا

(703) (راجع : إمتاع الأسماع بما للنبي من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع- تقي الدين المقريزي - دار الكتب العلمية - بيروت الطبعة: الأولى، - 1999 م ج3 ص 359)

(704) المفصل في تاريخ العرب ح- جواد علي - ج6 ص 537) أما عن موقف اليهود من اعتبار النبي نفسه محققا لهذا الرجاء -فقد نقل ابن إسحاق بسنده : (أن يهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله صلى الله عليه وسلم قبل مبعثه فلما بعثه الله من العرب كفروا به وجحدوا ما كانوا يقولون فيه. فقال لهم معاذ بن جبل، وبشر بن البراء بن معرور، أخو بني سلمة يا معشر يهود اتقوا الله وأسلموا، فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد ونحن أهل شرك وتخبروننا أنه مبعوث وتصفونه لنا بصفته فقال سلام بن مشكم، أحد بني النضير : ما جاءنا بشيء نعرفه وما هو بالذي كنا نذكره لكم فأنزل الله في ذلك من قولهم {ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين)(البقرة 89) (راجع ج4 ص 240 - الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام - السهيلي - تحقيق عمر عبد السلام السلامي - دار إحياء التراث العربي، بيروت الطبعة الأولى2000م)

يختلفون فيه)، ويضع عنهم بعض التشريعات الشديدة التي رآها النبي خاصة ببعض أنبياء العهد القديم ولم تكن- في اعتقاده - جزءاً من الشريعة الإلهية القديمة .

أما عن دورهم إجمالاً فلعل أفضل تلخيص للمؤثرات اليهودية، ودورها في تعبيد طريق النبي محمد عليه السلام، وتهيئة العرب لقبول دعوة الإسلام ما قاله هذا الباحث: (وأننا نعتقد أنه لو ظهر هناك يهودي ذو عاطفة ربانية قوية، ودعا العرب إلى الدخول في دين جديد يشبه اليهودية في جوهره ويبقى عربياً في تقاليده وروحه لكانت دعوته قد وجدت آذاناً مُصغيةً وقلوب واعية. كذلك لو كان واحد من المفكرين الحنيفيين أو غيرهم دعا لتوحيد الإله مع إبقاء النظم العربية الاجتماعية التليدة ؛ لكانت دعوته قد صادفت أرضاً خصبة يقول صاحب الأغاني أن أمية بن أبي الصلت:

(كان قد نظر في الكتب وقرأها ولبس المسوح تعبداً وكان ممَنْ ذكر إبراهيم وإسماعيل والحنيفية وحرم الخمر وشك في الأوثان وكان محققاً والتمس الدين وطمع في النبوة لأنه قرأ في الكتب أن نبياً يبعث من العرب فكان يرجو أن يكون ذلك)، ولكن أُمية وغيره لم يظهروا بمظهر الأنبياء، ولم يجترؤوا أن يفادوا بحياتهم في سبيل الدعوة الدينية، وبقيت أفكار أهل الجزيرة العربية مضطربة اضطراباً عنيفاً بين اليهودية والنصرانية والوثنية، إلى أن ظهر رجل رفع علم النبوة، وصار غُرة ناصعة في جبين الدهر ومجداً باقياً ما بقي الزمان، وأرغم التاريخ على أن ينحو نحواً جديداً، وكان اسمه: محمد بن عبد الله من آل قريش من مدينة مكة [705]).

---

(705) إسرائيل ولفنسون - اليهود في جزيرة العرب - ص90- 91

معالم الشريعة الأزلية

سبق أن رأينا كيف أمن النبي محمد - عليه السلام - بوحدة العقيدة الإلهية عبر التاريخ الرسالي فاعتقد - صادقاً - في حضور أركان الإيمان الأساسية عند جميع الأنبياء السابقين، ورأينا كيف كانت تلك المفردات الاعتقادية الأساسية مثل توحيد الله والإيمان بالبعث والملائكة والجنة والنار وعقيدة القدر إلى بقية أركان الإيمان من بين ما جاء به الأنبياء القدامى جميعاً من لدن آدم وصولا إليه، وسبق أن قلنا - أيضاً - بأن ذلك الاعتقاد المحمدي الجميل - والخاطئ - أيضاً - لم يكن سوى أثر من آثار متابعة النبي للتعاليم والعقائد التلمودية، والتي أعادت صياغة التاريخ اليهودي القديم وفق التعاليم الدينية المتأخرة التي عرفها اليهود بعد اختلاطهم بغيرهم من الأمم والشعوب فعادت- تلك الكتابات والقصص التلمودية - إلى الوراء بعيداً ومنحت تلك الاعتقادات والتصورات لآباء العهد القديم ؛ ولذا فمن الطبيعي ألا يجد لها القارئ أثراً في التوراة، وذلك لسبب واضح وبسيط، وهي أنها لم تكن موجودة في التوراة، بل وما كان لها أن توجد أصلاً، وذلك لأن كثيراً منها كانت مفاهيم دينية أرقى بكثير من أن تكون من بين اعتقادات آباء العهد القديم.

ولما كان الاعتقاد في وحدة التصور والعقيدة يلزم عنه - بالضرورة- أن تتشابه - أيضاً - الوصايا السلوكية والأحكام التشريعية والتعبدية ؛ لذا فمن الطبيعي أن يتوقع قارئ القرآن أن يجد بين نصوصه ما يدل على الاعتقاد المحمدي بوحدة الشريعة العامة عند جميع الأنبياء، مثلما تطابقت عقيدتهم الدينية وهو ما ينص عليه القرآن الكريم بوضوح تام كما في هذه الآية وأمثالها: ﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ١٣﴾ [الشُّورَى:13].

أما عن وحدة تلك الشريعة الأزلية فقد كانت هذه الآية السابقة من سورة الشورى كافية في المرحلة المكية للإشارة إلى وحدة الشريعة العامة ؛ إذ لم تكن هناك بعد ضرورة للشرائع التفصيلية التي سيجد النبي نفسه في فسحة من أمره لينتقي من بينها ما يناسب

أمته وما يوافقها سواء أكان ذلك من بين أحكام الشريعة اليهودية والتي اعتقد أنها كانت تعبر عن الإرث النبوي كله، أو كانت من بين ما سيستحسنه النبي من تشريعات عرب الجاهلية وأعرافهم[706] ، والتي أقرها وجعلها من شريعة الله كما سنرى.

ولما كان لا يعنينا سوى بيان هذا المشترك التشريعي الجامع الذي ظن النبي أنه كان يتابع فيه الأنبياء السابقين؛ لذا فسنكتفي ببيان معالم وحدة الشريعة الإلهية كما جاءت في القرآن الكريم وفي الأحاديث النبوية، وأهم تلك التشريعات الدينية التي نجدها صراحة في القرآن الكريم هي أركان الدين الكبرى مثل الصلاة والزكاة والحج والصوم واستقبال القبلة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأما عن التشريعات التفصيلية التي تنظم حياة الناس من الزواج والطلاق والبيع والشراء والعتق والمزارعة والرهن، وما إلى ذلك فليس هنا موضع تفصيلها.

أولاً: الصلاة والزكاة

كما هو معلوم فقد جعل الإسلام من الصلاة ركناً من أركان الإسلام الخمس التي لا يكتمل إيمان المؤمن إلا بالإقرار بها كفريضة إلهية واجبة، وأن يؤديها في أوقاتها من الليل والنهار ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، بل لقد جعلها الإسلام أعظم أركانه بعد الشهادتين، ودلت الأحاديث الصحيحة على أنها أول ما يحاسب عليه العبد يوم القيامة، ورأى النبي أنه لا خير في دين لا صلاة فيه كما كان النبي مولعا بالصلاة وكانت الصلاة قُرة عينه وباب أنسُه وذهاب وحشته ويبدو من مراجعة أقوال المفسرين والمحدثين أننا نجهل عدد الصلوات التي كان النبي يصليها قبل زمن حادثة الإسراء والمعراج، وفرض الصلوات الخمس في تلك الليلة، ولكن ليس ببعيد أن تكون الصلوات التي كان يصليها النبي قبل ذلك كانت دون الخمس صلوات وذلك لغموض الآيات التي تتعلق بأوقات الصلاة في المرحلة المكية ومن ذلك مثلاً: ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ

---

(706) ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [المَائـِدَة : ٤٨]

وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ [الإِسْرَاء : 78 – 79] ، ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٥٥﴾ [غَافِر : 55.[

(وسبح بحمد ربك بالعشي والإبكار" يعني صلاة الفجر وصلاة العصر، قاله الحسن وقتادة. وقيل: هي صلاة كانت بمكة قبل أن تفرض الصلوات الخمس ركعتين غدوةً وركعتا عشيةً. عن الحسن - أيضاً - ذكره الماوردي. فيكون هذا مما نسخ والله أعلم[707])

إنما لا خلاف على أن هذا العدد الخاص الذي استقرت به الصلاة في الإسلام وهو الخمس صلوات، إنما كان ذلك متابعة من النبي لعدد صلوات اليهود، فمن المعلوم أن اليهود كانوا يصلون نوعين من الصلاة تُسمى إحداهما بصلاة الشماع، وهما صلاتان، تقام أولهما عند الاستيقاظ من النوم، والأخرى تقام قبل الخلود إلى النوم: (ثم الصلوات الثلاث الأخرى التي يقال لها (تفيله)، وهي صلاة السحر (تفيله هشحر) وتسمى ب (شحريت) ؛ أي السحر اختصاراً، وتقام في الصبح ؛ ولذلك عُرفَت بصلاة الصبح - أيضاً -، وصلاة العصر وتسمى ب (تفيله همنحه) وب(منحه)؛ أي العصر اختصاراً، وصلاة المغرب ويقال لها (تفيله هعربيت) و (عربيت) اختصاراً؛ أي المغرب والغروب

(707) (انظر تفسير القرطبي - ج15- ص324) ومما ورد عن الحسن - أيضا - انه كان يقول : (بفرضية ركعتين بكرة وركعتين عشيا وقيل : انه يقول كان الواجب ركعتين في أي وقت اتفق)(انظر تفسير الألوسي - تفسير سورة غافر) وبمثل هذا قال الحلبي عندما فسر قول جعفر بن أبي طالب أمام النجاشي (وأمرنا بالصلاة)

(وأمرنا بالصلاة أي غير الخمس، لأنها لم تكن فرضت، بل التي هي ركعتان بالغداة وركعتان بالعشي: أي ركعتان قبل طلوع الشمس، وركعتان قبل غروبها على ما تقدم. والزكاة: أي مطلق الصدقة، لا زكاة المال لأنها إنما فرضت بالمدينة أي في السنة الثانية، ومراده بالزكاة الطهارة،)(انظر السيرة الحلبية ج 1 ص 478- دار الكتب العلمية - بيروت الطبعة: الثانية - 1427هـ)

ولعل مما يؤيد هذا القول كثرة ما جاء في القرآن عن ذكر التسبيح والصلاة في هذين الوقت ومن ذلك في قصة زكريا ﴿ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً ۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾ [آل عِمْرَان : ٤١]

وداود ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ [ص : ١٨] .

فمجموع صلوات (الشماع) و(التفيله) هي خمس صلوات يؤديها اليهودي في اليوم وهي الصلوات الخمس[708]).

لكن ما يعنينا هنا أننا نجد القرآن الكريم يرجع بحضور تلك الشعيرة الدينية إلى أقدم العصور فنراها تظهر - أول ما تظهر - في القرآن الكريم مع النبي إبراهيم[709]،

---

(708) انظر - تاريخ الصلاة في الإسلام - جواد علي - 18-19) وكانت الصلوات في الديانة الزرادشتية خمس صلوات - أيضا - (انظر السابق ص 36) أما عن صلاة الجنازة والعيدين وصلاة الغائب وصلاة الخوف وصلاتي الكسوف والخسوف وغيرها فهي صلوات لم تشرع إلا بعد هجرة الرسول إلى المدينة، ولعلها كانت من تأثير الصلوات اليهودية المماثلة فمثلا نجد (صلاة الخوف) عند اليهود : (وقد أباحت الشريعة اليهودية تقصير الصلاة عند الخوف . وجوزت لمن يكون في حالة خوف تقصير صلاته وتكون هذه الصلاة صلاة الخوف وقد نص عليها في التلمود)(تاريخ الصلاة ص 76)(وانظر - أيضا - التلمود كتاب الذكر والصلاة -(ص203) حيث ستجد القارئ ذكرا لصلاة القصر، وهناك - أيضا - الصلاة الإضافية والتي ربما كانت هي أساس سنن الصلاة في الإسلام ، وقريب منه اقتباس النبي لصلاة الجمعة من صلاة السبت اليهودية، وكذا إمامة المصلين بإمام يصلى بالناس في الصلوات الجماعية : (ويشبه امام الصلاة من يقال له (شيليح هصبور) في اليهودية فهو الذي يتولى إمامة المصلين)(تاريخ الصلاة ص 17)

وقل مثل ذلك عن صلاة الاستسقاء فقد عرفها العرب الجاهليون، وكذلك عرفت الشعوب الأخرى تلك الصلاة وهي معروفة في اليهودية والنصرانية وكان الرومان واليونان يصلون صلاة الاستسقاء : (تاريخ الصلاة ص 77-78)0 وانظر - أيضا - عن صلاة الاستسقاء ومزجها بالصوم على تعدد صوره - متن التلمود - المشنا - القسم الأول – الزراعيم - ترجمة د مصطفي عبد المعبود سيد منصور - مكتبة النافذة - الطبعة الأولى 2008م ص 287 وما بعدها

(709) لم يعرف آباء العهد القديم الصلاة على النحو المعهود ولم يمارسوها، بل كان يكفيهم ذكر الرب مثلما جاء في سفر التكوين (وغرس إبراهيم أثلا في بئر سبع ودعا هناك باسم الرب الإله السرمدي)(تك 12- 8) وكانت عبادة إبراهيم في التوراة تشبه عبادة نوح اذ كانت تتمثل في تقديم الذبائح كقربان للرب والدعاء باسم الرب (تك 12 -7-8) وجاء ذكر الصلاة لأول مرة في التوراة مرتبطا - أيضا - باسم إبراهيم عندما ظهر الله لابيمالك في الحلم وحذره من أن يمسك سارة ويردها إلى زوجها (فانه نبي فيصلي لأجلك فتحيا)(تك - 20-16)

(كانت الصلاة في عصر الهيكل الأول تلقائية كليا وكان يستطيع المرء أن يتوجه لله بعبارات عشوائية خاصة به وفي أي مكان يختاره كلما أحس بحاجة إلى أن يتوسل إليه أو أن يشكره وكان الناس يذهبون إلى الهيكل في أوقات الاضطرابات أو في حالات خاصة ليرفعوا صلواتهم . وفي هذا العهد بدأوا بتنظيم صلوات عامة ونظمت أول المزامير من قبل اللاويين الذين كانوا يرنمونها في الهيكل في المناسبات الخاصة وكان النلس جميعهم يعرفون أن ثمة صلوات رسمية تقام في مناسبات معينة. ومنذ بداية الهيكل الثاني ظهرت بوضوح الحاجة إلى وجود شعائر الصلاة المعترف بها عموما وكان الكثير من المنفيين الذين عادوا من بابل لا يعرفون إلا قليلا جدا اللغة العبرية وبعض المفاهيم الأساسية في اليهودية فعندما كانوا يريدون الصلاة لم تكن تساعدهم اللغة كما كانوا يفتقرون إلى المضمون . ولهذا السبب اتخذ المجمع الأعظم قرارا بتأليف صلاة نموذج تعبر عن أمنيات الشعب وطموحه وقد احتوت هذه الصلاة على ثماني عشرة بركة تتناول كل واحدة منها موضوعا معينا بشكل موجز وهذه الصلاة التي حافظت على جوهرها حتى اليوم وما زالت تشكل أساسا لخدمة الكنيس الروحية .... وكذلك تم تحديد أوقات ثابتة للصلوات تتلاءم مع الطقوس لتقديم القرابين في الهيكل وهناك صلاة كانت تتلى عند الفجر وقت قربان الصباح (تميد شيل شاحار - وصلاة أخرى وقت قربان المساء (منحاه) وكانت هناك صلاه المساء (ما عاريف) التي تتلى عند الغسق مع قدوم الليل ولكن لم ترتبط هذه الصلاة بوقت تقديم قربان معين ولم يكن وضعها واضحا وبعد مرور قرون كان الحكماء ما زالوا يتناقشون باحثين فيما إذا كانت هذه الصلاة إلزامية كالصلاتين الآخرتين أو اختيارية)(انظر مدخل إلى التلمود - أدين شتاينسالتز- ترجمة د فينيتا الشيخ - دار الفرقد - الطبعة الأولى - 2006م - ص 135-136)

ولعل هذا النص السابق هذا يفسر لنا لم كان النبي يصلي في مكة صلاتين فقط وليس ثلاثة صلوات كما هو الشائع عند عامة اليهود - اذ لو صح ذلك - فلربما كان يهود العرب يصلون صلاتين فقط - كما تبين من عدم إجماع اليهود على تلك الصلاة الثالثة وإن غلب على ظننا أن النبي كان يصلى ثلاث وهي صلاة الصبح وصلاة المغرب مضافا إليهما صلاة

ومن جاء بعده من الأنبياء على نحو واضح، وتأتي الإشارة العامة إلى من سبقه من الأنبياء كما تدل عليه هذه الآية الجامعة من سورة مريم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْۤ سُجَّدٗا وَبُكِيّٗا۩ ٥٨ ۞فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ٥٩﴾ [مَرۡيَم : ٥٨ - ٥٩].

وأما عن النص على حضور الصلاة عند الأنبياء السابقين فإليك هذه الأمثلة التي تكاد تستغرق جميع الأنبياء: إبراهيم ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ٣٨ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ٣٩ رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ ٤٠﴾ [إِبۡرَاهِيم : 37 – 40] ، إسماعيل : ﴿وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا ٥٥﴾ [مَرۡيَم : 55][710]، ونجد كذلك الصلاة والزكاة عند إسحاق ويعقوب ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ نَافِلَةٗۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا صَٰلِحِينَ ٧٢ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِمۡ فِعۡلَ ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِۖ وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ ٧٣﴾ [الأَنبِيَاء : 72 – 73]، النبي

الليل التي كانت فريضة على النبي طيلة الفترة المكية قبل أن تنسخها آية سورة المزمل المدنية المتأخرة ! ولعل النبي كان يتابع فيها ما اعتقده عن صلاة داود !
(قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أحب الصيام إلى الله صيام داود فإنه كان يصوم يوما ويفطر يوما وأحب الصلاة إلى الله عز وجل صلاة داود كان ينام نصف الليل ويصلي ثلثه وينام سدسه.)(انظر صحيح الترغيب والترهيب (618)، صحيح أبي داود (2098)

[710] 1712 - فكما نرى فلم تكن الصلاة أمرا فرديا لإسماعيل وحده بل كانت - أيضا - لمن آمن به من أهله - وهو مشابه لقول الله مخاطبا نبيه محمد (وامر اهلك بالصلاة واصطبر عليها) سورة طه

شعيب ﴿ قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ ﴾ [هُود : 87]، موسى وهارون: ﴿ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوۡمِكُمَا بِمِصۡرَ بُيُوتٗا وَٱجۡعَلُواْ بُيُوتَكُمۡ قِبۡلَةٗ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [يُونُس : 87]، لقمان ﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴿١٧﴾ ﴾ [لُقۡمَان : ١٧]، داود ﴿ قَالَ لَقَدۡ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعۡجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦۖ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡخُلَطَآءِ لَيَبۡغِي بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٞ مَّا هُمۡۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعٗاۤ وَأَنَابَ۩ ﴿٢٤﴾ ﴾ [ص : ٢٤]، وسليمان ﴿ وَوَهَبۡنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيۡمَٰنَۚ نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذۡ عُرِضَ عَلَيۡهِ بِٱلۡعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلۡجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ ﴿٣٢﴾ ﴾ [ص : ٣٠ - ٣٢]، النبي زكريا ﴿ فَنَادَتۡهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٞ يُصَلِّي فِي ٱلۡمِحۡرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحۡيَىٰ مُصَدِّقَۢا بِكَلِمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدٗا وَحَصُورٗا وَنَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [آل عِمۡرَان : ٣٩] . الصلاة والزكاة عند المسيح يعلنهما من مهده باعتبار ما سيكون ﴿ قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيۡنَ مَا كُنتُ وَأَوۡصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمۡتُ حَيّٗا ﴿٣١﴾ ﴾ [مَرۡيَم : 30-31]، عامة بنو إسرائيل حيث نجد ذكر الصلاة والزكاة والإيمان بعموم الرسل والصدقة والجنة والنار : ﴿ ۞ وَلَقَدۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَبَعَثۡنَا مِنۡهُمُ ٱثۡنَيۡ عَشَرَ نَقِيبٗاۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمۡۖ لَئِنۡ أَقَمۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيۡتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرۡتُمُوهُمۡ وَأَقۡرَضۡتُمُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ فَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ فَقَدۡ

ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾ [المَائـِدَة : 12]، ومثله : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾ [البَقَرَةِ : ٨٣]، بل جاءت سمة أصحاب النبي محمد في التوراة والإنجيل، وكانت أظهر تلك السمات هي أن جباههم تعلوها آثار السجود كعلامة من علامات الوضاءة والصلاح: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾ [الفَتْح : 29].

(وقوله (ذلك مثلهم في التوراة) يقول: هذه الصفة التي وصفت لكم من صفة أتباع محمد صلى الله عليه وسلم الذين معه صفتهم في التوراة. وقوله (ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه) يقول: وصفتهم في إنجيل عيسى صفة زرع أخرج شطأه، وهو فراخه، يقال منه: قد أشطأ الزرع: إذا فرخ فهو يشطي إشطاء، وإنما مثلهم بالزرع المشطئ، لأنهم ابتدأوا في الدخول في الإسلام، وهم عدد قليلون، ثم جعلوا يتزايدون، ويدخل فيه الجماعة بعدهم، ثم الجماعة بعد الجماعة، حتى كثر عددهم، كما يحدث في أصل الزرع الفرخ منه، ثم الفرخ بعده حتى يكثر وينمى[711]).

صلاة الأنبياء في الأحاديث النبوية

وأما ما جاء عن صلاة الأنبياء والصالحين في الأحاديث النبوية فقد رأينا صلاة إبراهيم، وصلاة سارة، وصلاة جريج العابد، وصلاة الملك العبراني الزاهد في الملك،

[711] (جامع البيان في تأويل القرآن- الطبري - شاكر- ج22- ص265

ورأينا كيف أنهم كانوا يتوضؤون ويصلون الصلاة لأوقاتها، ويمكننا أن نلحق بتلك القصص السابقة هذين الحديثين المهمين: (عن عبد الله بن عمرو قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إن سليمان بن داود عليهما السلام لما فرغ من بناء بيت المقدس سأل الله ثلاثا فأعطاه اثنتين، ونحن نرجو أن تكون له الثالثة فسأله حكما يوافق حكمه فأعطاه إياه، وسأله ملكا لا ينبغي لأحد من بعده فأعطاه إياه، وسأله أيما رجل خرج من بيته لا يريد إلا الصلاة في هذا المسجد خرج من خطيئته مثل يوم ولدته أمه فنحن نرجو أن يكون الله عز وجل أعطاه إياها [712]).

(عن الحارث الأشعري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إن الله أمر يحيى بن زكريا بخمس كلمات أن يعمل بهن ويأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن وإنه كاد أن يبطئ بها فقال عيسى عليه السلام إن الله أمرك بخمس كلمات لتعمل بهن وتأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن فإما أن تأمرهم وإما أن آمرهم فقال يحيى: أخشى إن سبقتني بها أن يخسف بي أو أعذب فجمع الناس في بيت المقدس فامتلأ المسجد وتعدوا على الشرف فقال إن الله أمرني بخمس كلمات أن أعمل بهن وآمركم أن تعملوا بهن أولهن: أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وأن مثل من أشرك بالله كمثل رجل اشترى عبداً من خالص ماله بذهب أو ورق فقال هذه داري وهذا عملي فاعمل وأد إلي فكان يعمل ويؤدي إلى غير سيده فأيكم يرضى أن يكون عبده كذلك وإن الله أمركم بالصلاة فإذا صليتم فلا تلتفتوا فإن الله ينصب وجهه لوجه عبده في صلاته ما لم يلتفت وآمركم بالصيام فإن مثل ذلك كمثل رجل في عصابة معه صرة فيها مسك فكلهم يعجب أو يعجبه ريحها وإن ريح الصائم أطيب عند الله من ريح المسك وآمركم بالصدقة فإن مثل ذلك كمثل رجل أسره العدو فأوثقوا يده إلى عنقه وقدموه ليضربوا عنقه فقال أنا أفديه منكم بالقليل والكثير ففدى نفسه منهم وآمركم أن تذكروا الله فإن مثل ذلك كمثل رجل خرج العدو في أثره سراعاً حتى إذا أتى على حصن حصين فأحرز نفسه منهم كذلك العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله... [713]).

[712])انظر صحيح ابن ماجة للألباني برقم (1156) والعلي برقم (285) وسينقل النبي ما رجاه من الله لأخيه سليمان إلى البيت الحرام بمكة

( )[713]انظر الحديث في صحيح الجامع الصغير برقم (1724))صحيح المشكاة برقم (3694

والحديث الثاني كما ترى يجمع لعيسى ويحيي معظم الشرائع الدينية من الصلاة والزكاة والصيام والصدقة وذكر الله والتحرز من الشيطان، ويمكن للقارئ أن يجد كثيراً من الأحاديث النبوية، والتي ساقت هذه التعبيرات ذاتها لبيان فضل الصلاة والذكر والصوم في الإسلام.

استقبال القبلة

(أما القبلة في اصطلاح علماء الأديان فهي الاتجاه الذي يأخذه المصلي في صلاته في بيته أو في معبده، أو أي مكان آخر مكشوف أو مغلق وهي من الشعائر المعروفة في عبادات الساميين، وهي ليست من الأمور الاختيارية التي يختارها الفرد بحسب رغبته ومشيئته، بل هي من الأمور التي تعينها الشرائع والأحكام وتنص عليها [714]).

(أني قد بنيت لك بيت سكني مكانا لسكناك إلى الأبد، وحول الملك وجهه وبارك كل جمهور إسرائيل وكل جمهور إسرائيل واقف[715]) .

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [يُونُس : 87] .

(قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً ﴾ قَالَ أَكْثَرُ الْمُفَسِّرِينَ: كَانَ بَنُو إِسْرَائِيلَ لَا يُصَلُّونَ إِلَّا فِي مَسَاجِدِهِمْ وَكَنَائِسِهِمْ وَكَانَتْ ظَاهِرَةً، فَلَمَّا أُرْسِلَ مُوسَى أَمَرَ فِرْعَوْنُ بِمَسَاجِدِ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَخُرِّبَتْ كُلُّهَا وَمُنِعُوا مِنَ الصَّلَاةِ، فَأَوْحَى اللَّهُ إلى موسى وهارون أن اتخذا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ بُيُوتًا بِمِصْرَ، أَيْ مَسَاجِدَ، وَلَمْ يُرِدِ الْمَنَازِلَ الْمَسْكُونَةَ. هَذَا قَوْلُ إِبْرَاهِيمَ وَابْنِ زَيْدٍ وَالرَّبِيعِ وَأَبِي مَالِكٍ وَابْنِ عَبَّاسٍ وَغَيْرِهِمْ. وَرُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ أَنَّ الْمَعْنَى: وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ يُقَابِلُ بَعْضُهَا بَعْضًا. وَالْقَوْلُ الْأَوَّلُ أَصَحُّ، أَيِ اجْعَلُوا مَسَاجِدَكُمْ إِلَى الْقِبْلَةِ، قِيلَ: بَيْتُ الْمَقْدِسِ، وَهِيَ قِبْلَةُ الْيَهُودِ إِلَى الْيَوْمِ، قَالَهُ ابْنُ بَحْرٍ. وَقِيلَ الْكَعْبَةُ. عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: وَكَانَتِ الْكَعْبَةُ قِبْلَةَ مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْقِبْلَةَ

---

(714) (تاريخ الصلاة في الإسلام - ص 48)

(715) سفر الملوك الأول 18 الآيات 13-14)

فِي الصَّلَاةِ كَانَتْ شَرْعًا لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَلَمْ تَخْلُ الصَّلَاةُ عَنْ شَرْطِ الطَّهَارَةِ وَسَتْرِ الْعَوْرَةِ وَاسْتِقْبَالِ الْقِبْلَةِ، فَإِنَّ ذَلِكَ أَبْلَغُ فِي التَّكْلِيفِ وَأَوْفَرُ لِلْعِبَادَةِ[716]).

من المعلوم أن النبي - عليه السلام - قد اتخذ بيت المقدس قبلة له طوال الفترة المكية، واستمر على ذلك بعد الهجرة لمدة ستة عشرة شهراً حتى تنزلت تلك الآيات التي تدعوه إلى استقبال الكعبة كما يدل هذا الحديث الذي جاء في الصحيحين من حديث البراء بن عازب قال: (صليت مع النبي صلى الله عليه وسلم إلى بيت المقدس ستة عشر شهرا حتى نزلت الآية التي في البقرة وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره.. [717]).

ولا يعنينا في شيء بيان ذلك الخلاف العبثي الذي شجر بين المسلمين واختلاف آرائهم حول قبلة اليهود زمن موسى، وهل كانوا يتوجهون في صلاتهم إلى بيت المقدس، أم كانوا يصلون إلى الكعبة، أو مَنْ حاول منهم التوفيق بين هذين الرأيين المتخالفين كما فعل هذا الباحث المجتهد (ولا يوجد ما يمنع أن تكون قبلة بني إسرائيل ومن جاورهم من غيرهم من الأمم المسلمة الأخرى القريبين إلى فلسطين هي بيت المقدس في الصلاة وكانت قبلة الحج هي بيت الله الحرام (الكعبة)، أما لمَنْ كان في جوار الكعبة من نسل إسماعيل بن إبراهيم - عليهما السلام - ومن جاورهم فهي إلى بيت الله الحرام في الصلاة والحج [718]) .

فكل ما يعنينا هنا هو أن نعلم أنه كما كان يهود عصر النبي يتوجهون إلى بيت المقدس في صلاتهم، فقد اعتقد النبي أن تلك الشعيرة قد وجدت منذ زمن موسى، وأن

---

[716] (انظر ج8 ص 371- تفسير القرطبي - تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش- دار الكتب المصرية - القاهرة الطبعة: الثانية، - 1964 م)

[717] (صحيح البخاري برقم (4486) يرى بعض الباحثين أن النبي كان يستقبل الكعبة في صلاته طيلة الفترة المكية، وأنه لم يستقبل بيت المقدس إلا بعد هجرته إلى المدينة (راجع تاريخ الصلاة - جواد علي - ص 48)، ظنا منه بأن هذا الحديث ينص على تمام المدة التي اتجه فيها النبي إلى بيت المقدس ! ولكننا نظن اعتمادا على كثرة الأحاديث التي بلغتنا عن النبي في فضل بيت المقدس وتعظيمه شعائر اليهود الدينية حتى تلك الفترة أنه ما كان ليترك قبلة الأنبياء السابقين ويخالف اليهود في تلك الشعيرة خاصة أننا نجد كتب السيرة النبوية تنص على ذلك ومن ذلك مثلا ما أورده ابن إسحاق في سياق قصة إسلام أنصاري قديم الإسلام وهو البراء بن معرور والذي خالف - ومنذ اللحظة الأولى التي أسلم فيها- أصحابه وحاول أن يتجه بصلاته إلى الكعبة ثم حاك في صدره شيء فرجع إلى النبي : (فقال البراء بن معرور يا نبي الله اني خرجت في سفري هذا وقد هداني الله للإسلام فرأيت ألا أجعل هذه البنية (يقصد الكعبة) مني بظهر فصليت إليها وقد خالفني أصحابي في ذلك حتى وقع في نفسي شيء من ذلك فماذا ترى يا رسول الله ؟ فقال له النبي (لقد كنت على قبلة لو صبرت عليها) فرجع البراء إلى قبلة رسول الله صلى الله عليه وسلم وصلى معنا إلى الشام)(انظر سيرة ابن هشام ج2 ص 49 - دار الحديث القاهرة - الطبعة الثانية - 1998م

[718] (انظر: عبادات الأمم المسلمة السابقة في القرآن والأحاديث - محمد حماد الطل - المعهد الملكي للدراسات الدينية - 2006م - الأردن - ص 117

الله قد أمر اليهود على لسان موسى بأن يتوجهوا إلى بيت المقدس عندما يصلون في بيوتهم، وكذلك بيان اعتقاد النبي في أمثال تلك الاعتقادات الخاطئة التي ربما تكون قد بلغته من المرويات التلمودية المتأخرة؛ فلم يعرف اليهود في زمن موسى الصلاة على تلك الصورة التي كانت عليها عند يهود العرب، ولم تكن هناك قبلة - أصلاً- يتوجهون إليها حيث: (لم تذكر التوراة قِبلة معينة لبني إسرائيل بل هم الذين حددوها لأنفسهم بعد موت سليمان، وافتراق بني إسرائيل إلى سبطي يهوذا وإسرائيل حيث اتخذ سبط يهوذا جبل صهيون بفلسطين قبلة لهم، أما سبط إسرائيل فاتجه نحو جبل جرزيم بفلسطين وكان قبلة السامريين - أيضاً -[719]).

وأما يهود عصر النبي فقد نص القرآن على أنهم كانوا يتوجهون في صلاتهم إلى بيت المقدس، وتابعهم النبي على ذلك منذ مبعثه وإلى ما بعد هجرته بستة عشر شهراً- والأكثر من ذلك أننا نعلم أنهم كانوا يعظمون تلك القبلة فيتحرجون أن يستقبلوها أو يستدبروها إذا ما جلسوا لقضاء حاجتهم: (ورد في (برايتا) أن الرابي عقيفا قال: ذات مرة دخلت الخلاء (بيت الراحة) خلف الرابي يهوشع في إقليم يهودا وتعلمت منه ثلاثة أشياء: ألا أتوجه ناحية الشرق أو الغرب (عند قضاء الحاجة) ولكن نتوجه شمالاً أو جنوباً وألا نكشف عورتنا عند قضاء الحاجة وقوفاً بل جلوساً، وألا نمسح مكان قضاء الحاجة باليد اليمنى ولكن باليد اليسرى فقال له بن عزاي: وصلت بك الجرأة إلى هذه الدرجة مع معلمك؟! فقال له الربي عقيفا: إنها مسألة تخص الشريعة ويجب علي أن أفعل ذلك بغرض التعلم [720]).

الاعتكاف في المساجد

ومن بين الشعائر التعبدية المشتركة بين الأنبياء السابقين وبين ما أتى به النبي شعيرة (الاعتكاف في المساجد) ؛ أي الاختلاء بالذات لوقت قد يطول حتى يبلغ شهراً كاملاً كما كان النبي يفعل أحياناً، أو يقصر هذا الاعتكاف فيصير ساعة واحدة من الليل

[719] (انظر : الصلاة في الشرائع القديمة والرسالات السماوية - د هدى درويش - عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية - الطبعة الأولى - 2006م ص 99

[720] انظر (التلمود كتاب الذكر والصلاة - ص511)، بل سنجد النبي يتابع تلك الآداب فينهى أصحابه عن البول وهم وقوف أو أن يستخدموا اليد اليمنى في غسل أو مسح موضع الحاجة أو أن يستقبلوا القبلة أو يستدبروها وهم في تلك الحالة كما يدل على ذلك هذا الحديث : (إذا أتى أحدكم الغائط فلا يستقبل القبلة ولا يولها ظهره ولكن شرقوا أو غربوا) برقم (262) :صحيح الجامع الصغير وزياداته

أو النهار، حيث يقضيها المؤمن في أحد المساجد للتعبد ومناجاة الله، وقضاء الوقت كله للتسبيح والتحميد والانخلاع المؤقت عن الشواغل الدنيوية - كما لو كان تصريفاً نبوياً معتدلاً لنزوع المؤمنين الصالحين بترك العالم وما فيه والانقطاع للعبادة وهو شعور ندر غيابه التام عن أي مؤمن قوى الشعور في أي دين من الأديان، وكأن الإسلام يفتح به باباً، ومتنفساً لتلك الرهبنة العابرة - إن صح هذا التعبير- عبر هذا الحل اللطيف الذي هو من ثمار توازنه الأصيل بين النوازع الإنسانية كافة، ولكن القرآن الكريم كعادته يرجع بتلك الشعيرة إلى إبراهيم.. ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّىۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ١٢٥﴾ [البَقَرَةِ : 125].

(وَعَهِدْنا أي: أوحينا إِلى إِبْراهِيمَ وَإِسْماعِيلَ ولده، بأن قلنا لهما طَهِّرا بَيْتِيَ من الأدناس والأرجاس والأصنام والأوثان، لِلطَّائِفِينَ به وَالْعاكِفِينَ أي: المقيمين فيه، والمصلين فيه الراكعين الساجدين. فكان البيت مُطهراً في زمانهما وبعدهما زماناً، ثم أدخلت فيه الأصنام فطهّره نبينا محمد صلى الله عليه وسلّم، وتبقى طهارته حتى يأتي أمر الله. والله تعالى أعلم[721]).

فهنا نجد من بين الأنشطة الروحية التي تتعلق بالكعبة الطواف حولها والصلاة فيها بالركوع والسجود - وأيضاً - الاعتكاف وهي ذات الأنشطة التي كان يمارسها العرب المشركين منهم والمتحنفين قبل الإسلام حيث نجد عن الاعتكاف في الكعبة هذا الحديث (عن ابن عمر- رضي الله عنه- قال أن عمر بن الخطاب سأل النبي عليه الصلاة والسلام: يا رسول الله إني نذرت نذراً في الجاهلية أن اعتكف ليلة في المسجد الحرام فقال له النبي: أوف بنذرك[722]).

[721] (انظر ج1 ص 163- البحر المديد في تفسير القرآن المجيد- ابن عجيبة الحسني - تحقيق أحمد عبد الله القرشي رسلان- نشر الدكتور حسن عباس زكي - القاهرة-1419 هـ)

[722] (صحيح البخاري برقم (2032) واللفظ لرواية عند مسلم) ورغم ما نعلمه من أن ظاهر الآيات لا يقول بوجود شعيرة الاعتكاف في زمن إبراهيم - بشكل واضح - إلا أن السياق لا يمنع شيئا من ذلك

تاريخ الصوم في الإسلام

إذا كنا قد وجدنا باحثاً متضلعاً في تاريخ العرب الجاهليين ومتعمقاً في ثقافة الإسلام يخصص كتاباً كاملاً عن (تاريخ الصلاة في الإسلام) فجاء كتابه ذاك جميلاً نافعاً ـ حيث ألقى لنا الضوء عن تطور الصلاة في الإسلام منذ بدء حضور تلك الشعيرة في الإسلام وحتى استقرارها على هيئتها التامة المنضبطة التي صارت إليه في ختام حياة النبي ، إلا أننا ـ ويا للعجب ـ لم نجد على المقابل مبحثاً ـ ولو قصيراً ـعن تاريخ الصوم في الإسلام ـ رغم أننا نعتقد أن مبحثاً كهذا ربما يصلح كمثال واضح على تفاعل النبي محمد مع الموروث الديني لعرب الجاهلية، وتفاعله كذلك مع التقاليد الدينية اليهودية مما ساعده في إنشاء شريعته الخاصة، ولعل هذه الصفحات القليلة القادمة تشير في عجالة إلى هذه النقطة الهامة .

صوم النبي في مكة

﴿ فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًاۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ٢٦﴾ [مَرْيَم : 26] .

يقول المؤرخون لتاريخ العرب قبل الإسلام بأن أهل عرب الجاهلية لم يكونوا يعرفون الصوم بالمعنى المفهوم منه عند أهل الكتاب أو المسلمين، وأما صوم أهل الكتاب يهوداً كانوا أو نصارى فقد كان معروفاً عند بعض أهل الجاهلية من: (الذين كان لهم اتصال واحتكاك بأهل الكتاب. فقد كان أهل يثرب مثلًا على علم بصوم اليهود؛ بسبب وجودهم بينهم. وكان عرب العراق وبلاد الشام على علم بصوم النصارى؛ بسبب وجود قبائل عربية متنصرة بينهم. وكان أهل مكة، ولا سيما الأحناف منهم والتجار على معرفة بصيام أهل الكتاب. وبصيام الرهبان، المتمثل في السكوت والتأمل والجلوس في خلوة؛ للتفكير في ملكوت السماوات والأرض. ويظهر من أخبار أهل الأخبار أن من الجاهليين من اقتدى بهم، وسلك مسلكهم. كان يصوم، صوم السكوت والتأمل والامتناع عن الكلام والانزواء في غار حراء وفي شعاب جبال مكة [723]).

[723] (انظر المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام جواد علي - ج11 ص 339)

وأما الصوم عند الأمم السابقة في القرآن فلم يذكر لنا عنه شيء قط في القرآن المكي إلا ما جاء عن صوم مريم عن الكلام كما تنص تلك الآية السابقة، وهو ضرب خاص من الصوم ربما كان معروفاً - أيضاً - في الجاهلية حيث نجد كتب السيرة ومتون الأحاديث تحكي لنا عن نهي النبي عن هذا الصوم كما في هذا الحديث: (عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: بينا النبي صلى الله عليه وسلم يخطب إذا هو برجل قائم فسأله عنه فقالوا: أبو إسرائيل نذر أن يقوم ولا يقعد ولا يستظل ولا يتكلم ويصوم فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (مروه فليتكلم وليستظل وليقعد وليتم صومه[724]). ومثله قول النبي (لا يتم بعد احتلام، ولا صمات إلى الليل [725]).

قال الخطابي: قوله (لا صمات يوم إلى الليل) كان أهل الجاهلية من نسكهم الصّمات، وكان الواحد منهم يعتكف اليوم والليلة فيصمت ولا ينطق فنهوا عن ذلك وأمروا بالذكر والنطق بالخير [726]) وصار من مُقررات الشريعة تحريم الجمع بين الصوم والصمت (فَأَمَّا فِي شَرِيعَتِنَا فَيُكْرَهُ لِلصَّائِمِ صَمْتُ يَوْمٍ إِلَى اللَّيْل[727].)

ورغم أننا لا نعرف شيئاً عن صوم النبي قبل البعثة، ولا عن صومه قبل الهجرة، فلا يبعد - في اعتقادنا - أن يكون النبي قد مارس الصوم قبل البعثة وبعدها - أيضاً -، فليس من المعقول أن تغيب مثل تلك الشعيرة الدينية الشائعة عن حياته الروحية وممارساته التعبدية، وخاصة مع ما نعلمه عن شديد تولعه بالصوم، وحضه عليه بعد الهجرة ومع ما نعرفه كذلك عن حضور تلك العبادة عند نساك العرب وحنفائها قبيل الإسلام، ولعل في حضور كلمة (سائح) في القرآن وإطباق المفسرين على أنها تعني (الصائم) ما يدل على أنها كانت تشير إلى المعنى الأصلي البعيد لتلك الكلمة: ﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلۡعَـٰبِدُونَ ٱلۡحَـٰمِدُونَ ٱلسَّـٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّـٰجِدُونَ ٱلۡأَٰمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَـٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١١٢﴾ [التَّوْبَة : 112]، ومثلها: ﴿ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ

(724) رواه البخاري وانظر هذه الرواية في إرواء الغليل للألباني برقم (2954)

(725) (صحيح الجامع الصغير وزياداته برقم (7609)

(726) (انظر ج2 ص 642 - جمال القراء وكمال الإقراء- السخاوي - دراسة وتحقيق: عبد الحق عبد الدايم سيف القاضي- مؤسسة الكتب الثقافية - بيروت- الطبعة: الأولى، 1999 م

(727) (انظر قصص الأنبياء - ابن كثير الدمشقي - تحقيق مصطفي عبد الواحد - مطبعة دار التأليف بالقاهرة - ج 2 ص 329)

إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ۝٥﴾ [التَّحْرِيم : 5]

ولعل فيما روته كتب السيرة والأحاديث عن رغبة بعض أصحاب النبي أن يوغلوا في العبادة بعد أن سألوا أزواج النبي عنها (فلما أخبروا كأنهم تقالوها. فقالوا: وأين نحن من النبي صلى الله عليه وسلم قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. فقال أحدهم: أما أنا فإنني أصلي الليل أبدًا. وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر. وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدًا. فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "أنتم الذين قلتم كذا وكذا أما والله إني لأخشاكم لله، وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء تلك سنتي فمن رغب عن سنتي فليس مني"[728]).

وهذا يدل على أن الاستغراق في الصوم والتبتل واعتزال النساء وقضاء الليل في التعبد مما شاع بين النساك القدامى، خاصةً أننا نجد من بين هؤلاء الثلاثة صحابي - ربما كانت له ميول مسيحية - مثل عثمان بن مظعون، بل لا يبعُد أن يكون من بين العرب من امتنع عن أكل اللحوم تعبداً مثلما نجد عند صحابي قديم الصحبة مثل (آبِي اللَّحْمِ الغفاري.) (وإنما قيل لَهُ: آبِي اللَّحْمِ لأَنَّه كَانَ لا يأكل ما ذبح عَلَى النصب، وقيل: كان لا يأكل اللحم. [729])

ومن المعلوم أن الدلالة الظاهرية المباشرة لكلمة سائحين إنما تعني هؤلاء المتجولين الهائمين من الساعين خلف الحقيقة الدينية من النُساك وأصحاب الأرواح القلقة، ولعل القرآن كان يستحضر أمثال هؤلاء، ولكنه عبر عنهم بأشهر صفاتهم التي اشتهروا بها وهي الصوم: (قال ابن عيينة: إذا ترك الطعام والشراب والنساء، فهو السائح.[730])، و(قال عامة المفسرين هم الصائمون. وقال ابن عباس: كل ما ذكر في القرآن من السياحة، فهو الصيام. وقال النبي عليه الصلاة والسلام: (سياحة أمتي الصيام)، وعن الحسن: أن هذا صوم الفرض. وقيل هم الذين يديمون الصيام،[731]).

[728] (انظر صحيح البخاري كتاب النكاح باب الترغيب في النكاح ج8 ص125 ط الأوقاف)

[729] (انظر ج1 ص 45 - أسد الغابة -ابن الأثير - دار الفكر - بيروت1989م

[730] (انظر ج14- ص505- تفسير الطبري - ت أحمد شاكر - مؤسسة الرسالة - الطبعة الأولى - 2000م)

[731] (انظر ج16- ص 154- تفسير الرازي - دار إحياء التراث العربي - بيروت - الطبعة الثالثة - 1420 ه-)

صوم عاشوراء

(يوم الغفران هو العيد المعتاد في العاشر من تشري (أكتوبر)، ويختلف عيد الغفران عن سائر الأعياد في عدة موضوعات. فحُكم يوم الغفران كحُكم السبت فيما يتعلق بتحريم الاشتغال بأي عمل، ولكن من يتعدى على ذلك لا يُدان بالموت وإنما بالقطع. كما أن يوم الغفران هو يوم صيام شديد تحرم فيه خمسة أشياء: الأكل والشرب والاستحمام والانتعال والجماع ويوم الغفران هو يوم التسامح والعفو؛ حيث يغفر فيه الرب خطايا إسرائيل فيكفر في هذا اليوم عن وصايا افعل ولا تفعل التي تعداها الإنسان سهواً أو عمداً، ولا يكفر يوم الغفران عن الآثام التي بين الإنسان وصاحبه حتى يسترضي صاحبه ويصالحه فيسامحه. ويصلون في يوم الغفران خمس صلوات كذلك يصلون (النعيلا) وهي صلاة جماعية إضافية)، ويعترفون بالذنوب عدة مرات من مساء يوم الغفران حتى نهايته.[732])، وقد نص التلمود أيضاً على أن الشياطين تفقد تأثيرها على البشر في يوم الغفران: (وماذا عن الشيطان؟ إنه يقف عند الباب. إن الشيطان لا فيها إغواء الناس وصرفهم عن واجباتهم يُسمح له بإغواء الناس في يوم الغفران من أين أشتق هذا الحكم؟، قال راما ابن حاما: إن الشيطان يكون فاعلاً في ثلاثمائة وأربعة وستين يوماً يستطيع وارتكابهم الذنوب وهو مسموح له بذلك، إلا يوماً واحداً [733])، وهو ما جاءت به الأحاديث الصحيحة عن سلسلة الشياطين، ولكن جعله النبي ممتداً خلال شهر رمضان بأكمله: (هذا شهر رمضان قد جاءكم، تفتح به أبواب الجنة، وتغلق فيه أبواب النار، وتسلسل فيه الشياطين[734]).

على الرغم أننا لم يبلغنا شيء عن صوم النبي في الجاهلية، ولكن من المقطوع به أن النبي قد استهل شعيرة صومه في المدينة - ربما بعد أسابيع قليلة من هجرته - بصوم يوم من أعياد اليهود الهامة، وهو صوم يوم عاشوراء مثلما أجمعت على ذلك المصادر الحديثية وكتب السيرة النبوية. (عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدِمَ الْمَدِينَةَ فَوَجَدَ الْيَهُودَ صِيَامًا يَوْمَ عَاشُورَاءَ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا هَذَا الْيَوْمُ الَّذِي تَصُومُونَهُ؟ فَقَالُوا: هَذَا يَوْمٌ عَظِيمٌ: أَنْجَى اللَّهُ فِيهِ مُوسَى وَقَوْمَهُ

[732] (انظر - معجم المصطلحات التلمودية - الحاخام عادين شتينزلتس - ترجمة د مصطفي عبد المعبود سيد - مركز الدراسات الشرقية بجامعة القاهرة - 2006م - ص 103 -104)

[733]انظر : التلمود البابلي – المجلد السادس ص 54

[734]انظر صحيح الجامع برقم (6995)

وَغَرَّقَ فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ فَصَامَهُ مُوسَى شُكْرًا فَنَحْنُ نَصُومُهُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فَنَحْنُ أَحَقُّ وَأَوْلَى بِمُوسَى مِنْكُمْ» فَصَامَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَمَرَ بصيامه[735]).

وربما ليس من اليسير أن نتقبل صدور تلك الكلمة من النبي على صيغتها العنيفة تلك وهو الذي كان يرجو وقت أن قدم المدينة أن يتألف قلوب اليهود وكان يطمع في إسلامهم؛ لذا فمن الممكن أن نقبل أن يوافق النبي على صوم هذا اليوم تعظيماً له وتأليفا لقلوبهم ، ولكننا نرتاب أشد الريبة في أن يكون النبي قد لهم هذا القول الشديد؛ لذا فيمكن القول بأن هذه الرواية الأخرى- التي أوردها البخاري عن ابن عباس - أيضاً - هي الأقرب للصحة ففيها يستفهم النبي من اليهود عن سبب صومهم لهذا اليوم، لكنه يتوجه بعدها إلى أصحابه فيعلنهم بأنهم أولى بموسى من اليهود (وفي أخرى: "أنتم أحق بموسى منهم، فصوموا"[736]).

سواء أصام النبي يوم عاشوراء بعد هجرته إلى المدينة، وبعد أن علم من اليهود مناسبته من ذكرى نجاة موسى، فأقرهم النبي على تعظيمه ووجوب صومه كما يدل عليه ظاهر هذا الحديث السابق، أو كان النبي وقريشاً يصومونه في الجاهلية كما جاء في روايات أخرى حيث ورد: (عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان يوم عاشوراء يوماً تصومه قريش في الجاهلية، وكان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يصومه في الجاهلية. فلمَّا قَدِمَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المدينةَ؛ صامه وأمر بصيامه. فلما فُرِضَ رمضان؛ كان هو الفريضة، وَتَرَكَ عاشوراءَ؛ فمَنْ شاء؛ صامه، ومن شاء؛ تركه [737]).

وأما ما جاء عن صوم قريش ليوم عاشوراء فهو أمر بعيد حقاً كما يقول هذا الباحث الجليل: (ويظهر أن خبر صيام قريش يوم "عاشوراء"، هو خبر متأخر، ولا

(735) (مُتَّفق عَلَيْهِ) وهذا اليوم الذي أسماه العرب في الجاهلية بيوم عاشوراء (هو ما يعرف عند اليهود (يوم كبور) أو(يوم هكبوريم) حيث يوافق اليوم العاشر من شهر محرم أول شهور السنة الهجرية وصوم يوم الغفران في العاشر من تشرى أول شهور السنة العبرية) (انظر كتاب : الصوم في اليهودية - ص 44) Kويلاحظ أن كلاهما هو اليوم العاشر من الشهر الأول في السنة!

(736) (انظر هذه الرواية في : (مُخْتَصَر صَحِيحُ الإِمَامِ البُخَارِي - الألباني - ج1 ص 583- مكتَبَة المَعارف للنَّشْر والتوزيع، الرياض لطبعة: الأولى - 2002 م)

(737) (انظر ص 162- مختصر الشمائل المحمدية - محمد بن عيسى الترمذي - المكتبة الإسلامية - عمان الأردن - حققه واختصره محمد ناصر الدين الألباني وحكم عليه بالصحة برقم (263)

يوجد له سند يؤيده. ولا يعقل صيام قريش فيه، وهم قوم مشركون. وصوم "عاشوراء"، هو من صيام يهود. وهو صيام كفارة واستغفار عندهم، فلمَ تستغفر قريش ويصومون هذا اليوم؟ وماذا فعلوا من ذنب، ليطلبوا من آلهتهم العفو والغفران؟ وإذا كان هناك صوم عند الجاهليين، فقد كان بالأحرى أن يصومه الأحناف، ولم يرد في أخبار أهل الأخبار ما يفيد صيامهم في "عاشوراء" ولا في غير عاشوراء. ثم إن علماء التفسير والحديث والأخبار، يذكرون أن الرسول صام "عاشوراء" عند مقدمُه المدينة على نحو ما ذكرت قبل قليل. وأنه بقي عليه حتى نزل الأمر بفرض رمضان. ويظهر أن الرواة أقحموا اسم قريش في صيام "عاشوراء"؛ لإثبات أنه كان من السنن العربية القديمة، التي ترجع إلى ما قبل الإسلام وأن قريشًا، كانت تصوم قبل الإسلام[738]).

وسواء صح هذا أو ذاك[739] - فقد صام النبي هذا اليوم وأمر المسلمين بصيامه، وعلى وجه من الحض والتأكيد جعل كثيراً من المحققين يرون أن صوم عاشوراء إنما كان فرضاً على المسلمين حتى شرع الله لهم صوم شهر رمضان[740] ، وعلى كل حال فلم يستمر هذا التشريع طويلاً فلربما صام المسلمون هذا اليوم مرة أو مرتين على الأكثر كفريضة لازمة، ثم ما لبث النبي في العام التالي أن استعاض عن صوم ذاك اليوم الواحد ومعه تلك الأيام (المعدودة) بصيام شهر كامل وهو شهر رمضان وهو شهر - كما هو معروف- كانت له مكانته الدينية في الجاهلية، وربما كانت له كذلك منزلة خاصة في

---

(738))(المفصل ج11ص 342) (وحديث "عائشة" حديث مفرد، ويجوز أن يكون قد وضع على لسانها، ولا يعقل انفرادها به وعلمها وحدها بصيام قريش في ذلك اليوم، وخفاء أمره على غيرها من الرجال والنساء ممن عاش معظم حياته في الجاهلية.)(المفصل ج16 ص115)

(739) - ربما لا سبيل إلى التوفيق أو الجمع بين الروايتين رغم انه ليس هناك ما يمنع أن يكون النبي قد صام هذا اليوم قبل البعثة وخلال الفترة المكية لمعرفته بقداسة هذا اليوم وعلى هذا فلم يكن النبي يسأل عن علة صوم عاشوراء بل كان يسألهم عن أي صوم يصومونه أما ما نسبه الحديث إلى قريش من صوم عاشوراء فهو المستبعد

(740) (عاشوراء كان في أول الأمر فرضا وذلك ظاهر في الاهتمام بشأنه ومثلما يقول هذا العالم والمحدث الشهير (في هذا الحديث فائدتان هامتان: الأولى: أن به الوارد فيه والمتمثل في إعلان الأمر بصيامه والإمساك عن الطعام لمن كان أكل فيه وأمره بصيام بقية يومه فان صوم التطوع لا يتصور فيه إمساك بعد الفطر كما قال ابن القيم رحمه الله في (تهذيب السنن)(3\327) وهناك أحاديث أخرى تؤكد أنه كان فرضا وأنه لما فرض صيام شهر رمضان كان هو الفريضة كما في حديث عائشة عند الشيخين وغيرهما وهو مخرج في (صحيح أبي داود)(برقم 2110) (انظر السلسلة الصحيحة - ج6 ص 251- مكتبة المعارف للنشر والتوزيع - الرياض - الطبعة الأولى 1996م

التقاليد الحنيفية المتأخرة، فضلاً عن اغتباط النبي واعتزازه بتدفق التنزلات الإلهية عليه في هذا الشهر المبارك [741]).

أياماً معدودات

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ۝١٨٣ أَيَّامًا مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝١٨٤﴾ [البَقَرَةِ : 183 – 184]

ورغم صوم النبي لصوم عاشوراء فلم يسجل لنا القرآن صراحةً شيئاً عن وجوب صوم هذا اليوم، أو استحبابه، بل كانت هاتان الآيتان السابقتان هما أول ما نص عليه القرآن من الحض على شريعة الصوم، ولكن ما هي تلك الأيام المعدودات التي أمر القرآن المسلمين بصومها؟!، أنها تعني - على الأرجح - وجوب صوم يوم عاشوراء ومعه ثلاثة أيام أخرى من كل شهر مثلما قال بهذا كثير من المفسرين:

(ثُمَّ بَيَّنَ مِقْدَارَ الصَّوْمِ، وَأَنَّهُ لَيْسَ فِي كُلِّ يَوْمٍ، لِئَلَّا يَشُقَّ عَلَى النُّفُوسِ فَتَضْعُفَ عَنْ حَمْلِهِ وَأَدَائِهِ، بَلْ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ. وَقَدْ كَانَ هَذَا فِي ابْتِدَاءِ الْإِسْلَامِ يَصُومُونَ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، ثُمَّ نُسِخَ ذَلِكَ بِصَوْمِ شَهْرِ رَمَضَانَ، كَمَا سَيَأْتِي بَيَانُهُ. وَقَدْ رُوِيَ أَنَّ الصِّيَامَ كَانَ أَوَّلًا كَمَا كَانَ عَلَيْهِ الْأُمَمُ قَبْلَنَا، مِنْ كُلِّ شَهْرٍ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ -عَنْ مُعَاذٍ، وَابْنِ مَسْعُودٍ، وَابْنِ عَبَّاسٍ، وَعَطَاءٍ، وَقَتَادَةَ، وَالضَّحَّاكِ بْنِ مُزَاحِمٍ. وَزَادَ: لَمْ يَزَلْ هَذَا مَشْرُوعًا مِنْ زَمَانِ نُوحٍ إِلَى أَنْ نَسَخَ اللَّهُ ذَلِكَ بِصِيَامِ شَهْرِ رَمَضَانَ[742]).

---

[741] (ذهب بعض المؤرخين إلى ان صيام رمضان كان متبعا عند بعض قبائل العرب في الجاهلية ولا سيما قريش وقد اختلف العلماء في أصل هذا التشريع فمنهم من يرى أنه من بقايا الشريعة التي جاء بها إبراهيم عليه السلام، ومنهم من يرى أن عبد المطلب جد النبي عليه الصلاة والسلام كان أول من سن هذا الصيام وعمل به) وعلى أي حال فما كان لهذا التشريع القديم أن يدوم فقد كان من الضروري أن يحظى الإسلام وهو دين يمجد التقوى، والتي ومن أجل تحصيلها شرع الصوم كما تقول الآية القرآنية بطقس تعبدي خاص وممتد بدلا من يوم واحد كل سنة ، فما كان لهذا اليوم اليتيم أن يشبع الاحتياجات الباطنية للمؤمنين خاصة وهم يستهلون عهدا جديدا فضلا على أن هذا اليوم (يوم عاشوراء) كان مرتبطا اكثر من اللازم بمناسبة يهودية خالصة مهما زاحم المسلمين اليهود بشأنها عبر ادعاء أولويتهم لموسى منهم
راجع كتاب : الصوم في اليهودية ص 9 نقلا عن على عبد الواحد وافي (الصوم والأضحية بين الإسلام والأديان السابقة - نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية القاهرة 1963 م ص43

[742] (تفسير ابن كثير - ج1 ص 497- تحقيق سلامة - دار طيبة -)

وأما جمهور المفسرين فقد حاولوا القول بأن المقصود بتلك الأيام المعدودات هو شهر رمضان، والحقيقة أنه أمر بعيد وغير مقبول، فليس من السائغ أن يوصف شهر كامل بأنه (أيام معدودات) خاصة إذا تذكرنا أن القرآن كان يستخدم تلك الكلمة دائماً في مقام التقليل [743]).

لذا فليس من البعيد أن يكون المقصود من تلك الأيام المعدودة صوم عاشوراء ومعه تلك الأيام الثلاثة التي كان النبي يصومها، وظل يحض أصحابه على صومها حتى بعد أن نسخت بعد ذلك كصوم واجب وتسمى تلك الأيام (بالأيام البيض)، وهي الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر من الشهر القمري وسميت تلك الأيام بالبيضاء لأنها تتوافق مع سطوع القمر، ولا ندري في الحقيقة أصلاً لهذا النوع من الصوم سواء في الجاهلية أو في التقاليد اليهودية، ولكن ربما كانت هذه الشعيرة ترجع بعيدا إلى تلك الأزمنة الغابرة، التي كان عباد القمر يصومونها في الجاهلية، ثم غابت دلالاتها حتى جعلت أياماً باركة يستحب صومها في الجاهلية، ولسنا بحاجة إلى ذكر حضور عبادة القمر عند الساميين عامة وعند العرب الجاهليين، فقد حفلت كتب المؤرخين بذلك وأحصوا لنا قبائل العرب التي كانت تعبد القمر في الجاهلية، فنجد مثلاً أن الإله قد كان الها للقمر: (وقد أخذ هذا الإله قسطاً لا بأس به من التقديس والعبادة مع باقي الأصنام الأخرى وكعادتهم لم يتعبدوا له بصورة مباشرة بل (اتخذوا له صنما على عجل يجره أربعة وبيد الصنم جوهرة ومن ديدنهم أن يسجدوا له ويعبدوه وأن يصوموا النصف من كل شهر ولا يفطروا حتى يطلع القمر ثم يأتون صنمه بالطعام والشراب واللبن ثم يرغبون إليه وينظرون إلى القمر ويسألونه حوائجهم .. وفي نصف الشهر إذا فرغوا من الإفطار أخذوا في الرقص واللعب بالمعازف بين يدي الصنم والقمر [744]).

---

(743) كما في قوله ﴿ ۞ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوۡمَيۡنِ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۖ لِمَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ٢٠٣﴾ [البَقَرَة : ٢٠٣] .

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۖ وَغَرَّهُمۡ فِي دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ٢٤﴾ [آل عِمۡرَان : ٢٤] .

﴿ وَشَرَوۡهُ بِثَمَنِۭ بَخۡسٖ دَرَٰهِمَ مَعۡدُودَةٖ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ٢٠﴾ [يُوسُف : ٢٠] .

(744) (انظر كتاب القمر في الشعر الجاهلي ص 47(رسالة ماجستير غير منشورة إعداد فؤاد يوسف إسماعيل اشتيه - جامعة النجاح الوطنية - نابلس - فلسطين - 2010 م))

ولقد عدنا إلى مرجع الكاتب فلم نجد العلامة الألوسي - الذي نقل عنه هذا النص السابق - ينص هناك على أن الصوم يكون في منتصف الشهر، بل وجدناه يقول (ويصومون له أياماً معلومة من كل شهر ثم يأتون إليه بالطعام والشراب والفرح والسرور .... [745]).

وإليك هذه الطائفة من الأحاديث المُرغِبة في صيام تلك الأيام الثلاثة كنافلة مستحبة: (عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أوصاني خليلي بثلاث لا أدعهن حتى أموت: صوم ثلاثة أيام من كل شهر، وصلاة الضحى، ونوم على وتر.[746])، (وعن جرير بن عبد الله رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (صيام ثلاثة أيام من كل شهر صيام الدهر، وأيام البيض: صبيحة ثلاث عشرة، وأربع عشرة، وخمس عشرة[747]). (وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إذا صمتَ شيئاً من الشهر فصم ثلاث عشرة، وأربع عشرة، وخمس عشرة [748])

ثم نسخ هذا الصوم بصوم شهر رمضان وتراجع هذا الصوم إلى رتبة النافلة المستحبة، بل لم يعد من الضروري كذلك صوم تلك الأيام بعينها، بل صار يجزئ المتنفل بها صوم أي ثلاثة أيام من كل شهر وإن ظلت الأفضلية لتلك الأيام على غيرها من بقية أيام الشهر: (عن معاذة العدوية أنها سألت عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم: أكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصوم من كل شهر ثلاثة أيام؟ قالت: نعم. فقلت لها: من أي أيام الشهر كان يصوم ؟، قالت: لم يكن يبالي من أي أيام الشهر يصوم.[749])

صوم رمضان

﴿ شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ

[745] (انظر بلوغ الأرب - في معرفة أحوال العرب - ج2 ص 216)
[746] رواه البخاري (1124) ومسلم (721).
[747] رواه النسائي (2420) وصححه الألباني في "صحيح الترغيب" (1040)
[748] رواه الترمذي (761) والنسائي (2424) وصححه الألباني في "صحيح الترغيب" (1038)
[749] رواه مسلم (1160)

بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿١٨٥﴾﴾ [البَقَرَةِ : 185] .

لا ريب في أن السنة الثانية من الهجرة كانت عاماً حاسماً في تاريخ الإسلام، حيث وقعت فيه معركة بدر، وحيث هجر النبي - قبلها بشهر واحد - قبلة اليهود، بعدما استيقن أنهم لن يتابعوه على دينه، وعاد يستلهم الإرث الإبراهيمي العتيد فولى وجهه شطر الكعبة يستقبلها في صلاته، وعاد - أيضاً - وفي الشهر نفسه - إلى إرث العرب القديم من تعظيم شهر رمضان فجعله شهراً للصيام ناسخاً بذلك صوم يوم عاشوراء اليهودي.

كيف كانت صورة صوم رمضان؟

هنا نجد صورتان لصوم أيام ذلك الشهر كانت أولاهما على نحو قاس شديد؛ إذ كانت توجب الصوم من الغروب إلى الغروب، ومتى نام المرء فقد بدأ صوم يومه التالي، وهو ما جاءت به الأحاديث الصحيحة، واستقر عليه عامة المفسرين عند تفسيرهم لهذه الآية الناسخة لذلك الشكل الصارم من أشكال الصوم: ﴿ أُحِلَّ لَكُمۡ لَيۡلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمۡۚ هُنَّ لِبَاسٞ لَّكُمۡ وَأَنتُمۡ لِبَاسٞ لَّهُنَّۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَخۡتَانُونَ أَنفُسَكُمۡ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡ وَعَفَا عَنكُمۡۖ فَٱلۡـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبۡتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ مِنَ ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ مِنَ ٱلۡفَجۡرِۖ ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيۡلِۚ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمۡ عَٰكِفُونَ فِي ٱلۡمَسَٰجِدِۗ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقۡرَبُوهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ [البَقَرَةِ : 187] ﴿ أُحِلَّ لَكُمۡ لَيۡلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمۡۚ ﴾ فيه دلالة على أن هذا الذي أحله الله كان حراماً عليهم، وهكذا كان كما يفيده السبب لنزول الآية، فقد أخرج البخاري وأبو داود والنسائي وغيرهم عن البراء بن عازب قال كان أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إذا كان الرجل صائماً

فحضر الإفطار فنام قبل أن يفطر لم يأكل ليلته ولا يومه حتى يُمسي، وأن قيس بن صرمة الأنصاري كان صائماً فكان يومه ذلك يعمل في أرضه فلما حضر الإفطار أتى امرأته فقال هل عندكم طعام؟، قالت لا، ولكن أنطلق فأطلب ذلك، فغلبته عينُه فنام وجاءت امرأته فلما رأته نائماً قالت خيبة لك أنمت؟!، فلما انتصف النهار غشي عليه، فذكر ذلك النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فنزلت هذه الآية إلى قوله (من الفجر)، ففرحوا بها فرحاً شديداً.[750])

وهناك رواية أخرى تقول: (روي في سبب نزول هذه الآية: ﴿ أُحِلَّ لَكُمۡ لَيۡلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمۡۚ ﴾ الآية أن عمر رضي الله عنه بعد ما نام ووجب عليه الصوم وقع على أهله، ثم جاء إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وشكي إليه ما حدث له من وقاع أهله ليلاً، فأنزل الله تعالى: ﴿ أُحِلَّ لَكُمۡ لَيۡلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ ﴾ الآية[751].)

ويبدو أن الآية الناسخة قد جاءت ـ على الأرجح ـ بعد عدة أيام قليلة من الأمر بالصوم على تلك الصورة الشديدة حيث لم يقل أحد من الصحابة أنه قد صام عامه الأول- أو أكثره- على هذا النحو الصارم الشديد، ﴿ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ مِنَ ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ مِنَ ٱلۡفَجۡرِۖ ١٨٧ ﴾ [البَقَرَةِ: 187 [

ومن الملاحظ بأن هذا التعبير السابق، والذي ساقه القرآن للتعبير عن قدرة المرء على التمييز بين الأشياء بسبب طلوع الفجر وانقضاء ظلمة الليل قد جاء على الأرجح من التراث اليهودي ـ أيضاً ـ، حيث نجد شُراح التلمود يستخدمونه لبيان الوقت الدقيق لقراءة صلاة الشماع: (متى يقرون قراءة (اسمع) في السحر؟، عندما يميز المرء بين اللون الأبيض واللون الأزرق المائل إلى الخضرة ويقول الرَبي اليعزر: عندما يميز المرء بين الأزرق المائل إلى الخضرة والأخضر ويختمها عند شروق الشمس [752])،

[750] (انظر ج1 ص (374) - فتحُ البيان في مقاصد القرآن- أبو الطيب محمد صديق خان بن حسن بن علي ابن لطف الله الحسيني البخاري القِنَّوجي- المَكتبة العصريَّة للطبَاعة والنّشْر، صَيدَا - بَيروت- 1992 م)

[751] انظر-ج1 ص (166) أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير- أبو بكر الجزائري مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية الطبعة: الخامسة، 2003م

[752] (انظر التلمود ـ كتاب الذكر ـ الصلاة ـ الدعاء- ص 152

وأما عن أصل هذا التعبير فهو يرجع لون الخيوط الموجودة في الأهداب كما ورد في سفر العدد (15:38)، وكما ترى فقد اختار القرآن اللونين الأبيض والأسود - ببساطة - لبيان المقابلة المباشرة بين بياض النهار وسواد الليل[753].

شهر عربي وصوم يهودي!

أما عن أصل هاتين الصورتين المتتابعتين من صوم رمضان فمن الواضح بأنهما كانتا صورتين مختلفتين من أشكال الصوم اليهودي؛ فمن المعروف أن الصوم شعيرة قديمة في الديانة اليهودية، وقد (صام اليهود منذ أقدم العصور أياماً كثيرة عبر العام ولأسباب مختلفة تنوعت وتعددت مع مرور الأجيال تبعا للدوافع والأسباب التي دعتهم لهذا الصوم وجدير بالذكر أن معظم أيام الصوم التي تعرفها اليهودية اليوم،
لم ترد بشأنها أي إشارة في فقرات العهد القديم حيث إنها استحدثت في فترات تاريخية لاحقة وادخلها الفقهاء والحكماء إلى ممارساتهم الدينية [754]) .

أما ما نجده في التوراة عن الصوم فقد كان صوماً فردياً لبعض أنبياء الكتاب المقدس طلباً لحاجة من الله، أو ابتغاء تهيئة روحية، وأما الصوم الجماعي فقد كان كذلك دفعاً لشدة تحل بالجماعة اليهودية كلها ومحاولة منهم لاسترضاء الرب بالتذلل إليه ولم يتحول الصوم إلى عبادة تقوية عامة إلى في فترة متأخرة[755]).

---

[753] انظر تفاصيل ذلك في كتاب : ترجمة متن التلمود - المشنا - القسم الأول -الزراعيم - ترجمة د مصطفي عبد المعبود سيد منصور - مكتبة النافذة - الطبعة الأولى 2008م - ص 30

[754] (أنظر كتاب(الصوم في اليهودية - د محمد الهواري - دار الهاني للطباعة والنشر - القاهرة - الطبعة الأولى - 1988م -ص ز)

[755] نجد مثلا كيف صام موسى أربعين نهارا وأربعين ليلة على جبل سيناء لكي يستعد روحيا لمقابلة الرب وليتلقى عنه وصاياه العشر (خر 34: 28 وتث 9: 9). ومثلما نجده في كتب الأنبياء، وكيف سار إيليا بأمر الملك- إلى جبل حوريب لا يأكل ولا يشرب أربعين نهارًا وأربعين ليلة حتى تراءى الله له (1 مل 19: 8.)، ولم يرد الصوم لفظًا في أسفار موسى الخمسة ولكن كان يوم واحد معين للصوم وهو يوم الكفارة (لا 16: 29 و23: 27 وعد 29: 7) إذا كان المقصود بتذليل النفس في هذه الآية هو الصوم كما ذهب اغلب الشراح .

عن مناسبات الصوم في العهد القديم ومدته انظر مادة (صوم) ص (65) دائرة المعارف الكتابية - المجلد الخامس - الطبعة الثانية - القاهرة مجموعة مؤلفين -

وإلى جانب هذا الصوم المفروض كان الصوم التطوعي. فقد صام داود راجيًا أن يعيش الولد الذي ولدته له امرأة أوريا (2 صم 12: 22). وقد وردت أمثلة كثيرة أخرى في العهد القديم عن الصوم التطوعي (عز 8: 21 ونح 9: 1 واس 4: 3 ومز 35: 13 و69: 10 و109: 14 ودا 6: 18 و9: 3). وكان ينادى بالصوم أحيانًا في أيام الشدة (ار 36: 9 ويوئيل 1: 12). وكان الغرض منه إذلال النفس والابتهال إلى الله (اش 58: 3 و4). وأما صوم الجماعة فكان يعني أن وزر الخطيئة ملقى على كاهل الشعب كله وأنه يجب أن يذلل نفسه أمام الله (1 صم 7: 6).

وكان اليهود ينقطعون عن الطعام غالباً من الغروب إلى غروب شمس اليوم التالي، ويلبسون المسوح على أجسادهم، وينثرون الرماد على رؤوسهم ويتركون أيديهم غير مغسولة ورؤوسهم غير مدهونة. وكانوا يصرخون ويتضرعون ويبكون (اش 22: 12 ويوئيل 2: 15: 17).

وكان الفريسيون يصومون يومي الاثنين والخميس من كل أسبوع (لو 18: 12).

(ومن الأصوام المهمة والرئيسية عند اليهود صوم التاسع من آب الذي يصومونه طوال الأربعة والعشرين ساعة. ولكن نظراً لأن تدمير المعبد بدأ في التاسع من آب وظل الحريق مشتعلاً حتى اليوم التالي صام بعض الأحبار لمدة يوم ونصف اليوم في حين صام آخرون لمدة يومين كاملين[756].(

ولا يعنينا هنا بيان شيء من صوم اليهود كله سوى بمقدار أن نعلم أن هاتين الصورتين كانتا من بين صور الصوم التي صامها اليهود: (وجدير بالذكر أن صوم اليوم عند اليهود لم يكن (من المساء إلى المساء) دائماً، بل يصوم اليهود في أيام صومهم العادية فترة تمتد طوال النهار من شروق الشمس إلى غروبها، وأما في أيام صومهم ذات الأهمية الخاصة مثل يوم الغفران والتاسع من آب فإنهم يصومون طوال فترة الأربعة والعشرين ساعة لليوم [757]) .

إذن فقد عرف اليهود ذلك النوع من الصوم الشاق؛ أي الصوم (من الغروب إلى الغروب) وذلك في حالات خاصة وفي مناسبات محددة، وعرفوا الصوم الاعتيادي كما سيصومه المسلمون بعد ذلك ؛ أي الإمساك عن الطعام والشراب وسائر المفطرات من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، ولم يكن هذين النوعين سوى ذات ما أفترضه القرآن على المؤمنين حيث شرع النبي في البداية ذلك الصوم الشديد ثم نسخ هذا النوع العنيف، واستبدله النبي- ربما بأيام قليلة - بنوع آخر أيسر وأسهل كثيراً من سابقه ؛ لذا فإننا

---

[756] (الصوم في اليهودية ص 32) ولعل هذا يذكرنا بما يسمى في الإسلام بصوم الوصال، وهو نوع من الصوم يمتد الصوم فيه ليومين متتاليين من غير فطر بينهما وهو ما نهى النبي عنه لما فيه من المشقة والتنطع في العبادة رغم أن النبي كان يفعله لكن اتفق المسلمون على أن ذلك من خصائص النبي حيث كان يصوم ويواصل كما يدل هذا الحديث : (عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنه نهى عن الوصال فقيل له: فإنك تواصل؟ قال: لستم كهيئتي إني أبيت لي مطعم يطعمني وساق يسقيني فأيكم واصل فمن سحر إلى سحر)(انظر الحديث في - التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان وتمييز سقيمه من صحيحه، وشاذه من محفوظه- برقم (3569)وانظر : صحيح أبي داود برقم (2044)

[757] الصوم عند اليهود ص 31

نعجب من هذا التفسير العجيب الذي قال به هذا الباحث والاختصاصي في العقيدة اليهودية حيث يقول: (عندما فرض الصيام على المسلمين بعد هجرتهم إلى المدينة نزلت الآية الكريمة غير محددة لساعات الصيام قال تعالى: (يا أيها الذين امنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون)، وهكذا يتبين لنا أن الآية تأمر المسلمين بالصيام الذي كتب عليهم كما كتب على الذين من قبلهم فما كان من المسلمين إلا أن صاموا كما رأوا اليهود - الذين من قبلهم - يصومون من المساء إلى المساء حتى إذا نام أحدهم في الليل ثم استيقظ يحظر عليه الاقتراب إلى ممنوعات الصيام، وكان من الأمور المهمة أن يجد المسلمون تحديداً إسلامياً لساعات الصيام إلى أن جاء الوقت الذي عُرف فيه الصوم عندهم بأنه إمساك عن المفطرات نهاراً، أي من طلوع الفجر إلى غروب الشمس[758]).

ومن الواضح أن المؤلف يقول بأن صوم رمضان كما صامه المسلمون في البداية إنما كان من اجتهاد المؤمنين؛ حيث التبست عليهم مواقيت الصوم بسبب إبهام المدة في تلك الآيات فظنوا أنه يشبه ما عرفوه من صوم اليهود ليوم عاشوراء - حتى نزل الوحي الإلهي مصححاً هذا الفهم وموضحاً لهم المدة المقصودة!

والحقيقة أن هذا الفهم غريب للغاية؛ إذ يكفي فقط قراءة الآية الكريمة حتى يعلم قارئها بجلاء تام أنها جاءت ناسخة لحكم شرعي قديم، كان لا يباح فيه الطعام ولا الشراب ولا الإفضاء إلى النساء متى نام المرء، وعلى هذا المعنى - الواضح بذاته- أجمع المفسرون دون مخالف كما رأينا، وليس من المتصور - أيضاً - أن يترك النبي مواقيت حكم شرعي مهم وركناً أساسياً من أركان الإسلام فلا يبينه للناس، بل يدعهم يجتهدون ويقررون فيه ما يشاؤون كلا !، بل المعقول - وإليه تشير كل النصوص- هو أن النبي قد اختار للمسلمين في البداية نمطاً شاقاً من أصوام اليهود الخاصة، وهو الصوم (من المساء إلى المساء) - كما لو كان يريد أن يصوم ثلاثين يوماً من أيام عاشوراء، وهو عبء ثقيل حتى بالمعايير اليهودية - ولكن لما كثرت الخروقات - سريعاً- لهذا الصوم الشاق، وضج المسلمون من شدته - خاصةً وأنه صادف وأن وقع في حر صيف الجزيرة العربية اللاهب- فقد استبان للنبي أن هذا النمط من الصوم إنما هو نمط شاق شديد، فكان أن استبدله بالنمط المخفف منه وهو الصوم من الفجر إلى غروب الشمس

---

[758] السابق ص 30

وعلى هذا فقد استقر صوم رمضان بشكل نهائي على نحو قريب من الصوم اليهودي الاعتيادي ولم يكن هذا النسخ السريع لحكم تشريعي أمراً لا نظير له في الإسلام، فهناك أمثلة أخرى على ذلك ونجد من بينها - مثلاً - عندما ضاق النبي ذرعاً بكثرة الأسئلة التي كانت تنهال عليه من كل جانب، فنهى القرآن المسلمين عن كثرة سؤال النبي، ثم شرع القرآن وسيلة عملية لتخفيض عدد السائلين، بأن فرض تقديم صدقة لمن يريد أن يسأل النبي سؤالاً أو يختلي به فيناجيه، ثم نسخ هذا الحكم سريعاً عندما استبان للنبي ما فيه من مشقة على أصحابه كما تقرر هذه الآيات:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٢ ءَأَشۡفَقۡتُمۡ أَن تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَٰتٖۚ فَإِذۡ لَمۡ تَفۡعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٣ ﴾ [المُجَادلَة: 12-13].

(عن قتادة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ ﴾ قال: سأل الناس رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أحفوه بالمسألة، فوعظهم الله بهذه الآية، وكان الرجل تكون له الحاجة إلى نبي الله صلى الله عليه وسلم، فلا يستطيع أن يقضيها، حتى يقدم بين يديه صدقة، فاشتد ذلك عليهم، فأنزل الله عز وجل الرخصة بعد ذلك: ﴿ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾ حدثنا ابن عبد الأعلى، قال: ثنا ابن ثور، عن معمر، عن قتادة ﴿ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗ ﴾ قال: إنها منسوخة ما كانت إلا ساعة من نهار. حدثني محمد بن سعد، قال: ثني أبي، قال: ثني عمي، قال: ثني أبي، عن أبيه، عن ابن عباس، قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗ ﴾... إلى ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾ قال: كان المسلمون يقدمون بين يدي النجوى صدقة، فلما نزلت الزكاة نسخ هذا. حدثني علي،

قال: ثنا أبو صالح، قال: ثني معاوية، عن علي، عن ابن عباس، قوله: ﴿ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ﴾، وذاك أن المسلمين أكثروا المسائل على رسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى شقوا عليه، فأراد الله أن يخفف عن نبيه؛ فلما قال ذلك صبر كثير من الناس، وكفوا عن المسألة، فأنزل الله بعد هذا ﴿ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾، فوسع الله عليهم، ولم يضيق.[759])

وقد جاءت الأحاديث بأن رجلا واحدا من بين كل أصحاب النبي هو من خضع لهذا الحكم التشريعي وطبقه قبل نسخه [760]).

مثال آخر

ولربما كان من المفيد لمَنْ يستهول هذا التعديل والتخفيف أن نتذكر بأننا نجد في القرآن الكريم أمثلة أخرى لبيان عدول النبي من حكم شرعي إلى حكم آخر إذا وجد أن الحكم الأول لا يحقق ما تنزل النص من أجله، أو إذا وجد أن الحكم التشريعي يفوق طاقة أصحابه .

آيات الملاعنة

﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُواْ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُواْ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ٤ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ٥ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٦ وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ٧ وَيَدْرَؤُاْ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ٨

[759] (انظر تفسير الطبري - ج 23- ص 249- تحقيق شاكر - طبعة الرسالة -)
[760] (انظر حديث على بن أبي طالب في ضعيف سنن الترمذي - الألباني - المكتب الإسلامي - بيروت - الطبعة الأولى - 1991م - ج1ص 424)

وَٱلۡخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٩ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ۝١٠﴾ [النُّور : 4-10] .

وأيضا من بين التشريعات التي استبدلها النبي بغيرها عندما استبان له عدم وملاءمتها للمخاطبين في عصره حد الملاعنة فمن المعلوم أن النبي لم يكن - في البداية - يفرق في حد القذف بين ادعاء الرجل على غيره أو اتهامه لزوجته بالزنا حتى وقعت هذه الحادثة المؤسفة: (عن ابن عباس: أن هلال بن أمية قذف امرأته عند النبي صلى الله عليه وسلم بشريك بن سحماء فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (البينة أو حدًا في ظهرك) فقال: يا رسول الله إذا رأى أحدنا على امرأته رجلًا ينطلق يلتمس البينة؟ فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يقول: (البينة وإلا حد في ظهرك) فقال هلال: والذي بعثك بالحق إني لصادق فلينزلن الله ما يبرئ ظهري من الحد فنزل جبريل وأنزل عليه: (والذين يرمون أزواجهم فقرأ حتى بلغ (إن كان من الصادقين) فجاء هلال - فشهد والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: (إن الله يعلم أن أحدكما كاذب فهل منكما تائب؟) ثم قامت فشهدت فلما كانت عند الخامسة وقفوها وقالوا: إنها موجبة فقال ابن عباس: فتلكأت ونكصت حتى ظننا أنها ترجع ثم قالت: لا أفضح قومي سائر اليوم فمضت وقال النبي صلى الله عليه وسلم: (أبصروها فإن جاءت به أكحل العينين سابغ الأليتين خدلج الساقين فهو لشريك بن سحماء) فجاءت به كذلك فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «لولا ما مضى من كتاب الله لكان لي ولها شأن «[761]).

أما كيف قابل أصحاب النبي هذا التشريع؟!، فلعل هذا الحديث يغني القارئ الكريم عن كل حديث آخر: (عن المغيرة قال: قال سعد بن عبادة: لو رأيت رجلًا مع امرأتي لضربته بالسيف غير مصفح فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «أتعجبون من غيرة سعد؟ والله لأنا أغير منه والله أغير مني ومن أجل غيرة الله حرم الله الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا أحد أحب إليه العذر من الله من أجل ذلك بعث المنذرين والمبشرين ولا أحد أحب إليه المدحة من الله ومن أجل ذلك وعد الله الجنة[762]).

---

[761] (رواه البخاري وانظر الحديث في: مشكاة المصابيح- للشيخ الألباني الطبعة الثالثة - 1985م - برقم (3307)

[762] الحديث متفق عليه وأنظره في مشكاة المصابيح للألباني برقم (3309)

فهل يعقل أن يتشبث النبي بذلك التشريع، حتى لو أبانت له التجربة أنه لا يصلح لحالة مشاهدة الرجل امرأته متلبسة بالزنا؟ ولم يكن من المقبول سوى أن يجد النبي مخرجا لتلك القضية فوجد في استلهام التشريع اليهودي حلاً ومخرجاً، فقدم صياغة عقلانية ذكية لتلك القضية بعدما أسقط منها جانبها الخرافي فجعل الرجل يتهم امرأته ويستنزل اللعنة على نفسه إن كان قد أضاع سمعتها كاذباً، وجعل المرأة تتبرأ من الذنب وتكذب زوجها فيما رماها به ثم يفرق بينهما فراقاً أبدياً، أما عن أساس هذا التشريع فلربما كان تعديلاً قرآنياً لهذا التشريع التوراتي الغريب!

(وكلم الرب موسى قائلاً كلم بني إسرائيل وقل لهم: إذا زاغت امرأة رجل وخانته خيانة واضطجع معها رجل اضطجاع زرع، وأخفى ذلك عن عيني رجلها، واستترت وهي نجسة وليس شاهد عليها، وهي لم تؤخذ فاعتراه روح الغيرة وغار على امرأته وهي نجسة، أو اعتراه روح الغيرة وغار على امرأته وهي ليست نجسة يأتي الرجل بامرأته إلى الكاهن، ويأتي بقربانها معها: عشر الإيفة من طحين شعير، لا يصب عليه زيتاً ولا يجعل عليه لباناً، لأنه تقدمة غيرة، تقدمة تذكار تذكر ذنبا فيقدمها الكاهن ويوقفها أمام الرب ويأخذ الكاهن ماء مقدساً في إناء خزف، ويأخذ الكاهن من الغبار الذي في أرض المسكن ويجعل في الماء ويوقف الكاهن المرأة أمام الرب، ويكشف رأس المرأة، ويجعل في يديها تقدمة التذكار التي هي تقدمة الغيرة، وفي يد الكاهن يكون ماء اللعنة المر ويستحلف الكاهن المرأة ويقول لها: إن كان لم يضطجع معك رجل، وإن كنت لم تزيغي إلى نجاسة من تحت رجلك، فكوني بريئة من ماء اللعنة هذا المر ولكن إن كنت قد زغت من تحت رجلك وتنجست، وجعل معك رجل غير رجلك مضجعه يستحلف الكاهن المرأة بحلف اللعنة، ويقول الكاهن للمرأة: يجعلك الرب لعنة وحلفا بين شعبك، بأن يجعل الرب فخذك ساقطة وبطنك وارما ويدخل ماء اللعنة هذا في أحشائك لورم البطن، ولإسقاط الفخذ. فتقول المرأة: آمين، آمين ويكتب الكاهن هذه اللعنات في الكتاب ثم يمحوها في الماء المر ويسقي المرأة ماء اللعنة المر، فيدخل فيها ماء اللعنة للمرارة ويأخذ الكاهن من يد المرأة تقدمة الغيرة، ويردد التقدمة أمام الرب ويقدمها إلى المذبح ويقبض الكاهن من التقدمة تذكارها ويوقده على المذبح، وبعد ذلك يسقي المرأة الماء ومتى سقاها الماء، فإن كانت قد تنجست وخانت رجلها، يدخل فيها ماء اللعنة للمرارة، فيرم بطنها وتسقط فخذها، فتصير المرأة لعنة في وسط شعبها وإن

لم تكن المرأة قد تنجست بل كانت طاهرة، تتبرأ وتحبل بزرع هذه شريعة الغيرة، إذا زاغت امرأة من تحت رجلها وتنجست أو إذا اعترى رجلا روح غيرة فغار على امرأته، يوقف المرأة أمام الرب، ويعمل لها الكاهن كل هذه الشريعة فيتبرأ الرجل من الذنب، وتلك المرأة تحمل ذنبها) (عدد: 5: 11-31) .

إذن فهل من الغريب أن نجد النبي ييسر على أمته خاصة، وأن ومقتضيات التيسير وبواعثه كانت ولا تزال موجودة في جميع الديانات، وحتى في الديانات التي اشتهرت بشدة شرائعها وصرامة طقوسها؟!، فقد كان اليهود مثلا يصومون تحت ضربات المحن الشديدة صوماً غريباً للغاية - حتى أننا عندما ننسى ظروف هذا التشريع وأمثاله، فلربما يبدوا لنا الآن سلوكاً شاذاً ونمطاً تعبدياً خال من كل حكمة، فمثلاً وجد عند اليهود فرض الصوم على الأطفال بل والحيوانات - أيضا -، (وقد فرض الصوم في أماكن متفرقة على الأطفال والحيوانات (فآمن أهل نينوى بالرب فنادوا بصوم ولبسوا مسوحاً من كبيرهم إلى صغيرهم ------ ونودي وقيل في نينوى عن أمر الملك وعظمائه قائلاً: لا تذق الناس ولا البهائم ولا البقر ولا الغنم شيئا لا ترع ولا تشرب ماءا) يونان 3 -5-7) ولم يحدث ذلك بين الأمم الغريبة فقط بل حدث - أيضا - في وسط بني إسرائيل[763]) .

ولكن وكما هو متوقع من شريعة عامة تخاطب عشرات الألوف، بل والملايين من الناس فلم يكن من الممكن أن تستمر أمثال تلك التشريعات الغريبة طويلاً، ولم يكن من بد في أن تجنح التشريعات الدينية في النهاية إلى قدر من الاعتدال والاتزان كان هو وحده الكفيل باستمرارها ودوامها حيث: (رأى بعض الحكماء إعفاء الأطفال والحيوانات من الصوم، وكذلك إعفاء المرضى، وغيرهم ممن تقتضي ظروفهم الاحتفاظ بقوتهم البدنية، وقد شمل الإعفاء في أغلب الأحيان النساء الحوامل وأيضا المرضعات[764]).

متابعات وتشريعات مهجورة.

ومن غير البعيد أن يكون النبي قد حاول أن يطبق هذا النوع من الصوم العنيف - أيضاً - على الأطفال الصغار وذلك بعيد هجرته إلى المدينة وفي ذروة حماسته لسن تشريعات لممارسات تعبدية جماعية تأثرا بتلك الممارسة اليهودية القديمة كما يدل على ذلك ظاهر هذا الحديث: (عَنِ الرُّبَيِّعِ بِنْتِ معوذ بن عَفْرَاءَ قَالَتْ: أَرْسَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى

[763] (يهوديت 9:4-11؛ قارن 2 أخ 20:13؛يوئيل 12:16)

[764] انظر - الصوم في اليهودية ص 38)

اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غَدَاةَ عَاشُورَاءَ إِلَى قُرَى الْأَنْصَارِ الَّتِي حَوْلَ الْمَدِينَةِ: (مَنْ كَانَ أَصْبَحَ صَائِمًا فَلْيُتِمَّ صَوْمَهُ وَمَنْ كَانَ أَصْبَحَ مُفْطِرًا فَلْيَصُمْ بَقِيَّةَ يَوْمِهِ ذَلِكَ) قَالَتْ: فَكُنَّا نَصُومُهُ ونُصَوِّمُ صِبْيَانَنَا الصِّغَارَ وَنَذْهَبُ بِهِمْ إِلَى الْمَسْجِدِ وَنَجْعَلُ لَهُمُ اللُّعبة مِنَ العِهْنِ فَإِذَا بَكَى أَحَدُهُمْ عَلَى الطَّعَامِ أَعْطَيْنَاهَا إِيَّاهُ حَتَّى يَكُونَ عِنْدَ الإفطار[765]).

أما كيف فهم المسلمون هذا الحديث؟!، فقد اختلفوا اختلافاً شديداً في فهم دلالة هذا التشريع كما يدل على ذلك هذا النقل عن أحد الشارحين: (زاد مسلم الصغار ونذهب بهم إلى المسجد وهذا تمرين للصبيان على الطاعات وتعويدهم العبادات، وفي حديث رزينة بفتح الراء وكسر الزاي عند ابن خزيمة بإسناد لا بأس به أن النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- كان يأمر برضعائه في عاشوراء ورضعاء فاطمة فيتفل في أفواههم ويأمر أمهاتهم أن لا يرضعن إلى الليل وهو يردّ على القرطبي حيث قال في حديث الربيع: هذا أمر فعله النساء بأولادهن ولم يثبت علمه عليه الصلاة والسلام بذلك وبعيد أن يأمر بتعذيب صغير بعبادة شاقة. ومما يقوى الرد عليه - أيضاً - أن الصحابي إذا قال فعلنا كذا في عهده - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- كان حكمه الرفع لأن الظاهر اطلاعه -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- على ذلك وتقريرهم عليه مع توفر دواعيهم على سؤالهم إياه عن الأحكام مع أن هذا مما لا مجال للاجتهاد فيه فما فعلوه إلا بتوقيف[766].)

ويغلب على ظننا أن هذا الحديث إنما يدل - كما قلنا - على محاولة النبي تطبيق هذا النوع من أنواع الصوم أكثر من دلالته على بيان محاولة تعويد المسلمين صبيانهم على الصوم كما ذهب إلى ذلك أغلب الشارحين، وخاصةً لأننا نجد لدينا - أيضاً - هذا الحديث الذي ينص على ما ذهبنا إليه: (كان يعظم يوم عاشوراء، حتى إن كان ليدعوا بصبيانه، وصبيان فاطمة المراضيع، فيقول لأمهاتهم: لا ترضعوهم إلى الليل، ويتفل في أفواههم، فكان ريقه يجزئهم[767]).

فهذا الحديث -وإن لم تثبت نسبته إلى النبي-، ولكننا لا نجد سبباً واحداً مقنعاً يدعو أحداً إلى وضعه وانتحاله ؛ لذا فلا بأس في أن نستأنس به للدلالة على أن النبي قد فعل

---

(765) (انظر- التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان وتمييز سقيمه من صحيحه، وشاذه من محفوظه- برقم (3611) وانظر كذلك كتاب (آداب الزفاف في السنة المطهرة - الألباني - دار السلام - 2002م - ص 195)

(766)(انظر ج3 ص 395- إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري- شهاب الدين القسطلاني - المطبعة الكبرى الأميرية، مصر الطبعة: السابعة، 1323 هـ

(767) انظر - سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة - الشيخ الألباني - برقم (6749)

ذلك خاصة مع وجود الحديث الصحيح الذي سبقه، وأيضاً لضعف حجة القرطبي من قوله بعدم علم النبي ذلك ؛ فما كان النبي ليخفي عليه ما تفعله النساء بأولادهن في المسجد وما كن ليفعلن شيئاً كهذا دون علم النبي، ويؤيد هذا الفهم أننا نجد في ذات تلك الفترة الباكرة من هجرة النبي إلى المدينة - أمثلة أخرى لبعض التشريعات التي حاول النبي تطبيقها، ثم أعرض عنها بعد ذلك، وسنختار من بين تلك التشريعات المهجورة - مثالين فقط - نبدأهما بهذا الحديث.

دفن الموتى والنساء

(عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : شهدنا بنتا لرسول الله صلى الله عليه وسلم قال ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس على القبر قال فرأيت عيناه تدمعان قال فقال (هل منكم رجل لم يقارف الليلة). فقال أبو طلحة أنا قال (فانزل). قال فنزل في قبرها[768]).

فهنا نجد نموذجاً آخر لما يمكن أن نسميه بالتأثيرات اليهودية العابرة، والتي لم تترسخ في التشريع الإسلامي، حتى أنها لم تأخذ حكماً واضحاً سواء أبقى هذا الحكم سارياً أو نسخ فيما بعد، بل نرى تلك التشريعات العابرة كما لو أنها تتراءى للناظر لبرهة ثم تختفي ولتبق فقط كعلامة استفهام تستلزم الإجابة.

فمثلاً نجد في هذا الحديث السابق كيف يشترط النبي لمَنْ يتولى القيام بدفن ميت أن لا يكون قد تلطخ في ليلته الفائتة بملامسة النساء، ولما كانت الشريعة الإسلامية اللاحقة لن تستلزم هذا الشرط العجيب لمن يتولى دفن الموتى، فقد أثار هذا الحديث الغامض نقاشات حامية بين الشُراح، فلم يتفقوا أولاً على المقصود بابنة النبي التي حدثت تلك الواقعة أثناء دفنها، ولم يتفقوا كذلك على دلالة معنى (يقارف) ولم يتفقوا - أيضاً- على الحكم الشرعي الذي يستخرج من هذا الحديث مثلما أورد الإمام البغوي في شرح السنة: (قال رحمه الله: أول فليح قوله: «لم يقارف» أي: لم يذنب، وقيل: أي لم يقرب أهله، بدليل أنه ذكر الليل، والغالب من ذلك الفعل وقوعه بالليل وقال الخطابي: وفيه أن

(768) (رواه البخاري برقم (1285)انظر صحيح البخاري - دار طوق النجاة - ترقيم فؤاد عبد الباقي - الطبعة الأولى)

للرجل أن يتولى دخول قبر الطفلة، ويصلح من شأن دفنها ويشبه أن يكون الميت بنتًا لبعض بناته عليه السلام، فنسبت إليه[769]).

من الواضح أن تفسير كلمة (يقارف) لا تستقيم على معنى (لم يقترف ذنبا)!، بل معناه لم يجامع أهله في الليلة السابقة، وإلا فمن أين للمؤمن أن يتأكد من أنه لم يقارف ذنباً إن كان المراد بالمقارفة عموم الذنب؟، وهل معنى ذلك أن النبي قد قارف ذنباً في ليلته تلك؟، كلا! ولكن المعنى ببساطة أن النبي قد تحرج أن ينزل في قبر ابنته -كما سنراه يفعل مرات عدة - لأنه - عليه السلام - لم يكن قد استوفي شرطاً – لا ندري هل كان شرطاً رآه واجباً، أم أمراً مندوباً ومستحباً - فيمن يتولى عملية الدفن - وعندما سأل النبي أصحابه الذين فهموا أن المقصود بالمقارفة هو الوقاع دون غيره أعلن أبو طلحة الأنصاري أنه لم يقرب امرأته الليلة الفائتة فأذن له بالنزول إلى قبر ابنته ودفنها .

وقد حاول الإمام الطحاوي رفع هذا الإشكال بأن جعله لمناسبة خاصة!، لأنه تعجب من نزول أبي طلحة بدلاً من عثمان أو من النبي نفسه فيتولى دفن امرأة مسلمة مع حضور زوجها وأبيها وقد كان أحدهما أولى منه بذلك (فكان ما في هذا الحديث مما حكي فيه عن أبي طلحة يبعد من القلوب؛ لأن أبا طلحة لم يكن من ذوي أرحامها الذين يتولون ذلك منها، مع أن الذي روى هذا الحديث وهو فليح بن سليمان ليس معه من الإتقان ولا من التثبيت في الرواية كما مع الذي روى الحديث الأول، وهو حماد بن سلمة عن ثابت البناني، اللهم إلا أن يكون لم يحضر قبرها حينئذ أحد من ذوي أرحامها المحرمات غير رسول الله صلى الله عليه وسلم، - فاحتاج إلى معونته على ذلك، فكان من أبي طلحة ما كان لمعونته إياه على ذلك، وذلك له واسع كما يتسع للرجال الذين ليسوا بذوي محارم من النساء الميتات إذا لم يكن بحضرتهن ذوو أرحام منهن أن يلمسوهن من وراء الثياب مكان الغسل لهن. والله نسأله التوفيق[770]).

والحقيقة أنه لم يكن من ضرورة لكل هذا التأويل البعيد فقد كان المراد هنا التلوث بملامسة النساء وهو ما يعكس التقذر بالتواصل الجنسي مع المرأة كما نجده في حديث أبي طلحة وامرأته أم سليم حين تلطفت في إبلاغه بموت ابنهما الرضيع الذي مات في

---

[769] (انظر (ج5- ص395) شرح السنة - البغوي - تحقيق شعيب الأرناؤوط - زهير الشاويش - المكتب الإسلامي - دمشق،بيروت - الطبعة الثانية - 1983م) .

[770] (انظر ج6 ص 327- شرح مشكل الآثار - تحقيق شعيب الأرناؤوط - مؤسسة الرسالة - الطبعة الأولى - 1994م)

غيبة زوجها فلم تطلعه بموت الرضيع إلا بعد أن أطعمته وسقته وتزينت له وواقعها فلما أبلغته بموت ابنه بعد ذلك كله غضب أبو طلحة وقال لها (تركتني حَتَّى تَلَطَّخْتُ ثُمَّ أخبرتني بابني. ؟![771])

ومثله حديث عائشة أن النبي كان يصبح جنبا من (قراف) غير احتلام ثم يصوم، أي من جماع ومنه حديث عبد الله بن حذافة قالت له أمه: أمنت أن تكون أمك (قارفت) بعض ما (يقارف) أهل الجاهلية؟!، أرادت الزنا.. الخ .

إذن فقد تحرج النبي من دفن ابنته بنفسه -وهو الذي نزل مراراً في قبور أصحابه، وتولى دفن بعضهم رجالاً ونساءً - ولم يأذن كذلك لعثمان زوج ابنته أن يتولى دفن امرأته وأوكل الأمر إلى رجل غريب أجنبي عنها، وهو أمر ما كان ليتم على هذا النحو إلا لأنه كان- وقت تلك الحادثة - شرطاً دينياً معتبراً .

أما عن أصل هذا التشريع فنجد له أصلاً في تشريعات يهودية كثيرة تنص جميعها على التحرز من ملامسة النساء قبل القيام بأنشطة دينية محددة، فقبل أن يقترب بالشعب من جبل سيناء لسماع الشريعة، أمره موسى أنيتطهر ويغسل ثيابه، ولا يقرب النساء ثلاثة أيام (خروج 19: 15).، وكان محرمًا على أي فرد من الشعب آن يتقدم ليأكل من ذبائح الله المقدسة، إلا وهو طاهر لم يقرب امرأة (لاويين 22: 6). وهكذا كانت هناك أيام عامه، يتعفف فيها الشعب كله، ويتفرغ للعبادة وهي موسم الرب وأعياده، التي تقدم فيها ذبائح عامة وكانت كثيرة (لاويين 23) تضاف إليها المناسبات الخاصة بالأفراد التي يقدمون فيها ذبائح للرب عن أمور خاصة بهم. فعندما طلب داود النبي من أخيمالك الكاهن خبزًا، أجابه ذاك "... يوجد خبز مقدس، إذ كان الغلمان قد حفظوا أنفسهم ولا سيما من النساء". ولم يعطيه إلا بعد أن أجابه داود " أن النساء قد منعت عنا منذ أمس وما قبله" (صموئيل الأول 21: 4، 5).

استرقاق المدين

(روي أن رجلا قدم المدينة وذكر أن وراءه مالا فداينه الناس ولم يكن وراءه مال فسماه النبي صلى الله عليه وسلم سرقا وباعه بخمسة أبعرة رواه الدار قطني[772]).

[771] (انظر الحديث في مختصر صحيح مسلم - للحافظ المنذري - تحقيق الشيخ الألباني - المكتب الإسلامي - بيروت لبنان - الطبعة السادسة - 1987م برقم (1702)

[772] (تخريج الألباني حسن - برقم (1440) إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل - الشيخ الألباني - الجزء الثاني -(قلت: وهذا سند صحيح , قد صرح فيه ابن جريج بالتحديث , والسند إليه صحيح , رجاله كلهم ثقات , وحجاج

عرفت كثير من المجتمعات استرقاق المدين إذا عجز عن سداد دينة، كالهند وبابل واليهود واليونان والرومان، وكذلك عرفت العرب استرقاق المدين فكان للدائن أن يسترق مدينه وله أن يبيعه ويستوفي الدين من ثمنه أو يستخدمه في مصالحه حتى يفي الدين. أما في الإسلام (لا يجيز الإسلام استرقاق الإنسان الحر ولو بإرادته، كما لا يجيز استرقاق المدين المعسر وقد حصر الإسلام مصدر الرق بالحرب والولادة .... كذلك لا يجيز الإسلام الاسترقاق بسبب الجريمة وتنفذ في المجرم الحدود في جرائم الحدود وهي السرقة والزنا وشرب الخمر والقذف [773]).

فهذا حديث نادر جداً فيه يتابع النبي التشريع اليهودي- والعربي - أيضاً - باسترقاق المدين، ولا نعلم لهذا الحديث الغريب شبيهاً أو نظيراً في التراث الحديثي كله، ومن المؤكد أنه حديث منسوخ، أو ببساطة، حديث فقد تم تجاهله لهذا السبب فلم يقل فقيه من الفقهاء أبدا أنه إذا عجز المدين عن سداد دينه جاز للدائن أن يسترقه، وعلى كل حال فهذا الحديث لا يعنينا في شيء إلا باعتبار إشارة إلى تلك المرحلة التي تفاعل فيها النبي مع الميراث اليهودي السائد في المدينة ومن ذلك التشريعات اليهودية.

أما كيف نوفق إذن بين هذا الحديث الذي ينص على أن النبي استرق رجلاً ليستوفي الغرماء منه الدين وبين ما نصت عليه الشريعة من تحريم استرقاق المدين؟! الإجابة اليسيرة أنه حديث ينتمي إلى تلك الفترة الباكرة من هجرة النبي إلى المدينة حيث كان يتابع فيها كثيراً من التشريعات اليهودية وذلك قبل أن يتحرر منها بإيجاد تشريعات جديدة ومنها حد القطع لمن ثبتت سرقته وبلغت مقداراً معيناً وأغلب الظن أن تلك الواقعة قد حدثت قبل نزول التشريع القرآني الذي يقضي بقطع يد السارق في سورة المائدة، وهي كما هو معلوم من أواخر السور التي نزلت قبيل وفاة النبي، أو ربما لم ير النبي بأن تلك الحالة لا تنطبق عليها تسمية السرقة من ضرورة الحرز للمال حتى يسمى من يأخذه سارقاً .

أما أوضح ما وجدناه في هذا الشأن فهو ما صرح به بعضهم من إباحته لبرهة ثم نسخة: (وَالْجَوَابُ أَنَّهُ لَا شَكَّ أَنَّ الْحُرَّ كَانَ يُبَاعُ فِي ابْتِدَاءِ الْإِسْلَامِ عَلَى مَا رُوِيَ أَنَّهُ -

---

هو ابن محمد المصيصى ثقة من رجال الشيخين , وكذلك من فوقه ولذلك فالحديث على غرابته ثابت لا مجال للقول بضعفه.)

[773] (انظر الرق ماضيه وحاضره - عبد السلام الترمانيني - عالم المعرفة الكويت1997م ص -42و42)

عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - بَاعَ رَجُلًا يُقَالُ لَهُ سُرَقٌ فِي دَيْنِهِ، ثُمَّ نُسِخَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ ﴿٢٨٠﴾ [البَقَرَةِ : 280] ذَكَرَهُ فِي النَّاسِخِ وَالْمَنْسُوخِ، فَلَمْ تَكُنْ فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى جَوَازِ بَيْعِهِ الْآنَ بَعْدَ النَّسْخِ، وَإِنَّمَا يُفِيدُ اسْتِصْحَابَ مَا كَانَ ثَابِتًا مِنْ جَوَازِ بَيْعِهِ قَبْلَ التَّدْبِيرِ، إِذْ لَمْ يُوجِبَ التَّدْبِيرُ زَوَالَ الرِّقِّ عَنْهُ، ثُمَّ رَأَيْنَا أَنَّهُ صَحَّ عَنِ ابْنِ عُمَرَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -: «لَا يُبَاعُ الْمُدَبَّرُ وَلَا يُوهَبُ وَهُوَ حُرٌّ مِنْ ثُلُثِ الْمَالِ»، وَقَدْ رَفَعَهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - لَكِنْ ضَعَّفَ الدار قطني رَفْعَهُ، وَصَحَّحَ وَقْفَهُ.[774])

وقد حاول بعض الفقهاء تأويل هذا الحديث فاستدلوا بذلك على جواز تسخير المدين على الكسب مستشهدين بهذا الحديث السابق حيث قالوا: (بأنه لما كان الحر لا يباع فقد ثبت أنه باع منافعه ومن استبعد منهم القول بنسخ هذا الحديث قالوا: (ولم يثبت أن بيع الحر كان جائزاً في شريعتنا وحمل بيعه على بيع منافعه أسهل من حمله على بيع رقبته المحرم.. [775]).

ثم إليك - على سبيل الاستئناس - الشطر الثاني من هذا الحديث الشهير: (ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه يورثه) (وما زال يوصيني بالمملوك حتى ظننت أنه يضرب له أجلاً أو وقتاً إذا بلغه أعتق).

لعل هذا الحديث يترجم لنا عن تفكر ذات النبي العميقة في أن يتابع التشريع اليهودي في إطلاق سراح العبد اليهودي إذا قضى مدة محددة مقدارها ست سنوات، فمن المعلوم أن التشريعات اليهودية قد شرعت ثلاث وسائل للرق: أولها الفقر بأن يبيع الإنسان نفسه ليسدد ديونه (لاويين 39:25)، وثانيها: السرقة (أي إذا سرق إنسان شيئا ولم يستطع رد ما سرق (خروج الإصحاح 22 الآيات 1-2) والوسيلة الثالثة: هي البيع كأن يبيع الأب ابنته جارية (خروج الإصحاح 21- الآيات 7و 17)، وأما وسائل الخلاص من العبودية فهي رد السارق دينه أو السارق سرقته أو بعد أن يقضي ستة أعوام متوالية عند سيده، أو عند حلول سنة اليوبيل وهاتين الوسيلتين لا تنطبقان إلا على

---

[774] مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح محمد، أبو الحسن نور الدين الملا الهروي القاري دار الفكر، بيروت - لبنان الطبعة: الأولى، - 2002م ج6 ص 2224

[775] (انظر - ص 35- المغني على مختصر الخرقي - ابن قدامة المقدسي - ج6- دار الكتب العلمية - بيروت - باب الحجر)

العبد العبراني فقط ولهذا فلو صح الشطر الثاني من هذا الحديث فأغلب الظن أن المقصود به العبد المسلم دون غيره .

وكما هو واضح فقد كانت تلك المناسبات التعبدية عند اليهود - وخاصة أعيادهم الهامة - مصدراً أساسياً من مصادر تشريعات النبي حيث نجده يختار من بين تلك المناسبات اليهودية الخاصة أظهر معالم أهم عبادتين في الإسلام، وهما عدد الصلوات اليومية وميقات الصوم: فقد اختار كما رأينا مواقيت صوم اليهود المخفف ميقاتاً لصيام شهر رمضان، واختار قبل ذلك - أيضاً- عدد الصلوات الخاصة التي كان يصليها اليهود في تلك الأعياد، وجعلها فريضة واجبة يؤديها المسلم عبر اليوم والليلة وعلى هذا فليس من البعيد أن يكون ما حدث في الصلاة هو على عكس ما حدث مع الصوم!

فمن المعقول أن نفترض أن النبي كان يصلي في البداية صلاة اليهود الثلاثة المعروفة ثم زادها منذ وقت حادثة الإسراء إلى خمس صلوات في اليوم والليلة؛ لأنه نظر إلى عدد صلواتهم الاستثنائية في أيام الصوم، ولكنه - وكما رأينا - فقد بدأ النبي بمحاولة صوم اليهود الاستثنائي ثم تركه إلى الصوم الاعتيادي لليهود مثلما يظهر لنا هذا النص (وفي أيام الصيام المفروضة على اليهود، كانت تُؤدى خمس صلوات يومية هي:

1- صلاة الفجر، ويسمونها صلاة السحر (شحاريت)، ووقتها حسب ما قررته المشنا منذ أن يتبين الخيط الأبيض من الخيط الأزرق إلى ارتفاع عمود النهار.

2- صلاة الظهيرة، ويسمونها (حتصوت) ويصلونها في وقت الزوال.

3- صلاة العصر، أو ما بعد الظهيرة، ويسمونها (مِنحة)، وتجب منذ انجراف الشمس عن نقطة الزوال - أي بعد الظهر- حتى ما قبل الغروب. وقد حلت هذه الصلاة محل تقريب قربان الظهيرة في هيكل أورشليم.

4- صلاة (نعلت شعاريم)،وهي صلاة يؤديها اليهود في يوم الغفران بعد صلاة العصر، في وقت يقترب من لحظات غروب الشمس.

-5صلاة المساء، ويسمونها صلاة الغروب، ويسمونها (معاريف أو عرفيت)، ووقتها من غروب الشمس وراء الأفق إلى أن تتم ظلمة الليل الكاملة، أي ما يقابل وقت العشاء عند المسلمين[776]).

---

(776) (راجع كتاب الصوم في اليهودية صـ 34-35)

صوم يومي الإثنين والخميس

(الصوم التطوعي في يومي الاثنين والخميس، من أيام الصوم التطوعي التي صامها اليهود، والتي ظهرت في فترة الجاؤونيم المبكرة، صوم يومي الاثنين والخميس، وكذلك صوم الاثنين اللاحق لعيد الفصح وعيد المظال... وكان من المعتاد القيام بصوم عام في يومي الاثنين والخميس من كل أسبوع، وحرص كثير من اليهود خاصة بعد تدمير المعبد على الصيام كل اثنين وخميس،، ويبدو أن صيام الإثنين والخميس قد حظي باهتمام فقهاء اليهود وتكرر التنبيه إليه كثيراً فحرص عليه المتدينون خاصة، وكان من الأمور التي تباهى بها الفريسيون منهم على نحو ما ذكره عنهم السيد المسيح، وعندما ثارت الكنيسة المسيحية الأولى ضد اليهود، كانوا قد اشتهروا بصوم الاثنين والخميس، لذا رأت الكنيسة ضرورة مخالفتهم فعدلت عن صيام هذين اليومين، ونادت بصوم يومين بديلين هما: الأربعاء والجمعة، وقد اختلفت الآراء حول تأصيل الصيام اليهودي ليومي الاثنين والخميس، فقيل أنهم يصومون لأن موسى قد ذهب يوم الخميس إلى الجبل لاستقبال الوحي الإلهي ، ثم عاد من الجبل في يوم الاثنين، وقيل أيضاً أن صيام يومي الاثنين والخميس هو تخليد لذكرى تدمير المعبد وإحراق التوراة[777]) .

من بين أهم نوافل الصوم التي حافظ عليها النبي صوم يومي الاثنين والخميس وبيان فضلهما وقد جاءتنا في هذا الشأن أحاديث لا تكاد تحصى ومن بينها مثلاً ما جاء (عن كعب بن مالك: أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج يوم الخميس في غزوة تبوك، وكان يحب أن يخرج يوم الخميس.[778])، ومثله : (تفتح أبواب الجنة يوم الاثنين ويوم الخميس فيغفر فيها لكل عبد لا يشرك بالله شيئاً إلا رجلاً كانت بينه وبين أخيه شحناء فيقال: انظروا هذين حتى يصطلحا[779])، وأيضاً (عن أسامة بن زيد قال: قلت يا رسول الله إنك تصوم حتى لا تكاد تفطر وتفطر حتى لا تكاد أن تصوم إلا يومين إن دخلا في صيامك وإلا صمتهما قال أي يومين؟ قلت: يوم الاثنين ويوم الخميس قال: ذانك يومان

(777) كتاب الصوم في اليهودية صـــ56 -57)

(778) (رواه البخاري وانظر الحديث في مشكاة المصابيح - الألباني - برقم (3892) ولا يخفي التشابه هنا مع ما جاء عن تلك المزية التي سبق وعلمناها عن فضل يوم الغفران اليهودي ! (يوم الغفران هو يوم التسامح والعفو حيث يغفر فيه الرب خطايا إسرائيل فيكفر في هذا اليوم عن وصايا افعل ولا تفعل التي تعداها الإنسان سهوا أو عمدا ولا يكفر يوم الغفران عن الآثام التي بين الإنسان وصاحبه حتى يسترضي صاحبه ويصالحه فيسامحه.)

(779) (انظر كتاب: صحيح الجامع الصغير وزياداته برقم (2970)

تعرض فيهما الأعمال على رب العالمين فأحب أن يعرض عملي وأنا صائم[780]) (عن أبي قتادة الأنصاري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن صوم الاثنين فقال :(فيه ولدتُ، وفيه أُنزل عليَّ[781].(

وكما ترى فقد حافظ النبي على صوم هذين اليومين من بين أيام الأسبوع - ورغم أننا لا نشك في أن هذا التفضيل المحمدي إنما يرجع إلى الموروث الديني لليهود- ولكن النبي قد منح لصوم هذين اليومين دلالات خاصة، مثل أنه قد ولد في يوم الاثنين، وفي ذلك اليوم تنزل عليه القرآن، ولكننا نجد خلف هذا التفضيل ما يشير إلى الموروث اليهودي كما في مغفرة الله لكل المؤمنين عدا المتشاحنين، وليس من البعيد - أيضاً - أن يكون خلف تفضيل النبي السفر في يوم الخميس تبركاً بما شاع عن خروج موسى للقاء ربه في ذلك اليوم كما أشار إلى هذا النص السابق عن سبب صوم اليهود لهذا اليوم.

---

[780] (انظر صحيح أبي داود برقم (2105)

[781] رواه مسلم (1162)

خاتمة

"وَقَالَ اللهُ: نَعْمَلُ الإِنْسَانَ عَلَى صُورَتِنَا كَشَبَهِنَا، فَيَتَسَلَّطُونَ عَلَى سَمَكِ الْبَحْرِ وَعَلَى طَيْرِ السَّمَاءِ وَعَلَى الْبَهَائِمِ، وَعَلَى كُلِّ الأَرْضِ، وَعَلَى جَمِيعِ الدَّبَّابَاتِ الَّتِي تَدِبُّ عَلَى الأَرْضِ(782)".

"إن الإنسان حين يتحدث عن الله فإنه في الحقيقة لا يتحدث إلا عن نفسه (783)"

"يا عبد لا تجعلني رسولك إلى شيء فيكون الشيء هو الرب وأكتبك من المستهزئين على علم .يا عبد إذا قمت إلى الصلاة فاجعل كل شيء تحت قدميك(784)"

إذا كانت تلك الجمل الثلاث السابقة والتي لا تستغرق قراءتها سوى دقيقة واحدة ، فيجمل بالقارئ الكريم أن يتذكر بأنه سيطوى خلال تلك الدقيقة الواحدة كل تلك الآماد الشاسعة التي قطعها الوعي الإنساني في فهم الظاهرة الدينية، والتي استغرقت من جنسنا البشري عشرات - أو ربما مئات - الألوف من السنين . وربما ليس من معيار واحد يصلح للتمييز بين من ينتمي لعصرنا الحديث وتصوراته، وبين من ينتمي من بيننا إلى أهل العصور القديمة، سوى أن يتبين المرء موقفه من هذه الأسئلة الآتية والتي طمحت تلك الجمل الثلاثة السابقة لتقديم إجابة عنها، فهل حقا خلق الله الإنسان على صورته ومنحه بعض صفاته كما تقول الكتب المقدسة ؟! أم ابتكر الإنسان الله على صورته هو، وأسقط عليه جميع ما تمناه لنفسه من كمالات، وأسبغ عليه جميع الصفات السامية التي علم الإنسان الفاني المحدود أن لا سبيل إليها كما يقول الملحدون ؟!، أم تراه يعتقد بأن الله لم يخلق الإنسان على صورته، وكذلك لم يخترع الإنسان الله ، بل (خلق) الله الإنسان وفق خطة تطورية بعيدة المدى، ولم يكن أمام البشر في العصور القديمة سوى نفوسهم العارية ليصوغوا منها صورة الله ؛ فجاءتهم صورة الله - كما اعتقدوه - انعكاسا مباشرا لصورة الإنسان عن نفسه، وقد آن الأوان لكي يطمح القلب البشري إلى التطلع إلى صورة الله المتنامية أبدا بمقدار ما يقطعه الإنسان من أشواط فسيحة في فهم نفسه وفي فهم العالم من حوله، وليظل الله قبل ذلك وبعده هو الحقيقة السرمدية التي لا أقرب ولا أبعد منها كما يقول أصحاب النزعات الصوفية ؟!

---

(782) (تك1:26)

(783) (فيورباخ - انظر مقدمة كتاب : أصل الدين – لودفيج فيورباخ -ص17 ترجمة د أحمد عبد الحليم عطية - الطبعة الأولى - 1991م المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع - بيروت - لبنان

(784) النفري - كتاب المواقف والمخاطبات

في اعتقادنا أن الإجابة الأولى إنما تعبر عن الماضي الذي ولى وانقضى، وتترجم الإجابة الثانية عن الحاضر المسيطر على ثقافة البشر منذ عدة قرون، وأما الإجابة الثالثة فمن يدري فلعلها تكون إجابة المستقبل الذي لا نعلم عنه شيئا ؟!

ولن نتكلم هنا إلا عن رؤية الماضي الذي يتشبث بالبقاء ولا يريد أن يرحل في سلام، وذلك لأننا نتكلم عن أحد كبار رموزه وهو النبي محمد - عليه السلام - ، وأما عن باعث هذه التساؤلات فهي محاولة منا للإجابة على هذا السؤال الذي ينبغي أن يشغل كل قارئ لهذا الكتاب وهو : كيف ظن النبي أن كل تلك الشرائع التفصيلية من وحي الله إليه ؟!

أما الحقيقة الواضحة فتقول بأنه إذا سهل على قارئ القرآن أن يتفهم - بهذا القدر أو ذاك- كيف تلقى النبي صوت الله في قلبه، وهو يأمره بمبادئ العقيدة العامة، ومعها مفردات الشريعة الإلهية ؛ لأنه اعتقد - صادقا - بأن الله قد أوحى إليه بتلك العقائد، مثلما أوحى من قبل بتلك العقائد ذاتها إلى جميع الأنبياء السابقين ؛ فكيف يمكننا أن نتفهم طبيعة هذا الصوت الإلهي الذي أوحي إلى النبي بكل تلك الوصايا والتشريعات الجديدة، سواء أكانت من بين التشريعات والوصايا التي استحسنها النبي من عقائد وقيم أهل الجاهلية أو تلك التي خالف فيها الشريعة اليهودية ؟!

لمحاولة الإجابة على هذا السؤال يستلزم منا ذلك أن نفهم جوهر التفكير الديني، وأن نتذكر بشكل عام أن الإنسان إنما يكوّن صورته عن الله كانعكاس لصورته المثلى عن نفسه ، وهنا تصلح - أيما صلاح - مقولة لودفيج فويرباخ الشهيرة بأن : (الإلهيات إنما هي إنسانيات مقلوبة) كتلخيص جميل لتلك المسيرة كلها ، وبعبارة أخرى فإن المثل والتصورات الإنسانية هي التي كانت تشكل صورة الله في لحظة ثقافية بعينها، وأن الأنبياء - وربما أكثر من غيرهم - هم الذين كانوا يعبرون عن تلك الصورة، وكانوا يترجمون بأعمق عواطفهم الدينية عن تلك المثل الإنسانية العالية ؛ وعلى هذا فلم يكن الأنبياء – حاشاهم مجرد مخادعين كاذبين، ولا كانوا - كذلك - مجرد مخدوعين واهمين، بل كانوا هم من صاغ للجنس البشري مثله العليا، وكانوا هم من رسم له صورته المرجوة عن نفسه ؛ لذا فيمكن قراءة نبوة كل عصر باعتبارها تفاعلا جدليا بين ما كان موجودا من قيم وتصورات بشرية، وبين ما طمح لبلوغه البشر من مثل أخلاقية وروحية عبر تلك النماذج فائقة الإدراك وعميقة الشعور بالأفكار الدينية والمثل الروحية.

أما من الناحية التاريخية الخالصة فليس من شك في أن البشر الفانين هم من ابتكروا فكرة الله، وصاغوها على صورتهم الجوهرية ، حيث منح البشرُ الله كل ما تمنوه لأنفسهم من صفات، وأسبغوا عليه جميع ما ينقصهم ؛ وذلك لسبب نفعي وجمالي في آن واحد، وهو أن يتمتعوا بتلك الصفات ثانية من خلاله ! فمثلا إذا ضاق البشر من أنهم يموتون ؛ فالله عندهم حيّ لا يموت ، ثم يمنحون لأنفسهم تلك الحياة الأبدية كمثوبة وفضل من ذلك الإله الخالد!، وإذا ضاق الناس ذرعا من جهلهم بما حولهم من أطواء هذا العالم الشاسع والمخيف ، فلا بأس بذلك! فالله عالم بكل شيء ، ثم تهفو الروح البشرية في أن تنثال عليها المعارف الإلهية من كل جانب فتصير هي - أيضا - عارفة بكل ما جهلت ! . وإذا كان الإنسان ضعيفا أمام قوى الطبيعة المتجبرة وعاجزا عن السيطرة عليها ، فالله قادر على كل شيء ، ويمكن للمرء عبر الإيمان به أن يقول للجبل : (انتقل فينتقل)، ويستطيع كذلك أن يستنزل المطر بأن يدعو الله عبر تلمس رحمته ومن خلال الخضوع له والانقياد لوصاياه .

لذا ؛ فيمكننا عبر التحديق في المنظومات الأخلاقية لكل دين أن نتعرف من خلالها على مجموع الفضائل الإنسانية التي حاول الأنبياء تعميمها عبر تقديمها كمبادئ إلهية خالدة، وذلك بنسبتها إلى نبعها البعيد ؛ أي إلى الله الذي سمعوا صوته يهمس في أعماق قلوبهم، ولكننا وعلى المقابل يمكننا أن نجد في تصوراتهم الدينية ذاتها جميع النقائص البشرية التي سادت في عصورهم ؛ مثل : العنف والغضب والقسوة والتعصب القومي وانتقاص المرأة واحتقارها ومن تقديم تفسيرات علمية خاطئة للظواهر الكونية وما إلى ذلك، ولربما كان في حضور هذا الجانب المظلم في كل الأديان - والتوحيدية منها على وجه الخصوص - البرهان الأكبر على أنها - في نهاية المطاف- صناعة بشرية خالصة، وإن كانت تستلهم الهداية الإلهية من أعماق شعورها ، مستعينة بكل المواهب الذاتية التي تملكها .

وعلى هذا فكل دين إنما كان يعبر عن نهاية الأفق الذي يراه أهل ذلك العصر متجليا في أقوى بصائر أهله وهم الأنبياء، ولكن عندما تمضي الحياة قدما بالناس وتتغير مفاهيمهم فسرعان ما يتشكل أمام أرواحهم أفق جديد ، يستلزم - بدوره روحا أخرى تملك الجرأة الكافية لتصوغ ملامحه، وتمتلك في الوقت ذاته قدرا كافيا من اليقين الذاتي المتعصب لنفسه، والذي يدعو صاحبه للقطع الجازم بأنه رأى نقطة النهاية الأخيرة

للمسعى البشري كله، وهكذا دواليك حتى تتكشف سبل جديدة تمنح تفسيرا بديلا للرؤى السابقة، بل ربما طمحت بعض تلك الرؤى النقدية الجامحة لتفسير الدور الوظيفي للمسعى الديني كله وتبخس من قيمة تلك الأدوار التي نهض بعبئها الأنبياء ، فلا يرى في نورها الذي أشاعته - قدر طاقتها - سوى إشاعة المزيد من العتمة ، مثلما يعبر عنهم هذا الكاتب الحانق على جميع الأديان : (تنتعش تخييلات موسى والقديس بولس وقسطنطين ومحمد باسم ياهوا والرب وعيسى والله . تلك التخييلات المفيدة التي تكتسحهم وتجهدهم وتقض مضاجعهم وهم يرمون حلكتهم على العالم يعتمونه أكثر دون أن يبرؤوا من قلق أو كرب [785]).

لكن من يقرأ القرآن الكريم، ويحدق مليا في الأحاديث النبوية - من هذا المنظور الواضح- فسيرى كيف يصلح النبي محمد - أكثر من سواه من الأنبياء - لبيان هذا التفاعل؛ إذ لم يكن النبي محمد متأملا منعزلا صاحب نزعة صوفية، تركز جهدها الباطني على مجابهة الذات لله ومحاولة تسلق ذلك السلم الشاهق في بلوغ معرفته والتحديق في طبيعة وجوده، بل كان النبي محمد - إلى جانب مواهبه الروحية - رجلا يمتلك حسا دنيويا بالغ الحيوية، ولم تكن تعجبه تلك الاستغراقات الباطنية، ولم تستهوه أبدا المفاهيم اللاهوتية المجردة، بل كان يمتلك رؤية واضحة للعالم كما أدركه، وقدم منظورا أخلاقيا سهل المنال لجميع البشر ، مستقيا تصوراته من نبعين عميقين وهما : التقاليد الأخلاقية السامية لعرب ما قبل الإسلام، ومن الوصايا والتعاليم الدينية اليهودية ، مجسدا لنا ذلك كله في شخصه هو ، حيث جمع في شخصه بين صورة الرجل العربي الكامل، وبين طبيعة المؤمن الصالح، ولا ينبغي لأحد أن يقيم تجربة النبي الروحية أو الدينية إلا من خلال هذا السعي المخلص للتعبير عن تلك المزاوجة . وأما بشأن بواعث استلهامه الروحي فيمكن القول - وببساطة تامة - أن ما استحسنه النبي من التشريعات العربية كان يرجعه إلى بقية من شريعة إبراهيم القديمة، أو ربما كان يرجع به إلى أقدم من ذلك فيراه من مقتضيات الفطرة الأصلية التي فطر الله الناس عليها ، مهتديا بذاته وخلائقه النفسية هو في تعريف تلك الفطرة القويمة.

---

[785] (انظر - نفي اللاهوت - فيزياء الميتافيزيقا - ميشيل أونفري- ترجمة مبارك العروسي -دار الجمل - الطبعة الأولى - بغداد - 2012م - ص 18)

إذن - وعلى الجملة - فمن هذا المزيج بين ما كان يمارسه اليهود زمن النبي وبين ما نسبته المرويات التلمودية - زورا- إلى أنبياء العهد القديم جاء اعتقاد النبي في حضور تلك الشرائع الدينية منذ أقدم الأزمان ، واعتقد النبي جازما في أنها كانت جزءا من الشريعة الإلهية القديمة التي مارسها جميع الأنبياء عرف النبي منهم من عرف، وجهل منهم من جهل، فلم يكن من المتصور عنده أن يتعبد الأنبياء وأتباع الأنبياء إلا وفق شريعة إلهية عامة ، كانت تشتمل على كل تلك المعالم الضرورية التي لا بد من حضورها في جميع الديانات الإلهية ؛ أي الصلاة والزكاة والصوم والحج والصدقة واستقبال القبلة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع اختلاف يسير في تفاصيل تلك الشرائع ، وسننظر بتفصيل أكبر عن بعض أهم تلك المؤثرات في القسم الأخير من هذا الكتاب.

أما عن المنظور التاريخي في القرآن الكريم ، من يتأمل التاريخ البشري كما قرره القرآن فسوف يتكشف عن مخطط بسيط ، بل فقير للغاية من جميع جوانبه، فسواء نظرت عن جموع المشاركين في تلك الدراما فلا تجد سوى حفنة قليلة من الأمم جميعهم - عدا مصر - من الأمم والقبائل الهامشية في التاريخ الإنساني ؛ ففي البداية نجد مشهدا ميتافيزيقيا يجري خارج الزمان والمكان، وفيه تتقرر القواعد التي ستجرى عليها التجربة البشرية ، ثم حادثة قتل، ثم تعقبها سلسلة من الدعوات ، يبدأها نوح الذي لا نعرف عن مكانه شيئا إلا أنه من مواليد قارة آسيا - بحكم اسم الجبل الجودي - وربما من حضور اسمه على لسان نبيين عربيين ، حيث لا يعقل أن يكون بعيدا جدا عن تلك المنطقة ، ثم تأتي بعد نوح أمتان عربيتان ثم يظهر النبي إبراهيم وعبر ذريته تتجلى النبوة وتختص ببني إسرائيل، ثم قصة موسى وفرعون وصولا إلى زمن المسيح ؛ إذن ؛ فالمكان لا يعدو بقعة صغيرة للغاية من العالم ، فلا وجود للأمم الكبرى صانعة الحضارة ،فلا مصر ، ولا وبابل ، ولا أشور ، فلا تذكر تلك الممالك العظيمة إلا باعتبارها مسرحا تتجلى فوقه أعاجيب الله ومعجزاته لصالح شعبه المختار.

وإذا نظرنا إلى عوامل الصراع فلا نجد في القرآن الكريم سوى تلك المواجهة الأبدية بين الإيمان وبين الكفر، فلا اعتبارات اقتصادية ولا ثقافية ولا جمالية ، بل مجرد إيمان وكفر . ومن ناحية القوانين أو السنن التي يمكن استخراجها من القراءة النبوية للتاريخ فهي قوانين واستخلاصات عامة، وذات طبيعة أخلاقية مصاغة بلغة دينية

وعظية، مثل : نصر الله للمؤمنين، سواء في الدنيا باستئصال الكافرين وإنجاء المؤمنين من هذا المصير، أو مكافأتهم في الآخرة بالثواب الدائم، أو تقرير أن الترف وروح البطر هي سبب دمار المجتمعات ، وأن الإيمان بالله يأتي بالرزق والخيرات الدنيوية، والملحظ المهم هو غياب أي أثر لمفهوم التطور - حتى في أبسط صوره - فمنذ البداية كان كل شيء تاما كاملا، سواء من ناحية الخلق أو المفاهيم ، ثم يعروها الانتكاس، وكلما حدث ذلك، يرسل الله نبيا لتكون دعوته بمثابة رافعة تعيد الناس إلى ما كانت البشرية عليه قبل السقوط ، وهكذا دواليك !

من يتأمل تاريخ الجماعة البشرية كما يصوره القرآن الكريم والأحاديث النبوية فسيجد تفسيرا مسرفا في البساطة ؛ مداره إنسان عاقل من اللحظة الأولى للخليقة، ويفهم نفسه باعتباره عبدا لإله كلي القدرة والرحمة، ويدخل معه في علاقة مشروطة قانونها الأساسي : الإذعان لله واتباع شريعته، وكما أدخل هذا الفهم - الخاطئ - مفاهيم متقدمة لم يعرفها البشر إلا في فترة متأخرة من تطورهم البطيء والمتواصل عبر التاريخ، فهو كذلك ينطوي على خطورة شديدة ؛ حيث نراه يؤبد الشرور الإنسانية من العلاقة غير المتكافئة بين الرجل والمرأة، ويؤصل لبعض الظواهر الشنيعة مثل الرق والتفاوت البعيد بين الغني والفقير باعتبارها جميعا من بين القوانين الأزلية، وليست ظواهر سلبية عرفها الإنسان في وقت معين من تاريخه، وعليه أن يكافحها باعتبارها شرورا ينبغي إزالتها والتخلص منها كإرث تاريخي يعبر عن مرحلة تاريخية بعينها .

وعلى هذا وفي ظل التفهم الموضوعي لذاك المنجز الهائل لتلك الأرواح العظيمة والتي حاولت ما وسعها ذلك أن تقدم تفسيرا للظواهر التاريخية والثقافية والروحية رغم الغياب المؤلم لكل ما يمكن أن يعينها على ذلك؛ إذ لسنا أمام مؤرخ حديث للحضارات ويجلس إلى طاولة الكتابة وخلفه ألوف المجلدات التي أنتجها جيش هائل من الباحثين ، وعلماء اللغات القديمة ، ومذكرات الرحالة الجوالين ، وتقارير المبشرين الخ، وإنما نحن أمام أرواح وعقول امتلكت قدرات مدهشة، واستطاعت أن تخرج باستنتاجات صحيحة، ولكنها محدودة للغاية ، ومع ذلك فلا يسعنا سوى إبداء الإعجاب والتقدير الكاملين لما استطاعوا أن يفعلوه وسط تلك الظروف. وإنما المعيب بل والشائن هو ذاك الموقف (المتخلف) للتابعين ، ونعنى به المعنى الدقيق للفظة (التخلف) ؛ أي أن يتشبث إنسان ما بمفهوم قديم تم تجاوزه وتخطيه لصالح مفهوم آخر أكثر صحة، ولكن بسبب

من الجهل أو الإصرار على استبقاء تصور ديني معين يتضمن - أو ينص - على صحة هذا المفهوم القديم أو ذاك ، حيث نراهم يتجاهلون الحقائق ويهدرون ما أنجزته الجماعة البشرية من مجهودات مروعة حتى أتت بالتفسير الصحيح، وهو موقف عبثي جدير الشفقة والرثاء ، فضلا عن خطورته إذا تبناه عدد كبير من الناس.

فمثلا إذا قال رجل من أهل الأزمان القديمة بأن قوس قزح إنما هو علامة وضعها الله لكي تذكره بندمه على إهلاك الإنسان فلا يدمر خليقته مرة ثانية، أو أن الطاعون هو وخز من الجن للإنس ، أو أن سبب اختلاف اللغات البشرية وتنوعها هو كونها عقوبة إلهية، بسبب ما همَّ به بنو البشر من بناء برج بابل، أو أن معصية بني إسرائيل ومخالفتهم من إدخار الأطعمة هو الذي أدخل ظاهرة التحلل البكتيري إلى العالم لأول مرة، أو أن الشهب هي قذائف تطلقها الملائكة على الشياطين الذين يحاولون التسمع على الملأ الأعلى ومعرفة ما يقرر هناك للعباد الخ نقول بوضوح بأن تلك مفاهيم وتفسيرات خاطئة، وربما كان أصحابها - على جلالة شأنهم- معذورين في الوقوع في تلك الأخطاء ؛ حيث - ربما - كانت تنطوي تلك الحلول أو بعضها على معقولية شكلية ما أغرت بهذا التفسير الخاطئ، ولكن ما عذر التابعين الحمقى ؟

وهناك - أيضا - فكرة الخلق الخاص والتطور العام، فنظرية الوحي المباشر إنما هي التصور الطبيعي لمفهوم الهداية الإلهية وفق نظرية الخلق الخاص، وأما وفق نظرية التطور فلا بد لها من تصور روحي آخر يتسق معها فضلا عما في تلك الأدبيات العظيمة من أفكار خطرة، ومعارف خاطئة بعيدا من مماحكات المعتقدين من كل الأديان .

وعلى هذا فمن يقرأ القرآن الكريم بموضوعية - ؛أي دون تقديس يضبب الرؤية، - وأيضا - دونما تربص يفسدها - فسوف يلحظ على الفور بأن خلف هذا النص الكريم تقف ذات إنسانية تنطوي على جدية هائلة، ويراها وقد تماهت إلى أقصى حدودها مع الذات العلية - كلية الجبروت والحكمة - فهي تستعير حضوره الساطع في باطنها ، وتتكلم من خلاله في صدق ذاتي كامل. ورغم ذلك فإننا نجد - من حين لآخر - أثرا واضحا للانفعالات الإنسانية الخالصة تطل برأسها من خلف القناع الإلهي، لتطفو تلك الانفعالات البشرية عبر منح الله مثل تلك المشاعر من الغضب والدهشة والحسرة والألم كما لو كان الله بشرا من البشر ؟!

(فلما آسفونا انتقمنا منهم) الزخرف

أو تلك النعوت القاسية للمخالفين فنراهم يوصفون بأنهم (كالأنعام) سورة الأعراف (**179**) وسورة الفرقان (44) ، وأيضا مثل الحمار (سورة الجمعة الآية 5) ومثل الكلب - أيضا - (الأعراف 176) ، بل نجد تعريضا غليظا بصحة انتساب رجل إلى أبيه (القلم الآية 13) أو أن يوصف مخلوق ترابي بائس بأنه : (عدو الله !)الأنفال (60) أو أن يجد تلك الغضبة الضارية عن اتخاذ الله ولدا كما في خواتيم سورة مريم (87-95) حيث يغيب على نحو عجيب أي قدر التفهم أمثال تلك الاعتقادات ، وأنها فضلا عن تناسبها مع تصورات أهلها عن الله ، فإنها - أيضا - لا تنطوي - عند معتقديها - على أي قدر من الانتقاص أو التعظيم لله ، أو يجد هذا الانفعال بالغ الشدة عن قدرة الله التي إن شاءت أهلكت المسيح وأمه ومن في الأرض جميعا (المائدة الآية 17) ، ورغم تفهمنا بأن يصدر هذا الغضب كله من ذات تستشعر حضور الله الأحد في قلبها ، وتعتقد بوحدانيته على نحو لا هوادة فيه ، من الطبيعي أن يغضبها أن يُعبد إنسان باعتباره إلها أو ابنا لله خاصة عند من كان يحمل معنى البنوة والأبوة على حرفتيه كما يبدو من ظاهر تلك الآيات .

ومن بين البراهين الجلية على حضور بشرية النبي هو عدم التباين الكبير بين لغة القرآن وبين لغة الأحاديث، وطريقة التعبير وأنماط التشبيه، بل وطريقة التفكير - أيضا - كما رأينا في الفصل الأخير. وأضف إلى ذلك - أيضا - تفاوت لغة القرآن من مرحلة لأخرى، بل ومن سورة وأخرى، وهذا لا يعقل مثله عند من يعتقد في مصدره الإلهي الكامل ؛ أي إخراج النبي من المشهد كله كمتلق سلبي ينطق بما أفرغ فيه من الكلام الإلهي، دونما دور له في ترجمة تلك المعاني داخل إمكانياته اللغوية والمعرفية، والحقيقة أن التفاوت الأسلوبي والجمالي البعيد بين سور القرآن بشكل عام، أو بين المكي منه والمدني لهو أظهر من أن يخفى على القارئ العجول، فضلا عمن يقرأه بعناية واهتمام فهي حقيقة لا سبيل إلى جحودها وإنكارها، هل يستطيع أحد أن يجادل في التفوق الأسلوبي والتعبيري لبعض سور القرآن مثل سورة ق والجن والفرقان ؟ فمن يقرأ على سبيل المثال تلك السور الثلاث فلن يسعه سوى الإعجاب بجودة سبكها ، ورفعة تعبيرها ، إذا قورنت - مثلا - بسورة التوبة أو سورة الممتحنة أو سورة المنافقون، حيث تظهر

سورة التوبة كبيان حربي غاضب، أو تلك السورتين الأخيرتين كنثر عادي أقل كثيرا من مستوى القرآن الكريم بشكل عام .

هل القرآن الكريم كلام الله ؟

(أما بعد : فإني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في مبشرة أريتها في العشر الآخر من محرم سنة سبع وعشرين وستمائة بمحروسة دمشق، وبيده صلى الله عليه وسلم كتاب، فقال لي : هذا كتاب فصوص الحكم خذه واخرج به إلى الناس ينتفعون به، فقلت السمع والطاعة لله ولرسوله وأولي الأمر منا كما أمرنا . فحققت الأمنية وأخلصت النية وجردت القصد والهمة إلى إبراز هذا الكتاب كما حده لي رسول الله صلى الله عليه وسلم من غير زيادة ولا نقصان ؛ وسألت الله تعالى أن يجعلني فيه وفي جميع أحوالي من عباده الذين ليس للشيطان عليهم سلطان، وأن يخصني في جميع ما يرقمه بناني وينطق به لساني وينطوي عليه جناني باللقاء السبوحي والنفث الروحي في الروع النفسي بالتأييد الاعتصامي ؛ حتى أكون مترجما لا متحكما، ليتحقق من يقف عليه من أهل الله أصحاب القلوب أنه من مقام التقديس المنزه عن الأغراض النفسية التي يدخلها التلبيس . وأرجو أن يكون الحق لما سمع دعائي قد أجاب ندائي ؛ فما ألقي إلا ما يلقى إلي، ولا أنزل في هذا المسطور إلا ما يتنزل به عليّ. ولست بنبي رسول ولكني وارث ولآخرتي حارث[(786)]).

هل القرآن الكريم كلام الله ؟! يا له من سؤال كبير ! وهل من برهان على خطر هذا السؤال وفداحته أعظم من وجود مئات الملايين من البشر يهتفون للإجابة على هذا السؤال ب(نعم وبكل تأكيد !)، ووجود ثلاثة أضعافهم يجيبون على ذات السؤال ب (لا وبكل تأكيد !) ؟! أما إجابتنا فهي : نعم، ولا في آن واحد ؛ أي إذا كان المقصود من قولنا بأن القرآن الكريم هو(كلام الله) بأن الله تعالى ووفق خطته البعيدة والمتدرجة في كشف ذاته العلية للبشر ، قد ألهم تلك الروح التقية - من مكة في أواسط القرن السادس الميلادي - أن تقول بمثل ما قالت ليحقق من خلف صوابها وخطئها نقلة هامة وشاسعة في تطور البشر الروحي ؛ فالقرآن الكريم بهذا المعنى وبلا ريب هو كلام الله ، وأما إن كان المقصود هو أن القرآن الكريم إنما هو كلام الله الحرفي والذي يعكس الذات الإلهية

---

(786) فصوص الحكم - الشيخ محي الدين بن عربي - شرح عبد الرازق القاشاني - مكتبة الفجر الجديد 2016م - ص 47- 48

(عزّت وجلّت)، ويعبر عنها ، كما تعبر أي رسالة عن وعي وعقل صاحبها ، فلا وبكل تأكيد !

فالنبوة ـ كما ـ نعتقد هي محاولة عقل وقلب مخلوق بشري موهوب روحيا للتعبير عن مرادات الله ومقاصده كما تتجلى في عقله وقلبه هو ؛ فهي على هذا لا تعبر عن الله إلا كما ينعكس سبحانه في تلك الذات الإنسانية وداخل حدودها ، اتسعت تلك الذات أم ضاقت، وكما ينعكس بهاؤه على صفحتها كما تنعكس النجوم القصيّة على صفحة ماء بحيرة كدرت تلك البحيرة أو راقت .

أما ما جاء هذا الكتاب ليقرره فهو بيان التفاعل المعقد بين المخيال النبوي والموروث التلمودي والواقع العربي ، ودمج الجميع في ضميمة واحدة عبر معاناة الاستلهام الباطني بحيث تصبح النبوة عندنا كنظرية الولاية الصوفية ، وتقديم نماذج متعددة لبيان أن أنبياء القرآن إنما هم أنبياء مخياليون ، وقد تمت صياغة ملامحهم العقدية والأخلاقية بل والنفسية لتعكس الذات المحمدية.

على هذا فليس هذا الكتاب موجها لمن يؤمنون بحرفية النصوص الدينية كنصوص مقدسة ، وإنما يتوجه لمن يؤمن بها كسرديات أدبية وأخلاقية عظيمة ، ولكن يتسع هذا الكتاب لمن يعتقدون في " الربوبية " ؛ أي فيمن يعتقدون في وجود ذات لا نهاية لجلالها ، وأنها تقف من خلف جميع الظواهر والأشياء ، وأنها أيضا تهدي البشر وفق إرادتها العليا التي لا يسبر لها غور ، ولا تعبر تلك الإرادة السامية عن نفسها عبر المعجزات والخوارق الطبيعية ، بل عبر النظام الكامل في العالم الفيزيائي ، وأيضا- وهذا مقصودنا ـ عبر الفاعلية البشرية للتواصل مع تلك الذات العليّة .

ربما يجدر القول بأن نظرية الوحى المباشر ، وهى أن ينتقى الله إنسانا ويكشف ذاته العلية إليه ، ويرسله بتلك المعرفة إلى الناس قد صارت شيئا من الماضي العتيق ، ربما في ذات اللحظة التي صارت نظرية الخلق الخاص منظورا تفسيريا رثا وبدائيا ، وأخلى هذا التصور البسيط والمريح مكانه لتصور آخر ربما كان الأقرب إلى المعقول ؛ وهو أن الله عندما وهب الإنسان عقلا فقد أراد له أن يكتشف العالم من حوله ، وعلى هذا فمن الممكن ـ بمعنى ما ـ أن نقول أن الله ألهم- وإن شئت أوحى ـ إلى العلماء بكشف النظريات التفسيرية للعالم ، وعلى المقابل يمكننا القول أنه في اللحظة التي منح الله الإنسان قلبا وحنينا لا ينتهى إلى التعرف على المبدأ العظيم لكل شيء ، والذات

العظمى التي بها ومعها قوام كل شيء ، فقد أعطاه في ذات اللحظة كل الإلهامات التي قدمها الراءون العظام عبر التاريخ ، أنبياء كانوا أو صوفية أو فلاسفة دين ، وكما لا يقلل من تقدير العلماء أن تحتوى تصوراتهم عن العالم وهو المتناهي المحدود على أفكار خاطئة أو ناقصة ، فمن باب أولى أن كل الإلهامات والتصورات الدينية لا يمكن لها أبدا أن تكون كاملة ، وسيظل الباب مفتوحا دائما لتصورات روحية أكثر حكمة عن الله غير المتناهي ، ولا أجد كلمة تعبر عن هذا المعنى كما عبرت عنه هذه العبارة الحكيمة لابن عطاء الله السكندري حيث يقول : " ما أرادت همة سالك أن تقف عند ما كشف لها إلا ونادته هواتف الحقيقة : الذى تطلب أمامك ، ولا تبرجت له ظواهر المكونات إلا ونادته حقائقها : إنما نحن فتنة فلا تكفر "

ربما كان في هذا النداء والذى هو موجه في الأصل إلى المريد الفرد الضارب في بيداء السعي للحقيقة العظمى بألا يقف عند ما حصله من أسرار ، وألا يلتفت إلى بوارق الأنوار ، وألا يكتفى أبدا ، بل يمضى قدما نحو المزيد ، والمزيد ، والمزيد ؛ فليست الحديقة اللانهائية هي تلك الشجيرات المتناثرة البائسة ، ولا تلك البحيرات الصغيرة هي ذلك المحيط الرحيب ، وإن كانتا في النهاية مجرد شذرة ضئيلة من الكل العظيم .

إذن ألا يصلح هذا النداء المهيب- من باب أولى - للجماعة البشرية في سعيها الأزلي إلى الله ، أي ألا تكتفى أبدا بما حصلته أي روح من أرواحها العظمى من تصورات عن الله ؛ لأنها ليست في نهاية المطاف إلا تصورات إنسانية خالصة لأرواح حدقت على أقصى ما تستطيع في المحيط الأبدي ، وعبرت لنا عما رأته وأحسته على قدر ما أسعفها إحساسها وقوة مداركها ؟

وألا ينبغي أيضا أن تكون الأشواق لمعانقة الكل العظيم أو الموت دون ذلك المطلب المستحيل أو لا أقل من أي يسقط المرء والقلب في اتجاه تلك القبلة الشاسعة نقول : ألا ينبغي أن تكون تلك الأشواق همّا شخصيا يعنى كل إنسان مهما تواضعت ممكناته ؟! لأنه كما لا يموت إنسان عوضا عن آخر ، ولا يحيا إنسان بدلا من الآخر ؛ كذا لا يصح أبدا أن يتبنى أحد تصور أحد عن الله ، أو أن يعيش حياته الروحية بين أسواره ، وأقصى ما ينبغي أن يعطيه لتلك التصورات من عنايه هو أن يتخذها كما لو كانت خريطة ذات حيثية واعتبار ، فيسترشد بها في مسيره إلى الله ، بل وله أن يمتحن

صحتها في ضوء سيره الخاص ، لا العكس ؛ بأن يصوب أو يخطئ نفسه اعتمادا عليها ، أليس هذا مقتضى الشرف والتجلي الأول للكرامة الإنسانية والشرط الأساسي ، بل القربان الوحيد المقبول لاستحقاق النعمة الإلهية بالشعور بالعبودية ؟

في معرض التأمل في خطة الهداية الإلهية القديمة والمستمرة والتى تجلت عبر مستويات عديدة ومظاهر متباينة عبر التاريخ البشرى فهناك مشابهة مغرية ربما كانت - على بساطتها - تحمل معنى يستحق الالتفات إليه في تلك المتاهة ، وعبر التحديق المؤلم والذى يراوح بين الشعور الوهاب بتجليات العناية من جهة عندما تشرق النفس ، وبين مظاهر غيابها الموجع عندما تظلم الروح من جهة أخرى ، وأيضا - وهذا هو موضوعنا - ؛ أي ما يحيط بظاهرة الوحى المباشر كما عرفته الأديان الكتابية على وجه الخصوص .

أما مناط التشابه وموضوعه فهو تلك المشابهة والمشاكلة بين اللغة البشرية ، والتى هي - كما يعرف كل أحد - بمثابة نظام للتواصل بين البشر ، وبين بعضهم البعض ، وبين الدين باعتباره لغة للتواصل مع الله - فأي نظام روحي أو تصور ديني لا يعدو أن يكون بمثابة نظام للتواصل بين الإنسان ، وبين المطلق الذى لا تحده الحدود - نقول فكما تطورت وتعددت اللغات البشرية من مجرد أصوات - أو حتى إشارات - تعبر لا أكثر في بدايتها عن الاحتياجات البشرية الأساسية حتى بلغت مستوى فائقا في اللغات المتطورة حتى أصبحت لا تلبى فقط الاحتياجات المباشرة ، بل تستطيع كذلك أن تعبر عن الأفكار والمفاهيم الدقيقة والمجردة والعميقة ، فهل من الممكن أن نقيم مقابلة - تنطوي ولو على قدر يسير من المعقولية - بين تلك الأصوات الزاعقة في الغابة من ناحية ، وبين التهتهات الروحية كما تتجلى في الأديان البدائية ، وكذلك بين اللغات البشرية المتطورة ، وبين اللغة الإلهية كما تعبق أنفاسها في الأديان العظمى ؟

وكما تتميز كل لغة من اللغات البشرية عن غيرها ؛ فواحدة تمتاز بسعة مرادفاتها ، وأخرى بجمال جرسها وموسيقى أصواتها، وثالثة بعمق وسعة أوعية مدلولاتها واستطاعتها استيعاب المعاني السامية أكثر من غيرها - فكذلك تتمايز الأديان ، ويمكننا - أيضا - أن نعترف بجدارات جميع اللغات البشرية كلها من ناحية ، ومن ناحية أخرى ألا يمكننا أن نفاضل بين تلك المنظومات الروحية من خلال هذا المعيار البسيط وهو قدرتها على تلبية الاحتياجات الروحية والباطنية العميقة لمعتنقيها للتواصل مع الله ؟

وهل هناك عاصم من تلك الانحيازات الحمقاء لدين بعينه- مهما سمت تعاليمه- أعظم من اعتماد هذا الظمئ المحرق للوصال مع الذات العظمى كمقياس وحيد للتفاضل ؟!

فهل إذا وجد حقا هؤلاء البشر الذين ينظرون إلى الأديان ، سواء التي يعرفونها ويعتقدون بصحتها أو تلك الأخرى التي لم يقتربوا منها أبدا بحجة أن بين يديهم ما يغنيهم عن سواها نقول لو استطاع هؤلاء البشر التخلص من ربقة الألفة والكسل العقلي المهين ، ونظروا إلى جميع الأديان كما لو كانت مجرد خرائط للروح التي تتشوف إلى ربها - نعم يمكن أن تكون أحداها أكثر دقة ، وأخرى أكثر اختصارا ، وثالثة : معالمها أكثر وضوحا ، ولكنها لو وجدت - أي تلك الخرائط المتعددة - طريقها إلى يد هذا الضارب في تلك المفاوز المهلكة ، والذى لا يخشى أبدا سوى الانقطاع والضياع والاغتراب عن النور الأبدي فمن المؤكد أننا سيصعب علينا أن نتخيل مجرد وجود مثل هذا التائه الأحمق الذى يقع في غرام التعلق بخريطة ما دون سواها ، وربما لا لشيء سوى ألفته إياها ، وطول تقليبه فيها ، وينسى أن جميع الخرائط ما هي إلا وسائل لغاية - لا أعظم منها - وهو الوصول والتعرف على الله .

فماذا أمام أي سائر في تلك الطريق الموحشة -إن امتلك الحد الأدنى من الفطنة واليقظة الروحية ورأى انسدادا في الأفق أفما عليه سوى أن يلقى نظرة ملئها اللهفة والرجاء في خريطة أخرى لعلها تكمل ما بين يديه أو تجعله أكثر وضوحا ؟ وإذا تذكرنا أنه لا يمكن أن تتسع لغة ما في لحظة ما من لحظات تطورها لمضامين ومعان لا مقابل لها في التطور الفكري الحاضر في نظامها اللغوي أفمن الغريب إذن أن يقول أحد ببساطة ووضوح : أنه ليس هناك أبدا وحي كامل ونهائي ما دام الوحى يتجلى بالضرورة في لغة بشرية ؟

وأيضا هل هناك حماقة أكبر من مجرد التفكير في إلغاء تلك اللغات- الأديان بجرة قلم ، والاستهانة بها كإرث إنساني عظيم واستبقائها واحترامها - ولو لمجرد اعتبارها مظاهر للهداية الإلهية المتدرجة ، ومسودات ناقصة للكتاب الأبدي الذى لن يكتمل أبدا ، وأنها على أضعف الإيمان تعكس الغنى البشرى وتنوع مستويات وأنماط التوق البشرى للوصال مع الإلهي ؟

من ناحية أخرى فهل هناك رجاء في الجنس البشرى أعظم من اليقين بأن تلك اللغة المفقودة ، والتى يمكن أن نسميها (بإسبرانتو الروح) ستجد مكانها في قلب الأجيال

القادمة ، والتى سيضع معالمها قرنا بعد قرن المستبصرون العظام من الصوفية ، وعلماء الفيزياء الرياضية ، - وأيضا بكل تأكيد - المناضلين - حتى وإن كانوا ملحدين - ولو بمجرد تضحياتهم في جعل العالم أكثر سعادة أو اقل شقاء ، الحق أننا لا ينبغي أن نشك أبدا في أن تلك اللغة ستجد مكانها بين أيدى تلك الأجيال السعيدة القادمة .

وأما لماذا قال هؤلاء الأشخاص الكرام بأن تلك الأقوال هي مما أوحاه الله إليهم، وأنهم ليسوا سوى حملة ونقلة لتلك الرسائل الإلهية دون أي تدخل منهم ؟ فهل كانوا يكذبون على الله ؟ !

اللهم لا ! فالحقيقة التي لا أبسط ولا أوضح منها هي أن مؤمنين كثيرين بينهم وبين الأنبياء والأولياء العارفين - رجال الله - آمادا شاسعة في الإدراك وفرط الشعور بالحضور الإلهي الوهاب قد استشعروا - بهذا القدر أو ذاك - ولو لمرة واحدة في حياتهم بالتماهي مع الله وحضوره الحي في قلوبهم، حتى أنهم يعتقدون بأن خاطرة من الخاطرات ، أو تجربة شعورية من التجارب ما هي إلا رسالة إلهية لا ريب فيها، فما بالنا إذن بتلك الذوات الإنسانية التي انبجست شلالات الضياء الهادر من بواطنها عميقة التعلق بالله، فهل من غرابة ألا ترى لنفسها من وجود مثلها في ذلك كما يكون في الحالات الصوفية، ولكن على أشد ما تكون وطأة وعنفا وجلاء ؟ فهل كان صوفيا عارفا كالنفري - قدس الله سره - يكذب على الله عندما يقول بأن الحق أوقفه في حضرته ، وقال له كذا وكذا ؟ وهل كان محي الدين بن عربي يفتري على الله عندما يقول بأن كتابه (فصوص الحكم) من وحي الله إليه رغم إدراكه بأنه ليس نبيا ولا رسولا ؟ وقل مثل ذلك على جميع الأنبياء والراءين الكبار في كل العصور، وفي جميع الأديان، بل إننا نجد ملحدا عريقا مثل (برتراند رسل) يقول قولته الشهيرة بأن قوة الإلحاح الباطني التي اجتاحته لكى يعارض المجزرة البشرية الأولى أوائل القرن العشرين بأنها رسالة إلهية لو كان ممن يسيغ تلك اللغة فيقول : (لو جاز لي أن أستعير اللغة الدينية لقلت : أنها كانت تكليفا ومهمة إلهية لا يسعني سوى الانصياع لها، والجهر بها).

ولا يخفى أن القول بقسرية التحولات النفسية التي تعتري الأنبياء إنما هي أمر معروف ولا يحتاج إلى برهان أكثر من تأمل حيواتهم قبل تجارب التلقي وما بعدها ، وعن هذا يقول أحد كبار الدارسين لأنماط التجارب الروحية : " لكن النبي لا يمرّ في بداية نبوته بتحول يبدو جليا أنه لم يتسبب فيه بنفسه . بل ينتشر في جميع الكتابات النبوية

التعبيرات التي تتحدّث عن دافع قوي وقاهر يتملك النبي ، ويتولى تحديد موقفه من أحداث عصره ، ويقيد أقواله ، ويجعل من كلماته وعاءً لمعان أعلى وأسمى من المعاني التي عادة ما تحملها ... إن السمة البارزة للنبي هي أنه يتحدث بسلطة الرب نفسه . ومن هنا ، فإن جميع الأنبياء بلا استثناء يستهلون خطاباتهم بكل ثقة بجمل مثل : " هذه كلمة الرب " ، أو " هذا قال الرب " . بل إن لديهم حتى الجرأة على التحدث باسم الله بصيغة المتكلم ، كما لو أن الرب نفسه هو الذي يتكلم ، كما جاء في سفر أشعياء : " اسمع لي يا يعقوب ، ويا إسرائيل الذي دعوته . أنا هو الأول والآخر " ، وما إلى ذلك . تختفي شخصية النبي في الخلفية فلا تبين ؛ ويشعر حينها بأنه الناطق بلسان الرب القدير [787])

أما الفارق الجوهري بين النبي محمد وبين سواه من الأرواح التقية التائقة للإصلاح، فهو دمجه العبقري بين العام والخاص، القومي والإنساني، الديني والدنيوي في وحدة شاملة جاءت على غرار ذاته الشاسعة التي استوفت جميع شرائط النجاح في كل محاولة لتأسيس رؤية جديدة . كانت تلك الرؤية بمثابة استجابة لأزمة وعي ذاتي وجمعي كان مسرحها الأول هو غار حراء، حيث وجدت الفكرة الخلاصية من يعبر عن أوفي تعبير، ومهما يكن من شروط نجاح الأفكار العظيمة، فلابد وأن يكون من بين أول شروطها وجود ذات تستطيع أن تترجم ما يهجس داخل الصدور كأفكار ومشاعر ضبابية ، ملتبسة، ولكنها تخرج رائقة ، صافية من خلال منظور ذات فردية خصيبة ، أناطت الهداية الإلهية إليها بتلك المهمة السامية : (إن هذه المواصفات اللازمة لنجاح كل إصلاح كانت ملموسة لدى نبيّ الإسلام بنحو خاص . فحدسه العميق استشعر المثال الجديد، وعبقريته تمكنت من إناطته بشكل ملموس : فتجرده وإصراره وشجاعته وعقله المثالي والمرن، أتاحت للإصلاح أن يتغلب على الممانعات وأن ينتصر . ففي اقتصاد الخلاص هذا، نعني الدين، يقدم لنا رؤية للعالم متأثرة بالتوحيد اليهودي المسيحي، لكنه عرف كيف يجعله توحيده هو، عندما كيَّفه مع حاجات بيئته الاجتماعية[788])

[787] انظر : تنويعات التجربة الدينية – وليام جيمس – ترجمة : إسلام سعد – علي رضا – مركز نهوض للدراسات والنشر- بيروت- لبنان- الطبعة الأولى – 2020م- ص 524، 525

[788]مدخل إلى علم اجتماع الإسلام- يوسف شلحت - ترجمة : خليل أحمد خليل- المؤسسة العربية للدراسات والنشر- بيروت- الطبعة الأولى - 2003م- ص 145

تم الكتاب الأول ، وسيعقبه ـ بعون الله ـ الكتاب الثاني عن النبوءات الأخروية في الأديان الكتابية ، والحمد لله أولا وآخرا.

المصادر والمراجع

1-الآراء الدينية والفلسفية لـ(فيلون السكندري) : إميل بريهييه - ترجمة د محمد يوسف موسى - د عبد الحليم النجار - وزارة المعارف العمومية - القاهرة - مصطفي البابي الحلبي- 1954م

2 - آداب الزفاف في السنة المطهرة :ناصر الدين الألباني - دار السلام - 2002م

3-إبليس : عباس العقاد ، منشورات المكتبة العصرية ، بيروت

4 - إبليس في التحليل النفسي: سيجموند فرويد ، ترجمة جورج طرابيشي ، دار الطليعة ، بيروت ، ط2 ،1992 م

5- أخطاء يجب ان تصحح في التاريخ : د. جمال عبد الهادي ، و د. وفاء محمد ، الطبعة الثالثة ،1994م

6- أديان العرب وخرافاتهم :الأب انستاس ماري الكرملي - المؤسسة العربية للدراسات والنشر - الطبعة الأولى 2005م

7- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفي- دار إحياء التراث العربي - بيروت

8- الأزمنة والأمكنة :أحمد بن محمد المرزوقي الأصفهاني - ضبط وتحقيق خليل النصور -دار الكتب العلمية بيروت لبنان الطبعة الأولى 1996م

9 -أساس التأويل: النعمان بن حيون التميمي - تحقيق وتقديم : عارف تامر - منشورات دار الثقافة – بيروت

10- أساطير الأولين القصص القرآني ومتوازياته التوراتية :فراس السواح - دار التكوين دمشق - الطبعة الثانية 2016م

11- أساطير اليهود أحداث وشخصيات العهد القديم من يوشع إلى استير :لويس جنزبيرج - ترجمة حسن حمدي دار الكتاب العربي دمشق - القاهرة الطبعة الأولى 2007م

12- إسحق أو النفس :القديس أمبروسيوس - تفسير رمزي لسفر نشيد الأناشيد كسفر الاتحاد بين السيد المسيح والنفس البشرية - تعريب د جرجس كامل يوسف - تعليق وتبويب ومراجعة القمص : تادرس يعقوب - كنيسة مار مرقص

13- أسد الغابة :ابن الأثير - دار الفكر - بيروت- 1989م

14- أسرار الآلهة والديانات : أ-س- ميغوليفسكي - ترجمة د حسان ميخائيل إسحق - دار علاء الدين - الطبعة الرابعة - 2009- دمشق - سوريا
15- أسطورة الغول في الشعر العربي قبل الإسلام - دراسة تحليلية للصورة والرمز: دراجي سعيد - رسالة ماجستير غير منشورة مطبوعة
16- - الإسلام دعوة عالمية : عباس محمود العقاد - الهيئة المصرية العامة للكتاب 1999م
17- أسماء الله وصفاته :الحافظ أبو بكر أحمد البيهقي - حققه وعلق عليه محمد محب الدين أبو زيد مكتبة التوعية الإسلامية - دار الشهداء القاهرة
18 -الإصابة في تمييز الصحابة: ابن حجر العسقلاني ، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلى محمد معوض دار الكتب العلمية - بيروت الطبعة: الأولى
19- الأصنام: هشام بن محمد بن السائب الكلبي أبو المنذر دار الكتب المصرية1995م
20 -أصول الدين : جمال الدين أحمد بن محمد الغزنوي الحنفي - تحقيق وتعليق عمر وفيق الداعوق - دار البشائر الإسلامية - الطبعة الأولى - 1998م - بيروت لبنان
21- الأصول الوثنية للمسحية : أندريه نايتون - ادغار ويند - كارل يونج - ترجمة : سميرة عزمي الزين - منشورات المعهد الدولي للدراسات الإنسانية
22- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: محمد الأمين الشنقيطي - دار الطباعة للفكر والنشر والتوزيع - بيروت لبنان 1995م
23- إعجاز القرآن :د حسين نصار - مكتبة مصر - الطبعة الأولى - 1999م
24- الله والكون والإنسان : فراس السواح - دار التكوين - الطبعة الأولى - 2016م - دمشق - سوريا
25- إمتاع الأسماع بما للنبي من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع- تقي الدين المقريزي - دار الكتب العلمية - بيروت الطبعة: الأولى، - 1999 م
26- أمية بن أبي الصلت حياته وشعره - دراسة وتحقيق : د بهجة عبد الغفور الحديثي- - هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث المجمع الثقافي - الطبعة الأولى 2009م
27- أيمان العرب في الجاهلية : أبو إسحاق النجيرمى - نشرة محب الدين الخطيب
28- البابا شنودة الثالث : أيوب الصديق ولماذا كانت تجربته ؟ - الطبعة الثانية - أكتوبر 2000-م

29- البحر المحيط في أصول الفقه : بدر الدين بن بهادر الزركشي - وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بالكويت - الطبعة الثانية - 1992م
30- البدء والتاريخ: ابن طاهر المقدسي- مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد مكرر ؟
31- بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث: تأليف الحارث بن محمد بن داهر التميمي البغدادي الخصيب المعروف بابن أبي أسامة- انتقاء أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان بن أبي بكر الهيثمي- تحقيق د حسين أحمد صالح الباكري - مركز خدمة السنة والسيرة النبوية - المدينة المنورة الطبعة الأولى
32 -بلوغ الأرب: محمود شكري الألوسي البغدادي ، دار الكتاب المصري ، ط. ثانية د.ت
33- بُنى المقدس عند العرب قبل الإسلام وبعده: يوسف شُلحُد ، ترجمة : خليل أحمد خليل- دار الطليعة للطباعة والنشر- بيروت- الطبعة الأولى – 1996م-
34 - التأثيرات الإسلامية في العبادة اليهودية : نفتالي فيدر ، ترجمة :د محمد سالم الجرح - مركز الدراسات الشرقية - جامعة القاهرة - 2001م
35- تاج العروس من جواهر القاموس : الزبيدي - دار الهداية
36- تاريخ الآباء ودياناتهم : رؤية نقدية في ضوء نظرية المصادر - د احمد محمود هريدي -مجلة كلية الآداب - جامعة القاهرة - مجلد (60) العدد (1) يناير 2000م
37- تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي: أبو العلا محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفورى الناشر: دار الكتب العلمية
38- تاريخ آداب العرب : مصطفي صادق الرافعي - دار الكتاب العربي
39- تاريخ الإسلام وَوَفيات المشاهير وَالأعلام:شمس الدين الذهبي - تحقيق بشار بشار عواد معروف- دار الغرب الإسلامي - الطبعة الأولى - 2003م
40 - تاريخ الديانة اليهودية : د . محمد خليفة حسن ، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع ، الطبعة الأولى،1998م
41- تاريخ الصلاة في الإسلام : د جواد علي - مكتبة ضياء – بغداد
42- - تاريخ قريش : د حسين مؤنس - الدار السعودية للنشر والتوزيع - الطبعة الأولى - 1988م - جدة)

43- تاريخ الملح في العالم : مارك كيرلانسكى – ترجمة: أحمد حسن مغربي -عالم المعرفة الكويت- 2005م
44- تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهلية و صدر الإسلام :إسرائيل ولفنسون - مطابع الاعتماد مصر - 1937م
45- تبيين الصحيح في تعيين الذبيح القاضي أبو بكر بن العربي ، تحقيق :بدر العمراني الطنجي - الطبعة الأولى 2007م- دار ابن حزم بيروت لبنان
46- ترجمان الأشواق :محي الدين بن عربي - اعتنى به : عبد الرحمن المصطاوي - دار المعرفة بيروت لبنان - الطبعة الأولى 2005م
47- تفسير البيضاوي المسمى - أنوار التنزيل وأسرار التأويل - تحقيق : محمد عبد الرحمن المرعشلي - دار إحياء التراث العربي بيروت - الطبعة الأولى 1818 ه
48- تفسير الجلالين - المحلي والسيوطي - دار الحديث القاهرة - الطبعة الأولى
49- التفسير الحديث :محمد عزت دروزة - دار إحياء الكتب العربية - القاهرة - 1383 ه القاهرة
50- التفسير الحديث للكتاب المقدس - العهد القديم - سفر أيوب - دار الثقافة : فرانسيس أندرسن - ترجمة إدوارد وديع عبد المسيح - الطبعة الأولى - 1990م
51- تفسير روح البيان : إسماعيل حقي بن مصطفي الإسطنبولي الحنفي الخلوتي- دار الفكر – بيروت
52- تفسير سفر التكوين :القمص تادرس يعقوب ملطي - الأنبا رويس – العباسية
53- تفسير ابن عربي - الجزء الثاني - دار إحياء التراث العربي - بيروت - الطبعة الأولى 2001م - إعداد سمير مصطفي رباب
54- التفسير القرآني للقرآن :عبد الكريم يونس الخطيب - دار الفكر العربي - القاهرة
55- تفسير القرآن العظيم - تفسير جزء عم : الأستاذ الإمام محمد عبدة - الجمعية الخيرية الإسلامية - الطبعة الثالثة - 1341 ه
56- تفسير القشيري :عبد الكريم بن هوازن القشيري- المسمى لطائف الإشارات - ج3- وضع حواشيه وعلق عليه : عبد اللطيف حسن عبد الرحمن - دار الكتب العلمية بيروت - الطبعة الثانية -2007م

57- تفسير الكتاب المقدس في أبعاده المتعددة - التفسير اللولبي - جرانت .أوزبورن - ترجمة : نزيه خاطر - دار منهل الحياة بالاشتراك مع مدرسة اللاهوت المعمدانية العربية- لبنان- الطبعة الأولى 2014م

58- تفسير الماتريدي (تأويلات أهل السنة) أبو منصور الماتريدي، تحقيق: د. مجدي باسلوم - دار الكتب العلمية - بيروت، لبنان ، الطبعة الأولى، 1426 هـ - 2005

59- تفسير الماوردي : النكت والعيون- أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي- تحقيق السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم ، دار الكتب العلمية - بيروت

60- تفسير النسفي (مدارك التنزيل وحقائق التأويل) : أبو البركات حافظ الدين النسفي - حققه وخرج أحاديثه: يوسف علي بديوي دار الكلم الطيب، بيروت الطبعة: الأولى، 1419 هـ - 1998 م

61- التلمود عرض شامل: آ- كوهن ، ترجمة : جاك مارتي - ترجمة د سليم طنوس - دار الخيال - الطبعة الأولي - 2005م

62 -التوراة كتاب مقدس أم جمع من الأساطير: ليو تاكسيل ، ترجمة: د حسان ميخائيل إسحق

63- التوراة اليهودية مكشوفة على حقيقتها : د إسرائيل فنكلشتاين - نيل اشر سبيلمان - ترجمة : سعد رستم ، صفحات للدراسات والنشر

64- تنوير الحلك في إمكان رؤية النبي جهارا والملك : جلال الدين السيوطي - مكتبة الحقيقة - استانبول - تركيا - 1986م

65- الثقافة العربية اسبق من ثقافة اليونان والعبريين : عباس محمود العقاد - دار القلم - مكتبة النهضة المصرية

66- الثمر المستطاب في فقه السنة والكتاب :ناصر الدين الألباني - غراس للنشر والتوزيع - الطبعة الأولى 1422

67- الجامعة ونشيد الأنشاد : إدوارد .كيرتس - الطبعة الأولى 2015م - مكتبة دار الكلمة للنشر والتوزيع - القاهرة - تحرير النسخة العربية - محمد حسن أحمد غنيم - سلسلة تفاسير تعليم النص

68- الجغرافيا الزراعية :د محمد خميس الزوكة - دار المعرفة الجامعية - الإسكندرية - 2000م
69- جمال القراء وكمال الإقراء :السخاوي - دراسة وتحقيق: عبد الحق عبد الدايم سيف القاضي- مؤسسة الكتب الثقافية - بيروت- الطبعة الأولى، 1999 م
70 -جماليات النظم القرآني في قصة المراودة في قصة يوسف : د عويض بن حمود العطوى الرياض 2010 م
71 -الحج الفريضة الخامسة : د. علي شريعتي - ترجمة عباس أمير زادة - الطبعة الثانية 2007م - دار الأمير للثقافة والعلوم - بيروت لبنان
72- حدود التأويل: د. عزت السيد أحمد، مجلة جامعة دمشق، العدد الأول، 2012م
73- حقيقة الحج : وحيد الدين خان - ترجمة ظفر الدين خان - دار الصحوة للنشر - الطبعة الأولي - 1987م
74- حقيقة العبادة عند محي الدين ابن عربي : د كرم أمين أبو كرم - دار الأمين القاهرة - الطبعة الأولى - 1997م
75- حكايات محرمة من التوراة : جوناثان كيرتش - ترجمة نذير جذماتي - نينوى للدراسات والنشر والتوزيع - سوريا - الطبعة الأولى 2005م
76- حياة محمد :محمد حسين هيكل - دار المعارف - الطبعة الرابعة عشرة
77- حياة المسيح :عباس العقاد - دار نهضة مصر -2004م
78- الحياة اليهودية بحسب التلمود القمص روفائيل البراموسى ط الأولى دار نوبار للطباعة
79- حياة يوسف ف-ب- ماير- ترجمة القمص : مرقص داود- مكتبة المحبة - الطبعة الأولى -1937م
80- الحيوان :الجاحظ - دار الكتب العلمية - بيروت الطبعة: الثانية، 1424 هـ
81- خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر- محب الدين الحموي - دار صادر – بيروت
82- خمائل الطيب تفسير سفر نشيد الأناشيد آية ، آية :متى بهنام - كنيسة الأخوة
83- داود وسليمان في العهد القديم والقرآن الكريم - دراسة لغوية تاريخية مقارنة - د أحمد عيسى الأحمد - 1990م

84- دراسة في السيرة النبوية المحمدية : علي الدشتي - 23 عاما - - ترجمة ثائر ديب - الطبعة الأولى 2004م- بترا للنشر والتوزيع سوريا

85- الدرر في اختصار المغازي والسير :ابن عبد البر- تحقيق شوقي ضيف دار المعارف - الطبعة الثانية

86- الدرر اللوامع في شرح جمع الجوامع :شهاب الدين أحمد بن إسماعيل الكوراني - تحقيق: سعيد بن غالب كامل المجيدي - الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة - المملكة العربية السعودية - ٢٠٠٨ م -

87- الدر المصون في علوم الكتاب المكنون : أبو العباس، شهاب الدين، أحمد بن يوسف بن عبد الدائم المعروف بالسمين الحلبي- تحقيق الدكتور أحمد محمد الخراط دار القلم، دمشق

88- دفاع عن القرآن ضد منتقديه : د عبد الرحمن بدوى- ترجمة : كمال جاد الله - الدار العالمية للكتب والنشر

89 -الدين المصري: خزعل الماجدي دار الشروع للنشر والتوزيع - الطبعة العربية الأولى 1999 م

90- ديانة مصر القديمة :أدولف إرمان - ترجمة د عبد المنعم أبو بكر - د محمد أنور شكري - الهيئة المصرية العامة للكتاب 1997م

91- ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر :ابن خلدون - تحقيق خليل شحادة - دار الفكر العربي - بيروت لينان - الطبعة الثانية - 1988م

92- ذرية إبراهيم - مقدمة عن اليهودية للمسلمين :روبن فايرستون وآخرون - ترجمة :عبد الغني بن إبراهيم ، معهد هاربت وروبرت للتفاهم الدولي بين الأديان

93- الرأي الصحيح في من هو الذبيح : عبدالحميد الفراهي - دار القلم دمشق - الطبعة الثالثة - 1418ه

94- ربيع الأبرار ونصوص الأخيار: جار الله الزمخشري مؤسسة الأعلمي ، بيروت الطبعة: الأولى، 1412 هـ

95- الرحيق المختوم :صفي الدين المبارك فوري - دار المستقبل - الطبعة الأولى - 2005م

96- رسالة الغفران : أبوالعلاء المعري ، تحقيق : د عائشة عبد الرحمن - دار المعارف - الطبعة التاسعة
97- رسالة في حقيقة التأويل :الشيخ عبد الرحمن بن يحيي المعلمي - تحقيق جرير العربي الجزائري - دار أطلس الخضراء للنشر والتوزيع الرياض دمشق - الطبعة الأولى -2005م
98- الروض الأنف في شرح السيرة النبوية :السهيلي ، دار إحياء التراث العربي، بيروت الطبعة: الأولى، 1412 هـ
99- روح المعاني : السيد محمد شكري الألوسي ج التاسع والعشرون ، ادارة الطباعة المنيرية دار إحياء التراث العربي بيروت لبنان
100- زاد المسير في علم التفسير: ابي الفرج ابن الجوزي دار الكتاب العربي - بيروت الطبعة: الأولى - 1422 هـ
101- الزهد في العالم الإغريقي الروماني :ريتشارد فين - ترجمة على للو وناجح شاهين - مكتبة مؤمن قريش - الطبعة الأولى 2012م - هيئة أبو ظبى للثقافة والتراث -
102- قصة الذبيح بين الروايات الكتابية والإسلامية : الخضر الشايب - مؤسسة الرسالة - الطبعة الأولى- 2001م
103- سارة وهاجر : شوقي عبد الحكيم - مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة – القاهرة
104- سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة : الألباني – دار المعارف، الرياض - المملكة العربية السعودية الطبعة: الأولى، 1992 م
105- سيرة ابن إسحاق (كتاب السير والمغازي) : محمد بن إسحاق بن يسار المطلبي تحقيق: سهيل زكار - دار الفكر - بيروت - الطبعة: الأولى 1978م-
106- سيرة حياتي :د . عبد الرحمن بدوي - المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت لبنان الطبعة الأولى - 2000م
107- السيرة النبوية : ابن هشام- دار الحديث القاهرة - الطبعة الثانية - 1998م
108- السِّيرةُ النّبوية - عرضُ وقائع وَتحليل أحدَاث- محمد علي الصَّلاَّبي- دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان الطبعة: السابعة، 2008 م
109- السيرة النبوية والدعوة في العهد المكي أحمد أحمد غلوش ، مؤسسة الرسالة ، الطبعة الأولى

110- شبهات وهمية حول الكتاب المقدس : القس منيس عبد النور - مطبوعة دون تاريخ أو عنوان ويجدها القارئ على الشبكة الدولية
111- شرح السنة : البغوي - تحقيق : شعيب الأرناؤوط - زهير الشاويش - المكتب الإسلامي - دمشق ،بيروت - الطبعة الثانية - 1983م
112- صحيح القصص النبوي : د عمر سليمان الأشقر - دار النفائس الكويت - الطبعة السابعة 2007 م
- الطبقات الكبرى - محمد بن سعد - تحقيق إحسان عباس - دار صادر بيروت - الطبعة الأولى - 1969م
113- الظاهرة القرآنية : مالك بن نبي - ترجمة : عبد الصبور شاهين - مكتبة دار العروبة القاهرة - الطبعة الأولى - 1958م
114- الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها: ابن فارس - نشرة بيضون - الطبعة الأولى -1997م
115- صحيح السيرة النبوية:محمد ناصر الدين الألباني- المكتبة الإسلامية - عمان - الأردن الطبعة: الأولى
116- صفوة التفاسير : محمد علي الصابوني ، دار الصابوني للطباعة والنشر والتوزيع - القاهرة الطبعة: الأولى - 1997 م
117- الصلاة في الشرائع القديمة والرسالات السماوية :د هدى درويش - عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية - الطبعة الأولى - 2006م
118- الصوم في اليهودية :د محمد الهواري - دار الهاني للطباعة والنشر - القاهرة - الطبعة الأولى - 1988م
119- الصوم والأضحية بين الإسلام والأديان السابقة :المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - القاهرة 1963 م
120- العادات والمناسبات والطقوس لدى اليهود :غازي السعدي- دار الجليل - عمان - الطبعة الأولى - 1994م
121- عالم الجن والشياطين :د عمر سليمان الأشقر - مكتبة الفلاح - الكويت - الطبعة الرابعة - 1984م

122- عبادات الأمم المسلمة السابقة في القرآن والأحاديث :محمد حماد الطل - المعهد الملكي للدراسات الدينية - 2006م - الأردن
123- عجائب وغرائب الجن كما يصورها القرآن والسنة :بدر الدين الشبلي - مكتبة القرآن- القاهرة - تحقيق إبراهيم الجمل
124- العرب تاريخ موجز :فيليب حتى - دار العلم للملايين - بيروت -الطبعة السادسة 1991م
125- عصور في فوضى :إيمانويل فليكوفسكي ، سلسلة تهويد التاريخ، السفر الثاني: عوالم تتصادم (المجلد الثاني) ترجمة احمد عمر شاهين - رفعت السيد علي -فاروق فريد - محمد جلال عباس - العروبة للدراسات والنشر- الطبعة الأولى 2002م
126- العظمة : ابي الشيخ الأصبهاني،دراسة وتحقيق :رضاء الله المبار كفوري - دار العاصمة الرياض
127- عقائد اليهود من خلال الحوار مع النبي صلى الله عليه وسلم :عدنان أحمد العبد البرديني - رسالة ماجستير غير منشورة -2010م- الجامعة الإسلامية بغزة
128- العلاقة بين الإنس والجن من منظار القرآن والسنة : د إبراهيم كمال ادهم - بيروت المحروسة للطباعة والنشر - 1993م
129- علم الفلك - تاريخه عند العرب في القرون الوسطى : كارلو نلينو - أوراق شرقية - بيروت- الطبعة الثانية 1993م-
130- عون المعبود شرح سنن أبي داود ومعه حاشية ابن القيم تهذيب سنن أبي داود وإيضاح علله ومشكلاته : محمد أشرف شرف الحق الصديقي دار الكتب العلمية الطبعة الثانية 1415ه
131- عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير:محمد بن أحمد، ابن سيد الناس، اليعمري الربعي- دار القلم - بيروت - الطبعة الأولى -1993م
132- فتحُ البيان في مقاصد القرآن: أبو الطيب محمد صديق خان بن حسن بن علي ابن لطف الله الحسيني البخاري القِنَّوجي- المَكتبة العصريَّة للطبَاعة والنّشْر، صَيدَا - بَيروت- 1992 م

133- فتح المنان في جمع كلام شيخ الإسلام ابن تيمية عن الجان : أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان - المجلد الأول مكتبة التوحيد - الطبعة الأولى 1999م - المنامة البحرين
134- الفصل في الملل والأهواء والنحل : ابن حزم الأندلسي- دار الجيل بيروت لبنان - تحقيق محمد إبراهيم نصر و عبد الرحمن عميرة الطبعة الثانية 1996م
135- فصل المقال :ابن رشد القرطبي - دار المشرق بيروت لبنان - قدم له وعلق عليه د ألبير نصري نادر - الطبعة الثانية
136- فصوص الحكم :الشيخ محي الدين بن عربي - شرح عبد الرازق القاشاني - مكتبة الفجر الجديد 2016م
137- الفروق اللغوية :أبو هلال الحسن العسكري - تحقيق محمد إبراهيم سليم - دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة - مصر
138- فلسفة التأويل :دراسة في تأويل القرآن عند محي الدين بن عربي - د نصر حامد أبو زيد - دار التنوير للطباعة والنشر - بيروت لبنان - الطبعة الأولى - 1983م -)
139- الفلكلور في العهد القديم - الجزء الثاني- الهيئة العامة لقصور الثقافة
140- قصة العادات والتقاليد وأصل الأشياء : تشارلز باناتي - ترجمة مروان مسلوب- دار الخيال
141- قصة المسيح الدجال ونزول عيسى عليه السلام : محمد ناصر الدين الألباني - المكتبة الإسلامية - عمان - الأردن - الطبعة الأولى - 1421 ه
141- القصص الديني : تفسير راعوث والمراثي واستير ودانيال ويهوديت وباروك ورسالة إرميا - الخوري بولس الفغالي الطبعة الأولي 1997م منشورات المكتبة البولسية - بيروت لبنان
142- قصص الغيب في صحيح الحديث النبوي : د . عمر سليمان الأشقر- دار النفائس للنشر والتوزيع - الطبعة الأولى - 2007م
143- القرآن والحديث مقارنة أسلوبية : د إبراهيم عوض - مكتبة زهراء الشرق - القاهرة - 2000م -
144- القمر في الشعر الجاهلي - رسالة ماجستير غير منشورة : فؤاد يوسف إسماعيل أشتيه - جامعة النجاح الوطنية - نابلس - فلسطين - 2010 م

145- كتاب الحكمة العربية :د محمد الشيخ - الشبكة العربية للأبحاث والنشر- الطبعة الأولى - بيروت - 2008م
146- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل :جار الله الزمخشري - دار الكتاب العربي - بيروت الطبعة: الثالثة - 1407 هـ
147- كشف الحجاب والران عن وجه أسئلة الجان :عبد الوهاب الشعراني - الطبعة الأولى نشره : محمد عبد الله عبد الرزاق - القاهرة
148- كشف اللثام شرح عمدة الأحكام:شمس الدين، أبو العون محمد بن أحمد بن سالم السفاريني الحنبلي تحقيق : نور الدين طالب- وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - الكويت، دار النوادر - سوريا - الطبعة: الأولى، - 2007 م
149- ما شاع ولم يثبت في السيرة النبوية:د محمد بن عبد الله العوشن- دَارُ طَيبة
150- متن التلمود - المشنا - القسم الأول - الزراعيم - ترجمة : د مصطفي عبد المعبود سيد منصور - مكتبة النافذة - الطبعة الأولى 2008م
151- محاسن التأويل محمد جمال الدين الحلاق القاسمي- تحقيق : محمد باسل عيون السود - دار الكتب العلمية - بيروت الطبعة: الأولى - 1418 هـ
152- محاضرات في ديانة الساميين :روبرتسن سميث، ترجمة د عبد الوهاب علوب - المجلس الأعلى للثقافة - القاهرة - 1997م
153- محاضرات في فلسفة الدين - الديانة الروحية :فريدريك هيجل- ترجمة د مجاهد عبد المنعم مجاهد - دار الكلمة - القاهرة 2003
154- محاولات لاغتيال النبي صلى الله عليه وسلم :السيد مراد سلامة - دار الإيمان - الإسكندرية - 2004م
155- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز:ابن عطية الأندلسي - تحقيق : عبد السلام عبد الشافي محمد - دار الكتب العلمية - بيروت الطبعة: الأولى - 1422 ه
156- محمد في مكة : مونتجومري وات، ترجمة د عبد الرحمن عبد الله الشيخ - الهيئة المصرية العامة للكتاب 1994م
157- المختار من رسالة الغفران - إيجاز وشرح : كامل كيلاني - مهرجان القراءة للجميع - القاهرة - 2000م

158- مختصر سيرة الرسول :الشيخ محمد بن عبد الوهاب - وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد - الرياض - 1418ه
159- مختصر الشمائل المحمدية - محمد بن عيسى الترمذي - المكتبة الإسلامية - عمان الأردن - حققه واختصره : محمد ناصر الدين الألباني
160- مُخْتَصَر صَحِيحُ الإِمَامِ البُخَارِي :ناصر الدين الألباني - مكتَبة المَعارف للنَّشْر والتوزيع، الرياض - الطبعة: الأولى - 2002 م
161- مختصر صحيح مسلم :الحافظ المنذري - تحقيق الشيخ ناصر الدين الألباني - المكتب الإسلامي - بيروت - لبنان - الطبعة السادسة -1987م
162- مختصر غاية السول في خصائص الرسول :ابن الملقن - اختصره : د احمد بن عثمان المزيد - الطبعة الأولى - 2017م - مدار الوطن للنشر – الرياض
163- مدخل إلى التلمود :أدين شتاينسالتز- ترجمة د فينيتا الشيخ - دار الفرقد - الطبعة الأولى - 2006م
164- مدخل إلى دراسة التلمود :د ليلى أبو المجد -الدار الثقافية للنشر - الطبعة الأولى - 2010م
165- مدخل إلى القرآن الكريم - الجزء الأول :د محمد عابد الجابري - مركز دراسات الوحدة العربية - الطبعة الأولى -2006 م
166- مدخل لدراسة الفولكلور والأساطير العربية : شوقي عبد الحكيم- مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة - القاهرة 2015م
167- مدخل إلى علم اجتماع الإسلام:يوسف شلحت - ترجمة : خليل أحمد خليل- المؤسسة العربية للدراسات والنشر- بيروت- الطبعة الأولى - 2003م
168- مرويات محمد بن كعب القرظي في تاريخ الطبري في عصر النبوة :د عبد الباسط بن جابر مدخلي - مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة والدراسات الإسلامية - العدد (71) الجزء الثاني
169- المستطرف الجديد :هادي العلوي - مركز الأبحاث والدراسات الاشتراكية في العالم العربي - طبعة ثانية
170- مسند احمد :تحقيق أحمد شاكر - دار الحديث القاهرة - الطبعة الأولى - 1995م

171- مسند أحمد :تحقيق شعيب الأرناؤوط - عادل مرشد وآخرون - مؤسسة الرسالة - الطبعة الأولى
172- مسند الدارمي :تحقيق: حسين سليم أسد الداراني- دار المغني للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية- الطبعة: الأولى، - 2000 م
173- المصارع :الشيخ محمود المصري مكتبة الصفا للنشر والتوزيع - الطبعة الأولى - 2010م
174- مصر منذ اقدم العصور إلى العصر الفارسي :جيمس هنرى برستيد ترجمة : حسن كمال - الهيئة المصرية العامة للكتاب 1999 م
175- معارج التفكر ودقائق التدبر تفسير تدبري للقرآن الكريم بحسب ترتيب النزول :عبد الرحمن حسن الميداني دار القلم دمشق الطبعة الأولى 2000م
176- معجم التعريفات :الجرجاني - تحقيق ودراسة محمد صديق المنشاوي دار الفضيلة - القاهرة
177- معجم الحضارة المصرية القديمة :مجموعة مؤلفين ، ترجمة : أمين سلامة الهيئة المصرية العامة للكتاب 2001
178- المعجم الفلسفي : د- جميل صليبا - ج1- دار الكتاب اللبناني 1982م
179- معجم المصطلحات التلمودية :الحاخام عادين شتينزلتس - ترجمة د مصطفي عبد المعبود سيد - مركز الدراسات الشرقية بجامعة القاهرة - 2006م
180- المغازي :الواقدي- تحقيق: مارسدن جونس - دار الأعلمي - بيروت الطبعة: الثالثة- م1989
181- المغني على مختصر الخرقي : ابن قدامة المقدسي - دار الكتب العلمية – بيروت
182- مفهوم النص دراسة في علوم القرآن : د نصر حامد أبو زيد - الهيئة المصرية العامة للكتاب 1993م
183- مقدمة إلى العلوم الكونية الإسلامية : سيد حسين نصر - ترجمة سيف الدين القصير - الطبعة الأولى 1991م - دار الجوار للنشر والتوزيع - اللاذقية – سوريا
184- ملحمة جلجامش : أوديسة العراق الخالدة - ترجمة طه باقر –
185- المواريث في اليهودية والإسلام دراسة مقارنة : د عبد الرازق احمد قنديل - مركز الدراسات الشرقية - جامعة القاهرة

186- موجز دائرة المعارف الإسلامية ج4 الطبعة الأولى 1998م - مركز الشارقة للإبداع الفكري ص 1203- 1204 - أ جي بريل - إعداد وتحرير نخبة من العلماء بإشراف : إبراهيم زكي خورشيد - أحمد الشنتناوي - د عبد الحميد يونس
187- موسوعة تاريخ الأديان - الكتاب الثاني - مصر - سورية - بلاد الرافدين - العرب قبل الإسلام - تحرير فراس السواح وترجمة ديميتري أفينيريوس وآخرون - دار التكوين الطبعة الرابعة 2017م ، دمشق ، سوريا .
188- الموسوعة الكنسية لتفسير العهد القديم - الجزء الأول - سفر التكوين - إعداد كهنة وخدام كنيسة مارمرقص بمصر الجديدة - 2006م
189- موسوعة مصر القديمة: سليم حسن المجلد الثاني - الهيئة المصرية العامة للكتاب 2000 م
190- المنتخب من اللزوميات - نقد الدولة والدين والناس - نصوص مختارة من اللزوميات اختارها وقدم لها : هادي العلوي - مركز الأبحاث والدراسات الاشتراكية في العالم العربي - الطبعة الأولى 1990م - نيقوسيا/ دمشق
191- المنتظم في تاريخ الأمم والملوك: أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي- تحقيق محمد عبد القادر عطا، مصطفي عبد القادر عطا- دار الكتب العلمية، بيروت الطبعة: الأولى، - 1992 م
192- الملل والنحل : الشهرستاني - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان - الطبعة الثانية - 1992م
193- موت الألفاظ في العربية: عبد الرزاق بن فراج الصاعدي- الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة- السنة التاسعة والعشرون. العدد السابع بعد المائة. (1419/1418ه
194- موقف السيرة النبوية من التوراة و اليهود : د نبيه القاسم - مؤسسة الأسوار عكا - القدس - الطبعة الأولى- 2003م
195- ميزان الاعتدال في نقد الرجال : الذهبي - تحقيق محمد علي البجاوي - ج3- دار المعرفة بيروت- لبنان
196- لودفيج فيورباخ - أصل الدين - ترجمة : د أحمد عبد الحليم عطية الطبعة الأولى - 1991م المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع - بيروت – لبنان

197- نبوة محمد التاريخ والصناعة مدخل لقراءة نقدية : محمد محمود - مركز الدراسات النقدية للأديان - لندن - الطبعة الثانية 2013م
198- نخب الأفكار في تنقيح مباني الأخبار في شرح معاني الآثار: بدر الدين العيني - تحقيق ياسر بن إبراهيم- وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - قطر الطبعة: الأولى، 2008 م
199- نشيد الأناشيد - أجمل نشيد في الكون - لبنان -1994م- كلية اللاهوت الحبرية - نقله وصاغ شرحه : يوحنا قمير وراجعة عبريا وشرحه :لويس خليفة
200- نصب المجانيق لنسف قصة الغرانيق: ناصر الدين الألباني- المكتب الإسلامي - الطبعة الثالثة - 1996م
201- نصوص الشرق الأدنى القديمة المتعلقة بالعهد القديم- الجزء الأول : جيمس بريتشارد ترجمة : د عبد الحميد زايد - وزارة الثقافة هيئة الأثار المصرية
202- نزول المسيح إلى الجحيم : د جورج حبيب ببأوي - موقع الدراسات القبطية والأرثوذكسية - 2009م
203- نفي اللاهوت - فيزياء الميتافيزيقا : ميشيل أونفري- ترجمة: مبارك العروسي -دار الجمل - الطبعة الأولى - بغداد - 2012م
204- اليهود في القرآن الكريم : محمد عزت دروزة - المكتب الإسلامي
205- يوسف في القرآن الكريم والتوراة : د زاهية راغب الدجاني - دار التقريب - الطبعة الأولى 1994م
206- تنويعات التجربة الدينية – وليام جيمس – ترجمة : إسلام سعد – علي رضا – مركز نهوض للدراسات والنشر- بيروت- لبنان- الطبعة الأولى – 2020م

للمؤلف تحت الطبع

1- الأخرويات اليهودية وفي كتب ما بين العهدين
2- الأخرويات المسيحية
3- الأخرويات الإسلامية
4- الطب النبوي ودراسات أخرى
5- بوح المآذن (رواية)